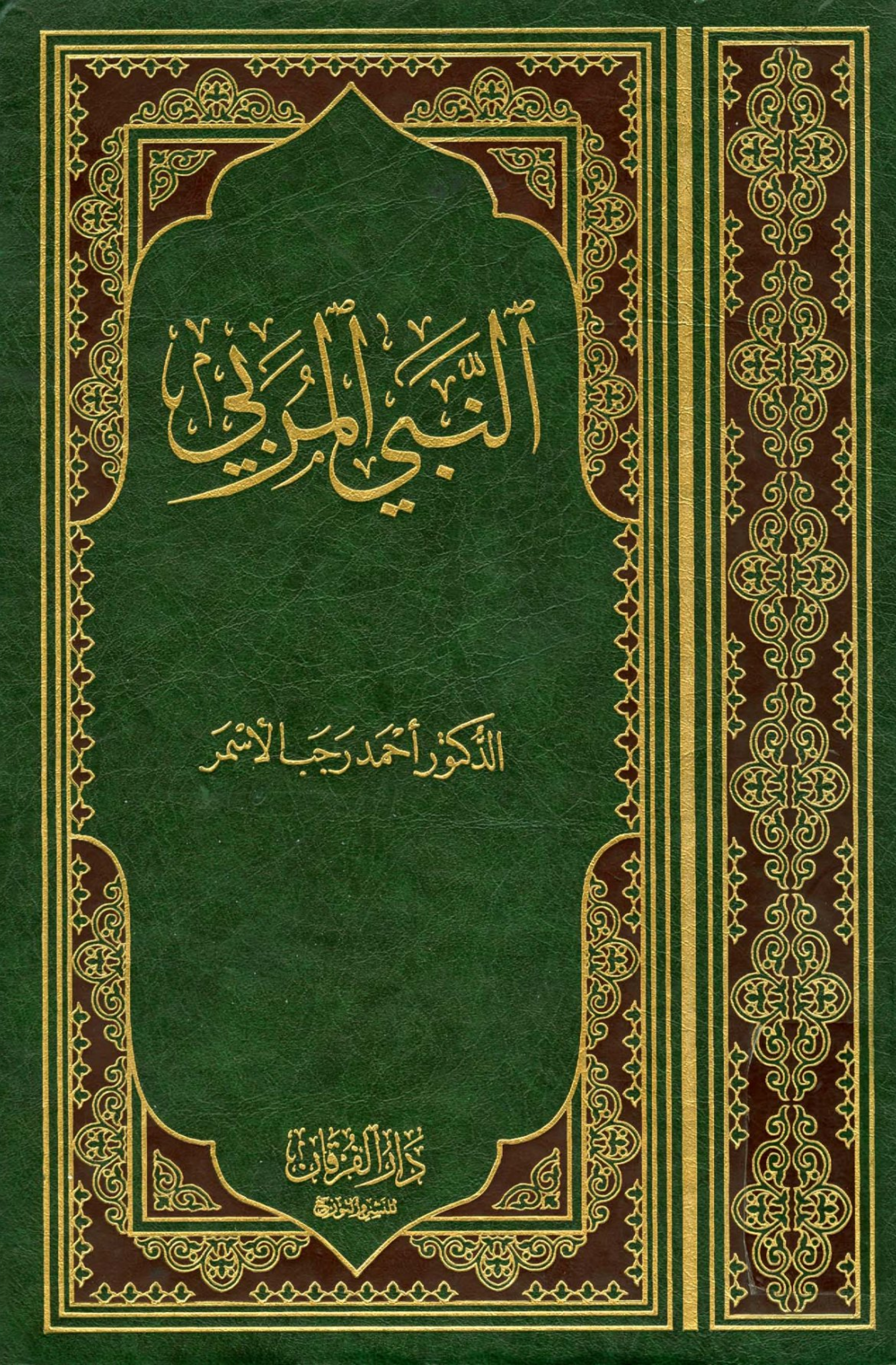

النبي المربي
الدكتور أحمد رجب الأسمر
دار الفرقان
للنشر والتوزيع



الدكتور أحمد رجب الأسمر




النبي المربي

الطبعة الأولى

١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م



دار الفرقان للنشر والتوزيع

الإدارة والمكتبة :

العبدلي - عمارة جوهرة القدس

هاتف: ٤٦٤٠٩٣٧ - ٤٦٤٥٩٣٧ - فاكس ٤٦٢٨٣٦٢

ص.ب ٩٢١٥٢٦ - عمان - الأردن

إربد - مقابل جامعة اليرموك - تلفاكس ٧٢٧٦٥٠٦

الإهداء

إلى أولئك النفر من أجيالنا الصاعدة، السائرين على نهج الجدود.

المؤمنين بالإسلام ديناً هادياً إلى شرف الغاية... غاية هذا الوجود.

الموقنين بأهلية أمتهم للنهوض، برغم الحدود ورغم السدود ورغم القيود.

الواثقين بنصر الله والعاملين ـ بعلم ووعي وفهم ـ لبزوغ فجره الموعود.

إليهم أهدي هذا الكتاب.

﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ .

[آل عمران ١٦٤] .

المقدمة

الحمد لله الذي أنعم علينا بالإيمان، وأعزّنا بالإسلام، حتى جعل منا خير أمة أخرجت للناس. والصلاة والسلام على صفوة خلقه وخيرة عباده وخاتم أنبيائه، الذي أرسله ـ سبحانه ـ رحمة للعالمين وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن سار على نهجه إلى يوم الدين.

وبعد:

-١-

فلا يجهل إنسان أن التربية هي السبيل الأمثل لإعداد أجيال أي أمة من الأمم، إعداداً شمولياً واعياً متكاملاً ـ روحياً وجسدياً وعقلياً ونفسياً ـ لقيادة حركة الحياة بموضوعية وقدرة وكفاية بما يعلي إنسانيّة الإنسان ويرتقي بمكانة الأوطان.

وغير خاف أن الأمم التي تنشد مستقبلاً أفضل لأجيالها، تراجع منظومتها التربوية كاملة بين الفينة والأخرى، لاكتشاف مكامن الخلل والإخفاق، والعمل على تسديدها، وأماكن التميّز والإبداع، والعمل على تعزيزها، ساعية إلى تحقيق قصب السبق لأجيالها في ميدان المعرفة المتقدمة وتطبيقاتها المتنوّعة، للحفاظ على ديمومة إقلاعها الحضاري.

وغدا واضحاً ذلك التركيز على المقومات المعنوية للأجيال الصاعدة ـ تزكية وحفزا وتدعيماً ـ لكونها المشكّلة للنسيج الفكري والنفسي والعاطفي والانفعالي للإنسان، والحاكمة لسلوكه في الحياة ودوافعه فيها، والحاملة لبذور الاتجاه ومقومات تغيير الاتجاه.

وكي تقلع أمتنا مجدداً، لا بدّ وأن تعيد النظر في تربية أجيالها، وتركز على مقوماتها المعنوية التي هي أساس الإبداع والتميز والتفوق، منطلقة مما يمنحه لها

الإسلام من رسوخ معنوي يتحدّى التحديات، متجاوزة منطقة الحظر التي فرضها الأقوياء عليها، لتمزيق هويتها وطمس ذاتيتها.

إن أي انطلاق بنائي للمعنويات ينبع من فهم كنه حقيقة الأمة، ومقومات وجودها. وأمتنا أمة عربية إسلامية شئنا أم أبينا.

أمة عربية: احتضنت العروبة جذورها وأصولها ومنابتها وأكسبتها خصائصها المختلفة.

أمة إسلامية: بثّ فيها الإسلام روحها، وارتقى بقدراتها وطاقاتها وفعالياتها، وشكّل معتقداتها وتصوراتها فأكسبها هويتها الذاتية، وبنيتها الحضارية، وشخصيتها التاريخية.

لذلك فقد ضلّ السبيل، كل من يدعو إلى عروبة بدون إسلام، أو إلى إسلام بمعزل عن العرب، لأنه إنما يدعو إلى فصل الروح عن الجسد، والنتيجة الحتمية لذلك: موت وفناء وتلاش واضمحلال، وهذا ما نشهده اليوم.

لقد وعى هذه الحقيقة أمير المؤمنين عمر ـ رضي الله عنه ـ فقال منبّهاً الأجيال: نحن قوم كنّا أذلاء فأعزّنا الله بالإسلام، ومهما طلبنا العزّة في غيره أذلّنا الله.

كم مرت بهذه الأمة من محن ونوازل وكوارث، وليال سود وسنوات عجاف، ولكنها تجاوزتها كلها، لأنها وإن أصيبت في التزامها بالإسلام لم تصب قط في إيمانها به وولائها له وانتمائها إليه، فباءت كل محاولات الهدم والتقويض والتشريق والتغريب بالفشل، وكسدت كل بضاعة أيدلوجية مستوردة.

إن الإسلام قدر هذه الأمة، قدّره القوي العزيز العليم، وسيبوء بفشل تلو فشل كل من يحاول كفّ هذا القدر ـ جهالة أو عمالة أو همالة ـ وهو قدر ليس عفويا ولا عشوائيا، وإنما قدر محكم كل الأحكام، تقوم عليه وحدة المعتقدات والمفاهيم والغايات، وهو أساس وحدة الأمة. وإذا استلهمنا مفاهيمه انحلّت تلك المعادلات المعقدة التي استعصى علينا حلّها والتي تنظم العلاقة بين الدين والدولة، والأمن والحرية، والمثالية والواقعية، والأصالة والمعاصرة، والخصوصية والعالمية، والذاتية والعمومية، وبين القمة والقاعدة والحاكم والمحكوم، والفرد والجماعة،

إلى غير ذلك، بعيداً عن العشى المنهجي والالتواء الفكري، والعنف والتوتر والصداميّة.

-٢-

إن النقد الذاتي أهم أسس التقويم، ولكنّ أمتنا ابتليت بمن يتبنّى عوج الفهم، فيحرّم النقد، ويجرّم التقويم، ويطارد الرأي الآخر، فأنّى لنا أن نكتشف مكامن الإخفاق ونتلافاها؟

لقد قيل على ألسنة كثير من العلماء والحكماء: «ليس العيب أن نخطئ، ولكن العيب أن نستمرّ في الخطأ» ومن من بني البشر لا يخطئ؟ ومن الأخطاء التي استشرت في هذه الأمة عبر القرنين الماضيين. ويعرفها القاصي والدّاني - وإن والينا إنكارها - أننا نسير عكس الاتجاه الصحيح لمسار أي أمّة تنشد عزتها وكرامتها وتحقيق مكانة لائقة بها بين أمم الأرض:

- تعمل أمم الأرض على تجميع قواها بالوحدة أو التحالفات والتكتلات لتحكم قبضتها على مقدرات العالم، في حين تمعن أمتنا الواحدة في الفرقة والتمزق والتنابذ والعداء، مما يهدر قدراتها ويزيد من تردّيها.

- وتوسع أمم الدنيا هوامش الحرّيّة: لشعوبها، لتستقطب مشاركاتها في البناء والإبداع.

- وتصرّ أمتنا على تكميم الأفواه، ووأد الحريّات، ومصادرة الآراء، والطواف حول الذات.

- وتتبنّى الأمم المتقدمة المصارحة والمكاشفة والنقد والاستفادة من كل رأي وفكر.

- وتمعن أمتنا في حجب الحقائق، وركوب موجات التبرير والتضليل وخداع الذات:

هزائمنا انتصارات. . . . . ونكباتنا مكتسبات.

دكتاتوريتنا ديمقراطية شعبية. . . وعصبياتنا القبلية قومية.

انحرافاتنا تحضّر. . . وموبقاتنا تطور. . . وتبعيتنا تحرر.

- وتبذل الأمم كل مرتخص وغال لاستقطاب التخصصات النادرة ورؤوس الأموال الوافرة، ونبدّد نحن مخزوننا العقلي بتهجير التخصصات، ومخزوننا المادي بطرد رؤوس الأموال والثروات.

ورحم الله القائل: «ما هكذا تورد الإبل يا سعد».

لقد ودعنا بالأمس قرناً من الزمان ونعيش اليوم قرناً آخر نرقب أحداثه من مقاعد المتفرجين، فما كنا فاعلين فيما رحل وكذلك نحن فيما حلّ، وما زلنا صرعى الأحلام والأوهام.. نحلم أن تتبدّل الأحوال تلقائياً بمرور الأيام وتوالي الأعوام، ونتوهم إصلاحاً إذا زال نظام وحلّ نظام، والزمن يتدفق علينا بالوتيرة ذاتها، وكأننا رواسب حضارات ألقى بها اليمّ إلى حفافي الوجود.

-٣-

مشكلاتنا عديدة ومعقدة ومتنوعة، وإنكارنا لها لا يلغيها، والتخلص منها لا يمكن أن يتحقق لنا بتجاهلها والهروب منها، ولا بتبريرها والاستسلام لها، ولا بالبكاء على الأطلال ودفن الرؤوس في الرمال، وإنّما بالتصدّي لها بجرأة وصراحة وشجاعة، ومواجهتها بأمانة ووعي وحكمة، حاشدين لها كل قوى العقل والنفس، والفكر والحسّ بتكاتف بين الراعي والرعية، على أساس من مراجعة علمية موضوعية واعية، تجيد النقد والفرز والتقويم، كما تجيد التنظيم والاستشراف والبرمجة والتخطيط، متجاوزة الحتميات الظاهرة والظروف القاهرة.

لقد عشنا هذه المشكلات وتعايشنا معها، ولكن ماذا عن أجيالنا التي لن تخفى عنها الحقائق في ظل العولمة والتفجر العلمي، وتعاظم المعلوماتية؟ أليس من حقهم علينا أن نجنّبهم مكامن الإخفاق والتردّي والسقوط التي وقعنا فيها؟ الأمر الذي يحتّم علينا التخطيط لإنقاذهم منذ اليوم، ولن يتسنى لنا ذلك إلا بتحصينهم حضارياً، وتربيتهم تربية موضوعية جادّة متفوقة، فالتربية هي البوتقة التي تنصهر فيها الأجيال، وتخرج منها بفكر صاعد، يقود حركة الحياة بكفاية وقدرة وموضوعية.

وإذا كان لنا أن نحذو حذو أي أمة جادة في تقويم أمورنا، فيجب أن نستوعب ابتداء تجاربنا كأمة، وألا نردد مع الانهزاميين: «إن الزمان غير الزمان» فتطور الزمان لم ينل يوما من جوهر الإنسان.

في مطلع القرن السابع الميلادي كانت أمتنا كما هي اليوم، تدور في فلك أكبر قوتين عالميتين، حتى لم تعد لها مكانة تذكر على خارطة الوجود، وقد انتقصت أطرافها من هذه القوة أو تلك. كانت أشبه ما تكون بها اليوم: جهل وفرقة، وتمزق وتشرذم، وتيه وضياع:

- في كل قرية إمارة، وفي كل مدينة دولة، لا جامع يجمعها ولا رابط يربطها.

- تحلل في القيم، وتعفّن في الأخلاق، وضلال في الفكر، وانحراف في السلوك، وهبوط في الغرائز.

- عبودّية فكرية تئد العقل، وعبودية جسديّة تقتل الارادة، وعبودية نفسية تسحق الطموح.

- انحدار في الولاء من الأمة إلى القبيلة، وفي التبعية من الشرق إلى الغرب، واستشراء للبغي والظلم والقهر.

وكانت كما نحن:

- أهواء تتصارع....... وأطماع تتنازع
- جهالة تستعلي ..... وعداوة تستشري
- أنانية تحكم .... وأثرة تتحكم
- فرقة تعم............. وتنابذ يغم
- خصومة تكيد .... وشعب يكابد

ولم يكن أحد على ظهر الأرض، يتوقع لهذه الأمة أن تحقق خيراً، أو أن تؤول إلى خير، أما أن تثور كما يثور البركان، وتتسلم قياد البشرية كلها، وتمحو وجود الدول العظمى لتصبح هي العظمى، فهذا ما لم يكن يتوقعه إلا من ألغى عقله، فكيف تمّ لها ذلك؟

-٤-

لقد أُحكمت تربية هذه الأمة أيّما إحكام على يد أحد أبنائها الذي اختاره ربّه رسولاً للعالمين. وكانت البداية.. كان عليه ﷺ أن يجمع أشلاء ذلك الجسد الدامي، ويلملم شعث هاتيك النفوس المتنافرة، ويحشد تلك الجهود الممزقة، ويجمع بين تلك القلوب المتباغضة، ليعيد سبك ذلك النسيج الممزق، ويصوغه صياغة نوعية متميزة متفوقة، تضيء العقل وتشحذ الفكر، وتحيي الضمائر، وتستنهض الإرادة، وتزكّي النفوس.

وكانت الأهداف واضحة محددة:

- تحقيق الإخاء بين أبنائها ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[1]، إذن لا تنابذ ولا تباغض ولا تحاسد ولا ضغائن ولا قهر ولا استبداد ولا تسلط ولا عداء ولا اقتتال.. وإنما أخوّة: حبّ وموّدة وتعاون وتفاهم وتآزر وتوافق وتلاحم وتكافل وتضامن.. إخوة بكل ما يقتضيه الإخاء..

- تحقيق وحدة الأمة ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾[2] لا فرقة ولا تمزق ولا تبعيّة ولا شرود، وإنما وحدة العقيدة والشريعة والقوى والنظام، وحدة الصف والرأي والكلمة والمصالح والمصير.

- تحقيق خيريّتها: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[3] خيرها في المعتقدات والقيم والمفاهيم والأخلاق والسلوك والتعامل والفضائل والمكانة والكرامة والوجود.

- تحقيق علوّها: ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾[4] علو في السياسة والاقتصاد والاجتماع والعلم والمعرفة والثقافة والحضارة والتصرف والممارسة والتخطيط والتنفيذ والتطبيق.

(١) الحجرات (٤٩).
(٢) الأنبياء (٩٢).
(٣) آل عمران (١١٠).
(٤) آل عمران (١٣٩).

ولم يكن تحقيق هذه الأهداف ميسورا لأي من البشر، ولكنّه تحقق على يد من اصطفاه ربه لهداية البشر، وهو الأعلم بمن يصطفي لرسالته.. فاصطفى.. وكان المصطفى أهلا للأصطفاء، فأولى مهمته ذوب فكره، وعصارة جهده وخلاصة حكمته، ليربي ذلك الجيل الذي قاد المسيرة، ويرتقي برعاة الغنم ليصبحوا قادة الأمم. ألا يجدر بنا أن نستعيد استيعاب تجربتنا هذه؟ وفي الوقت نفسه نستفيد بما أبدعه الفكر الإنساني على مدى القرون، آخذين بالمستجدات والمستحدثات لابداع نماذج إسلامية عصرية لتربية أجيال تتألّق تفوّقاً وعظمة واقتداراً؟

-٥-

إنّ محمد بن عبدالله ﷺ عظيم في كل جانب من جوانب العظمة التي عرفتها الإنسانية في تاريخها الطويل، ولكنّ هذا الكتاب لا يُعنى إلا بجانب واحد من جوانب العظمة النبوية ألا وهو الجانب التربوي، وإن كان يلمح إلى بعض جوانب السيرة والمفاهيم الإسلامية.

إن المقصد الرئيس من هذا الكتاب هو توضيح ملامح التربية النبوية، بعظمة غاياتها، وتميّز مناهجها، وتألّق فكرها، ورقي أساليبها، وتنوع وسائلها وتطبيقاتها.

وليس من قبيل التواضع أن أؤكد أن الكتاب لم يوف على الغاية، وإنما هو بداية أرجو أن تستثير حماسة علمائنا التربويين، ليدرسوا تربية نبينا الفذة، عسى أن تستعير منها الأجيال يوما قبسا هاديا لتربيتها، بما تحقق به إقلاعاً حضارياً موضوعياً لأمتها خير أمة أخرجت للناس.

وكلي أمل أن يجد فيه الآباء والمربون، ما يأخذ بأيديهم في تربية أبنائهم تربية إسلامية ملتزمة واعية تبدع فعاليات عالية، تساند نهوض الأمة من كبوتها، لتلحق بركب الحضارة المتقدم في عالم اليوم والغد، وما ذلك على الله بعزيز وهو تعالى من وراء القصد ويهدي السبيل.

المؤلف



الفصل الأول

الرسالة والرسول



أولاً: الرِّسالة

أ - ضرورة الرسالة

إن الله جلّ شأنه إذ خلق الإنسان ليستخلفه في أرضه، أراده صنفاً آخر من خلقه، ليس ملاكاً مفطوراً على الطاعة، ولا شيطاناً مصراً على المعصية، وإنما خلقه إنساناً مزوداً بقدر كبير من القوى المدركة والطاقات البانية والمواهب المبدعة، وأراده حرّاً مختاراً مسؤولاً، حرّ الاختيار في سعيه الحياتي بين المتناقضات من حق وباطل، وصلاح وفساد، وخير وشر، وعدل وظلم... وهكذا. وعلى أساس من اختياره الحرّ تكون مسؤوليته ويكون جزاؤه في الحياة الأخرى.

ومن رحمة الله تعالى بالإنسان أنه لم يتركه يضرب في فيافي الحياة دونما دليل، فيتبع هواه ونزواته ونزعاته فيضلّ ويشقى، ويقول عند الحساب: ﴿رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ۝١٣٤﴾[1] فأرسل إليه رسالاته التي تضبط قوامة السعي الإنساني في الحياة اعتقاداً وتصوراً وعبادة وتعاملاً وفق هدي الله، ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾[2].

إلاّ أن هذا الإنسان الذي فطر على النسيان، سرعان ما ينسى هدى الله، أمام ضغط رغائبه وهواه ونزوات نفسه، فما أن يطول عهده بأي رسالة حتى ينأى عن هدى الله ويتنكّب سبيله القويم المستقيم في سعيه الحياتي، فيظلم ويغشم، ويتكبّر ويتجبّر، وينأى عن الحق والعدل والخير، فيفسد الحياة على الأرض المطلوب منه إصلاحها، ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾[3].

---

(١) طه (١٣٤).

(٢) البقرة (١٢٠).

(٣) الأعراف (٨٥).

وجاءت الرسالة الإسلامية في وقت تباعد فيه العهد برسالات السماء، من ناحية، وبلغ فيه بنو الإنسان مستوى من النضج العقلي والتطور الحضاري يمكنهم من استيعاب رسالة عامّة شاملة خاتمة، تتضمن هدى الله ـ جل في علاه ـ مع استمرارية هذا الهدى ما استمرت الحياة من ناحية أخرى، ولا شك أنها جاءت في وقت أحوج ما تكون الإنسانية فيه إليها، حيث عمّ التيه والضياع والضلال، وغدت الحياة مباءة منتنة لا تصلح لهذا الإنسان الذي فضله خالقه وكرّمه، فكان لا بدّ من هذه الرحمة المسداة من الخالق لعباده، ومن أمثلة الجنوح والضلال نورد ما يأتي:

١ - الفرس:

أسس الفرس امبراطورية واسعة، علت أركانها واستبحر عمرانها، وعظمت قوتها وتعاظمت منعتها، حتى غدت تتحكم في مشارق المعمورة، ونعمت بالاستقرار، فلم يكن شعب يجترئ على التمرد عليها أو مناوأتها.

ونتيجة للحروب والغزوات توافرت لديها ثروات مهولة، مكنّت الطبقة الحاكمة ومن يدور في فلكها من حيازة كل مقومات الترف، والمترفون هم قنوات الانحراف والانحلال وركوب موجات الهوى والضلال في كل أمة.

أسلم هؤلاء المترفون نفوسهم لهواها، فأسلمتهم إلى عبودية الشهوة وسفاهة القوة، فقسّموا الشعب إلى طبقات من منظور مادي صرف، يعلو بعضها بعضاً، وتتحكم كل طبقة فيمن دونها ويتحكم فيها من فوقها، لتبقى للسادة السيطرة على الجميع فهم الطبقة التي لا تعلوها طبقة، وغدا هؤلاء السادة سوائم اللذة، فلا مكان للمثل الأعلى في نفوسهم، ولا مكان للغايات الجليلة في حياتهم، ولا تأثير للقدسية الإلهية في قلوبهم، فأسرفوا في البهيمية.

أما من حيث المعتقدات فقد اتبعوا رمزية زرادشت المجوسية التي تاه فيها زرادشت نفسه، فألّهوا النار وعبدوها، وبنوا لها المعابد والبيوت، وغدت النار تلهب ظهور المستضعفين، وتشرح صدور المتحكمين الذين تحكموا في سدنتها بسلطان القوة، فغدوا يبيحون لهم كل شذوذ بحكم النار.

وجاء «ماني» ليقول بعدمّية الحياة، حيث لا حياة بعد هذه الحياة المحدودة، لذا يجب أن تستغل في إدخال أقصى درجات اللذة والسرور على النفس البشرية، فتعفّنت الأخلاق، وتحلّل السلوك، وتحكمت الغرائز، وأصبح الرجل يطأ ابنته وأخته وأمّه دونما تفريق.

وتبعه «مزدك» ليأخذ بشيوعية الجنس، فجعل كل أنثى مباحة لكل ذكر، ولا يجيز لأحدهم أن يمنع حريمه ولا أن يذود عن حرماته، ووافق ذلك هوى المتحكمين، ولكن السحر انقلب على الساحر، فانطلق الرعاع إلى القصور ليغتصبوا نساءها مما أدى إلى مطاردة مزدك وأتباعه، والعودة إلى رمزية زرادشت، وعادت مقومات الحياة للأقوى، وما على الأضعف إلا الاستجداء والاستكانة أو الحرق بالنار.

٢- الرومان:

كان الرومان القوة العالمية الثانية التي تتحكم في غربي المعمورة، قهروا أوروبا وآسيا الصغرى والشمال الأفريقي وبلاد الشام ومصر بالسيف، فأصبح أهلها خولاً للسادة، مهمتهم ملء خزينة الدولة كلما فرغت، وساد الاقطاع الذي مزّق لحمة الشعب إلى طبقات تعلوها طبقات، وأباحوا للطبقة الأعلى كل محظور، وحظروا على الأدنى كل مباح.

ودخلت الامبراطورية في عهد قسطنطين في دين المسيح عليه السلام ولكن نزوات السادة سرعان ما تحكمت في القسس والرهبان، فعملوا على مسخ رسالة المسيح، وأحلّوا التثليث محل التوحيد، وحالوا بين العبد وربّه، فلا اتصال للإنسان مع الله إلا عن طريق الرهبان، وحيث أن الإنسان خطّاء، ويرجو أن يغفر له الله خطأه، فقد ابتكروا صكوك الغفران، التي تباع مقابل مبالغ من المال، وغدا القسيس أو الراهب يغفر لمن يدفع أكثر، فأصبح هؤلاء من أغنى الطبقات، وحرفوا الإنجيل ليتوافق مع شذوذهم النفسي، فأصبحوا خطراً على السادة.

وبعد طول خلاف قسّموا الحياة بينهم، فوضعوا نصاً دينياً يقول: اعط ما لقيصر لقيصر وما لله لله فغدا ما لقيصر لا دخل للكنيسة والقسس والرهبان فيه، وما لله للكنيسة والقسس والرهبان ولا دخل لقيصر فيه.

وعاث يهود في الدولة فساداً وأصبحت تجارة الجنس على أيديهم رائجة، وتجارة الرقيق الأبيض رابحة، فوظفوا العصابات للسطو على البيوتات لانتزاع بناتها الجميلات لتقديمها للسادة بمبالغ باهظة، وأصبح كل بيت حانة للخمور، وأصبح الغش والربا والخداع والاحتيال والسطو والسرقة.. إلخ من مستلزمات الحياة اليومية، وغدت الضرائب على الشعوب المغلوبة لا تطاق، وأصبحت القصور موطن التآمر، وغدا الملك يباع ويشترى، وكل الأمور بأيدي من يملك القوة لامتلاكها، وارتفعت مكانة السحرة والمنجمين حيث غدا كل متحكم يحيط نفسه بمجموعة كبيرة منهم حرصاً على ذاته وسلطانه.

* * *

ولم تكن هناك قوة تستطيع مقاومة أي من هاتين القوتين فأصبح الحال كما يقول الشاعر:

بعث النبي محمد في فترة ... قد ساد فيها كاهن ومنجم
كسرى يعمّ على المشارق ظلمه ... وهرقل منه في المغارب أظلم
والناس بين القيصرين كأنهم ... غنم على تلك الذئاب تقسّم

وما أشبه اليوم بالبارحة.

٣- العرب:

العرب جنس سامي، يعود إلى سام بن نوح عليه السلام استوطنوا الجزيرة العربية. ونظراً لندرة مواردها الطبيعية، فقد غدت كخزان بشري، يفيض على ما حوله كلما امتلأ، فكانت الهجرات العربية منذ ٣٥٠٠ق.م حيث هاجر الأوائل إلى مصر واختلطوا بسكانها الحاميين، فكان من الجنسين قدماء المصريين الذين أسهموا في حضارة بني الإنسان، ثم هاجر الكنعانيون إلى فلسطين التي عرفت آنذاك بأرض كنعان، والفينيقيون إلى سواحل سوريا ولبنان والأموريون إلى أواسط سوريا، والآراميون إلى العراق وذلك حوالي ٢٥٠٠ق.م[١].

(١) فيليب حتي وشركاه، تاريخ العرب، دار غندور، بيروت، ط٨، ١٩٩٠، ص٣٥.

سيطر الفرس على العراق واليمن والروم على مصر والشام، وغدا الوجود العربي خارج الجزيرة العربية أبّان البعثة يتمثل في قبائل متنافرة تعيش في سيناء وبادية الشام، وولايتين إحداهما تتبع الفرس وسادتها المناذرة والأخرى تتبع الروم وسادتها الغساسنة.

اتّبع عرب الجزيرة الحنيفية دين إبراهيم عليه السلام التي انتشرت في جزيرة العرب، حتى جاء عمرو بن لحيّ الخزاعي وسافر إلى مآب في الأردن فوجد أهلها عاكفين على أصنام لهم، ولما سألهم عنها قالوا: «هذه آلهة نعبدها، نستمطرها فتمطرنا، ونستنصرها فتنصرنا» ولم يعد إلى مكة إلا بصنم منها هو هبل الذي أقامه فوق الكعبة، وأمر الناس بعبادته فاتبعوه، وانتشرت عبادة الأصنام بين العرب، ووضعت كل قبيلة لها صنماً فوق الكعبة أو حولها حتى أصبح هناك ٣٦٠صنماً حين البعثة، وغدا لكل رجل صنم في بيته، وصنم يستصحبه في سفره، ثم انتشرت الطواغيت التي بنوا لها معابد يطوفون بها كما يطوفون بالكعبة، وغدوا كما قال الشاعر:

أتيت والناس فوضى لا تمرّ بهم ... إلا على صنم قد هام في صنم

وأدت موارد الجزيرة الشحيحة إلى غزو القبائل بعضها بعضاً، إغارات من الأقوياء على الضعفاء، وقتل المسالمين الأبرياء، واسترقاق الأبناء وسبي النساء، وتجاوز الاسفاف الحدود بالاغارة على الأهل والأقارب كما يقول القطامي:

أغرن من الضباب على حلول ... وضبّة إنه من حان حانا
وأحيانا على بكر أخينا ... إذا ما لم نجد إلا أخانا

وتحولت الجزيرة العربية إلى أرض مهوبة مخوفة مرعبة، وسطا سلطان القوة على الحق والعدل والمروءة والشرف حتى يقول شاعرهم:

إنما أنفس الرجال سباع ... يتفارسن جهرة واغتيالا
من أطاق التماس شيء غلابا ... واقتسارا لم يلتمسه سؤالا

وألغيت شخصية الفرد كلياً، وأصبح تابعاً لقبيلته وما تراه، لا يستخدم عقله ولا يستثمر فكره فهو ترس في ماكنة أكبر هي القبيلة حتى يقول الشاعر:

وما أنا إلا من غزيّة إن غوت ... غويت وإن ترشد غزية أرشد

وكانت اليمن تشذّ عن الجزيرة وصحراوتها حيث مكنت الرياح الموسمية التي تهب عليها من هطول أمطار منتظمة مكنت من الاستقرار، واعتمد الأهالي على الزراعة والصناعة والتجارة بين الشرق والغرب، فقامت فيها دول مستقرة كانت لها حضارتها البارزة، وكان آخرها الدولة الحميرية الثانية (٣٠٠-٥٢٣م)[١] حيث احتلها الأحباش بقيادة أرياط، وأقاموا فيها دولة لهم بقيادة أبرهة الذي قتل أرياط واستقل باليمن، وهو الذي غزا مكة سنة ٥٧٠م، التي سميت لدى العرب بعام الفيل وهي السنة التي ولد فيها رسول الله ﷺ. وفي سنة ٥٧٥م احتلها الفرس بسعي من سيف بن ذي يزن الحميري واستمروا يحكمونها حتى ٦٢٨م حيث اعتنق عامل الفرس فيها باذان الإسلام، وغدت جزءا من الدولة الإسلامية.

وكانت مكة مدينة مقدسة عند العرب منذ بنى إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام الكعبة فيها على قواعد البيت العتيق، وتتابعت الرئاسة فيها بين القبائل من العماليق إلى جرهم إلى خزاعة وبكر وصوفة حتى تمكن قصي بن كلاب من بسط سيطرة قريش عليها.

ومكة بوادٍ غير زرع لذلك اعتمدت على التجارة، وساعدتها في ذلك الأحلاف (الإيلاف) التي عقدها هاشم بن عبد مناف مع الروم والفرس والأحابيش واليمنيين، والتي نظم بناء عليها رحلتي الشتاء والصيف، فازدادت عوائد قريش التجارية.

وعمّ الترف مكّة، وغدت الخمور تجبى إليها من كل مكان، وتجار العبيد والإماء يؤمونها في كل وقت، وتضخمت طبقة المترفين وأطلقوا لأنفسهم هواها، وأصبحت المدينة المقدسة حانة متصلة المواخير، وتحولت أنديتهم إلى أماكن للفسق والفجور واللهو الرخيص الآثم، وانتشر القمار والربا والرهان والغش والخداع، ووصلت الفوضى الجنسية إلى حالة مزرية، وأصبح الزنا والبغاء والإغتصاب من مستلزمات الترف القائم والفكر الآثم، وانتشر زواج الرهط، وتوارث النساء، والشغار والاستبضاع كما الحيوانات إلى غير ذلك من المفاسد والمظالم.

---

(١) المرجع السابق، ص ٩٥.

ومما سبق يتضح أن بني الإنسان جميعاً قد غدوا بحاجة إلى هدي السماء:

- عالم تتحكم فيه دولتان طاغيتان، شريعتهما الهوى والإسراف في البهيمية، والعبودية المادية، في كل منهما مجتمع يئن من سطوة القوة، فقد فيه الإنسان الشعور الإنساني في حسّه، والسموّ الإلهي في نفسه، فغدت ذاته مأسورة، وإرادته مقهورة، وكرامته مهدورة... تفاوت في الطبقات، وضلال في المعتقدات، واعوجاج في المذاهب، واعتلال في الفكر.. أوضاع لا يعيش فيها حرّ، ولا يرتضيها كريم، ولا يقوم عليها سلطان، فكان هذا العالم بحاجة إلى رسالة هادية، وما كان الله تعالى ليترك ركب البشرية يغذّ الخطى نحو الهلاك، فأنزل رسالته الخاتمة.

- أمة في هذا العالم هي أمة العرب، أكثر أممه جهالة وضلالة وتيها وضياعا، شرّدها الضلال، وأضناها الكلال، وأعوزها الهادى، تتخاذل في الشدّة وتتحاسد في الرخاء، كثرة من غير وحدة، وجماعة من غير قوة، وصورة من غير روح، أصنام تعكف على أصنام، ونفوس استهواها الحرام، لا تطمح إلى علا، ولا تسعى إلى مجد، فكانت هذه الأمة أكثر أمم الأرض حاجة إلى الرسالة الهادية، وعندما اشتدت حلكة الظلام، أسفر الصبح من غار حراء، حاملاً هدي السماء.

- وقبيلة من هذه الأمة، انتهت إليها قيادة التجارة، يخرج أبناؤها بقوافلهم آمنين، ويجوبون الأسواق والمدن متاجرين، يجنون الأرباح، ويكدسون الأموال، ويزيدهم الحجيج إلى مدينتهم المقدسة ثروة على ثروة، ولكن هذه النعم لم توجهها إلى خير، ولم تنهها عن شرّ، فقد تحكم الهوى وانحرفت الضمائر، واستشرت حماقة الشرك، وسفاهة الحسد، وأحقاد المنافسة، ليس هناك من قانون إلا مواريث الآباء، التي أدت إلى طغيان عاسف يتحكم في الفرد ويتسلط على الجماعة.. كهانة تئد العقول بالجهل، وعبودية للمورثات تقتل التصرف، فاعتكر الظلام، وضاعت معالم الطريق.

فكانت هذه القبيلة في تلك المدينة أحوج أبناء هذه الأمّة، من ذلك العالم إلى هدي السماء، وشاء الخالق جلّ شأنه لهداه وبرهانه ونوره، أن يشرق من ذلك المنزل البسيط المتواضع، من منازل بني عبد المطلب بن هاشم، لينفض على الكون النور والسرور، والصفاء والنقاء، فقد اختار الله تعالى ذلك اليتيم الوادع محمد بن عبد الله، رسولاً إلى البشرية برسالته الخاتمة رسالة الإسلام.

ب- المفهوم العام للرسالة

الرسالة السماوية هي الإطار الفكري الجامع لهدى الله سبحانه وتعالى الذي أنزله لبني الإنسان، ليقوموا بمهمّة الاستخلاف في الأرض التي استخلفهم فيها، وتقويم مسار حركة الحياة واتجاهها وفق هذا الهدى في كل معطياتها ـ سياسة واقتصادا واجتماعا ـ والجامع لمبادئ الحق والعدل والخير.

والرسالة يحملها إلى البشر رسول منهم يصطفيه الخالق بعلمه وحكمته ليبلّغ الرسالة ويدعو الناس إلى الالتزام بها، ويطبق معطياتها في حياة الناس على الأرض.

وقد توالت الرسالات السماوية منذ فجر الإنسانية، وشاء الله تعالى ـ وقد وصل بنو الإنسان إلى مستوى من الرشد والنضج العقلي ـ أن يختم الرسالات برسالة سماوية جامعة، شاملة متكاملة، تتضمن أسس قوامة الحياة البشرية على الأرض، والمفاهيم الحاكمة لها، لتقود حركة حياتهم ما استمرت بهم الحياة، وهي الرسالة الإسلامية.

وكان من أكبر نعم الله على أمة العرب أن يحمل الرسالة إلى العالمين رسول منهم هو محمد بن عبدالله ﷺ وأن يكون دستور الرسالة الذي تعهد الله بحفظه وهو القرآن الكريم بلغتهم، وأن يكون حملة الرسالة بعد رسولهم والانطلاق بها إلى الآفاق منهم.

وكل رسالة سماوية بما فيها الرسالة الإسلامية تقوم على دعامتين رئيستين هما: الشرعة والمنهاج، اللذان يتكاملان في الشريعة فيقول ـ سبحانه ـ ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾[1] فما الشرعة؟ وما المنهاج؟ وما الشريعة؟

١ - الشرعة:

الشرعة في اللغة من شرع بمعنى بدأ، مما يعني أنها تمثل في الرسالة نقاط الشروع في الوعي والفكر والسعي الإنساني، أو ما يسمى بلغة العلم المسلّمات

---

(١) المائدة (٤٨).

والفرضيات المحدّدة للحقائق الأولى للعلم، التي يشرع منها العالم في البحث والتجريب وبناء الصرح العلمي المتكامل.

لذا فإن الشرعة تقدّم للإنسان المعتقدات التي تقوم على الحقائق والمفاهيم الأساسية التي يشاء الخالق أن يستوعبها الخلق، ويؤمنوا بها إيمان تسليم بالغيب بغض النظر عن إدراكهم أو عدم إدراكهم لكنهها، كما يسلّم العالم بمسلمات العلم الأولى وحقائقه المفتاحية، دون إعادة بحثها ومناقشتها.

ومما تتضمّنه الشرعة: صفات الخالق ـ سبحانه ـ وحقيقة الخلق بكل نوعياته، والحياة بمفهومها المتكامل، وضوابط حركة الوجود، ومسير الحياة ومصيرها. ويمثل كل ما جاء في شرعة الله حقائق يقينيّه لا جدال فيها، لكونها صادرة عن موجد الوجود ذاته، صاحب العلم المطلق ـ جلّ في علاه ـ والاسلام يبيح التفكير فيما جاءت به الشرعة من آيات ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝﴾[1] ليزدادوا فقها بها، ولا يعني ذلك أن ينكرها من لا يفقهها، كما لا يجوز لمن لا يفقه حقيقة علمية ثابتة أن ينكرها.

٢- المنهاج:

المنهاج من نهج بمعنى وضح «والمنهاج هو الطريق الواضح»[2]، وأي منهاج يحدد المسار أو المسارات السليمة الصحيحة التي توصل إلى الهدف أو الغاية.. والمنهاج في الرسالة يبين مجموعة المسارات المتوازية التي ينتهجها الانسان في سيره نحو غاية الوجود، فالشرعة تحدد نقاط الانطلاق، والمنهاج يبين المسار أو المسارات.

والمنهاج في الاسلام يبين كل مسار صحيح قويم ويحثّ عليه ويندب إليه، وكل مسار معوج منحرف ويحذر منه وينهى عنه، فيما يعرف بالأوامر والنواهي أو الحلال والحرام، فاتباع ما أمر الله به والتزام الحلال في كل شأن من شؤون الحياة يمثل المنهاج الإسلامي، واقتراف ما نهى الله عنه وارتكاب الحرام يمثل الشرود والشذوذ عن المنهاج الإسلامي، والسنة النبوية تبين تفاصيل هذا المنهاج.

---

(١) الرعد (٣).

(٢) المعجم الوسيط، حـ٢، ص٩٥٧.

٣- الشريعة :

والشريعة من شرع كذلك ، والشرع من شرع أيضاً، فالشرع بالمفهوم اللغوي هو الطريق والشريعة هي الطريقة والشريعة في الاسلام هي شريعة الله ـ جل في علاه ـ وهي نتاج تكامل الشرعة والمنهاج ، فالتزام المسلم يتضمن الإيمان بالشرعة والالتزام بالمنهاج ، حينئذ يكون قد التزم بالشريعة وإلا فلا ، ومثال ذلك الإيمان الاعتقادي التزام بالشرعة ، والعمل بمقتضيات هذا الايمان التزام بالمنهاج ، وحسن الجزاء والثواب على الاثنين معاً، فالإيمان بدون التزام بأوامر الله لا جدوى منه، والالتزام الحدّي بكل ما أمر الله به بدون إيمان لا جدوى منه كذلك . لذلك يقول الله تعالى : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ ﴾[١] وبناء عليه فإن الطريقة المثلى (الشريعة) لحياة الإنسان هي التي تشرع من الشرعة وتلتزم المنهاج .

---

(١) الجاثية (١٨).

جـ- مصادر الرسالة

تصدر الرسالة السماوية عن رب السماء، خالق الإنسان، الذي يعلم وثيق العلم ما يصلحه، ويبلغ الرسالة إلى البشر نبي يصطفيه سبحانه من البشر، ولذلك يسمى النبي رسولاً، لكونه مبلغاً للرسالة، وعلى ذلك فإننا نستطيع فقه الرسالة الإسلامية بشكل متكامل من ثلاثة مصادر هي:

١ - كتاب الله:

وكتاب الله الذي يتضمن أسس الرسالة الإسلامية هو القرآن الكريم، الذي أوحى به الله تعالى إلى نبيه محمد ﷺ منجّما حسب الحوادث على مدى السنوات التي عاشها عليه السلام، من وقت البعثة وحتى انتقاله إلى الرفيق الأعلى.

وكل ما جاء في القرآن الكريم يمثل الحق والحقيقة بكل دقة ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾[1] ويهدي للسبيل القويم في إدارة حركة حياة الإنسان على الأرض ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِى لِلَّتِى هِىَ أَقۡوَمُ﴾[2] للّتي هي أقوم اعتقادا وتصورا، وسعيا وعملا، وخلقا وسلوكا، وفكرا واجتهادا، سياسة واقتصادا واجتماعا.. إلخ.

وقد جمع القرآن الكريم من وثائقة ومن الصدور في عهد أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ بأوثق وأدق الأساليب العلمية الموضوعية، ونسخت به المصاحف، ثم جُمع المسلمون على مصحف واحد وقراءة موحدة في زمن عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ ولا يزال المسلمون في كل أقطار المعمورة يقرأون القرآن اليوم ـ بعد ثلاثة عشر قرنا ونيف ـ كما كان يقرأه الرسول وصحابته.

---

(١) فاطر (٣١).

(٢) الإسراء (٩).

ونظراً لأن القرآن الكريم يحتوي على هدي الله بالرسالة الخاتمة، فقد تولى - سبحانه - حفظه، ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝ ﴾[١] وما حفظه الله - تعالى - لا يضيعه البشر، وقد باءت كل محاولات تحريف القرآن الكريم على مدى العصور والدهور بالفشل، فالآلاف المؤلفة من المسلمين يحفظونه عن ظهر قلب، وإحكام سبكه يجعل المسلم العادي يفرّق تلقائيا بين ما هو من القرآن وما هو من غيره.

٢- السنّة النبوية:

مهمّة الرسول البلاغ، ومن متطلبات البلاغ أن يشرح وأن يوضح ويبيّن ما التبس على الناس إدراكه ويفهمهم ما استغلق عليهم فهمه، ويفصّل ما جاء مجملاً من التكاليف بحيث يتوافق التطبيق مع المقاصد، وهو في كل ما يتناول من حيثيات الرسالة لا ينطق عن الهوى وإنما وفق ما يوحى إليه من ربه - جلّ شأنه - ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝ ﴾[٢].

والسنّة النبوية تشمل كل قول أو عمل صدر عن الرسول ﷺ يتعلق بالرسالة، فما أقرّه يندب المسلم لاتباعه والعمل به ما استطاع، أمّا ما رفضه أو نهى عنه يعتبر لازم الاجتناب والابتعاد عنه، حيث يقول - عليه السلام -: «ما نهيتكم عنه فاجتنبوه، وما أمرتكم به فافعلوا منه ما استطعتم»[٣].

وإذا أخذنا مثالا واضحا عن دور السنة، فإننا نجد في العبادات - مثلا - أن القرآن الكريم يتضمن أمر الله تعالى بإقامة الصلاة، أما أوقات الصلاة وعدد ركعات كل منها وفروضها وواجباتها وشروطها وكيفياتها ومبطلاتها إلخ فنستقيها من السنة النبوية وهكذا في العبادات الأخرى.

لذلك تعتبر السنة النبوية المصدر الثاني من مصادر التشريع في الإسلام لأنها الموضحة والمحدّدة المبيّنة لشريعة الله، مما يعني أن المسلمين مطالبون باتباع كل ما جاء به رسول الله فيما يتعلق بالرسالة ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾[٤].

---

(١) الحجر (٩).
(٢) النجم (٣-٥).
(٣) رواه مسلم والنسائي وابن ماجه.
(٤) الحشر (٧).

٣- الاجتهاد التطبيقي :

لم يلغ الإسلام قط دور العقل المسلم فيما يتعلق بتنفيذ أمر الله ورسوله، وإنما فتح له باب الاجتهاد واسعاً على مصراعيه، فالله سبحانه وتعالى وضع الأساس الحكمي، والرسول ﷺ وضّح هذا الأساس وبيّنه، ولكن ليس كل حكم مطلق مستمرا في أساليب وطرائق التنفيذ على وتيرة واحدة على مدى الزمن.

إن الإسلام هو الدين الخاتم، وشريعته تحكم مسار حياة الإنسان عبر تغير المكان وتطور الزمان وتتابع الأجيال، لذلك يضع الثوابت الحكميّة لمسيرة الحياة، أما طرائق التنفيذ فهي متغيرة متطورة مع التزام كامل بالثوابت الأمر الذي فتح المجال أمام العقل المسلم ليبحث ويجتهد ويبدع حلولا حضاريّة لأي مشكلة من مشاكل الحياة، ملتزما بالشريعة، فالأصول والثوابت والمسلّمات صالحة لكل زمان ومكان، وتطبيق كل منها الملتزم بها متغير بتغير الزمان والمكان.

ونأخذ مثالا على ذلك: العدل. . العدل مقصد رئيس من مقاصد الرسالة، وهو مبدأ ثابت له الطلاقة الحكميّة في الشريعة، ويعني إعطاء كل ذي حق حقّه، ولكن أساليب ووسائل وطرائق تحقيق العدل لا ثبات لها، ولذلك فلكلّ جيل أن يجتهد موضوعيا في تحديد الكيفية التي يتحقق بها العدل سواء في ذلك طرق التحقيق وإثبات دعاوى الخصوم، وأسلوب التقاضي، ونوعية المحاكم المعنيّة بكل خصومة ودرجاتها، ومؤهلات القضاة وصلاحياتهم وشروط تعيينهم، وكيفيه إصدار الأحكام وإثباتها وتبليغها وتنفيذها إلى غير ذلك من متطلبات تحقيق العدل.

ومن هنا نشأ الاجتهاد الاسلامي، ونشط في إبداع النماذج التطبيقية لكل مبدأ من المبادىء الحاكمة، وأمدّ الفكر الاسلامي بمعين لا ينضب من النتاج الفقهي لمواجهة المتغيرات، مراعيا منطلقات البحث العلمي الموضوعي من قياس واستحسان واستنباط واجماع، والمقارنة بفقه الصحابة في كل ما يتعلق بمصالح المسلمين المرسلة.

ومن هذا الفهم ينطلق الحكم بشموليّة الإسلام، فحكميّة المسلّمات والأصول والثوابت شاملة، وانطلاق الاجتهاد منها، وبناؤه عليها، يقدم حلولا حضارية عصرية شمولية لكل مشكلة في كل زمان.

د- الإنسان في الرسالة

الإنسان هو مقصد الرسالة الاسلامية الرئيس، بوصفه مستخلفا من خالقه ـ سبحانه ـ في الأرض، ومطلوب منه أن يعمر الحياة فيها وينميها ويرقيها ويطورها ممتثلاً لأمر الله وتوجيهه وهداه، ولذلك فإن له مكانة خاصة أكدت عليها الرسالة بشكل محدد واضح ومن ذلك:

١- تكريم الإنسان:

يؤكد الخالق سبحانه وتعالى تكريمه للإنسان بقوله: ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾[١]، وهذا التكريم يتفوق نوعيا على كل ما سواه من أنواع التكريم، فهو تكريم من الخالق نفسه الذي خلق المخلوقات جميعا، وهو تكريم مطلق لكل بني آدم غنيهم وفقيرهم، قويهم وضعيفهم وحاكمهم ومحكومهم لكل منهم تكريم وكرامة بحكم الخلق.

وهذا التكريم يحمل معاني: العزّة والمنعة، والحصانة والحماية، والرفعة والتقدير، لهذا المخلوق، الأمر الذي يعني صيانة حقوقه وحرياته وكرامته وإنسانيته، فلا يجوز لأحد من الخلق أن يعتدي عليه، أو أن يسبب له أذى ماديا كان أو معنويا، ليقطع رحلة الحياة آمنا مطمئنا عزيزا كريما، ويقول ـ سبحانه ـ: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُواْ فَقَدِ ٱحْتَمَلُواْ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾ ﴾[٢].

وحكمة تكريم الإنسان هي أن يتمتع بالأمن الذاتي الذي يمكنه من النهوض بمهام الاستخلاف في الأرض، بكفاية وقدرة ووعي وفاعلية.

٢- تفضيل الإنسان:

ويُتبع الخالق ـ جلّ شأنه ـ تكريم الإنسان بتفضيله، تفضيله خلقة وتأهيلا وقدرة ومكانة، وإذا قارنا بين الإنسان وأي مخلوق سواه نجد فارقا في استواء الخلقة،

---

(١) الإسراء (٧٠)

(٢) الأحزاب (٥٦).

حيث يتميز الانسان باستواء لا يتميز به سواه ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ ﴾[1]، وأهّله خالقه بمجموعة كبيرة من المؤهلات والقدرات، من قوى مدركة، عاقلة مفكرة مبدعة، ومن طاقات واستعدادات ومواهب وملكات لا تتسنّى لغيره من المخلوقات.

هذا التفضيل وهذا التأهيل لم يأتيا عفويا، وإنما مقصودان لذاتهما، لأن الله يعلم أن الإنسان إذا أدى ما عليه من مهام الاستخلاف، فسيواجه كثيراً من المعضلات والمشكلات والتحديات التي يحتاج في مواجهتها إلى استنفار قوى النفس والحسّ والعقل وكل مقومات التفضيل، يفكر ويتأمل، ويبحث ويدرس ويقدّر، ويفرز ويفاضل ويختار، وصولا إلى أفضل الأساليب والوسائل التي تحقق قوامة الحياة.

وقد بين الله تعالى أنه سخر كل موجودات الكون لهذا الإنسان من المنطلق السابق ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعًا ﴾[2]، وهذا التسخير لا يعني أن تقذف موجودات السماء والأرض وخيراتهما وثرواتهما للإنسان وهو مستلق فاغرا فاه، وإنما من خلال فقه الأسباب وربطها بالمسبب - جل في علاه - واستيعاب النواميس والقوانين والسّنن الحاكمة لكل منها، وهو في ذلك محتاج لاستثمار كل مكونات ومقومات التفضيل.

٣- حرّية الانسان:

وتؤكد الرسالة على حرّية الانسان، وحرّية اختياره بين الأضداد، بما منح من عقل وإرادة، وهذا ما يقودنا إلى توضيح مجال الجبر ومجال الاختيار، حيث تاه فيهما الفكر البشري على مدى القرون.

٣/ ١ : الجبر:

هناك أمور لا يستطيع الإنسان الاختيار فيها حتى لو شاء وأراد فكيف يتسنى له اختيار مقومات ذاته، وأبويه ونسبه، ومكان وزمان ولادته، وهو لم يوجد بعد؟ إنه

(١) الانفطار (٧-٦).

(٢) الجاثية (١٣).

لا اختيار لمعدوم في وجوده من عدم، والاختيار هنا للموجد وليس لمن يوجد، واختيار موجِده وخالقه ـ سبحانه ـ هو بالحتمية الأصلح له، لأنه يعلم علم اليقين ما يصلحه.

وهناك أمور لا تصلح لأن يختار فيها الإنسان حتى بعد أن يوجد كالرزق والأجل وما إليهما، فلو أعطي الإنسان حقّ الاختيار في الرزق لسعى ـ بما فطر عليه من حب الذات ـ إلى حيازة كل خيرات الأرض، وما ترك لأحد مجالا ليشاركه في أيّ منها، ولو ترك له المجال في اختيار الأجل لما رغب في الموت قط، ولاختار أن يبقى حيّا حتى يرث الله الأرض ومن عليها، وفي كلتا الحالتين تضطرب موازين الحياة وتختل، ولا يستقيم لها حال، لذلك تتم هذه الأمور بقدر الله، وقدر الله لا يعلمه سواه.

٣/ ٢ : الاختيار:

إذا ولد الإنسان وغدا بشراً سويا، فإنّ كل سعي له وكل قول أو عمل أو تصرف أو خُلق أو سلوك وكل استقامة أو انحراف.. إلخ إنما يتمّ باختياره ولا يجبره أحد عليه ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾[(١)] ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾[(٢)]. ولا منطق أو عقلانية في قول الإنسان إنه مجبر على الكذب أو النفاق أو السرقة أو الخيانة أو البذاءة.. إلخ ومن يدّعي ذلك يعلم قبل غيره أنه يخدع نفسه ويختانها، فهذه أقوال وأعمال وتصرفات تصدر عنه بمحض اختياره.

والمعروف أن حساب الإنسان أمام ربّه، لا يتعلق بما هو مجبر عليه، وإنما يحاسب عمّا يصدر عنه بملء ارادته الحرّة، فيجزى على اختيار الخير خيرا، وعلى اختيار السوء سوءا، وهذا هو الحقّ والعدل.

---

(١) الكهف (٢٩).

(٢) الانسان (٣).

هـ- مشتملات الرسالة

لا يتسع المجال للاستفاضة في مشتملات الرسالة، فالمجال أضيق من ذلك كثيراً، وإنما نجد لزاماً أن نلمّ ببعض هذه المشتملات لأنها الإطار الجامع لتربية الرسول ﷺ، والأساس القويم الذي تبنى عليه.

لم يكفّ الإنسان منذ وجوده عن التفكير في هذا الوجود: من أوجده؟ وكيف أوجده؟ ولماذا أوجده؟ وما مآله ومصيرة؟ ولم يشأ الخالق ـ سبحانه ـ أن يبقي الفكر الإنساني ضارباً في فيافي التيه والضياع، فيضل ويشقى في سعيه الحياتي. أرسل إليه رسله، وحملهم رسالاته إلى بني البشر، متضمنة شريعتة ـ شرعة ومنهاجاً ـ ليكونوا على بصيرة، وختمها برسالة الإسلام الجامعة لما قبلها من الرسالات، والوارثة لكل ما تضمنته، بشمول وتكامل تامّين يضبطان هذه الحياة.

والرسالة كل متكامل، لا ينفصل مكون منها عن الآخر، وإن كانت تقسّم ـ اجتهاداً ـ تقسيماً نوعياً وظيفياً إلى معتقدات، وعبادات، ومعاملات، وفيما يأتي بيان موجز لكل منها:

١ - المعتقدات:

المعتقد هو ما ينعقد القلب على صدقه وصحته وصوابيته، فيتعمّق الإيمان بحقيقته، وتنطبع قوى الحسّ والنفس والإدراك على التوافق معه في كل مفاهيمها وتصرفاتها.

وتقوم المعتقدات الإسلامية على: الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر، وبكل متعلق بهذه الأركان السّتة التي تسمى أركان الإيمان، فالإيمان بالله يقتضي الإيمان بكل ما جاء من عند الله بدون استثناء، وفيما يأتي بيان لهذه الأركان:

١/١ : الإيمان بالله :

تنطلق العقيدة الإسلامية من أن الوجود بكل محتوياته «محدَث» أي مخلوق من عدم، ويعني ذلك أن لكل شيء فيه بداية، ولا بدّ من أن تكون له نهاية، وما دام محدثاً فلا بدّ له من «محدِث» أحدث هذا الوجود، ومقتضيات المنطق تؤكد الوجود الأزلي والأبدي للمحدث، فلا شيء قبله ولا شيء بعده، وذلكم هو الله جل في علاه. ووجود الله تعالى حقيقة قائمة لا وهم فيها، تنقدح في العقول من حقيقة وجود خلقه، ويؤكدها ما جاء به الوحي، وأخبر به رسول الله الصادق الأمين.

أما صفات الخالق البنيويّة فلا تحيط بها العقول لثلاثة أسباب هي: إن العقل البشري يدرك ما تقع عليه حواسه، والخالق لا تقع عليه الحواس، أو بما يستوعبه بالمماثلة والمقارنة، والله تعالى ليس كمثله شيء، والعقل البشري محدود، والمحدود لا يتسع للمطلق، وكل صفة من صفات الله مطلقة، لذلك فإن أي صفة من صفاته ـ سبحانه ـ إنما نعلمها مما أوحى ـ سبحانه ـ لنبيّه ﷺ، دونما محاولة استيعابها لإستحالة هذا الاستيعاب للأسباب السابقة، فالله تعالى سميع بصير، والسمع والبصر معلومان أما الكيفية التي يتمّان بها فليست من مدركاتنا، وتتميز صفات الخالق ـ سبحانه ـ جميعاً بالصفات الثلاث الآتية:

- **الطلاقة**: أي اللامحدودية لأي صفة من صفاته ـ جل شأنه ـ فهو:

- مطلق الوجود: قديم قدماً أزلياً، باق بقاء أبدياً، لا شيء قبله ولا شيء بعده.

- مطلق الحياة: يموت كل شيء ولا يموت، ويفنى كل من في الوجود وما فيه ولا يفنى.

- مطلق العلم: يحيط بكل حدث مهما دّق، منذ الأزل وإلى الأبد، في الماضي والحاضر والمستقبل.

- مطلق الإرادة: فلا يقيد إرادته قيد، وإنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون.

- مطلق القدرة: فالأسباب تقيد المخلوقات لا الخالق، وقدرته تعالى تتجاوز كل الأسباب. وهكذا.

- **النزاهة**: وتعني السموّ المطلق في نوعية الصفة، والارتقاء فوق كل مماثلة فهو تعالى:

- منّزه عن الكثرة والتعدد والتركيب والتجزئة، لم يلد ولم يولد، ولم يتخذ صاحبة ولا ولداً.

- منّزه عن التشبيه والتمثيل والمقارنة والقياس والموازنة، فليس له مثل ولا شبيه.

- منّزه عن المادة والصورة والجسم والجوهر والشكل والمكان والهيئة.

- منّزه عن أي نقص أو قصور أو ضعف أو عجز أو حاجة أو افتقار لمن سواه.. وهكذا.

- **الكمال**: ويعني بلوغ أي صفة من صفاته الدرجة التي لا درجة فوقها، سواء أكانت هذه الصفات حسّية أو معنوية، فهو ـ سبحانه ـ

- رحمن رحيم، عليم خبير حكيم، قوي قادر عظيم، حيّ قيوم، لا تأخذه سنة ولا نوم.

- واحد أحد، متفرد بالملك، لا شريك له، مدبر الكون متصرف فيه وحده، يحتاج له من سواه ولا يحتاج إلى من سواه.

- جواد كريم، رؤوف حليم، خالق بارئ مهيمن، يدبّر كل من خلق وما خلق من غير ما حدّ ولا نهاية.

- له الكمال المطلق في إرادته وقدرته ووعيه وعلمه، يخلق ويفني ويعيد الخلق، وينظم الوجود بلا حدود.

وهذا الفهم الإسلامي للذات الإلهية، هو الذي يتوافق مع الحق والحقيقة بالنسبة لخالق عظيم قدير، فقد نأى عن مفاهيم الأمم السابقة التي مزجت الحقيقة بالخيال، نأى عن تأليه الطبيعة والمخلوقات، وعن تثليث المسيحية وتشبيه يهود، وأثبت الطلاقة والكمال والتنزيه والتقديس للخالق القدير، والارادة النافذة في الخلق والرزق والملك والتصرف، فلا كمال ولا تقديس ولا تنزيه لأحد سواه ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾[1].

(١) الأنعام (١٠٢).

١/ ٢ : الإيمان بالملائكة :

الملائكة خلق مكرمون وجند مخلصون لخالقهم تعالى، قائمون بعبادته، مفطورون على طاعته، وهم منفذو أوامره، ولهم وظائف محدّدة، بينها القرآن الكريم. والإيمان بالملائكة إيمان بلاغ، لا عمل للإنسان فيه، ولكنه أحد أركان الإيمان، لأن الإيمان بوجودهم وصفاتهم إيمان بيقينية المعرفة التي تصل رسل الله عن طريقهم، ونصرهم للمؤمنين والاضطلاع بالمهام الموكولة إليهم.

١/ ٣ : الإيمان بكتب الله :

سبيل الحق ممتد مع تاريخ البشرية، تضمنّته كتب الله تعالى، كالتوراة والانجيل والزبور وصحف إبراهيم وموسىوغيرها. والإيمان بها يحقق الطمأنينة إلى أن ركب الهدى متصل، وأن أتباعه مستمرون على الطريق القويم. والإيمان بكتب الله السابقة إيمان بلاغ كذلك، لأنها أدت مهمتها المحدودة، ونالها التحريف مما يصعب معه الوصول إلى حقيقتها، ولأن القرآن الكريم ـ المحفوظ من الله ـ قد تضمنها جميعاً، فإن الإيمان به إيمان التزام كلي.

١/ ٤ : الإيمان برسل الله :

رسل الله تعالى هم الذين بلغوا رسالاته للبشر، أخلصوا وجاهدوا وصبروا وصابروا وتحملوا شتى صنوف الأذى والاضطهاد والتعذيب حتى القتل، لتعميم هدي الله، وبهذا يستقطبون حب الخيرين من بني الإنسان، ولذلك يسوّي الإسلام في الإيمان بين جميع الرسل ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ﴾(١)، وأي إساءة متعمدة لأي من رسل الله تخرج المسلم من الإسلام.

١/ ٥ : الإيمان باليوم الآخر :

اليوم الآخر هو اليوم الفاصل بين حياتين: دنيا وأخرى. يبعث فيه الناس ليحاسبهم خالقهم على أعمالهم ﴿ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾(٢). وموضوع

---

(١) البقرة: (٢٨٥).

(٢) الجاثية: (٢٢).

اليوم الآخر، وبعث من في القبور، قد تاهت فيه العقول مما يتطلب محاكمته محاكمة موضوعية.

- **مفهوم الحياة:**

- هناك أناس يرون أن الحياة أحادية الأبعاد، فما هي إلاّ الحياة الدنيا، ثم فناء وتلاش وعدم، فلا بعث ولا نشور ولا حساب، ولذلك يحرصون على الاستمتاع بفترة هذه الحياة ما استطاعوا، ليشبعوا شهواتهم ونزواتهم، دونما نظر إلى حق أو باطل، أو عدل أو ظلم، أو خير أو شرّ.

- وهناك من يرون أن الرأي السابق لا يتوافق مع العقل القويم والمنطق السليم، وأن عدل الله ـ سبحانه ـ يأبى أن يسوّى بين الظالم والمظلوم، والبرّ والفاجر، والأمين والغادر.. إلخ، ثمّ ينفض سوق الحياة، دون أن يحاسب الناس، فلا يثاب المحسن على إحسانه، ولا يعاقب المسيء على إساءته، لأن ذلك يدمّر كل معنى للحياة، وتتحول إلى حياة غاب تصلح للوحش لا للإنسان.

- إن قوام العدل هو ما جاء به الإسلام، من أن الحياة الدنيا مرحلة، والموت فيها ليس عدماً كلياً، ولا تلاشياً أبدياً، وإنما انتقال من دار إلى دار في حياة أخرى، حيث يبعث من في القبور، وتعاد كل روح إلى جسدها.

- **مفهوم البعث:**

- هناك من ينكرون أن هناك قوة تستطيع أن تبعث الذين ماتوا على مرّ العصور والدهور، وتحللت أجسادهم واضمحلت، ليعودوا كما كانوا قبل موتهم، أحياء يمشون على الأرض.

- وهناك من يقول: وما الاستحالة في ذلك؟ إن مخترع أي آلة يستطيع إعادة تركيبها حتى لو فككت إلى آلاف القطع، لتعمل بالكيفية ذاتها، فهذا أيسر من إنشائها لأول مرة، فكيف يستحيل ذلك على قدرة صاحب القدرة المطلقة ـ سبحانه ـ ما دام الذي يبدأ الخلق أقدر على إعادته؟ وصدق تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ ﴾[1].

---

(١) الروم (٢٧).

- إن العقل السليم لا ينكر ولا يحيل كون من أوجد شيئاً من عدم، قادراً على إعادة إيجاده إذا تبدّد، ما دام المعيد هو الموجد ذاته، والمعايير ذاتها، وقدرات الموجد لم تتغير، وصدق تعالى: ﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾(١).

- **مفهوم الحساب:**

- يرى العدميون استحالة جمع أقوال وأعمال وتصرفات الخلق منذ بدء الخليقة.

- ويرى المؤمنون بالله أن هؤلاء يقيسون الأمر بقدراتهم المحدودة، ومع ذلك فإن هذه القدرات المحدودة، استطاعت بقرص لدائنيّ واحد من أقراص الحاسوب، أن تستوعب مليارات المعلومات، ويستعيدها الإنسان في لمسة، فكيف بقدرة الخالق؟ إنه لا محال مطلقا على القدير الخبير العليم.

- إن الحساب هو ذروة العدل، حتى ينعم أهل الإحسان بالثواب، ويشقى أهل الإساءة بالعقاب ولولا ذلك لأصبحت الحياة مباءَة منتنة يشقى بها كرام الأحياء.

هذا المفهوم الإسلامي لليوم الآخر، والبعث والحساب، يضبط ـ بدون شك ـ خيرّية الحياة، حيث يبقى كل إنسان في أي مكان أو زمان، تحت تأثير شعور لا يحول، بأنه لن يترك سدى، وأنه إذا أفلت من عدالة الأرض فلن يفلت من عدالة السماء، الأمر الذي يكبح النفوس من التوغل في الشرّ، ويعيد الحياة إلى توازنها، ولولا ذلك لقضى بنو البشر على بعضهم البعض، وانتهت الحياة على الأرض منذ زمن بعيد.

١/ ٦: الإيمان بالقدر:

القدر هو ما قدّره الخالق لكل مخلوق من مخلوقاته، على مدى مسيرة حياة كل منهم: أجله، رزقه، سعيه، عمله، التزامه.. إلخ. وفيما يأتي بيان لتوضح أبعاده.

---

(١) الإسراء: (٥١).

- **مفهوم القدر:**

- لقد أصبح الإنسان واعياً لعملية تخطيط كل ما يقوم به من عمل، محدداً مدخلاته، ومقدراً مخرجاته بكل تفاصيلها، وبقدر علم ووعي المخطط تكون دقة التقدير ونواتجه.

- وهذا الوجود لم يوجد عبثاً ـ حاشا لله ـ ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾﴾[1]، وإنما وفق تخطيط محكم كل الإحكام. وحيث أن المهيمن على ذلك هو الخالق، صاحب العلم المطلق، العليم الخبير، فإن تقدير المخرجات بأدق تفاصيلها من أجل ورزق وسعي وقول وعمل معلوم له ـ سبحانه ـ بدقة متناهية.

- علم الله تعالى بدقائق أعمال مخلوقاته لم يطّلع عليه أحد من خلقه، ولذلك لا مجال لاحتجاج إنسان بأن ما يقوم به من انحراف مقدر عليه.

وعلم الله تعالى بنوعية السلوك الإنساني لا يعني اجبارا عليه، كما أن تقدير المعلم بنجاح تلميذه أو فشله ليس إجباراً له على النجاح أو الفشل: وعليه فإن ادعاء إنسان بأنه ضلّ لأنه مقدر له الضلال هو نوع من العبثية الفكرية والالتواء العقلي، الذي يلجأ إليه الإنسان ليسقط انحرافه على القدر.

- **المسؤولية والقدر:**

- الإنسان بين جبر واختيار: فهو مجبر على مقومات وجوده ـ كما سبق القول ـ لأنها صممت قبل أن يوجد وهي نعم جاءته دون سعي منه، وهو مجبر في أثناء وجوده على أمرين: الرزق والأجل، لأن ترك أمرهما لاختياره يخل بكل موازين الحياة.

- أما جميع تصرفاته وأقواله وأعماله في أثناء رحلة الحياة فتتم بمحض اختياره، وكامل حريتة وإرادته، والله تعالى يبين ذلك بقوله: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ﴾[2] ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾[3]، فمشيئة التصرف مناطة بالإنسان،

---

(١) الدخان (٣٨).

(٢) الكهف (٢٩).

(٣) الشمس (٧-١٠).

والإلهام الفطري يشمل الفجور والتقوى، والإنسان هو الذي يختار بين التزكية والتّدسية.

- مسؤولية الإنسان أمام خالقه ـ تعالى ـ لا تتعلق مطلقاً بما هو مجبر عليه، وإنما بما يصدر عنه بملء حريته وإرادته ووعيه وقدرته.

ولو كان الإنسان مجبراً على كل تصرفاته، لما كان هناك داع للرسالات السماوية، ولا مجال للحساب، لأنهّ ـ في هذه الحالة ـ لا فضل للمحسن على إحسانه ما دام مجبراً عليه، ولا ذنب للمسيء على إساءته ما دام مجبرا عليها، وهذا ما يتنافى مع عقل أي عاقل، وما ينفيه الخالق ـ جل شأنه ـ بقوله: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾[١].

٢- العبادات:

العبادة بالمفهوم الإسلامي هي علّة الخلق لقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾[٢].

وهي من المنظور الإسلامي ليست طقوساً تؤدّى، وإنما هي روح تسري في كيان الحياة البشرية على الأرض لتضبطها مع هدي الله. وهي في اللغة تعني الطاعة، وفي الشريعة تعني: طاعة الله ورسوله في كل ما أمرا به، وفي اجتناب كل ما نهيا عنه، مع النيّة القصديّة للطاعة المبنية على الاخلاص لله.

والعبادة نوعان: عبادة محددة تخصيصا وتشمل: الشهادتين، والصلاة، والزكاة، والصيام، والحج. وعبادة عامة، تتسع باتساع الممارسات الإنسانية في غمار الحياة، سواء منها نوافل العبادات والاستزادة منها، أو الصدقات والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أو طلب العلم والسعي في طلب الرزق، أو إعانة الناس، أو إحقاق الحق وترسيخ العدل وهكذا.

والعبادة في الإسلام تختلف عنها لدى أي شريعة أخرى أو أي ممارسات تعبدّية سواها، لا سيما في أمور أربعة أساسية هي:

---

(١) فصلت: (٤٦).

(٢) الذاريات (٥٦).

٢/ ١ : تكامل العبادة.

العبادة كل متكامل، بل حياة متكاملة، تشمل الكيان الإنساني كله بكل مكوناته، فالمسلم يُستوعب في العبادة:

- بجسده: مصليا، صائما، حاجا، ساعيا، عاملا، مجاهدا..

- بقلبه: مؤمنا، مخلصا، متوكلا، واعيا، راجيا، واثقا،...

- بعقله: مفكرا، متأملا، باحثا، مخططا، منظما، مبدعا...

- بلسانه: تاليا، ذاكرا، مذكرا، آمرا، ناهيا، موجها، داعيا، مرشدا...

- بماله: مزكيا، متصدقا، باذلا، مساعدا، معينا، مجددا، مطورا...

- بوجدانه: عفيفا، أمينا، كريما، مترفعا، عطوفا، رحيما...

تلازمه العبادة في كل أحواله: في حلّه وترحاله، في صحته ومرضه، في صغره وكبره، في كل سعي في الحياة.

٢/ ٢ : اعتدال العبادة:

والعبادة في الإسلام لا عسر فيها ولا إرهاق، ولا تستهلك كل وقت الإنسان وجهده، وإنما تأخذ بالاعتدال والوسطية، بحيث تسهّل على كل إنسان ديمومة الاتصال بخالقه، ومن أمثلة اعتدالها:

- لا تعذب الجسد لتسمو بالروح ـ كالمسيحية ـ ولا تهمل الروح لينعم الجسد ـ كاليهودية ـ وإنما بتوازن بينهما.

- لا تهمل الدنيا من أجل الآخرة ـ كالبرهمية ـ ولا الآخرة من أجل الدنيا ـ كالعلمانية ـ وإنما تعمل لهما معا.

- لا تشغل بضغوط الحياة عن واهب الحياة، ولا بالاستغراق في عبادة الله عن متطلبات الحياة.

- تراعي ظروف المكان وظروف الزمان وظروف الإنسان، ومقومات صلاح الفرد والجماعة.

- لا همود فيها ولا جمود، وإنما إيجابية فاعلة، توحد بين ضرورات الجسد وأشواق الروح.

٢/ ٣ : يسر العبادة:

والعبادة الإسلامية ميسّرة، لا تقوم على طقوس ينوء بها احتمال الإنسان، وإنما تراعى فطرة الإنسان وطبيعته وظروفه ومن ذلك:

- في الصلاة: تؤدى على أي أرض، ويقوم بها الإنسان وفق حالته الصحية: قائماً أو جالساً، أو نائماً، أو بالإشارة، تقصر في السفر، وترفع عن الحائض والنفساء، ويباح التيمم لها عند فقدان الماء، أو عدم القدرة على استعماله.

- في الزكاة: تؤدى عن ظهر غنى، ولمن ملك النصاب، وحال عليه الحول، مع تفضيل القرابة، والصدقات حسب مقتضىالحال، وبنسبيّة ملكية المال، وما تجود به النفس.

- في الصيام: للقادر عليه، مع الفداء عن الفطر، ولذوي الظروف الخاصة ـ سفر، حيض، نفاس ـ يباح الفطر مع القضاء.

- في الحج: لمن استطاع إليه سبيلاً ـ ماليا أو صحيا ـ مع الانابة لمن فقد القدرة الجسدية.

- في الجهاد: للقادرين، بالنفس أو بالمال، أو بالكلمة، أو بالرعاية لأسر المجاهدين.

بل إن يسر العبادة يشمل إماطة الأذى عن الطريق، وجلب المنفعة للناس، والكلمة الطيبة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكل قول أو عمل مخلص لله يستهدف صلاح الحياة وصلاح الأحياء.

٢/ ٤ : واقعية العبادة:

وتراعي العبادة الواقع النفسي الإنساني، لتأخذ به نحو مدارج الكمال، مزيحة من الطريق كل صنوف الأذى والظلم والكبر والقهر ومن ذلك:

- لا تمايز فيها بين المسلمين في أي عبادة من العبادات، فالمعيار واحد، والمساواة جامعة.

- لا لغو، ولا رفث، ولا فسوق، ولا جدال، في أثناء تأدية العبادة، وإنما شعور تقي هادىء ونقي خاشع.

- تجمع العبادة كلا من العبادة المالية، والعبادة الذاتية، والعبادة المعنوية بتعميم الحق والعدل والخير والصلاح.

- تقوم أساساً على عبودية الخالق، ومساواة الخلق بالتآخي والمحبة والتعاون والمساواة، ونفي الكبر والتسلط والظلم والكراهية والعداء.

٣- المعاملات:

تشمل المعلاملات كل تصرّف يصدر عن الإنسان سواء أكان ذاتياً أو متعدّيا إلى الآخرين، ولكل من المعاملات على اتساعها وتنوعها ضوابط محددة في التشريع الإسلامي على أساس من الإباحة «الحلال»، أو الحظر «الحرام»، وتبنى نوعيا على الحقوق وما يقابلها من واجبات، وتحكمها في الإسلام ثلاثة اتجاهات هي:

٣/ ١: الأخلاق الإسلامية:

تنتظم الأخلاق الاسلامية المأمور بها في كتاب الله وسنة نبيه ﷺ جميع مكارم الأخلاق، وسموّ الفضائل التي تحكم تعامل الإنسان مع ربّه، ومع نفسه، ومع الآخرين، والتي تشمل كل قول طيب وعمل صالح وتصرف قويم يصدر عن البشر، وتتسع اتساع المعاملات ذاتها.

هذه الأخلاق من حق، وعدل، وخير، وصدق، وأمانة، واستقامة، وإحسان، وحكمة، ورحمة، وعطف، وتواضع، وتراحم، وحياء، وطهر، وعفاف، وبذل، وجود، وكرم، وتضحية، وشجاعة، وإيثار، وصراحة، وإخلاص، ووفاء، ومودة، ومحبة، وإخاء، وتعاون، وتآزر.. إلخ تحكم خيرية التعامل الإنساني، وخيرية حياة الإنسان على الأرض ـ وسيأتي تفصيل ذلك لاحقاً ـ.

وكل ما ينافي هذه الأخلاق مرفوض في المعاملات الإسلامية.

٣/ ٢ : الآداب الإسلامية :

تتعلق الآداب بما ينتظم الذوق الإنساني لدى الفرد المسلم في كل تصرف يصدر عنه، مما يجعل تقبله واستساغة التعامل معه على أساس من الرضا بما يتحلى به من آداب، تجذبه إلى الناس وتجذب الناس إليه ومن ذلك :

- **الآداب الذاتية** : من آداب الأكل والشرب والنوم والمشي والجلوس واللباس والزّينة . . .

- **آداب الحديث** : من استماع ونقاش وحوار، ونقد ومصارحة، ودعوة وتوجيه، واحترام آراء الآخرين . . .

- **آداب التواصل** : من احترام وتوقير وتقدير بين الكبار والصغار والأقارب والأرحام والجيران . . .

آداب الترابط : كالزيارة والعيادة والتحية والسلام، وبسط الوجه، والتهنئة والتبريك . . .

٣/ ٣ : الضوابط الاسلامية :

برغم كل تمسك بالأخلاق والآداب الإسلامية، قد يوجد من يتنكب السبيل، لذلك فإن الشرع يحدد عقوبات رادعة لهؤلاء، تتراوح بين الحدود المحددة شرعاً في الجرائم الكبرى كالقتل والزنا والقذف والسّكر والسرقة وقطع الطريق والحرابة والردّة وغيرها، وبين التعزيز في الجنح والتي يناط تقدير العقوبات الرادعة لها بالقضاء.

ولكن الضوابط الأكثر اعتبارا هي نواتج الحساب في الآخرة لمن يؤمن بالله واليوم الآخر، حيث يجزي الله تعالى المحسنين على إحسانهم، ويعاقب المسيئين على إساءتهم.

هذه هي الرسالة الإسلامية التي شاء الخالق البارىء أن يصطفي لها نبيّاً من العرب، وأن يحملها إلى البشرية عامة وبني الإنسان كافة رجال أفذاذ من أبناء هذه الأمة، وأن يجعل لهذه الأمة التي لم تكن شيئا مذكورا، ذكراً في العالمين على مدى تتابع القرون والسنين، ولكن قومنا ـ اليوم ـ لا يعقلون، وصدق الله العظيم : ﴿ لَقَدْ

أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾﴾[1]، فماذا كانت هذه الأمة قبل الكتاب؟ وماذا أصبحت به؟ وكيف هي اليوم بدونه؟ وكيف يمكن أن تكون إذا عادت إليه بإيمان وأمانة وإخلاص وإرادة صادقة؟ هذا ما يجب أن يشغل فكر كل إنسان مخلص لهذه الأمة، يعتز بانتمائه إليها، فلعلّ وعسى.

(١) الأنبياء: (١٠).

ثانياً: الرسول

أ- النشأة والبيئة

١ - شرف النسب:

في النصف الثاني من القرن السادس الميلادي، كانت أمة العرب في جزيرة العرب، تعيش بين مخالب الأخطار: أحباش في الجنوب، وفرس في الشرق، وروم في الشمال، وزاد الطين بلّة تفرق العرب وتمزقهم.

وكانت الحجاز مهبط آمال العرب، حيث مكة أرقى حواضرهم وأعزها، والبيت العتيق الذي أقامه إبراهيم وابنه إسماعيل ـ جد العرب ـ عليهما السلام. وتسود مكّة قبيلة قريش الكنانيّة، التي حظيت بأموال طائلة من التجارة ومن حجّ العرب إلى البيت العتيق، فاستحكم فيها الترف، وانحدر بها إلى سورة الجشع، وسفاهة الطمع، وحماقة الأنانية، والانصياع إلى حكم الهوى، وانحراف الشهوة، فلم يعد لصوت الحق، ولا نداء العقل مستمع بينهم، إلا القليل.

وكان من هذا القليل بيت في ذروة الشرف، يعمل لصالح قبيلته وخير أمته، يطعم الجائع، ويؤمن الخائف، وينصر المظلوم، وذلك هو بيت هاشم بن عبد مناف. كان هاشم كريم العنصر وفي الوقت نفسه كريم الخلق واليد، بذل معظم ماله في إطعام أهل مكة في السنوات العجاف، وأمّن تجارة مكة بالأحلاف «الإيلاف» التي عقدها مع الدول والقبائل، فكانت له المكانة العليا في قومه.

وورث هاشماً ابنه عبد المطلب، وكان شيخاً مهوبا جليلا ذكيا جريئا، لم يكن صاحب ثروة طائلة، حيث لم يترك له جود أبيه وكرمه مالاً كثيراً، وإن ترك له ذكراً، ومكانة ومحمدة، وأسلمته مكة قيادها، وهو الذي واجه جبروت أبرهة، وهو صاحب المقولة المشهورة: «أنا رب الإبل، وللبيت ربّ يحميه»، ولكن سفهاء قومه أخذوا يتطاولون عليه بضلال القوّة، فنذر إن رزق عشرة من البنين، أن يذبح

أحدهم عند الكعبة، ورزقهم، وجاء وقت الوفاء بالنذر، ودارت القداح، ووقعت على أحب أبنائه إليه وإلى بنيه وأهله وقومه: «عبدالله بن عبد المطلب» وأصرّ على الوفاء بالنذر ونفسه تتقطّع، لولا تدخّل قومه ومنعه، وحكم عرّافتهم بأن تضرب القداح على الابن والابل وزيادة الابل حتى تخرج القداح عليها، وبقي عبد المطلب يزيد عشرة عشرة حتى استقرت القداح عليها وسلم عبدالله.

شب عبدالله بن عبد المطلب وترعرع، وتزوج من آمنة بنت وهب سيد بني زهرة، وترك زوجه حاملاً وسافر إلى الشام في رحلة الصيف بتجارة قومه، ولكنه لم يعد من تلك الرحلة، حيث توفي في أثناء العودة في يثرب، ولم ير ابنه الذي ولد بعد وفاته، وكأن الخالق العليم أسكنه هذه الدنيا لمهمّة عظمى، ألا وهي انجاب خير البشرية وصفوة الانسانية، فلما أداها نقله ـ سبحانه ـ إلى جواره.

٢ - المولد والنّشأة:

من هذين الأبوين الكريمين ـ عبدالله وآمنة ـ من تلك الأرومة الشريفة، ولد «محمد» في الثاني عشر من شهر ربيع الأول سنة ٥٧٠ للميلاد، وهي السنة التي يسميها العرب «عام الفيل» حيث هاجم أبرهة مكة، وارتد عنها خائباً.

ولكون محمد يتيما فقد كفله جدّه عبد المطلب، ثم أرسله إلى المراضع ـ كعادة قريش ـ فاسترضع في بني سعد، وكانت مرضعته حليمة السعدية، وعندما بلغ الخامسة من عمره أعادته حليمة إلى جدّه.

ما أن بلغ محمد السادسة من عمره حتى توفيت أمه آمنة، وفي الثامنة من عمره توفي جدّه عبد المطلب وكفله عمه «أبو طالب» ولم يكن ذا مال يذكر، فاجتمع على محمد اليتم والفقر، فعمل على رعي الغنم تارة وسافر بالتجارة مع عمه أبي طالب إلى الشام ولم يتجاوز الثانية عشرة من عمره، ثم عمل في تجارة سيدة من ذوات الثراء في مكة وهي خديجة بنت خويلد.

كانت خديجة ثيّباً ذات مال وجمال، عزفت عن الزواج كليا، بالرغم من كثرة من تقدموا إليها، إلا أنها ما أن خبرت أخلاق محمد وسجاياه حتى تجددت رغبتها في الزواج، وتمّ زواجها فعلاً من محمد بن عبدالله كما يتم أي زواج في مكة. ورزق

محمد منها أبناء لم يعيشوا طويلاً، وبنات بقين وتزوجن وهن زينب، ورقيّة، وأم كلثوم، وفاطمة الزهراء، وعملت خديجة على أن تكرس حياتها لسعادة زوجها فعاشا في رضا وسعادة، ولم يتزوج محمد غيرها طوال حياتها.

٣- الفعاليات الاجتماعية:

عرف محمد في مكة بالصادق الأمين، ولذلك استقطب تقدير واحترام رجالات قبيلته، وكانت له فعالياته الاجتماعية المقدّرة من كل منهم، ومن ذلك:

- شهد حرب الفجّار، وساعد أعمامه وقومه ضد المعتدين، فكان يناول السهام تارة، ويرمي بها تارة أخرى.

- رافق أعمامه إلى أسواق العرب في الأشهر الحرم، حيث تلتقي الوفود من شتى القبائل، وكان حسن الاستماع ولذلك استوعب مقوّمات القوم وعاداتهم.

- حضر حلف الفضول الذي قام على حماية المظلوم وردع الظالم، والذي عقد في دار عبدالله بن جدعان ويقول عنه بعد البعثة: «ما أحبّ أن يكون لي بحلف حضرته في دار ابن جدعان حمر النعم»[(١)].

- عندما اختلفت قريش حول من يتولى وضع الحجر الأسود مكانه ـ لدى إعادة بناء الكعبة ـ وأبت كل عشيرة أن تتنازل عن هذا الشرف لغيرها، اتفقوا على تحكيم أول داخل من باب الصفا، فكان محمد فهتفوا بفرح: «هذا الأمين، رضينا به حكما»[(٢)]، وحكم حكمه المعروف بوضع الحجر في ثوب وأن يأخذ كل زعيم عشيرة بطرف ويحملوه جميعاً، ويرفعوه إلى موضعه، ثم سنده بيده، فهدأت نفوسهم، وخفّت حدّة العداء.

وباختصار فقد خبر محمد البادية والحاضرة، وحياة الصحراء وحياة المدن، والسفر والحضر، والرعي والتجارة والحروب والأحلاف، وتعامل مع الأغنياء، والفقراء، والأرقاء، والصغار والكبار، فلم يجهل شيئا من واقع قومه، وفي الوقت

---

(١) الحافظ بن كثير، البداية والنهاية، دار الريان للتراث، القاهرة، مصر، ١٩٨٨، ط١، حـ٢، ص٢٧٠.

(٢) عبدالملك بن هشام، السيرة النبوية، دار المنار، القاهرة، ١٩٩١، ح٢ـ، ط١، ص٢٠٢.

نفسه، لم ينغمس في أي من مساوئه التي لفظتها نفسه الأبية، وبقي بينهم مقدراً مكرماً محترماً. لا تشوب علاقاتهم به شائبة حتى كانت البعثة.

٤ - البحث عن الحقيقة والاصطفاء:

لم يقتنع محمد قط بأن الأصنام التي يعبدها قومه آلهة، فما من عقل عاقل يصدّق أن هذه الحجارة الصمّاء قد خلقت هذا الكون بكل موجوداته، لذلك لم يتجه إليها بالعبادة مطلقاً، ولم يستسغ ما انغمس فيه قومه من الموبقات التي جرّت عليهم المآسي، لذلك حرّمها على نفسه، وأخذ على نفسه أن يبحث عن الحقيقة: حقيقة الخلق والخالق.

أخذ يتحنّث في غار حراء، باحثاً عن الحقيقة الكبرى، وعن تلك القوة العظمى التي أوجدت كل موجود، وأخذ يدعوها خاشعاً خاضعاً متضرّعاً في هدأة النهار وسكون الليل، فيجد في نفسه راحة، وفي وجدانه اطمئناناً، لا يعرف مصدره، ولكنه يجلب له توثبا روحيّاً لا يجده في مكة.

وفي شهر رمضان من سنة ٦١٠م، وقد أصبح في الأربعين من عمره، حيث أحكمت رأيه السنّ، وأخلصت جوهره السنون، جاءه جبريل عليه السلام، ليبلغه اصطفاء خالقه له، ليكون رسوله إلى خلقه بالرسالة الخاتمة.. رسالة الإسلام.. وبدأ التكليف بنزول جبريل بجوهر الرسالة ـ القرآن الكريم ـ.

وهكذا اصطفى الله تعالى رسوله للعالمين: أصلح إنسان، من أصلح بيت، ومن أصلح قبيلة، في أنسب وقت، حيث تتركز الحاجة للرسالة، وأخذت مسيرة الحق والخير والعدل مسارها نحو غاية الوجود، لتنثر على ذلك العالم المأزوم، الصفاء والبهاء، والنقاء والإخاء، وتنقذ ركب البشرية من الضلال والتيه والضياع.

ب- من مقومات الاصطفاء

لقد أثار اصطفاء محمد بن عبدالله ﷺ من بين خلق الله جميعهم، أبيضهم وأسودهم، أحمرهم وأصفرهم، عربهم وعجمهم، لحمل رسالته الخاتمة إلى العالمين، موجة عارمة من الاستنكار والاحتجاج، بل والدهشة والاستغراب.

كم من مولود ولد على وجه الأرض في تلك الليلة التي ولد فيها محمد بن عبدالله؟ إنه لا يحصيهم إلا الله، فلماذا؟ لماذا اصطفي محمد من هؤلاء جميعا؟ لم يسلّم الفرس ولا الروم بأن يبعث الله رسولاً من أقلّ وأذل أمة في ذلك الزمان، وهما أمّتان تزخران بالملوك العواهل والعلماء الفطاحل، وحتى العرب أنفسهم، بل قريش ذاتها استنكرت الأمر، فقالت العرب ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾[1] وقال الوليد بن المغيرة للنبيّ: «لو كانت النبوّة حقّاً لكنت أولى بها منك، فأنا أكبر منك سنّاً وأكثر مالاً»[2]... وقال غيرهم: كيف وهو فقير ونحن أغنياء؟ وقال آخرون: كيف وهو يتيم ونحن لدينا الأمّهات والآباء؟ وقال سواهم: كيف وهو الأمي ونحن نقرأ ونكتب؟، وقال عمرو بن هشام - أبو جهل - «زاحمنا بني عبد مناف في الشرف، حتى صرنا كفرسي رهان، قالوا: منّا نبيّ يوحى إليه، فمتى نبلغ ذلك؟ لا والله لا نؤمن به ولا نتبعه أبداً، إلا أن يأتينا الوحي كما يأتيه»[3].

وهكذا تاه القوم وضلوا ضلالاً بعيداً في تعليل مقوّمات الاصطفاء، وكأن الله - سبحانه - إذا أراد ارسال رسول يجب أن يستشيرهم ويأخذ بآرائهم. إن اصطفاء الرسول هو - ابتداء وانتهاء من اختصاص المرسل - سبحانه - وهو صاحب العلم المطلق المحيط الذي يعلم حق اليقين من يستطيع حمل رسالته من مئات الألوف أو الملايين الذين ولدوا تلك الليلة، وهو سبحانه - القائل: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾[4].

---

(١) الزخرف: (٣١).

(٢) محمد الغزالي، فقه السيرة، مطابع علي بن علي، الدوحة، ـــــ، ط١، ص٩١.

(٣) الحافظ بن كثير، البداية والنهاية، مرجع سابق، حـ٣، ص٦٢.

(٤) الأنعام (١٢٤).

ولما كانت النفس البشرية مولعة بالتعليل، نزّاعة إلى الاحتكام إلى الحاكمية العقلية البشرية، فقد تناول كثير من العلماء مقومات الاصطفاء التي تميز بها محمد ابن عبدالله ﷺ، مما يتطلب أن نلمّ بتعليل بعض هذه المقومات ـ وليس كلها ـ سواء ما رآه البشر إيجاباً كالخلق، والنسب، والبلاغة، أو سلبا كاليتم والفقر والأمية والرعي. . . إلخ، أما العربيّة، فقد سبق القول إن أمة العرب كانت أحوج أمم الأرض إلى الرسالة، وفيما يأتي بيان هذه المقومات.

١ - الخلق الكريم:

ما من أحد من أسوياء وعقلاء بني البشر، على امتداد مسيرة الحياة البشرّية، فضّل يوما صاحب الخلق الوضيع على صاحب الخلق الرفيع، فما سوّى عاقل يوما بين الأمين والغادر، ولا بين الصادق والكاذب أو الكريم والبخيل، فمكارم الأخلاق هي بذور الثقة والتكريم والمحبّة والمودّة بين الناس، وأساس استقامة حياتهم.

والرسول عليه النهوض بأعظم أمانة، وهي ليست أمانة البشر للبشر، وإنما أمانة رب البشر للبشر، والسماء للأرض، مما يتطلب أن يكون على أعلى وأروع مستوى ممكن من مكارم الأخلاق وعلو الفضائل، بحيث يثق به من يعرفه، ويصدقه من يسمعه، ويطمئن إليه من يدعوه، فالإنسان لا يثق بصدق البلاغ إلا إذا وثق بصدق المبلّغ، ولذلك كان اصطفاء محمد بن عبدالله ابتداء من منطلق عظمة أخلاقه، حيث يقول خالقه: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾[1].

هذا الخلق العظيم خبره أهل مكة تماما، فقد عاش محمد فيهم طفلا ويافعا وشابا وكهلا ـ قبل البعثة ـ ولقبوه: الصادق الأمين، والصدق والأمانة ذروة سنام الأخلاق، وما من أحد من أعدائه ـ قبل أصدقائه ـ إلا ويعترف له بصدق القول، وكرم العهد، وثقة الذمّة وعظم الأمانة، ورجاحة العقل، وطلاقة الحلم، ومضاء العزم، ولطف المعاشرة، فأصبح مثالاً للأخلاق الكريمة الحميدة، والفضائل الرشيدة:

- مثالاً للصدق والوفاء، والأمانة والنقاء، والطهر والصفاء.
- مثالا للسموّ والترفع، والكرامة والاستقامة، والعزّة والتواضع.

---

(١) القلم (٤).

- مثالاً للمودة والمحبّة، والعطف والحنان، والبرّ والرحمة.

- مثالاً للإيثار والتضحية، والمروءة والأنفة، والشجاعة والعفّة.

- مثالاً للجود والعطاء، والكرم والسخاء، والعطف على الضعفاء.

إن تاريخه مبسوط بكل حيثياته أمامهم، بحيث يستطيعون قراءة كل حرف فيه، وقد بحث أعداؤه طويلا عن النقائص ليصموه بها، فلم يجدوا فيه أي نقيصة في بيئة تزخر بالنقائص. كانوا على يقين بأن أخلاقه العليا ليست طارئة ولا مفتعلة، وإنما هي سجايا طبيعية من سجاياه، تحكم سلوكه، وتوجه تصرفاته، فقد كان بينهم يألف ويُؤلف، يحترم ويُحترم، يقدّر ويُقدّر، إذا قال صدق، وإذا قيل صدّق. يكظم غيظه ويكبت غضبه ويظهر سروره، يحسن الحديث إذا حدّث ويحسن الاستماع إذا حُدِّث، ويعرف لكل ذي حق حقه.. فأي نقيصة يمكن أن يلصقوها به وقد علموا علم اليقين أنه:

- لم يَكذب قط، ولم يخن مطلقا، ولم يظلم أحدا.

- لم يهتك حرمة، ولم يهضم حقا، ولم يخفر ذمّة.

- لم يغتب إنساناً، ولم يؤذ حيوانا، ولم ينتقص قوما.

- لم يشرب خمرا، ولم يعبد صنما، ولم يقطع رحما.

وماذا بعد؟ جاء أعرابي من أعماق الصحراء إلى مكة، والتقى بمحمد، ولم يلبث أن عاد إلى قومه مسلما، فأخذ شيوخ عشيرته يلومونه على إسلامه، دون أن يطلب من محمد دليلا ولا برهانا، فقال بمنطقه البسيط: «يا قوم، هذا الرجل، صدقه دليله، وأمانته برهانه، قومه يدعونه «الصادق الأمين» ومن لم يكذب على الناس صغيراً لا يكذب على ربّ الناس كبيرا، ومن لم يخن أمانة الأرض لا يخون أمانة السماء» ونظر القوم بعضهم في وجوه بعض، وقالوا: لقد والله صدقت.

لذلك لم يكن مستغربا أن يؤمن معه خيرة شباب مكّة بتلك السرعة التي يرويها لنا التاريخ، لا عن فوران عاطفة أو جموح انفعال، وإنما عن تحكيم عقل وتغليب منطق. صحيح أنه كان من بينهم المستضعفون الذين هدّتهم العبودية، وطحنهم

الظلم، وكبّلهم الفقر، كبلال وعمّار وياسر وخبّاب وصهيب، وعامر بن فهيرة وغيرهم، ولكن كان منهم أيضاً من هم في قمة الشرف، وذروة المنعة، وبحبوحة الغنى، وعظمة الجاه كأبي بكر، وعثمان، والزبير، وطلحة، ومصعب، وابن عوف، وابن أبي وقاص، وابن مظعون، وغيرهم.

لقد وثق كل منهم بالمبلِّغ، فقبل البلاغ، ولذلك فبالرغم من شراسة الأعداء، وضراوة العداوة، وصنوف التنكيل والاضطهاد والتعذيب، كانوا يثبتون ولا يتزعزعون، يزيدون ولا ينقصون.

إن الرسالة النبيلة لا ينهض بها إلاّ صاحب أخلاق جليلة، ليكون للناس أسوة، ويتخذوا من أخلاقه قدوة، مما يمكّن للقيم، ويرسّخ الفضائل، ويرتقي بالمكرمات.

٢- النسب الشريف:

ولادة الإنسان من أبوين شريفين ليس من كسبه، وإنما يتفاضل الناس فيما يكتسبون هم، لذلك فتقدير الشريف إنما يأتي من استثماره بيئة الشرف ليرتقي بذاته، وليس من مجرد وجوده فيها، وقد نجح في ذلك محمد ﷺ وفشل أبو لهب وهو عمّه.

إن الشرف الذي هو محصّلة كرم الأصل والمحتد والأرومة، وجماع الحسب والنسب والمنبت، كان مقدرا من المنطلق السابق لدى أمم الأرض جميعا، ولكنه أكثر اعتبارا وأعمق تقديرا في البيئات الصحراوية ـ ومنها جزيرة العرب ـ حيث الترابط القبلي ضرورة من ضرورات الحياة.

كان العرب يدعون سليل الشرف «عظاميا»، وصاحب السعي الكريم «عصاميا»، ويولون كل التقدير والاحترام للإنسان الذي يكون «عظاميا عصاميا»، فهذا هو الشريف الحريص على مصايد الشرف، لا يحرفه وعد، ولا يثنيه وعيد، يربأ بنفسه أن يرى في مواطن الريبة ومزالق الدنايا، أو أن يتعلق بسفاسف الأمور.

لذلك أبى أبو سفيان أن يكذبَ على محمد برغم عدائه له، عندما سأله هرقل عنه، وقال: «إنني امرؤ شريف، أخشى أن تؤثر عني كذبة بين العرب»، وأنفق هاشم بن عبد مناف ماله لإطعام أهل مكة سنة الجدب قائلاً: «لا يشبع الشريف وقومه

جياع» وحرّم قيس بن عاصم الخمر على نفسه لأنه لطم ضيفه وهو سكران وقال: «ما هكذا تفعل الأشراف». ويقول ابن القرية عن قوم: «انهم قوم أشراف سلمت جذورهم فعظمت فروعهم، أدبتهم الحكمة وأحكمتهم التجارب، فأحسنوا المقال وجودوا الفعال».

إن اصطفاء الرسول من أشراف قومه، يدفع عنه كل مطعن، ويخلّصه من ضغط الظروف القاهرة، فيحيى حرّاً كريما يملك قياد نفسه، ويتصرف وفق قناعاته، وقد عرفت ذلك الأمم كلها، حتى أن هرقل الروم سأل أبا سفيان عن نسب الرسول فقال: «إنه من أوسطنا نسبا» فقال هرقل: «هكذا يبعث الله الأنبياء».

لذلك كان اصطفاء محمد ﷺ من صفوة النبعة العربية، فالعرب كلهم يعرفون أن كنانة أشرف بني إسماعيل، وأن قريشاً أشرف كنانة، وأن بني هاشم أشرف قريش، ومحمد هاشمي قرشيّ كناني ولذلك يقول:

«إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشا من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم»[١].

٣- اليتم:

أنكر أهل مكة أن يرسل الله يتيما برسالته إلى خلقه، وفيهم من يساويه شرفا وأبواه حيان يحيطانه بالرعاية، ولعل من أعظم مقوّمات الاصطفاء، هو اصطفاء يتيم للرسالة، يتيم لم ير أباه، ولم ينعم طويلاً بحضانة أمه، فهو لم يتلق أي توجيه أو مساندة أو مساعدة من الأبوين، أما عناية الجدّ والعمّ، فعلى أهميتها تبقى موضع انتقاء واختيار من اليتيم، لذلك فإن أي نواتج مقدّرة بالنسبة لليتيم تعزى إليه ذاته.

لقد كان محمد ﷺ يتيما ولكن بين رحماء، فلم يحظ بتدليل الأبوين، بحيث يقتل فيه الدلال ملكات الجدّ والمثابرة واستقلالية الإرادة، وفي الوقت نفسه لم يكن مهملاً بحيث يتعرض للقسوة التي تكبح روح الأمل والطموح، وعزّة النفس، ومواهب الابداع التي تقهر التحديات.

(١) رواه مسلم.

لقد جرّب قساوة الصحراء، وعناء السفر، ومصاعب الرعي، مما هيأه لاحتمال المكاره، إذ تنامت لديه خصال الرجولة، وخلال البطولة، وصدق العزم، وطول الصبر، وفي الوقت نفسه رافق أعمامه في غدواتهم وروحاتهم، وشهد الحروب وتابع الأحلاف، وعاشر سراة القوم كما عاشر فقراءهم، فاكتسب خلائق النبل، ورجاحة الحلم، وسلاسة المنطق، وحكمة الرأي، وروعة البرهان.

من هنا كان طبيعيا أن يصطفي الله تعالى هذا اليتيم لتبليغ رسالته، لتكون آيته أبهر للعيون، والصق بالعقول، وأنوط بالقلوب، ولا تتهم الرسالة بتأثير الأبوين، ويلتبس على الناس موضع القدوة، ومكمن الأسوة، وحتى لا يكون لخوف الأبوين وخشيتهما تأثير على مضاء عزم الابن وتقحّمه الصعاب، ولذلك يقول ﷺ «أدبني ربي فأحسن تأديبي» فكل أدب تحقق له، مصدره الهي ولا تأثير للجهد البشري فيه.

لقد قهرت نفس محمد مفرزات اليتم ولم يقهرها اليتم، وأخلص نفسه لتبليغ رسالة ربّه، بكل عزم وثقة وقوة ومضاء.

- ثبت في معترك الخطوب ولم يتراجع قيد أنملة، لم يرهبه تهديد ولا وعيد، ولم يغره بذل الثروة والمال، ولم يغوه عرض الجاه والمنصب.

- حشد لخصومة الخصوم قوى النفس، وقوى الحس، وقوى الفكر، وجاهد باللسان كما جاهد بالسنان.

- دعا بالصدق، وحاور بالمنطق، وجالد بالصبر، وصاول بالرأي، وخاطب بالحكمة، وأقنع بالبرهان.

- كان عظيم الصبر إذا أصيب، كريم العفو إذا أصاب، وبرغم ما أصابه من قومه لم يزد على أن قال: «اذهبوا فأنتم الطلقاء» ذلك لأن النفس الكبيرة تترفع عن الضغائن وتنأى عن الصغائر.

٤- الفقر:

وفي بيئة مكة التي سيطرت عليها عبودية المال، استنكر العرب أن يبعث الله فقيرا برسالته، وهناك الأغنياء القادرون فلماذا؟ إن الفقر قهّار للنفوس الضعيفة التي

تستعبدها نزواتها ونزعاتها، أما النفوس القوية فتقهر الفقر، لأنها تكتفي بالقليل بل وأقل القليل لتنهض بالجليل. وحيازة المال إذا صادفت النفوس الضعيفة تصبح كماء البحر كلما ازداد الإنسان منه شربا ازداد عطشا، فصاحب الآلاف يسعى للحصول على الملايين، حتى إذا حازها سعى إلى المليارات ولا يرتوي، ولا يملأ عيني ابن آدم إلا التراب.

إن كثيرا من الناس يصاب بالسّعار المادي الذي يهدم المجتمع من جانبين: أولهما: أن يصبح جمع المال معركة تستخدم فيها أسلحة أكثر فتكا من كل أنواع الأسلحة، كالغش والخداع والكذب والتضليل والتزوير والتحايل والتآمر، وربما الانزلاق إلى الموبقات والمحرمات. وثانيهما: أن يجعل العلاقات الإنسانية تحسب بالدرهم والدينار، وتوزن بميزان الربح والخسارة، فأي علاقة تبنى مع غني حريص لا تقوم إلا على أساس ما يستفيد الناس منه، كما أن الغني يسعى لأن يشتري هذه العلاقات بماله، ليحولها إلى تبعية وإذلال وفي ذلك يقول عليه السلام: «من تواضع لغني لأجل غناه، ذهب ثلثا دينه»[١].

لذلك لا يصلح الأغنياء للنهوض بالأعباء الجليلة النبيلة، سواء في الجاهلية الأولى أو الجاهلية الحديثة، لأن هذه الأعباء تتطلب تضحية وإيثارا وشجاعة وإقداما وصبرا على الأذى ومكاره الطريق، وتحمّلا للاضطهاد والابتلاء، واجتيازا للمشاق والشدائد، وهذا ما لا يتحمله الأغنياء.

وحتى لو تميّز الأغنياء بكل هذه المقومات فإنهم لا يصلحون لتبليغ الرسالة، لأنهم لا يؤثّلون قدوة، ولا يرسخون أسوة، حيث يأتي الانتكاس من غيرهم، فمعظم الناس يتبع الأغنياء جشعاً وطمعا وجلبا للمنافع وليس عن إيمان عميق ووعي وثيق، ولذلك نجد في زمننا الحاضر من يؤمّن على قول الغنى وهو يعلم أنه كاذب، ومن يبرر انحرافه وفي الوقت نفسه يلعنه في أعماقه، وليس معنى ذلك كراهية الغنى، ولكن يعني الحذر من مزالقه.

---

(١) رواه البيهقي.

وتتجلى الحكمة واضحة في اصطفاء فقير للرسالة، ليتفرغ لتنمية إيمان الناس ومعتقداتهم وليس لتنمية ماله، ولتكون استجابة الناس له استجابة وجدانية حقيقية، لا استجابة نفعية مصلحية، حتى لا تتهم الدعوة ويتهم الداعية.

وتفاعل الناس مع الداعية على أساس من الاقتناع والوعي والارادة الحرّة، يجعل كل ما يدعو إليه ألصق بالنفوس وأنوط بالأفئدة، فتتعمق المعتقدات بالمنطق والشريعة بالتطبيق، والاخلاص بالأسوة، والفضائل بالقدوة.

وهكذا كان رسول الله ﷺ، لم يكن طالب مال ولا ثروة، وإنما رجل دعوة، عاش مستعلياً على الشهوات، مقتصرا على الضرورات، في المأكل والملبس والمسكن، رفض أسمى العروض المالية، ولم يؤثر نفسه على المسلمين عندما تدفقت عليه الأموال من كل جانب، بل كان يفرقها على المسلمين ويبيت طاويا، ومات ﷺ، ودرعه مرهونة على حفنات من شعير.

وبذلك كان اصطفاء، فقير رسولاً ـ على عكس توقعات البشر ـ عاملاً أساسياً من عوامل نجاح الدعوة وانتشارها، يؤكد أن الغنى الحقيقي هو غنى النفس، وقد رفع غنى نفس الرسول ﷺ مكانته فوق كل غنيّ وفوق كل غنىً.

٥- الأميّة:

العلم والمعرفة ـ ووسيلتاهما الرئيستان القراءة والكتابة ـ من صفات الكمال لبني البشر جميعا بدون استثناء، فما الحكمة من اختيار الرسول أميّاً؟ واعتبار أمية الرسول ميزة للرسول فقط دون غيره؟ نوضح ذلك فيما يأتي:

- اصطلح العلماء على أن من أهم مقتضيات البحث العلمي الموضوعي، أن يتحرر الباحث من أي أفكار أو رؤى مسبقة حول موضوع البحث، حتى لا تختلط مخزوناته العقلية بنواتج البحث، مما يؤثر على دقة معطيات البحث وموضوعيتها ونزاهتها.

والأميّ ـ عموما ـ خالي الذهي من أي مخزونات فكرية، لا سيّما بالنسبة للمعلومات الموضوعية عن موضوعات ذات مستوى فكري عالٍ كالعقائد، فلا تختلط بما يتلقّاه أو تمتزج به، الأمر الذي يؤهله لتلقي ما يتلقّاه نقيا صافيا لا تشوبه شائبة وبالتالي يبلغه كما يتلقاه.

- النفس البشرية ذاتية الحاكمية، فإذا كانت لديها مخزونات فكرية حول موضوع ما، ثم تلقّت أفكاراً جديدة حوله، فإنها تلجأ إلى صياغة الجديد بأسلوب يتوافق مع أفكارها، وترى أنها تضفي عليه بهاء يزيد من رونقه، وبذلك تتعرض معطيات الوحي للتعديل وربما التغيير والتبديل، وتتّهم الرسالة بأنها ليست إلهية خالصة، وهذا ما حدث في الرسالات السابقة.

إن أمانة التبليغ ونزاهته تقتضي توصيله للناس كما هو، والأميّ ـ حتما ـ أقدر على ذلك، مما يجعل الرسالة بعيدة عن أي شك أو ريبة أو اتهام، ومن ثمّ أجدر بالثقة والتصديق.

- الاستقبال الكفؤ الواعي لما يوحى ليس وقفا على القراءة والكتابة، وإنما يحتاج إلى قدرات خاصة، يتميز كل إنسان فيها عن الآخر، كالذاكرة المستوعبة المحيطة، والعقل المتوقد اللماح، والصفاء الذّهنيّ النقي، بحيث ينقدح كل ما يوحى إليه تماماً في ذهنه، ويرسخ في نفسه، وينطبع في عقله، ويتغلغل في ذاكرته، بما ينشىء في أجهزة الاستقبال لديه تأثيراً يملك عليه ذاته. هذه القدرات فطرية، والله تعالى يعلم من يتميز بها من خلقه أكثر ممن سواه.

- جدوى الرسالة الحقيقية ينبع من تمثلها تطبيقا في دنيا الناس، والتطبيق له مقوماته التي لا يتميز بها القارىء أكثر من الأمي، وكم من مشكلة استنفذ فيها العلماء معظم حياتهم ولم يجدوا لها حلاً، في حين تمكن أميون من حلها في ثوان معدودات، وحادثة رفع الحجر الأسود إحداها، فقد وصل الأمر إلى حافة الاقتتال وإغراق مكة بالدماء، وما أن عرض الأمر على الرسول الأميّ حتى حلها ببساطة حلاً أرضى الجميع بدون استثناء، وأعاد البسمة إلى الثغور والسيوف إلى أغمادها ولم ترق قطرة دم.

والخلاصة أن الأميّة لا تحدّ من قدرات الرسول على البلاغ وإنما تعززها، على أن يكون واضحاً أن الأمية ميزة للرسول فقط، وليست ميزة عامة، ذلك لتكون المعجزة أعمق، والبلاغة أوثق، والتبليغ أصدق، أما غير الرسول فلا بدّ من أن يتعامل مع الأسباب، التي تؤكد على أهمية العلم والمعرفة ووسيلتاهما القراءة والكتابة في كل منحى من مناحي الحياة.

٦- رعي الغنم:

«ما بعث الله نبيّا إلاّ ورعى الغنم، قالوا: حتى أنت يا رسول الله؟ قال: نعم، كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة»[١] . . ترى لماذا؟

إن راعي الغنم لا يقضي معظم حياته في الدور والقصور وحياة الرغد وبلهنية العيش، وإنما يقضي معظم وقته في الأجواء الطليقة المفتوحة، بعيداً عن ضغوط حياة العمران، ينتقل فوق كل أرض متاحة على الأرض، وكل مكان ممكن تحت قبة السماء، آناء النهار وأطراف الليل، حرا طليقا باحثا عما تحتاجه غنمه من كلأ وماء، صابرا مثابرا لا يكل ولا يمل.

هذه الحياة الحرّة الطليقة، تتيح لراعي الغنم السوي ـ إذا توافرت له بحكم فطرته المميزات النفسية والعقلية المناسبة ـ تفوقا عاليا في عديد من الأمور، التي تؤهله لأن يكون إنسان رسالة منها:

- تحقق له قراءة فكرية للكون، غير مكتوبة ولا مسطورة، فهو يتابع بنائية الحياة يومياً، يشاهد عملية البناء في النبات الذي يستقطب اهتمامه، يرى كيفيّة الاضمحلال والتلاشي والفناء في الصيف والخريف، . . تتساقط الأوراق، وتتجرد الغصون، وتحول الألوان، ويجف العشب، ويتمّ الاندثار بفعل هوج الرمال.

ثم يشاهد عودة الحياة في عملية بنائية متكاملة. . بخار الماء الذي تصاعد في الصيف يأخذ في التجمع، ليتحول إلى سحاب فركام تذروه الرياح، ثم لا يلبث أن يتساقط مطراً يختلط بتراب الأرض، فيراها قد اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج.

أمام ناظريه تتم هذه العملية متكاملة، يشهد الاحتضار والاندثار، ثم يشهد عملية البزوغ والنماء، من الكمون والسكون، وعملية الاهتزاز والانطلاق، وعودة الحياة، لتبدأ دورة جديدة. وهذا ما يطلق عنان فكره في استيعاب حركة الموت والحياة.

---

(١) رواه البخاري.

وفي الليالي الصافية، يتابع بفكره صفحة الكون: كواكب وشموس ونجوم.. مجموعات كونية ومجرات.. تنطلق دائرة متسارعة في ترابط وتوازن وتناسق وتماسك، بلا اضطراب ولا تعارض ولا تضارب ولا احتكاك ولا اصطدام، بنظام دقيق يجمعها وقدرة قادرة تمسكها، وقوانين وثيقة تسيّرها.

- تقود القراءة الفكرية إلى حاكميّة عقلية موضوعية، فمن يملك الموت والحياة وبقدر دورتهما؟ ومن يحكم سنن الكون ونواميسه وقوانينه؟ ويبدأ رحلة البحث عن الحقيقة، التي ترقّ فيها مشاعره، وتتنبه حواسه، فتنقله من الانبهار بالفعل إلى تقديس الفاعل ومن الانشداه بحركة الحياة إلى تنزيه واهب الحياة، ومن تنوع الخلق إلى وحدة الخالق.

والنفس البشرية لا تتمثل مفهوماً ما إلا إذا سيطر على مشاعرها وأحاسيسها وعقلها وفكرها، فتشرع في تمثله في حياتها، وتطبقه على ذاتها في مسعاها الحياتي، وأهمية أي مفهوم لا تتأتى من مجرد الوعي والإيمان به، وإنما من تطبيقه واقعا في الممارسات الحياتية، والراعي يهتم أكثر ما يهتم بتطبيق مفاهيمه واقعيا للنهوض بما أو بمن يرعى، وفق خبراته وممارساته وتجاربه.

والرسول مطلوب منه أن يجعل مما يوحى إليه منهاج حياة يطبق في دنيا الناس، لذلك لا بدّ من دربة ومران وممارسة حقيقية، ولعل في رعي الغنم ما يحقق ذلك كله.

الراعي السوء يورد غنمه موارد الردى والهلاك والضياع، بالابتعاد بها عن مواطن الخصب ومنابع الماء، وتعريضها لهجمات عدوها من الوحش والإنسان، وعدم الاهتمام بصغارها أو كبارها.

أما الراعي الصالح فإنه يحرص على أن يوردها مواطن الخصب وأماكن الماء، ويدفع عنها غوائل الخطر، وسطوة الأعداء، يمنع تفرقها، ويجمع شواردها، يعنى بصغيرها ويهتم بكبيرها.. يحمل كليلها ويعالج عليلها...، ويبقى باستمرار يقظا حذرا متأهبا لمواجهة أي عدوان عليها من إنسان أو حيوان.

مثل هذه الحياة تمنح الراعي خبرة وحنكة، وصبرا وأناة، ورفقا ولينا، وتملأه رقة ورحمة، حتى لا يفرط في مسؤولياته، ولا يضيّع ما استرعي، وهذا هو

المطلوب لقيادة بني الإنسان، ولذلك يسمى العرب الرئيس بالراعي، ومن يرأسهم بالرعيّة، وليت رعاة الأمم يتأسون برعاة الغنم.

٧ - البلاغة والفصاحة:

البلاغة من أهم مميزات الرسل، لأن مهمتهم الأساسية هي البلاغ ﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾[١]، ﴿فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٢﴾﴾[٢]، والبلاغ يتطلب بلاغة بدون شك، وهي الصفة الجامعة لسلامة الكلام وسلاسته، مبنى ومعنى ونطقا، بما يحقق إصابة المعنى المقصود، بأقل لفظ وأيسره وأفصحه، حتى يفهم عنه ويرتاح له كل مستوى من المستويات الاجتماعية المقصودة بالبلاغ. والكلام البليغ يهجر غريب الكلام ووحشيّه الذي لا تحيط به الأفهام من ناحية، ويتحاشي هجين الكلام وسوقيّه، الذي تنبو عنه الأسماع من ناحية أخرى. وإذا كان هذا مطلوبا لكل رسول، فإنه لمحمد ﷺ أكثر لزوما، لأنه بعث في بيئة حاز أهلها البلاغة من أطرافها، ولم يكونوا يفتخرون بشيء أكثر مما يفتخرون ويعتزون ببلاغتهم.

والبلاغة كما هو معروف ـ موهبة تنبتها الفطرة، وتروّيها التجارب، ويشذّبها التهذيب، ومحمد ﷺ حاز ذلك كلّه، فقد ولد في بني هاشم من قريش، واسترضع في بني سعد، وتزوج في بني أسد، وهؤلاء هم أفصح العرب لسانا، وأخلصهم بيانا، وأعلاهم بلاغة، وأعذبهم لهجة، وكان ﷺ، يعتز بذلك ويقول لأصحابه: «أنا أعربكم، أنا قرشي، واسترضعت في بني سعد بن بكر».

أما عن إحكام بلاغته ـ فطرة وتجربة وتهذيبا ـ فقد بلغ فيه أقصى المدى حتى قال: «أوتيت جوامع الكلم» ذلك لأنه كان دائم الفكر والتأمل، طويل الصمت قليل الكلام، جيد الاستماع متمكن اللسان، صافي الحسّ مختصر اللفظ، ثاقب الذهن، ذكي العقل، وهذه صفات ترفد البلاغة بمنابع ثرّة دائمة التدفق، لذلك لا عجب أن سلسلت له المعاني، وسلمت له المباني، وسمحت الألفاظ، وتمت الكلمات، فلم تنب عن خاطره فكرة، ولم تضطرب في حديثه عبارة.. لقد كان متمكناً من ناصية البلاغة، حتى تقول عائشة ـ رضي الله عنها ـ «ما كان رسول الله يسرد كسردكم هذا، ولكن كان يتكلم بكلام فصل، يحفظه من جلس إليه».

---

(١) المائدة (٩٩).

(٢) التغابن (١٢).

ولعل الحديث عن بلاغة رسول الله ﷺ، مما لا يتسع له المجال، فقد اتسعت فيها الأقوال، وتناولها علماء هذا المجال، على مرور الأيام وتتابع الأعوام، ولكنهم لم يسبروا أغوارها، ولم يستوعبوا روعتها، ولعل في استعارة وصف أحد أهل الصنعة لبلاغته ﷺ ما يزيد الأمر وضوحاً وجلاء، إذ يقول عمرو بن بحر الجاحظ وهو من هو في هذا الفنّ، عن كلام الرسول ما يأتي:

«هو الكلام الذي قلّ عدد حروفه، وكثر عدد معانيه، جلّ عن الصنعة، وتنزّه عن التكلّف.. هجر الغريب الوحشي، وتنزّه عن الهجين السوقي... لم ينطق إلا عن ميراث حكمة، ولم يتكلم إلا بما حفّ بالعصمة... لم يسمع الناس بكلام أعم منه نفعا، أو أصدق لفظا، أو أعدل معنى، أو أجمل مذهبا، أو أكرم مطلبا، أو أحسن موقعا، أو أسهل مخرجا، أو أفصح في معناه، أو أبين في فحواه، من كلامه ﷺ.

وإذ استعرضنا بعض حديثه ﷺ، فإننا نقف وجها لوجه أمام الإلهام والإبداع، والجزالة والجلالة، وحسن السَّبك وكمال اليسر وسهولة المعنى، مع قدرة لا تجارى على التشبيه والتمثيل وإرسال الحكمة التي تخلدها الأيام، حتى يقول له أبو بكر - رضي الله عنه -: «لقد طفت في قبائل العرب، وسمعت فصحاءهم، فما سمعت أفصح منك، فمن أدبك؟» قال: «أدبني ربي فأحسن تأديبي»[(١)].

وقلّما نجد كاتباً بالعربية - مسلما أو غير مسلم - لم يقتبس من بلاغة الرسول ﷺ، وما ذلك بمستنكر، فكلام الله تعالى هو البيان المعجز، الذي لا يجاريه بيان، وكلام رسول الله، هو سنّة هذا البيان، التي حملته إلى الناس، ليفيض عليهم من نور الله نورا، ويضفي على الحياة بهجة وسرورا.

* * *

هذا هو رسولنا - نحن المسلمين - محمد بن عبدالله ﷺ الذي صاغت عقله العقيدة، وأعلت صوته النزاهة، وقدست شخصه التضحية، اجتمع فيه ما تفرّق في جميع الناس، من خصال الرجولة، وخلال البطولة، وخلائق النبل، وعلوّ

(١) عمرو بن بحر الجاحظ، البيان والتبيين، دار الفكر للجميع، بيروت، ـــــ، ط١، حـ٢، ص٤٤، بإيجاز.

الفضائل. . خلق عظيم، وحياء وقور، ولسان صادق، وذمة وثيقة، وقلب شجاع، وخشوع هادىء. . رئيس دولة، ورائد أمة، ونبي رحمة، وممثل فكرة، ورسول وحدة، وداعي نهضة، وهاد إلى شرف الغاية. كانت حياته كلها مثالا لصاحب الدين وصاحب الدنيا معا، ﷺ.

ثالثاً: معالم السيرة

أ: في مكة

لا يتسع المجال لاستقصاء مجريات أحداث السيرة النبوية، ولا تكتمل الصورة بدون إلمام سريع مبسط بمعالمها، لذلك فإن تناول أهم المعالم لا يعني تعمقاً في السيرة، وإنما إلقاء شعاع من نور عليها فقط يبين مرتكزات هذه المعالم دونما تفصيل، وفي كتب السيرة الوثيقة تحقيق لاستزادة كل مستزيد.

١- البدايات الأولى:

- بدأت الدعوة سرّا، محاطة بالكتمان، حتى لا تواجه بردّات فعل عنيفة من أصحاب القوة والسلطان، لا سيّما وأن الدعوة الجديدة «الإسلام» تهدم وتقوّض جميع مورثاتهم الفكرية سواء الاعتقادية منها أو السياسية أو الاجتماعية أو الاقتصادية.

- استغرقت هذه الفترة ثلاث سنوات كانت حصيلتها أربعين مسلما ومسلمة، حرص الرسول على تربيتهم تربية متعمقة على مناهج الإسلام، واتخذ من دار الأرقم بن أبي الأرقم مكانا للقائهم وتعليمهم.

- بعد السنوات الثلاث نزل قوله تعالى: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾[١] وقوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾[٢] فبدأ الجهر بالدعوة، وثارت ثائرة زعماء قريس وبدأت المواجهة.

٢- المواجهة والاضطهاد:

- تفجرت ضد الرسول سفاهة السفهاء وجهالة الجهلاء، تحملها أحقاد طاغية، وقوى باغية، وقلوب قاسية، كأبي جهل وأبي لهب وأبي سفيان وعقبة وعتبة وأمية وغيرهم، وانتقلوا من سفاهة الكلمة إلى سفاهة القوّة.

---

(١) الحجر (٩٤).

(٢) الشعراء (٢١٤).

- شكوا إلى أبي طالب ـ عم النبي ـ فكان ردّ النبي الذي لا زالت تردده الأجيال عبر آماد الزمان وأبعاد المكان: «والله يا عمّاه، لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري، على أن أترك هذا الأمر ما تركته، حتى يظهره الله أو أهلك دونه».

وجربوا التفاوض مع النبي مباشرة.. عرضوا عليه المال، والجاه، والزعامة فرفض، مما أجج نيران الأحقاد في قلوبهم على الدعوة والداعية ومن استجاب لهما.

- انقلب كل زعيم يؤلب عشيرته على تعذيب من أسلم منها، فصبوا العذاب عليهم صبّاً ـ ضربا وجلدا، وكيّاً بالنار، وصهرا في الشمس، وتجويعاً وتعطيشاً ـ ولكنهم صمدوا صمود الأبطال، واستشهد من استشهد منهم، وسلم من سلم.

- اعتبر زعماء قريش بني هاشم مسؤولين عما حدث، وقرروا محاصرتهم اجتماعيا واقتصاديا، لا بيع لهم ولا شراء منهم، ولا تزويج لهم ولا زواج منهم، فانحاز بنو هاشم إلى شعب أبي طالب، ومعهم المسلمون، وأحكم حصارهم الذي استمر ثلاث سنوات، أكلوا خلالها الجلود وورق الشجر.. حتى قام بعض شباب مكة بنقض صحيفة المقاطعة.

٣- الانتشار الخارجي:

- لم يكن الرسول قادرا على حماية المسلمين فأذن لهم بالهجرة فهاجروا إلى الحبشة على دفعتين، ضمت أولاهما أحد عشر رجلاً وأربع نسوة، والثانية اثنين وثمانين مسلما مع عائلاتهم، وحاولت قريش استعادتهم ولكنها فشلت.

- قصد الرسول الطائف ومعه مولاه زيد بن حارثة عساه يجد لدى سادة ثقيف استجابة أفضل من سادة مكة، ولكنهم كانوا أضل وأشقى.

- أخذ بعد ذلك يقصد القبائل في الأسواق العربية، وفي موسم الحج، فدعا فزارة وغساناً وبني مرّة وسليما، وعبساً ودوسا وغطفان وبني حنيفة وبني عامر، وكلبا وبني النضر وبني عذره وغيرهم، ولكنهم لم يستجيبوا كذلك.

٤- بين الألم والأمل:

في العام العاشر للبعثة توفي أبو طالب، كما توفيت خديجة ـ رضي الله عنها ـ فأصاب الرسول ألم شديد لفراقهما وحزن عميق عليهما حتى سمّيَ ذلك العام بعام الحزن.

- في العام ذاته كانت حادثتا الإسراء والمعراج، حيث رأى ﷺ من آيات الله الكبرى ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ۝١٨﴾[1]، فأضفت الحادثتان عليه راحة نفسية وطمأنينة قلبية، فعاد إلى الدعوة بإرادة صلبة وروح قحّامة وحيوية زاخرة.

٥- نحو الانطلاق:

- جاءت المؤازرة من خارج قومه لتكون المعجزة أوفى، فقد قبل الإسلام في العام الحادي عشر للبعثة ستة نفر من الخزرج، وأخذوا يدعون قومهم، ووافوا النبي في الموسم التالي، في اثني عشر مسلما من الأوس والخزرج، بايعوه بيعة العقبة الأولى (الصغرى)، وبعث معهم مصعب بن عمير ـ رضي الله عنه ـ ليفقههم في الدين.

- في موسم الحج الثالث عشر للبعثة، عاد مصعب، ومعه ثلاثة وسبعون رجلاً وامرأتان ممن أسلموا، وبايعوا النبي بيعة العقبة الثانية (الكبرى).

- أذن النبي للمسلمين بالهجرة إلى المدينة، فهاجروا إليها زرافات ووحدانا، هاجرين الأهل والمال والوطن فرارا بدينهم.

- تآمر المشركون على قتل النبي ليلة هجرته، ولكن الله تعالى سلّمه منهم، وأخذوا في مطاردته في جبال مكة وفيافي الصحراء، ولكن الله منعه منهم: ووصل إلى المدينة يرافقه أبو بكر الصديق، واستقبل فيها أروع استقبال.

(١) النجم (١٨).

ب- في المدينة

١- بناء الدولة:

- أخذ الإسلام ينتشر سريعا في المدينة، فعمل الرسول على بناء دولة الإسلام الأولى في هذه الرقعة المحدودة، لتتولى الدفاع عن دين الله، وتأمين حرية الدعوة إليه.

- كان أول إجراء اتخذه هو بناء مركز الدعوة والدولة، ففي قباء أسس مسجد قباء وهو أول مسجد للمسلمين، وفي المدينة أسس مسجده الشريف، وغدا المسجد مكان العبادة ومركز القيادة، تتمّ فيه الاجتماعات واللقاءات، وتعقد فيه الندوات والمحاضرات، وتتم فيه الشورى وتنظيم أمور المسلمين، وتعقد فيه الألوية وتنطلق منه الجيوش ـ وهكذا.

- لما كان مجتمع المدينة ليس إسلامياً خالصاً وإنما فيه المشركون وفيه يهود فقد عمل ﷺ على تنظيم المجتمع وفق مستويين:

*- تنظيم العلاقات الخاصة بين المسلمين بعقد الاخوة، الذي آخى فيه بين المسلمين اثنين اثنين.

*- تنظيم العلاقات العامة بين جميع سكان المدينة من مسلمين ويهود ومشركين بالوثيقة التي أمر بكتابتها والتي يعتبرها المؤرخون أول دستور إسلامي، حيث نظمت فيها العلاقات المتبادلة على أساس من الحرية والعدالة مع تمايز الفئات اقتصاديا واجتماعيا، وجعل مرجعية الحكم إسلامية «لله ورسوله».

٢- حماية الدولة:

- أعد الرسول المسلمين عسكريا لحماية عقيدتهم ودولتهم، وسيَّر السرايا لتحذير المشركين من مهاجمة المدينة، ثم كانت المواجهة وكالآتي:

٢/١ السرايا: وهي بعوث عسكرية تدريبية محدودة مهمتها استطلاعية وقائية: أسندت قيادة كل منها لأحد الصحابة وبلغ عددها ـ حسب الراجح ٥٢ سرية.

٢/٢ : **الغزوات**: وهي حملات عسكرية منظمة، مهمتها قتالية، قاد الرسول الكريم معظمها، وتمت مع أربع فئات هي: قريش، يهود، القبائل المعادية، الرومان.

- كانت الغزوات التي تمت ضد قريش خمس غزوات هي: بدر الكبرى وقد انتصر فيها المسلمون، وغزوة أحد، وكان النصر فيها ابتداء للمسلمين ثم دارت عليهم الدائرة، وذلك بعد مخالفة الرّماة، غزوة الأحزاب، ولم يجر فيها قتال يذكر بسبب الخندق الذي أحاط به المسلمون المدينة، وارتدت قريش والقبائل دون أن تحقق شيئاً، وغزوة الحديبية، ولم يجر فيها قتال، وعقد صلح الحديبية، وغزوة الفتح، التي فتح فيها النبي ﷺ مكة، وأنهى الصراع مع قريش.

- أما مع يهود فكانت هناك أربع غزوات هي: غزوة بني قينقاع، الذين أخذوا يهددون المسلمين، وقتلوا أحدهم وكان النصر فيها للمسلمين وانتهت بإجلاء بني قينقاع إلى الشام. وغزوة بني النضير: الذين تآمروا على قتل النبي، وانتهت بانتصار المسلمين، وإجلاء بني النضير إلى خيبر بدون سلاح. غزوة بني قريظة: وقد نقض هؤلاء عهودهم مع النبي، وساندوا قبائل الأحزاب في القضاء على النبي والمسلمين في المدينة، وانتصر فيها المسلمون كذلك، وكان عقاب هؤلاء أشدّ نزولاً على حكم حليفهم السابق: سعد بن معاذ ـ رضي الله عنه ـ حيث قتلت مقاتلتهم، وسبيت الذراري، وقسمت أموالهم، ثم غزوة خيبر التي أخذ يهودها يحرضون قبائل غطفان على غزو المدينة وعقدوا حلفا معهم، فعاجلهم النبي واحتل خيبر، وأبقى أهلها فيها يقومون على زراعتها، على أن يجليهم المسلمون متى أرادوا وبقوا فيها حتى عادوا للتآمر، فأجلاهم عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ.

- أما القبائل العربية، فكانت السرايا كافية لإرهاب لصوصها وقطاع الطرق فيها، الذين تجرأ بعضهم على السطو على المدينة، ولم تجر معهم سوى معركة واحدة هي معركة حنين حيث اجتمعت هوازن وثقيف على قتال المسلمين بعد فتح مكة وكان النصر فيها ابتداء للمشركين، ولكن المسلمين سرعان ما تملكوا زمام المبادرة وهزموهم شرّ هزيمة.

- وجهت إلى الروم غزوتان هما: غزوة مؤتة: ونظمت فيها القيادات المتتابعة: زيد بن حارثة، فإن استشهد فجعفر بن أبي طالب، فإن استشهد فعبدالله بن رواحة،

فإن استشهد يختار المسلمون أميراً. كان المسلمون في ثلاثة آلاف فأعد لهم الروم مائتي ألف، ومع ذلك قاتل المسلمون قتالا لم يعرفه الرومان من قبل، واستشهد القادة الثلاثة، ثم ولّى المسلمون خالد بن الوليد، الذي أدار المعركة بكفاءة، ثم انسحب بالمسلمين ليلاً، ولم تسفر هذه الغزوة عن انتصار حاسم لأحد الطرفين.

أما الغزوة الثانية فهي غزوة تبوك، حيث حشد الرومان حشودهم واستنفروا قبائل عرب الشمال لغزو المدينة، فحشد النبي جيشاً من ثلاثين ألف مقاتل، وقصد «تبوك» ولكن الرومان أوجسوا خيفة من مقابلة هذا الجيش فتفرقوا وتركوا قبائل العرب التي سارعت إلى عقد الصلح مع النبي ﷺ.

وهناك غزوة ثالثة لم تتم في حياة الرسول، حيث شكل جيشا بقيادة أسامة بن زيد لتأديب الرومان الذين أعدموا والي «معان» فروة بن عمر الجذامي، لأنه اعتنق الإسلام، وتوفي الرسول ولم يتحرك الجيش الذي أطلق عليه مسمى «بعث أسامة».

٣ - نشر الدعوة:

- كانت الدعوة مستمرة بالجهود الدعوية التي يقوم بها الرسول ﷺ، والمسلمون، ولكن الرسول الذي أرسله ربّه للناس كافّة عمل على توسيع آفاق نشر الدعوة، فقام بإرسال عشر رسائل إلى قادة بعض الدول. يدعوهم إلى الإسلام وإلى الأمراء العرب الذين لم يدخلوا في الإسلام، وأرسل كل رسالة مع أحد أصحابة، وقد وجهت هذه الرسائل إلى : قيصر الروم، كسرى فارس، نجاشي الحبشة، مقوقس الاسكندرية، أمير دمشق، أمير بصرى، أمير البحرين، أمير اليمامة، وأمراء عمان واليمن، وقد أدت هذه الرسائل مفعولها، فأسلم بعض الأمراء، ورد الآخرون رداً جميلاً فيما عدا كسرى الذي مزق الرسالة فمزق الله ملكه، وقتل أحد أمراء بصرى وهو شرحبيل الغساني الرسول «الحارث الأزدي» متحديا كل القيم والأعراف والأصول العربية[1].

- حسمت القبائل العربية أمرها - بعد فتح مكة - وآثرت مسالمة النبي والمسلمين، والدخول في الإسلام، وجلس النبي لاستقبال وفودها، والرد على

(١) محمد الغزالي، فقه السيرة، مرجع سابق، ص ٣٨٦.

استفساراتها، وتوضيح المفاهيم الإسلامية لهم، فاستقبل وفود اثنتين وثلاثين قبيلة من جميع أرجاء الجزيرة، وأرسل مع كل قبيلة من يعلمها الإسلام، ويزيل من بينها الأوثان.

٤- إلى الرفيق الأعلى:

في العام العاشر للهجرة، الثالث والعشرين للبعثة، حج النبي ﷺ، حجته الأخيرة والتي عرفت بحجة الوداع، وفي هذه الحجة خطب الرسول في المسلمين خطبته الجامعة التي عرفت أيضاً بخطبة الوداع، والتي بين فيها أهم مبادىء الإسلام.

- نزل قول الله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾[1] والمسلمون وقوف بعرفة، فبكى المسلمون بكاء شديدا لعلمهم أن الرسول لن يبقى بينهم بعد أن أتمّ الله دينه.

- في أواخر صفر من السنة الحادية عشرة للهجرة، مرض الرسول ﷺ، ولم يستطع الصلاة بالمسلمين فأناب أبا بكر، وفي يوم الاثنين، الثاني عشر من ربيع الأول، من السنة الحادية عشرة للهجرة انتقل المصطفى ﷺ إلى جوار ربه راضياً مرضيا وقد أدى الأمانة، وبلغ الرسالة، ونصح الأمة تاركا فيها أمرين لن تضل ما أن تمسكت بهما: كتاب الله، وسنة نبيّه.

---

(١) المائدة (٣).

رابعاً: منطلقات التربية النبوية

أ- إعداد أجيال الرسالة

لم يكن خافيا على الرسول ﷺ أن أتباع الرسالات السابقة، لم يلبثوا إلا قليلاً بعد وفاة رسل الله إليهم حتى تنكبوا الصراط المستقيم الذي دعوا إليه، بل وحرّفوا كتب الله تعالى، وأنه ما من حركة إصلاحية قامت إلا وأصيبت بالتفكك والانحلال بعد وفاة قادتها، وعاد الناس إلى ما كانوا عليه، وربما أسوأ مما كانوا عليه.

وحيث أن الرسالة الإسلامية هي الرسالة الخاتمة التي يجب أن تستمر حتى يرث الله الأرض ومن عليها، فإن الأمر يتطلب وضع الأسس الثابتة الراسخة الوثيقة، لإعداد أجيال تحمل الرسالة ـ كما هي ـ على مدى تتابع العصور والدهور، بأمانة ووعي وفاعلية وإخلاص، مما يقتضي العمل في اتجاهين:

١ - إعداد جيل المعاصرين:

كانت أمة العرب ـ كما سبق القول ـ أكثر أمم الأرض تخلفا في النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وأقلها نصيبا في حيازة الثقافة والعلم والمعرفة، ومع ذلك فهي أمة من أصعب أمم الأرض قياداً وأكثرها تمردا، وأشدّها شكيمة، وأكثرها تمسكا بالمورثات الفكرية والحرية الفردية.

وكان على الرسول ﷺ، أن يربّي جيلا رائدا، يبقى نموذجا بشريا يقتدي به، ويتأسى بمقوماته وتصرفاته بنو الإنسان على مدى امتداد الزمان، لا لينهضوا بأمتهم العربية فحسب، بل وليجعلوا منها قائدا لركب البشرية وأمم الأرض مع استمرارية مسيرة الحياة.

لذلك كان لا بدّ من استثمار معطيات الفكر الجديد لإعلاء إنسانية الإنسان المسلم، والارتقاء بمكانته وكرامته، وتحقيق أمنه واستقراره وكفايته، بصياغة ذاته صياغة نوعية جديدة متفوقة، وإعادة تشكيل مقومات نفسه وقلبه وضميره ووجدانه

وإحساسه وشعوره، ودوافعه وتطلعاته وآماله وطموحاته، بل وغرائزه وميوله ومواهبه وقدراته واستعداداته على ثوابت من الفكر الإسلامي.

وهذا ما قام به الرسول ﷺ، عبر عمليات تربوية متتابعة ـ نوضحها فيما بعد ـ لأولئك النفر الذين عاصروا وجوده، وهم ما اصطلح على تسميتهم «جيل الصحابة»، وإذا بهم يصبحون في فترة قصيرة من عمر الزمن نماذج لعمق الإيمان، وكفاية الإنسان. ارتقوا بسرعة مذهلة من القاعدة إلى القمة، ليصبحوا: قادة الأمم، وورثة الحضارات، وموازين العدل، ومعايير الخير، وحراس الحق.

وما أن انتقل الرسول الكريم إلى الرفيق الأعلى، حتى استبد التمرّد بالقبائل العربية، وأصاب الأمة ما أصاب الأمم قبلها من التنكّر لرسالات السماء، وارتدّت قبائل العرب جميعها ـ تقريبا ـ عن الإسلام، ولكن جيل الصحابة الذي ربّاه الرسول الكريم، وقف في معترك الخطوب كالطود الشامخ، ولا زلنا نردد أقوال أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ في أحداث الردّة، حيث تحوّل وهو الحييّ الخجول إلى أسد هصور، لم تذهله الأحداث، وإنما حشد لها كل ما وهبه الله تعالى من قوة وموهبة وعلم وفكر، ومن هذه الأقوال:

- «من كان يعبد محمدا فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حيّ لا يموت»[1]. قالها عندما فتن الناس بموت الرسول.

- «والله لأقاتلن من فرّق بين الصلاة والزكاة، ولو منعوني عقالاً كانوا يؤدونه لرسول الله لقاتلتهم عليه ما استمسك السيف بيدي»[2]. قالها عندما عرض المرتدون أن يصلّوا ولا يزكوا.

- «والله لو أن الطير والسباع تخطفنا، ولو أن الكلاب جرّت بأرجل أمهات المؤمنين، ما أوقفت جيش أسامة، ولو لم يبق في القرى غيري لأنفذنه»[3] قالها

(١) محمد بن جرير الطبري، تاريخ الأمم والملوك، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٨م، ط٢، حـ٢، ص٢٣٥.

(٢) الحافظ ابن كثير، البداية والنهاية، دار الريان للتراث، القاهرة، ط١، ١٩٨٨م، حـ٦، ص٣١٤.

(٣) المرجع السابق ص ٣٠٨.

عندما عرض عليه الصحابة أن يوقف الجيش الذي أمر به الرسول بقيادة أسامة بن زيد.

- «والله لأنسينّ الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد» قالها عندما أخبر أن الروم يحشدون لغزو الجزيرة.

ونسج الخلفاء المسلمون على منوال أبي بكر، ولم تمض فترة طويلة حتى كانت رايات الإسلام تخفق ما بين الصين شرقاً، وفرنسا غرباً.. هذا هو الجيل الذي ربّاه المربي الكريم محمد ﷺ.

٢- إعداد الأجيال اللاحقة:

لم يكن إعداد جيل واحد كافيا لتأمين استمرارية حمل الرسالة، لذلك حرص الرسول الكريم على وضع القواعد الأساسية لتربية مستمرة عبر العصور، ترتقي بالأجيال مدارج الكمال، بلا تفريط في حق ولا تقصير في واجب، ولا جور في سلطة ولا فساد في أرض، وإنما حق وعدل وخير في قيادة حركة الحياة، وإصلاح مكوناتها بعزمات بشرية مخلصة صادقة مقتدرة.

وتتضمن السنة النبوية كل أساس من هذه الأسس في كل مجال من مجالات التربية ـ كما سيتضح لاحقا ـ وهذه السنّة، جمعت وقوّمت وفرزت ودوّنت بأوثق الأساليب العلمية، ولا زالت تتوارثها الأجيال جيلاً بعد جيل إضافة إلى الأصل الأصيل وهو القرآن الكريم، ومن هنا تتضح الحكمة البالغة في قول الرسول الكريم: «إنّي تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلّوا بعدي أبداً: كتاب الله وسنّة نبيّه»[1].

(١) رواه الحاكم.

ب- برنامج الإعداد

غاية الرسالة تحقيق الهدى لبني الإنسان ـ تصورا واعتقادا وسعيا ـ حتى لا يضلّ طريقه في متاهات الحياة فيشقى، والله تعالى يقول: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾﴾[1]، وهدى الخالق ـ جل شأنه ـ مبسوط في الكتب السماوية التي جمعها القرآن الكريم، مما يجعل القرآن الكريم سبيل الهدى الممدود لخلق الله.

ويحدد القرآن الكريم الأسس التي يبني عليها الرسول لتحقيق مسار الهدى بقوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾[2] وبناء على ذلك فإن برنامج الإعداد لأولئك الذين يبلغون هدى الله في مسعاهم، والذي يقوم عليه الرسول، له مفردات أربع هي: تلاوة الآيات، التزكية، تعليم الكتاب، تعليم الحكمة، وبيان ذلك كالآتي:

١ - تلاوة الآيات:

التلاوة من تلا يتلو بمعنى بيّن واتبع، والآيات المقصودة هنا هي آيات الخلق في الأنفس والآفاق، وعليه فإن أول مفردات البرنامج تأخذ بعدين: استيعاب الآيات، واتباعها كأسلوب حياة، أي تطبيقها في الواقع الحياتي، وكما يأتي:

١/١ : بيان الآيات:

ضغوط الحياة كثيرة وكثيرة جداً، لذلك كثيرا ما تصرف الإنسان عمّا يسمع ويرى ويشاهد، وتحول دون تفكيره المتعمق فيه، ومثال ذلك:

- يرى الإنسان يوميا آيات الله في الأنفس والآفاق، في كل خليّة وفي كل ذرّة وفي كل نواة وفي كل قطرة، وفي كل جرم سماوي، في السنن الحاكمة والنواميس

---

(١) الحج (١٢٣).

(٢) آل عمران (١٦٤).

الضابطة والقوانين المسيّرة لها، وقد ينفعل بما يرى ولكنّ قليلا من الناس الذي ينتقل به انفعاله بعظمة الخلق إلى التفكير الموضوعي بعظمة الخالق.

- ويرى يوميا عمليات الهدم والبناء من سقوط وانحدار، وذبول وازدهار، وكمون وانطلاق، وبزوغ ونماء، ولكن قليلاً من الناس تقوده هذه المشاهدات إلى المحاكمة الرصينة لأحقية الحياة والموت والبعث والنشور.

ويشاهد يوميا متقابلات الحياة، من نور وظلمة، وصحة ومرض، وقوة وضعف، وحرارة وبرودة وهو يقارن ويفاضل ويختار، ولكنه قلما ينتقل من المتقابلات الماديّة إلى المتقابلات المعنوية من حق وباطل، وخير وشر، وعدل وظلم، وصلاح وفساد، ومن ثمّ يقارن ويفاضل ويختار.

لذلك قد يبتعد الإنسان عن مسار الهدى. والرسول معنيّ ببيان آيات الله لهؤلاء وتذكيرهم بها، والانتقال بهم إلى الربط بين عظمة الخلق وعظمة الخالق جلّ وعلا، وبذلك تترسخ أول بذور الإيمان، فإذا فكر الإنسان في نفسه فقط بل في أي حاسة أو أي جهاز من أجهزة جسمه وكيف يعمل لا يلبث أن يقرّ وجدانيا بعظمة الخالق.

١ / ٢ : اتباع الآيات:

كل آية من آيات الله في الأنفس والآفاق، تحقق قوامة حياة الإنسان على هذه الأض المستخلف فيها، ولا تتحقق له هذه القوامة ما لم يستوعب الآيات ويتّبعها أي يطبقها ويعمل بمقتضاها، فالذرّة آية من آيات الخلق، واتباعها يعني استيعاب تركيبها والعمل على تفتيتها للافادة بالطاقة الكامنة في كل جزئية منها، والحصول على الطاقة الذرية والنووية وغيرها. وبذرة أي نبات آية، وفقه تركيبها النووي قد يؤدي إلى وفرة الانتاج الزراعي، وحمايته من الآفات، وجاذبية الأرض آية، واستيعاب اتباعها يؤدي إلى تطوير المواصلات والاتصالات وغزو الفضاء، وتركيب أي جهاز في جسم الإنسان آية واستيعابها يمكن من علاج أي خلل يصيبه.

إن اتباع الآيات يؤدي إلى إيقاظ العقل، واستنفار القلب، واستجاشة الحواس، لتعمل على استيعاب الكينونة البنيويّة لكل آية، والتعامل معها على أساس هذا الاستيعاب، وبذلك تتحقق نقلة نوعية في حياة الإنسان ترتقي به مدارج الحضارة.

٢- التزكية:

إن فقه آيات الله واستثمارها بالأخذ بالأسباب لا يعني الاستقامة على سبيل الهدى. فكم من عالم أصبح قمة في فقه أي علم من العلوم وحاز قصب السبق في تطبيقاته، ولكنه استمرأ سبيل الضلالة واندفع فيه، فالاستقامة على سبيل الهدى تتطلب بعد فقه الآيات واتباعها ترقية للنفس البشرية وتزكيتها حتى تغدو مطواعة للحق، مستمرئة للخير، ملتزمة بالعدل والصلاح.

وقد جاءت مفردة البرنامج الثانية مؤكدة على التزكية، والفلاح في هذه الحياة إنّما يعتمد على التزكية ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝﴾[1] فالفلاح للتزكية والخيبة للتدسية، لذلك كان على الرسول أن يزيح من النفوس كل ما علق بها من مورثات فكرية قبل الرسالة، ويربطها بمفاهيم الرسالة ومعتقداتها وتصوراتها وقيمها وأخلاقياتها وسلوكياتها، وإقامة هذه التزكية على أساس تفاعلي مع فقه الآيات، فيغدو التزام سبيل الهدى نابعا من أعماق النفوس باقتناع وجداني، والتزام معطيات الرسالة عن إيمان عميق بما جاء فيها.

٣- تعليم الكتاب:

المفردة الثالثة من مفردات برنامج الاعداد لتحقيق التزام الناس هي تعليم الكتاب، والكتاب «القرآن الكريم» هو المتضمّن لكل مسارات الهدى ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾[2]، للتي هيَ أقوم في المعتقدات والعبادات والمعاملات، وللتي هي أقوم في التصوّر والشعور والتوجه، والفهم والوعي والسلوك، وفي السياسة والاقتصاد والاجتماع وهكذا.

والكتاب يحدد للإنسان ما يرضاه له خالقه من قول أو عمل في هذه الحياة الدنيا، فهو وإن تناول الحقائق المفتاحيّة العلمية، الدينية منها والاجتماعية والكونيّة، ويضع العقل البشري في دائرة الوعي العلمي بسنن الله تعالى، فإنما ليدفع الإنسان للتأمل والبحث والتقصي، ليسير في طريق النضج العقلي والتوهج الفكري، لينطلق في حياته عن علم، ويصدر فيها عن فهم.

---

(١) الشمس (٩-١٠).

(٢) الإسراء (٩).

والكتاب هو أساس التشريع، يشرّع للإنسان ـ الذي آمن من خلال فقه الآيات واتباعها، وزكى نفسه من أدران الجهل والجاهلية ـ المباح والمحظور في السعي الانساني: قولا وعملا وخلقا وسلوكا، بحيث يلتزم الإنسان سبيل الهدى ويستمر عليه، بمعرفته الأوامر واتباعها والنواهي واجتنابها، والحلال والتزامه والحرام والنأي عنه، وبذلك يعمر الحياة وفق هدي الله.

٤ - تعليم الحكمة:

والمفردة الرابعة من برنامج الإعداد هي تعليم المؤمنين الحكمة، والحكمة كما يقول اللغويون هي: «معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم»[(١)]، مما يجعل أقوال وأعمال المؤمنين بالرسالة في هذه الحياة لا تصدر إلا عن معين حكمة، هادفة إلى ترسيخ الحق والعدل والخير والصلاح، وبعيداً عن الصدامية والتوتّر والانصياع للهوى والنزوات التي تمزق لحمة المجتمع، ملتزمة بآداب التعامل وأخلاق التواصل، لتصل بمجتمع المسلمين إلى مجتمع نموذجي الترابط والتآزر والتعاون، الأمور التي تؤول إلى خير المجتمع وصدق الله العظيم ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾[(٢)]. والرسول الكريم يؤكد على طلب الحكمة والتزامها فيقول:

- «الحكمة ضالة المؤمن، فحيث وجدها فهو أحق الناس بها»[(٣)].

---

(١) عن المعجم الوسيط، حـ١، ص ١٧٩.

(٢) البقرة (٢٦٩).

(٣) رواه الترمذي.

خامساً: خلاصة الفصل الأول

نخلص من هذا الفصل إلى ما يأتي:

١- كان العالم ـ عالم بني الإنسان ـ في مطلع القرن السابع الميلادي، قد تطاول به العهد بالرسالات السماوية الهادية وانطمست أمامه معالم طريق الهدى، فتنكّب السبيل القويم في إدارة حركة الحياة، وأخذ كل شعب يديرها بما يوافق رأيه وهواه، ولما كان الرأي النابع من الهوى هو مضلّة الرأي، فقد نأى الناس عن المبادىء الحاكمة لخيرية الحياة من حق وعدل وخير وحرية ومساواة وتكريم للإنسان الذي هو المادّة الرئيسة للحياة، ولعمران الأرض.

والمتتبّع لتاريخ دول ذلك الزمن، الذي يسميه المؤرخون «عهود الظلام»، يلمس استشراء قوة السّفه والجور، وتحكّم نزعات الظلم والشر والجبروت، مما أدى إلى تعفّن في الأخلاق، وتحلل في السلوك، وتعمّق في عبودية الذات، وطواعية الشهوات، وانعدام المعاني النبيلة، والمفاهيم الجليلة، من تنكر للقدسية الإلهية وتقديس للجماد، وهبوط بكرامة الإنسان، ومسخ للحياة والأحياء.

٢- لم يكن الخالق الرحيم ليترك ركب البشرية، التي أهّلها للاستخلاف في أرضه، وعمران الحياة فيها، يتلظى في هاجرة الضلال، فأرسل له رسالاته المتتابعة، حتى بعد أن بلغ الإنسان ما بلغه من النضج العقلي، شاء ـ سبحانه وتعالى ـ أن يرسل للناس جميعا، رسالة هادية خاتمة، يضّمنها أسس قوامة الحياة البشرية وخيريتها لتشكل منارات واضحة، تسلم إلى شرف غاية الوجود في الحياتين: الدنيا والآخرة.

وشاء ـ سبحانه ـ أن ينزل هذه الرسالة في بؤرة تركز الحاجة للهدى، حيث أمة العرب، وفي أشدّ بقعة من ديار هذه الأمة احتياجا للرسالة حيث مدينة مكة، ليكون الانطلاق من مركز الاحتياج... الاحتياجِ البشري في الدائرة الانسانية، ويأخذ في الانتشار ليعمّ أرجاءها.

٣- اصطفى ـ سبحانه ـ رسولاً من تلك المدينة من تلك الأمة من هذا العالم ليبلّغ رسالته الخاتمة، وهو محمد بن عبدالله ﷺ، وكلفه بحمل هذه الرسالة «رسالة الإسلام» إلى الناس كافة، وليس إلى قومه فقط، فلن يعود هناك رسالات ولا رسل، فمحمد هو النبي الخاتم والإسلام هو الرسالة الخاتمة.

وكما الرسالات السابقة. ضمّن الخالق أسس الرسالة، ومعالمها الرئيسة في كتاب موحى هو القرآن الكريم الذي يتضمن كل ثوابت الرسالة، وحتى لا تناله يد التغيير في وقت كفّت فيه الرسالات فقد تعهّد ـ جل شأنه ـ بحفظه.

والرسالة الإسلامية بعيدة عن كل تعقيد تنبو عنه الأفهام، وإنما تخاطب العقول بما هو معقول، حتى لا يستريب فيها عقل عاقل، ولا يضيق بها جهل جاهل، حيث تنساب في كل فطرة سليمة، وتتغلغل في كل نفس كريمة، وتجدد الإجابة عن تلك التساؤلات التي شغلت فكر الإنسان مذ كان: هذا الإنسان وهذا الوجود، وهذا الكون، من أوجده؟ وكيف أوجده؟ ولماذا أوجده؟ وما مآله ومصيره؟.

تبين حقيقة الخالق وما خلق، والكون وما حوى، والوجود وما احتوى، ومبادىء السبب والغاية، والعلاقة بين الأرض والسماء، والإنسان وربّ الإنسان، والذات والمعنى، والأسباب ومسببها، وتترك للعقل البشري مساحة مقدرة من حرّية البحث والتفكير وفقه مكونات الكون، وعمل موجوداته وتفاعلها.

وكل ما جاء في الرسالة لا يثقل الأفهام، فالمنطق فيه قويم، والتسلسل البنائي سليم: كل محدَث لا بدّ له من محدِث، أوجد كل شيء ولم يوجده أحد، قديم قدما أزليا باق بقاء أبديا، له طلاقة الصفات ونزاهة الذات، وكمال الوجود، ذلكم هو الله. خلق الله الأرض وما عليها وشاء أن يستخلف الإنسان فيها، فزوّدها بمتطلبات بقائه ونمائه وسخرها له، وزوده بإمكانات استثمار هذه المتطلبات من الأرض والكون المحيط بها، ورسم له سبيل الهدى الذي يؤدي به إلى كرامة الحياة، وكرامة الغاية والمآل، بلا لبس في المفاهيم، ولا تعقيد في التعاليم، حلال مباح، وحرام محظور، في كل متطلبات الحياة وسلوكياتها. والسعي محكوم بهما، فمن أحسن فله الحسنى وزيادة، ومن أساء فله السوء.

٤- وأخلص الرسول حياته وفقاً لإرادة المرسل ـ سبحانه ـ لم يهن ولم يحزن ولم يكل ولم يتوان قط، ولم تكن السبل ممهدة، ولا الطريق مأمونة، ولكنه كان يعلم علم اليقين. أن لا نبوّة بغير اخلاص، ولا نصر بغير صبر، ولا كرامة بغير تضحية، فوهب لرسالته كل قواه:

- ثارت عليه براكين الأحقاد، وطاردته سفاهة السفهاء، وهاجمته جهالة الجهلاء، ولكنه صبر وثبت وتحمل وضحّى. حاور باللسان، وجاهد بالسنان، وما لان يوما ولا تراجع ولا استكان، فردّ الشارد، وألّف النافر، وجمع حوله القلوب، ودانت له الجزيرة كلها حجازها وعسيرها ونجدها ويمنها، ولكنه لم يؤثر ذاته يوما على من سواه.

- لم يغير لباسه وإنما بقي الكساء الخشن والبرد الغليظة، ولم يغير فراشه، وإنما أبقاه كما كان: أدم حشوه ليف، ولم يغير طعامه وإنما بقي في غالبيته التمر والماء، يمشي في الأسواق كأي واحد من الناس، لا يحيط به الجند ولا يحجبه الحراس.

ومع ذلك، حقق لأمته كرامتها، وللإنسانية مكانتها، وغيّر وجه التاريخ.

- آخى بين الناس، وساوى بين الأجناس، وألف بين القلوب، وشفى ما في الصدور، وأمّن الخائف وأنصف المظلوم، ورسخ التنافس في الخير والتعاون على البر والتفاضل بالتقوى، وأطلق العقول من أسرها، فانتصر به الإسلام وكان انتصاره انتصاراً للعقل، وانتشر في كل بقاع الأرض، فكان انتشاره انتشارا للعدل.

٥- وربى أجيالاً تقود المسيرة.. وعلمهم كيف يلتزم الإنسان بهدي رب الإنسان، علمهم الدين بالعمل، والأخلاق بالمثل، والسلوك بالقدوة، والفضائل بالأسوة، وطهر القلوب من الآثام والنفوس من الإجرام، وأهّلهم لأن يكونوا قادة أمم وروّاد حضارة وأساطين علم، وملأت سمع التاريخ وبصره أسماء لولا الإسلام لم تكن شيئاً مذكورا.

- وأثّل لهذه الأمة كيف تكون القيادة الحكيمة الرحيمة العظيمة، بلين العطف، ونبل اللطف، وحلاوة المعاشرة، فكان يوقّر الكبير، ويداعب الصغير، ويواسي

المصاب، ويزور المريض، ويكرم المحسن ويتجاوز عن المسيء، وصدق من اصطفاه جلّ في علاه: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[1].

هذه هي رسالتنا الاسلامية، وهذا هو رسولنا النبيل الكريم، الذي صقلت روحه العقيدة، وأعلت صوته النزاهة، ورفعت مكانته التضحية، فعبأ الأمة لتحمل أعظم رسالة عرفها الوجود، فهل لنا أن نقتبس الهدى من وحي الله، ونلتمس الدليل من سيرة رسول الله، لتعود لنا مكانتنا في صدر الوجود؟

(١) التوبة (١٢٨).



الفصل الثاني

التربية الفردية

أولاً: التربية البنيوية

لكي يرتقي المربي أو المصلح بشعب من الشعوب أو أمة من الأمم، لا بدّ وأن يعمل على الارتقاء بالفرد، فهو النواة الأولى لأي مجتمع، ولا صلاح لأي مجتمع إلا بصلاح أفراده، ولا يفسد إلا بفسادهم.

وليس خافيا أن تقدم أية أمة ونهوضها ورقيّها، إنما هو حصيلة جهود أبنائها الصالحين، وعلى العكس من ذلك لا تمنى بفشل تلو فشل وإخفاق بعد إخفاق واندحار إثر اندحار إلا بفساد أبنائها، لذلك فإن قصديّة الصلاح والإصلاح هي منطلق كل تربية واعية جادة تستهدف خير مجتمعها وأمتها.

والفرد الإنساني متعدد المقومات والمكونات التي تتضامّ في مجموعتين هما: المادية والروحية أو البنيوية والمعنوّية، وأيّ منهما لا تغني عن الأخرى، ولا بدّ من تكاملهما لتحقيق الاقتدار والتفوق للإنسان بما يؤهله لقيادة حركة الحياة قيادة صالحة، لذلك نجد الرسول ﷺ يركز على كلا المجموعتين، فلا يهمل الروح لصالح الجسد، ولا الجسد لصالح الروح.

ولما كان أهم عاملين يؤثران في قوامه بنية الفرد الإنساني هما: الوراثة والبيئة، فنبيّن هنا توجيهه ـ عليه السلام ـ أزاء كل منهما:

أ- إحكام الوراثة

١ - أهمية الوراثة:

بذرة تخلّق الكائن الحيّ هي التي تكسبه صفاته الوراثية ـ عموما ـ قويمها وسقيمها، سواء أكان ذلك في النبات أو الحيوان أو الإنسان، فإذا كانت هذه البذرة قويّة سليمة معافاة، جاءت نواتجها متفوّقة، وعلى العكس إذا كانت البذرة مصابة واهية مريضة ضعيفة كليلة، جاءت نواتجها ضعيفة متدنية الصفات.

والبذرة التي تنبت الكائن الإنساني ـ بإذن ربّها ـ تتكون من تلاقح نطفتين هما: البويضة «نطفة المرأة» والحيوان المنوي «نطفة الرجل» حيث يشكلّ تلاقحهما البذرة الأولى التي تنجب الكائن الإنساني، بعد حضانة مناسبة إلى قدر معلوم في بيئة ملائمة هي بيئة الرحم.

لم تكن هذه الحقيقة غائبة عن الناس منذ القدم، وكان العرب ـ بحكم احتياج حياة الصحراء إلى البنى القويّة ـ أكثر الناس اهتماماً بها، ودراية بنواتجها وتأثيراتها، فكان التلقيح وكان الاستبضاع، وقد تناول الشعراء أهمية المنبت في أشعارهم فيقول أحدهم:

وأول خبث المـاء خبث ترابـه ... وأول خبث القوم خبث المنابت

ويقول آخر:

إذا تـزوجت فكـن حـاذقـا ... واسـأل عـن الغصـن وعـن منبتـه

وقد أولى الرسول ﷺ موضوع الوراثة اهتماما مستحقا، مؤكدا على حسن اختيار كل من الزوجين للآخر، لا سيمّا وأن الإسلام لا يبيح الإنجاب إلا عن طريق زواج شرعي يقوم على نيّة الارتباط الدائم، مما يجعل عشوائية الاختيار ذات تأثير هدّام على الأطفال لا يمكن تلافيه، كذلك كان الرسول الكريم يعنى بتقويم معايير الاصطفاء والاختيار، لانجاب نوعية متفوقة من العناصر المسلمة.

٢- معايير اختيار كل من الزوجين للآخر:

هناك معايير محددّة، يحتكم إليها كل من الرجل والمرأة في اختيار شريك حياته، ومعمول بكل منها أو ببعضها منذ أقدم العصور، منها ما يلبي تطلعات نفسية، ومنها ما يلبي تطلعات حسية أو اقتصادية أو اجتماعية وهذه المعايير هي: المال، الحسب، الجمال، البكورة، الانجاب، فأقرها الرسول جميعها، وحتى ينضبط كل منها مع متطلبات الانجاب السليم أضاف معيار الدين ليكون حاكماً لكل منها فيقول ـ عليه السلام ـ.

- «تنكح المرأة لأربع: لمالها ولحسبها ولجمالها ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك»[1].

---

(١) رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

- «تزوجوا الودود الولود...»[١].

- ويقول لجابر بن عبدالله إذ تزوج ثيّباً: «... أفلا جارية تلاعبها وتلاعبك»[٢].

وأضاف الاجتهاد الاسلامي معياراً سابعاً هو الاغتراب، الذي أخذ فيه بقول عمر - رضي الله عنه - «اغتربوا لا تضووا» ولا شك أنه استقاه من هدي المصطفى ﷺ.

وفيما يأتي إلمام سريع بأهمية كل من هذه المعايير لتحقيق قوامة الوراثة:

٢/١ - المعيار الحاكم (الدين):

جعل الرسول ﷺ هذا المعيار معياراً حاكماً بقوله: «عليك بذات الدين تربت يداك» وتربت يداك كناية عن القلّة والذلّة أو الفقر والتمزق والضياع النفسي، ويبيّن عليه السلام ذلك في الحديثين الآتيين:

- لا تزوجوا النساء لحسنهن فعسى حسنهن أن يرديهنّ، ولا تزوجوهن لأموالهن فعسى أموالهن أن تطغيهنّ، ولكن تزوجوهن على الدين»[٣].

- من تزوج امرأة لعزّها لم يزده الله إلا ذلاً، ومن تزوجها لمالها لم يزده الله إلا فقرا، ومن تزوجها لحسبها لم يزده الله إلا دناءة...»[٤].

والمقصد الرئيس من الأحاديث هو الالتزام بالدين لدى الأخذ بأي معيار أو بالمعايير جميعا، وذلك لإحكام الأسباب التي تحقق قوامة بنية الناشىء، حيث يؤدي الدين إلى ما يأتي:

- **القوامة البنائية**: فالدين يلزم بالعفاف، والتزام الطهر والنظافة الجسدية وحصر العلاقات الجنسية بين الزوجين، مما يمنع تلوّث أي من النطفتين بملوثات مرضيّة تهدّ كيانها.

---

(١) رواه أبو داود والنسائي والحاكم.

(٢) رواه البخاري ومسلم.

(٣) رواه ابن ماجه.

(٤) رواه الطبراني.

والدين يلزم كلا من الزوجين بالمطعم الحلال والمشرب الحلال، فيتغذى الجنين بدم حلال بعيدا عن المسكرات والمخدرات والمحرمات، وبذلك ينمو في بيئة الرحم جنينا ثم بعد الولادة طفلا ـ ويافعا وشابا ـ قوي المقومات.

والدين يؤكد على الصحة الجسديّة والنظافة تلافيا للأمراض، وعلى العلاج من أي داء، وبذلك لا تتسرب إلى الجنين أو المولود أي أمراض تضعف بنيته.

- **القوامة النفسية**: انفعالات الأم تؤثر سلبا على الجنين، وسوء العلاقات الزوجية يؤثر سلبا كذلك على الأطفال اليافعين، والدين يحول دون ذلك، حيث يوجب ابتداء إحكام اختيار كل من الزوجين للآخر، كما يوجب على كل منهما كرم الخلق وطهر السلوك والتزام الأمانة والإخلاص بما يوفر أجواء السعادة الزوجية، ويحول دون جموح الانفعالات.

والدين يحدد لكل من الزوجين حقوقه وواجباته، وإذا تم التزام كل منهما بحقوقه وواجباته، تحقق الأمن النفسي له، وعاش بمنأى عن الانفعالات الضارّة.

ولما كانت الخلافات الزوجية شراً لا بدّ منه فإن الدين يحكمها بإرساء قواعد لحل الخلافات بين الزوجين بموضوعية ترضي كلا منهما، ويؤكد على أدب الخلاف وأدب الحوار والنقاش واحترام الرأي والرأي الآخر، وتحكيم المحكمين، وهكذا يحول دون استشراء الخلافات وانعكاساتها السلبية على الأجنة والأطفال.

- **القوامة التربوية**: والأطفال أكثر اقتداء بالأبوين، وتأثراً بتوجيههما، الأمر الذي يتطلب توافقا وتواؤما أسريّا ينعكسان إيجابيا على الأبناء، والدين يوطّد الثقة بين الزوجين، فلا تفلّت ولا علاقات مشبوهة ولا غدر ولا غش ولا خيانة، مما ينفي القلق والشك والتوجّس والريبة عن أي منهما تجاه الآخر، وبذلك تتلاشى معالم التشنجّ والتوتر والصدامية بينهما.

وهذه الأجواء هي الأجواء الصالحة لغرس القدوة، والمريحة لإحكام التربية والتوجيه والتسديد والارشاد، مما يحول دون انهيار الأسرة على رؤوس الأطفال.

لهذه الأسباب وغيرها أكثر، يؤكد الرسول ﷺ على أن يكون الدين حاكما لكل معيار سواه.

٢/ ٢- معيار المال:

المال مقدّر لدى الإنسان، فهو وسيلة إشباع الاحتياجات وتبادل المنافع في هذه الحياة، فما من منفعة أو خدمة تؤدى مجاناً، وبدون المال تذلّ الانسان الحاجة ويقهره الفقر والعوز وربّما المرض.

والإسلام يقدّر المال كوسيلة، ولا يرفض اتخاذه معيارا للزواج، بحيث يرغب الرجل في الزواج من ذات المال، أو المرأة في الزواج من ذي المال، ليتحقق لهما بناء أسرة لا تهددها غوائل الفقر، ولكن الإسلام يرفض أن يتحول المال إلى غاية، يسعى الإنسان إلى تحقيقها من الزواج، فتتحول الحياة الزوجية إلى تجارة توزن العلاقات فيها بميزان المكسب والخسارة، ولذلك يشترط أن يترافق معيار المال مع معيار الدين، بحيث يضبط غرور المال وسيطرته.

وعلة اتخاذ المال معيارا في الزواج تعود إلى كون المال يساند قوة النمو البنيوي الانساني من حيث:

- التمكين للأبناء ـ عندما يأذن الله بقدومهم ـ من الترعرع في أكناف بحبوحة العيش، بتوفير الغذاء الصحي والمسكن الصحي والكساء الملائم... إلخ للأم الحامل وللأطفال بعد قدومهم.

- تمكين الأسرة من توفير الرعاية الصحية الكافية للأبناء في مراحل الحياة التي يعتمدون فيها على الوالدين بما يقيهم فتك الأمراض بهم لينشأوا أصحاء.

- تأمين تعليم مناسب لهم سواء في فترة المهد «الحضانة ورياض الأطفال» أو المراحل التعليمية المتتابعة حتى وصولهم إلى أعلى المستويات العلمية.

- رعاية ميولهم واستعداداتهم بتأمين الوسائل المعينة على ذلك، بما يجعل نبوغهم يتفتح في مرحلة مبكرة، ويأخذ في النمو المتتابع.

بذلك تتنامى القدرات البنيوية على اختلافها بمساندة الجدة المادّية، ولذلك أقرّ الإسلام المال كمعيار للزواج، على ألا يتحول إلى قوة قهر وتسلط وإذلال في يد أحد الزوجين فيقوّض الحياة الزوجية أو يسلبها معناها وقيمتها.

بناء عليه لا يرى الإسلام بأساً من أن يكون المال معياراً للزواج على أن يكون كل من الزوجين ذا دين يحول دون طغيان المال.

٢/ ٣- معيار الحسب:

الحسب الذي هو محصّلة الأصل الكريم والمحتد النبيل والمنبت الجليل مقدر لدى أمم الأرض جميعا، وهو في الإسلام محل تقدير شريطة اقترانه بالدين، فالإسلام لا يعتبر مجرّد الانتماء للحسب الشريف شرفا، فهذا الانتساب لا دور للإنسان فيه، وإنما يقدر الإسلام الحسب إذا كان عمل وسعي ذوي الأحساب حسيبا، وخلق ذوي الشرف شريفا، فالاعتبار لمعطيات الحسب وليس للحسب ذاته وفي ذلك يقول الرسول ـ عليه السلام ـ:

- «من أبطأ به عمله، لم يسرع به نسبه»[١].

- «خياركم في الجاهلية، خياركم في الإسلام إذا فقهوا»[٢].

واعتبار الحسب معياراً لاصطفاء الزوجة أو الزوج يأتي مما يلي:

- إن نشأة الأطفال في أجواء تتمسّك بالفضائل ورفعة الأخلاق وسمو التصرفات، تربطهم بمعالي هذه الأمور، وتجعلهم يعتادونها ويتمسكون بها حتى تصبح سجايا طبيعية يألفونها ولا يصدرون في حياتهم إلا عنها، وهذا هدف رئيس من أهداف التربية الأسرية، يصب في مجرى صلاح الفرد.

- لكل أمة من الأمم مقومات مقدرة للشرف، فالشريف ـ عموما ـ يتمسك بالقيم العليا والسلوك الحميد من جود وكرم وصدق وأمانة ووفاء، إضافة إلى عديد من السلوكيات التي يتمسك بها الأشراف، لا سيما في الآداب الذاتية والآداب الاجتماعية، من أدب الاستماع والحديث والحوار واحترام الآخرين وتقديرهم والترفع عن الدنايا واحترام الذات والاعتداد بالنفس إلى غير ذلك.

ولا شك أن من ينشأ في بيئة الشرف أحرى بأن يكتسب مقومات الشرف أكثر من غيره، لذلك فإن الحسب الرفيع يصب في صالح قوامة الناشىء، وهذا أيضاً مما تسهم في تأصيله التربية الأسرية.

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه البخاري.

وبناء عليه فإن الإسلام يقبل الحسب الرفيع معياراً للزواج، على أن يكون مسوّرا بالدين خشية طغيان غرور الحسب، وتعالي أحد الزوجين على الآخر، مما ينثر بذور الخلاف، ويحوّل الأسرة إلى ميدان صراع يسقط فيه الأطفال صرعى، فالأصل هو استقلالية شخصية كل من الزوجين، والتعامل في الحياة الأسرية بالندّيّة وليس بالتبعية وذوبان شخصية أحد الزوجين في شخصية الآخر، لتكون عزة نفس كل من الأبوين حافزاً لعزة نفوس الأبناء.

٢/ ٤- معيار الجمال:

الجمال مطلب رئيس من مطالب النفس البشريّة، سواء في ذلك المرأة والرجل، وما من إنسان سوي يفضّل القبح على الجمال، لأن النفس بفطرتها تنفر من القبح، والرسول ﷺ يقول: «إن الله جميل يحب الجمال»[١].

وللجمال مقوّمان: حسّي: كالملاحة والوضاءة وحسن المظهر، ومعنوي: كجمال الروح والنفس والخلق، وهما متكاملان لدى عموم الناس، بحيث لا يغني جمال عن جمال، فالجمال الحسّي لا يترك أثرا في النفس السوّية إذا لم يصاحبه جمال معنوي والعكس صحيح.

ولكن ما الجمال؟.. إنه ليس معيارا عاما يحتكم إليه جميع البشر، فالذي خلق الأشكال متباينة قضى ـ سبحانه ـ بتباين الذوق والاحساس والشعور لدى الناس، فما يراه هذا جمالاً لا يضاهى، يراه ذلك قبحاً لا يدانى، لذلك فإن المعيار الحكمي على الجمال ذاتي وليس عامّاً، والرسول الكريم يوضح ذلك بحاكمية السرور أو الاساءة فيقول:

- «خير النساء التي إذا نظرت إليها سرّتك»[٢].
- ... «وثلاث من السوء المرأة تراها فتسوءك»[٣].

والحكمة في اعتبار الجمال معياراً للاصطفاء والاختيار تكمن في الآتي:

---

(١) رواه مسلم والترمذي.

(٢) رواه الطبراني.

(٣) رواه الحاكم.

- تحقيق التوافق النفسي والتآلف والمحبة بين الزوجين، بقبول كل منهما للآخر بحيث يسرّه مرآه ولا يسوءه، وبذلك يمكن الاطمئنان إلى استمرارية الحياة الزوجيّة وبالتالي إنجاب الأبناء وإسكانهم واحة من الرضا والسرور، يستفيئون فيها ظلال الأسرة الوادعة، ليشبوا أسوياء تماما.

- تحقيق الاعفاف لكل من الزوجين، فلا يمدّن أحدهما عينه إلى ما وراء الآخر، مما يغلق منافذ الشك والريبة ومنافذ الظنون، وبالتالي يحقق استقرار الأسرة مع استمراريتها، بما ينعكس إيجاباً على الانجاب والتربية.

والإسلام يؤكد على إحاطة معيار الجمال بالدّين، ليبقى الجمال محصورا في نطاق الأسرة وألا يغدو مرتعا للعيون ومكمنا للظنون، فالحسن مردٍ إذا لم يحفظه الدين.

٢/ ٥- معيار البكورة:

ما من إنسان عاقل يودّ أن يشاركه غيره فيما هو من صميم خصوصياته، والزوجة تمثل بؤرة هذا الصميم، فالإنسان الكريم يأبى كل الاباء أي تجاوز من غيره على زوجته، ويضحّي بنفسه ليوقف هذا التجاوز والمرأة كذلك تأبى حتى النظرة أو الابتسامة من غيرها لزوجها.. فطرة الله. ولذلك نجد الإنسان العادي غير الملتزم بالدين، يأبى أن يرتبط بفتاة حازت على كامل إعجابه، إذا علم أنها متعلقة بإنسان آخر، والفتاة كذلك.

والبكر ـ غالبا ـ خلو من أي ارتباطات عاطفية أو تجارب سابقة، لذلك فهي أكثر أنساً بزوجها، لأن عواطفها وعلاقتها وارتباطاتها تتمحور حوله، لكونه الأول في حياتها، مما يحقق التوافق والتّواؤم والتفاهم والاستقرار، وتوضح ذلك أم المؤمنين عائشة بحديثها المشهور المؤكد على أفضلية البكورة حيث قالت:

- يا رسول الله، أرأيت لو نزلت واديا وفيه شجرة قد أكل منها، وشجرة لم يؤكل منها، ففي أي منهما كنت ترتع بعيرك؟ قال: «في التي لم يرتع منها» قالت: فأنا هي[(١)]».

---

(١) رواه البخاري.

ولا يعني ذلك عدم الزواج من الثيّب، وإنما يعني أن تلتزم الثيب بالدين، وألا تأسو على ما فات وتأخذ في المقارنة بين ما كان وما هو كائن، كما قالت الأعرابية: «ماء ولا كصداء، ومرعى ولا كالسعدان، وفتى ولا كمالك» لأن هذه المقارنة من شأنها تنغيص الحياة الزوجية على الزوجين والأطفال.

ومعيار البكورة معيار تفضيلي، فإذا تساوت مرشحتان في كل المزايا وكانت إحداهما بكرا والأخرى ثيّبا، فإن البكر تفضل بدون شك، ولكن هذا المعيار قد يلغيه أي معيار آخر، كالمال والحسب والجمال، فتفضل الثيب الجميلة عل البكر التي لا حظ لها من الجمال، وقد تلغيه الظروف الموضوعية للراغب في الزواج، فالحديث المؤكد على البكورة كفّها بحكم واقع الحال، فقد علم رسول الله ﷺ أن جابر بن عبدالله تزوج في أثناء غيابه فسأله:

- يا جابر: «هل تزوجت بعدي؟» قال: نعم يا رسول الله، قال: أثيّباً أم بكراً؟». قال بل ثيباً، قال: «أفلا جارية «بكر» تلاعبها وتلاعبك؟ قال: يا رسول الله، إن أبي قد أصيب يوم بدر، وترك لنا بنات سبعاً، فنكحت امرأة جامعة، تجمع رؤوسهن، وتقوم عليهن، قال: أصبت إن شاء الله[1].

٢/ ٦- معيار الانجاب:

معيار الانجاب يصبّ أساساً في صالح الأبناء، لأنه لا أبناء إلا بأبوين، ولا أبناء إذا لم يكن أحد الأبوين قادرا على الانجاب أو رافضا له.. ولا شك أن دافعي الأمومة والأبوّة من أقوى الدوافع الفطرية التي تؤثر على أسوياء الناس، لذلك فإن الرغبة في الانجاب تكون حاضرة لدى معظم الناس، لا سيما لدى من ليس لديهم أطفال.

وقد تغطي أو تحجب ظروف آنيّة التفكير في الانجاب، إلا أن تغييب الرغبة في الإنجاب كليا غير وارد لدى معظم بني البشر، لذلك نجد الأبوين ما أن تهدأ فورة عواطفهما حتى يأخذا في البحث عن أسباب تأخر الإنجاب، فإذا لم تكن الأسباب مشتركة قلما يصمد البناء الأسري.

(١) رواه مسلم.

وأهمية معيار الانجاب تأتي مما يلي:

- اشباع دافعي الأمومة والأبوة لدى الزوجين، وهما دافعان لهما قوتهما وتأثيرهما على الكائن الانساني وبدون إشباعهما قلما تستقر أسرة أو تستمر.

- تعويض الفاقد البشري للمجتمع من العناصر التي يفقدها بسبب الموت الطبيعي أو الحروب والكوارث والنوازل والأمراض وغيرها، ولولا الانجاب لانتهت البشرية في مهدها الأول.

- المكاثرة بزيادة أعداد كل جيل عن الجيل الذي قبله، وبحيث تتوافر القوى القادرة على العمل والنهوض بأعباء الحياة وتحسينها وتجويدها وتطويرها. لا سيما وأن هذه الأعباء تتزايد جيلاً بعد جيل وفي ذلك يقول الرسول ﷺ.

- «تزوجوا الودود الولود، فإنّي مكاثر بكم الأمم يوم القيامة»[١].

ومعيار الانجاب كمعيار البكورة معيار تفضيلي، لا سيّما بالنسبة لمن لديه كفايته من الأبناء، فقد يحجبه أي معيار آخر في هذه الحالة، أو لأولئك الذين يعلمون أنهم عاجزون عن الانجاب على أن يوضح ذلك لدى الايجاب.

ومعرفة الودود من النساء ميسور من تتبع التزامها بالدين وقيمها وأخلاقها وتصرفاتها وسلوكها وذلك من معارفها، أما الولود فمعرفتها ممكنة بأحد أسلوبين: إما من حكم على الواقع الوراثي للأصول والفروع وقدرة كل منها على الانجاب، أو بالكشف الطبي المسبق الذي أصبح ميسوراً.

٢/ ٧- معيار الاغتراب:

معيار الاغتراب جاء من تأكيدات عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ عليه، وفقه الصحابة مما يعتمده المسلمون في فقه دينهم وحياتهم ذلك لأنهم عايشوا الرسول ﷺ، وفقهوا الأمور من نص توجيهاته أو روحها، فيقول عمر لبني السائب:

- يا بني السائب، لقد ضوى نسلكم (ضعف) فانكحوا في النوابغ (الغريبات).

ولمعيار الاغتراب تأثيره الذي لا ينكر على كل من الأبناء، والأسرة، والمجتمع وكالآتي:

(١) رواه أبو داود والنسائي والحاكم.

- **على الأبناء**: حيث ثبت علمياً أن الزواج المتكرر من القريبات يؤدي إلى ضعف النسل جسديا وعقليا، وإذا كان عمر ـ رضي الله عنه ـ قد استقى ذلك من ملاحظة نسل بني السائب، فإن البحث العلمي في العصر الحديث، بيَّن ارتفاع احتمالات هذا الضعف بالزواج من الأقارب، وما من عاقل يرغب في إنجاب أبناء معاقين جسديا أو عقليا، يبقـون عالة على الأسـرة والمجتمع، لا عوامل بناء لهما.

- **على الأسرة**: ونظـرا لأن الخلاقات الأسرية واردة، فإن تدخّل الأقارب فيها أمر أكثر احتمالا، لما لهم من دالة على الزوجين، وكثيراً ما يقف هؤلاء إلى جانب هـذا أو ذاك مما يزيد نيران الخلاف اشتعالا ولو تركت لهمدت وخمدت.

والخلاف الأسري في حالة القرابة لا يقتصر على الزوجين، وإنما قد يحدث شروخا في علاقات الاقارب بعضهم ببعض اذ يستحيل منع خلافات الزوجين من التسرب إلى الأقارب ولا خلافات الأقارب من التسرب إلى الزوجين وبذلك يصبح استقرار الأسرة في مهب الريح، في حين أن الزواج بالغريبات قد يحول دون ذلك كله.

- **على المجتمع**: المصاهرة رابطة مقدرة بدون شك تضيف نسبا إلى نسب، وهي من عوامل ترسيخ ترابط العلاقات الاجتماعية وإذا اقتصرت المصاهرة على الأقارب لا تضيف جديدا إلى العلاقات حيث تذوب الخؤولة داخل العمومة في حين أن الزواج بالغريبات يحكم العلاقات بروابط قرابة جديدة من الأخوال والخالات وأبناء أولئك وهؤلاء مما يعمق التآلف ويبعد شبح الخلافات بزيادة انتشار رابطة القرابة.

إن حسن الاختيار والاصطفاء من كل من الزوجين للآخر يطمئن على أنهما سيقدمان للمجتمع ـ بمشيئة الله ـ عناصر قوية قادرة كفؤة متوازنة تتعشّق الصلاح وهذا ما يرمي إليه ـ عليه السلام ـ. إنّها لفتته الكريمة عليه السلام بالاهتمام بالفرد المسلم وجودا قبل أن يوجد.

ب- إحكام البيئة

يقول علماء الاجتماع: «الانسان ابن بيئته» أي كيفما تكون البيئة يكون، وذلك لأن البيئة بشقيها الطبيعي والاجتماعي لها تأثير لا ينكر على نمو الكائن الانساني ـ ماديا ومعنويا ـ.

البيئة الطبيعية بمكوناتها، من تربة ومياه وطقس ومناخ وغطاء نباتي. إلخ، لها تأثير لا ينكر على نمو الطفل فالبيئة الحارة غير الباردة والمعتدلة، والبيئة الغنية غير الفقيرة، والبيئة الملوثة غير البيئة النظيفة وهكذا.

والبيئة الاجتماعية بمعتقداتها ومفاهيمها وقيمها وعلومها وحضارتها لها تأثير مماثل، فالبيئة التي يسودها الحق والعدل والخير والنظام، غير البيئة التي يشيع فيها الباطل والظلم والشرّ والانحراف، والبيئة التي يكرم فيها الإنسان وتعلى إنسانيته غير تلك التي يسلب فيها حقه وتداس كرامته وتهدر إنسانيته. . وهكذا.

وغني عن البيان أن تأثيرات البيئة ليست طليقة، فهناك الفطرة وما يمدّ الله به الإنسان من قوى ومواهب وملكات وهناك الوراثة وتأثيراتها، إلا أن البيئة المتميزة تساند النمو المتميز للإنسان وإن كانت لا تستطيع إلغاء دور الفطرة أو الوراثة، فلا تستطيع مهما تفوقت أن تجعل من المتخلف عقليا عبقريا، ولا من المعوق جسديا بطلا رياضيا، ولكنها بالحتمية تنهض بكل مستوى إلى درجات أعلى، وهذا ما يفسر نبوغ أبنائنا في البيئات الأكثر تميزاً.

لذلك يلقى الاهتمام بالبيئة بشقيها اهتماما ملحوظا ومستحقا في تربية الرسول ﷺ، بحيث توفر نموا سليما قويما متفوقا للأجيال، يمكنّهم من النهوض بواجباتهم في الحياة ويتضح ذلك فيما يأتي:

١ - صلاح البيئة الطبيعية الخاصة:

البيئة الطبيعية الخاصة هي بيئة الأسرة، التي يعيش فيها الإنسان جنينا في بطن

أمه، ثم رضيعا فطفلا فيافعا فشابا. ولتكون هذه البيئة صالحة لنمو الفرد يؤكد الرسول على ما يأتي:

١/ ١: العفاف:

من المعروف أن الأمراض الجنسية السارية تأخذ طريقها إلى الإنسان عبر العلاقات الجنسية المحرمة، وهي لا تؤثر على الأبوين فقط وإنما تمتد إلى الجنين وتهدّ كيانه، لذلك يؤكد ـ عليه السلام ـ على العفاف كخطوة أولى لصلاح نمو الطفل بقوله:

- «لا تزال أمتي بخير، ما لم يفش فيهم ولد الزنا...»[١].
- «لا يزني الزاني وهو مؤمن...»[٢].
- «واحفظوا فروجكم وغضوا أبصاركم...»[٣].

١/ ٢: المطعم الحلال:

تغذية الجنين من غذاء الأم، وما من مأكل محرّم في الإسلام إلا وله ضرره ـ عرفناه أو جهلناه ـ سواء أكان ميتة أو دما أو لحم خنزير أو نطيحة أو مترديه أو مخدرا.. إلخ وأكله ينتقل إلى الجنين عبر دم الأم وإلى الرضيع عبر لبانها، وإلى الأطفال مباشرة.

كما أن المطعم من كسب حرام سرقة أو غصب أو ربا.. إلخ يبقي الأبوين في حالة توتر نفسي ينتقل إلى الأبناء، ولذلك يؤكد الله سبحانه ـ على أكل الرزق الحلال من ناحية والطيب من ناحية ثانية بقوله: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾[٤] ويبين الرسول ﷺ بالنسبة للمطعم أمورا أربعة هي: التزام الحلال، أكل الطيب، كفاية الغذاء، النأي عن الغذاء الحرام وذلك بقوله:

---

(١) رواه أحمد.

(٢) رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

(٣) رواه أحمد وابن ماجه والحاكم.

(٤) النحل (١١٤).

- «طلب الحلال فريضة بعد الفريضة»[١].
- «من أكل طيّبا، وعمل في سنّة وأمن الناس بوائقه دخل الجنّة...»[٢].
- «كفى بالمرء إثما أن يضيع من يقوت»[٣].
- «لا يدخل الجنّة جسد غذي بحرام»[٤].

١ / ٣ : المشرب الحلال:

وكما المطعم فإن المشرب كذلك يؤثر على صحة الجنين والرضيع، لذلك فإن الإسلام يحرّم المسكرات والمخدرات بأنواعها، ويؤكد الرسول ﷺ ذلك بقوله:

- «كل مسكر خمر وكل خمر حرام..»[٥].
- «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يشرب الخمر..»[٦].

١ / ٤ : النظافة:

من المعروف أن الكائنات الدقيقة المسببة للأمراض من الجراثيم والميكروبات والفيروسات والبكتيريا الضارة... إلخ ونقلتها من الحشرات والقوارض، إنما تجد الأجواء الملائمة في الأماكن القذرة، وبالتالي تعمل فتكا بالأحياء، لا سيما الأطفال الذين لم يكتسبوا المناعة الكافية لمقاومتها، لذلك يؤكد الرسول ﷺ على نظافة البيئة الخاصة تلافيا لأضرار هذه الكائنات وما تسببه من أمراض فيقول:

- «إن الله طيب يحبّ الطيب، نظيف يحب النظافة، كريم يحب الكرم، جواد يحب الجود، فنظفوا أفنيتكم...»[٧].

---

(١) رواه الطبراني والبيهقي.
(٢) رواه الترمذي والحاكم.
(٣) رواه أبو داود والحاكم والنسائي.
(٤) رواه الطبراني والبيهقي والبزار.
(٥) رواه البخاري ومسلم.
(٦) رواه الطبراني.
(٧) أخرجه الترمذي.

- وكان ﷺ إذا أراد أن يأكل أو يشرب، يغسل يديه ثم يأكل أو يشرب[١].

- ورأى رجلا عليه ثياب وسخة فقال: «أما كان هذا يجد ما يغسل به ثوبه؟»[٢].

٢- صلاح البيئة الطبيعية العامة:

للبيئة الطبيعية العامة بكل مكوناتها تأثيرها على السكان، إن إيجابا وإن سلبا، ولذلك تتعالى الصيحات اليوم في مختلف بقاع العالم بالمحافظة على نظافة البيئة وعدم تلويثها، لتبقى صالحة لحياة الإنسان، وقد نبّه الرسول المسلمين إلى الاهتمام بنظافة البيئة وعدم تلويث أي من مكوناتها ومن ذلك:

٢/ ١: عدم تلويث المياه:

فتلويث مياه الشرب أو الري ـ لا سيما الراكد منها ـ مدعاة لانتشار الكائنات الدقيقة الضارة بالإنسان فيها، في حين أن نظافتها تحول دون ذلك أو تحدّ منه وفي ذلك يقول ﷺ:

- «لا يغتسل أحدكم في الماء الرّاكد»[٣].
- «غطوا الإناء وأوكوا السقاء»[٤].
- «لا يبولنّ أحدكم في الماء الرّاكد»[٥].

٢/ ٢: عدم تلويث الهواء:

وتلويث الهواء أشد ضررا من تلويث المياه إذ لا يمكن تلافي أضراره، ولا تتوقف أضراره على الإنسان بل على كل الكائنات الحيّة، لذلك يؤكد الرسول على عدم تلويثه بفضلات الانسان، أو بإشعال النيران زيادة عن الحاجة فيقول:

(١) رواه النسائي.
(٢) رواه أبو داود والنسائي.
(٣) رواه مسلم.
(٤) رواه البخاري ومسلم.
(٥) رواه مسلم.

- «اتقوا اللاعنين»، قالوا: وما اللاعنان؟ قال: «الذي يتخلى في طريق الناس وفي ظلهم»[١].

- «إن هذه النار عدوّ لكم فإذا قمتم فاطفئوها عنكم»[٢].

- وكان ـ عليه السلام ـ «إذا عطس غطى وجهه»[٣].

٢/ ٣: إماطة الأذى:

والأذى مسمى عام لكل ما يؤذي الناس من تلويث الطرقات والسّاحات ومواطن التجمعات، بالقاذورات أو أي نوع من المخلّفات، وكل ما ينافي الذوق العام، لذلك يؤكد ﷺ على عزل الأذى عن الطريق، وحكمها حكم أي موطن يرتاده الناس فيقول:

- «إماطة الأذى عن الطريق صدقة»[٤].

- قال رجل: يا رسول الله، علمني شيئاً انتفع به، قال: «اعزل الأذى عن طريق المسلمين»[٥].

- بينما رجل يمشي بطريق، وجد غصن شوك، فأخّره، فشكر الله له، فغفر له»[٦].

٢/ ٤: تنمية المساحات الخضراء:

المساحات الخضراء إضافة إلى كونها ذات قيمة اقتصادية تعتبر ذات أهمية صحية، لأنها أساس دورة الاكسجين في الجو، وتحافظ على طبقة الأوزون، وتمتص ثاني أكسيد الكربون، والرسول يحثّ المسلمين على تنمية هذه المساحات الخضراء بقوله:

(١) رواه مسلم.

(٢) متفق عليه.

(٣) رواه أبو داود والترمذي.

(٤) رواه البخاري.

(٥) رواه مسلم.

(٦) رواه البخاري ومسلم.

- «من كان له أرض فليزرعها أو ليزرعها رجلاً آخر»[1].
- «ما من مسلم غرس غرساً، فأكل منه إنسان أو دابّة، إلا كان له صدقة»[2].

٣- صلاح البيئة الاجتماعية الخاصة:

البيئة الاجتماعية الخاصة هي بيئة الأسرة التي يكتسب فيها الطفل معتقداته وتصوراته ومفاهيمه وأخلاقه وثقافته بالاحتكاك المباشر بأفرادها، لا سيّما بالأبوين، ونظراً لأن هذه البيئة ذات تأثير فاعل في تنمية المقومات المعنوية بعامة للطفل، فإن الرسول ﷺ يربي المسلمين على الاهتمام الجاد بها ومن ذلك:

٣/ ١: استقبال المولود:

لترسيخ حب الإنجاب والاهتمام بالوافد الجديد والتقبّل الوجداني له، جعل الرسول من السنّة القيام ببعض المراسم الاحتفائية بالمولود، والتي تدخل الغبطة والسرور على الوالدين، وتشعر المجتمع المحلي بإضافة عضو جديد فيه، ومنها:

- بشارة الوالدين وتهنئتهما بالمولود.
- الأذان والإقامة في أذني المولود.
- التسمية بأحد الأسماء المستحبّة.
- حلق شعر الرأس والتصدق بوزنه فضة.
- ذبح عقيقة المولود والدعوة إليها والتصدق منها.
- ختان المولود. وهكذا.

ومن الملاحظ أن هذه المراسم يخص بعضها الوالدين وبعضها المجتمع المحلي، كما يخص بعضها المولود ذاته كالاسم والختان.

٣/ ٢: رعاية الصحة الجسدية:

ليس خافيا أن الأبناء يتعرضون للمرض، فإذا أهمل علاجهم استفحل فيهم المرض، وقد يقوض قدراتهم الجسدية كليا، ويخرجهم من عداد النافعين لأنفسهم

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه البخاري.

وأسرهم ووطنهم وأمتهم، لذلك فإن من أوجب واجبات الأسرة أن تعتني بصحة الأبناء، هذه العناية التي تأخذ اتجاهين: الوقاية: بعدم التعرض للمرض، وموالاة النظافة، والعلاج، لجميع أفراد الأسرة كبارهم وصغارهم وفي ذلك يقول الرسول ﷺ:

- **في الوقاية:**

- «لا يوردنّ ممرض على مصح»[(١)].

- «إذا شرب أحدكم فلا يتنفس في الإناء»[(٢)].

- «إذا سمعتم بالطاعون في أرض فلا تدخلوها، وإذا وقع في أرض وأنتم فيها فلا تخرجوا منها»[(٣)].

- **في النظافة:**

- الفطرة خمس: الختان، والاستحداد، وقص الشارب، وتقليم الأظافر ونتف الإبط»[(٤)].

- «غسل يوم الجمعة واجب على كل محتلم»[(٥)].

- «السواك مطهرة للفم ومرضاة للرب»[(٦)].

- **في العلاج:**

- إن الله تعالى أنزل الداء والدواء، وجعل لكل داء دواء، فتداووا ولا تتداووا بحرام»[(٧)].

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

(٣) رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

(٤) متفق عليه.

(٥) رواه البخاري.

(٦) رواه الترمذي.

(٧) أخرجه أبو داود.

- «ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء»[١].

هذا إضافة إلى الاهتمام بالرياضة والسباق والرمي وركوب الخيل والحمية وعدم الإسراف في الطعام إلى غير ذلك مما يحفظ صحة الإنسان، ويقيه الأمراض والعلل وشرورها.

٣/٣ : رعاية الصحة النفسية:

لا يفتك بالأطفال مثل الاضطراب النفسي الذي يجعلهم لا يستقرون على حال، وأكثر ما يسبب لهم الاضطراب النفسي، تلك الصدامية في العلاقات بين الأبوين، والتي تؤدي إلى شحن النفوس واضطرابها وتوترها، ومن ثم المنازعات والمشاجرات والمشاحنات الأسرية، مما يحوّل جو الأسرة إلى ساحة معركة يصاب فيها الأطفال إصابات مباشرة.

والإسلام الحريص على الوئام والتوافق في الاسرة، حكم بأن تقوم العلاقات بين الزوجين على أساس من المودة والرحمة: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾[٢].

لذلك حرص الرسول ﷺ على أن يربّي المسلمين على أساس كرامة العلاقة بين الزوجين من ناحية وكرامة التعامل مع الأبناء من ناحية ثانية، وكما يأتي:

- **معاملة الزوج للزوجة**: يؤكد الرسول على الزوج أن يراعي أموراً كثيرة في معاملته لزوجته، تجمعها ثلاثة أمور هامة هي: عدم التمكين للكراهية، النهوض بواجبات الرعاية، تحكيم العدل، فيقول:

- «لا يفرك مؤمن مؤمنة (لا يكرهها)، إن كره منها خلقا، رضي منها آخر»[٣].

- «إن الله سائل كل راع عمّا استرعاه، حفظ أم ضيّع، حتى يسأل الرجل عن أهل بيته»[٤].

---

(١) رواه البخاري.

(٢) الروم (٢١).

(٣) رواه مسلم.

(٤) رواه ابن حبان.

- «من كانت له امرأتان فلم يعدل بينهما، جاء يوم القيامة وشقّه ساقط»[١].

- **معاملة الزوجة لزوجها**: وحتى تتكافأ الحقوق مع الواجبات، يؤكد الرسول ﷺ على المرأة المسلمة أن تنهض بواجباتها تجاه زوجها باعتبارها حقوقا له عليها، والسعي لارضاء زوجها ما استطاعت، والتزام العفاف، مع كل ما يتعلق بهذه الجوانب فيقول:

- «المرأة لا تؤدي حق الله عليها حتى تؤدي حق زوجها كله...»[٢].

- «أيما زوجة ماتت وزوجها عنها راض دخلت الجنّة»[٣].

- أيما امرأة أدخلت على قوم من ليس منهم، فليست من الله في شيء، ولن يدخلها الله في شيء، ولن يدخلها جنته...»[٤].

- **معاملة الزوجين للأبناء**: إن من أهم ما يحقق تنمية الصحة النفسية للأطفال أن يعاملوا معاملة كريمة، وألا تغرق نفوسهم الغضة في أتّون المشاكل، أو ينقل الآباء إليهم توتراتهم النفسية التي تنوء بها حياتهم ويحدد الرسول ذلك بأسلوبين موضوعيين للتعامل معهم هما: الرفق والرحمة، فيقول:

- «إذا أراد الله بأهل بيت خيرا، أدخل عليهم الرفق»[٥].

- «ليس منا من لم يرحم صغيرنا»[٦].

- **العدل بين الأبناء**: كثيرا ما يتسبب ضغط بعض الأمهات، واستغلالهن لحب الآباء لهنّ إلى ظلم أبناء الأخريات وحرمانهم من حقوقهم، وكثيرا ما تتسرب الموروثات الجاهلية إلى النفوس بتفضيل البنين على البنات ويحذر الرسول ﷺ من هذين الاتجاهين المحطمين لنفسيات الأطفال فيقول:

---

(١) رواه الترمذي.

(٢) رواه الطبراني.

(٣) رواه الترمذي وابن ماجه.

(٤) رواه النسائي وأبو داود وابن حبان.

(٥) رواه أحمد والبيهقي.

(٦) رواه الترمذي وأبو داود.

- «اعدلوا بين أبنائكم، اعدلوا بين أبنائكم، اعدلوا بين أبنائكم»[1].

- «من كانت له أنثى فلم يئدها، ولم يهنها، ولم يؤثر ولده عليها، أدخله الله تعالى الجنّة»[2].

٤ - صلاح البيئة الاجتماعية العامة:

البيئة الاجتماعية العامة هي الأعمق تأثيراً في البنية النفسية للطفل الناشيء، حيث يتعامل مع الجيران والأقران والناس في شتى مواقعهم، فإذا كانت هذه البيئة سليمة قويمة منضبطة المفاهيم والمعتقدات والقيم والأخلاق والسلوك، تصبح عامل حفز لانضباطية النشء، فمثلاً:

التزام أبناء المجتمع بالدين، يدفع الأبناء إلى الالتزام به.

واحترام الناس للنظام، يؤدي إلى احترام الناشئة له.

وعدالة الحكم والقضاء، تغرس في نفوس الأجيال تعشق العدل.

وأمانة التاجر والصانع والمزارع، تعمق معاني الأمانة في النفوس.

وتعاون الناس وتآزرهم وتفاهمهم، ينقل هذه الصفات للنشء وهكذا.

والعكس صحيح تماما، إذ يصعب التمسك بالعدل في مجتمع استباح الظلم نفوس أبنائه، أو بالعفاف في مجتمع يفتك به الانحراف... إلخ إلا من رحمه الله.

لذلك فإن صلاح البيئة الاجتماعية يحقق صلاحاً متناميا للأبناء، ولهذا يؤكد الرسول ﷺ على صلاح المجتمع العام كبيئة حاضنة للأجيال، وهذا ما سنتناوله فيما بعد.

---

(١) رواه الامام أحمد.

(٢) رواه أبو داود.

ثانياً: التربية المعنوية

أ- التربية الإيمانيّة

إذا اتُّبعت تربية الرسول الكريم البنيوية بالنسبة للفرد الإنساني، من حيث اختيار الأصول المتفوقة المتوافقة التي تنجب هذا الفرد، ثم موالاته بالعناية والرعاية والوقاية في بيئه الرحم وبيئه الأسرة والبيئة العامة، فإنه سيشب متكامل القوى المادية بدون شك.

والقوى المادّيّة برغم أهميتها لا تشكل وحدها إنساناً متفوقاً، وإنما لا بدّ من تربية القوى المعنوية وتنميتها، فالإنسان لا يغدو إنساناً إلا بالقوّتين معاً. وأساس القوى المعنوية لأي إنسان هو مدى إيمانه بمعتقدات سليمة قويمة حكيمة، وأسلم هذه المعتقدات هو ما جاء من خالق الإنسان ـ سبحانه ـ عبر رسالاته إلى خلقه ومنها الرسالة الإسلامية.

لذلك اهتم الرسول الكريم بتعميق إيمان المسلمين بمعتقداتهم التي تضمنتها الرسالة، لتغدو منطلقاتهم الحياتية إيمانيّة، تضبط حركة حياتهم في هذه الحياة، وتبوئهم مقعد صدق في الحياة الأخرى، ونوضح ذلك فيما يأتي:

١ - مفهوم الإيمان:

الإيمان من آمن بمعنى صدّق واطمأن ووثق، فهو شعور قلبي ينعقد على الثقة العميقة بأمر ما، ولما كان الانسان لا يصدّق بدون علم، فقد أصبح العلم من شروط الإيمان، ولما كان لا جدوى لعلم وتصديق به دون التزامه والعمل به فإن الإيمان يعرف شرعا بأنه ما «وقر في القلب وصدقه العمل».

وأركان الإيمان في الإسلام كما سبق ستة هي: الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر، فإذا آمن الإنسان بهذه الأركان إيماناً واثقاً مطمئناً، وضبط كل عمل يصدر عنه وفق هذه الأركان، فقد استوثق قلبه بالإيمان ويبقى عليه العمل به.

ولكي ينضبط عمل الإنسان المسلم مع إيمانه لا بدّ من أن يراعي ثلاثة أمور هي:

١ / ١ : إفراد الله بالعبادة:

والعبادة تعني الطاعة على وجه الإجلال والتعظيم. وإذا كان الإنسان على مستوى من الوعي فإنه يدرك بأن الطاعة والخضوع على وجه الإجلال والتعظيم، لا يجوز أن تكون إلا للقوة العظمى التي خلقته وسوّته ورزقته، ووهبته الحياة، والقادرة على إماتته، وهي الله الذي بيده الأمر كله.

لذلك فإن المسلم الذي يؤمن إيماناً صادقاً، لا يمكن أن يتوجه بالعبادة، سواء منها العبادات المكتوبة أو أي عمل تعبدي، أو دعاء، أو رجاء، . . . الخ، إلا لله، ولله وحده، مما يحرّره من عبودية من سواه تعالى، ويخلّصه من تمزق إخلاصه بين قوى شتى، لأنه يدرك أن الألوهية لإله واحد هو الخالق الرازق المحيي المميت، ومن سواه من سلاطين وأقوياء وأغنياء وحتى أولياء وأنبياء، ما هم إلا عبيد مثله وليسوا آلهة تعبد، فتسمو نفسه، وتعلو كرامته، وتتسع حرّيته، وتتحقق إنسانيته، وتتنامى عزّة نفسه، لشعوره بأنه ومن سواه سواء.

١ / ٢ : الخلوص من الشرك:

صاحب العمل يقدم أجراً للعامل، فالعمل وسيلة الرزق ورب العمل سبيله، أما الرازق بهذا الرزق فهو الخالق ـ سبحانه ـ الذي أوجد هذا الرزق ابتداء، وهيّأه للحصول عليه، والسلطان قد يتجبر ويقتل وقد يعفو ويصفح، وهو في الحالتين ليس المحيي والمميت، فالذي يقدّر الأجل والذي يخلق الحياة ويوقّت الموت هو الخالق ـ سبحانه ـ والسلطان سبيل تحقيق هذا القدر، والأبوان ينجبان ولكن لا يخلقان وإنما الخالق هو الله وهكذا.

لذلك لا يجب أن تضطرب مفاهيم المؤمن، فيعزو ما هو من شأن الخالق جل شأنه إلى مخلوق، فهو بذلك يشرك غير الله فيما اختص الله به نفسه، ويبوّىء المخلوق مكانة الخالق، وهذا هو الشرك الذي لا يغفره الله.

والخلوص من الشرك يمثل الكمال المعنوي للإنسان المؤمن، حيث يعيش حياته طليقاً، حرّاً من ضغوط الخوف من أن يضرّه فلان أو يقطع رزقه أو يقدّم أجله، ومن وطأة الاستذلال لهذا أو لذاك اعتقاداً من أن بيده نفعه أو ضرره أو حياته أو مماته. وهكذا تستقيم الحياة.

١/ ٣: التزام الشريعة:

وترجمة الإيمان واقعياً في دنيا الناس، يتم عبر التمسك بشرع الله، وإحلال حلاله، وتحريم حرامه، مع الاعتقاد الراسخ بأحقية الحلال، وعدم أحقيقة الحرام، وهنا يصدّق العمل ما وقر في القلب، فلا تجاوز على أمر الله، ولا تفريط فيه، وإنما التزام بحبل الهدى الممدود طوال مسار الحياة المحدود.

٢- ترسيخ الإيمان:

غرس الإيمان بمعنى ما، ليس أمراً سهلاً يقول له الإنسان كن فيكون، وإنما يتطلب علْماً واعياً بهذا المعنى يتغلغل في أعماق النفس والشعور، يوقن بأحقيته وموضوعيته وصدقه بحيث لا يساوره فيه شك، ولا تتسرب إلى النفس فيه ريبة.

وقد عمل الرسول الكريم طوال حياته على غرس الإيمان وترسيخه في نفوس المسلمين، بأساليب عديدة نذكر منها:

٢/ ١: تنحية الموروثات:

لغرس مفهوم جديد في النفس البشرية، يجب ابتداء إزاحة المفهوم القديم بأسلوب موضوعي وبيان مجافاته للحقيقة، وإلا بقي عقبة لا تحول في سبيل رسوخ المفهوم الجديد، فالناس كما قيل «عبيد لما ألفوا».

ألف العرب ومنهم أهل مكة موروثات فكرية كانوا يؤمنون بصوابيتها، سواء أكان ذلك في مجال المعتقدات أو التصوّرات التي تبلورت في عادات وأعراف وتقاليد، لم يكونوا يرون حقاً في سواها.

في مجال المعتقدات ـ مثلاً ـ كانوا يعبدون الأصنام، فأخذ الرسول يبيّن لهم أن هذه الأصنام لا تعدو كونها حجارة صمّاء، لا تبصر ولا تسمع، ولا تمنع ولا تدفع، فأي عاقل يسلّم بأنها خلقت هذا الوجود بكلّ موجوداته؟ ثم أخذ يبين صفات

الخالق جل وعلا، فانزاح تأثير الموروثات على أناس منهم فأسلموا، وحل في نفوسهم ـ تدريجياً ـ المفهوم الحقيقي للخالق الكريم.

وهكذا الأمر بالنسبة لمفهوم الحياة، حيث كانوا يؤمنون بأحاديّة الحياة، ويعتبرون الموت فيها فناء أبدياً، فلا بعث ولا نشور ولا حساب، وكان لا بدّ من بيان ضلال هذا التفكير، لأن الإنسان العادي لا يستسيغ المساواة بين الظالم والمظلوم والقاتل والمقتول والأمين والخائن والبرّ والفاجر، فكيف إذن ينفضّ سوق الحياة، ولا يثاب المحسن ويعاقب المسيء؟ إن هذا لا يجوز في عدل الإنسان فهل يجوز في عدل الخالق العادل؟ وهكذا في كل ركن من أركان الإيمان . . . ازيحت المخزونات الذهنيّة الضالة لتحل محلّها أفكار موضوعية.

واتبع المسلمون بعد أن تحرروا من موروثاتهم الفكرية أساليب عملية لإقناع من لم يقتنعوا، وعلى سبيل المثال:

- كان عمرو بن الجموع سيد بني سلمة في المدينة، ولم يقتنع قط بأن صنمه الذي عبده آباؤه وأجداده لا يضر ولا ينفع، وكان شباب بني سلمة يتابعون الحوار معه، ولما لم يقتنع أرادوا إقناعه عملياً.

تسللوا ذات ليلة إلى بيت الصنم، وحملوه خارج المنزل، ورموه في بئر كانت تتجمع فيه قاذورات بني سلمة، ونهض عمرو ليتعبد لصنمه فلم يجده، فثارت ثائرته وأخذ يبحث عنه حتّى وجده بين القاذورات، فاستعاده وغسله وطيّبه وأعاده إلى مكانه وأطال الركوع والسجود أمامه، فعاد الشباب وعاد مراراً، ولما سئم فكرّ مليّاً وكانت بداية اهتزاز ثقته بصنمه.

علق في رقبة الصنم سيفاً وقال يخاطبه: «إن كان فيك خير فامتنع»، ولا شك انه بدأ يرتاب في أنه سيمتنع حقاً، وأخذ الشباب الصنم، وربطوه بكلب ميت ورموه في البئر، وعندما وجده عمرو قال:

والله لو كنت إلها لم تكن — أنت وكلب وسط بئر في قرن

وكانت النتيجة المتوقعة، حيث أسلم عمرو وحسن إسلامه[1].

---

(١) عن عبد الملك بن هشام، السيرة النبوية، مرجع سابق، جـ٢، ص ٤١٨ بتصرف.

٢/٢ : المحاكمة العقلية :

الإنسان بطبيعته معجب بعقله، يحكّمه في معظم أموره، فإذا اقتنع عقلياً، يمكن الاطمئنان إلى أنه أخذ سبيله إلى الإيمان بما اقتنع به، حتى ولو لم يعلن. لهذا كان الرسول الكريم يخاطب عقول القوم الذين يدعوهم، ويستند في التعليل العقلي إلى القرآن الكريم، لنفي الشرك وتعميق الإيمان بالله تعالى :

- ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ۝ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ۝ ﴾[١].

- ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ۝ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ۝ ﴾[٢].

- ﴿ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ﴾[٣].

- ﴿ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ﴾[٤].

- ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ۝ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ۝ ﴾[٥].

ويحفل القرآن بكثير جداً من الآيات التي تستثير القوى المدركة لدى الإنسان وتأخذ بالذهن البشري إلى المحاكمة العقلية الرّصينة للخلق والموت والحياة والبعث والنشور والحساب والثواب والعقاب . . . الخ مما يرتقي بالفكر ليصبح سبيلاً إلى الإيمان :

- ﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ﴾[٦].

- ﴿ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ ﴾[٧].

---

(١) الواقعة : (٥٨- ٥٩).
(٢) الواقعة : (٦٨- ٦٩).
(٣) القصص : (٧١).
(٤) القصص : (٧٢).
(٥) الواقعة : (٧١-٧٢).
(٦) العنكبوت : (٢٠).
(٧) الروم : (٥٠).

- ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾[1].

إنها المحاكمة العقليّة التي تدعو إلى التفكير في الخلق للإيمان بالخالق، وتقدير الفعل لتقدير الفاعل، والانبهار بالوجود وصولاً إلى تقديس الموجد جل وعلا.

٢/٣ : المقارنة الموضوعيّة:

لا يختار الإنسان لنفسه أحد موقفين مختلفين أو متضادين، إلا بعد إجراء مقارنة موضوعية مستقصية لهما، ليأخذ بما هو أفضل بالنسبة له، وهذا ما أخذ به الرسول الكريم، لتقتنع العقول بكرامة ما جاء به الإسلام وعظمته إذا ما قورن بالأوضاع قبل نزول الرسالة، سواء أكان ذلك في المعتقدات أو القيم أو الأخلاق والتصرفات والمعاملات والعلاقات ... الخ، ولا وجه للمقارنة، فما جاء به الإسلام يتفوق بلا حدود على ما سواه.

وقد كفت هذه المقارنة المسلمين مؤونة الجدل الطويل مع من سواهم، فليس الحق كالباطل، ولا العدل كالظلم، ولا الخير كالشر، ولا الحرّيّة كالعبودية وهكذا، لذلك نجد جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه يقطع الجدل بهذه المقارنة - عندما سأله نجاشي الحبشة - إثر محاولة قريش استعادة المهاجرين -: ما هذا الدين الذي لم تدخلوا به في ديني ولا دين أحد من الملل؟ فقال جعفر:

- أيها الملك... كنّا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف.

كنا على ذلك، حتى بعث الله إلينا رسولا منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله، لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان.

وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكفّ عن المحارم، ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنات.

---

(١) الذاريات: (٢٠-٢١).

فصدقناه واتبعناه على ما جاء به من عند الله، فعبدنا الله وحده، ولم نشرك به شيأً، وحرّمنا ما حرّم علينا، وأحللنا ما أحل لنا . . . الخ»[(١)] .

إن هذه المقارنة بين ما كان وما هو كائن، تحكم للإسلام حتماً، وتتغلغل في ضمير كل إنسان بأحقيتها، مما يجعل الإيمان بالرسالة يستند إلى حاكمية عقلية موضوعية وليس إلى فوران عاطفة.

٣ : نواتج الإيمان التربوية :

الإيمان الاعتقادي يعيد تشكيل النسيج المعنوي للإنسان كاملاً، حيث يغدو فكر الإنسان وتصوره وخلقه وسلوكه بل وآماله وطموحاته وفعالياته الإنسانية تنبع من معين المعتقدات التي آمن بها، وتربط أهداف حياته وغاياتها بها، يتبنّى ما ترضاه، ويلفظ ما تأباه.

ومن أهم نواتج الإيمان التي تنعكس على تربية المسلم، والتي حرص الرسول ﷺ على تعزيزها وتعميقها لدى المسلمين ما يأتي :

٣/ ١ : التوكل على الله :

التوكل على الله يعني أن يوكل الإنسان المؤمن تدبير أموره عن إيمان واقتناع كاملين إلى الله ـ باعتباره سبحانه ـ صاحب العلم المطلق والقدرة المطلقة والخيرية المطلقة، فكل ما يدبّره له ـ سلباً أو إيجاباً ـ فهو خير كله، والإنسان العادي قد يوكل تدبير كثير من أموره إلى من هو أكثر منه علماً ووعياً وخبرة ـ مع الفارق الكبير بين الخالق والمخلوق ـ فقد يوكل استثمار أمواله إلى عالم أمين مخلص في هذا المجال، وقد يوكل بناء منزله لمهندس تتوافر فيه هذه الصفات واثقاً بأنه لا يدبّر له إلا ما هو خير، ولذلك يسلّم إليه أموره، بعد أن يحكم هو جميع الأسباب المؤدية إلى أفضل النتائج.

وقد اختلط لدى كثيرين مفهوم التوكل الذي يتبنّاه الإسلام، بمفهوم التواكل الذي يأباه، ولذلك اعتبروا التوكل موقفاً سلبياً، غير واعين أن التوكل يقوم على أساسين هما :

---

(١) عن عبد الملك بن هشام، السيرة النبوية، مرجع سابق، حـ١، ص ٣٢٠-٣٢١ باختصار.

- إحكام كل الأسباب، والإعداد لكل أمر عدّته بكل علم ووعي وإتقان.

- ترك تحقيق النتائج إلى الله تعالى والرضا بما يدّبره ـ سبحانه ـ.

أما التواكل فهو الموقف السلبي الذي يقوم على عدم الأخذ بالأسباب وادعاء التوكل على الله، وقد نفى عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ هذا الموقف المتواكل عن الإسلام بقوله: «لا يقعدنّ أحدكم في بيته، رافعاً يديه إلى السماء قائلاً: يا ربّ يا ربّ، وقد علم أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضّة». وعليه فإن من لم يأخذ بالأسباب ليس متوكلاً مهما ادعى ذلك، ومن أخذ بكل الأسباب ولم يعتمد على الله في تحقيق النتائج ليس متوكلاً.

إن الخالق ـ جل وعلا ـ بنى النواتج على الأسباب، فمن تزوج ينجب، ومن زرع يحصد، ومن تعالج يشفى، ومن جدّ ينجح، ومن لم يفعل لا ينتظر تحقيق ذلك، فالخالق هو مسبّب الأسباب، ولن يعطّلها لدعوة فلان أو رجاء علاّن، أما أن تكون نواتج بدون أسباب فهذا ما يتسنّى للخالق وحده، الذي يحكم الأسباب ولا تحكمه الأسباب.

والرسول الكريم ـ المتوكل على الله حقّ التوكل ـ لم يجلس في بيته ويدعو الله لينصر الإسلام، وإنما أخذ بالأسباب: بلّغ، ودعا، وحاور، وقاتل، وصبر وصابر، وجاهد في الله حق جهاده، وطلب من الله النصر فتحقق له.

ولعل في أحداث هجرته ـ عليه السلام ـ ما يوضح وعيه لحقيقة التوكل، حيث خطط لها بوعي وحذر ويقظة وإحكام لكل الأسباب، ثم توكل على الله، ومن ذلك:

- لم يأمر أصحابه بالهجرة إلى المدينة إلا بعد توافر فئة ممتنعة من المسلمين في المدينة.

- هيّأ الرأي العام المدني لتقبل الدعوة الجديدة بابتعاث مصعب بن عمير ـ رضي الله عنه ـ داعية إلى الإسلام.

- أمن هجرة أصحابه، وأطمأن على سلامتهم، قبل أن يهاجر، وبذلك تعزّزت قوة المسلمين الممتنعة في المدينة.

- أمن تأدية الأمانات إلى أهلها بإبقاء علي ـ كرم الله وجهه ـ لأدائها.

- حدد زمان ومكان وطريق الهجرة مسبقاً.

- حدد رفيق الرحلة، ودليل الرحلة، والرّواحل، والمنازل مسبقاً.

- أتقن التمويه على العدو، فبات علي في فراشه، وغيّر الطريق المطروق، وكلف عامر بن فهيرة بالغدوّ والرواح بالأغنام ليعفّي الآثار.

- نظم الامدادات بالغذاء والماء بوساطة أسماء بنت أبي بكر.

- نظم التغذية بالمعلومات بوساطة عبد الله بن أبي بكر.

- خرج ليلاً وسرًّا حتى لا يصطدم بمن أو بما يعيق انطلاقته.

وهاجر ـ عليه السلام ـ متوكلاً على الله، أحكم أدق الأسباب وترك النتائج لله مطمئناً، ولذلك عندما قال أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ: «لو نظر أحدهم إلى قدميه لرآنا» قال ـ عليه السلام ـ: «يا أبا بكر، ما ظنّك باثنين الله ثالثهما؟»[١].

على هذا الفهم الواعي للتوكل بني إيمان المؤمنين، فكان لهم النصر في كل موقعة، والتفوق في كل مجال، وعلى هذا المفهوم ربّى الرسول المسلمين، ولذلك عندما قال الأعرابي: أأترك ناقتي بباب المسجد وأتوكل على الله؟ قال ـ عليه السلام ـ. «اعقلها وتوكل»[٢]. وفي طلب الرزق يقول:

- «لو توكلتم على الله حق توكله، لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصاً وتعود بطاناً»[٣].

فبيّن أنها تغدو وتروح، ولا تبقى في وكناتها تنتظر رزقها، وعلى هذا الأساس يعتبر المسلمون من يحكم الأسباب ويعتمد على الله هو المتوكل، أما من لا يحكم الأسباب فهو المتواكل وليس المتوكل، ولا مكانة لمتواكل في الإسلام.

٣ / ٢ : التقوى:

الناتج الثاني من نواتج الإيمان هو التقوى، والتقوى من وقى بمعنى منع، وهي في الإصطلاح الشرعي:

---

(١) متفق عليه.

(٢) رواه الترمذي.

(٣) رواه الترمذي.

وقاية النفس من غضب الله تعالى، بالامتناع عمّا نهى الشرع عنه بالكتاب والسنّة.

والتّقوى عمل قلبي لا يطّلع عليه سوى صاحبه وخالقه، وهي محصلة قوتين، قوة دفع تدفع إلى الطاعة وتدفع عن المعصية، وقوة جذب تجذب إلى الطاعة وتجذب عن المعصية. وتعتبر التقوى قمة احترام الإنسان لذاته وتقديرها، حيث يعيش حياة صدق وصراحة ووضوح وأمانة في السرّ والعلن، يعرف الحق فيتبعه والباطل فيجتنبه، ولا تثنيه عن ذلك مصلحة ولا منفعة ولا أذى يلحقه.

ولا شك أن التقوى هي الآلية النفسية الوجدانية لحفظ الحقوق والحريات والحرمات والنهوض بالواجبات، لذلك نجد الرسول ﷺ، يؤكد في تربيته للمسلمين على التزام التقوى في كل حال، في أحاديث كثيرة منها قوله:

- «اتق الله حيثما كنت . . . .»[1].

- «وسئل: من أكرم الناس؟ قال: «أتقاهم . . .»[2].

وقد تعمقت التقوى في نفس كل فرد مسلم، وتدل على ذلك الحادثتان المشهورتان الآتيتان، واللتان جاءتا من أناس من عرض الناس من البسطاء.

- نهى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب عن مذق اللبَن بالماء لما في ذلك من غش، وبينما كان يطوف ليلاً بين المضارب سمع حواراً بين أم وابنتها كالآتي:

- قومي يا بنيّة وامذقي اللبن بالماء.

- أو لم ينه أمير المؤمنين عن ذلك؟

- وأين منا أمير المؤمنين؟

- إن كان أمير المؤمنين لا يرانا، فإن ربّ أمير المؤمنين يرانا.

سرّ عمر سروراً بالغاً من تقوى الفتاة، وأصرّ أن يزوجها أحد أبنائه، وشاء الله أن تكون الفتاة ذاتها جدّة أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز»[3].

---

(١) رواه أحمد الترمذي.

(٢) متفق عليه.

(٣) عن أجمد محمد عساف، قبسات من حياة الرسول، دار إحياء العلوم، بيروت، ١٩٩١، ص٤٢.

ومرّ ـ رضي الله عنه ـ مع أصحابه بغلام يرعى غنماً بفلاة، بعيداً عن البيوت، فأراد أن يختبره، وجرى بينهما الحوار الآتي:

- بعنا شاة يا غلام.
- ليست الغنم لي، ولم يأذن لي صاحبها ببيعها.
- لا تقل إنك بعتها.
- وماذا أقول؟
- قل أكلها الذئب.
- هذا أقوله لصاحب الغنم فماذا أقول لربّ صاحب الغنم؟

لم يتمالك عمر نفسه أن بكى بكاء شديداً. هكذا غير الإيمان قلوب الناس حتى أبسط البسطاء، ولم يبرح عمر حتى اشترى الغلام وأعتقه.

٣/٣: الإخلاص:

الإخلاص من أخلص الشيء إذا نقّاه من كل شائبة تشوبه، ولذلك يقال: ذهب خالص أي لا يدخل فيه أي عنصر آخر، والإخلاص إصطلاحاً، هو إخلاص العمل لله تعالى دون أن تشوبه أي شائبة كانت من قصدّية الفخر أو المباهاة أو السمعة، أو المنفعة أو المصلحة.

والإخلاص يرتقي بالحياة الإنسانية بعامة، فلا يتيح لمن يقوم بعمل جليل مخلصاً أن يتيه أو يتكبر أو يتغطرس على خلق الله، ولا يؤدي بمن ينتفع به إلى الشعور بالدّونيّة، والمنّ والأذى، مما يبقى صفاء القلوب ونقاءها، ويسمو بالعلاقات الإنسانية إلى مستوى مرموق من التقدير والاحترام والمحبة والمودة.

والرسول الكريم، يأخذ المسلمين بالتزام الإخلاص في كل قول أو عمل، وعدم توخي أي منافع دنيوية من عمل الخير والمعروف، لتبقى اللحمة الاجتماعية سليمة قويمة، فيقول:

- طوبى للمخلصين، أولئك مصابيح الهدى، تنجلي عنهم كل فتنة ظلماء[١].

---

(١) رواه البيهقي.

- إن الله عزّ وجل، لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصاً وابتغي به وجهه[1].

وقد وصل المسلمون إلى مستوى من إخلاص العمل لله، لم يعرف التاريخ له مثيلاً، ونضرب لذلك مثالين لرجلين من عرض الناس أيضاً:

- بعد فتح المدائن، جاء الناس بما جمعوه، وجاء رجل بحقّ مليء بأثمن أنواع الجواهر، وسلمه إلى صاحب الأقباض، فقال من معه: ما رأينا مثل هذا قط، ولا يعدله كل ما عندنا ولا يقاربه، فقال صاحب الأقباض للرجل:

- هل أخذت منه شيئاً يا أعرابي؟

- أخذت منه شيئاً؟ والله لولا الله ما أتيتكم به.

فعرف أن للرجل شأناً فقال:

- من أنت؟

- لا والله لا أخبركم فتحمدوني، ولا غيركم ليقرظوني، ولكني أحمد الله تعالى، وأرضى بجزائه، فأتبعوه رجلاً حتى انتهى إلى أصحابه، وإذا هو عامر بن عبد القيس[2].

- وحاصر مسلمة بن عبد الملك حصناً منيعاً للروم، وضربه بالمنجنيق حتى فتح فيه ثغرة كبيرة، وندب الناس إلى اقتحام السور منها، وحاول الفرسان ذلك ولكن شدّة رمي أهل الحصن ودقّته، منعتهم من الاقدام، فكرّر مسلمة على الفرسان ندبه لهم فلم يتقدم أحد، وبلغ الضيق بمسلمة مبلغه.

وفجأة شق الصفوف فارس ملثم وانطلق كالسهم نحو النقب واجتازه، وقاتل البوابين حتى فتح الباب للمسلمين، فكان النصر.

طلب مسلمة ذلك الفارس فلم يجده، وسأل عنه فلم يعرفه أحد، فنادى عليه ثلاثة أيام بلياليها يقسم عليه أن يأتيه، ويقسم على من يعرفه أن يدلّ عليه، فلم يأته أحد.

---

(١) رواه أبو داود النسائي.

(٢) محمد بن جرير الطبري، تاريخ الأمم والملوك، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٨م، جـ٢، ص ٤٦٥.

في فجر ليلة القسم الأخيرة جاءه فارس وقال له: إنني أعرف صاحب النقب، وهو يريد أن يبرّ قسمك، ولكنه يشترط عليك ثلاثة شروط، قال مسلمة: وما هي: قال: ألا تأمر له بجائزة، وألا تسأله عن اسمه، وألا ترسل خلفه من يتعرف أمره، قال: له ذلك، فقال الفارس: أنا صاحب النقب، وما أردت بذلك إلا الله، وطرد جواده ودخل في غمار الناس.

بقي مسلمة بعد هذه الحادثة وحتى توفاه الله، لا يصلّي صلاة إلا ويدعو قائلاً: اللهم احشرني مع صاحب النقب[(١)].

٣/ ٤ : الرقابة الذاتيّة:

لا يترك الناس يسيّرون الحياة كيفما يشاءون ويتراءى لهم، وإلا لدبّت الفوضى في الكيان الاجتماعي، حيث يركب كل هواه، وإنما لا بدّ من رقابة، إما خارجة عن الإنسان، ولهذه الرقابة أجهزتها في كل مجتمع وكل دولة، وإما داخلية تنبع من ذات الإنسان وعلى ذاته.

والإسلام ـ وإن أخذ بالرقابة الخارجية ـ إلا أنه يزكي ويدعم وينمّي الرقابة الذاتية ـ الداخلية ـ حيث يقيم المسلم من ذاته رقيباً على ذاته، فيتّبع ما شرع له الله ورسوله من حق وعدل وخير، وينأى عما نهياه عنه من باطل وظلم وشر. والمسلم يأخذ نفسه بذلك موقناً أنه إذا غاب رقيب الأرض فإن رقيب السماء لا يغيب، لذلك يبقى حساس الضمير والوجدان تجاه أي مخالفة مهما كانت ضئيلة.

والرسول الكريم يربّي المسلمين على هذه الرقابة الذاتية، ومحاسبة النفس، وادانتها عن أي تقصير والعودة عن أيّ مخالفة فيقول:

- «اعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه، فإنه يراك»[(٢)].

- «الكيّس (العاقل)، من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنّى على الله الأماني»[(٣)].

---

(١) على شحاته وأحمد رجب، مواقف حاسمة للعلماء، دار الفكر، بيروت، ص ٢٣٢.

(٢) متفق عليه.

(٣) رواه البخاري.

وقد أدت الرقابة الذاتية إلى ضبط كل معايير وموازين حياة المسلمين، بحيث غدت النفوس مطواعة لله تعالى في السرّ والعلن، والسفر والحضر، والشدّة والرخاء، والحوادث في هذا المجال أكثر من أن تذكر ومنها الحادثتان الآتيتان:

- منع وإلى الكونة أبا حنيفة النعمان من الفتيا، وبينما هو في داره ذات يوم، ليس معه أحد، جاءته ابنته قائلة: يا أبتاه، لقد أصبحت صائمة، وتخللت للتوّ، فنزل دم من بين أسناني فهل أفطر؟ فقال: يا بنيّة، اسألي أخاك حمّادا، فإن الوالي قد منعني من الفتيا[1].

- حبس عبد الله بن زياد أبا بلال مرداس بن حدير، ورأى صاحب السجن ما عليه أبو بلال من التعبّد، فسمح له أن ينصرف إلى أهله ليلاً ويعود فجر كل يوم.

وذات يوم قتل أحد الخوارج من المحبوسين أحد الشرط، فأقسم ابن زياد أن يقتل كل من في الحبس، وأسقط في يد صاحب السجن، فماذا عساه أن يفعل إذا علم أبو بلال ولم يرجع، ولكنه في الوقت المعتاد لعودته فوجىء به يدخل عليه، فذهل وسأله:

- أعلمت ما عزم عليه صاحبك؟

- نعم والمستعان هو الله.

- أعلمت وعدت؟ تعجب أبو بلال من تعجب صاحب السجن وقال:

- يا سبحان الله، ما كنت لألقى الله غادرا، وما كان جزاؤك عندي أن أعرّضك للقتل. أصرَّ صاحب السجن أن يروي الرواية كما هي لابن زياد، فتعجب ابن زياد وعفا عن أبي بلال[2].

٣ / ٥ : الشجاعة:

ليست الشجاعة عدم الخوف كما يتوهم كثيرون، فالخوف دافع فطري لا إرادي، لا يمكن الغاؤه، ولا يملك إنسان إذا فوجىء بما يخيف ألا يخاف، ولكن الشجاعة هي الانتصار على الشعور بالخوف، بحيث لا يوقف الخوف الشجاع عما

(١) علي شحاته وأحمد رجب، مواقف حاسمة للعلماء، مرجع سابق، ص ٢٣٢.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٤٧.

يريد، فالشجاع يهزم الخوف ولا يهزمه الخوف، وعلى العكس من ذلك الجبان الذي يسيطر عليه الشعور بالخوف ويصدّه عن مقاصده.

وكل مجتمع يود أن يكون أبناؤه شجعاناً، لأن هؤلاء هم الذين يتصدون للأزمات ويصمدون أمام التحديات ويحققون لأمتهم أهدافها بجرأة وشجاعة وإقدام، وهم الأقدر على الصبر والثبات والتضحية. والشجاعة لا تقتصر على الشجاعة في القتال، وإنما تشمل الجرأة في القول والعمل معاً، والتّصدّي للظلم والانحراف والطغيان جميعاً.

والإيمان الحق هو المحفّز الرئيس للشجاعة، فالإنسان إنما يعتريه الخوف أساساً على الحياة، والمؤمن يعلم أن الآجال مكتوبة لا تقدمها الشجاعة ولا يؤخرها الجبن والهلع، كما يعتريه الخوف على الرزق، والمؤمن يعلم أن الأرزاق مقسومة، لا تعجّل عن وقتها ولا تؤخّر عن حلّها، وأن أي نفع يحرص عليه الإنسان أو ضرر يخشاه لا يتعدى ما هو مكتوب له أو عليه وفي الحديث: يقول الرسول ﷺ لابن عباس:

- «واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لن ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك وإن اجتمعوا على أن يضرّوك بشيء لم يضرّوك إلا بشيء قد كتبه الله عليك»[1].

والرسول الكريم يربي المسلمين على شجاعة المواقف، فأصحاب الرسالة لا يصلح لهم الجبن، وإنما يجب أن يعدّوا أنفسهم إلى جرأة في الحق، وشجاعة في المواقف، وطموح إلى العلا، لا تسقط إرادة أحدهم في مهبّ الريح، بل ينبثق الحق من أعماقه ويتسق مع نبضه الذاتي، ولذلك يقول:

- من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه به مات على شعبة من النفاق[2].

أما عن الشجاعة المعنوية فيقدمها ـ عليه السلام ـ على الشجاعة القتالية، فقد سئل: أي الجهاد أفضل؟ فقال:

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه مسلم.

- «كلمة حق عند سلطان جائر»[1].

وقد أمدّ الإسلام المؤمنين بفيض من الشجاعة لا ينضب له معين، وشجاعتهم في القتال عرفها القاضي والداني، فقد انتفض العملاق العربي في أعماق كل منهم فإذا ابن الصحراء الذي كان يخشى مفارقة مضارب قومه يطرق أبواب الصين شرقاً وأبواب فرنسا غرباً لا تطرف له عين. وأما الشجاعة الأدبية ومناصرة الحق والتصدّي للباطل فقد وصلت إلى مستوى لا زال مأثرة من مآثر البشرية كلها:

- ردّ أبو يوسف ـ قاضي الرشيد ـ شهادة الفضل بن الربيع، وزير الرشيد، فغضب الرشيد غضباً شديداً، واستدعى القاضي وسأله:

- لم رددت شهادة الفضل وأنت تعلم من هو؟

- لأنني سمعته يقول في مجلسك: أنا عبدك.

- وماذا في ذلك؟

- إن كان صادقاً فلا شهادة للعبد، وإن كان كاذباً فلا شهادة لكاذب، ومن يجترىء على الكذب في مجلسك لا يتورع عن الكذب في مجلس القضاء[2]. صمت الرشيد مذهولاً ولم يحر جواباً.

- ورفض القاضي محمد بن بشير شهادة الخليفة، وقال لصاحب الدعوى: هذه شهادة لا تقبل عندي فجئني بشاهد عدل، وثارت ثائرة الخليفة، وتفاقم الأمر، ولكن الخليفة أعجب بجرأة القاضي وتفهمها وعزف عن الشهادة، وتعجب أحد اصدقاء القاضي فسأله:

- كيف تردّ شهادة الخليفة ولا تعتبره شاهد عدل؟

- ألا تعلم أنه يجب الاعذار في الشهادات، بأن يطعن المشهود عليه في شهادة الشاهد إن وجد مطعناً؟

- بلى.

---

(١) رواه النسائي وأحمد وابن ماجه.

(٢) علي شحاته وأحمد رجب، مواقف حاسمة للعلماء، مرجع سابق، ص ١٢٧.

- فمن الذي يجترىء على أن يطعن في شهادة الخليفة لو قبلت شهادته؟
- وماعليك؟
- إذا لم اعذر في الشهادة أكون قد بخست المشهود عليه حقاً أقرّه له الشرع.
- معك كل الحق، وأكثر الله في المسلمين من أمثالك[١].

٣/ ٦ : التحرر:

التحرر من حرّر الشيء إذا خلصه من كل دخيل على عنصره الأصلي، ليصبح حرّاً من كل شائبة، ولذلك يقال: جوهر حر، ولؤلؤ حرّ، ونسب حرّ، وموقف حرّ، والتحرر بالنسبة للإنسان هو تخلصه من كل ما يشوب فطرته الأصلية التي تأبى الانحراف والنفاق والكذب والخيانة . . . الخ وتتواءم مع الحق والعدل والخير والأمانة.

وأي مجتمع من المجتمعات بحاجة إلى الأحرار من أبنائه، فهؤلاء هم الذين يصلحون فساد الدنيا، ويضبطون الأمور وفق مناهج الحق، ويعطون من أنفسهم أمثله تحتذى في عدالة المواقف وخيريّتها، لا يجبنون أمام إهانة، ولا يسكتون عن خيانة ولا يخنعون أمام القوة، ولا يخضعون أمام الحاجة.

والرسول ﷺ يربى المسلمين على ألا يستعبدوا أنفسهم، لأي سبب من أسباب الدنيا، فالمؤمن لا يقر بعبودية إلا لله تعالى، ويأبى إلا أن يعيش المسلم حياته عزيزاً كريماً أبياً، وفي ذلك يقول ـ عليه السلام ـ محذراً:

- «من أعطى الذلة من نفسه طائعاً غير مكره فليس منا»[٢].

ويحبذ ـ عليه السلام ـ أن يقف المسلم موقفاً حراً أبياً لا خضوع فيه حتى لو ضحى بنفسه فيقول.

- «من قتل دون ماله فهو شهيد، ومن قتل دون أهله فهو شهيد، ومن قتل دون دينه فهو شهيد، ومن قتل دون دمه فهو شهيد»[٣].

---

(١) المرجع السابق ص ١٢٩ بتصرف.
(٢) رواه الترمذي.
(٣) رواه أحمد وأبو داود وغيرهما.

- «شرّ الناس ذو الوجهين، الذي يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه»[١].

لقد كان ـ عليه السلام ـ يحرص على أن يعيش المسلم حرّاً من كل الضغوط، لا يتهاوى أمام الشهوات ولا يسقط أمام الرغبات، ولا تسقط إرادته في مهب الريح، ولا يعيش ذليلاً لا يحق حقاً ولا يبطل باطلاً، وإنما يدور مع الحق حيث دار، تنبثق الحقائق من أعماقه، بإيجابية تنشىء في القلب وعياً كاملاً، لا يخضع إلا لله، مما يؤمن حريته، ويضمن استقلاليته.

- وقف أحدهم يخطب عند معاوية، ويكيل له المديح، ثم لعن عليا، فغضب الأحنف وقال:

«اتق الله يا معاوية، فوالله إن هذا القائل لو علم أن هواك في لعن الأنبياء والمرسلين للعنهم، دع عنك عليا فقد لقي ربه وخلا بعمله، وكان والله الطاهر خلقه، المبرز سيفه، الميمون نقيبته، العظيم مصيبته»[٢]، فلم يجد معاوية إلا أن يفض المجلس.

- ورفع إلى عمر أن أناساً يفضلونه على أبي بكر، فلم يسكت على ذلك، وإنما نادى: الصلاة جامعة، ثم وقف خطيباً ليقول:

ألا إن أناسّاً يفضلونني على أبي بكر، وعلى الخبير سقطتم، ألا إن ليلة لأبي بكر ويوماً، خير من الخطاب وابن الخطاب وآل الخطاب، ألا اخبركم بليلته؟ ـ وذكر ليلة الهجرة ـ ألا أخبركم بيومه؟ ـ وذكر يوم الردّة، فلا أعلمن أحداً فضلني على أبي بكر بعد يومكم هذا[٣].

هذه بعض ـ وليس كل ـ نواتج الإيمان. إن النفس المؤمنة تبقى في تجربة رائدة، واقعية ومثالية معاً، مما يكسبها متانة وصلابة وعزماً وحسماً، ما تجدد

---

(١) رواه البخاري.

(٢) أحمد بن عبد ربّه، العقد الفريد، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، ط١، ، ص ٣٨.

(٣) على شحاته وأحمد رجب، مواقف حاسمة للعلماء، مرجع سابق، ص ١٠-١٢ (مختصرا).

الزمان وتوالت الأيام، وهكذا كان من رياهم محمد ﷺ كانوا بشراً من البشر، ولكن الإيمان ارتقى بهم إلى مستوى لم يعرفه البشر.

وهكذا وضع - عليه السلام - الأسس القويمة لبناء النفس البشرية - مبنى ومعنى - لتخطو خطوات واثقة نحو التفوق والنبوغ والتميز، بحيث لا يعتريها أي ضعف أو وهن أو توقف وتردد ونكوص، وعالج بموضوعية ما تتعرض له من عواطف ودوافع وانفعالات، لتستقيم على النهج ذاته، وكما يأتي.

ب- تزكية العواطف

١ - مفهوم العاطفة:

العاطفة من عطف بمعنى مال، والميل قد يكون مع وقد يكون ضد، لذلك فإن العاطفة تعبّر عن موقف نفسي تجاه ذات أو معنى، يأخذ اتجاه القبول أو الرفض، فإذا كان قبولاً، امتلأت النفس بالعواطف الإيجابية البناءة، من حبّ ومودة، وعطف ورحمة، وتسامح وتوافق، واحترام وتقدير . . . الخ، وإن كان رفضاً ملأ النفس بالعواطف السلبية الهدامة من بغض وكراهية، وحقد وضغينة، وازدراء وتحقير . . . الخ.

والعاطفة ليست موضوعية في معظمها، بمعنى أنها لا تشكل الميل ـ الإيجابي أو السلبي ـ بناء على أسباب منطقية واضحة محددة، فقد يشعر الإنسان بالحب تجاه إنسان آخر لغير ما سبب أو سابق معرفة، أو يشعر بالكره تجاهه من أول وهلة، ولذلك شاع لدى الناس القول بالحب من أول نظرة والكره من أول نظرة، وكلا الأمرين غير موضوعي.

لذلك فإن التعبير الشائع عن أي موقف غير موضوعي أنه موقف عاطفي، وتكمن خطورة الموقف العاطفي في التصرفات الناجمة عنه، حيث يضخم الإنسان مزايا من يحب، ويلغي مزايا من يكره، أو يلغي عيوب من يحب ويضخّم عيوب من يكره، كما قال الشاعر:

وعين الرضا عن كل عيب كليلة ... كما أن عين السخط تبدي المساويا

وفي كل من الأمرين السابقين ظلم كبير، بإعطاء حقّ لمن لا حق له مطلقاً، وسلب صاحب الحق حقه، الأمر الذي يوجب ضبط التصرفات العاطفية بشقيها بالتزام كل من موازين الحق والعدل والخير، فإذا كانت العاطفة غير إدارية فإن التصرفات الصادرة عنها إراديّة.

والعواطف بإتجاهيها كثيرة ومتعددة ومتشعبة، ولكل منها مستوياتها المتنوعة، الأمر الذي يصعب معه تناول مفرداتها، لذلك نتناول تربية الرسول الكريم تجاه كل من الفئتين السابقتين ـ القبول والرفض ـ فيما يأتي:

٢- تزكية عواطف القبول:

لعل ما يجمع عواطف القبول كلها هو الحب، فالرحمة والعطف والود والتسامح وما إليها إنما تصدر عن محبة لا عن كراهية، والحبّ عاطفة إنسانيّة متميزة، تحيل قلب المحبّ خلقاً آخر، أكثر طواعية وتقبلاً واستجابة لمن يحب، وتملأ النفس البشرية بمشاعر حساسة، حيث ترق حواشيها، ويلين قاسيها ويندى جفافها، وتصبح سلسلة القياد، وضيئة الخلق، رقيقة الطبع، كريمة السلوك، لذلك نجد الرسول الكريم يوجهها إلى مستحقّيها فعلاً، بما يضبط موضوعيتها، ويعزز الاتجاه الإيماني للمسلم، وذلك كما يأتي:

٢/ ١ : حبّ الله تعالى:

من طبيعة الذات الإنسانية أن تحب من أحسن إليها وليس من أساء، لذلك كان الرسول ـ عليه السلام ـ دائم البيان لنعم الله تعالى على خلقه وإحسانه إليهم، ليعمق حبهم لربهم ـ جل شأنه ـ حتى إذا ما قارنوا أي إحسان قدم إليهم من كل أهل الأرض، تضاءل أمام إحسان الخالق في أدنى جزيئيات إحسانه، فنعمة الحياة، أو العقل، أو الصحة، أو أي حاسة من الحواس أو الماء أو الهواء، لا تضاهيها كل كنوز الأرض، وتفكير الإنسان في نعمة واحدة من نعم الله تعالى يجعله متعلق القلب والعواطف به ـ سبحانه ـ ومن هنا نجد الرسول الكريم يوجه المسلمين إلى التفكير في خلق الله، لأن كل ما خلقه يمثل نعمة لهذا الإنسان فيقول:

- «تفكّروا في خلق الله، ولا تتفكروا في الله، فإنكم لن تقدروه قدره»[١].

ومن البدهيات أن الخالق يحب من خلق، وإلا لما خلقه، ويحب له الهداية والاستقامة والرشد، وإلا لما أرسل رسالاته ورسله، وحب الله لعبده ينعكس عليه نعمة وعصمة وحماية وتوفيقاً ورعاية وتفضيلاً وتكريماً ورحمة، إذا اتبع أمره واجتنب نهيه، وبذلك يقطع رحلة الحياة، مستشعرا سمّو وجوده وروعة حياته.

(١) رواه أبو نعيم والأصبهاني.

أما حبّ العبد لخالقه فيعبّر عنه بطاعته له ـ تعالى ـ والتزام هديه في إدارة حياته بكل حيثياتها، فلا يجده ربه إلا حيث أمره، ولا يجده مطلقاً حيث نهاه، مخلصاً عمله وقوله لوجهه، وبهذا يتعمق إيمانه ويترسخ حتى تصبح تقوى الله سجيّة أصيلة من سجاياه، وفي ذلك يقول الرسول ﷺ:

- «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما. . .»[1].

- «من أحب لقاء الله، أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه»[2].

وقد بلغ حب المسلمين لربهم درجة جعلت منهم نماذج للسمّو الإنساني الذي لا يضاهى، فكم منهم من ضحّى بنفسه في سبيل الله، تاركاً أهله وموطنه وبيئته إلى أقصى بلاد الدنيا لينشر دعوة الله، وكم منهم من ضحّى بكل ما يملك في سبيل الله، وكم منهم من ذكر الله خالياً ففاضت عيناه، وكم . . وكم. . إنهم نماذج عطاء الإيمان، فكان حقاً لهم أن يسودوا وأن يقودوا وأن ينهضوا بهذه الأمة إلى ذرى المجد وهام السؤدد.

٢/٢ : حب الرسول:

لقد نسي الناس الله، ولم يعودوا يذكرون نعمه، ولا يتبعون هديه، فبعث لهم رسولاً منهم، وهذا الرسول، هو الذي بلغ الهدى للناس، وتحمل في سبيل ذلك ما لا يطيقه بشر، ولم يحرص على شيء قط من حطام الدنيا، وإنما عاش كأقل واحد منهم، ولم يكن له همّ سوى الأخذ بأيديهم إلى منهاج الله، ودفعهم نحو عزّة الحياة الدنيا، وكرامة الحياة الآخرة، يدفعهم إلى الجنة ويدفعهم عن النار، لذلك فإن أي إنسان مسلم له شيء من مقومات الإنسان، لا بدّ وأن يحب هذا الرسول الكريم ﷺ أعمق الحب.

والرسول الكريم حريص على بناء هذا الحب بينه وبين المسلمين، ليكون لهذا الحب نواتجه الإيجابية البناءة التي تؤدي بالمسلم إلى طاعة الرسول التي أمر الله بها،

---

(١) متفق عليه.

(٢) رواه البخاري.

وإلى التزام سنته، واتباع كل ما جاء به من عند الله، وبذلك يتحقق الهدى الذي نذر له نفسه، وفي ذلك يقول:

- «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين»(١).

- «كل أمتي يدخلون الجنّة إلا من أبى»، قيل: ومن يأبى يا رسول الله؟ قال: «من أطاعني دخل الجنّة، ومن عصاني فقد أبى»(٢).

وقد بلغ من حب المسلمين للرسول ـ عليه السلام ـ مبلغاً لا يتأتى لأحد من بني الإنسان، وتُرجم هذا الحب إلى طاعة مطلقة له ـ عليه السلام ـ وتنفيذ كل أمر يصدر عنه، والنأي عن كل ما ينهى عنه، وتكفي الحادثتان الآتيتان للتدليل على حب المسلمين لرسولهم وطاعتهم له:

- في يوم أحد، نعي لامرأة من بني دينار: زوجها وأبوها وأخوها، وهؤلاء أهم من تهتم بهم المرأة وأعزّ الاعزاء عليها، ولكنها فاجأت الناس بقولها: وما فعل رسول الله؟ قالوا: هو بخير بحمد الله وكما تحبّين، قالت: أروني أنظر إليه، فلما رأته قالت: كل مصيبة دونك جلل (هيّنة) يا رسول الله(٣).

- وقتل محيصة بن مسعود «ابن سفينة اليهودي»، فشق ذلك على أخيه حويصة ـ ولم يكن قد أسلم ـ وغضب على أخيه غضباً شديداً، وأخذ يعنّفه على فعله، فقال له: أقصر، فوالله لو أن الذي أمرني بقتله أمرني بقتلك لضربت عنقك.

ذهل حويصة وشده، فقال لأخيه: الله لو أمرك محمد بقتلي لقتلتني؟ قال: أي والله فقال حويصه: والله إن ديناً بلغ بك هذا لعجب، ولم يلبث أن أسلم(٤).

٢/ ٣: حب المؤمنين:

إن الجماعة الواحدة التي تجمعها غاية واحدة لا تحقق أهدافها في الحياة ما لم تبن علاقاتها على أسس من المحبّة والمودّة، بحيث تنتظم حياتها عوامل الرضا

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) رواه البخاري.

(٣) عن ابن كثير، البداية والنهاية، دار الريان، القاهرة، ط١، ١٩٨٨م، جـ٢، ص ٤٨ مختصراً.

(٤) عن ابن عشام، السيرة النبوية، مرجع سابق، جـ٢، ص ٦٤٩ مختصراً.

والتقبل والتقدير والاحترام، ومن ثمّ التعاون والتفاهم والتعاضد والتآزر، وتزول من بينها سلبيات القيم والأخلاق، الأمور التي تمكنهم من العمل معاً وبثقة تامة لتحقيق خيرية حياتهم.

لذلك عمل الرسول الكريم على تعميق عاطفة الحبّ بين المؤمنين، ليبقوا قوة واحدة متماسكة، فيقول:

- «لن تدخلوا الجنّة حتى تؤمنوا، ولن تؤمنوا حتى تحابوا»[1].

- «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»[2].

ويولي ـ عليه السلام ـ تحابّ المؤمنين عناية مستحقة، لما لها من تأثير على حياتهم والنهوض بالرسالة، والانضباط مع هدي الله ورسوله، لذلك يؤكد على أن تكون المحبة بين المؤمنين حائزة على المقومات الآتية:

- **إخلاص الحب لله:**

ويعني إخلاص الحب لله، ألا يقوم على أساس من منفعة أو مصلحة، أو غرض دنيوي، بحيث يتزعزع إذا انتفت المصلحة، وإنما يكون مجردا من كل غاية سوى طاعة الله وتحقيق رضاه، وبذلك يتميز بالاستمرارية والنقاء والصفاء والرفعة، وفي ذلك يقول ﷺ:

- «من أحبّ لله، وأبغض لله، وأعطى لله، ومنع لله، فقد استكمل الإيمان»[3].

- قال الله ـ تبارك وتعالى ـ: «وجبت محبّتي للمتحابين فيّ، والمتجالسين فيّ، والمتزاورين فيّ، والمتباذلين فيّ»[4].

- **إعلان الحب:**

والحب من الأمور القليلة التي يوصي الرسول بإعلانها، ذلك لأن إعلان الحب يتيح العلم به، والعلم به يجعل تيار الحب يسري بين قلوب المتحابين، فيزيد من

(١) رواه مسلم وأبو داود والترمذي.
(٢) متفق عليه.
(٣) رواه أبو داود.
(٤) رواه مالك والحاكم.

حبها لبعضها البعض. والحب بطبيعته عاطفة مضمرة لا يتأتى العلم بها إلا إذا أعلنت، ولما كان إعلانها ذا جدوى في زيادة تآلف المسلمين فقد أمر ـ عليه السلام ـ بإعلانها بقوله:

- «إذا أحب أحدكم أخاه فليعلمه»[١].

- «مرّ رجل برسول الله، وعنده قوم جلوس، فقال أحدهم: يا رسول الله إني لأحب هذا، قال: «أأعلمته؟» قال: لا، قال: «أعلمه»، فلحق به الرجل وقال له: إني أحبك في الله، قال الآخر: «أحبك الله الذي أحببتني فيه»[٢].

- **تواصل الحب:**

إن تواصل الحب أفقياً ورأسياً، بمعنى أن يحب الإنسان معاصريه، من غاب منهم أو حضر، ويحب من سبقه بالإيمان مذ كانت الرسالة، يجعل تيار الحب متصلاً، يسري بين قلوب المؤمنين جميعاً ويربطها بالمحبة، فيشعر كل جيل بتواصل أواصر المحبة ووشائج الصلة والقربى بينه وبين جموع المؤمنين، لا سيما أولئك النفر من الصحابة، الذين كانوا أعمدة نهضة الإسلام، وألسنة نشر الرسالة، حيث يقتدي اللاحقون بوعيهم وفقههم وقيمهم وأخلاقهم وأعمالهم وأقوالهم، فتغدو الأمة متكاملة الترابط، بمعتقداتها ومفاهيمها، وكل مقوماتها، وفي ذلك يقول الرسول الكريم:

- «الله الله في أصحابي، لا تتخذوهم غرضاً بعدي، فمن أحبهم فبحبّي أحبهم، ومن أبغضهم فببغضي ابغضهم، ومن آذاهم فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله»[٣].

- وسئل عليه السلام عن الرجل يحب القوم ولا يلحق بهم فقال: «المرء مع من أحب»[٤].

---

(١) رواه أبو داود والترمذي.

(٢) رواه أبو داود.

(٣) رواه الترمذي.

(٤) رواه البخاري.

وقد تأصلت روح حب المؤمنين لبعضهم البعض وتعمقت إلى درجة لم يعرف لها من قبل أي مثيل، حتى غدا أي منهم يفدي أخاه بنفسه، ولا يضّن عليه بشيء من مقومات الدنيا، وما سجله التاريخ يبدو إلي كثير من الناس كأنه ضرب من الخيال، ولكنه واقع تمثله أولئك الذين عرفوا معنى الأخوة في الله.

- في معركة اليرموك جاء أحد الصحابة يسقي الجرحى، فوجد عكرمة بن أبي جهل في الموت وأراد أن يسقيه، وإذا برجل ينادي: ماء، فقال عكرمة: إذهب فاسقه أولاً، فذهب إليه وإذا به سهيل بن عمرو، ولما وصل إليه ليسقيه إذا بثالث ينادي: ماء، فقال سهيل: إذهب فاسقه أولاً، فذهب إليه وإذا به الحارث بن هشام، ولما أراد أن يسقيه فاضت روحه، فعاد ليسقي سهيلاً فوجده قد مات، ورجع مسرعاً إلى عكرمة فوجده قد مات. .مات ثلاثتهم وكل منهم يؤثر أخاه بآخر شربة ماء له في الدنيا[١].

- ولعل خالد بن الوليد عبّر تعبيراً دقيقاً عن حب المسلمين لبعضهم البعض، إذ سأله القائد الروماني «جورجة» قل لي يا خالد واصدقني، لماذا ننهزم وتنتصرون في رأيك؟ قال: أقول لك وأصدقك، إن أحدنا إذا رأى السهم مفوّقاً (مسدّدا) إلى صدر أخيه اتقاه بصدره، أما أحدكم إذا رأى السهم مفوّقاً إلى صدره اتقاه بصدر أخيه. قال جورجة: صدقتني والله، لشتّان ما بين الحالين.

إلا أن الإسلام لا يبيح للمسلم ـ مهما كان حبه لأخيه ـ أن يسوّغه من الحق ما ليس له، فالتصرف يراعي موازين الحق والعدل مع من يحب المسلم ومع من يكره، والأمثلة على ذلك كثيرة أيضاً:

- كان عمر بن الخطاب يحب ابنه عبد الله ـ رضي الله عنهما ـ حباً شديداً، ولكنه عندما فرض للمسلمين، فرض للمهاجرين الأولين أربعة آلاف درهم وفرض لابنه عبد الله ثلاثة آلاف وخمسمائة، فقيل له: إنه من المهاجرين الأولين فلم تنقصه عنهم؟ قال: إنه لم يهاجر بنفسه وإنما هاجر به أبواه[٢].

---

(١) يوسف بن عبد البر، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، القاهرة، ـــــــ، جـ٣، ص١٠٨٤.

(٢) رواه البخاري.

- وجاء ابن للقاضي شريح يستشيره في قضية وقال له: إن بيني وبين بني فلان خصومة، سأعرضها عليك، فإن كان الحق لي خاصمتهم، وإن كان الحق لهم صالحتهم، قال: قل، فعرض الأمر عليه، فقال له: إذهب فخاصمهم، وخاصمهم فعلاً إلى أبيه، فحكم عليه لا عليهم.

غضب الولد غضباً شديداً، وجاء إلى أبيه قائلاً، والله لو لم أعرض الأمر عليك، ولم تقل لي خاصمهم لما عتبت، فما حجتك وقد عرضت الأمر عليك، وقلت لي خاصمهم، حتى إذا خاصمتهم حكمت علي لهم؟

ضحك القاضي وقال: والله يا بني إنك أحب إليّ من ملء الأرض من أمثالهم، ولكنّ الحق أحبّ إليّ منك، وقد قلت لك خاصمهم، لأنني خشيت أن تعلم أن الحق لهم فتصالحهم على بعض حقهم فتكون قد ظلمتهم[(١)].

٢/ ٤: حب مخلوقات الله:

كل ما خلقه الخالق خلقه لحكمة ولم يخلقه عبثاً، وكل مخلوق له منفعته - علمناها أم جهلناها - ولذلك فإن المؤمن يحب كل ما خلقه الخالق ولا يتسبب في أذاه إذا لم يؤذه، ولا في هلاكه إن لم يسع في هلاكه، وسيأتي اهتمام الرسول بالماء والهواء والنبات والطير وكل موجودات البيئة.

٣- ضبط عواطف الرفض:

البغض والحقد والضغينة عواطف رفض تجمعها الكراهية، فقد يكره الإنسان إنساناً فيبغضه ويفتري عليه ويظلمه، وقد يحقد ويتآمر عليه ويثلبه ويقذفه بما ليس فيه. والكراهية عاطفه، وإن كانت سلبيّة ولا إرادة للإنسان فيها، فكما أنه مؤهل لأن يحب فهو مؤهل لأن يكره، ولكن التصرّف المحمول على الكراهية هو الإرادي الذي يستطيع الإنسان أن يضبطه، لذلك يعمل الإسلام على ضبط عواطف الكراهية في إتجاهين:

---

(١) شمس الدين بن خلكان، وفيات الأعيان، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ـــــ، جـ٢، ص ٤٦١-٤٦٢.

٣/ ١ : الموضوعية:

إن نظرة الإسلام لعلاقة الإنسان بأخيه الإنسان لا يماثلها غيرها، فالإنسان أخ للإنسان، كلهم لآدم، مما يعني أنه لا يجوز للإنسان أن يكره أخاه الإنسان، ولكن بعض الناس يتصرف تصرفات لا يمكن قبولها على الاطلاق فكيف لا يكرهه الناس؟

إن الإسلام يؤكد على كراهية العمل الشائن أو القول الفاسد، وليس على كراهية الشخص ذاته، وقد عبّر عن ذلك أبو ذر الغفاري ـ رضي الله عنه ـ بوضوح إذ مرّ بقوم يلعنون مسلماً أقيم عليه الحدّ، فقال: لا تكونوا عوناً للشيطان على أخيكم، فقالوا: ألا تكرهه؟ قال: لا، إنّما أكره عمله، فإذا تركه فهو أخي في الله. إنها حكمة الإسلام الذي لا يفرّط بعناصره، وإنما يبقي باب التوبة لهم مفتوحاً، حتى إذا ما تابوا غدوا عناصر فاعلة محبوبة في المجتمع المسلم.

ومن المعروف أن الرسوال ﷺ وجّه عاطفة الكراهية منذ بداية الدعوة ضدّ الأفكار الضالّة، والأعمال الضالّة والأقوال الضالّة، من عبادة الأصنام والطواغيت، وشرب الخمر والزنا والبغاء والميسر والأزلام، والسحر والشعوذة والكهانة والسفاهة وغيرها، ورغم ضراوة المواقف العدائيّة ضدّه، فإنّه لم يترك أحداً ممن تطاولت جهالتهم إلا ودعاه إلى الإسلام. أما لماذا حاربهم فلأنهم اعتدوا، فالعدوان لا يرده إلا العدوان.

ويأخذ الإسلام بالانكار على أهل الذنوب وأهل المنكر، والعمل على كفّهم عنه باليد أو اللسان أو القلب، وبمقاطعة هؤلاء حتى يشعروا بسوء ما يرتكبون، إلا أن كراهية الذات الإنسانية غير واردة.

٣/ ٢ : كفّ التجاوز:

إن الإسلام يأبى على عواطف الرفض ـ مهما كان مقصدها نبيلاً ـ أن تتجاوز الحق أو العدل، فتعتدي أو تظلم أو تجور أو تسفّ أو تسب أو تفتري . . . الخ، وأي ردّ فعل على الكراهية يجب أن يبقى محكوماً بالشرع والله ـ سبحانه وتعالى ـ يقول: ـ ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ﴾[١].

(١) المائدة (٨).

فالعدل أساس لا يجوز التنكر له بدعوى كراهية فلان أو بغض علان، فهو يتبع الحق ولا يتبع العواطف. ونشير إلى الحادثتين الآتيتين لنبيّن كيف حكمت الموضوعية تصرفات المسلمين مع وجود الكراهية.

- استشهد زيد بن الخطاب ـ شقيق عمر ـ رضي الله عنهما ـ في معركة اليمامة، وكان الذي تولّى قتله أبو مريم الحنفي الذي كان قد ارتد مع مسيلمة، وعاد بنو حنيفة بعد هزيمتهم النكراء في اليمامة إلى الإسلام، وحسن إسلام أبي مريم، فوفد إلى المدينة في خلافة عمر، وعندما رآه عمر جاشت عاطفته الرّافضة لما فعل فقال له:

- والله لا أحبّك حتى تحب الأرض الدماء.

- أو يمنعني ذلك حقّاً في الإسلام يا أمير المؤمنين؟

- اللهم لا.

- لا بأس أذن.

إن الكراهية مهما جاشت لا تمنع حقاً، وهذا هو الأساس القويم الذي رسخ الإسلام العمل به.

- ادّعى أحد مناوئي زياد بن أبيه على حاجب زياد في مال، واشتكاه إلى زياد مع علمه بكراهيته له، ولمّا لجّ الجدال بينه وبين زياد قال له:

- إنه ما تطاول علي إلاّ بسلطانك، معتدّاً بعلاقته بك.

- أحسن والله.

- وتقول ذلك؟

- نعم، أتدري بماذا تنفعه علاقته بي؟

- لا.

- إذا كان له الحق عليك، أخذته منك وأنت راغم، أما إذا كان الحق لك، حكمت عليه وأديت لك حقك عنه.

- لا بأس ما دام الحق مضمون الأداء.

جـ- ترقية الدوافع

١ - مفهوم الدوافع:

الدافع في اللغة من دفع الشيء إذا حرّكه بقوة في إتجاه ما، ويستخدم الفعل دفع، للدفع المادي والمعنوي فيقال دفع العجلة، ودفع الحجة، ودفع الله البلاء وهكذا، واستخدمت كلمة الدوافع في الإصطلاح، لتعبّر عن تلك القوى الخفيّة، الكامنه في النفس البشرية، والتي تدفع إلى تحقيق هدف ما، والتي تشكل قوة نفسية لها انعكاساتها العضوية، حيث تستنهض الفكر والإرادة والقوى والطاقات لتحقيق الهدف المقصود ـ خيّراً كان أو شرّيراً ـ وبذلك قد ترتقي الدوافع بالكائن الإنساني وتعزز صلاحه، وقد تحرفه وتلتوي به وتعزز فساده، ولهذا نجد المحققين في جريمة ما، يبحثون أول ما يبحثون عن الدافع وراءها.

بناء على هذه الأهمية للدوافع، يعمل المربون على الارتقاء بها، لتبقى تدفع الإنسان إلى الصلاح، عاملين على تحقيق الوقاية من انحراف الدوافع لأنها تنحرف بالإنسان وتقوض حياة المجتمع.

وتصنف الدوافع إلى صنفين:

- دوافع فطرية:

وهي تلك التي تولد مع الإنسان، وتبقى جزءاً لا يتجزأ من بنية الكيان الإنساني، بحيث لا يمكن لأي إنسان الغاؤها كلياً، أو قهرها والاستغناء عنها مهما بذل من جهد، وإن كان يمكن تنظيمها وضبطها وتوجيهها، وتسمى هذه الدوافع بالدوافع الأولية لسببين: لأنها تظهر مع أول ظهور للإنسان في الحياة، ولأن البنية الإنسانية تتطلب اشباعها قبل أي دوافع غيرها.

وهذه الدوافع الفطرية نوعان:

* **دوافع حفظ الذات**: كالجوع والعطش والتعب والبرد والحر وما إليها.

* **دوافع حفظ النوع**: وتشمل الدوافع الجنسية، ودافعي الأبوة والأمومة.

- **دوافع مكتسبة**:

وهي الدوافع التي تدفع الإنسان إلى تعزيز مكانته في المجتمع الذي يعيش فيه، وتتأتى عبر التفاعل الاجتماعي، وتختلف من بيئة إلى بيئة ومن إنسان إلى إنسان ومنها: التملك، القيادة والرئاسة، الولاء، التكريم، الحرّيّة وغيرها.

وتسمى هذه الدوافع بالدوافع الثانوية، لأنها لا تظهر إلا بعد لأي من وجود الإنسان وإدراكه لأهميتها في سنّ معينة، ولأن إشباعها يأتي بعد إشباع الأولى، فالبطن الجائعة مثلاً تبحث أولاً عمّا يسكن جوعها، قبل أن تبحث عما يحقق أمجادها ويرفع مكانتها الاجتماعية.

٢- ترقية الدوافع الفطرية:

الدوافع الفطرية لا إراديّة، بحيث يستطيع الإنسان منعها وقتما يشاء، فهو لا يملك ألا يجوع أو ألا يعطش أولاً يشعر بالبرد وهكذا، ولكن السلوك الذي يتّبعه الإنسان في إشباع هذه الدوافع هو الإرادي، لذلك فإن الإسلام يعنى بهذا السلوك، وإكسابه مقومات الرقي والتميز والقوامة الخيرية، حتى لا يكون وسيلة من وسائل الهدم، فتشتعل المعارك حول لقمة الخبز أو شربة الماء، أو ينحرف أسلوب الاشباع ضاربا بكل القيم عرض الحائط، مما يقوّض أواصر علاقات المجتمع، ويتدنى بنوعية الحياة البشرية على الأرض.

لذلك يعمل الإسلام على تربية هذه الدوافع بما يحقق ترقيتها وكالآتي:

٢/ ١ : دوافع حفظ الذات:

هذه الدوافع من مأكل أو مشرب أو مركب أو مسكن أو ملبس أو علاج . . . الخ، لاغنى لإنسان عنها، ولا تستقيم حياته على الأرض بدونها، لذلك يبيح الإسلام إشباعها ضمن حدّين حددهما لا يجوز تجاوزهما، وهما:

- **حدّ الحلال**: فالاسلام يأخذ بحلّ ما يشبع هذه الدوافع عموماً، فيما عدا أعيان محددة حصراً كأكل الخنزير ومشتقاته، وطعام المشركين، والميتة والموقوذة، والمتردية والنطيحة وما إليها، وكذلك الأكل في صحاف الذهب

والفضة. وشرب الدم والخمر والمخدرات والمسكرات بأنواعها، والمبالغة في السكن، ولبس الحرير والذهب، إلى غير ذلك ممّا يحرمه الكتاب والسنّة. والحلال المباح من الطيبات يشكل كل احتياجات الإنسان الأساسيّة، ولا يوجد محرم يعتبر أساسياً للإنسان. يضاف إلى المحرم نوعاً، المحرم أسلوباً ووسيلة، أو عن طريق استذلال التنفس وهدر الكرامة، مما يوجب أن يكون الإشباع ناتجاً عن جهد الإنسان وسعيه وعمله، أما من تحول ظروفه دون العمل، فتشبع احتياجاته بالضمان الاجتماعي أو التكافل الاجتماعي ـ كما سيأتي ـ.

والرسول ﷺ يؤكد في تربيته للمسلمين على حدّ الحلال في إشباع دوافع حفظ الذات والنأي عن الأساليب غير القويمة في إشباعها في مواطن عديدة، منها قوله:

- «لا يدخل الجنّة جسد غذي بحرام»[١].
- «ما أكل أحد طعاماً خيراً من أن يأكل من عمل يده»[٢].
- «من كسب مالاً من حرام، فأعتق منه، ووصل رحمه، كان ذلك إصراً عليه»[٣].

- **حدّ الاعتدال:**

حب الاشباع يغري، وعموم الناس لا يضعون حدّاً لاشباع دوافعهم، فنجد أناساً لا يعزفون عن الطعام إلا إذا لم يبق له موضع، وقد يقتنون من أنواع اللباس ما يزيد عن أضعاف احتياجاتهم وهكذا. وبعض الناس يوغلون في إشباع دافع ما ويهملون دوافع أخرى، فلا يهتم أحدهم مثلاً بالصحة أو بالراحة أو بالوقاية من الحرّ والبرد . . . الخ.

ولما كان حدّ الإشباع لا يمكن أن يكون واحداً لدى جميع الناس، فإنّ الإسلام يؤكد على الاعتدال في الإشباع، ضمن مقومات الاعتدال التي تناسب كل إنسان، ولذلك فإن الرسول ﷺ يؤكد على المسلمين أن يلتزموا هذا الاعتدال في كل أمر في أحاديث كثيرة منها قوله:

---

(١) رواه الطبراني والبيهقي وغيرهما.

(٢) رواه البخاري.

(٣) رواه الطبراني والترمذي.

- «ما ملأ ابن آدم وعاء شرّاً من بطنه، بحسب أبن آدم لقيمات يقمن صلبه، فإن كان لا محالة فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه»[١].

- «أما والله إني لأخشاكم لله، وأتقاكم له، ولكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس منّي»[٢].

- «من فقه الرجل اقتصاده في معيشته»[٣].

٢/٢ : دوافع حفظ النوع:

دوافع حفظ النوع دافعان هما: العزيزة الجنسية، والأبوة والأمومة، ومن حكمة الخالق - جل وعلا - أن جعل هذين الدافعين، أقوى وأشدّ الدوافع كلها، لانهما تتعلقان بقوامة النوع البشري - وجودا وحماية -.

الدافع الجنسي الذي يقوم بين الرجل والمرأة - ومثلهما كل ذكر وأنثى من الأحياء - ينشأ عن حنين أودعه الخالق في أعماق الرجل نحو المرأة وفي أعماق المرأة نحو الرجل، بحيث يندفع كل منهما تجاه الآخر حتى يتمّ اللقاء، وتسكن فورة الجنس ويكون الإنجاب، وبذلك تتحقق استمرارية الحياة، برفدها بعناصر مستجدة تعوض ما تفقده من العنصر البشري.

ولولا هذا الحنين المتبادل، لما رغب إنسان بممارسة الجنس، ولما كان هناك إنجاب، ولانتهت البشرية في مهدها الأول. ويتبع دافع الإنجاب دافع الأبوة ودافع الأمومة. لحماية نواتج الانجاب، وهذان الدافعان لا يقلان شدّة وقوة وعرامة عن الدافع الجنسي ذاته، ولذلك نجد الأب يضحي بكل متاع الدنيا لإنقاذ ولده، والأم الرقيقة الوديعة تركب الأهوال وتضحي بنفسها لإنقاذ رضيعها.

والإسلام يقدر كل التقدير هذين الدافعين، ويؤكد على إشباعهما، ولكنه يضع لكل منهما قواعد ترتقي به، تتوافق مع أهميته وضرورته ونفعه للإنسان، وعلى هذا الأساس يربي الرسول ﷺ المسلمين ومن ذلك:

(١) رواه الطبراني وابن حبان وغيرهما.

(٢) رواه البخاري ومسلم.

(٣) رواه الطبراني.

- إشباع الدافع الجنسي:

يقر الإسلام إشباع الدافع الجنسي عن طريق واحد محدد هو الزواج الشرعي الدائم، الذي تحدد فيه الحقوق والواجبات، وذلك لتحقيق الطهر والنظافة والعفّة والاستقامة، فيحمي المسلم من نواتج الانحرافات الجنسية، وفي الوقت نفسه يهيء الأجواء الملائمة للانجاب ورعاية الأطفال في أجواء صحية هادئة مستقرة حتى يبلغوا رشدهم في ظل عناية أسرية متميزة.

ولذلك نجد الرسول ﷺ، يوجه المسلمين لإشباع هذا الدافع بأسلوب قويم كما يأتي:

* **التأكيد على الزواج**: فالإسلام لا يقبل حياة الرّهبنة أو التبتّل، وإنما يؤكد على ممارسة حق الزواج لإشباع دافعي حفظ النوع فيقول الرسول الكريم:

- «يا معشر الشباب، من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج»[١].

- «إذا تزوج العبد فقد استكمل نصف الدين، فليتق الله في النصف الآخر»[٢].

- «من كان موسراً لأن ينكح ولم ينكح فليس مني»[٣].

* **تيسير الزواج**: والحثّ على الزواج لا يؤدي إلى تحقيقه ما دام الطريق إليه مليئاً بالعقبات والصعوبات لا سيما بالنسبة لمؤونته الثقيلة على الشباب نتيجة لاستشراء العبودية المادّية، لذلك فإن الرسول يأخذ المسلمين بتيسير مؤوونة الزواج حتى يتيسر الزواج، فمهر الزوجة ليس ثمناً للزوجة وإلا لما أجزت فيه الملايين كلها، وإنما هو رمز للارتباط التوافقي بين الزوجين، وعليه يكفي فيه القليل وأقل القليل، وهكذا بالنسبة للهديّة والكسوة والوليمة، تبقى في حدود المعقول وتراعى فيها ظروف الزوج، فلا يشيع العنت الذي يؤدي إلى النكوص عن الزواج ولذلك يقول ـ عليه السلام ـ:

---

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه البيهقي.

(٣) رواه الطبراني.

- «أعظم النساء بركة، أيسرهن مؤونة»[١].

أما في تكاليف المهر والوليمة فنجد هديه ﷺ يهبط بهما إلى الرمزية المطلقة، ومن ذلك:

- قال لرجل في المهر: «التمس ولو خاتماً من حديد»[٢].
- «وأولم عليه السلام عل بعض نسائه بمدّين من شعير»[٣].

* **تحريم الإنحراف**: وحتى لا يجد الرجال سبيلاً لإشباع غرائزهم الجنسية بالحرام، فإن الإسلام يحرّم الزنا تحريماً قطعياً، ويعتبره كبيرة من الكبائر، حتى لا تشيع في المجتمع المسلم الفوضى الجنسية، وما تؤدي إليه من هتك الأعراض وتدنيس الأنساب، وتعميق الأحقاد، ونشر الأمراض.

والرسول الكريم لم يتهاون في تطبيق حدّ الزنا من رجم وجلد، ولا الخلفاء من بعده، حرصاً على طهارة ونظافة وعفّة المجتمع المسلم، وفي ذلك يقول عليه السلام:

- «لا يزني الزاني وهو مؤمن»[٤].
- «لا تزال أمتي بخير ما لم يفش فيهم ولد الزنا»[٥].

* **تهيئة المناخ**: الإنسان يبقى إنساناً، ولذلك فإن الأمر بالاستقامة دون تهيئة المناخ الملائم لهذه الاستقامةلا يحقق النتائج المرجوة، ومن هنا نجد الرسول الكريم يؤكد على تهيئة المناخ الملائم للعفة والقضاء على كل ما يمكن أن يعكّر هذا المناخ ومن هديه في ذلك ـ عليه السلام ـ:

- **في تحريم الأعراض**:
- «كل المسلم على المسلم حرام: دمه وعرضه وماله»[٦].

---

(١) رواه أحمد والحاكم وغيرهما.

(٢) متفق عليه.

(٣) رواه البخاري.

(٤) رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

(٥) رواه أحمد.

(٦) رواه البخاري ومسلم.

- **في حرمة المغيبات:**

- «حرمة نساء المجاهدين على القاعدين كحرمة أمهاتهم»[١].

- **في عمليات الأغراء:**

- «لا تباشر المرأة المرأة فتنعتها لزوجها كأنه ينظر إليها»[٢].

- **في التهتّك:**

- «يكون في آخر أمتي رجال يركبون على السرج كأمثال الرجال، ينزلون على ابواب المساجد، نساؤهم كاسيات عاريات، وعلى رؤوسهن كأسنمة البخت العجاف، العنوهن فإنهن ملعونات»[٣].

- **في الخلوة:**

- «والذي نفسي بيده، ما خلا رجل بامرأة إلا وكان الشيطان بينهما»[٤].

- **في التبرج:**

- «إن المرأة إذا بلغت المحيض، لم يصلح أن يرى منها إلا هذا وهذين، وأشار إلى وجهه وكفيه»[٥].

- **إشباع دافعي الأمومة والأبوّة:**

يهتم الإسلام بإشباع هذين الدافعين تحقيقاً للاستقرار النفسي للإنسان في هذه الحياة، فيقول الله ـ تعالى ـ: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾[٦]، والرسول الكريم يوصي راغبي الزواج باختيار «الودود الولود» ـ كما سبق ـ ويؤكد على الأبوين محبة الأبناء والرفق بهم ورحمتهم وحسن رعايتهم ـ كما سيأتي ـ لتوظيف هذا الدافع في تحقيق صلاح الحياة وخيريّتها عبر إعداد الأجيال إعداداً متميزاً.

---

(١) رواه النسائي.
(٢) رواه البخاري.
(٣) رواه ابن حبان والحاكم.
(٤) رواه الطبراني.
(٥) رواه أبو داود.
(٦) الكهف (٤٦).

والإسلام يرفض تزوير هذين الدافعين أو الغشّ فيهما وخداعهما وتضليلهما بادّعاء أبناء الغير وتبنيهم، فالله تعالى يقول: ﴿ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ هُوَ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِۚ﴾[١]، كما يرفض الانجاب عن غير طريق شرعي كالزنا، فالولد للفراش وللعاهر الحجر، ذلك لأن الاشباع الحقيقي لدافعي الأمومة والأبوّة، يجب أن يكون محاطاً بالطهر والعفاف والنظافة والوضوح، ليتحقق الاستقرار النفسي للأبوين، وليقوما بواجباتهما تجاه رعاية الأبناء والعناية بتربيتهما. ويبيح الإسلام كفالة الأيتام فقط ـ مادياً ومعنوياً ـ دونما ادعاء أو توريث أو تبنّ، وفي ذلك يقول الرسول الكريم:

- «إن من أعظم الفرى أن يدعى الرجل إلى غير أبيه»[٢].

وسنتناول هديه ـ عليه السلام ـ في تربية الأبناء والعناية بهم في الفصل القادم.

٣- تربية الدوافع المكتسبة:

لا يكتفي الإنسان بإشباع الدوافع الفطرية، فهو ما أن يشبعها حتى يأخذ في البحث عمّا يعزز مكانته في الحياة، من تملك ما يمكنه تملكه من مال وعقار، والارتقاء في الأعمال والحصول على المناصب الملائمة والقيادات العليا، وتزعم الجماعات، والعيش الحرّ الكريم، وقيادة الإصلاح للوطن والشعب والأمة ... الخ.

والإسلام لا يعارض هذا الطموح لدى المسلم، ولكنه يعمل لضبطه وفق أسس الحق والعدل والخير والصلاح التي يستهدفها، حتى لا تنحرف هذه الدوافع بالإنسان إلى الأنانية والأثرة والجشع والذاتية والنفعية، ولكي تبقى تصب في الصالح العام للمجتمع ككل، باستثمار الفرد لكل ما وهبه الله لترقية ذاته من ناحية، والمجتمع الذي يعيش فيه، والأمة التي ينتمي إليها من ناحية ثانية.

والرسول الكريم يضع ثلاثة ضوابط لإشباع هذه الدوافع هي:

---

(١) الأحزاب (٥).

(٢) رواه البخاري.

٣/ ١ : النزاهة:

نعني بالنزاهة أن يتبع الإنسان الطريق الواضح البين الذي لا ريبة فيه من ناحية، وأن يجتنب مواطن الريبة من ناحية ثانية، دونما لجوء إلى تبرير للخطأ أو الجنوح البيّن، أو التحايل لبلوغ هدف سديد.

إن التملّك مباح للمسلم، ولكن دون طلاقة، فهناك ما يحرّم الشرع تملكه - نوعاً أو أسلوباً - كما سبق، لذلك تقتضي النزاهة أن يحصر الإنسان ملكيته وسعيه إلى تنميتها في الحدود المباحة، جاعلاً من نفسه قيّماً ورقيباً على نفسه. وتسنّم المناصب مباح كذلك، ولكن بنزاهة تلفظ كل أسلوب منحرف من نفاق ورياء وتملّق للمسؤولين، أو انتقاص من حقوق الآخرين، أو تضليل وتحايل وتزوير في المؤهلات والكفايات والخبرات . . . الخ.

والرسول ﷺ، يضع حدّين للنزاهة هما:

- الإلتزام بالأمر البيّن الواضح المحدّد، دونما انحراف أو التواء، فيقول:

- «ما نهيتكم عنه فاجتنبوه، وما أمرتكم به فافعلوا منه ما استطعتم»[١].

- النأي الكلي عن مواطن الريبة لأنها هي التي تدفع الإنسان إلى التدليس والالتواء والإنحراف وتبرير المواقف زورا وبهتاناً، فيقول:

- «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك»[٢].

٣/ ٢ : العدالة:

أعدل مواقف العدالة أن يرضى الإنسان لغيره ما يرضاه لنفسه، فالإنسان الذي يسعى إلى أن يكرّمه الناس يجب أن يكرّم هو الناس، والذي يودّ أن ينصفه المسؤولون يجب أن ينصف هو المسؤول عنهم، ومن يأمل أن يحفظ له المجتمع حقوقه، ملزم أن يحفظ حقوق من سواه، وهكذا. وفي هذا المجال يقول الرسول الكريم:

- «لا يؤمن أحدكم حتّى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»[٣].

(١) رواه مسلم والنسائي وابن ماجه.

(٢) رواه الترمذي.

(٣) رواه البخاري ومسلم.

- «المؤمن من أمنه المؤمنون على أنفسهم وأموالهم»[١].

إن من يجد في نفسه الكفاءة لأن يمثل الشعب في مجلس الأمة أو مجلس الشورى، له أن يقدم على ذلك دونما حرج، على أن يلتزم بالعدالة التي تقتضي عدم المغالاة في بيان قدراته وإمكاناته وإطلاق وعود وهمية على عواهنها، يعلم هو قبل غيره أنه غير قادر على الوفاء بها، وفي الوقت نفسه عدم الازراء على منافسيه وثلبهم مميزاتهم والصاق تهم بهم هم منها براء، والافتراء عليهم إلى غير ذلك، وعدم اللجوء إلى أي أسلوب يحرّمه الإسلام من غشّ وتزوير وخداع واحتيال لحشد المؤيدين، أو رشوة الناخبين، أو تزوير البطاقات إلى غير ذلك مما أصبح شائعاً في معظم الانتخابات في العالم الثالث، فما دام الإنسان لا يقبل أن تمارس هذه الأساليب ضده، عليه أن يرفض أن يمارسها ضد غيره، وبذلك يكون عامل إصلاح في مجتمعه من خلال اشباع هذه الدوافع.

والرسول ﷺ يتناول بالتحذير والترهيب كل جنوح في إشباع الدوافع المكتسبة مبيناً آثاره السلبية على الدين فيقول:

- «ما ذئبان جائعان، أرسلا في غنم، بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه»[٢].

وكان ـ عليه السلام ـ يتعوذ من أن يتجاوز أحد عليه أو أن يتجاوز على أحد فيقول:

- «اللهم إنّي أعوذ بك من أن أضّل أو أُضل، أو أزلّ أو أُزل، أو أظلم أو أُظلم أو أجهل أو يجهل علي»[٣].

فالعدالة الحقيقية تكمن فيما حدده ـ عليه السلام ـ من الاستقامة على أمر الله تعالى، فعن سفيان بن عبد الله قال: قلت يا رسول الله, قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً غيرك قال:

---

(١) رواه أحمد والترمذي.

(٢) رواه أحمد والترمذي.

(٣) رواه الترمذي.

- «قل آمنت بالله، ثم استقم»[1].

٣/٣: الفعالية:

نعني بالفعالية، استثمار الدوافع المكتسبة لتحقيق الصلاح والخير لخلق الله، وليس لتلميع الذات وتحقيق الوجاهة والمكانة الاجتماعية فقط، فالإسلام يأخذ بثنائيّة النفع من هذه الدوافع بحيث يصلح الإنسان نفسه، ويصلح غيره، فلا قيمة لصلاحه إذا فسد من سواه.

قد تتحقق الحرّيّة للإنسان المسلم المستقيم، ولكنه لا ينعم بها إذا كان قومه مستعبدين.

وقد يتحقق له الغنى، إلا أنه لن ينعم بغناه، إذا كان أهله صرعى الفقر والحاجة والعوز.

وقد يصل إلى أعلى درجات العلم، ولكنه لن يشعر براحة الضمير ما دام قومه غرقى في بحور الجهل.

وهكذا في كل دافع أو قيمة أو معنى مكتسب، وقديماً قيل: «لا كان من عاش لنفسه فقط».

والرسول الكريم يؤكد على السمّو بفعالية الصالحين ليحققوا الصلاح، وفعاليّة الخيرين ليحققوا الخير للآخرين، ويحذّر من أن يكونوا وسيلة إفساد لمن سواهم فيقول:

- «من دعا إلى الهدى، كان له من الأجر مثل أجور من تبعه، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الأثم مثل آثام من تبعه، لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً»[2].

- «من سنّ في الإسلام سنّة حسنة، فعمل بها بعده كتب له مثل أجر من عمل بها، ولا ينقص من أجورهم شيء، ومن سنّ في الإسلام سنّة سيئة فعمل بها بعده، كتب عليه مثل وزر من عمل بها ولا ينقص من أوزارهم شيء»[3].

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه مسلم وأحمد وغيرهما.

(٣) رواه مسلم وأحمد وغيرهما.

بهذه التربية تضبط دوافع الفرد المسلم بضوابط الحق والعدل والصلاح، فلا تجنح ولا تجمح، وإنما تغدو وسيلة خير ورضا وسرور للفرد، ووسيلة إصلاح وضبط وتوجيه للجماعة، وعامل تفاهم وتواؤم وتعاون وتوافق للمجتمع.

د- ضبط الانفعالات

١ - مفهوم الانفعال:

الانفعال من انفعل بمعنى تأثّر، ينتج عن تفاعل مكونات النفس البشرية إثر أي موقف يفجأها، بما يشكل ردّ فعل يتناسب معه، هذا الانفعال يحدث تغيراً مفاجئاً في أجهزة الاستقبال لدى الإنسان، يقود إلى تغير عضوي متأثر به ـ سلباً أو إيجاباً ـ.

فإذا افترضنا أن إنساناً ما وجهت له مسبّة أو إهانة، فإن الانفعال بذلك يبدأ في تشكيل موقف غضبي عارم القوّة، وفي سرعة لحظيّة يتحول الغضب إلى احمرار في الوجه، وخفقان في القلب، وتوتر في الأعصاب، وتشنّج في الأطراف، وتسارع في تدفق الدم إلى مناطق ردّ الفعل، إلى درجة يصبح فيها كيان الإنسان كله مستنفراً ومستثاراً لمواجهة الموقف.

والانفعال ظاهرة معقدة، مما يصعب معه إدراجها تحت حكم واحد، فهي ذاتيّة رد الفعل، فقد نجد كلمة ما تستثير أقصى درجات الغضب عند إنسان في حين تقابل بالابتسام أو الضحك عند آخر، وقد نجد ردّ الفعل ذاته يختلف من إنسان إلى آخر، فهذا يتعاظم رد فعله تجاه القوى ويتضاءل أمام الضعيف، وذاك بالعكس، يتخادل أمام القوي ويعنف مع الضعيف، وقد يختلف تبعاً لوسيلة الاتصال، فمن يسمع بالاعتداء على أهله أو وطنه غير من يرى بأم عينه مآسي العدوان وهكذا.

وإذا كان الانفعال ليس إرادياً، فإن التصرف المحمول عليه إرادي، يستطيع الإنسان أن يتحكم فيه، لذلك تنصب تربية الانفعالات على ضبط ردّ الفعل الإنفعالي والتصرفات الناجمة عنه.

والانفعالات تأخذ النقيضين: الصالح والطالح، والإسلام إذ يقدر الإنفعالات يعمل على تنمية الصالح منها، وضبط الطالح وفق ضوابط موضوعية، لتستقيم حياة الناس على الأرض بعيداً عما يعكر صفوها، أو يخلّ بتوازنها.

ولا شك أن الانفعالات كما الدوافع والعواطف متعددة متشعبة متنوعة، منها الغضب والخوف، والحزن والفرح، والتقبل والرفض إلى غير ذلك، وكل منها له جانباه: الإيجابي والسلبي، ونظراً لضيق المجال نكتفي ببيان هدي الرسول الكريم في ضبط كل من انفعالي الغضب والخوف لا سيما الجانب السلبي منهما، باعتبار أن هذين الانفعالين جامعين لما سواهما.

٢- ضبط انفعال الغضب:

هناك غضب لله، وللحق والعدل والخير، وردّ الفعل تجاه مثل هذا الغضب يأخذ مساراً موضوعياً هادئاً متزناً، لأنه يستهدف الإصلاح، وهذا غضب محمود لأنه يؤدي إلى خيرية المجتمع وفلاحه. وما دام لله فلا يمكن أن يجور أو يعتدي، فهو منضبط أصلاً ولا يحتاج إلى ضبط.

أما الغضب للنفس وهو الغضب الشائع بين الناس، فهو الذي يحتاج إلى ضبط، لأنه كثيراً ما يتجاوز كل تصرف حكيم أو سلوك قويم، وقد يظلم ويعتدي ويفتري، ويجور ويحطم ويدمر، لأن الغضب للنفس، غالباً ما يحيّد العقل والمنطق، ويضرب صفحاً عن الحق والعدل والخير.

والرسول ﷺ يعمل على ضبط مثل هذا الغضب بأحد أسلوبين:

٢/ ١: تلافي الغضب:

«جاء رجل إلى رسول الله فقال: يا رسول الله، أوصني، قال: «لا تغضب» ويقول الرجل، ففكرت في قول رسول الله حين قال لي: «لا تغضب» فإذا بالغضب يجمع الشرّ كله»[١].

وقول الرسول للرجل «لا تغضب» لا يعني وأد انفعال الغضب، فهذا ما لا يملكه إنسان، وإنما يعني الابتعاد عن المواقف والأسباب التي تؤدي إلى الغضب، فمن لا يظلم الناس لا يغضبونه بالظلم، ومن لا يقسو على أحد، لا يغضبه أحد بالقسوة، ومن لا يفتري لا يفترى عليه، وهكذا، إذا استقام الإنسان، لا يغضب أحداً ولا يغضبه أحد، وعلى ذلك كانت تربية الرسول للمسلمين تقوم على أساس النأي كل

---

(١) رواه الإمام أحمد.

النأي عما يسبب غضب بعضهم من بعض، من فحش وزور وسوء ظن وتجسس وظلم وعنف وافتراء إلى غير ذلك، وإنما يقيم علاقاتهم على أساس من المحبّة والمودة والعطف والرحمة والرفق واللطف واللين مما يدرأ عنهم السقوط في حمأة الغضب، وفي ذلك يقول:

-«إن من أكبر الكبائر أن يسب الرجل والديه» قيل: وهل يسب الرجل والديه يا رسول الله؟ قال: «نعم، يسب الرجل أبا الرجل، فيسبّ أباه وأمه»[١].

- «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يحقره ولا يخذله»[٢].

- «بحسب امرىء من الشرّ أن يحقر أخاه المسلم»[٣].

- «إن الله رفيق يحب الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف، وما لا يعطي على سواه»[٤].

٢/ ٢ : ضبط ردّ الفعل الغضبي:

الغضب وارد في كل مجتمع إنساني، مهما حاز من القيم والأخلاق الحميدة، فالمجتمع الإنساني ليس مجتمع ملائكة، لذلك فالخطأ وارد ومسببات الغضب واردة، ومن الناس من يغضب لأقل القليل. والمسلم لا يمكنه الغاء الغضب كانفعال، فهو لا إرادي، وإنما يمكنه ضبط رد الفعل المحمول عليه، ولذلك يربي الرسول الكريم المسلمين على التحكم في رد الفعل بعدة أساليب منها:

- **ضبط النفس**: فيقول:

- «ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب»[٥].

- **كظم الغيظ**: فيقول:

---

(١) متفق عليه.

(٢) رواه مسلم.

(٣) متفق عليه.

(٤) رواه مسلم.

(٥) رواه البخاري ومسلم.

- «من كظم غيظاً وهو قادر على أن ينفذه، دعاه الله ـ سبحانه ـ على رؤوس الخلائق حتى يخيّره من الحور العين ما شاء»[(١)].

- **كف التصرف**: فيقول:

- «لا يقضين حكم بين اثنين وهو غضبان»[(٢)].

- **تغيير الهيئة**: فيقول:

- «إذا غضب أحدكم وهو قائم فليقعد، فإن ذهب عنه الغضب وإلا فليضطجع»[(٣)].

- **ضبط النواتج**: فيقول:

- «لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال، يلتقيان فيعرض هذا ويعرض هذا، وخيرهما الذي يبدأ بالسلام»[(٤)].

٣- ضبط انفعال الخوف:

الخوف كما الغضب انفعال لا إرادي، فالإنسان لا يستطيع منع نفسه أن يخاف إذا فوجىء بما يخيف. كأن يهجم عليه حيوان مفترس شرس فجأة، أو يهاجمه عدو مسلح من حيث لا يحتسب وهكذا، ولكن التصرّف المحمول على الخوف هو الإرادي، فمن الناس من ينتصر على الشعور بالخوف ويتصرف بحكمة ورويّة في مواجهة ما أخافه، وهناك من ينتصر الشعور بالخوف عليه، فيطيش عقله، وتنخلع نفسه ولا يدري كيف يتصرف.

وردّ الفعل الناتج عن الخوف قد يكون إيجابياً، وهذا ما يعمل الإسلام على تنميته، وقد يكون سلبياً، وهذا ما يعمل الإسلام على تنحيته، فالخوف من الموت قد يدفع إلى الاستقامة والتقوى والعمل على رضا الله ورسوله وقد يدفع إلى إشباع هوى النفس وإرضاء نزواتها قبل أن يحلّ الموت. والخوف على الرزق قد يدفع

(١) رواه أبو داود والترمذي.
(٢) رواه البخاري.
(٣) رواه أحمد وأبو داود.
(٤) رواه البخاري ومسلم.

إلى تكثيف السعي لتحصيله، وقد يدفع إلى الاستذلال واستكفاف الناس، والخوف من العدو قد يدفع إلى الإعداد لمواجهته، وقد يدفع إلى الاستكانة والإستسلام وهكذا. والإسلام يعمل على تنمية الجوانب الإيجابية وتلافي الجوانب السلبية في كل تصرف محمول على رد الفعل الناتج عن الخوف.

والمخيفات في الحياة كثيرة، ولعل أهم ما يجمعها أربعة مواطن للخوف هي: الإذلال، الموت، الرزق، المستقبل، وفيما يأتي بيان تربية الرسول للمسلمين إزاء كل منها:

٣/١ : رفض الاستذلال:

ظلم الإنسان والاعتداء عليه بدون ما سبب، يؤدّي إلى قهر نفسه وإذلالها بدون شك، هذا الإذلال له مصادر ثلاثة:

- إما من خارج المجتمع المسلم باعتداء قوى خارجية تسوم المسلمين الخسف، فيجد بعض الناس أن أفضل سبيل لتأمين سلامتهم هو الرضوخ لمشيئة المنتصر، وهذا موقف مرفوض إسلامياً، فالله تعالى يقول: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾﴾[١] ﴿فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾[٢] وسيأتي بيان تربية الرسول للمواقف إزاء أي عدوان خارجي في فصل لاحق.

- وإما من السلطة أو الأقوياء أو المتنفذين في المجتمع المسلم ذاته، والرسول ﷺ يربي المسلمين على رفض الظلم والتظالم أساساً، سواء في ذلك الظلم السياسي أو الاقتصادي أو الاجتماعي، فيقول:

- «اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة»[٣].

- «إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته»[٤].

(١) الشورى (٣٩).

(٢) البقرة (١٩٤).

(٣) رواه مسلم.

(٤) رواه البخاري.

- يقول الله تعالى: «اشتد غضبي على من ظلم من لا يجد له ناصراً غيري»[(١)].

ومع ذلك قد لا يرتدع الظالم تلقائياً مما يتطلب أن يقف من يتعرض للظلم بحزم وشجاعة في وجه من يظلمه، لا أن يذل ويخضع ويلجأ إلى الذّلّة والمسكنة، فهذه المواقف لا توقف الظلم وإنما تشجعه على أن يستشري ويتعمق، لذلك يوجه الرسول المسلمين - جماعات وأفراداً - إلى الوقوف في وجه الجور والظلم لاقصائهما عن المجتمع فيقول:

- «نصر أخاك ظالماً أو مظلوماً قالوا: يا رسول الله، هذا ننصره مظلوماً، فكيف ننصره ظالماً؟ قال: «تمنعه من ظلم أخيه»[(٢)].

- «سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب، ورجل قام إلى إمام جائر فنهاه فقتله»[(٣)].

- «من قتل دون ماله فهو شهيد، ومن قتل دون أهله فهو شهيد، ومن قتل دون دينه فهو شهيد، ومن قتل دون دمه فهو شهيد»[(٤)].

فهو موقف القوة والعزّة والأنفه وليس الاستذلال والاستخذاء، وما يورثان من قهر وقتل للروح المعنوية.

- وإما أن يكون مصدر الاستذلال هو النفس البشرية ذاتها، فمن الناس من يرضون بأن يعيشوا في كنف الأقوياء أعواناً وتابعين وأدوات، يأتمرون بما يأمرون وينفذون ما يشاءون، طائعين غير مكرهين، مقابل لقمة عيش مغمّسة بالذل، والرسول الكريم الحريص على استقلال شخصية المسلم بحيث تصبح كفاية المجتمع مساوية لمجموع كفايات أفراده، بكل ما تتضمنه الكفاية من قوة وقدرة ووعي، يرفض هذه المواقف المستخذية، بل وينفي أمثال هؤلاء عن المجتمع المسلم فيقول:

---

(١) رواه الطبراني.

(٢) رواه البخاري.

(٣) رواه الترمذي والحاكم.

(٤) رواه أحمد وأبو داود وغيرهما.

- «من أعطى الذّلة من نفسه طائعاً غير مكره فليس منّا»[1].

٣/ ٢ : ترقية خوف الموت :

الحرص على الحياة يلازم النفس البشرية، وما من إنسان يرغب في الموت أو يرتاد سبيلاً يفضي به إلى موت محقق، ولكن هذا الموت الذي يفرّ منه الإنسان لا بدّ أنه ملاقيه في مكان ما وزمان ما ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ﴾[2]، ﴿ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ ﴾[3].

إذن لا فرار، فالآجال مكتوبة، لا تؤخر برغبة تقي، ولا تقدم بفعل شقي ﴿ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ﴾[4].

والخوف من أي أمر يدعو أسوياء الناس للتحوط لدفعه أو الحدّ من آثارة، ولما كان دفع الموت مستحيلاً، فإن الرسول الكريم ﷺ يربي المسلمين على العمل لما بعد الموت، بالنهوض المخلص المتميز المتفوق بالاستخلاف في الأرض وفق عهد الاستخلاف وهو شرع الله، ومن هنا يأمن الإنسان ما بعد الموت وإن استحال عليه أن يأمن الموت ذاته، وبذلك يتضاءل خوفه من الموت، مع التأكيد على عدم تعريض النفس للتهلكة أو قتل النفس.

هذا الفهم ينقل خوف الموت إلى عمل بنائي مستمر، قوامه الانجاز والإبداع، بعيداً عن الهلع والجزع والخشية التي لا تجدي، فيصبح الموت لدى الأتقياء الأنقياء مصدر أمن نفسي، لأنهم سيقابلون رباً كريماً يجزي بذرّة الخير خيراً.

على هذا يربي الرسول الكريم المسلمين لاستثمار خوف الموت وترقيته وتوظيفه لدافعيّة الصلاح والإصلاح فيقول:

- قال الله تعالى: «أعددت لعبادي الصالحين، ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر»[5].

---

(١) رواه الطبراني.
(٢) الجمعة (٨).
(٣) الأحزاب (١٦).
(٤) نوح (٤).
(٥) رواه البخاري.

- «من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه»[١].

٣/٣ : تفعيل الخوف على الرزق:

والإنسان يخاف فوت الرزق، لا سيمّا في الأزمنه التي يسودها التردّي الاقتصادي، حيث تتدنى الأجور وتندر فرص العمل، وتتفشى البطالة، هذا الخوف يقتل إمكانات الابداع والإنجاز لدى الإنسان إذا استبد به، فيعيش متوجّساً مترددأ قلقاً مضطرباً، ويصبح طعم الحياة لديه مرّاً مرارة العلقم.

والإسلام يحاكم الرزق محاكمة موضوعية بعيداً عن هذا الشعور السلبي، فيقرر أن الرزق مكفول من الخالق وليس من المخلوق فهو في السماء قدره وليس في الأرض ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ ۝٢٢﴾[٢]، وهو معلوم أدق العلم من بارىء الإنسان ـ جل وعلا ـ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ رِزۡقٞ مَّعۡلُومٞ ۝٤١﴾[٣].

ولكن الرزق لا يتنزل من السماء جاهزاً ليستمتع به الإنسان، وإنما لا بدّ من فقه أسبابه، والعمل بوعي وعلم وجد واجتهاد على استثمارها، وبذلك يصبح الخوف على الرزق عاملاً من عوامل فعالية الإنسان لترقية الحياة، وليس عامل تيئيس وتثبيط، فمن لا يجد عملاً اليوم قد يجد غداً إذا استمر في السعي، ومن يخسر في تجارته اليوم قد يربح غداً إذا أحكم التصرف، ومن لم ينتج بعض مزروعاته قد ينتج بعضها الآخر وهكذا. ويأخذ الرسول ـ عليه السلام ـ المسلمين بهذا الفهم الواعي لحلول الرزق فيقول:

- «لا تستبطئوا الرزق، فإنه لم يكن عبد ليموت، حتى يبلغ آخر رزق هوله»[٤].

فلتكن الفعالية مستمرة، لأن الرزق آت بكماله وتمامه، وإن استبطأه الإنسان.

أما أولئك الذين أقعدتهم الظروف لمرض أو إعاقة فالدولة المسلمة والمجتمع المسلم مسؤولان عنهم بالتضامن الاجتماعي والتكافل الاجتماعي.

---

(١) رواه البخاري.

(٢) الذاريات (٢٢).

(٣) الصافات (٤١).

(٤) رواه الحاكم وابن حبان.

ومشكلة الإنسان الكبرى أنه إذا فتح له باب رزق، دخله بكليته، وسخّر له كل وجوده، مهملاً كل ما عليه من واجبات أخرى، فلا يرعى أهلاً، ولا يعنى بأبناء، ولا يراعي جيرة، هذا إذا لم ينح إلى الانحراف ليضخّم الرزق، والرسول الكريم يأخذ المسلمين بالاجمال في كل أمر ومن ذلك طلب الرزق، ليوازن المسلم بين واجباته في الحياة فيقول:

- «يا أيها الناس، اتقوا الله، وأجملوا في الطلب، فإن نفساً لن تموت حتى تستوفي رزقها»[1].

٣/ ٤ : تلافي خوف المستقبل:

في معظم الأحيان يوقع الإنسان نفسه بنفسه في شباك الخوف المعقدة، فيطوي حياته مرعوباً، ومن ذلك الخوف من المستقبل المجهول الذي يعتري كثيراً من الناس، حيث تفتح أبوابه على مصاريعها لفظة قد، ولا يضع في حسبانه إلا سلبيات قد: قد يمرض وقد يقتل وقد يموت، وقد يفقد الزوجة أو الولد، قد يفقد عمله أو تصادر حريته أو ينفى من الأرض وهكذا بحيث لا تنتهي القائمة، فهو من خوف الخوف في خوف.

والإسلام يعتبر ذلك كله من عوج الفهم وضلال التفكير، فالمستقبل مقدر من الله مجهول كلياً من الناس ولا داعي لاقامة فرضيات على مجهول، والإنسان بحكم التكليف مطالب باستشراف المستقبل وفق معطيات بذور التغيير التي يحفل بها الحاضر، وأن يعدّ لكل من مقومات التغير المحتملة، وبذلك تنتهي مهمته، فإذا جاءت التوقعات وفق ما يتمنى فبها ونعمت، وإلا فيعيد النظر ويعاود العمل، وهو مأجور على الحالتين واضعاً في اعتباره أن اختلال النتائج قد يكون ابتلاء من الخالق، لا سيّما إذا أحكم كل الأسباب وجاءت النتائج سلبية، وهذا ما نسيه معظم الناس أو يتناسونه.

والابتلاء خير كله، ويواجه بالرضا والقبول والصبر، فلولا المرض ما عرفت نعمة الصحة، ولولا الخوف ما عرفت قيمة الأمن، ولولا انحباس المطر ما تطلع الناس إلى الغيث، ولولا الهزائم ما عظمت فرحة النصر وهكذا.

---

(١) رواه الحاكم وابن ماجه.

وفق هذه المفاهيم يأخذ الرسول الكريم المسلمين بتلافي الخوف من المستقبل فيقول:

- «عجباً لأمر المؤمن، إن أمره كله خير، وليس ذلك لأحد غير المؤمن، إن أصابته سرّاء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضرّاء، صبر فكان خيراً له»[١].

- «إن أعظم الجزاء من عظم البلاء، وإن الله تعالى إذا أحب قوماً ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا ومن سخط فله السخط»[٢].

على هذه الأسس يربى الرسول الكريم المسلمين على ضبط انفعالاتهم بما يتناسب مع كرامة وجودهم كحملة رسالة بحيث لا يخرجهم الغضب إلى رد فعل غضبي يهدم علاقات بعضهم ببعض، ولا يهزمهم الخوف من أي مخيف مهما كان نوعه، مما ينعكس أمناً واستقراراً على حياتهم.

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه الترمذي.

ثالثاً: حقوق الإنسان المسلم

في نهاية عام ١٩٤٨م (١٠/١٢/١٩٤٨م) أصدرت الجمعية العامة للأمم المتحدة: «الإعلان العالمي لحقوق الإنسان» وهلل له العالم الذي قاسى طويلاً من انتهاك حقوق الإنسان، لا سيّما في العالم الثالث، الذي حرم فيه الإنسان من أدنى حقوقه. وكان الغريب أن ينبهر العرب المسلمون بهذا الإعلان، ناسين أو متناسين أن الإسلام الذي يدينون به قد أقرّ للإنسان حقوقاً أوفى قبل هذا الإعلان بثلاثة عشر قرناً من الزمان.

إن حقوق الإنسان في الإسلام ليست منحة من أمم متحدة أو دولة فيها، وإنما هي منحة من خالق الإنسان الذي منحه وجوده وكل ما يتمتع به من نعم، وبحكم اقرارها من الخالق ـ سبحانه ـ فإنها تتميز بالعصمة والطلاقة والحماية من الفرد والجماعة، وهي حق وواجب في الوقت نفسه، فحق الحياة مثلاً، حق للإنسان طليق معصوم محمي، وهو واجب في الوقت نفسه على الفرد أن ينهض به بالمحافظة على هذا الحق وعدم التنازل عنه ـ بانتحار أو غيره ـ وعدم التهاون فيه ـ بالقاء النفس إلى التهلكة ـ وإذا كان الإعلان العالمي لا يرتب عقوبة على المتنازل عن هذا الحق بالإنتحار، فإن الإسلام يلاحقه بأقسى عقوبة وهي الخلود في النار.

إن القاعدة الرئيسة بالنسبة لحقوق الإنسان في الإسلام هي: طلاقة تمتّعه بالحق، ما لم يعتد هو على حقوق الآخرين ـ أفراداً أو جماعات ـ فإذا فعل يعاقب عقوبة تماثل فعله، فإذا قتل إنساناً وحرمه حق الحياة عامداً متعمداً، يقتل ويحرم حق الحياة.

ولا نستطيع هنا أن نستوفي كل حقوق الإنسان في الإسلام، ونكتفي بعشرة منها نرى أنها أهمها وهي:

١ - حق الحياة (النفس):

حياة الإنسان التي يؤكد الإسلام أنها حق له، ليست حق تملّك مطلق له، وإنما هي نعمة أنعم الله بها عليه ولم يكن له ـ للإنسان ـ دور في خلقها ولا وجودها، وهذا يعني ما يأتي:

- حق الإنسان في التمتع بحياته ما استمرت به الحياة.

- لا يجوز للإنسان التنازل عن حق الحياة أو الغاؤه لأن الحياة ملك لخالقها.

- لا يجوز لأي سلطة مهما كانت الغاء هذا الحق أو سلبه إلا بنص شرعي من الله واهب الحياة.

- حق الحياة الكلي يتضمن الحقوق الجزئية المكملة للحياة لقوله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنفَ بِالْأَنفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾[1].

- يرتب الإسلام عقوبات أخروية على من يعين على سلب الحق بالتحريض والوشاية الكاذبة وشهادة الزور إلى غير ذلك.

وفي هذا الحق يقول الرسول ﷺ:

- «لزوال الدنيا أهون على الله من قتل رجل مسلم»[2].

- «من أعان على قتل مؤمن بشطر كلمة، لقي الله مكتوباً ما بين عينيه، آيس من رحمة الله»[3].

- «لو أن أهل السماوات والأرض اجتمعوا على قتل مسلم، لكبّهم الله جميعاً على وجوههم في النار»[4].

(١) المائدة (٤٥).

(٢) رواه النسائي والترمذي.

(٣) رواه ابن ماجه والاصبهاني.

(٤) رواه الطبراني.

وقد تمالأ سبعة ـ في عهد عمر ـ رضي الله عنه ـ على قتل مسلم، واشتركوا في قتله، فقتلهم عمر جميعاً، وقال: «لو تمالأ عليه أهل صنعاء كلهم لقتلتهم جميعاً به»[١]، فلا ضياع للدم بتعدد المشتركين فيه..

وحق الحياة، يمنح المسلم حق الدفاع عن النفس وصدّ أي اعتداء عليها، ويرتب عليه واجب حمايتها من كل ما يضرها.

٢- حق الأمن:

وهو حق مواز لحق الحياة، فلا قيمة لحياة غير آمنة، فالخائف المرعوب ميت في عالم الأحياء، لا يحفظ حقاً، ولا ينهض بواجب.

والأمن من المنظور الإسلامي كل لا يتجزأ، يشمل الأمن الذاتي والاجتماعي والسياسي والاقتصادي والثقافي... الخ مما يجعل كل تعكير لهذا الأمن من ظلم أو قهر أو إذلال أو محاربة في الرزق أو الرأي أو حجر على التصرف أو التنقل دون سند شرعي ممنوعاً كلياً في الإسلام. يضاف إلى ذلك توفير الأمن العام بكل اتجاهاته، ومنه أمن الوطن وحمايته من أي اعتداء خارجي.

ويترافق حق الأمن مع حق حماية الحرمات جميعاً من الفرد والمجتمع والدولة، بما في ذلك حرمة الأهل والمال والعرض والمنزل... الخ.

وفي ذلك يقول الرسول ﷺ.

- «من أخاف مؤمناً كان حقاً على الله ألا يؤمّنه من فزع يوم القيامة»[٢].
- «المؤمن من أمنه المؤمنون على أنفسهم وأموالهم»[٣].
- «كل المسلم على المسلم حرام: دمه وماله وعرضه»[٤].

---

(١) رواه مالك في الموطأ.

(٢) رواه الطبراني.

(٣) رواه مسلم.

(٤) رواه مسلم.

٣- حق الحرّية:

يقوم الإسلام أساساً على حرّية الإرادة والاختيار، وتحكيم العقل والرأي والحجّة والبرهان، الأمر الذي يوجب تأمين حرّية الإنسان، وتحرره من أي عبودية سوى العبودية المستحقة لخالقه دون سواه، ليصدر اعتقاده عن حرّية الفهم والوعي والاقتناع، لا عن إكراه أو تقليد، وبذلك يتعمق ويترسخ، وأن يكون تفكيره حراً، ليرفد مجتمعه بما يبدعه ويبتكره، وأن يكون قوله حراً، ليحفظ سلامة المسار دون أن تكبله مصلحة أو تهزمه منفعه.

على هذا المفهوم ربّى الرسول ﷺ المسلمين، ولا زال هديه قائماً تستلهمه الأجيال، ومن هديه في الحرية ما يأتي:

- **لا تنازل عن الحرية**: فيقول:.

- «الناس غاديان، فمبتاع نفسه فمعتقها، وبائع نفسه فموبقها»[١].

- **حرية الكلمة**:

- «لا يحقرن أحدكم نفسه»، قالوا وكيف يحقر أحدنا نفسه؟ قال: «يرى أن عليه مقالاً ثم لا يقول فيه . . .»[٢].

- **حرّية الرأي**:

- «إذا رأيت أمتي تهاب أن تقول للظالم يا ظالم فقد تودع منها»[٣].

حرّية القول:

- «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فليقل خيراً ليغنم، أو ليسكت عن الشر فيسلم»[٤].

---

(١) رواه أحمد والبزار.

(٢) رواه ابن ماجه.

(٣) رواه الحاكم.

(٤) رواه الطبراني والبيهقي.

- **حرية الضّمير:**

- «إذا عملت الخطيئة في الأرض، كان من شهدها فأنكرها كمن غاب عنها، ومن غاب عنها فرضيها كان كمن شهدها»[1].

- **حرية المعارضة:**

- «السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب أو كره، مالم يؤمر بمعصية، فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة»[2].

- **نزاهة الحرية:**

- «إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر»، قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: «الرياء»[3].

- **انضباط الحرّيّة:**

- «إذا رأيتم المدّاحين فاحثوا في وجوههم التراب»[4].

- **حماية الحرّية:**

- «لا يحل لمسلم أن يروّع مسلماً»[5].

ومن هذه المفاهيم جاء قول عمر ـ رضي الله عنه ـ: متى استعبدتم الناس، وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟ ويتضمن حق الحرية كل تصرف حرّ مسؤول من قول أو عمل كحرية الدين والعبادة والتنقل والنقد والتقويم . . . الخ.

٤- حق التكريم:

تكريم الإنسان الذي يعني احترام شخصه وتقدير ذاته وصيانة حقوقه وحرياته، وتقدير جهوده وإبداعاته وإنجازاته، وإعلاء إنسانيته، يعتبر الركيزة الأساسية لقوامة

---

(١) رواه البخاري وأحمد وغيرهما.

(٢) رواه البخاري.

(٣) رواه أحمد والطبراني والبيهقي.

(٤) رواه مسلم.

(٥) رواه أبو داود.

حياته المعنوية، وما من إنسان يخلص الولاء ويعلي الانتماء لمجتمع أو وطن لا يوالى تكريمه.

وتكريم الإنسان بعامة ليس منحه من أي من البشر، وإنما هبة من خالقه ـ جل شأنه ـ القائل: ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾[١]، هذا التكريم أوجب للإنسان حقاً على كل من يؤمن بالله.

من هذا المفهوم جعل الإسلام تكريم الإنسان حقاً له، وعمل الرسول الكريم على تربية المسلمين على هذا التكريم للإنسان بعامة، وللفرد المسلم بخاصة، فيقول ﷺ.

- **في التكريم العام:**

- «من لطم مملوكه أو ضربه فكفارته أن يعتقه»[٢].

- «من آذى ذميّا فأنا خصمه يوم القيامة»[٣].

- يقول الله تعالى: «يا عبادي إنّي حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا»[٤].

- **في التكريم الخاص:**

- «بحسب امرىء من الشرّ أن يحقر أخاه المسلم»[٥].

- «سباب المسلم فسوق وقتاله كفر»[٦].

- «من أقال مسلماً أقال الله عثرته»[٧].

---

(١) الإسراء (٧٠).

(٢) رواه مسلم.

(٣) رواه مسلم.

(٤) رواه مسلم.

(٥) متفق عليه.

(٦) متفق عليه.

(٧) رواه أبو داود وابن ماجه والحاكم.

وغير خاف أن أي إنسان لا يستحق تكريم الناس إذا لم يكرم هو نفسه، ويلزمها إتباع الحق والعدل والخير والصلاح ولا يجعل منها مرتعاً للهوى والشهوات والتسلط على خلق الله، فمن فعل ذلك فلا تكريم له.

٥- حق المساواة:

الناس سواسية (متساوون) كأسنان المشط، هذا هو المبدأ الإسلامي، ويقابل المساواة التفاوت الذي يفرق بين الناس، وكل منهما حق، إذا حكم بميزان الحق، وفيما يأتي بيان ذلك:

- **المساواة**: المساواة هي المبدأ الإسلامي الحاكم في أصل الخلق ومقوماتهم، فلا تفاوت أو تفاضل بسبب العنصر أو الجنس او النوع أو اللون أو أي مقوم من المقومات البنائية الخِلقية ـ المادية أو المعنوية ـ.

والمساواة شاملة أمام الشرع، فالمسلمون متساوون في العبادات مساواة تامّة، فلا تمييز فيها بين مسلم ومسلم، ومتساوون أمام الحق والعدل، فلا يميل الحق مع الغني ويظلم الفقير، ولا يراعي العدل وضع كبير أو صغير.

وكذلك المساواة في الحساب، فأمام الله تمّحي الاحساب، والمناصب والوجاهات، وإنما يحاسب كل عما اكتسب، إن خيراً فخير وإن شراً فشرّ.

ومثلها المساواة في الحقوق الأساسية التي أقرها الله تعالى للفرد، فقاتل النفس يقتل سواء أكان القاتل غنياً أو فقيراً، وزيراً أو غفيراً، وهكذا شارب الخمر يجلد دون تمييز . . . الخ، وكل مسلم له الحق في الأمن والحرية والتملك والتعلم والعمل . . . وهكذا.

- **التفاوت**: التفاوت مقبول في الإسلام في السعي والعمل فقط، أي فيما يكتسبه الإنسان بجدّه واجتهاده، فليس العالم كالجاهل، ولا العامل كالعاطل، ولا المصلح كالمفسد، ولا العادل كالظالم، ولا الخيّر كالشرير، هذا التفاوت هو أساس قوامة الحياة، وبناء عليه غدا هناك الحاكم والمحكوم، والرئيس والمرؤوس، والقائد والجندي، ولولا هذا التفاوت لفسدت الأرض ومن عليها.

وأي عاقل من بني البشر لا ينكر عدالة التفاوت إن قام على الحق والعدل، ولكن العنجهية البشرية تنكر المساواة، ولذلك عاش بنو الإنسان مآسي التفرقة العنصرية، ومن هنا يؤكد الرسول ـ عليه السلام ـ على حقيقة المساواة مبيّناً أن التفاوت والتفاضل لا يكون إلا بالتقوى التي هي مصدر كل صلاح، فيقول:

- انظر يا أبا ذر، إنك لست بخير من أحمر ولا أسود، إلا أن تفضله بالتقوى[(١)].

يا أيها الناس، إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجميّ على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا لأسود على أحمر، إلا بالتقوى[(٢)].

٦- حق التملك:

ما من إنسان يعمل إذا لم يكافأ، ولا جدوى من مكافأته إذا لم ينتفع بها أو ينفع أهله، أما إذا كوفيء وقدّر، واعتبرت مكافأته ملكاً خاصاً له ولأبنائه لا يجوز لأحد مصادرته أو الاعتداء عليه، فإنه سيعمل ويجد ويجتهد بل ويبدع ويبتكر، وبذلك يرتقي بوطنه ويرتقي معه، ومن هنا باءت بالفشل والدمار المجتمعات التي حرّمت حق التملك الفردي وحقّ التوريث كالمجتمع الشيوعي.

على هذا المفهوم يقيم الإسلام حقّ التملّك والتوريث، وصيانة الملكية الفرديّة وحمايتها، وإباحة تصرّف الإنسان فيما يملك وذلك ضمن الشروط الآتية:

- أن يكون التملك مشروعاً، فلا حرمة لملكية حيزت بأسلوب غير مشروع كالسرقة والغصب والمصادرة.

- أن يكون الملك مما يحله الشرع، فلا حرمة لملكيّة الخمارات ومزارع تربية الخنازير، ومصانع المخدرات وغيرها.

- ألا يكون التملك لما هو معدّ للنفع العام أو ما لا يجوز تملكه شرعاً كالمساجد والمرافق العامة.

---

(١) رواه أحمد.

(٢) رواه البيهقي.

- أن يخرج المالك حق الله تعالى في المال من زكاة وغيرها.

- ألا يسيء التصرف فيما يملك سفاهة أو ظلماً وعدواناً، كاهلاك المال حتى لا ينتفع به الورثة.

- أن يكون التمتع بالمال في حدود الاعتدال الذي أقرّه الإسلام، فلا إسراف ولا تقتير، ولا تكبر ولا مخيلة.

وعلى هذا ربى الرسول الكريم ﷺ المسلمين، وقد تواترت الأحاديث في هذا المجال، ومنها قوله ـ عليه السلام ـ.

- في العدوان على الملكية:

- من غصب رجلاً أرضاً ظلماً، لقي الله وهو عليه غضبان[1].

- في اهدار الحقوق:

- من أخذ أموال الناس يريد أداءها، أدى الله عنه، ومن أخذها يريد اتلافها أتلفه الله[2].

- في استلاب الحقوق:

- من اقتطع حق امرىء بيمينه فقد أوجب الله له النار، وحرّم عليه الجنة. قال رجل: وإن كان شيئاً يسيراً يا رسول الله؟ قال: وإن كان قضيباً من أراك[3].

- في الدفاع عن الملكية:

- جاء رجل إلى رسول الله فقال: يا رسول الله إذا جاء رجل يريد أخذ مالي؟ قال: «فلا تعطه مالك» قال: أرأيت أن قاتلني؟ قال: «قاتله» قال: أرأيت إن قتلني؟ قال: «فأنت شهيد» قال: أرأيت إن قتلته؟ قال: «هو في النار»[4].

---

(١) رواه الطبراني.

(٢) رواه البخاري.

(٣) رواه مسلم.

(٤) رواه مسلم.

- في الضمان الاجتماعي:

- «أنا أولى بكل مسلم من نفسه، من ترك مالاً فلأهله، ومن ترك ديناً أو ضَياعاً ـ أطفالاً ضائعين من الفقر ـ فإليّ وعلي»[١].

٧- حق التعلّم:

كانت بيئة الرسالة الأولى من أشد البيئات جهلاً، ولذلك سميت «الجاهلية» والجاهليّة لا تنهض بأعباء الرسالة مهما تميّزت بمقوماتها الذاتية، فالجهل يعقل التفكير، ويكبّل العقل، ويحجّم القدرات، ويقتل المواهب.

لذلك كان بديهياً أن تنزل أولى آيات القرآن الكريم حاملة الأمر بحيازة مفتاح العلم وهو القرارة: «اقرأ» وأن تتوالى الآيات حاثة على حيازة العلم مع الإيمان: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾[٢]. وتميّز مكانة أولى العلم: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[٣]، ويبيّن الخالق جلّ وعلا علّة ذلك بأن الآيات الحاكمة لوجود الموجودات على اختلافها وتنوعها، وحدوده الضابطة للاجتماع البشري، إنما تساق لمن «يعلمون» «يوقنون» «يعقلون» «يفقهون» «يتفكرون» . . . الخ وهذه صفات متفاعلة مع العلم ومفرزاته.

من هنا جعل الإسلام التعلّم حقاً لكل مسلم، وعمل الرسول على الارتقاء بالأمة من حضيض الجهل إلى قمم العلم وذرى المعرفة، وأن ينبه أجيال المسلمين إلى الإهتمام بالعلم ـ وما العلم إلا بالتعلم ـ حفاظاً على هذا الحق الذي تكرم به الحياة فيقول:

- في فرضية العلم:

- طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة[٤].

- في نبذ الجهل:

---

(١) رواه مسلم.

(٢) المجادلة (١١).

(٣) الزمر (٩).

(٤) رواه ابن ماجه.

- لا يعذر الجاهل على الجهل، ولا يحل للجاهل أن يسكت على جهله[1].

- **في طلب العلم:**

- من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع[2].

- **في جزاء الطلب:**

- من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنّة[3].

- **في مكانة العلماء:**

- فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم[4].

- **في استثمار العلم:**

اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع[5].

- **في مسؤولية العلم:**

- لن تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن عمره فيما أفناه، وعن علمه فيما عمل فيه[6].

٨- حق المشاركة:

يقصد بحق المشاركة أن يكون للإنسان رأيه في أمور مجتمعه الهامّة وقضاياه المصيريّة. والمشاركة في صنع القرار، سواء أكان سياسياً أو اقتصادياً أو اجتماعياً مقدّرة في المجتمعات التي تحرص على نهضتها وتقدمها، لأنها تجمع عقولاً إلى عقول وأفكاراً إلى أفكار وتجارب إلى تجارب وخبرات إلى خبرات، ومن شأنها أن تجنب المجتمع مواطن الخلل والاخفاق والتردي من ناحية، وأن تستقطب حماسة

---

(١) رواه الطبراني.
(٢) رواه الترمذي.
(٣) رواه مسلم.
(٤) رواه الترمذي.
(٥) رواه مسلم والترمذي والنسائي.
(٦) رواه الترمذي.

أفراد الشعب إلى تنفيذ القرار ومتابعته بكل وعي وفعالية وموضوعية من ناحية أخرى.

والفرد بطبيعته ميال إلى المشاركة، ولا يقبل أن يعيش هملا في مجتمعه لا رأي له ولا مشاركة في رأي بحيث تبرم الأمور بمعزل عنه، وعليه تحمل نتائج ما لم يكن له رأي فيه. وتأخذ المشاركة صوراً عديدة، منها: تشكيل المجالس الاستشارية من أهل الأختصاص، ومنها بيوت الخبرة من أهل الخبرة، ومنها تشكيل مجالس ممثلي الشعب (البرلمان) بالانتخاب الحر المباشر، إلى غير ذلك، والتي من شأنها أن تحول دون استشراء عوامل الاخفاق في المجتمع.

والإسلام يعتمد هذه المشاركة في تسيير أمور المجتمع إنطلاقاً من قوله تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾[1]، ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾[2] ومن سنة نبيه ﷺ الذي دأب على مشاركة المسلمين في القرارات، لا سيما المصيرية منها، كما حدث في بدر إذ طلب مشورة المسلمين، فأشار عليه المهاجرون ثم الأنصار، كما قبل المشورة أو المشاركة الفردية عندما أشار عليه الحباب بن المنذر في موقع الجيش، وهو - عليه السلام - القائل: «ما خاب من استخار وما ندم من استشار» ويضرب مثلاً في أهمية المشاركة لتصويب الاجتهاد الخاطىء وتسديد القرار الخاطىء بقوله:

- مثل القائم في حدود الله والواقع فيها، كمثل قوم استهموا (اقترعوا) على سفينة، فصار بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، وكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مرّوا على من فوقهم فقالوا: لو أننا خرقنا في نصيبنا خرقاً فلم نؤذ من فوقنا، فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا وهلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً[3].

ولما كان المرجح في المشاركة أن تأخذ بيد المجتمع إلى الخير، فيقول عليه السلام:

---

(١) الشورى (٣٨).

(٢) آل عمران (١٥٩).

(٣) رواه البخاري.

- «من دلّ على خير فله مثل أجر فاعله»[1].

٩- حق العمل:

لا نهوض لمجتمع بدون عمل، فاحتياجات الإنسان لا تنزل إليه جاهزة من السماء وإنما لا بدّ من أن يعمل كي يحصل عليها، وإلا وقع فريسة الجوع والفاقة والعوز والمرض وأهلك نفسه ومن يعول، لذلك ما من مجتمع عاش على الأرض إلا وأولى مبدأ العمل جلّ اهتمامه، فنشأت الوظائف والمهن والأعمال منذ بداية الحضارات، وتطورت وتشعبت على مدى الأيام والأعوام، وما من مجتمع سويّ يحرم أحد أفراده حق العمل، لأنه بذلك يهدر إمكانات تقدمه وتطوره.

والإسلام يعتبر حق العمل حقاً أساسياً لكل مسلم قادر عليه، ويرفض أن يكون فيه متعطلون بالوراثة أو بامتهان التسول والاستجداء أو بكفاية غيرهم لهم، والرسول ـ عليه السلام ـ يبيّن أنّ أشدّ الناس عذاباً يوم القيامة «المكفيّ الفارغ» الذي يكفيه غيره مؤونته، ويقول عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ: «إن الله خلق هذه الأيدي لتعمل، فإذا لم تجد في الطاعة عملاً التمست في المعصية عملاً» لذلك كان على ولي الأمر أن يوفر فرص العمل للناس، ليعملوا في طاعة بدلاً من أن يعملوا في معصية من سرقة وغصب وسلب وانتهاب وسطو بما يفسد الحياة، وأن يعتبر العمل حقاً لكل مسلم لا يحرمه أحد منه.

أما ما هو قائم في بعض المجتمعات العربية والإسلامية من مصادرة حق العمل من السلطات، لإخضاع المعارضين وتركيعهم، فليس من الإسلام، لما فيه من ظلم وقهر واستلاب حق ثابت، وفي الوقت نفسه لما فيه من تعطيل لقوى المجتمع القادرة.

وقد عمل الرسول على الارتقاء بالمجتمع المسلم إلى مستوى تعشّق العمل ورفض البطالة والتسوّل والاعتماد على الصدقات فيقول:

- «لأن يحتزم أحدكم حزمة حطب فيحملها على ظهره فيبيعها، خير له من أن يسأل رجلاً يعطيه أو يمنعه»[2].

---

(١) رواه مسلم والترمذي.

(٢) رواه مسلم.

- «ما أكل أحد طعاماً ما قط، خيراً من أن يأكل من عمل يده، وإن نبيّ الله داود كان يأكل من عمل يده»[١].

- «لا تحق الصدقة لغني، ولا لذي مرّة (قوّة) سويّ»[٢].

١٠- حق الرعاية:

حق العمل والكسب مضمون للقادر عليه ـ كما سبق ـ ولكن ماذا عن غير القادرين عليه لأي سبب من الأسباب كالعجز والمرض والشيخوخة؟ وماذا عن الأرامل والأيتام والمعاقين؟ وماذا عمّن اجتاحتهم جانحة ما فذهبت بكل ما يملكون؟

إن الإسلام يرتب لهؤلاء حقّ الرعاية على الدولة المسلمة، وعلى المجتمع المسلم.

- **على الدولة**: تأمين ضمان الدولة للوفاء باحتياجات هؤلاء من مأكل وملبس ومسكن وتعليم ورعاية صحية إلى غير ذلك فيما يسمى بالضمان الاجتماعي الشامل، والدولة لا تفي بالتزامات هذا الضمان من جيوب رجالاتها، وإنما من بيت مال المسلمين الذي له مصدر تمويل لا ينضب وهو الزكاة، إضافة إلى أملاك الدولة العامة وما تدرّه من دخول، وفي ذلك يقول الرسول ﷺ مؤكداً على اجتهاد ولي الأمر في إصلاح أحوال الرعية:

- «ما من أمير يلي أمور المسلمين، ثم لا يجهد لهم وينصح لهم، إلا لم يدخل الجنة معهم»[٣].

- «ما من أمتي أحد ولي من أمر الناس شيئاً، ثم لم يحفظهم بما يحفظ به نفسه، إلا لم يجد رائحة الجنّة»[٤].

---

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه أحمد.

(٣) رواه مسلم.

(٤) رواه الطبراني.

- **على المجتمع**: على المجتمع حق رعاية ضعفاء الناس بحكم عقد الأخوة، كالسعي على الأرملة واليتيم، والجار، والمصاب، بما يسمّى التكافل الاجتماعي والذي تمدّه أيضاً مصادر تمويل متعددة، كالصدقات، والاوقاف والهبات والوصايا والكفارات إضافة إلى المساهمات المباشرة، والأحاديث النبوية الموجهة للتكافل الاجتماعي كثيرة جداً، منها قوله ﷺ:

- «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدّ بعضه بعضاً»[1].

- «ترى المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى»[2].

- «من كان له فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له، ومن كان له فضل زاد فليعد به على من لا زاد له»[3].

ب- الحقوق الخاصة

الحقوق السابقة حقوق عامة، بمعنى أنها متاحة لكل فرد يعيش على أرض إسلامية وفي مجتمع مسلم، وبحكم كون التمتع بها مباحّاً لكل فرد قادر على التمتع بها ـ ذكراً كان أو أنثى، صغيراً أو كبيراً، حاكماً أو محكوماً ـ ولأن حمايتها مناطة بصاحب الحق نفسه من ناحية وبالدولة المسلمة والمجتمع المسلم من ناحية ثانية.

وهناك حقوق خاصة بحكم كونها تبادلية بين فئة وفئة: كحقوق الأقارب على أقاربهم، وحقوق الجيران على جيرانهم، وحقوق الأرحام على أرحامهم، والأخوة بعضهم على بعض، وهكذا الأصهار والشركاء . . . الخ أو بحكم كونها ثنائية الترتيب التبادلي، كحق الابن على أبيه والأب على أبنه، والزوج على زوجته والزوجة على زوجها، والصغير على الكبير والكبير على الصغير، والحاكم على المحكوم والمحكوم على الحاكم . . . الخ.

وسيجري تناول هذه الحقوق في الفصل التالي، باعتبارها المكونة للنسيج التفاعلي للأسرة والمجتمع.

---

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه البخاري ومسلم.

(٣) رواه مسلم.

رابعاً: خلاصة الفصل الثاني

من المعلوم لكل إنسان أن سلامة أي بنيان تعتمد على سلامة كل لبنة من لبناته، وهكذا سلامة أي مجتمع رهن بسلامة أفراده، وصلاحه رهن بصلاحهم، لذلك تولي التربية تحقيق صلاح الفرد كل اهتمام مستحق، ليرتفع الصرح الاجتماعي عالياً، دون خشية خلل أو تزعزع أو انهيار.

والرسول الكريم إذ ربّى جيلاً من الصحابة على عينيه، وشرّبه من روحه، واستنفر كل ما وهب الله كل فرد منهم من مواهب وملكات وقدرات، ووجهها نحو الصلاح والإصلاح، يدرك بأن الرسالة الخاتمة لا تقتصر على جيل واحد، وإنما تنتظم آلاف الأجيال، لذلك لا بدّ من وضع أسس ثابتة ومبادىء راسخة، لتحقيق تربية نوعية موضوعية متفوقة لتربية أجيال المسلمين، جيلاً بعد جيل، حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

وإذا كان فطاحل التربويين الذين عرفتهم البشرية قد اهتموا بتربية الطفل الإنساني بعد سنّ المهد الثاني أو حتى الأول، واحتضان الطفل بعد وجوده، فإن أول ما يطالعنا من عظمة حكمة تربية الرسول الكريم، إحاطة هذا الكائن الإنساني باهتمام يعزّ عن المثال قبل وجوده، لعلمه أن البذرة القوّية السّليمة القويمة، تحمل كل مقومات القوّة للنبتة المتأتّية منها. وأن البيئة التي تحتضنها ذات تأثير فاعل في تقوية مقوماتها أو إضعافها. ولما كان لا ينهض بالرسالة إلا أفذاذ الناس، فقد أولى اهتماماً مقدّراً بانتقاء البذرة، وإعداد المنبت الصحي الخصب لها، لتنبت هؤلاء الأفذاذ، الذين يتحدّون التحديات، ويتخطون كل الصعوبات.

وإذا كان التربويون يولون اهتماماً متزايداً لبعض مقومات تفوّق الكائن الإنساني، بالتنمية المعرفية أو الجسدية، فإن الرسول الكريم يولي إهتماماً متوازناً بكل جوانب تفوّق الإنسان، بعقله وقلبه ونفسه ووجدانه، وقيمه وأخلاقه وسلوكه وأحاسيسه ومشاعره، بوضعه دستوراً متكاملاً في التربية، ومن ذلك ما يأتي:

١- نلمح منذ البداية أن الرسول ـ عليه السلام ـ يؤكد على كون إنجاب الطفل المسلم لا يجوز أن يكون وليد رغبة عشوائية، ولا تطلعات عفوية مرتجلة، وإنما وفق تخطيط حكيم محكم، لا مجال للتلقائية فيه، وبقصدية أكيدة واعية، تتخذ كل الاستعدادات والاجراءات الوقائية لضبط نواتجها، ومن ذلك:

١/١ : لا إنجاب إلا بزواج شرعي يقوم ليدوم، وهذا الزواج لا مجال للارتجال أو الفورات العاطفية فيه، وإنما يقوم على اساس الاختيار الحرّ المباشر لكل من الزوجين للآخر، وهو اختيار تحشد له قوى العقل والفكر، والحس والشعور، والوعي والإدراك. وليكون كذلك يبيّن ﷺ أسس هذا الاختيار الشائعة في كل مجتمع، ويحصّنها بأساس جامع يضمن خيرية كل منها، ويعصم الاختيار من التردي والاخفاق.

وباتباع معايير الاختيار داخل نطاق المعيار الحاكم، يستطيع الإنسان أن يطمئن إلى سلامة البذرة من ناحية، وقوامة محضنها من ناحية ثانية، أي المقومات الوراثية والبيئة الحاضنة، بإحكام أسبابها وترك النتائج للخالق الكريم، ما دام قد احكم الأسباب.

١/٢ : وإذا أصبحت النّطفة في قرار مكين إلى قدر معلوم، لا تنتهي مهمّة الأبوين، فقد تفسد بيئة الرحم بذرة الكائن الإنساني الممتازة، وإنّما عليهما أن يحمياها من كل ما يمكن أن يؤثر عليها، بالمحافظة على نظافة البيئة الجديدة وطهارتها وعدم تلويثها، وذلك بالتزام الحلال في العلاقات الجنسية، فالحرام يهدّ كيان النطفة، وفي المأكل والمشرب الذي يتسرب من دم الأم إليها، فيقوض حرامه مقوماتها البنائية، وتلافي أي ضغوط نفسية، حتى لا تؤثر إضطرابات نفس الأم على الجنين، اضافة إلى الإهتمام بالصحة العامة للأم، لكونها تتحكم في صحة الجنين.

١/٣: ولا يلبث الجنين أن يتكامل نموّه، فيخرج إلى هذا العالم طفلاً بشراً سوياً، ليعيش داخل أسرة هادئة آمنة مستقرة، تسودها الثقة وتنتظمها المحبة وتغمرها السعادة، ما دامت مستمسكة بشرع ربّها وهدي نبيّها.

ولما كان الطفل لا بد وأن يقضي الجزء الأكبر من وقته إبان فترة المهد على الأقل داخل الأسرة وبين الأبوين، فلا بدّ وأن يكون هذان على مستوى تحمّل

مسؤولية تربية الطفل في مراحل نموّه الاولى، التي تترك آثارها على كل حياته مهما امتدت به الحياة.

لذلك يوجه الرسول الكريم إلى العمل على تأمين النظافة بكل مقوماتها، من نظافة مادّية ومعنوية والإهتمام بصحة الأسرة ومنها صحة الطفل، وقاية وعلاجاً، وترسيخ الإهتمام بالصحة النفسية للطفل، فالطفل في مرحلة المهد الثانية يدرك كل ما حوله - وإن كان لا يستطيع التعبير عنه - ولذلك سرعان ما يضحك إذا قوبل بابتسامة، وسرعان ما يبكي إذا فوجىء بالتجهّم، الأمر الذي يتطلب ألا تقع عيناه إلا على كل جميل من والديه، ولا ينفذ إلى أذنيه إلاّ كل قول نبيل، ولا تعبق الأجواء من حوله إلا بالحب والمودة والرفق والرحمة والعناية والرعاية والحق والعدل.

٢- وإذا ما تأمنت تلك النشأة القويمة السليمة، لتؤمن مقومات بنيويّة قويمة، فلا بدّ من تحقيق التكامل المطلوب للكائن الإنساني بالعمل على استكمال المقومات المعنوية وكالآتي:

٢/١: تشريب النّاشىء المعتقدات الأساسية التي جاءت بها الرسالة الإسلامية، لينطلق في دروب الحياة، واعياً لحقيقة وجوده، وفق ما بينته الرسالة الإسلامية، مؤمناً بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر، واعياً لما تقره الرسالة وما تأباه، آخذاً نفسه باتباع ما أمر الله به واجتناب ما نهى عنه، يعيش في واحة الحب الظليلة، يحب ربّه ونبيّه وإخوانه، متوكلاً على الله في كل أمر وفق موضوعية التوكل، يتّقي ربّه في السر والعلن، لا يظلم ولا يجور ولا يخون، مستحضراً خشية الله في كل قول وعمل، مخلصاً فيما يأتي وما يدع بصفاء نفس ونقاء ضمير، يجعل من نفسه رقيباً على نفسه، فإذا أصاب حمد الله، وإذا أخطأ استغفر الله وتاب إليه وأناب، مما يورثه شجاعة الرأي والموقف، لا تأخذه في الله لومة لائم، وجرأة الجنان واللسان، بقوة دفع مثالية، تدفع عن الوطن أعداءه، وعن المجتمع إنحرافات المنحرفين وتجبّر المتجبرين، متحرراً، من كل ضغوط الحياة، لا يثنيه عن الحق وعد ولا وعيد، يعيش حياته طليقاً في راحة وأمن واطمئنان، حياة واقعية مثالية في الوقت نفسه.

٢/٢ : هذا الإنسان الذي يصوغه الإيمان، مليء بالعواطف، ولكن تربيته تحول دون شطط العاطفة وإنزلاقها، يحبّ كما يحب كل الناس، ولكنه مهما أحب يلتزم الحق والعدل والخير، لا يحابي من أحب ولا يعطيه فوق حقه، ويكره كما يكره كل الناس، ولكنه لا يظلم من يكره أو يكره عمله وتصرفاته، وإنما هو موضوعي حتى في كراهيته، لا يتجاوز على حق ولا يركب مراكب الباطل، وإنما يسمو بنفسه عن أي عاطفة هابطة، وبذلك يتحقق له الرضا النفسي والسعادة القلبية.

٣/٢ : ولا تعني تربيته الإيمانية تحرره من دوافعه، بل هو يعيش بهذه الدوافع كما يعيش غيره ولكنه يلتزم حدّين لا يتجاوزهما، حد الحلال وحد الاعتدال، فمهما تراكمت عليه المغريات لا يأكل حراماً ولا يشرب حراماً ولا يكسب حراماً وإنما يلتزم ما أحله له الله دونما تجاوز، ومهما بلغت إمكاناته وقدراته لا يسفه ولا يشتط وإنما يبقى معتدلاً في اشباع دوافع حفظ الذات ودوافع حفظ النوع، لا يعتدي على عرض، ولا يهتك حرمة ولا يلوّث شرفاً.

ومهما ألحت عليه الدوافع المكتسبة لا تحرفه عن السبيل القويم، فلا يكذب ولا يخادع ولا يتآمر ولا يحقر إنساناً، فغاية الحياة لديه أسمى من أن يدنّسها بهذه الأساليب فإذا جاءه التكريم، ولا بدّ من أن يأتيه، فلا يستثمره لتلميع ذاته والتّيه على الناس، وإنما لتعميم الخير والصلاح فسعادته من سعادة قومه وعزته من عزتهم.

٤/٢ : ويؤكد الرسول الكريم على تربية هذا الإنسان المسلم على ضبط إنفعالاته في اتجاهاتها البناءة، والحيلولة دون تحوّلها إلى انفعالات هدامة، يتلافى أسباب الغضب لذاته وإن كان يغضب لله ولرسوله ولدينه وللحق والعدل والخير، وحتى لو غضب لذاته فإنه يكظم غيظه ويكفّ تصرفه الغضبي.

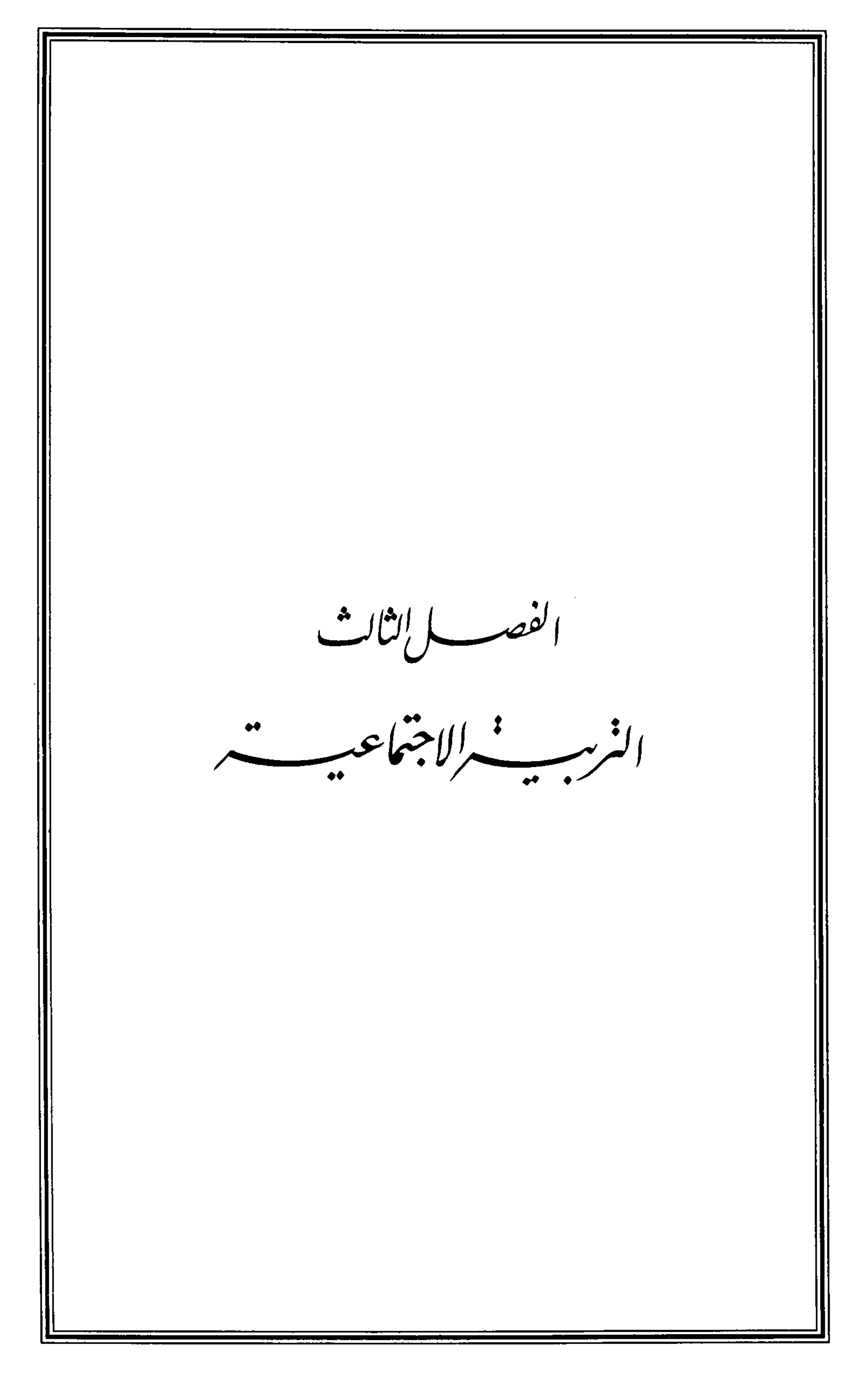
وهو يخاف مثل كل إنسان، ويشعر بالخوف في أعماقه، ولكنه لا يسمح لهذا الشعور بأن يهزمه ويتغلب عليه، وإنما يتغلب هو على الخوف ويهزمه، فلا يعطي ذلة من نفسه، ولا يفرّ من زحف، ولا يمالىء ظالماً، وإنما يلبي نداء الجهاد في سبيل الله دفاعاً عن وطنه ودينه ، كما يلبي نداء الحق في مواجهة الظالمين والمعتدين والمتجبرين لا تطرف منه عين ولا يرتجف منه قلب.

وهو يخاف الموت فيعيش حذراً يقظاً متنبّهاً حتى لا يقضي عليه عدوه، ولا يلقي بنفسه إلى التهلكه، ولا يتخلص من حياته ليتخلص من خوفه، وإنما يواجه الموت ولا يفرّ منه إذا جاء، ويحرص عليه إذا كان في حق لتوهب له الحياة، وإن كان لا بد واقعاً فهو يرحب به ليقينه بأن موته حياة ضمن حياة أخرى أجل وأجمل.

وهكذا يخاف على الرزق، ويخاف مما يأتي به الغد المجهول، ولكنه لا يواجه هذا الخوف بالهروب وإنما باستثمار تلك المواهب التي وهبه خالقه، يفكر ويبحث ويدرس ويخطط ويأخذ بكل الأسباب بوعي وعلم وموضوعية، واثقاً من أنه وإن فشل فقد أدى واجبه، وقد يفشل مرّة وينجح مراراً، وقد يبتلى آنا، ويعافى آنا آخر.

٣- ويؤكد الرسول الكريم على أن يعيش الفرد المسلم في حمى محمي، معصوم الدم معصوم العرض معصوم المال مضمون الحريّة مضمون التكريم، مؤمّن العمل والأمن والمشاركة، ينعم بالمساواة والرعاية من دولته ومجتمعه، فلا يُظلم ولا يُقهر ولا يُضطهد رأيه ولا توأد كلمته ولا يُطارد فكره ولا تُقهر ذاته، لا يُفضل على أحد ولا يُفضّل عليه أحد إلا بالتقوى والعمل الصالح.

وهكذا لينطلق في دروب الحياة عالماً عاملاً كفؤاً قديراً تقياً نقياً، ينعم بالحياة وتنعم به، يطورها ويتطور معها، ما امتد الزمان وتغير المكان وتطور الإنسان، فهل إلى استلهام هذا الهدي في تربيتنا من سبيل؟



الفصل الثالث

التربية الاجتماعية



أولاً: التربية الأسرية

أ- أسس بناء الأسرة في الإسلام

ألمحنا سابقاً إلى دور الأسرة في تحقيق قوامة تربية الفرد، لينمو قوياً مقتدراً مبدعاً متفوقاً في كل مجال من مجالات الحياة، ولا ريب أن الأسرة لا يمكنها القيام بهذا الدور الرائد في تربية الفرد، ما لم يكن بناؤها قويماً وركائزها راسخة، وتفهمها لدورها في تنشئة الأجيال واعياً، الأمر الذي أولاه الإسلام كل إهتمام مستحق يتبين فيما يأتي:

١ - أهمية الأسرة:

الأسرة ـ كما قيل ـ نواة المجتمع، ذلك لأنه إذا أحجم أفراد مجتمع ما في زمن ما عن تكوين الأسر والإنجاب، حكموا على مجتمعهم بالتلاشي والفناء، لأن أفراد هذا المجتمع سينقرضون بعد فترة محدودة من الزمن، فإذا لم يتم تعويض المجتمع عما يفقده من عناصره بالموت الطبيعي والحروب والكوارث والنوازل والأمراض وغيرها، فإنه سيتناقص تدريجياً حتى ينتهي كلياً.

والمجتمعات الإنسانية لا تهتم ببناء الأسر لمجرد تعويض الفاقد البشري فحسب، وإنما لتحقيق قوامة هذا العنصر وصلاحه وإعداده للحياة أيضاً، فالأسرة هي المحضن الطبيعي الذي ينمو فيه الأطفال ـ روحياً ونفسياً وجسدياً وعقلياً ـ. لقد حاولت بعض المجتمعات الاستغناء عن دور الأسرة بالمحاضن الجماعيّة، التي ترعاهم فيها حواضن أو أمهات بديلات في مرحلتي المهد الأول والثاني، ومشرفون أو آباء بدلاء في مرحلة الطفولة، ولكن هذه التجارب باءت بالفشل، وخرج الأطفال مرضى نفسياً وأصبحوا عالة على مجتمعاتهم وعوامل تدمير فيها، ذلك لأن الحواضن لا يملكن دافع الأمومة الذي يملأ النفس بالحب والحدب والعطف والحنان والود تجاه الطفل، ولذلك لا يتميّزن بالصبر وشدّة الاحتمال والاخلاص

والتضحية تجاههم. فكن يعاملنهم بقسوة بالغة جعلتهم غير أسوياء نفسياً، ولا يملك المشرفون عليهم في مرحلة الطفولة دوافع الأبوة التي تمدّهم بالمميزات ذاتها، ومن هنا أوقفت هذه المحاولات وعادت معظم مجتمعات العالم إلى الأسرة كمحضن طبيعي للأطفال.

إن الطفل ـ لا سيما في مراحل نموّه الأولى ـ بحاجة ماسّة إلى أبوين يستقلّ بهما ويعتمد عليهما ويستقطب حبهما وحنانهما، ويتلقى مساندتهما ومساعدتهما وتوجيههما ويشبعان احتياجاته المادية والمعنوية، لينشأ سليماً معافى، فسيولوجيا ونفسياً.

لذلك فإنه وان كان بناء الأسرة يعتمد نوعياً على تفوق بناء الفرد، فإن نوعية بناء المجتمع تعتمد كلياً على أسلوب بناء الأسر.

من هنا نجد الاهتمام الكبير الذي يوليه رسول الله ﷺ متبعاً هدي الخالق ـ سبحانه وتعالى ـ لبناء الأسرة المسلمة والذي تتّضح معالمه فيما ياتي:

٢- مقوّمات بناء الأسرة المسلمة:

كانت المجتمعات الإنسانية قد عمتها الفوضى في إنشاء الأسرة، وتركز الإهتمام بإشباع الغريزة الجنسية للرجل والمرأة، ففي المجتمع العربي الجاهلي شاع نكاح الرهط، والاستبضاع، ونكاح البغايا والإماء، بل وجرت وراثة النساء، وفي فارس لم يكن هناك تمييز في النكاح بين أم وأخت وبنت وغيرهن ولم يكن للتعدد حدود يقف عندها.

وجاء الإسلام ليوقف هذه الفوضى، ويضع نظاماً لتكوين الأسرة، آخذاً بالأسس النفسية والفسيولوجية والصحية والعاطفية للزوجين ومن بعدهما الأبناء، وكما يأتي:

٢/ ١ : شرعية الزواج:

أباح الإسلام إشباع العلاقة الجنسية عن طريق زواج شرعي، يقوم على الاختيار الحر المباشر من كل من الزوجين، والذي يشترط فيه ما يأتي:

- **اجتناب المحرّمات**: يحرّم الإسلام زواج الرجال من بعض النساء، تلافياً لعدم التوافق الأسري، بسبب الدين أو العفّة، أو القرابة القريبة، لكون العلاقة بين الأقارب أرفع من أن تسمح بعلاقات جنسية طبيعيّة، وهؤلاء المحرمات أربع فئات هي:

* تحريم المشركات: لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾[1].

* تحريم المقيمات على الزنا: ﴿وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾[2].

* تحريم قرابة النسب: لقوله تعال: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ﴾[3] وهناك تفصيل في السنة النبوية لامتدادات كل محرمة ممن سبقن.

* تحريم قرابة الرضاعة: فالإسلام يحرّم بسبب الرضاعة ما يحرم بالنسب.

أما من يحل الزواج بهن فهن من لم يذكرن لقوله تعالى: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ﴾[4]، وما وراء ذلكم هن الكثرة الكاثرة والأغلبية الغالبة من بنات المجتمع.

- **توافر الشروط الآتية**: يشترط الإسلام لانعقاد الزواج بين رجل وامرأة ـ ممن لم يذكرن آنفاً ـ ما يأتي.

* أن يكون العقد بين عاقلين بالغين.

* أن يكون بين قادرين على النكاح.

* أن يكون الإيجاب (طلب الزواج) من الرجل، والقبول من المرأة، على أن يوافق ولي الأمر خشية الغرر والضرر، وليس له الرفض لغير ما سبب.

---

(١) البقرة (٢٢١).

(٢) النور (٣).

(٣) النساء (٢٣).

(٤) النساء (٢٤).

* أن تكون القوامة وعقدة النكاح بيد الرجل، وعليه جميع مسؤوليات الزواج وبناء الأسرة.

* ألا يجمع المتزوج أكثر من أربع نسوة.

* أن يشهد على الزواج شاهدان وأن يعلن.

* أن يكون النكاح على مهر معلوم.

* أن تكون النيّة معقودة عند الزواج ـ عند أهل السنّة والجماعة ـ على الأبدية (الاستمرار طوال الحياة) ويضيف الاجتهاد شرط توثيق العقد تلافياً لأي شقاق بين الزوجين، أو اختلاف حول الشروط، وهناك تفاصيل وافية لهذه الشروط في كتب الفقه.

٢/٢ : ركائز الزواج الشرعي:

يقوم الزواج الشرعي الإسلامي على ركيزتين أساسيتين هما:

- الاختيار الحرّ:

لكي يتحقق التوافق والتفاهم والقبول بين الزوجين، لا بدّ وأن يكون اختيار كل منهما للآخر قائماً على الاقتناع الواعي، الذي لا تعتريه ضغوط من أي نوع، بحيث يكون الاختيار حراً وبكامل إرادة كل منهما، لذلك أوجب الإيجاب على الخاطب، والقبول على المخطوبة، مع رفض أي نوع من أنواع التهديد أو الإكراه، ومع أن وليها يعبّر عن رأيها، إلا أنه لا يجوز له أن يقوّلها ما لم تقل أو يبتّ في القبول أو الرفض وفق هواه.

هذا الاختيار الحرّ من شأنه أن يمكّن الزوجين من النهوض بواجباتهما تجاه بناء أسرة كفؤة آمنة مستقرة وإنجاب أطفال أسوياء، لا تمزق نفسياتهم الخلافات والأحقاد، لا سيما إذا تمّ وفق المعايير القويمة التي أقرها الإسلام ـ كما سبق ـ.

وقد ربّى الرسول ﷺ المسلمين على التمسّك بحرية الإرادة في الزواج، حتى غدا كل منهم لا يسمح لأحد أن يصادر إرادته أو يزوّرها سواء أكان قريباً أو غريباً،

حتى لا يكون الزواج مجرد إذعان قسري لا رضا فيه، فيصاب بالانتكاس ويحطم مستقبل الأسرة، وفي ذلك يقول ـ عليه السلام ـ:

- «لا تنكح الأيم حتى تستأمر، ولا تنكح البكر حتى تستأذن»، قالوا: يا رسول الله، وكيف إذنها؟ قال: «أن تسكت»[1].

وتؤكّد على حرّية الاختيار الحادثتان الآتيتان:

- جاءت فتاة إلى رسول الله وقالت: يا رسول الله، إن أبي قد زوّجني من ابن أخيه، ليرفع بي خسيسته. فجعل رسول الله الأمر إليها، إن شاءت قبلت، وإن شاءت رفضت، فقالت: قد أجزت ما صنع أبي، ولكنّي أردت أن تعلم النساء، أن ليس للآباء من الأمر شيء[2].

- وعن خنساء بنت خذام الأنصارية، أن أباها زوجها ـ وهي ثيّب ـ فكرهت ذلك، فأتت رسول الله، فردّ نكاحه[3].

- **الاستمرارية:**

إن تأكيد قيام الزواج على الرضا والقبول والاختيار الحرّ، بعد بحث متأنّ ودراسة موضوعية، إنما يأتي لإتاحة الفرصة للحياة الزوجية للدّيمومة والاستمرارية، دون أن تعتريها أي شروخ، أو تكتنفها أي أزمات أو خلافات، بحيث يتاح الوقت الكافي للزوجين لبناء الأسرة على أسس قويمة سليمة، وإنجاب الأطفال وإحسان تربيتهم وتنشئتهم ورعايتهم والعناية بهم، ليغدوا عناصر فاعلة في نهضة مجتمعهم. لذلك لا يبيح أهل السنّة التوقيت في الزواج، طالت مدة التوقيت أو قصرت.

أما الطلاق، فالأصل فيه ألا يتمّ إلا إذا استفحل الخلاف بين الزوجين، وغدا تعايشهما مستحيلا، حتى لا تنعكس الخلافات على الأطفال، وتهدم نفسياتهم، وتجعلهم ينظرون إلى الحياة بمنظار أسود، فلا ينفعون أنفسهم ولا مجتمعهم ولا أمتهم.

---

(١) رواه البخاري ومسلم وأحمد.

(٢) رواه ابن ماجه.

(٣) رواه البخاري.

ومن المعروف أن نسب الطلاق في الأوساط الملتزمة بالإسلام متدنّية، إذا قورنت بغيرها، نظراً لأن الأوساط الملتزمة بالإسلام، تدرك حكمة الإسلام من استمرارية الزواج، وتعرف حقوقها وواجباتها الأسرية، وتلتزم بآداب الإسلام في الخلاف وأساليب حلّه.

والرسول ﷺ يربي المسلمين على الحرص على استمرارية الزواج، وعدم اللجوء إلى الطلاق إلا في الحالات التي يعتبر فيها كالكيّ آخر العلاج، فيقول:

- «أبغض الحلال إلى الله الطلاق»[(١)].

- «أيما امرأة سألت زوجها الطلاق، من غير ما بأس، فحرام عليها رائحة الجنّة»[(٢)].

ونظراً لأن غالبية الخلافات الزوجية، إنما تنشأ من تجاوز الرجل للأصول الإسلامية في معاملته لزوجته، فإن الرسول، يؤكد على حسن معاملة الزوجة، وعدم اتخاذ دعوى الحب وضموره أو فقدانه سبباً للفراق بقوله:

- «أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً، وخياركم خياركم لنسائهم»[(٣)].

- «لا يفرك (يكره) مؤمن مؤمنة، إن كره منها خلقاً، رضي منها خلقاً آخر»[(٤)].

وجاء رجل إلى عمر ـ رضي الله عنه ـ يريد طلاق زوجته، فسأله عمر: لماذا؟ قال: إنني لا أحبّها، فغضب عمر وقال: «أو كل البيوت بنيت على الحبّ يا لكع؟ فأين الرعاية والتذمم؟

٣- مقاصد الزواج في الإسلام:

للزواج مقاصد واقعية في الإسلام، يضعها كل مسلم في اعتباره، عندما ينوي الزواج، ومن أهم هذه المقاصد ما يأتي:

---

(١) رواه أبو داود.

(٢) رواه الترمذي وابن حبان.

(٣) رواه الترمذي.

(٤) رواه مسلم.

٣/ ١ : تهذيب الغريزة:

الغريزة الجنسية ـ كما سبق القول ـ من أقوى الغرائز وأشدّها دافعية لبني الإنسان، فإذا ثارت ـ وكثيراً ما تثور ـ لا سيما بالنسبة للشباب ـ لا تهدأ إلا بإشباعها، وإذا لم يتيسّر إشباعها بالحلال، فقد تسعى إلى الحرام، والحرام يأخذ طريقه إلى الفسق والفجور، والإنحراف والعدوان، وهتك الأعراض ونشر الأمراض، وهذا ما لا تسيغه إلا النفوس الضّالّة التي ترى شهواتها أفضل من نظافة مجتمعها وطهره وسلامته، لذلك لم يبح الإسلام إشباع هذه الغريزة إلا بالحلال، وعليه يندب إلى الزواج كل قادر عليه.

والرسول ﷺ يؤكد على المسلمين إتخاذ الزواج سبيلاً لتهذيب الغريزة الجنسية، وأن يكتفي المسلم بزوجته، والمسلمة بزوجها لإشباع هذه الغريزة وتهدئتها، وعدم مدّ العين أو هوى النفس إلى ما وراء ذلك بحيث يتبع أي منهما من يستهويه فيقول:

- «إذا رأى أحدكم امرأة فأعجبته، فليأت أهله، فإن معها مثل الذي معها»[١].
- «إذا رأى أحدكم امرأة فتاقت لها نفسه، فليجامع أهله»[٢].

٣ / ٢ : الإنجاب:

والإنجاب أهم مقاصد الزواج، فالعنصر البشري لا يتولد ذاتياً أو تلقائياً، وإنما عبر الزواج، الذي يرفد المجتمعات باستمرار بعناصرها الجديدة جيلاً بعد جيل. وليس المقصد مجرد رفد المجتمع بالعناصر الجديدة من حيث الكم، وإنما من حيث النوع أيضاً، بأن تكون هذه العناصر قادرة واعية كفؤة فعّالة، لتنهض بأعباء الحياة، وهذه النوعية لا تتيسّر إلا بحضانة أسرية سليمة قويمة ملتزمة. وسنتناول أهمية دور الأسرة في تربية الأبناء لاحقاً.

لذلك يأتي تأكيد الرسول ﷺ على المؤمنين، بأهمية حضور قصدّية الإنجاب لدى الزواج، لتحقيق نمو مستمر لمجتمعهم، وتأمين تكاثره التدريجي، وعدم تعريضه للانقراض.

---

(١) رواه مسلم والترمذي.

(٢) أخرجه أحمد.

- جاء رجل إلى رسول الله، فقال: يا رسول الله، إنّي أصبت امرأة ذات حسب ومنصب ومال، إلا أنها لا تلد، أفأتزوجها؟ فلم يجبه، ثم عاد الثانية والثالثة، فقال له: « تزوجوا الودود الولود فإني مكاثر بكم الأمم»[١].

٣/ ٣ : السّكن النفسي:

تنوء الحياة بالمشكلات اليومية، مما يسبب الاضطراب النفسي للإنسان، ويملأ قلبه بالهموم، وكثيراً ما يكون لمشاركة الآخرين في همومه ـ لا سيمّا من يثق بهم ـ دور فاعل في تبديدها والتخلص منها، وعودة النفس إلى استقرارها.

والزواج يؤدي منذ ساعاته الأولى إلى خلط نفس الرجل بنفس المرأة، ويبذر بذور ثقة كل منهما بالآخر، حيث تنبت الثقة وسط بيئة محاطة بالحب والود والتقدير والإخلاص والاحترام، لذلك تسكن نفس كل منهما إلى نفس الآخر كما يقول الله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا﴾[٢]، وبذلك يؤدي الزواج القائم على أسس سليمة إلى توحّد المشاعر، وتعانق الآمال، وتشاطر الآلام.

والرسول ﷺ يعتبر الزواج بالمرأة الصالحة من أهم مكاسب الدنيا، لكونه يتحقّق له هذا الاستقرار النفسي والوجداني، فيقول:

- «ما استفاد المؤمن ـ بعد تقوى الله ـ عز وجل ـ خيراً من امرأة صالحة، إن أمرها أطاعته، وإن نظر إليها سرّته، وإن أقسم عليها أبرّته، وإن غاب عنها نصحته في نفسها وماله»[٣].

٣/ ٤ : حفظ الأنساب:

إذا اطمأن الإنسان إلى أن ابنه من صلبه حقاً، تجسّد في أعماقه دافع الأبوة بأجلى معانيه، يترجمه حباً وودا وعطفا وحناناً وبذلاً وتضحية وحماية ورعاية، والابن كذلك لا يعدل بحب والديه حباً آخر، فالنسب قد خلط بين النفوس، ووصل بين العواطف والمشاعر والأحاسيس جميعاً.

---

(١) رواه أبو داود والنسائي والحاكم.

(٢) الروم (٢١).

(٣) رواه ابن ماجه.

أما إذا لم يثق الأب بأن المولود ليس أبنه من صلبه انعكس الوضع، وتكاد وسائل الإعلام تطالعنا يومياً ـ حتى في المجتمعات غير الإسلامية ـ بأنباء من قتل أو حرق أو فجرّ أطفاله من غير ما رحمة، لأنّه شكّ ـ مجرد شك ـ في انتسابهم إليه.

وليست الأمّ نشازا في ذلك، فإنّ ابن النكاح الصحيح يستقطب كل عواطفها، في حين أن ابن السفاح يذكرّها دوماً بجريمتها، ويحرمها أمنها النفسي واستقرارها، ويبقيها قلقة متوجّسة، مما ينعكس اضطراباً على الطّفل.

والإسلام إذ يحيط الزواج الشرعي بحواجز عديدة متتابعة تمنع إنحرافه، إنما يعمل على تحقيق حفظ الأنساب والإطمئنان إلى سلامتها، لمنح الأجيال مزيداً من الاستقرار النفسي الذي تنمو فيه قدراتهم وتعظم ملكاتهم ليقدموا خيراً لمجتمعهم.

وبالرغم من الحكم العام بتحريم الزنا وكل ما يقرّب إليه، فإن الرسول ﷺ يصرح بشكل قاطع بتحريم إضاعة الإنساب من ناحية والتنكر للنسب الصحيح دونما دليل أو برهان من ناحية ثانية فيقول:

- أيّما امرأة أدخلت على قوم من ليس منهم، فليست من الله في شيء، ولن يدخلها الله في شيء، ولن يدخلها الله جنّته، وأيما رجل جحد ولده وهو ينظر إليه، احتجب الله منه يوم القيامة، وفضحه على رؤوس الأولين والآخرين[1].

(١) رواه النسائي وأبو داود وابن حبّان.

ب: حقوق الزوجين وواجباتهما

ليس خافياً على أحد أن الأسرة المسلمة أكثر استقراراً من أي أسرة سواها في المجتمعات الأخرى، برغم ما أصاب المسلمين من نكسات أدت إلى تواؤمهم مع تنازلات كثيرة عن الأصول الإسلامية، فالأسرة المسلمة لا تزال تحظى بكثير من الاهتمام والعناية والرعاية والمحافظة عليها لأن ضوابط الشرع لا زالت تترك آثارها على النفوس، ولا يزال معظم المسلمين يفرق بين الحلال والحرام، ويراقب الله تعالى ويخشاه.

إن المرأة وهي ركن أساسي في الأسرة، لا زالت ـ بالرغم من شراسة الإرساليات الثقافية المعادية للإسلام ـ لا زالت محل الاحترام والتقدير، وتلقى من التكريم ما لا تلقاه غيرها في المجتمعات التي تدّعي التحضر. عرضها مصان، وكرامتها لا تهان، لا يلقى بها إلى قارعة الطريق إذا بلغت سنّاً محددة، ولا ينتزع منها انتماؤها لأسرتها متى تزوجت، وإنّما أسرتها ملجأها، قبل الزواج وبعده، ومن الولادة حتى الموت، وكل مسلم لا زال يضحّي بحياته وكل ما يملك للدفاع عن المرأة ـ أُمّا كانت أو بنتاً أو أختاً أو زوجه ـ ومن يقصّر في ذلك تسقط مكانته في مجتمعه، وتمرّغ كرامته في الأوحال.

وكي يحول الشرع الإسلامي دون تمزق العلاقات بين الزوجين بسبب ما يسمى بتنازع الحقوق، حدّد لكل منهما حقوقه، وكل حق لأي منهما يعتبر واجباً لازم الأداء على الآخر، وفيما يأتي أهم هذه الحقوق.

١ - حقوق الزوج على الزوجة:

١/١: حق الطاعة:

الأصل في العلاقات الأسرية أن تقوم على التفاهم والمودّة والشورى، وأن تتوخى الصّالح العام للأسرة ككل، ولكن الخلاف بين بني الإنسان وارد، وهو ظاهرة صحية ما لم تصل إلى التعصب للرأي، والإصرار على المواقف، والغشم في

رفض الرأي الآخر، وهنا يعطي الإسلام القرار الفصل للرجل، بوصفه المسؤول الأول عن البنيان الأسري والمعنيّ بسلامته، ولأنه ـ في الغالب ـ أكثر عقلانية في اتخاذ القرار، وأقل انجرافاً مع العواطف، لأنّه من سيتحمل كامل تبعات انهيار الأسرة، لذلك يوجب الشرع الإسلامي على الزوجة أن تطيع زوجها، فلا تستقيم الأمور إذا أصر كل على رأيه، ولم يكن القرار النهائي بيدي أحدهما، لتوضع الأمور في نصابها الصحيح، وتستمر المسيرة.

والطاعة هنا ليست انتقاصاً للزوجة، فالطاعة في المعروف فقط، وما من عاقل يرفض طاعة في معروف، أما إذا أرادها الزوج على معصية ـ في أكل أو شرب أو لباس أو بناء علاقات ـ فلا طاعة له عليها.

وإذا أصرّت الزوجة على موقفها ورفضت طاعة زوجها تعنّتاً، فله إزاء ذلك الحقوق الآتية:

- **حق التوجيه**: بوعظها وتوجيهها وإرشادها، وبيان مواطن الخطأ والخطل في موقفها والصواب والحق في موقفه، عبر حوار هادىء هادف، مستهدفاً إثناءها عن موقفها.

- **حق الهجران**: وإذا لم تستجب للتوجيه، فله أن يهجرها، ليتيح الفرصة لتهدئة الأمور، وعدم إثارتها بالاحتكاك المباشر، ومنحها الوقت الكافي للتفكير في العواقب، وفي مستقبل الأسرة والأبناء.

- **حق التأديب**: إذا لم يجد الأسلوبان السابقان، فللزوج أن يضرب زوجته ـ ضرباً غير مبّرح لا يؤذي ولا يشين ـ متلافياً الوجه ـ لا سيّما إذا أصرت على معصية، ولا يُلجأ إلى هذا الحق إلا في حالة الضرورة القصوى، ومن المعروف عن الرسول الكريم انه لم يضرب أياً من نسائه قط.

وللزوجة ـ إذا وجدت أن الزوج قد تعسّف في استعمال هذا الحق ـ أن ترفع الأمر إلى القضاء ليحكم بينهما، ويقرّ لكل ذي حق حقّه.

ونظراً لأهمية الطاعة في حياة الأسرة، فإن الرسول ﷺ يؤكد على المسلمات التزامها في عديد من الأحاديث منها قوله:

- إذا صلّت المرأة خمسها، وصامت شهرها، وحفظت فرجها، وأطاعت زوجها، قيل لها: ادخلي من أي أبواب الجنّة شئت[(١)].

- أيما امرأة ماتت وزوجها عنها راض، دخلت الجنّة[(٢)].

١ / ٢ : حق النّيابة:

لا تستقيم الأمور مطلقاً بأحاديّة المسؤولية، بحيث إذا غاب المسؤول الوحيد، تعطلت مجريات الأمور كلها، لذلك فإن كل الأنظمة الإدارية تؤكد على وجود نائب للمسؤول الأول، أو أكثر من نائب، وربّ الأسرة، مضطر للعمل والخروج من المنزل وربما السفر لمدة طويلة أو قصيرة، وقد ينفر مع المجاهدين في سبيل الله، إلى غير ذلك من الأمور، والأسرة مسؤولية فمن يتولاها؟.

يعطي الإسلام حق الإنابة تلقائياً للزوجة، فهي تنوب عن الزوج في أثناء عدم وجوده، وذلك إضافة إلى ما يناط بها من الرعاية الأسرية في أثناء وجوده، كالعناية بالأبناء وتفقد احتياجات الزوج ونظافة المنزل وغير ذلك.

وهي مضطرة في أثناء قيامها بالنيابة في المسؤولية إلى الإنفاق، ولها ذلك من مال زوجها ـ وليس من مالها ـ باعتدال، على ألا تستغل الإنابة لتتشبّع هي مادياً من مال زوجها. والرسول ﷺ يؤكد على هذه النيابة ليستقيم البناء الأسري، كما يؤكد على عدم التصرف بمال الزوج خارج الانفاق الأسري أو بقصد التشبّع المادي فيقول:

- «المرأة راعية على بيت زوجها وولده»[(٣)].

- «لا تجوز لامرأة عطية إلا بإذن زوجها»[(٤)].

- سألت امرأة النبي قائلة: إن لي ضرّة، فهل عليّ جناح إن تشبّعت من زوجي غير الذي يعطيني؟ قال: «المتشبّع بما لم يعط كلابس ثوبي زور»[(٥)].

---

(١) رواه أحمد والطبراني.

(٢) رواه الترمذي والحاكم وابن ماجه.

(٣) متفق عليه.

(٤) رواه أبو داود والنسائي.

(٥) رواه البخاري.

١ / ٣ : حق العفاف :

كل كريم من الناس يرفض أن تكون زوجته مشاعة للآخرين، لذلك تعتبر الخيانة الزوجية من أكثر الجرائم قهراً للإنسان الشريف النظيف، ولا تكاد تسلم منها حالة من القتل حتى في المجتمعات غير الإسلامية بصفة عامّة والإسلام يولي الحفاظ على الحرمات إهتماماً كبيراً.

إن حق العفاف يرتب واجباً على الزوجة، قوامه أن تحافظ على سمعة زوجها وأسرتها طاهرة نقيّة، لا تتسرب إليها ريبة ولا يعتريها شك، فلا تورد نفسها موارد الريبة التي تتناولها فيها الألسن، وألا تقارف الزنا أو ما يقرّب إليه من تبرّج وزينة وتبذّل، وخلوة بالرجال، وإدخال الغرباء إلى منزلها، مهما كانت شريفة عفيفة، لأن ذلك يوردها موارد الريبة وإن لم تكن مريبة، ويؤكد الرسول ﷺ على النساء الإلتزام بذلك بقوله:

- «لا يحلّ لامرأة تؤمن بالله، أن تأذن في بيت زوجها وهو كاره، ولا تخرج وهو كاره، ولا تطيع فيه أحداً، ولا تعزل فراشه»[١].

- «فحقكم عليهن، ألا يوطئن فراشكم من تكرهون، ولا يأذنّ في بيوتكم لمن تكرهون»[٢].

١ / ٤ : حق القرار :

ويعني هذا الحق أن تقرّ الزوجة في بيت الزوجية، وألا تنطلق خارجة منه وقتما شاءت وحيثما شاءت، فإذا كان المسؤول الأول غائباً، وترك نائبه الأمور على عواهنها منطلقاً لما يريد وكما يريد ضاعت الأمور ولا شك.

ولعل ما تتناوله وكالات الأنباء يومياً من مآس تحصل للأطفال بسبب ترك الأم لأبنائها وحيدين، والانطلاق إلى النوادي والحفلات بدعوى الترفيه عن النفس، خير دليل على حكمة الإسلام في فرض القرار على المرأة، فكم من الأطفال احترقوا، وكم منهم غرقوا، وكم منهم من صعقتهم الكهرباء، وكم من تسبّبت في موتهم الخادمات بسبب اهمال وتفلّت الأمهات!؟

---

(١) رواه الحاكم.

(٢) رواه الترمذي وابن ماجه.

إن الإسلام يفرض على الزوجة ألا تخرج من بيت الزوجية بدون إذن زوجها، إلا في حالات الضرورة القصوى التي يتعذر فيها طلب الإذن، والتي تعتبر من الطوارىء النادرة الحدوث، أما الظروف العادية فلا بدّ فيها من إذن الزوج، حتى ولو كانت لأداء فريضة كالحج مثلاً، وذلك حتى لا تهدر مصلحة الأسرة بغياب الزوجين.

وإذن الزوج قد يكون خاصّاً لكل حالة على حدة، وقد يكون عامّاً كأن يأذن لزوجته العاملة بالخروج إلى عملها، ولكن بعد إحكام ترتيب أوضاع الأسرة في غياب كل من الزوجين أو أحدهما.

والرسول ﷺ، يؤكد على المسلمات الالتزام بحقّ القرار، حماية للأسرة والأبناء، وتحقيقاً للقوامة الأسرية بعامّة فيقول:

- «إن المرأة إذا خرجت من بيتها وزوجها كاره، لعنها كل ملك في السماء. وكل شيء مرّت عليه»[١].

- «لا يخلونّ رجل بامرأة إلا ومعها ذو محرم، ولا تسافر المرأة إلا مع ذي محرم»[٢].

٢- حقوق الزوجة على زوجها:

وكما أن للزوج حقوقاً على زوجته تعتبر واجبات عليها، فللزوجة حقوق على زوجها تعتبر واجبات عليه، فالأمر سواء، ومن هذه الحقوق ما يأتي:

٢/ ١ : الحقوق الماديّة:

إن الإسلام إذ منح الزوج حق القوامة على الأسرة لم يمنحه إياه مجاناً ولا تفضيلاً، وإنما لكونه أقدر على الكسب ورعاية الأسرة وحمايتها، لذلك فإن الالتزامات المادية المترتبة للأسرة وعليها متعلقة جميعها بالرجل، ويعتبر ما يخص الزوجة منها حقاً لها وواجباً على الزوج.

وتتعدد الحقوق المادية للزوجة ابتداء من الالتزام بالمهر، وكسوة الزواج، واشهار الزواج، وتوفير المسكن وإعداده، وتجهيزه بكل مستلزماته بما يتناسب

(١) رواه الطبراني.

(٢) متفق عليه.

ومقتضى الحال، ثم الإنفاق اليومي من غذاء وكساء وعلاج إلى غير ذلك مما هو معلوم، ولا تكلف المرأة ـ شرعاً ـ بأي نفقة على منزل الزوجية، إلا متبرّعة متطوّعة.

ولا يحق للرجل ـ مهما كانت ظروفه ـ أن يتنصّل من دفع المهر، أو أن يقصر في النفقة على زوجته أو على أبنائه ومن يقوت. ويؤكد الرسول ﷺ، هذا الحق في عديد من الأحاديث، منها قوله:

- «أيّما رجل تزوج امرأة، على ما قلّ من المهر أو كثر، ليس في نفسه أن يؤدي إليها حقها ـ خدعها ـ فمات ولم يؤد إليها حقّها، لقي الله يوم القيامة وهو زان»(١)

- «إن الله سائل كل راع عمّا استرعاه، حفظ ذلك أم ضيّع، حتى يسأل الرجل عن أهل بيته»(٢).

- «كفى بالمرء إثما أن يضيّع من يقوت»(٣).

أما إذا حالت الظروف دون قدرة الرجل على الإنفاق على أسرته فإن الحق لا يضيع وإنما ينتقل إلى الدولة بالضمان وإلى المجتمع بالتكافل.

٢/٢ : حق الإعفاف:

الغريزة الجنسية ليست قاصرة على الرجل، وإنما لها ضغطها على الذكر والأنثى، وما دام الإسلام لا يبيح لأيهما إشباعها إلا عن طريق وحيد وهو الزواج الشرعي، فإن هذا يرتب للزوجة حقّاً على الرجل وهو إعفافها بإشباع غريزتها الجنسية، وألا يقترف معاشرة محرّمة، وألا يعاشر زوجة ويترك أخرى معلقة ﴿فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ﴾(٤).

إن الإسلام يتعامل مع الناس من حيث كونهم بشراً، والبشر لا يمكنهم وأد الغريزة الجنسية أو الغاؤها والاستغناء عنها كلياً، لذا يأبى على المسلمين حياة

(١) رواه الطبراني.
(٢) رواه ابن حبان.
(٣) رواه أبو داود والنسائي والحاكم.
(٤) النساء (١٢٩).

الرهبنة والتبتّل، وإنما يودّ لهم أن يعيشوا حياتهم كما أراد لهم خالقهم أن يعيشوها متحررين من كل ضغط.

والرسول ﷺ يربي المسلمين على الحرص على إعفاف زوجاتهم، وفي ذلك يقول:

- «وفي بضع أحدكم صدقة»، قالوا: يا رسول الله، أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر»؟

قال: «أرأيتم لو وضعها في حرام أكان يكون عليه وزر؟» قالوا: نعم، قال: «كذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر»(١).

- «إذا قضى الرجل نهمته (حاجته) من سفره، فليعجّل إلى أهله»(٢).

٢/٣ : حق العدل:

فطر البشر على تعشّق العدل ومقت الظلم، وليس هناك أظلم من أن يظلم الرجل امرأته العفيفة النظيفة المطيعة القائمة بواجباتها خير قيام، ولا شك أن كثيراً من الناس يتفنّنون في ظلم زوجاتهم، ويوالون عليهن السبّ والشتم والتحقير والانتقاص، ولا يتصور أحد أن تنهض زوجة بواجباتها على خير وجه، وهي تئنّ تحت مطارق الظلم والقهر والإذلال، وهذا ما يأباه لها الإسلام.

وكثير من الأزواج يتخذون الشحّ والبخل والتقير سبيلاً في الإنفاق على زوجاتهم، وحرمانهنّ من حدّ الكفاية بله الرفاهية، أو يكلفونهنّ من الأعمال ما لا يطقن، تعنيتاً وتعجيزاً، وهؤلاء ليسوا من الإسلام في شيء أيضاً.

وبعض المتزوجين بأكثر من زوجة يعطون إحداهّن أكثر مما تستحق، ويحابون أبناءها ويخصّونهم بكل جميل، ويحرمون الأخريات ما يستحققن، ويخصون أبناءهن بكل قبيح، بدعوى حب هذه وعدم حب تلك، وهذا أيضاً ما يرفضه الإسلام، فقد اشترط في إباحة التعدّد العدل ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾(٣)، ولا يمنع

(١) رواه النسائي والترمذي.

(٢) رواه البخاري ومسلم.

(٣) النساء (٣).

الإسلام أن يحبَّ الرجل إحدى نسائه أكثر من الأخرى، فالحب شأن قلبي لا حكم لأحد عليه، ولكنّه يأبى على الحب أن يجور ويظلم.

إن الرسول ﷺ يؤكد في تربيته للمسلمين على أن تبقى العلاقة الزوجيّة محصّنة بالعدل فيقول:

- «إن المقسطين عند الله على منابر من نور، على يمين الرحمن، وكلتا يديه يمين، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا»[1].

- «من كانت عنده امرأتان، فلم يعدل بينهما، جاء يوم القيامة وشقه ساقط»[2].

٢/ ٤ : حق الرعاية:

إن الزوجة ليست مملوكة للرجل، وإنما هي أمانة عنده، والأمين من يصون هذه الأمانة حق صيانتها، ولا يتصرف فيها تصرفه في سلعة ماديّة، لذلك فإن الإسلام يوجب على الزوج أن يرعى زوجته رعاية عامة شاملة كاملة فلا يقصر قط في أي مطلب من مطالبها المادية أو المعنوية.

ومن الرعاية حماية المرأة التي تعتبر حقاً لها على زوجها، حيث لا تستطيع هي ـ في غالب الأحوال ـ حماية نفسها، لا سيما إذا عمّت الفتن، وانتشرت الذئاب البشرية تعيث في الأعراض فساداً، ولا شك أن الشرع والنظام والأجهزة الإسلامية على اختلافها تحمي المرأة، ولكن حماية الرجل تعتبر الحاجز الأول ضد أي اعتداء عليها، وعليه أن ينهض بها بل إن الرسول ﷺ يجعل من يقتل دون أهله في أرفع مكانة وهي مكانة الشهداء فيقول:

- «من قتل دون ماله فهو شهيد، ومن قتل دون أهله فهو شهيد»[3].

ومن الرعاية المعاملة الكريمة الطيبّة، الخالية من كل عنف ـ مادي أو أدبي ـ متلافياً كل غلظة أو فظاظة معها، والاهتمام بصحتها ـ وقاية وعلاجاً ـ وصبراً وحسن رعاية. ومن الرعاية أيضاً القيام بتذكير الزوجة وتوجيهها وإرشادها وتوعيتها وتثقيفها بما يحقق قوامة دينها ودنياها.

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه الترمذي والحاكم.

(٣) رواه مسلم وأحمد وغيرهما.

والرسول ﷺ يؤكد على خيرية التعامل واللطف فيه بين الزوج وزوجته قائلاً:

- «أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً، وخياركم خياركم لنسائهم»(١).
- «خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي»(٢).
- «ألا واستوصوا بالنساء خيراً، فإنما هن عوان عندكم»(٣).

جـ: واجبات الأسرة التربوية

لعل أهم ما يهدف إليه الإسلام ومن ثمّ الرسول الكريم ﷺ في إحكام بناء الأسرة، هو تهيئتها للقيام بالواجب الكبير الملقى على عاتقها ألا وهو تربية أجيال متفوقة كفؤة قديرة ليستمر تفوق الأمة وتميزها وعلوها، لذلك يولي ـ عليه السلام ـ تربية الأبناء اهتماماً مستحقاً وكما يأتي:

١ - أسس تربية الأبناء:

كثير من الناس يودّون أن يربوا أبناءهم تربية كفؤة قديرة متفوقة، ولكنهم يفتقدون الأسس التي يرتكزون عليها في تربيتهم لأبنائهم، وقد حرص الرسول ﷺ، على التأكيد على أهم المرتكزات التي تقوم عليها تربية الآباء للأبناء، تربية إسلامية أصولية متفوقة ومنها:

١/١: العدل بين الأبناء:

لعل من أكثر المؤثرات عمقاً في نفسيات الأطفال هو شعورهم بوقوع الظلم عليهم، وفقدان العدل في التعامل معهم، مما يكمن في اللاشعور لديهم، ويؤدي إلى نقمة وحقد وكراهية ضد من يظلمونهم، وربّما ضد المجتمع كله.

ومن العادات التي تسللت إلى المجتمعات الإسلامية من موروثات الجاهلية، حبّ الأولاد، وكراهية البنات، فنجد الولد يتمتع بكل اهتمام وعناية ورعاية، يخصّ

---

(١) رواه الترمذي وابن حبان.

(٢) رواه ابن حبان وابن ماجه والحاكم.

(٣) رواه الترمذي.

بكل غال من المأكل والملبس، والهدايا والهبات والعطايا، بل والقول اللطيف والكلم الطيب والتدليل، ولا تلقى البنت شيئاً من ذلك قط، وإنّما يوالى عليها التحقير والتّعنيف، مما يشعرها بالدونيّة، وبذلك لا تستجيب نفسياً لتربية الوالدين.

وقد نفذ كثير من هذه العادات الجاهليّة إلى المجتمعات الإسلامية المعاصرة، فنجد كثيراً منها، يحرم البنت حقها الشرعي في الميراث، ويعرّضها للفاقة والعوز إذا تزوجت فقيراً، ومنها من يحرم البنت حق الاختيار في الزواج، حفاظاً على الأموال والممتلكات من أن تذهب إلى الأغراب بالإرث، وهكذا.

إن الإسلام يرفض هذا الشذوذ الفكري، ويؤكد على رعاية البنت تأكيده على رعاية الولد، وإعطاء كل ذي حق حقّه، بل ويؤكد على الاهتمام بالبنات بالذات لكونهن مربّيات الأجيال، ويجب أن يكنّ مكرّمات عزيزات حتى ينشّئن أبناءهن على العزة والكرامة، والرسول الكريم يولي اهتماماً مستحقاً للعناية بالبنات فيقول:

- «من كانت له أنثى، فلم يئدها، ولم يهنها، ولم يؤثر ولده عليها، أدخله الله الجنّة»[١].

- «من يلي من هذه البنات شيئاً، فأحسن اليهن، كنّ له ستراً من النار»[٢].

ومظنّة الظلم الأخرى التي تلحق بالأطفال، هي ما يحدث بين الأطفال غير الأشقاء، حيث يقع الآباء تحت سيطرة إحدى الزوجات، وبذلك يقدّمون أبناءها على أبناء الأخريات في كل شيء، مما يشعل الأحقاد بينهم، ويمزق علاقاتهم تمزيقاً لا يرفأ، ويحيلهم إلى أعداء يتربص بعضهم ببعض، وهذا ما نشهده لدى الغالبية العظمى من أسر مجتمعنا المعاصر، لذلك يؤكد الرسول على العدل بين الأبناء بأسلوب حازم بقوله:

- «اعدلوا بين أبنائكم، اعدلوا بين أبنائكم، اعدلوا بين أبنائكم»[٣].

---

(١) رواه أبو داود.

(٢) رواه البخاري.

(٣) رواه أحمد.

- «ساووا بين أولادكم في العطيّة»[١].

- وأراد والد النعمان من بشير ـ رضي الله عنه ـ أن يعطيه أرضاً يخصه بها، فطلبت زوجته أن يشهد رسول الله على ذلك، فسأله الرسول: «ألك ولد سواه؟» قال: نعم، قال: «أكلهم أعطيتهم مثله؟» قال: لا، قال: «لا تشهدني على جور»[٢].

إن من يتصور أن تربيته لأبنائه ستحقق أهدافها ومراميها وهو يغرس بينهم التحاسد والتباغض والعداء بتفضيل بعضهم على بعض قد أخطأ التصوّر، لذا فإن من يريد الخير لأبنائه يجب ابتداء أن يرعى العدل بينهم ليهيء نفسياتهم لتقبل الخير والصلاح، وكل مفرزات التربية الواعية.

١ / ٢ : الرفق بالأبناء:

للطفل عالمه المختلف، ونفسيته الخاصة، ومقوماته المتميزة، لذلك قد لا يستوعب ما يرمي إليه الأب أو ترمي إليه الأم، وقد يرفض ما يطلبان ويتمرد عليهما، ومقابلته بالعنف لا تجدي نفعاً، بل قد تحطم نفسيته، فالعنف والفظاظة والصدامية لا يستسيغها الراشدون أنفسهم فكيف بالأطفال؟ الأمر الذي يوجب اتباع الرفق واللين وبذل أكبر قدر من الحنان والمحبّة، لغرس الأفكار، وتصويب الأخطاء، وتسديد المسار، وبيان أوجه السداد المقابلة، بما يحقق تفهّم الخطأ وعقد العزم على تلافيه.

ولعل معاملة الرسول ﷺ لأطفال المسلمين بالرفق، مدعاة إلى تفهم أهمية تهيئة البيئة النفسية للأطفال. لتقبل التربية النوعية الخيّرة: يسلّم على الأطفال إذا مرّ بهم، ويسأل عن أحوالهم، ويرتحله الحسن وهو ساجد فلا يرفع حتى ينزل عنه، والحوادث في هذا المجال كثيرة.

لذلك فإن من يحرص على أن ينشأ أبناؤه ـ ذكوراً وإناثاً ـ بنفسيات قويمة، يجب أن يتلافى كل قسوة وعنف وفظاظة في تربيتهم، وأن يتجمّل بالصبر والأناة والرفق وسعة الصدر والأفق في التعامل معهم، يحاورهم ويلاعبهم ويداعبهم ويدخل

---

(١) رواه البيهقي والطبراني والحاكم.

(٢) رواه البخاري.

السرور إلى نفوسهم، وفي أثناء ذلك يشربهم المفاهيم التي يريد تشريبها لهم، ليقبلوها عن رضا، وتثبت لديهم وتبقى.

والرسول ﷺ يؤكد على المسلمين إتباع الرفق في الأمر كله، فيقول:

- «إذا أراد الله بأهل بيت خيراً أدخل عليهم الرفق»[1].
- «إن الله رفيق، يحبّ الرفق في الأمر كلّه»[2].
- «من أعطي حظه من الرفق، فقد أعطي حظه من الخير»[3].

١/ ٣: رحمة الأبناء:

الرحمة تكون من الكبير للصغير، كما تكون من القوي للضعيف، والغني للفقير ... وهكذا، وهي عاطفة نبيلة تلين معها القلوب، وترقّ الطباع، ويرهف الإحساس، مما يثمر العطف والحنان والشفقة. والرحمة من صفات خالق الخلق ـ سبحانه ـ فهو الرحمن الرحيم.

إن أحوج بني الإنسان إلى الرحمة هم الأطفال في ضعفهم وقلة حيلتهم وكثرة أخطائهم واعتمادهم على غيرهم، وكثرة مضايقاتهم، وتعدد طلباتهم، وتتابع إزعاجهم إلى غير ذلك. ومعاملتهم برحمة فائقة، قد تغرس في قلوبهم الرحمة، ويحملون معهم التراحم إذا شبّوا، فيرحم الحاكم المحكوم، وترحم الجماعة الفرد، ويحقق التراحم متانة العلاقات ويوثق ترابطها.

لذلك كان الرسول ﷺ إضافة إلى رفقه بالأطفال أكثر الناس رحمة بهم، فيقول اسامة بن زيد ـ رضي الله عنهما ـ: كان رسول الله يقعدني على فخذه، ويقعد الحسن ابن علي على فخذه الأخرى، ثم يضمهما ويقول: «اللهم ارحمهما، فإنّي أرحمهما»[4]، وقال احدهم للرسول: «أتقبّلون الصبيان؟ فما نقبّلهم، فقال: «أو أملك لك أن نزع الله من قلبك الرحمة؟»[5].

---

(١) رواه أحمد والبيهقي.
(٢) رواه البخاري ومسلم.
(٣) رواه الترمذي.
(٤) رواه البخاري.
(٥) رواه البخاري.

ويؤكد ﷺ على خلق الرحمة في أحاديث كثيرة منها قوله:

- «إنما يرحم الله من عباده الرحماء»[(١)].
- «من لا يرحم لا يُرحم»[(٢)].
- «إني لم أبعث لعّاناً وإنّما بعثت رحمة»[(٣)].

٢- اتجاهات تربية الأبناء:

٢/ ١: التربية الدينية:

كل مسلم يودّ أن يكون ابنه متديّناً أي ملتزماً بالدين الإسلامي - حتى لو لم يكن هو كذلك - لأن كل أب ينشد الكمال لأبنائه، ومهما بحث عمّا يحقّق لهم هذا الكمال فلن يجده في غير الإسلام سواء في الاعتقاد أو التصور أو الفكر أو الخلق أو السلوك، وكم من مسلم نجده متنكّباً الإسلام في تصرفه ولا يرضى لأبنائه أن يتنكبوه.

لذلك يضع الإسلام مهمة التربية الدينية للطفل ابتداء على الأبوين، فهما أقدر الناس على مخاطبته بلغته حالما يتفتّح على اللغة، والتفكير فيما حوله، وإدراك أولويات المعرفة، ممّا يجعلهما قادرين على تشريبه الإيمان بالله عن طريق حبّه - تعالى - وبيان نعمه على كل منهم، وتعويده حمده وشكره، وحب رسوله، وربطه بالعبادات حتى تغدو من لوازم حياته اليومية، وأخذه بالأخلاق الإسلامية الفاضلة، وتعويده التفريق بين الحلال والحرام في كل قول وعمل، والتمسك بالحلال والنأي عن الحرام، فالصدق والأمانة وإعانة الناس ومساعدتهم واحترامهم . . . الخ حلال، ويرضي الله ورسوله، والكذب والخيانة وكراهية الناس وإلحاق الأذى بهم حرام، ويغضب الله ورسوله، الأمر الذي يجعل المفاهيم حارساً على تصرفاتهم.

هذه التربية تؤمن للنشء الاستقامة والتفوق وخلق الرجولة وحكمة التصرف، وهي من أساسيات واجبات الأسرة المسلمة، وكما يقول الشاعر:

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) متفق عليه.

(٣) رواه مسلم.

وينشأ ناشيء الفتيان منا على ما كان عوّده أبوه
وما دان الفتى بحجى ولكن يعوّده التديّن أقربوه

والرسول ﷺ يؤكد على اضطلاع الأبوين بهذه المهمة، فيقول:

- «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهوّدانه، أو ينصّرانه، أو يمجّسانه»[1].
- «أكرموا أولادكم وأحسنوا آدابهم»[2].

٢/٢: التربية الثقافية:

كثيراً ما نجد آباء في مجتمعاتنا يعتبرون مهمتهم بالنسبة للأبناء مجرد إنجابهم وإطعامهم فقط، ثم ينشغل كل من الأبوين بنفسه، يلبّي أهواءها ويشبع نزواتها، تاركاً مهمة تربية الأبناء وتثقيفهم للخادمات والخدم، فينشأ أبناءهم بأخلاق الخدم وثقافتهم.

إن الأسرة المسلمة معنيّة بأن تأخذ دوراً رائداً في التربية الثقافية، وألا تترك عمد المستقبل واهية بكل مكوناتها، ففي جوّ الأسرة ـ فترة المهد والطفولة الأولى ـ تتفتّح القابليات والاستعدادات والملكات والقدرات، وفي أجوائها يمكن أن ترتقي وتتفوق، فحصيلة الطفل اللغوية التي يحصل عليها في أجواء الأسرة تمكنه من التقدم في دراسته بصفة اللغة وعاء التعلم، كما أن تاريخ أمته ومفاهيمها وقيمها يمكن أن تقدم للطفل بالأسلوب القصصي المشوّق إلى غير ذلك من متطلبات التوعية الثقافية المتكاملة.

والأبوان أقدر ممن سواهما على الاضطلاع بالتربية الثقافية للأبناء، لأن الأطفال يمنحونهما ثقتهم من ناحية، ولكونهما أكثر صبراً على تلبية حب استطلاع الأطفال، والإجابة على تساؤلاتهم التي لا تفتر، ومساندة تعبيرهم عن احتياجاتهم، وتفهيمهم ما استغلق عليهم فهمه من ناحية ثانية، إضافة إلى اختيار قنوات الثقافة التي تصل إليهم لا سيما عبر الوسائل المسموعة والمرئية.

---

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه ابن ماجه.

هذه التربية الثقافية الأولية هي التي تحكم تعلّم الأبناء وآدابهم في مستقبل أيامهم، بحيث تبني عليها التربية النظامية. والرسول ﷺ يقول:

- «ما نحل والد ولداً من نحل (عطية) أفضل من أدب حسن»[(١)].

- والإمام علي كرم الله وجهه - يقول:

- علموا أولادكم فإنهم خلقوا لزمان غير زمانكم.

٢/٣: التربية الصحية:

لا مبالغة في القول إن العادات والممارسات الصحيّة التي يتمسك بها الإنسان، إنما غرست ابتداء في مرحلة الطفولة الأولى، فالعناية بالنظافة، والأسلوب السليم للجلوس والمشي والنوم والأكل والشرب واللباس، ومراعاة قواعد الأمن والسلامة، ولفظ العادات السيئة كالتدخين، وتلافي المحرّمات كالخمور والمخدرات، إنما للتربية الأولى التأثير الأعمق فيها.

إن الأسرة معنيّة بذلك. فهي الأكثر وعياً بتحقيق التوازن الصحي للأبناء، بتعويدهم العادات الصحية القويمة، وتنظيم أوقات النوم والراحة، واللعب والنشاط، وتناول الطعام، مع التوعية بالغذاء الصحي... الخ.

ولما كانت صحة الإنسان من أهم مرتكزات فعالياته الذاتية فإن الرسول ﷺ يوجه إلى أساسياتها، ويحثّ على الأخذ بكل ما يحقق صحتهم الجسمية والنفسية ومن ذلك قوله:

- **في الوقاية:**

- «إذا سمعتم بالطاعون في أرض فلا تدخلوها، وإذا وقع بأرض وأنتم فيها فلا تخرجوا منها»[(٢)].

- «فرّ من المجذوم فرارك من الأسد»[(٣)].

---

(١) رواه الترمذي.

(٢) رواه البخاري ومسلم والترمذي.

(٣) رواه البخاري.

- «لا يوردن ممرض على مصحّ»[١].
- **وفي العلاج:**
- «إن الله تعالى أنزل الداء وأنزل الدواء، وجعل لكل داء دواء، فتداووا»[٢].
- **وفي العادات الصحية:**
- «سم الله وكل بيمينك وكل مما يليك»[٣].
- «نهى ـ عليه السلام ـ أن يتنفس في الإناء أو ينفخ فيه»[٤].
- **وفي النظافة:**
- «السواك مطهرة للفم مرضاة للرب»[٥].
- كان عليه السلام إذا أراد أن يأكل أو يشرب غسل يديه ثم يأكل أو يشرب[٦].
- «ورأى رجلاً عليه ثياب وسخة فقال: «أما كان هذا يجد ما يغسل به ثوبه؟»[٧].

والأحاديث في ذلك كثيرة، وهذه أمثلة منها.

٢/ ٤ : التربية النفسية:

النفس البشرية عالم قائم بذاته، تتزاحم فيه كل الاضداد والمتناقضات، وتتميز بالتحول السريع والتغير المتسارع من زمان إلى زمان ومن ظرف إلى آخر، ومن مرحلة عمرية إلى أخرى. وكثير من الآباء يصرّون على معاملة أبنائهم في مرحلة الطفولة معاملة البالغين، مما يجعلهم يحطمون نفسياتهم بدلاً من أن يبنوها، فإذا

(١) رواه البخاري.
(٢) رواه أبو داود.
(٣) رواه البخاري.
(٤) رواه الترمذي.
(٥) رواه النسائي.
(٦) رواه النسائي.
(٧) رواه أبو داود والنسائي.

خاف أحدهم من حيوان أو دابة فالويل والثبور وعظائم الأمور، يوصف بأنه خرع جبان، مع أن الخوف فطري بالنسبة للإنسان وإذا أخطأ أقيمت من حوله الدنيا ولم تقعد، مع أن الخطأ وارد ومنه يتعلمون وهكذا.

وكثير من الآباء يستنكفون عن أن يستشيروا أبناءهم في أي أمر لكونهم أطفالاً، ولا يأخذون آراءهم حتى فيما يخصهم من مأكل أو مشرب، أو وسائل لعب وترفيه . . . الخ.

إن الأبوين الواعيين يجب أن يحيطا ـ ولو مبدئياً ـ بعلم نفس الطفولة، ليدركا كيف يتعاملان مع أبنائهما، بعلم ووعي وموضوعية، ويقيانهم مغبّة الانحراف النفسي.

ولعل اطلاعنا على سيرة المصطفى ﷺ مما يوضح لنا المثالية التربوية للتعامل مع الأطفال واليافعين فنقيهم مغبّة التردي في مهاوي الخوف والجزع، والخشية والتهيب، والتوجس والتردد، ونغرس في نفوسهم معالم الشجاعة وجرأة القلب وكرامة الموقف واستقلاليته، ومساندة خوضهم التجارب ذاتياً والإفادة منها، ومواجهة المشكلات والتصدّي لها. بقدر ما تسمح به قدراتهم الإدراكية. ومن ذلك:

- في احترام رأي الصغير:

- «أتي النبي بقدح فشرب منه، وعلى يمينه غلام وهو أصغر القوم، والأشياخ عن يساره، فقال: «يا غلام، أتأذن لي أن أعطيه الأشياخ؟» قال: ما كنت لأوثر بنصيبي منك أحداً يا رسول الله، فأعطاه أياه»[١].

- في احترام المواقف:

- أجاز عليه السلام رافع بن خديج يوم أحد لأنه كان رامياً، وردّ سمرة بن جندب، فشكا ذلك سمرة قائلاً: لقد أجاز رسول الله رافعاً وردّني، وأنا أصرعه، فأخبر الرسول فأمرهما بالمصارعة، ولما صرع سمرة رافعاً ابتسم النبي وأجازه[٢].

---

(١) رواه البخاري.

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية، مرجع سابق، جـ٢، ص ٣١٢.

- **وفي مداعبة الأطفال:**

يقول أنس بن مالك:

- كان لي أخ صغير يقال له أبو عمير، وكان له نغير (طائر صغير)، يلعب به، فإذا جاء النبي قال له: «يا ابا عمير، ما فعل النّغير؟»[١].

أما بالنسبة للشباب فنعلم أخذه برأي الحباب بن المنذر يوم بدر، وبرأي الشباب يوم أحد، ولا نكاد نجد صحابياً إلا وقال فيه قولاً طيباً يرضى نفسه: «خالد سيف من سيوف الله، أبو عبيدة أمين هذه الأمة، سلمان منا أهل البيت ... الخ» حتى جعل النفوس بكليتها تنساب نحو الحق والعدل والخير، انسياب الجدول السارب من المنبع الأصيل.

٢/ ٥ : التربية الجسديّة:

يحتاج الجسد إلى تربية تحفظ سلامته وتحقق قوته، وتزيد مناعته من ناحية، وتعدّه لأدوار مستقبلية في كل مرحلة عمرية من ناحية ثانية، مما يتطلب الوعي بالتوازن الصحي لجسم الطفل واليافع من الأبناء، فالجسم السليم مظنّة القوة والقدرة والنهوض بالأعباء، لذلك قيل: العقل السليم في الجسم السليم.

إن التربية الجسدية تستدعي وعياً من الآباء بأهمية اللعب والنشاط والإنطلاق والتمرين الجسدي المستمر في حفظ صحة الجسد الإنساني، بحيث لا يحرموا أبناءهم منها بدعوى المحافظة على سلامتهم، وفي الوقت نفسه مراعاة عوامل الأمن والسلامة فيما يمارسون من نشاطات.

والرسول ﷺ يؤكد على رعاية الجسم مأكلاً ومشرباً ولباساً ونظافة ... الخ ـ كما سبق القول ـ كما يؤكد على مراعاة قواعد الأمن والسلامة فيقول:

- إذا مرّ أحدكم في شيء من مساجدنا أو أسواقنا ومعه نبل فليمسك، أو ليقبض على نصالها بكفّه، أن يصيب أحداً من المسلمين منها بشيء[٢].

---

(١) رواه البخاري.

(٢) متفق عليه.

وفي إعطاء الجسد حقه يقول:

- «أما والله إني لأخشاكم لله، ولكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني»[١].

وفي الحركة يقول:

- «إن أعظم الناس أجراً في الصلاة أبعدهم إليها ممشى»[٢].

ويقول عمر ـ رضي الله عنه ـ.

- علموا أولادكم السباحة والرماية وأن يثبوا على الخيل وثباً.

وفي توجيهات الرسول ﷺ نجد ما يتناول تزكية كل جزء من أجزاء الجسد، من العين والأذن واللسان واليد والرجل والفرج، بحيث يؤدي ذلك إلى حفظ قوة الجسد وحيويته، وهو ﷺ القائل: «المؤمن القوي، خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف . . .»[٣] ذلك لأن الجسد الكليل العليل، لا ينهض بواجب، ولا يصون حقاً، ولا يرتقي بمقومات الحياة.

---

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه مسلم.

(٣) رواه مسلم.

ثانياً: التربية المجتمعية

إذا تمّ احكام تربية الفرد، بحيث يغدو قادراً متفوقاً مبدعاً، وإحكام تربية الأسرة بحيث تنهض بواجباتها وتتمسك بحقوقها، فإن التواصل الاجتماعي يغدو أيسر، والترابط بين فئات المجتمع أوثق، إذا روعيت في بنائه الأسس السليمة القويمة، وهذا ما حرص عليه الإسلام، ليغدو مجتمعه مجتمع رسالة متميزاً عما سواه بترابط علاقاته ومسؤولياته، ونبين ذلك فيما يأتي:

أ- أسس بناء المجتمع المسلم

كان العرب قبيل الإسلام موزعين في مجتمعات مجزأة بين مجتمع المدينة ومجتمع القرية ومجتمع القبيلة والعشيرة، لانظام يجمعهم ولا دولة توحدهم، ولا سلطة تدير أمورهم، فيما عدا اليمن التي كانت تحكمها سلطات وافدة من أحباش وفرس.

ومثل هذا المجتمع لا ينهض بالمهام العظام، لذلك وضع الرسول نصب عينيه بناء مجتمع متكامل، يعيش على أرض ضمن دولة موحدة السلطة، ولما كان ذلك مستحيلاً في مكة فقد أخذ منذ أيامه الأولى في المدينة في تحقيقه.

كانت البداية بإنشاء مسجده ﷺ في المدينة، حيث أصبح ـ إضافة إلى كونه مكاناً للعبادة ـ مركزاً للتوجيه والإنطلاق في بناء المجتمع المسلم، كما أصبح مكاناً للقاءات والاجتماعات ومناقشة أمور المسلمين، تعقد فيه المعاهدات، وتبرم العقود، وتستقبل الوفود، وتتم البيعة، وتنطلق منه الجيوش، وغدا مع الأيام مركزاً للتعليم والثقافة والبحث، والشورى وتبادل الآراء، وبذلك اعتبر مركز الدولة . . . دولة المجتمع الجديد.

لقد سبق القول إن الفرد أساس الأسرة، والأسرة نواة المجتمع، إلا أنه لا جدوى من أفراد مهما تفوقوا، وأسر مهما تميزت في ترقية أمة من الأمم ما لم يتضامّ

الجميع في مجتمع متآلف متعاون متوازن، لذلك عمل الرسول الكريم على بناء المجتمع الإسلامي على أسس ثابتة راسخة متينة، ليكون هذا المجتمع أساساً تقوم عليه خير أمة أخرجت للناس، ومن هذه الأسس:

١ - الأخوّة:

أتخذ الرسول الكريم من قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[1] قاعدة لبناء ترابط العلاقات داخل المجتمع الجديد، وأصبحت القاعدة الحاكمة لها هي الإخاء، الذي يعني أن ينتظم العلاقات: الحب والودّ والتوافق والتفاهم والتعاون والتآزر والإيثار والنصرة . . . إلى غير ذلك من قيم الإخاء العليا.

كان من شأن التآخي أن يذيب فروق الحسب والنسب، والأصل واللون، والمال والجاه، وكل الفروق الطبقيّة التي رسختها الموروثات الفكرية الجاهلية، وتمّ ذلك فعلاً وفق الخطوات الآتية:

١/١ : التآخي الثنائي:

بدأ الرسول الكريم خطوة التآخي بقوله للمسلمين: «تآخوا في الله اثنَين اثنين» ولم يكن المسلمون يعلمون كيف يفعلون، فقام الرسول بذلك وفق ما يأتي:

- بدأ بنفسه وآخى علي بن ابي طالب ـ كرم الله وجهه ـ حتى يحول دون تنافس المسلمين على إخائه، فيثير التحاسد والتحاقد، ولم يكن إخاؤه لعلي يثير أي حساسية.

- آخي بين كل مولى من المسلمين وبين مسلم من أرقى الطبقات، ليذيب الفوارق الطبقية واقعياً.

* آخى بين حمزة بن عبد المطلب ومولاه زيد بن حارثة.
* آخى بين ثابت بن قيس وعمار بن ياسر.
* آخى بين أبي الدرداء وسلمان الفارسي.
* آخى بين أبي رويحة وبلال بن رباح . . . وهكذا.

---

(١) الحجرات (١٠).

مسلم من القمة الطبقية، ومسلم من القاعدة، واستقبل المسلمون ذلك في غاية الرضا، فأطمأن إلى أن العنجهيّة الجاهلية، والتفاخر بالآباء قد ذابا على وهج الإيمان.

- آخى بين الباقين على أساس المؤاخاة بين مهاجري وأنصاري.

* آخى بين أبي بكر الصديق وخارجة بن زيد.

* آخى بين عمر بن الخطاب وعتبان بن مالك.

* آخى بين أبي عبيدة وسعد بن معاذ.

* آخى بين عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع . . . وهكذا.

مسلم عدناني، ومسلم قحطاني، جمعت بينهما الأخوة، وإنزاحت غمّة العداء القديم بالدين الجديد.

- لم يفرض الإخاء وإنما أقامه على التراضي وعندما بلغت حماسة الأنصار أوجها في مؤاخاة المهاجرين، لجأ ﷺ إلى القرعة، فلم يكن ينزل مهاجري على أنصاري إلا بالقرعة. ويروي التاريخ مدى التضحية والإيثار اللذين أبداهما الأنصار تجاه إخوانهم المهاجرين، ومن ذلك عرض سعد بن الربيع على عبد الرحمن بن عوف أن يقاسمه ماله، وأن يطلق له إحدى زوجاته ليتزوجها، كما يروي مقابلة عبد الرحمن ذلك بالتعفّف[١].

١ / ٢ : المؤاخاة الجماعية:

كانت الخطوة السابقة ناجحة بكل المعايير، ولكنها لم تكن كافية من وجهة نظر النبي، فالمسلمون سيتكاثرون، ويجب أن تنتظم الأخوّة علاقاتهم جميعاً، ويتحول الولاء من القبيلة إلى العقيدة، ومن الجنس إلى الدين، فأخذ في تربية المسلمين تربية مستمرة ترعى الإخاء وتعمقه، وتجمع عليه الأجيال المتتابعة، فأكد على هذه الاخوة في أحاديث كثيرة منها قوله:

- المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يسلمه[٢].

---

(١) عن عبد الملك بن هشام، السيرة النبوية، مرجع سابق، جـ٢، ص ٤٤٨-٤٥٠ مختصراً.

(٢) متفق عليه.

- لا يؤمن أحدكم حتى يحبّ لأخيه ما يحبّ لنفسه[(١)].

- لا تحسسوا ولا تجسسوا، ولا تحاسدوا ولا تدابروا ولا تباغضوا، وكونوا عباد الله إخواناً[(٢)].

٢- التمايز:

واتخذ الرسول ﷺ من قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾[(٣)] وقوله ـ سبحانه ـ ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾[(٤)] قاعدة لتحقيق تمايز المسلمين عمن سواهم من اليهود والمشركين والكافرين، لغرس الولاء والانتماء للدين الجديد.

«كانت الصحيفة التي أمر ـ عليه السلام ـ بكتابتها بين أهل المدينة، تمثل عقداً اجتماعياً عاماً، يعتبره المؤرخون الدستور الشامل للمدينة، لكون الوثيقة تناولت حريات الفئات الدينية والاقتصادية، ونظمت التعاون الدفاعي عن المدينة، والحكم في المنازعات . . . الخ، ومع ذلك فقد حرص الرسول على تضمينها ما يؤكد تمايز مواقف المسلمين ومما نصّت عليه:

- **التمايز في المواقف**: النص: «هذا كتاب من محمد النبيّ الأمّي بين المؤمنين من قريش ويثرب، ومن تبعهم ولحق بهم وجاهد معهم، أنهم أمة واحدة من دون الناس.

- **التمايز في الالتزام**: النص: «إن المؤمنين المتّقين على من بغى عليهم أو ابتغى عليهم دسيسة إثم أو ظلم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين وإن أيديهم عليه جميعهم ولو كان ولد أحدهم».

- **التمايز في الدماء**: النص: «لا يقتل مؤمن بكافر، ولا ينصر كافر على مؤمن».

---

(١) رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

(٢) رواه البخاري.

(٣) التوبة (٧١).

(٤) الأنفال (٧٣).

- **التمايز في الذمّة**: النص: «إن ذمّة الله واحدة، ويجير على المسلمين أدناهم».

- **التمايز في الولاء**: النص: «إن المؤمنين بعضهم موالي بعض من دون الناس».

- **التمايز في العهود**: النص: «إن سلم المؤمنين واحدة، لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله، إلا على سواء وعدل بينهم»[١].

هذه النصوص تشكل الأساس، وحتى يرتقي البنيان على هذا الأساس القويم، عمل الرسول الكريم على أن يتمايز المسلمون عن كل من سواهم من بني البشر، لا في معتقداتهم وتصوراتهم فحسب، وإنما في قيمهم وأخلاقهم وسلوكهم ومفاهيمهم وثقافتهم وحضارتهم، وإرتقائهم مادياً ومعنوياً.

إن القصد الرئيس هو أن يكون الإسلام بتكامله بالنسبة لكل مسلم منهجاً للفكر والقول والعمل، يصون الطاقة البانية المبدعة في الإنسان، فيغدو إنطلاقة النّور التي تعم الأرجاء وتسعد الأحياء، حيث يتعاملون مع الحياة وواهب الحياة، بإيجابية فاعلة، وإدراك واع، وخلق كريم، وسلوك قويم.

لذلك يؤكد الرسول باستمرار على تمايز مواقف المسلمين بعامة بقوله:

- من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو ردّ[٢].

وعلى تماسك كتلتهم تماسك الجسد الواحد بقوله:

- مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم، مثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو، تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى[٣].

٣- الوحدة:

اتخذ الرسول ﷺ من قوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَـٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾[٤] أساساً لإرساء قواعد وحدة المجتمع المسلم في مسيره ومصيره، فعمل طوال حياته على

---

(١) عن ابن كثير، البداية والنهاية، مرجع سابق، جـ٢، ص٢٢٢-٢٢٤ بتصرف.

(٢) متفق عليه.

(٣) متفق عليه.

(٤) الأنبياء (٩٢).

ترسيخ توحيد الخالق، وتعميق وحدة الرأي والكلمة والمفاهيم والرؤى والصف والهدف والغاية.

والرسول ـ عليه السلام ـ يعلم أن الوحدة تجمع للمجتمع المسلم القوى من أطرافها: القوى المادّية بكل مكوناتها، والقوى المعنوية بكل مقوماتها، وبذلك تستطيع أن تتصدى للتحديات، وتقهر العقبات والصعوبات، وتواجه المشكلات، وتحقق للمسلمين حياة حرّة كريمة، تعلي إنسانيتهم، وترتقي بمكانتهم، بحماية حقوقهم، والذّود عن حرماتهم، وصيانة حرياتهم.

وفجأة ذابت الولاءات في ولاء واحد، والانتماءات في انتماء واحد، والمواقف في موقف واحد، ومراكز القوى في مركز واحد، وسلطات القرار في سلطة واحدة، وتشتّت اللهجات في لغة واحدة، ونهضت أمة جديدة، موحّدة في مسيرها، موقنة بوحدة مصيرها، فملأت سمع التاريخ وبصره.

ويستمر الرسول ﷺ طوال حياته مؤكداً على الالتزام بالوحدة، ومن ذلك قوله:

- «من خرج من السلطان شبراً، مات ميتة جاهلية»[١].
- «إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم وآدم من تراب»[٢].
- «من خرج عن الطاعة وفارق الجماعة فمات مات ميتة جاهلية»[٣].

٤ - الانفتاح:

لم يرسل الله تعالى محمداً ﷺ للعرب خاصة، وإنما للناس كافة ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾[٤]، لذلك كان التأكيد الجازم من الرسول الكريم على الانطلاق في سبيل هداية الناس حتى يقول لعلي بن أبي طالب ـ كرّم الله وجهه ـ:

- «فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً، خير لك من حمر النعم»[٥].

---

(١) متفق عليه.
(٢) متفق عليه.
(٣) رواه مسلم وأحمد.
(٤) سبأ (٢٨).
(٥) رواه البخاري.

وقام ﷺ بدعوة ملوك الأرض ـ في زمانه ـ إلى الإسلام، وبذلك اعتبر كل مسلم نفسه مسؤولاً عن تبليغ الإسلام، فدخلت في الإسلام شعوب لم تكن قد سمعت بالعرب من قبل، وامتد المجتمع الإسلامي واتسع ليشمل أجناساً من شتى الأصول: من عرب وفرس وروم وهنود واتراك واكراد وتركمان ومصريين وقوطيين وبربر، ولا زال كل من هؤلاء يعتبر انتماءه للإسلام يفوق كل انتماء، بالرغم ممّا اعترى المسلمين من ضعف وتمزق.

لقد دخل الاستعمار الحديث حاملاً رسالة الرجل الأبيض ـ كما يدّعون ـ ولكنّه قوبل بالحديد والنار، وثورات تتبعها ثورات، ودماء تمدّها دماء، حتى غادر كل بلد دخلها يطارده سيل من اللعنات. ودخل المسلمون بلاداً في شتى أرجاء المعمورة، فلم يلبث أهلها أن دانوا بالإسلام، وخرج منها العرب وبقيت على الإسلام، وبقي القادة الذين دخلوها يذكرون بالتوقير والتمجيد والدعاء لهم، لقد كان دخول المسلمين لكل بلد للهداية لا للجباية وهنا يكمن الفرق.

ب- الترابط الاجتماعي في الإسلام

من المسلّم به أن أي إنسان لا يمكنه النهوض بجميع متطلبات الحياة، ومواجهة تحدياتها وحيداً، فلا بدّ له من الاستعانة ببني جنسه، في مأكله ومشربه وملبسه ومسكنه وعلاجه . . . الخ، مما يتطلب منه أن يتعاون مع الآخرين على اساس تبادلي تكافؤي. هذا التعاون يحتّم بناء شبكة علاقات وثيقه بين الأفراد والأفراد، والأفراد والجماعات، والجماعات والجماعات.

والإسلام يؤكد على بناء هذه العلاقات الترابطية التّعاونيّة على أساس من البر والتقوى ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾[1] وليس على الإثم والعدوان ﴿وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾[2]، ويجعل أساس التعامل ضمن هذه الروابط: العدل والإحسان ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ﴾[3]. وإذا كانت العلاقات الترابطية على البر والتقوى يحكمها العدل والإحسان، غدا الكل الاجتماعي موحّداً، لا تهزّه خلافات، ولا تزعزعه منازعات، ولا تمزقه أحقاد، وأصبح قادراً على إحكام مسيرته نحو شرف الغاية.

والرسول الكريم ﷺ الذي يدرك إدراكاً عميقاً مدى تأثير العلاقات المتبادلة على قوة المجتمع أو ضعفه، ترابطه أو تفككه، تقدمه أو تخلفه، حرص على وضع أسس ثابتة لبناء العلاقات الترابطية بين أفراد المجتمع وجماعاته، كما يأتي:

١- رابطة القرابة:

كل إنسان يرتبط برابطة القرابة مع أصول نمته، أو فروع تفرعت معه أو عنه، فإذا أُحكمت هذه الرابطة كانت أساس شبكة العلاقات التي يبنى عليها ما سواها، فهناك الآباء والأمهات، والأجداد والجدّات، والأبناء والبنات، والأخوة والأخوات،

---

(١) المائدة (٢).

(٢) المائدة (٢).

(٣) النحل (٩٠).

والأحفاد والحفيدات، والأعمام والعمات، والأخوال والخالات وأبناء أولئك جميعاً وبناتهم، والترابط بين هؤلاء جميعاً يحكم أولى مراحل الترابط الاجتماعي، ونبيّن فيما يأتي ما بينه الله ورسوله في علاقات الأبوة والأخوة والرحم التي تنتظم هذه العلاقة وتعتبر أمتن حلقات السلسلة الاجتماعية.

١ / ١ : رابطة الأبوة والبنوّة:

الأبوان هما سبب وجود الإنسان في هذه الحياة ـ حين يأذن الله بوجوده ـ فلولا الآباء ما وجد الأبناء ولا استمرت مسيرة الحياة البشرية عبر العصور والدهور. وقد رتّب الإسلام حقوقاً للأبناء على آبائهم تعتبر واجبات عليهم ـ كما سبق بيانه ـ في وقت كانوا فيه أشدّ ما يكونون حاجة لذلك، وإن من مقتضيات العدل ترتيب حقوق للآباء على أبنائهم إذا بلغ هؤلاء أشدّهم، وفي وقت يصبح فيه الآباء بحاجة إلى الرعاية عند كبرهم، لتستمّر الحياة الاجتماعية في توازن بين الحق والواجب، والأخذ والعطاء، ويستمر التوافق والتآلف بين أفرادها.

إن الإسلام يؤكد على حقوق الوالدين وواجبات الأبناء تجاههما بشكل حازم، فالله تعالى يقول:

- ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًاۚ ﴾[١] فربط الإحسان إليهما بعبادته ـ تعالى ـ.

- ﴿ ۞ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا ﴾[٢] وربط الإحسان إليهما بتوحيده ـ سبحانه ـ.

- ﴿ أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ ﴾[٣] وربط الشكر لهما بالشكر له ـ جل شأنه ـ.

والآيات الكريمة في تكريم الوالدين والعناية بهما ورحمتهما كثيرة. وفي معاملتها يقول ـ جل وعلا ـ ﴿ وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ ﴾[٤].

---

(١) الإسراء (٢٣).

(٢) النساء (٣٦).

(٣) لقمان (١٤).

(٤) الإسراء (٢٤).

- ﴿ فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴾[١].

إنها العناية المادية والعناية المعنوية التي تأبى على الابن أن يصدر عنه حتى اللفظ الجارح، ولو كان في أدنى صورة كقوله «أف»، وإنما تأخذهم بالقول الطيب الكريم، والمعاملة الرحيمة المتذللة.

والإسلام يسمى كل طاعة واحترام وتقدير وإنفاق ومساندة للوالدين «برّ الوالدين» وكل تخلّ عن ذلك أو عصيان لهما «عقوق الوالدين» فيأمر ببر الوالدين، وينهى عن عقوقهما.

وإنطلاقاً من أوامر الله ـ سبحانه ـ يأخذ الرسول الكريم ﷺ المسلمين بتربية جادة، عازمة حاسمة، نحو برّ الوالدين وعدم عقوقهما، وتتوالى الأحاديث الشريفة في كل مجال من هذين المجالين، ومنها:

- **في برّ الوالدين:**

- «من سرّه أن يمدّ له في عمره، ويزاد في رزقه، فليبرّ والديه»[٢].

- «عفّوا عن نساء الناس تعفّ نساؤكم، وبروا آباءكم يبركم أبناؤكم»[٣].

- وسأل ابن مسعود رسول الله: أي العمل أحب إلى الله؟ قال: «الصلاة على وقتها» قال: ثم أي؟ قال: «برّ الوالدين»[٤].

- **في رعايتها:**

- «رغم أنفه، ثم رغم أنفه، ثم رغم أنفه» قيل: من يا رسول الله؟ قال: «من أدرك والديه عند الكبر، أو أحدهما، ثم لم يدخله الجنة»[٥].

- من أدرك أحد أبويه فمات فدخل النار فأبعده الله[٦].

---

(١) الإسراء (٢٣).
(٢) رواه أحمد.
(٣) رواه الحاكم.
(٤) رواه البخاري ومسلم.
(٥) رواه مسلم.
(٦) رواه الطبراني.

- في طاعتهما:

- عن عبد الله بن عمر: كان تحتي امرأة أحبها، وكان عمر يكرهها، فقال لي: طلقها، فأبيت، فأتى عمر رسول الله، فذكر له ذلك، فقال لي رسول الله: طلقها[١].

- جاء رجل من اليمن مهاجراً إلى رسول الله فقال النبي: «هل لك أحد في اليمن؟» قال: أبواي قال: «أذنا لك؟ قال: لا، قال: «فارجع إليهما فاستئذنهما، فإن أذنا لك فجاهد وإلا فبرهما»[٢].

- بين البر الجهاد:

- جاء رجل إلى النبي فاستأذنه في الجهاد فقال: «أحيّ والداك؟» قال: نعم، قال: «فيهما فجاهد»[٣].

- جاء رجل إلى النبي فقال: أبايعك على الهجرة والجهاد، أبتغي الأجر من الله، قال: «فهل من والديك أحد حيّ؟» قال: نعم، بل كلاهما حيّ، قال: «فتبتغي الأجر من الله؟» قال: نعم، قال: «فارجع إلى والديك فأحسن صحبتهما»[٤].

- في مكافأتهما:

- لا يجزي ولد عن والده، إلا أن يجده مملوكاً فيشتريه فيعتقه[٥].

- في صلة صديقهما:

- إن من أبرّ البرّ، أن يصل الرجل أهل ودّ أبيه بعد أن يولّي[٦].

---

(١) رواه أبو داود والترمذي والنسائي.

(٢) رواه أبو داود.

(٣) رواه البخاري ومسلم.

(٤) رواه مسلم.

(٥) رواه مسلم وغيره.

(٦) رواه مسلم.

- **في البر بعد الموت:**

- سأل رجل النبي: هل بقي من برّ أبوي شيء أبرهما به بعد موتهما؟ قال: «نعم، الصلاة عليهما (الدعاء لهما)، والاستغفار لهما، وانفاذ عهدهما من بعدهما، وصلة الرحم التي لا توصل إلا بهما، واكرام صديقهما»[١].

- **في تخصيص الأم:**

- جاء رجل إلى النبي فقال: من أحق الناس بحسن رعايتي؟ قال: «أمك» قال: ثم من؟ قال: «أمك» قال: ثم من؟ قال «أمك» قال: ثم من؟ قال: «أبوك»[٢].

- عن أسماء بنت أبي بكر قالت: قدمت عليّ أمّي وهي مشركة، فاستفتيت رسول الله فقلت: قدمت عليّ أمي وهي راغبة (تأبى الإسلام) أفأصل أمي؟ قال: «نعم، صلي أمك»[٣].

- **في العقوق:**

- لا تعقّن والديك وإن أمراك أن تخرج من أهلك ومالك[٤].

وتوجيه الرسول الكريم في برّ الوالدين والتنفير من عقوقهما أوسع من أن يحاط به في هذه العجالة، وقد وعى المسلمون ذلك وطبقوه في واقع حياتهم، مما جعل رغبة الآباء في الانجاب ورعاية الأبناء وإحسان تربيتهم تتزايد، واللحمة الاجتماعية في هذا الجانب تزداد تماسكاً، ونذكّر فقط بما يأتي:

- كان عبد الله بن عمر في طريقه إلى الحج فجاءه أعرابي، فأعطاه عبد الله الحمار الذي يركبه، والعمامة التي كانت على رأسه، فقيل له: أصلحك الله، إن الأعراب يرضيهم اليسير، فقال: إن أبا هذا كان ودّا لعمر بن الخطاب، وإني سمعت رسول الله يقول: «إن أبرّ البرّ، صلة الولد أهل ودّ أبيه»[٥].

---

(١) رواه أبو داود وابن ماجه والبزار وغيرهم.

(٢) رواه البخاري ومسلم.

(٣) رواه البخاري ومسلم وأبو داود.

(٤) رواه أحمد.

(٥) رواه مسلم.

- رأى عمر رجلاً يطوف بالبيت حاملاً أمّه المقعدة، فحمد عمر له فعله، فقال الرجل هل جزيتها حقها بفعلي هذا يا أمير المؤمنين؟ قال: لا، قال: ولم؟ قال: لأنها كانت تحملك وهي تتمنى حياتك، وأنت تحملها وتتمنى موتها.

١/ ٢: رابطة الإخاء:

لا تقتصر الصلات والعلاقات داخل الأسرة على صلة الآباء بالأبناء والعكس، وإنما تمتد أفقياً لتشمل علاقات الأخوة بعضهم ببعض، فإذا لم تقم هذه العلاقات على أسس قويمة تمزقت العلاقات وتقوضت وباءت الأسرة بالفشل.

كما أن رب الأسرة قد يصاب بالعجز أو يتوفى، وله أبناء وبنات قصّر، لا يستطيعون خوض غمار الحياة، وإعالة أنفسهم، فمن يتولى ذلك منهم؟

إن الإسلام يرتب إعالة هؤلاء ورعايتهم وتربيتهم وتوجيههم على الإخوة الكبار - إن وجدوا - وعلى الدولة وصالحي المسلمين - إن لم يوجدوا - حتى لا يتعرض الأطفال للضياع والتشرّد. لذلك يوجه الرسول المسلمين إلى شمول البرّ المبذول للأم والأب ليمتد إلى الإخوة والأخوات، وفي الوقت نفسه أكد على أن حقوق الكبار على الصغار، كحقوق والديهم عليهم، الأمر الذي يتطلب احترامهم وتقديرهم وطاعتهم والتأدب معهم، ليتولى الكبار ما يتولاه الأبوان منهم من حبّ وود وعطف ورحمة وعناية ورعاية، وحمايتهم من كل سوء والدفاع عنهم تجاه كل عدوان عليهم وفي ذلك يقول:

- «برّ أمك وأباك، وأختك وأخاك، ثم أدناك أدناك»[١].
- «حقّ كبير الإخوة على صغيرهم كحق الوالد على ولده»[٢].

وبهذا تحكم الحلقة الثانية من حلقات التواصل والترابط الاجتماعي ضمن نطاق القرابة.

١/ ٣: رابطة الرحم:

رابطة الرحم تشمل من يعودون في جذورهم إلى رحم واحدة ويتفرعون عنها -

(١) رواه البزار.
(٢) رواه البيهقي.

صعودا أو هبوطا ـ من جدود وجدات وإخوة وأخوات وأعمام وعمات وأبناء هؤلاء وبناتهم . . . الخ فهؤلاء لهم من قرابة الرحم ما يوجب صلتهم ـ مادياً ومعنوياً ـ لتبقى لحمة القرابة عاملاً رئيساً من عوامل التوافق الاجتماعي.

وصلة الأرحام تقتضي الصلة المعنوية، بالمودة والاحترام والتقدير والزيارة والعيادة والاهتمام بأمور الأرحام بكل كما تقتضي الصلة الماديّة بالصدقة والهبة والوصية والإعانة وتفريج الكربات بكل أنواعها.

وعلاقة الرحم توسّع دائرة العلاقات بين أفراد القرابة في المجتمع المسلم، وتعمق التواصل والتراحم والتعاون والتآزر بينهم، فيشعر المسلم بأن ذوي رحمه قوة وعون له ضد عوادي الزمن، فيشعر بالأمن والاستقرار والرضا.

لذلك نجد التأكيد العازم من الرسول ﷺ على صلة الرحم في أحاديث كثيرة، لكونها مظنّة التقصير من الفرد المسلم، ومن ذلك قوله:

- من سرّه أن يمدّ له في عمره، ويوسّع له في رزقه، ويدفع عنه ميتة السوء، فليتق الله، وليصل رحمه[1]. كما يحذر في كثير من الأحاديث من قطيعة الرحم ومن ذلك قوله:

- «الرحم معلّقة بالعرش تقول: من وصلني وصله الله، ومن قطعني قطعه الله»[2].

- «إن الملائكة لا تنزل على قوم فيهم قاطع رحم»[3].

ومما يؤسف له أن صلة الأرحام بين المسلمين، أصبح ينظر إليها من منظور المقايضة، فيصل المسلم من وصله من أرحامه، ويحرم من حرمه، فإذا لم تزره عمته مثلاً لا يزورها، وإذا لم تسأل عنه لا يسأل عنها، ويبيّن الرسول الكريم أن هذه المقايضة مكافأة لا صلة، فأي فضل لإنسان يعود من يعوده، ويزور من يزوره، ويصل من يصله؟ إن الفضل في أن يبذل الإنسان الخير مبتدئاً، وذروة الفضل أن يصل الإنسان القاطع، ويتألف النافر، ويقبل على المعرض، وفي ذلك يقول ﷺ:

---

(١) رواه الحاكم والبزار.

(٢) رواه البخاري ومسلم.

(٣) رواه الطبراني.

- «ليس الواصل بالمكافىء، ولكن الواصل الذي إذا قطعت رحمه وصلها»[١].

- «ثلاث من كنّ فيه حاسبه الله حساباً يسيراً، وأدخله الجنّة برحمته». قالوا: وما هي يا رسول الله؟

قال: «أن تعطي من حرمك، وتصل من قطعك، وتعفو عمّن ظلمك»[٢].

هذه أهم علاقات القرابة، التي إن اتبعت هذه القيم النبيلة، قويت أواصرها، وتعمقت وشائجها، واستعصت على التمزق، وانعكست آثارها الإيجابية خيراً على المجتمع ككل.

٢- رابطة الجوار:

رابطة الجوار ـ كما هو معروف ـ رابطة مكانيّة، فما دام الإنسان يعيش على هذه الأرض فلا بدّ من أن يكون له جار، سواء أعاش في بناية ذات ادوار متعددة، أو في بيت مستقل، في مدينة أو قرية أو مضرب خيام، مما يكوّن سلسلة ترابط مكاني تمتد أفقياً ورأسياً حتى تشمل المجتمع كله، على امتداد المكان واتساعه. وقد توسع الفقه الإسلامي في هذه العلاقة حتى مدّها إلى أربعين جاراً وزيادة.

ورابطة الجوار تمثل الحلقة الثانية في منظومة الترابط الاجتماعي الإسلامي، بعد علاقة القرابة، ولكنها قد تكون أكثر نفعاً، وأجدى مردوداً من العلاقة الأولى، فمن يحتاج إلى معونة عاجلة في ظرف طارىء، قد يلجأ إلى الجار قبل أن يلجأ إلى الأخ الشقيق البعيد عنه مكاناً، لأن الطوارىء تتطلب مواجهة عاجلة، والجيران أقدر عليها ممن سواهم، إذا بنيت العلاقات معهم على أسس كريمة قويمة.

لذلك فإن الرسول ﷺ، يؤكد على حقوق الجيرة، ويفيض فيها اكثر من غيرها، حتى لا يعتريها تقصير ومن ذلك قوله في حقوق الجار: «إذا استعانك أعنته، وإذا أستقرضك أقرضته، وإذا افتقر عدت عليه، وإذا مرض عدته، وإذا أصابه خير هنأته، وإذا أصابته مصيبة عزيته، وإذا مات اتبعت جنازته»[٣].

---

(١) رواه البخاري وأبو داود والترمذي.

(٢) رواه الطبراني والحاكم والبزار.

(٣) من حديث رواه الطبراني.

كما يؤكد بأسلوب قطعي على أهمية رعاية الجوار ومن ذلك قوله:

- **في التوصية بالجار:**

- «ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورّثه»[١].

- **في الصلة:**

- «ليس المؤمن الذي يشبع وجاره إلى جانبه جائع»[٢].

- **في كف الأذى:**

- «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره»[٣].

- **في كف الاعتداء:**

- «والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن» قيل: من يا رسول الله؟ قال: «الذي لا يأمن جاره بوائقه»[٤].

- **في الإحسان:**

- «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحسن إلى جاره»[٥].

واتبع الرسول ﷺ أسلوباً عملياً في كف أذى أي جار عن جاره، فكان إذا شكا إليه إنسان من اساءة جار له، أمره أن يطرح أمتعته في الطريق، فإذا سأله الناس قال: «جاري فلان يؤذيني» فيتكوّن رأي عام مناهض للجار المؤذي، يواليه باللوم والتقريع والتوبيخ وربما باللعن، فيسارع هذا لارضاء جاره، متعهداً ألا يعود إلى أذاه، وهكذا أحكمت هذه الحلقة من العلاقات فجرّت خيراً ورضا وسعادة على المجتمع المسلم.

---

(١) متفق عليه.

(٢) رواه البخاري والطبراني والحاكم.

(٣) متفق عليه.

(٤) رواه البخاري ومسلم وأحمد.

(٥) رواه مسلم.

ومن الحوادث المشهورة في رعاية الجوار أن جارا لسعيد ين العاص أراد أن يبيع داره، فلما بلغ سومها ما يرضيه قال: وبكم تقدرون جوار سعيد؟ قالوا: أو يباع الجوار؟ قال: نعم، والله ما كنت لأترك جوار رجل إذا استعنته أعانني، وإذا افتقرت عاد علي وإذا . . .، فسمع سعيد، فدفع له ثمن داره وقال له: لا تبع جوارنا ولك ثمن دارك. ولما ساءت الأحوال، باع أبو الأسود الدؤلي داره لأن جيرانه يؤذونه فقيل له: أو بعث دارك؟ قال: لا، ولكني بعت جواري.

٣- رابطة السنّ:

رابطة ثالثة ينتبه إليها الرسول الكريم وينبّه المسلمين إليها، رابطة تصل بين كل أفراد المجتمع بدون استثناء، فما من مجتمع إلا وفيه الطفل والمراهق والشاب والكهل والشيخ، ولا مناص من أن تتعامل كل مرحلة عمرية مع أخرى في البيت والحي، في الشارع والمدرسة، في المصنع والمتجر، في الإدارة والوزارة، وهكذا، وإذا كان التّعامل بين هذه الفئات مراعياً معالي القيم ومكارم الأخلاق وسامي الفضائل، أدى إلى إحكام تفاعل العلاقات عن رضا ووعي واقتناع بين الأجيال.

إن رابطة السنّ تقوم على رحمة الكبير للصغير، والعطف عليه، ومساعدته ومساندته وإعانته، وفي الوقت نفسه على إكرام الصغير للكبير وإحترامه وتقديره وتوقيره، وتقديمه في الأمور التي تستدعي تقديمه، فالذوق السليم يحتّم ذلك، والرسول ﷺ يضع قاعدة ثابتة لهذا التقديم فيقول:

- «ليلني منكم أولو الأحلام والنهى (البالغون العاقلون) ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم»[١].

ويؤكد على العلاقة السنّية التبادلية بقوله:

- «ليس منّا من لم يوقّر الكبير، ويرحم الصغير»[٢].

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه أحمد والترمذي وابن حبان.

- «ليس منا من لم يرحم صغيرنا، ويعرف شرف كبيرنا»[١].

ونظراً لأن الصّغار هم الذين يتوقع منهم التفلّت من هذه المكارم، لا سيّما في اعتبارهم الكبار ـ وبصفة خاصة الشيوخ ـ لا يمثلون جيلهم، ولا تجدّدهم الفكري، بحيث يمكن أن ينتقصوهم، يؤكد ﷺ في عدد من الأحاديث على اكرام الشيوخ بالذات، ومن ذلك قوله:

- «إن من إجلال الله تعالى، إكرام ذي الشيبة المسلم»[٢].

- «ما أكرم شاب شيخاً لسنّه، إلاّ قيّض الله له من يكرمه عند سنّه»[٣].

هذا أسلوب آخر من أساليب بناء العلاقات الاجتماعية الإنسانية الراشدة التي نبه إليها المربي الكريم ﷺ للنهوض بفعاليات المجتمع المسلم.

٤- الروابط النوعية الخاصة:

هناك فئات اجتماعية ليست بذات قرابة، وقد لا ترتبط بالمسلم بعلاقة الجوار، ولكنها في حاجة إلى أن يكون التعامل معها كريماً، تمليه أخوة الإسلام، كالأيتام، والأرامل، والفقراء والمساكين، والمرضى، والمنكوبين ومن إليهم، وهؤلاء يحتاجون مساندة ودعماً ومساعدة مادية من إخوانهم الذين عافاهم الله من الابتلاء بمثل ما ابتلوا به، وهذا ما سنوضحه في التربية الاقتصادية في فصل لاحق. ولكن هؤلاء أحوج ما يكونون إلى المساندة والمساعدة المعنوية، بالتعامل معهم على أساس من النّدية والاحترام والتقدير لتبقى لهم عزة أنفسهم، وليشعروا بتقدير ذواتهم، وإعلاء كرامتهم، ليتواءموا مع مجتمعهم ويغدوا عناصر بناء فيه. ويراعى إزاء هؤلاء ما يأتي:

٤/ ١: الأيتام:

اليتيم الذي فقد والديه، وفقد بفقدهما عنايتهما ورعايتها وتوجيههما، وحبهما وعطفهما وحدبهما وحنانهما، يغدو كسير النفس، مفرط الحساسية تجاه الكلمة

(١) رواه الترمذي وأبو داود.

(٢) رواه أبو داود.

(٣) رواه مسلم.

والحركة والإشارة والايماءة، نظراً لشعوره بالضعف والنقص بفقدان والديه، في مجتمع ينعم فيه أمثاله بحضانة الآباء، الأمر الذي يتطلب كثيراً من حكمة التصرف ازاءه، بحيث لا تقهر نفسه وتحطم معنوياته، ورب العزّة ـ سبحانه ـ يحذر من هذا القهر لليتيم بقوله: ﴿ فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ ۝٩ ﴾[1].

وقد كان الإسلام سبّاقاً في كفالة الأيتام ليعيش اليتيم في أسرة بديلة، بين آباء وأمهات وإخوان وأخوات من المسلمين حتى يبلغ أشدّه، ولا يلقى به في الملاجىء معزولاً عن التعامل والاحتكاك بالآخرين. والرسول ﷺ يأخذ المسلمين بكفالة الأيتام، ويعدهم خير الجزاء من الله تعالى على ذلك فيقول:

- «أنا وكافل اليتيم ـ له أو لغيره (قريبه أو البعيد عنه) ـ كهاتين في الجنّة ـ واشار بالسبّابة والوسطى ـ»[2].

- «من عال ثلاثة من الأيتام، كان كمن قام ليله، وصام نهاره، وغدا وراح شاهراً سيفه في سبيل الله، وكنت أنا وهو في الجنّة أخوين»[3].

ولا يتوقف توجيهه ﷺ على مجرد الكفالة، وإنما يتعداها إلى إكرام اليتيم والاحسان إليه وتلافي كل ما يسوءه، وإسباغ وافر الرحمة عليه، فهذا اليتيم قد يصبح ذا شأن عظيم في مجتمعه، فيغمر بالرحمة والعطف والإكرام من سواه، ويمتد التراحم بين أفراد المجتمع ويصبح سجيّة أصيلة من سجاياهم، وفي ذلك بقول ـ عليه السلام ـ:

- «إن أحب البيوت إلى الله، بيت فيه يتيم مكرم»[4].

- «خير بيت في المسلمين، بيت فيه يتيم يحسن إليه، وشرّ بيت في المسلمين، بيت فيه يتيم يساء إليه»[5].

---

(١) الضحى (٩).

(٢) رواه مسلم ومالك.

(٣) رواه ابن ماجه.

(٤) رواه الطبراني.

(٥) رواه أبو داود.

- «والذي بعثني بالحق، لا يعذب الله يوم القيامة من رحم اليتيم، ولان له في الكلام، ورحم يتمه وضعفه»[١].

٤ / ٢ : الأرامل:

والأرملة كما اليتيم كسيرة النفس ممزّقة القلب والشعور، مهيضة الجناح، حيث فقدت زوجها، معيلها وحاميها والقائم على أمورها، لا سيّما إذا لم تتزوج، وبقيت فريسة الوحدة والفراغ وربما الفقروالعوز والضيق، ممّا يحتم على المجتمع أن يعمل كل ما يستطيع لمساندتها واعانتها على النهوض مجدداً والخروج من العزلة وعالم المآسي والأحزان.

وبالرغم من أهمية مساندتها مادياً، إلا أن مساندتها معنوياً تبقى الأهم، حتى لا تشعر بالصغار ويتعمق في نفسها القهر. وأي مجتمع قويم يجب أن يكون تعامله مع مثلها تعاملاً متميزاً بالاحترام والتقدير والاكرام، واعتبار كرامتها من كرامته.

إن المرأة ـ مهما بالغنا في قدراتها ـ تبقى ضعيفة، لا تستطيع مواجهة تحديات الحياة وعوادي الزمن، ولا تستطيع كفاية نفسها حتى وإن كانت ذات جدة مادية، فهي تحتاج إلى من يسعى على تأمين متطلباتها، وهذا من حقّها على مواطنيها وأفراد مجتمعها الأولى فالأولى.

والرسول ﷺ يربى المسلمين على الاهتمام بالسعي على الأرامل بصفة خاصّة، كما يحرّج في حق الضعيفين: اليتيم والمرأة فيقول:

- «الساعي على الأرملة واليتيم، كالمجاهد في سبيل الله»[٢].

- «اللهم إني أحرّج في حق الضعيفين: اليتيم والمرأة»[٣].

٤ / ٣ : الفقراء والمساكين ومن إليهم:

لا يطلب الإنسان الفقر أو المسكنة لنفسه، فما من إنسان عاقل يود أن يكون فقيراً وفريسة للجوع والعرى والجهل والمرض، وإنما يحدث ذلك لبني الإنسان

(١) رواه أحمد والطبراني.

(٢) متفق عليه.

(٣) رواه النسائي.

ابتلاء، كالعجز عن الكسب، أو التعرض لأمراض لا تمكنه من العمل، أو الاعاقة الجسديّة أو الفكرية، أو التعرض لأزمات طارئة تفقده ماله، إلى غير ذلك.

وهؤلاء يحتاجون إلى المساندة الماديّة بالضمان الاجتماعي الذي تنهض به الدولة المسلمة، والتكافل الاجتماعي الذي ينهض به المجتمع المسلم، وهذا ما سنتناوله فيما بعد. ولكن الحديث هنا عن المساندة المعنوية التي توثق الروابط والعلاقات بين أفراد المجتمع المسلم، وترتقي بنوعية التعامل فيما بينهم.

والرسول ﷺ يربي المسلمين على مساندة هؤلاء بوصفهم إخوة في الله، أخنى عليهم الدهر، وقد يكونون ـ نظراً لظروفهم الضاغطة ـ في حالة من الكآبة والحزن والأسى والألم، مما يتطلب من إخوانهم الذين عافاهم الله، الاختلاط بهم، وإدخال السرور عليهم بأي أسلوب ممكن فيقول ـ عليه السلام ـ:

- «إن من موجبات المغفرة، إدخالك السرور على أخيك المسلم»(١).

- «أفضل الأعمال إدخال السرور على المؤمن»(٢).

يضاف إلى ذلك النهوض باحتياجاتهم، لا سيما بالنسبة للمرضى والعجزة والمسنين والمعاقين منهم، الذين يحتاجون إلى من يعينهم، وأولئك الذين لا يستطيعون الوصول إلى المسؤولين وسلطات القرار، ويحتاجون إلى من يسعى لتأمين حقوقهم وفي ذلك يقول ﷺ.

- «أحب الناس إلى الله أنفعهم للناس»(٣).

- «لا يزال الله في حاجة العبد، ما دام العبد في حاجة أخيه»(٤).

- «إن لله عند أقوام نعماً أقرّها عندهم ما كانوا في حوائج المسلمين، ما لم يملّوهم، فإن ملّوهم نقلها إلى غيرهم»(٥).

---

(١) رواه الطبراني.

(٢) رواه الطبراني.

(٣) رواه الاصبهاني.

(٤) رواه الطبراني.

(٥) رواه الطبراني.

جـ- المسؤولية الاجتماعية

١ - مفهوم المسؤولية في الإسلام:

مهما أحكم إعداد الفرد والأسرة والجماعة، لا يمكن الركون إليه في انضباطية الحياة ما لم تحدد المسؤوليات بأسلوب بين واضح، لأن الإنسان هو الإنسان، قد يضعف فيسطو على حقوق الآخرين ليحصل على أكثر من حقّه، وقد يتنصل من واجباته والتكاليف المناطة به، وإذا لم يكافأ المحسن ويعاقب المسيء عمت السلبية والفوضى مناحي الحياة. لذلك عني الإسلام بتحديد المسؤوليات ووضع الأسس الضابطة لها.

والإسلام يعتبر الإنسان مسؤولاً مسؤولية مباشرة، أمام الله، ثم أمام الناس، عما يصدر عنه من أقوال وأعمال، بإرادته الحرّة، من منطلق الشريعة الإسلامية المنظمة للحياة، وبذلك يحقق النهوض بالمسؤولية وفق مستويين عامين هما:

١/١: الالتزام:

والإلتزام هو الأصل في النهوض بالمسؤولية، حيث يقوم كل فرد مسلم بالنهوض بما يترتب عليه من مسؤولية ذاتيا، وبمبادرة منه، لإيمانه بأن القيام بالواجب يقتضي الالتزام بمسؤولياته لينعم بحقوقه.

والالتزام يمثل قمة الرقي الذاتي الإنساني، إذ يمتثل الإنسان لما يؤمن به، فيصبح رقيباً على ذاته، يقوّم اعوجاجها إذا انحرفت، ويُحكم تصرفاته وفق معايير واضحة محددة هي شرع الله، فيحاسب نفسه قبل أن يحاسب، والإنسان هو الذي يعلم تمام العلم إن كان ما يأتيه خيراً أو شراً، والله تعالى يقول: ﴿ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ۝١٤ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ۝١٥ ﴾[1].

---

(١) القيامة (١٤، ١٥).

والمحاسبة على الالتزام الذاتي تأتي من الخالق ـ جل وعلا ـ فيما لا يبدو للخلق، مما يحفز الإنسان ويدفعه بقوة للنهوض بمسؤولياته وتلافي الانحراف ومن ثمّ الانضباط مع قواعد الحق والعدل والخير، لعلمه بأنه إذا غاب رقيب الأرض فإن رقيب السماء لا يغيب، وإن كانت تعمية الحقائق واردة على الناس، فإن ذلك مستحيل على رب الناس الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[1].

لذلك يأخذ الرسول ﷺ المسلمين، بتربية جادة تحقق الالتزام ذاتياً، وفي ذلك يقول:

- «إني تركت فيكم ما إن اعتصمتم به لن تضلوا أبداً: كتاب الله وسنّة نبيّه»[2].
- «من تمسّك بسنّتي عند فساد أمتي فله أجر شهيد»[3].

١/ ٢: الالزام:

يتحقق الالزام بتطبيق الشرع وتنفيذه، بحيث يردع غير الملتزم ويجبره على الالتزام، فإذا كانت القمم السامقة من البشر، من ذوي الضمائر الحيّة والقلوب النقيّة، تلتزم تلقائياً، فإن هناك من لا يتميز بهذه الميزات، ويتبع نفسه هواها، متفلّتا من الالتزامات، منحرفاً عن السبيل القويم والتصرف السليم، وهؤلاء لا بدّ من إلزامهم بقوة السلطان حتى لا يفسدوا الحياة.

ولأجل الالزام بالشرع، شرعت الحدود والعقوبات، ونظم القضاء، لضمان كل حق لصاحبه، والزام كل فرد بالواجب الذي يترتب عليه، وصاحب السلطان ـ بغض النظر عن التسميات ـ مكلّف بتنفيذ الأحكام، متقيداً بالشرع فيما فيه نص ملزم، وبحكم القاضي فيما دون ذلك.

والإسلام ينظر إلى عدم الالتزام على أنه حالة مرضية، يجب علاجها بكل وسيلة ممكنة، أما إذا استعصت على العلاج، وأصبحت تهدّد حياة المجتمع، فلا بدّ من

---

(١) الحديد (٤).

(٢) رواه الحاكم.

(٣) رواه الطبراني.

البتر حتى لا تتعمق ويصبح إصلاح الحياة معها مستحيلاً، فقتل من يقتل عن عمد وسبق إصرار وترصّد، يحول دون استمراء القتل وتهديد أمن المجتمع بالثأر، وكم من حالة قتل واحدة أدت إلى ضياع عشرات الأرواح لأن القصاص لم يأخذ مجراه ابتداء، وقطع السارق يوقف تهديد أمن المجتمع، وايغال عصابات اللصوص في إشاعة الرعب وانتهاك حرمات آلاف الأسر، وهكذا بالنسبة لجلد السكير والزاني أو رجم الأخير، وبذلك تحمى الأنفس والأموال والأعراض والحرمات والحقوق من الاعتداء عليها، ويعيش المجتمع حياة آمنة مستقرّة مطمئنة، ملتزمة بمنهج الله لتحقيق خيرية الحياة وخير الأحياء.

والرسول ﷺ يؤكد على ولاة الأمر تحقيق الإلزام حتى تستقيم الحياة فيقول:

- «أقيموا حدود الله في القريب والبعيد، ولا تأخذكم في الله لومة لائم»[١].

- «إنما هلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها»[٢].

٢: شروط المسؤولية:

يشترط لنفاذية المسؤولية والالزام بها ـ شروط الكفاية التكليفية وهي:

- **الإسلام:**

فالمسلم هو المكلف بالالتزام بالشرع الإسلامي، وهو الذي تكلف السلطات بالزامه به، والله تعالى يقول: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾[٣] فالطاعة متعلقة بأولئك الذين آمنوا بالرسالة أما غير المسلم ـ وإن كان في بلد مسلم وعاش ضمن مجتمع مسلم ـ لا يلزم بالشرع الإسلامي، مما يحرمه الإسلام ويحلّه دينه، أو يبيحه الإسلام ويمنعه دينه، وإنما يحاسب فقط على المسؤوليات العامة التي تقرها جميع الأديان كالأمانة والصدق والوفاء بالعهود والعقود وأداء الحقوق وهكذا.

---

(١) رواه ابن ماجه.

(٢) رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

(٣) النساء (٥٩).

- **البلوغ:**

ذلك لأن الإلزام يقتضي أن تكون القوى المدركة للإنسان قادرة على استيعاب ما يلزم به، وسنّ البلوغ يختلف من مكان إلى مكان وتحدّده الاجتهادات بما يراعي ظروف الزمان والمكان. وقد حددها الرسول ﷺ بالاحتلام.

إن غالبية بني الإنسان لا يستطيعون التمييز الوثيق بين المتضادات قبل سنّ البلوغ، ولا يتحكمون في تصرفاتهم بوعي كامل وإدراك شامل وإرادة قاصدة قطعيّة، أو في قواهم وقدراتهم ورغباتهم ونزعاتهم، مما يصعب معه الزامهم بموجبات التكليف.

والرسول ﷺ يقول:

- رفع القلم عن ثلاثة: عن النائم حتى يستيقظ، وعن الصبي حتى يحتلم، وعن المجنون حتى يعقل[1].

- **العقـل:**

محاسبة الإنسان وتحميله نتائج تصرفاته، يقتضي أن يكون قادراً على التمييز بين الخطأ والصواب، والنافع والضار، والحق والباطل، وإجراء المقارنة والموازنة والترجيح ثم الاختيار، وهذا كله مردّه للعقل، وفاقد العقل لا يستطيع شيئاً منه، لذلك لا يجوز تحميل المسؤولية لفاقد العقل.

والرسول ﷺ أعفى من الالتزام فاقد العقل ـ بالحديث السابق ـ حتى يعقل، ومن باب أولى أن يكون الالزام في الحدود ذاتها، فلا يقرّ العدل محاسبة إنسان عن تصرّف لا يعقله.

- **النيّـة:**

النيّة هي التي تحدد قصدية التصرّف، ومن ثمّ المسؤولية عنه، أما إذا كانت النيّة غير واردة، والفعل صادراً عن غير قصد، فلا مسؤولية، ومثال ذلك: إن من يشرب الخمر عامداً يجلد، ولكن إذا وضع له في علبة عصير عنب أو تفاح وشربه على أنه

---

(١) رواه أبو داود والترمذي.

أحدهما فلا حدّ عليه، ومن سرق يقطع، ولكن من أخذ متاعاً مشابها لمتاعه ظناً منه أنه خاصّته فلا حد عليه وهكذا.

والرسول ﷺ يؤكد على ذلك في الحديث المشهور:

- «إنما الأعمال بالنيّات، وإنما لكل امرىء ما نوى»(١).

- **الحـرّية:**

المسؤولية متعلقة بإرادة حرّة، أما الإرادة المصادرة بالإكراه أو التهديد أو التعذيب ... الخ أو بتسلط قوة لا يمكن دفعها فلا مسؤولية عليها. فالمدين مسؤول عن الوفاء بالدين إذا كان حرّاً، أما إذا كان معتقلاً وحريته معطلة، فأنّى له أن يفي به؟، لذلك تكف المسؤولية عن فاقد الحرّيّة حتى يستعيدها.

- **القدرة:**

والمسؤولية تتطلب قدرة للنهوض بها، وانتفاء القدرة ينفي إمكانية القيام بالمسؤولية، ولذلك تكف المسؤولية ما دامت القدرة معطلة، فرب الأسرة تترتب عليه مسؤولية الإنفاق على أسرته، ولكن إذا أصيب إصابة معجزة أفقدته القدرة على ممارسة أي عمل أو نشاط يكتسب منه، انتفت هذه المسؤولية، وأحيلت إلى جهة أخرى كالدولة والمجتمع، وهكذا.

ومما سبق يتضح أن الإسلام يتبع أوثق مقومات العدل في تحديد المسؤولية، فلا مسؤولية على المسلم ـ التزاما أو إلزاما ـ إلا إذا كان بالغاً عاقلاً قاصداً حرّاً قادراً.

٣- تكامل المسؤولية في الإسلام:

لا ينظر الإسلام إلى المسؤولية على أساس كونها جزراً منفصلة عن بعضها البعض، وإنما على أساس كونها كلاً متكاملاً في دوائر متداخلة موحّدة المركز، مختلفة الأقطار، فإذا أخذنا موضوعاً كموضوع تحقيق الأمن، لا يتسنى لنا تحقيقه إذا تركزت مسؤولية تحقيقه في جهة مركزية واحدة كوزارة الداخلية، وإنما يتحقق

(١) رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

بكون كل مواطن وكل مركز قوة في الوطن مسؤولاً عن تحقيقه، فالفرد في أسرته والتاجر في متجره والمزارع في مزرعته، والجندي في موقعه يعتبر مسؤولاً عن الأمن، ومعنياً بالتعاون مع السلطات الأمنية في تحقيقه، وبهذا يصبح المجتمع كله مسؤولاً عن الأمن ولا تحصر المهمة في أعداد محدودة من رجال الأمن. وهكذا بالنسبة لكل شأن من شؤون المجتمع.

لذلك يؤكد الإسلام على تداخل المسؤولية وتكاملها وترابطها في المجتمع الإسلامي، فلا انفصال بين مسؤولية ومسؤولية، فالفرد مسؤول عن ذاته وعن الجماعة، والجماعة مسؤولة عن نفسها وعن الفرد، وفيما يأتي بيان ذلك.

٣/ ١ : المسؤولية الفردية:

الفردالإنسانيّ خلق وحده، ويموت وحده، ويبعث وحده، ويحاسب وحده، وعليه مسؤوليات متعلقه بوجود الفردي، يحاسب عليها أمام خالقة، وأمام الناس، فمن أحسن فله الحسنى ومن أساء فله السوء.

ولكن الإنسان لا يقطع رحلة الحياة وحيداً، وإنما متعاوناً ومتفاعلاً مع الآخرين، ولا تستقيم له حياة إلا إذا استقامت حياتهم، فهو قد يمنع نفسه من الفساد ولكنه لا يستطيع منع الآخرين منه، ولن ينعم قط بأجواء الصلاح إذا فسد من حوله، لذلك تمتد مسؤوليته لتشمل إصلاح الآخرين، بما يهيء له ولهم حياة حرّة كريمة صالحة للجميع. وعلى ذلك تتفرع المسؤولية الفرديّة إلى مسؤولية عن النفس، ومسؤولية عن الغير.

- المسؤولية عن النفس:

تتناول هذه المسؤولية تكليف الفرد بالنهوض بذاته بتكامل مكوناتها ـ المادية والمعنوية ـ ومن ذلك:

* **المسؤولية الدينيّة**: بتفهم الإسلام ـ عقائد وعبادات، ومعاملات ـ وأوامر الله تعالى ونواهيه، وأوامر الرسول ﷺ ونواهيه، والزام نفسه باتباع كل ما أمر الله ورسوله به واجتناب ما نهيا عنه.

* **المسؤولية الخلقية**: بالتزام أخلاق الصلاح التي أمر بها الإسلام، وضبط سلوكه وفقاً لها، وضبط حوافزه ودوافعه ورغباته وأهوائه ونزعاته وعواطفه وانفعالاته بالتوافق معها.

* **المسؤولية الصحية**: بالعمل والكسب لتوفير الغذاء الصحي والمسكن الصحي والملبس وغيره لذاته، والنأي عن كل ما يضير بصحته الجسمية والعقلية والنفسية من المحرّمات، والمبادرة إلى علاج أي حالة مرضية تلمّ به.

* **المسؤولية العلمية**: بأن ينفي عنه معالم الجهل، ويسعى لاكتساب العلم والمعرفة فيما يصلح نفسه ودينه ومقومات حياته، ويؤهله للتصدي لتحديات الحياة، ومواجهة مشكلاتها.

* **المسؤولية التقويمية**: بأن يحاسب نفسه بين الحين والحين، ليعرف أي نواحي قصور تعرض لها فيتلافاها، وأي نواحي تميز لتنميتها، وبذلك يتلافى الاخفاق في مسيرة حياته.

* **المسؤولية التنموية**: بتنمية ما آل إليه بالفطرة أو بالاكتساب من نواح مادية أو معنوية، ليواكب مستجدات الحياة، ويواجه متطلباتها.

والرسول ﷺ يؤكد على هذه المسؤولية عن النفس بصفة مستمرّة، لتحقيق صلاح الفرد الإنساني ـ ذاتياً ـ لأن في صلاحه، صلاح المجتمع ككل، والحياة بتكاملها فيقول:

- «لا تزول قدماً عبد يوم القيامة، حتى يسأل عن عمره فيم أفناه، وعن علمه فيم عمل به، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وعن جسمه فيم أبلاه»[١].

- «الكيّس من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنّى على الله الأماني»[٢].

- «لا يعذر الجاهل على الجهل، ولا يحلّ للجاهل أن يسكت على جهله»[٣].

---

(١) متفق عليه.

(٢) رواه الترمذي.

(٣) رواه الطبراني.

- «احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز»[١].

- **المسؤولية عن الغير:**

* **مسؤولية مباشرة:** بالقيام بالمسؤوليات التي تتعلّق به شخصياً، من رعاية الأسرة وحمايتها والانفاق عليها، والعناية بصحة أفرادها والتزامهم بدينهم، ومن رعاية الأقارب وذوي الأرحام، وعن راحة الجيران، وعمّا أوكله إليه المجتمع من عمل، والمحافظة على النظام العام، والمشاركة في كل ما يعود عليه وعلى مجتمعه وأمته بالخير.

* **مسؤولية غير مباشرة:** بأن يكون ذا تأثير إيجابي في صلاح المجتمع، بكونه قدوة لغيره، فعدالة القاضي، وأمانة التاجر، وإخلاص العالم، ووفاء الصديق، لها تأثير فعّال في الزام غيرهم بالصلاح، مقتدين بهم، وفي الوقت نفسه الدلالة على الخير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومقاومة الظلم، ومساندة العدل إلى غير ذلك:

والرسول ﷺ يربّي المسلمين على النهوض بمجتمعهم، واعتبار كل منهم مسؤولاً عما يدور في مجتمعه، والنهوض بهذه المسؤولية فيقول:

- «من دل على خير، فله أجر فاعله»[٢].

- «من دعا إلى هدى، كان له من الأجر مثل أجور من تبعه، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً»[٣].

- «الدين النصيحة، قلنا: لمن يا رسول الله؟ قال: لله، ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين وعامتهم»[٤].

٣/ ٢ : المسؤولية الجماعية:

- **مسؤولية الجماعة عن الفرد:**

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه مسلم وأبو داود.

(٣) رواه مسلم وأبو داود وابن ماجه.

(٤) رواه مسلم.

أي جماعة ما هي إلا مجموعة أفراد، وإذا تخلى عنها الأفراد انفرط عقدها، لذلك فإن فقدان أي فرد أو إصابته أو اعتلاله أو إعاقته، يفتّ في عضد الجماعة، مما يجعل التفكير الجمعي ينصب على حماية الأفراد ورعاية مصالحهم، سواء في ذلك مصالحهم المادية ـ التي سنتناولها فيما بعد ـ أو المعنوية.

والجماعة التي يضطهد فيها الفرد أو يقهر ويهان، أو تصادر حقوقه وتنتهك حرماته وتداس كرامته، يجب أن تضع في اعتبارها أنها ستفقده، عنصراً حيّاً عاملاً، لا محالة، وبالتالي ستعدم وجودها. لذلك تشكل الجماعة الواعية درعاً واقياً ضد أي اعتداء يوجه إلى أي فرد منها، وبذلك تستقيم أمورها، حيث تصبح قوة للفرد، كما يصبح الفرد قوة لها.

والرسول ﷺ يؤكد على الجماعة أن ترعى حق الفرد، وألا يهان فرد من المسلمين وسط جماعتهم أو يخاف أو يظلم إلى غير ذلك فيقول:

- «من أخاف مؤمناً، كان حقاً على الله ألا يؤمنه من أفزاع يوم القيامة»[١].

- «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره»[٢].

ويضرب الرسول ﷺ مثلاً لترابط مصير الجماعة مع مصير الفرد بقوله:

- «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم، مثل الجسد، إذا اشتكى منه عضو، تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى»[٣].

ويعني ذلك أن جماعة المؤمنين كل متكامل، لا صلاح لها إلا بصلاح جميع أعضائها، كما الجسم لا سلامة له إلا بسلامة جميع أعضائه، فإذا أصيب الفرد يجب أن تهب الجماعة كلها معه، كما يهب الجسد بكل أعضائه إذا اشتكى منه عضو.

أما ما وصلت إليه المجتمعات الإسلامية اليوم من اللامبالاة بما يصيب أفرادها من جوانح وويلات، وما يقع على بعضهم من ضيم وظلم وعدوان، فهذا ما يأباه الإسلام ولا يرضاه، وهو ممّا أدىّ إلى اندحاراتها المتتابعة وتخلّفها.

---

(١) رواه الطبراني.

(٢) رواه مسلم.

(٣) رواه البخاري.

- مسؤولية الجماعة عن الجماعة:

إنّ أيّ جماعة تتنصَل من واجباتها ومسؤولياتها تجاه إصلاح أوضاعها، وتسديد أمورها، تحكم على نفسها بالدّمار، وتصبح جميع مقدراتها وثرواتها ومقوماتها نهباً لكل ناهب، تستباح أوطانها ويقهر إنسانها، وتعمّها فتن لا تلحق أضرارها بمشعليها فقط، وإنما تحرق وجود الجماعة ككل، والله تعالى يقول: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾[1].

إن أضرار الكوارث والمحن والفتن، ليست انتقائية بحيث تصيب أهل الشرّ وتتلافى أهل الخير، وإنما تعمّ الجميع بدون استثناء، ومن هنا فإن الجماعة التي تحرص على كرامة وجودها يجب أن تحرس الصلاح بكل قواها وقدراتها فلا تسمح لباطل أن يتعمق، ولا لظلم أن يستشري، ولا لفتنة أن تعمّ.

لذلك فإن الإسلام يربط خيرية الأمة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾[2] والخطاب موجه للجماعة ككل.

والأمر بالمعروف يقصد تحقيق استمرارية مسيرة الأمة على منهج الحق والعدل والخير، الذي ارتضاه الله لهذه الأمة، والنهي عن المنكر، يستهدف حمايتها من التردي في حمأة الرذائل والمنكرات التي يأباها الدين، وتغضب الله ورسوله.

على هذا الأساس يأخذ الرسول الأمة الإسلامية بالوقوف في وجه المنكر ـ كل حسب قدراته ـ بحيث لا يعفي منه أحداً، بالحديث المشهور:

- من رأى منكم منكراً فليغيّره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان[3].

إن هذه المستويات الثلاثة، تضع كل فرد في جماعة المسلمين في دائرة المسؤولية، عن كل ما يفسد قوامة الحياة من أنواع المنكر وكما يأتي:

---

(١) الأنفال (٢٥).

(٢) آل عمران (١١٠).

(٣) رواه مسلم.

* **التغيير باليد**: ويعني إزالة عين المنكر بالقوة، وهذا ما يتيسّر لذوي المكانة والقدرة والنفوذ في المجتمع، من السلطات الرسمية والشعبية، وهذه بإمكانها إغلاق الخمارات والحيلولة دون تسرّب المخدرات، وممارسة الموبقات، وملاحقة ومعاقبة العابثين بالأمن والأخلاق وقيم الأمة، والضرب بشدّة على أيدي النعّاقين بالفتنة، والمخالفين لشرع الله.

ويشمل التغيير باليد إقامة الحدود، وتدعيم السلطات القضائية الإسلامية، لحماية المجتمع من المستهترين، بل وحماية هؤلاء من أنفسهم، وترهيب غيرهم من انتهاك حدود الله، بحيث يأمن كل فرد في المجتمع على نفسه وعرضه وماله وكرامته، ومن ثمّ تأمن الجماعة ككل.

* **التغيير باللسان**: وهو مرتبة ثانية أوسع من الأولى، حيث تستطيع كل جماعة في مجتمع حرّ، أن تعارض التصرفات بالكلمة، والرأي بالرأي، والفكر بالفكر، وأن تفعّل أدوار التوجيه والتثقيف والتربية والوعظ والإرشاد، وندب المتخصصين في فعالية الكلمة لهذه المهمة من العلماء والدعاة والمربين والأدباء والكتاب ورجال الإعلام والعلاقات العامة والاتصال الجماهيري.

ويزيد من فعالية التغيير باللسان، ترسيخ اتجاهات النقد والتقويم، وتنظيم اللقاءات والندوات والمحاضرات، لمناقشة أوضاع المجتمع، وتبادل الرأي حول نواحي الخلل والسوء والتدهور في أوضاع المجتمع بعامة، وابراز معارضة المجتمع للجنوح نحو الشرّ والمنكر.

* **التغيير بالقلب**: وهو ما لا يعفى منه فرد ولا تعفى منه جماعة، فالذين لا يستطيعون استخدام القوة لتغيير المنكر، أو استخدام الكلمة تجاه الغارقين في المنكر، يستطيعون انكار المنكر بقلوبهم، على أن يكون الانكار بالقلب إيجابياً وليس سلبياً، فمقصده التغيير ـ كما جاء في الحديث ـ وليس مجرد الشعور الخفي.

إن التغيير بالقلب يعني كراهية المنكر، ومقاطعة المقيمين عليه، وهجرانهم، وعدم التعامل معهم، أو احترامهم وتكريمهم وتقديرهم، أو مجالستهم وزيارتهم والتواصل معهم، بحيث يجدون انفسهم معزولين عن مجتمعهم، مما يجعلهم يعيدون النظر في مواقفهم.

إن الإسلام دين الصراحة والوضوح، لذلك فإن من يدّعي إنكار المنكر بقلبه، وفي الوقت نفسه، يصادق صاحبه ويتزاور معه، ويسانده في أعماله ويساعده، ويحترمه ويقدره، فهو مقرّ بالمنكر، مهادن له، بل ومساند ومساعد له، وإن ادعى أنه ينكره بقلبه.

والرسول ﷺ يربي المسلمين على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإذا جار السلطان فيجب أن يتصدى له من يأمره وينهاه، فإذا هو قتله فهو شهيد مع سيد الشهداء، ويقول:

- «سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب، ورجل قام إلى إمام جائر فنهاه فقتله»[1].

- وسئل ـ عليه السلام ـ عن أفضل الجهاد فقال: «كلمة حق عند سلطان جائر»[2].

ويؤكد الرسول ﷺ على اضطلاع الجماعة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيقول:

- «والذي نفسي بيده، لتأمرنّ بالمعروف ولتنهون عن المنكر، أو ليوشكنّ الله أن يبعث عليكم عذاباً منه، ثم تدعونه فلا يستجيب لكم»[3].

- «ما من قوم يعمل فيهم بالمعاصي، ثمّ يقدرون أن يغيّروا ثمّ لا يغيروا، إلا يوشك أن يعمّهم الله بعقاب»[4].

ويحذر من ممالاة أصحاب المنكر بقوله:

- «لما وقعت بنو إسرائيل في المعاصي، نهاهم علماؤهم فلم ينتهوا، فجالسوهم في مجالسهم، وواكلوهم وشاربوهم، فضرب الله قلوب بعضهم ببعض، ولعنهم على لسان داود وعيسى بن مريم، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . . .

---

(١) رواه الترمذي والحاكم.

(٢) رواه النسائي.

(٣) رواه الترمذي.

(٤) رواه أبو داود.

وجلس وكان متكئاً، فقال: لا والذي نفسي بيده، حتى تأطروهم على الحق أطراً»[١].

- «إن الله لا يعذّب العامّة بعمل الحاصّة، حتى تعمل الخاصة بعمل تقدر العامّة أن تغيّره فلا تغيّره، فذاك حين يأذن الله في هلاك العامة والخاصة»[٢].

(١) رواه ابن ماجه.

(٢) رواه الطبراني.

ثالثاً: خلاصة الفصل الثالث

إن المحاكمة الموضوعية للتربية الاجتماعية الإسلامية، بعيداً عن مضلّات الهوى والجهل والتبعية، وبمعزل عن مفرزات الأسر الثقافي الذي أحكمت أسواره حولنا الإرساليات المغرضة، وعن خطط التسيير الإعلامي المعادية، توضح لنا أن هذه التربية تحقق المثل الاجتماعي الأعلى، الذي بحثت عنه البشرية طويلاً ولم تجده، والذي لا زالت تفتقده، لتحقيق توافق اجتماعي إنساني كريم، يرسّخ إنسانية الإنسان، ويعلي كرامته.

إن الإسلام يصوغ البنيان الاجتماعي ببساطة تتوافق مع الفطرة الإنسانية القويمة، والنظرة الموضوعية السليمة، دونما عنت أو مشقّة أو ضياع في متاهات الفكر الفلسفي الضّفيقة، وإنما من التركيبة الخلقية الصافية النّقيّة للإنسان، التي تتعشق استرواح نسمات الحق والعدل والخير والحرية والمساواة والطهر والعفاف والفضيلة في جنبات حياتها، وتتطلع إلى أن تقطع رحلة الحياة الدنيا المحدودة كما أراد لها بارئها، زكية النفس، نقيّة الضمير، طاهرة الوجدان، محفوظة الحقوق والحريات، مصانة الذات والحرمات، لا تعتدي ولا تظلم ولا تجور، ولا يعتدى أو يجار عليها أو تظلم أو تقهر، وبذلك يعمها الرضا، وتظلها السعادة، وتشعر بكرامة الحياة، بمساواة يحميها العدل، وحرية تخصب فيها المدارك، وسكينة ترتقي فيها النفس، وإبداع في تعاون الغني والفقير، وتآزر القوي والضعيف وثقة بين الحاكم والمحكوم، في مسيرة واحدة نحو شرف الغاية . . . غاية الوجود.

والرسول الكريم ﷺ لسان الرسالة الإسلامية المعبر عنها بصدق وأمانة وتجرد واخلاص، يبيّن حدود هذه التربية الاجتماعية فيما يأتي:

- **البناء الاسري:**

يدرك الرسول ـ عليه السلام ـ أن الأسرة نواة المجتمع، لذلك يوليها اهتماماً مستحقاً في تربيته للمسلمين، تهتدي بهدي السماء، لتعالج واقع الناس على

الأرض، بأسلوب متفرّد بذاته، مستقلّ عمّا قبله، متميز عما بعده، ومن أهم ملامحه:

- لا أسرة بدون زواج شرعي معلن على الناس يراه القريب والبعيد، في وضح النهار، وليس علاقة آثمة خفيّة خائفة متوجّسة تتوارى تحت جنح الظلام في الليل البهيم، فهو نكاح يعتز به، لا سفاح يندى له الجبين.

- هذا الزواج لا ينعقد إلا بين زوجين بالغين عاقلين مميزين قادرين على النكاح، بناء على قصدية لا التواء فيها، معلنة أمام الجميع إيجاباً وقبولاً، دونما جبر أو قهر أو اكراه، معقودة النيّة على الديمومة والاستمرارية، وهما بكامل قواهما العقليّة، مما يسهم في ترسيخ التفاهم والتوافق والتقبل بينهما وهذا حريٌّ بإقامة حياة زوجية كفؤة مستقرة مطمئنة وبناء أسرة سعيدة، لا سيّما وأنه لا ينعقد بين إيمان وكفر، أو عفاف وإنحراف، ويتلافى القرابة القريبة ـ بالرضاعة أو النسب ـ لاشباع دافع حفظ النوع دونما تحرّج نفسي أو انكفاء عقلي.

- مثل هذا الزواج يجد فيه الزوج ضالته، كما تجد فيه الزوجة ضالّتها، بإشباع دوافع حفظ النوع جميعاً من خلال فيض الحب وظلال المودة، سواء في ذلك تحقيق الارتواء الجنسي وتهذيب الغريزة الجنسية وكفّ جموحها حتى أعلى درجات الرضا، أو بإشباع دافعي الأبوة والأمومة بإنجاب أطفال في أرقى حالات السكن النفسي، بطمأنينة كاملة إلى تواصل الأنساب، مما يعمق العواطف بين الأجيال، ويربطها برباط الثقة الممتد مع امتداد الآمال.

- وبالرغم من كل ذلك لا تترك الحياة الزوجية لتقلبات أهواء كل من الزوجين، وإنما تحدد الحقوق وما يترتب عليها من واجبات بشكل واضح، وفي كل حق للزوج على زوجته نصوص خلدتها سنة المصطفى ﷺ كما أن للزوجة حقوقاً مقابلة قد يكون التشديد فيها لصالحها لأنها الجهة الأضعف، وما من حق أو واجب لكل من الزوجين أو عليه إلا ويمثل قمة العدل وذروة الحق، ومعين الطهر والعفة والنظافة.

- وإذا ما جاء الأبناء يوماً ـ بإذن الله ـ وتفتّح وعيهم على البيئة الأسرية التي تحتضنهم وجدوا كل ما يرتقي بمقومات المخلوق الإنساني المادية والمعنوية،

وتلقفتهم أيد أمينة برفق وحدب وحنان ورحمة ومحبّة، تتولى اعدادهم للحياة ـ ديناً ودنيا ـ في معتقداتهم وثقافتهم وصحتهم وسويتهم النفسية، تحوطهم بالاحترام وتتولاهم بالتقدير، وتأخذ بأيديهم نحو بوابة الحياة العامة بعلم ووعي وحيطة حذر، وترتب ولوجهم الآمن في دهاليزها حتى تتعمق الطمأنينة عليهم ولهم.

- البناء الاجتماعي:

هذه الأسر التي يتمّ بناؤها وإنشاؤها على أسس قويمة سليمة واعية متينة، لا تحقق نفعاً، ولا تدفع ضرراً إذا عاشت كل منها منفصلة عن الأخرى، لذلك كان لا بدّ من ربطها جميعاً بوساطة نسيج اجتماعي يحتضن كل أسرة منها، ويجمع كل قواها في مجرى واحد يصب في مصب واحد وهو بناء الأمة وتحقيق خيريّتها، وقد وضع الإسلام أربعة أسس لتحقيق التلاحم الاجتماعي بين فئات المسلمين، لينبثق عنها مجتمع متكامل يمثل خير أمة أخرجت للناس.

وقد رعى الرسول الكريم إقامة هذه الأسس على أرض الواقع، وبناء المجتمع عليها كالآتي:

- عقد الأخوة:

حيث جعل أصل الترابط يقوم على أخوة في الدين مخلصة لرب العالمين، وتم الإخاء كما سبق بيانه، اذن فالترابط أساسه الأخوة، التي لا يجوز أن ترسى إلا على الود والمحبّة والتقبل والتوافق والتفاهم والتعاضد والتعاون والتآزر . . . الخ فلا تباغض ولا تحاسد ولا عداء ولا تفاخر بالأنساب، ولا تعالي بالطبقات فبوتقة الأخوة صهرت الجميع، وغدا الولاء كل الولاء للعقيدة، وليس للقبيلة، وللحق والعدل والخير، وليس للمنفعة والمصلحة ومضلّات الهوى.

بذلك تم الدمج ضمن الجسد الاجتماعي الواحد، الذي يحدثنا عنه التاريخ، وذابت على حرارة الايمان ووهج العقيدة فوارق الحسب والنسب والجنس والمال والسلطان، فالكل إخوة، لا فرديّة تطغى ولا أثرة تسفّ ولا خصومة تكيد، وإنما تنافس في الخير، وتعاون على البر، وتفاضل بالتقوى.

- **التمايز الاجتماعي:**

هذا المجتمع له مقوماته وله أهدافه وغاياته، وله مفاهيمه ومعتقداته وتصوراته، لا يجوز أن يذوب في غيره، ويجب أن يبقى متميزاً بذاته، ليعلّم الأحياء كيف تكون كرامة الحياة، وهذا يعني أنه لا تقليد ولا تبعية ولا انضواء تحت راية غير رايته.

وتمايز المجتمع عمن سواه يعني الاستقلالية الموضوعية، غايته إعلان كلمة الله، وحمل أمانة العلم، وقيادة مسارات الحضارة، ليقهر الظلام بالنور، والضلال بالهدى، والفساد بالصلاح، وينقذ الإنسان بالإنسان من ظلم الإنسان، ويؤمن المناعة من كل شرّ، والوقاية من كل خطر، ليستمر انطلاق موكب البشرية في دروب الحياة بكفاية وقدرة وفاعلية، يسوده الوئام، ويظله السلام، ليسعد أبناء الأرض بهدي السماء.

- **الوحدة:**

ومن هذا المجتمع تتكون أمة، أمة واحدة، موحدة العقيدة والمفاهيم، موحدة الدولة والحكومة والأرض والشعب، موحدة النظام والصف والمواقف، موحدة الدستور والأهداف والغايات، موحدة الولاء والانتماء، مما يعني السعي المشترك وتوافق المنطلق، فلا فرقة ولا تمزق ولا عداء، ولا انفصالية ولا تآمر ولا استئثار، وإنما أسرة واحدة كبيرة ممتدة.

وبذلك تستطيع هذه الأمة أن تبني وتعلي وتسهم في حركة الحضارة الإنسانية، وأن تسود وتقود، تحمي شعبها، وتذود عن كرامة الإنسان في كل مكان، تبلغ رسالة الحق، وتحمل أمانة العدل، وتعلن كلمة الله، لبناء الحياة الفاضلة لبني الإنسان.

- **الانفتاح:**

وتتعاون هذه الأمة مع من سواها من الأمم بعقلية منفتحة لتقيم معها عالماً يسوده السلام، ويرتقي ابناؤه مدارج الحضارة، بلا نزعات تسلطية، ولا نزاعات اقليمية، لتصبح الأرض وطناً مشاعاً لبني الإنسان، يستظل دوحة المساواة، وينعم في ظلالها بالعدل والانصاف، وتجري المعاملات على أساس من النديّة لا التبعيّة،

والاحترام المتبادل، لا التطاول والاستبداد، بلا غزو ولا اعتداء ولا قهر، ولا عصبية وطنية أو نعرات اقليمية، ولا اكراه في الدين، مما ينفي الجهالة ويقضي على الضلالة، ويؤهل الإنسان للاستخلاف في الأرض.

- الترابط الاجتماعي:

وكي يصل المجتمع إلى المستوى المرموق، لا بدّ من أن تقوم علاقات أبنائه على أسس ثابتة متينة، لا يعتريها وهن مهما تطاولت الأيام وهذا ما أراده الإسلام.

وقد عمل الرسول ﷺ على تصميم شبكة العلاقات، بحيث تغطي كل مساحة اجتماعية بأكرم العلاقات وأنزهها وأقواها: علاقة قرابة تنتشر على كل مساحة يشغلها المجتمع، وعلاقة رحم تتداخل بين مكونات القرابة، وعلاقة جوار لا تبقي كائناً إنسانياً لا تدخله في شبكة العلاقات، وعلاقات نوعية مع الفئات المصابة أو المحرومة، وبذلك لا ينّد مخلوق في المجتمع عن الارتباط بالكل الاجتماعي المتكامل، فلا فقير ولا محروم، ولا ضعيف ولا مظلوم، ولا بغي قوي أو بخل غني أو ظلم متسلط أو حكم مستبد، وإنما سلام ووئام، ومحبة ومودة وإخاء.

- المسؤولية الاجتماعية:

وتناط مسؤولية المحافظة على قيم المجتمع، وكل جزيئية بنيويّة فيه، بكل فرد وكل جماعة وكل سلطة في المجتمع، وتأخذ المسؤولية تفرع الشبكة الاجتماعية ذاتها، فالفرد مسؤول عن نفسه وعن الجماعة، والجماعة مسؤولة عن الجماعة وعن الفرد والدولة مسؤولة عن الجميع، والمسؤوليات محددة بأسلوب حصري، ومصادرها موثقة بأسلوب موضوعي، بمسؤوليات مباشرة وغير مباشرة، بأسلوب تتابعي يفعّلها التزام كل مسؤول بمسؤولياته بلا تفريط في حق ولا تقصير في واجب، والزام من قبل السلطات لكل من يندّ عن الالتزام.

هذا هو التنظيم الاجتماعي الإسلامي، الذي تتسق فيه المفاهيم مع المعتقدات، والذي يجعل الدين الروح التي تحيا بها الدنيا، فلا تسير إلا بوحيه، ولا تتحرك إلا بهديه، متشوّفة إلى الأفق البعيد والسمت العالي في كل وقائع الحياة، بما يحرر الإنسان بجملته ويحقق إنسانيته العليا، من خلال عمق الإيمان وطهر الوجدان.



الفصل الرابع

التربية الخلقيّة



أولًا: الأخلاق والبناء الاجتماعي

أ- الأخلاق والتوافق الاجتماعي

التكامل صبغة الاجتماع البشري، فالفرد كلّ متكامل بذاته، وفي الوقت نفسه يكمّل غيره من أفراد مجتمعه ويتكامل معهم، والأسرة كل متكامل بذاتها، ولكنها تكمّل غيرها وتتكامل معه، والمجتمع كل متكامل بذاته ويكمل أمته ويتكامل معها، والأمة كلّ متكامل وتتكامل مع غيرها، فما من إنسان يستطيع أن يقطع رحلة الحياة وحيدا ومثله الأسرة والمجتمع بل والأمة، ومن هنا برزت أهميّة التوافق الاجتماعي في المفاهيم العامة والتصورات والأخلاق والسلوكيات، ليقوم تواصل الناس مع بعضهم البعض على أساس من القبول والتفهم والرضا والاقتناع.

إن استمرارية رحلة الحياة بكفاية وقدرة وموضوعية تتطلب تعاون وتفاعل وتآزر المكونات المجتمعية في معظم ـ إن لم يكن جميع ـ نشاطات الحياة وفعالياتها، فلا غنى لفرد عن فرد ولا لأسرة عن أسرة ولا لمجتمع عن مجتمع ولا لأمة عن أمة، وإذا لم يتم هذا التعاون هبطت فعاليات الحياة إلى أدنى مستوياتها إن لم تخمد نهائياً.

ولكن تعاون الناس وتفاعلهم وتوافقهم وتواصلهم لا يتم عشوائيا، بحيث يركب كل هواه، وإنّما لا بد من وجود قيم مقنّنة تحكم ذلك، ولعل عدم الاصطلاح على هذه القيم هو السبب الرئيس في استشراء الخلافات والمنازعات ونشوب الحروب بين الأمم والمجتمعات، والصدامات المستمرة بين الأسر والأفراد، فكل يرى أن موقفه هو الحق وموقف غيره هو الباطل، ولا بدّ من التصادم بين هذين النقيضين.

لذلك بحثت البشرية منذ أيامها الأولى عن أسس لبناء هذه القيم العليا، يصطلح عليها الجميع بحيث تحكم توافقهم وتعاملهم وتواصلهم ومن ثم تعاونهم وتآزرهم، ساعية إلى جعل هذه القيم مثلاً أعلى يلتزمه الجميع، ويتضح ذلك فيما يأتي:

١ - المثل الأخلاقي الأعلى:

أدرك العلماء والمصلحون مذ وجدوا أن عدم التوافق الاجتماعي هو السبب الرئيس في تردي تحضّر الأمم ورقيها وتقدمها، ذلك لأنّه منفذ الخلافات والعداء والتنابذ والاقتتال، التي تهدم كل ما يبنون، فأخذوا يبحثون عن معايير للقيم يمكن أن يحتكم إليها جميع الناس في وزن تصرفاتهم وسلوكياتهم، وتوصلوا إلى معايير ثلاثة وهي: الحق والعدل والخير، فكل تصرف يلتزم الحق، ويراعي العدل، ويقصد الخير، يجب أن يكون مقبولاً اجتماعيا، ويمثل عليا القيم التي يجب أن يتمسك بها الناس، ويتواصلوا على أساس منها.

إلا أن تطبيق هذه المعايير على أرض الواقع أسهم في تمزيق اللحمة الاجتماعية بدلاً من تمتين نسيجها، فما يراه هذا أو هؤلاء حقا مطلقا لا مراء فيه، يراه غيرهم باطلا محضا لا لقاء عليه، وما يراه هؤلاء عدلا خالصا لا ظلم فيه يراه أولئك ظلما فادحاً لا يمكن التسليم به، وعلى سبيل المثال:

- يرى معظم بني البشر أن المساواة بين الأجناس حق وعدل وخير، فبرزت الصهيونية والفاشيّة والنازّية وغيرها لتؤكد أن المساواة غبن بيّن وظلم فادح، فشعوبها أرقى وأكفأ وأوعى ممن سواها، ومساواتها بغيرها باطل يجب مقاومته بالحديد والنار، فاعتمدت مفهوم التميّز العنصري والتمييز العنصري وهكذا بذرت بذور العداء بين الناس والأجناس.

- ويرى كل عاقل أن قتل إنسان بريء دون ذنب اقترفه أو جرم ارتكبه ظلم لا يعدله ظلم، إلا أن الهنود يرون أن حرق المرأة وهي حيّة في نيران زوجها الميت عدل، كما كان يرى عرب الجاهلية وأد البنات أحياء عدلا.

- ويجمع عقلاء بني البشر على أن الانسان حرّ مختار، لذلك يترك لكل مجتمع اختيار النظم والايدولوجيات والمفاهيم التي يراها أصلح لنموّه الاجتماعي، ولكن الاستعمار الأوروبي أباد ملايين البشر وشعوبا كاملة، بقصدية نشر رسالة الرجل الأبيض - كما يدّعون -.

وانطبق الخلاف والاختلاف على مفردات القيم، كالربا والغش والرشوة والزنا واللواط والقتل.. إلخ لذلك فشلت كل الجهود في وضع قيم عامّة يلتزم بها جميع

الناس ـ أفرادهم وشعوبهم ـ وأخذ كل شعب يضع لنفسه مثلاً أخلاقياً أعلى، بغض النظر عن قبول الشعوب الأخرى به أو عدم قبولها، وأصبح لزاماً على من يتعامل مع مجتمع ما أن يلتزم بقيمه، وحتى الايدلوجيات الفكرية السائدة، لم تستطع أن تضع لنفسها مثلا أعلى محددا يلتزمه من يتبناها، فالمثل الأعلى الرأسمالي في الولايات المتحدة غيره في اليابان ودول العالم الثالث، والشيوعي في روسيا غيره في الصين وكوبا وغيرهما، وهكذا.

أما الزامية المثل الأعلى الخاص بكل مجتمع فأخذت أسلوبين:

- التقنين لمفردات كل قيمة من القيم بقوانين حتمية الالتزام مقرونة بعقوبات محددة لغير الملتزمين وتختلف العقوبات من قانون بلد إلى قانون بلد آخر.

- حشد الرأي العام في اتجاه القيم المعتمدة والأخلاق والسلوكيات التي تمثلها، بحيث يأبى ما تأباه ويرضى ما ترضاه.

وهكذا تحولت القيم والأخلاق إلى الخصوصية بدلاً من العمومية، وإن كانت بقيت بعضها عامة تستقطب اقتناع أغلبية بني الانسان بها.

٢- المثل الاسلامي الأخلاقي الأعلى:

ينطلق الاسلام ـ كما تكرر القول ـ من أن هناك خالقاً قديراً هو الذي خلق الكون بكل ما فيه ومن فيه، وأنه ـ سبحانه ـ خلق الإنسان واستخلفه في كوكب الأرض بناء على عهد استخلاف موحى به من لدنه ـ جل وعلا ـ وهو شريعته، التي أوحى بها إلى أنبيائه ورسله، وختمتها الشريعة الاسلامية الخاتمة، التي تتضمن هدي الله ـ جلّ شأنه ـ في إدارة حركة الحياة الدنيا، ليقطعها الانسان بإيمان واطمئنان، وينتقل إلى الحياة الأخرى بسلامة وأمان.

لذلك فإن المثل الأخلاقي الاسلامي الأعلى ليس وليد اجتهادات البشر، وإنما هو ما ارتضاه ربّ البشر للبشر. فيقول ـ تعالى ـ: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[1].

---

(١) الروم (٢٧).

والمثل الأعلى الإلهي شامل لكل مفردات أمور الحياة وشؤونها ومنها القيم والأخلاق، ولذلك لم يستنفذ المسلمون جهودهم باحثين عن مثل أخلاقي أعلى، فإقرار ما هو مثالي يتضمّنه الشرع القويم.

ومن المعروف أن القيم الأخلاقية ليست وليدة الإسلام، فقد كان كثير منها موجوداً ـ بشكل أو بآخر ـ قبل الإسلام، ولذلك يقول الرسول الكريم:

- «إنّما بعثت لأتمّم مكارم الأخلاق»[١].

والتحديد بالتّتميم يوضح أن هناك موجوداً يعتريه بعض النقص، مما يتطلب تتميمه، وهذا ما أداه الإسلام للأخلاق، نقلها من الخصوصية إلى العمومية ومن التّوقيت إلى التّأبيد، فالربا والغش والظّلم.. إلخ محرمات أبدية، مهما تطور الإنسان وتغيّر الزمان وتبدّل المكان، لكل شعب وكل فرد وكل أمة، ومن النسبية إلى الشمولية، فالقاتل العامد يقتل سواء أكان ملكا أو سوقة، قويا أو ضعيفا، غنيا أو فقيراً... إلخ.

ب- الأخلاق والرقيّ الاجتماعي

الرقي الاجتماعي لا يهبط من أجواز الفضاء، ولا ينبع من أعماق الأرض، وإنّما هو وليد فكر وجهد وسعي وإبداع بشري، وكل رقي لأي مجتمع إنّما يعزى لأبنائه، كما أن كل تخلف له يعزى إليهم، وما نهض مجتمع يوما إلا بنهضة أفراده وفعاليّاتهم.

وفعاليات الأفراد لها مقوماها: المادي والمعنوي، ولما كانت المقومات المادية يمكن توفيرها فإن المقومات المعنوية للنهوض والرقي والتحضر هي التي تستقطب اهتمام المصلحين، وفعاليات المقومات المعنوية من إيمان بالهدف والغاية، وإعمال فكر وعقل وقوى مدركة، واستخدام كل ما وهب الله تعالى للإنسان من طاقات وقدرات ومواهب وملكات، تبقى غير ذات جدوى أو محدودة الجدوى بدون التميز بمكارم الأخلاق وعليا الفضائل.

---

(١) رواه البخاري.

والرقي الاجتماعي لا يتأتى من جهود مبعثرة ممزقة متضاربة، وإنما بتكاتف كل الجهود والعمل بروح الفريق في كل حقل يخطط المجتمع أن يرقى فيه، والعمل بروح الفريق، يتطلب أول ما يتطلب توافق أفراد الفريق وتفاهمهم وتقبلهم لبعضهم البعض وتعاونهم، مما يؤكد على توافر الثقة المتبادلة والاحترام المتبادل والتقدير المتبادل فيما بينهم، ليعملوا برضا وطمأنينة وهدوء نفس، ممّا يمكنهم من أن يبدعوا بعيدا عن القلق والتوتر، فهم في حاجة إلى صفاء الذهن، واستقرار العقل، وطمأنينة النفس لتحقيق ذلك وهذا ما لا يمكن أن يتوافر لهم إلا إذا كان الجميع على مستوى راق من الأخلاق النبيلة.

إن الإنسان العادي بحكم تكوينه العامّ لا سيما نسيجه النفسي، يود أن يسهم في رقي وطنه ومجتمعه وأمته، ويود أن يعمل لذلك متآلفا مع غيره، ولكنه يودّ أن يتآلف الآخرون معه، فيحترم ويُحترم، ويقدر ويُقدر، ويعين ويُعان وهكذا، والرسول الكريم ﷺ يقول:

- «المؤمن إلف مألوف ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف»(١).

إلا أن هذا التآلف يحتّم أن تسود مكارم الأخلاق، فلا تآلف بين محاسنها ومساوئها، فالأضداد الأخلاقية مكمن تنافر لا تجاذب، واختلاف لا ائتلاف.

لذلك كله يعتبر أصحاب الأخلاق الكريمة أهم دعائم رقي الأمم ونهضتها وبناء حضارتها لأن الأخلاق الفاضلة الجليلة هي سبيل الثقة والألفة والمحبة والتوافق والتّواؤم والتفاهم والتعاون بين الناس، ومن ثمّ سبيل الانجاز والانتاج والابداع والابتكار والاتقان في كل عمل، ومن هنا قيل: «لا سبيل لرقي أمة ما لم ترق أخلاق أبنائها»، فرقي الأخلاق هو الذي يرتقي بمقومات الحياة على الأرض والارتقاء معها.

(١) رواه أحمد والطبراني والحاكم.

ثانياً: مقومات الأخلاق الإسلامية

ثوابت مفردات القيم الأخلاقية في الاسلام حدّية وليست اختياريّة، بمعنى أن كل خلق كريم أكد الشرع الاسلامي على التزامه ـ في الكتاب أو السنّة ـ واجب الالتزام من كل مسلم، وكل خلق أمر الشرع باجتنابه واجب الاجتناب من كل مسلم، ولا اجتهاد مطلقا في موضع النص، وبذلك لم يستهلك المسلمون أوقاتهم ولم يكدّوا أذهانهم بحثا عن المثل الأخلاقي الاسلامي الأعلى، فهذا المثل منزل من الله تعالى.

وبالرغم من أن الإسلام أخذ بالتصنيف العام الذي عرفته البشرية بشأن تصنيف الأخلاق إلى خيّرة وشريره أو حسنة وسيّئة أو إيجابيّة وسلبيّة، إلا أنه صنفها وفق المستويات النوعية للملتزمين بالأخلاق وكالآتي:

أ- تصنيف الأخلاق في الإسلام

تصنف الأخلاق في الإسلام إلى ثلاثة أصناف، وفق نوعية المتخلقين بها وهي:

١ - أخلاق الإيمان:

هذه النوعية من الأخلاق هي التي يتخلق بها من آمن بالله ربا وبمحمد نبيا وبالإسلام دينا، وبكل مشتملات الرسالة الاسلامية فهؤلاء هم الذين يتميز موقفهم الحياتي بالوضوح التام معلنين التزامهم بالكتاب والسنة، وما حدداه من أخلاق ومن ذلك:

- الصدق والصبر، والأمانة والعدل، والحق والخير، والوفاء والايثار، والاستقامة والاخلاص والثبات والتضحية والعطف والرحمة، والعفّة والطهر، والكرم والجود، والاحسان والبرّ، والحكمة والحلم، والرويّة والأناة، والصراحة والوضوح، واللين والتواضع، والاحترام والتوقير والتقدير.. إلخ فهذه كلها أخلاق

إيمانية، يجب على المؤمنين الالتزام بها. وتعتبر كل مضادات هذه الأخلاق مرفوضة إسلاميا، ويجب على كل مؤمن النأي عنها واجتنابها بل ومقاومتها ومن ذلك:

- الكذب والتزوير، والغش والغدر، والظلم والخيانة، والفسق والفجور، والأثرة والجشع، والغيبة والنميمة، والاثم والعدوان، والبخل والتقتير، إلى غير ذلك.

ومن الواضح بأن أخلاق الإيمان هي التي تحقّق عافية الحياة. وتؤدي إلى كرامتها، وإلى شعور الأحياء بالرضا والسعادة والأمن والطمأنينة والاستقرار، فما من عاقل من بني البشر يفضل الخيانة على الأمانة، ولا الغدر على الوفاء، ولا الانحراف على الاستقامة، وهكذا فإن أخلاق الإيمان هي التي تنتج تواؤم الإنسان مع نفسه، وتواؤمه مع بني جنسه.

والرسول ﷺ يسمي أخلاق الإيمان: «محاسن الأخلاق» ويسمى مضاداتها ونقائضها «مساوىء الأخلاق» ويأخذ المسلمين بتربية جادة للتخلق بمحاسن الأخلاق، لتصبح سجايا طبيعية لدى المسلمين، لا يصدرون إلا عنها، ولا يتعاملون إلا بها، فيقول ـ عليه السلام ـ:

- «ما من شيء أثقل في الميزان من خلق حسن»[(1)].

- «إن المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم»[(2)].

- «إن من أحبكم إليّ وأقربكم مني مجلسًا يوم القيامة، أحسنكم أخلاقا»[(3)].

٢- أخلاق الكفر:

الكافرون هم الذين يقفون موقفا واضحا صريحا أيضا، ولكن ضد الإيمان بالله وكتبه ورسله، وبذلك لا يؤمنون بأي هدي جاء في كتاب أو سنة، ولكنهم ـ كما يقولون ـ يحكّمون عقولهم فيرون أن الحياة مادّة، فلا إله ولا رسل، ولا بعث ولا

---

(١) رواه الترمذي وابن حبّان.

(٢) رواه الترمذي وأبو داود.

(٣) رواه الترمذي.

نشور ولا حساب ولا ثواب ولا عقاب، وإنما حياة أحادّية البعد، مآلها العدم الكلي والفناء الأبدي.

ومن الطبيعي أن يعيش هؤلاء لحياتهم الدنيا، يستغلون كل لحظة فيها من أجل الحصول على أقصى لذة ومتعة لاشباع نزعاتهم ونزواتهم، غير آبهين بمن سواهم، والمعيار الوحيد الذي يحتكمون إليه هو منافعهم ومصالحهم الذاتية. ولما كان القانون هو الحارس الوحيد على مكارم الأخلاق فهم يعرفون كيف يطوّعون القانون، ويتحايلون عليه، ويحيّدون فعالياته بشراء ذمم رجاله.

أمثال هؤلاء لا يتورعون ـ في سبيل تضخيم منافعهم ومكاسبهم المادية ـ عن الربا والغش والاحتكار، والكذب والتزوير والخيانة، والغدر والتنكيل والقتل، والافتراء والتضليل والتآمر، ما رأوا أن ذلك يحقق مصالحهم ومنافعهم.

وليس خافياً أن كل خلق سيء يعتبر ملازما لهذه النوعية من البشر، لذلك يعتبرون من الأسباب الرئيسة لتدمير الأمم والشعوب، بحرمانها من الأمن والاستقرار والطمأنينة وثقة أفرادها بعضهم ببعض، يدمّرون ويقتلون ويفتكون ويحرقون ويحتكرون ويغشون ويتآمرون ويخونون ويزورون ويفترون من أجل حفنة مال، وما تمارسه عصابات الجريمة المنظمة وغير المنظمة لا سيما المافيا التي غدت تسيطر على المجتمعات التي تعتبر نفسها متقدمة، وما تنشره وسائل الإعلام عن جرائمها، إلا غيضا من فيض جرائمهم اللاأخلاقية التي لم تدع مجالا من مجالات الحياة إلا أفسدته.

والإسلام يرفض كل سلبيات الأخلاق التي يتخلق بها هؤلاء، ويعتبرها الرسول الكريم مساوىء الأخلاق، التي لا يجوز لمسلم أن يتخلق بها، لذلك ينهى في عديد من الأحاديث عن سوء الخلق، ليصبح محل رفض من جميع المسلمين، فيقول:

- «ما من ذنب أعظم عند الله من سوء خلق، وذلك أن صاحبه لا يخرج من ذنب إلا وقع في ذنب»[١].

- «إن أبغضكم إليّ وأبعدكم مني مجلسًا يوم القيامة أسوأكم أخلاقا»[٢].

(١) رواه الأصبهاني.

(٢) رواه أحمد والطبراني وابن حبان.

٣- أخلاق النفاق:

المؤمنون لهم موقف محدد واضح صريح بشأن الإسلام، فهم يؤمنون بالله ورسوله وكل ما جاء من عند الله، وما أمر به الرسول أو نهى عنه، وهم يعلنون إيمانهم صراحة دونما لف أو دوران أو مواربة.

والكافرون لهم موقف محدد واضح وصريح رافض للإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر ويعلنون ذلك أيضاً بصراحة ووضوح دونما مواربة أو خداع أو تعمية.

وهناك فئة ثالثة لا وضوح في مواقفها ولا صراحة، فلا يستطيع أحد أن يجزم بإيمان أفرادها أو أن يجزم بكفرهم، فهم يقفون مواقف غامضة تقوم على التعمية والتضليل والخداع والمراوغة، وهؤلاء هم المنافقون الذين لا يخلو منهم مجتمع من المجتمعات.

والمنافقون ممن فقدوا احترامهم لذواتهم، وإنسانية الإنسان في أعماقهم، ورجولة الرجال في تصرفاتهم، لا جرأة ولا شجاعة ولا مروءة ولا نخوة في وضح النهار، وإنما يخضعون ويتملقون ويداهنون أمام الحاجة ويخنعون ويجبنون ويرتعدون أمام القوّة، وينكمشون ويذلون ويستكينون أمام الإهانة، وفي الوقت نفسه يتآمرون ويفسدون ويدمرون في دامس الليل، وكل مواقفهم زئبقية لا يستطيع أحد إمساكها، فهم يقولون ما لا يعتقدون، ويعلنون ما لا يسرّون، ويظهرون ما لا يضمرون يعاهدون في العلن ويغدرون في السرّ.

والنفاق كما هو معروف نوعان:

- **نفاق عقائدي**، بأن يعلن المنافق باللسان إيمانه بالله ورسوله وهو يضمر الكفر، ويصرّح بمساندته للإسلام وأهله وهو يضمر العداء والبغض والكراهية للإسلام والمسلمين، ولا يتورع عن مساندة أعداء الإسلام بكل أسلوب متاح، وهؤلاء هم الذين يقول الله تعالى فيهم: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾[١]

(١) النساء (١٤٥).

وهذا النوع من المنافقين مكمن كل شرّ وموطن كل داء، وما عانت الأمم في تاريخها الطويل على مرّ العصور والدهور أكثر مما عانت من هؤلاء، وما تفتّقت عنه عقولهم المنحرفة، التي لا تستثيرها كرامة ولا ترتقي بها مكرمة.

نفاق أخلاقي وسلوكي: بأن يقسم المنافق بأغلظ الأيمان بأنه صادق وهو كاذب، أو أن يفي بما عاهد عليه ويغدر، أو أن يخلص للوطن ويخونه.. إلخ ومراكب هؤلاء هي أسوأ مساوىء الأخلاق، من كذب وغش وغدر وانحراف وفجور فهم وإن آمنوا ووقر الإيمان في قلوبهم لم يصدّقه العمل، ولم يترجمه السلوك، ولم تتقيّد به التصرفات.

وفي هؤلاء يقول الرسول الكريم محذرا المسلمين:

«أربع من كنّ فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه خصلة منهن، كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا اؤتمن خان، وإذا حدّث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر»[١].

ب- مميزات الأخلاق الاسلامية

للمسلمين أخلاق معهودة هي أخلاق الإيمان التي سبق ذكرها، ولكن هذه الأخلاق ليست قصراً على المسلمين، فهناك كثير من غير المسلمين من يتمسكون بمكارم الأخلاق، فكم من كريم أو صادق أو أمين أو وفي ممن لم يسمع بالإسلام فهل يستويان؟ بالحتميّة لا، فهناك مميزات تميز خلقا عن خلق وترتقي به وتسمو وتعظم وإن تساويا في النوع، والأخلاق الاسلامية قد حوت هذه المميزات والتي أهمها:

١ - سمو الغاية:

يهتف المسلمون في مختلف المناسبات قائلين: «الله غايتنا»، والمقصد من ذلك هو: إننا إن تعبّدنا أو تصّدقنا أو جاهدنا أو.. فإن غايتنا القصوى التي نرمي إليها هي رضا الله ـ جل في علاه ـ.

---

(١) رواه البخاري.

وما من قول أو عمل أو تصرف يقوم به الإنسان إلا وله غاية ـ أعلنت أم لم تعلن ـ ولما كان التخلق بأي خلق له غاية يسعى إلى تحقيقها، فإن الغاية التي يستلهمها كل مسلم في التمسك بمكارم الأخلاق، غاية سامية نبيلة جليلة قوامها رضا الله ورسوله، مما يجعل التصرف الأخلاقي متفاعلا متداخلا، متوائما ومتوافقا مع هذه الغاية.

في مجال الكرم ـ وهو خلق محمود لدى كل الناس ـ نجد من يجود بما تسمح به نفسه، ويقدم ما يجود به في الخفاء، حتى لا يُعلم شخصه، بل ولا تعلم شماله ما أنفقت يمينه، فيسدّ خلّة ذي الخلّة، دون اشعاره بالدونيّة والحرج والتأزم النفسي، ودون أن يتسلل إلى نفس المعطي الشعور بالمنّ والتباهي والتيه على خلق الله فهو لا يقصد اقتناص مديح أو حيازة فخر، وإنما يقصد فقط رضا الله ورسوله، فهذا هو الكريم الذي ينطبق عليه خلق الكرم من المنظور الإسلامي. وهناك من يبذل ويعطي أضعاف ما أعطى الأول، ولكنه يحرص كل الحرص، أن يعرف من أعطاه ويعرف الناس ما أعطى، ليكال له المديح، ويعلم القاصي والداني ما فعل، فإذا كان تاجراً أقبل الناس على الشراء منه، وإذا كان زعيماً أقبل الناس على منحه أصواتهم في الانتخابات، وإذا خاصم أو ناوأ أحداً وقفوا إلى جانبه.. إلخ، فهذا ليس كريما بالمفهوم الإسلامي، وإنما هو تاجر بذل مالا ليحقق منه منافع ذاتية ـ مادية أو معنوية ـ من ترويج تجارة أو اقتناص شهرة، أو إرضاء غرور بالمدح والثناء وتلميع الذات.

وسمو الغاية مقصود بذاته في مجال الأخلاق، إذ يجعل منها سجايا طبيعية من سجايا النفوس، وقيما مقصودة لذاتها مجردة نقية خالصة لا تشوبها شائبة ولا تحدد لها نواتج ولا يلحقها منٌّ ولا أذى، ولا إذلال وقهر لنفوس ذوي الحاجة.

لذلك نجد الرسول الكريم يؤكد على المسلمين التزام سموّ الغاية ونبلها وعظمتها في كل تصرف أخلاقي، فالفارق كبير بين من جعل الله غايته من خُلقه، ومن جعل المصلحة والمنفعة هدفه منه، ويوضح الرسول ذلك ببيان موقف الخالق ـ سبحانه ـ من أنواع من البشر حسنت أعمالهم وانحرفت غاياتهم، ليتخذ المسلمون منها عبرة فيقول:

- إن أول الناس يقضى عليه يوم القيامة:

* رجل استشهد فأتي به، فعرّفه الله نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتى استشهدت، قال: كذبت، ولكنك قاتلت لأن يقال: جرىء، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه ثم ألقي في النار.

* ورجل تعلم العلم وعلّمه، وقرأ القرآن، فأتي به، فعرّفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلمت العلم وعلمته، وقرأت فيك القرآن، قال: كذبت، ولكنك تعلمت العلم ليقال: عالم. وقرأت القرآن ليقال: هو قارىء، فقد قيل، ثم أمر به، فسحب على وجهه حتى ألقي في النار.

* ورجل وسّع الله عليه، وأعطاه من أصناف المال كله، فأتي به، فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيه إلا أنفقت فيه لك، قال: كذبت ولكنك فعلت ليقال: هو جواد، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه ثم ألقي في النار(١).

إن من تخلق بخلق كريم قاصدا رضا الناس فليطلب أجره وثوابه من الناس، أما من كانت غايته الله فإن الله تعالى سيجزيه الجزاء الأوفى، ولا يعني ذلك أن صاحب الغاية السّامية لا يلقى جزاء من الناس ولكنه لا يطلبه ولا يقصده، أما إذا جاءه بغير ما طلب منه فبها ونعمت، والناس ـ في الغالب ـ يكافئون المحسن بما يستطيعون وهذا ما لا بأس به، وقد جاء رجل إلى رسول الله ﷺ وسأله:

- «أرأيت الرجل يعمل العمل من الخير ويحمده الناس عليه؟ قال: ذلك عاجل بشرى المؤمن»(٢).

فالخير مجزي من الله ومن الناس كما قال الشاعر:

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه ... لا يذهب العرف بين الله والناس

٢- الموضوعية الخلقية:

نقصد بالموضوعية الخلقية الاحتكام إلى معيارية خلقية ثابتة، محددة واضحة، في أي موقف أخلاقي، ممّا يحيّد الهوى ونزوات النفوس وجموح العواطف والانفعالات، فلا تشّرق بالموقف الخلقي تارة وتغرب به أخرى.

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه مسلم.

والمعيارية الخلقية الاسلامية هي محددات الشرع الاسلامي، الذي يراعي مقومات الحق والعدل والخير والصلاح، فلا تجاوز عن الشرع في موقف ما بدعوى كونه أخلاقيا أو يعتبره الناس أخلاقيا، ونضرب لذلك المثلين الآتيين لبيان ما هيّة الموضوعية:

- لنفرض أن شخصا ما، وجد صديقا له سيدان في جريمة ما، وهو مقتنع كل الاقتناع بأن صديقه لم يرتكب هذه الجريمة مع أن الأدلّة والقرائن وشهادة الشهود تؤكد أنه ارتكبها. لا يجوز لهذا الشخص أن يحتال ليدمّر الأدلّة، أو أن يقدم رشوة للشهود ليغيروا شهاداتهم لصالح صديقه، تحقيقا لبراءته.

وقد قيل: إن أحد القضاة كانت أمامه قضية لرجل ارتكب جريمة، وكل الأدلة والقرائن وشهادات الشهود تؤكد أنه ارتكبها، ولكن القاضي رأى في المنام أن رسول الله ﷺ قال له: لا تحكم على هذا الشخص، فالأدلّة باطلة والشهود كاذبون، واحتار القاضي، فجمع علماء البلد واستشارهم فكان قرارهم: «إن الأحكام لا تبنى على الأحلام، وإنما على الأدلة والقرائن الظاهرة وشهادات الشهود فأمض حكمك على الظاهر، والله تعالى يتولى السرائر».

- ولنفرض أن رجلاً مسلماً عرف حال الفقر والعوز لجيران له أخنى عليهم الدهر، ولم يكن ليستطيع تقديم شيء لهم لفقره، وفي الوقت نفسه لهم جار غني شحيح، لديه ما يفيض عن عشرات أضعاف حاجته، لا يجوز له أن يسطو عليه أو يقطع عليه الطريق ليسلبه مالاً يقدمه للضعفاء المحتاجين.

إن الموضوعية الخلقية تقتضي التزام المعيارية الخلقية الاسلامية «الشرع الاسلامي» وليس الاجتهادات والرؤى الفردية، وقد تعرض المسلمون في عهد الرسول ﷺ لحالة من الحالات التي غالبا ما تحرف عن الموضوعية الأخلاقية، إذ سرقت امرأة شريفة من بني مخزوم، فكان لا بدّ من قطعها، فأهمّ ذلك عددا من الصحابة، فأرادوا أن يجنبوها القطع، وكانوا يعلمون حبّ رسول الله لأسامة بن زيد فوسطوه في الشفاعة لدى رسول الله فيها، وكلمه أسامة، فكان ردّه عليه السلام الذي لا زالت تردده الأجيال:

- «أتشفع في حدّ من حدود الله!؟... وايم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها»(١).

(١) متفق عليه.

٣- الشمول الأخلاقي:

الشمول يعني الإحاطة الجامعة بكل مقومات ومكونات وحيثيات الموضوع، وعليه فالشمول الأخلاقي ينأى عن الاقتصار على موقف دون موقف، ولا شخص دون شخص، ولا خلق دون خلق، فالخلق الإسلامي واحد في حالات الرضا والغضب، والسوق والشارع، والمختبر والمحراب، مع العدو والصديق، ومن يحب الإنسان ومن يبغض، من الطبقات العليا أو الدنيا.

لقد جاء الإسلام والعنصرية الخلقية هي السائدة لدى المجتمع العربي، فالاحترام لابن الحرّة غيره لابن الأمة، والعدل بين الأحرار غيره مع المماليك والسلب والنهب والعدوان على أبناء القبيلة محرّم قطعيا، في حين أنه مباح ضد القبائل الأخرى فعمل الرسول الكريم على تنحية هذه الموروثات الضالّة، وأخذ المسلمين بامتثال الشمول الأخلاقي وفي ذلك يقول:

- «من آذى ذميا فقد آذاني»[١].

- «من قذف مملوكه بريئا مما قال، أقيم عليه الحدّ يوم القيامة»[٢].

والإسلام لا يقصر الشمول الأخلاقي علي بني الإنسان، وإنما يمدّه ليشمل كل مخلوقات الله، فالمسلم صاحب خلق طيب رفيع وسلوك أخلاقي ملتزم مع الإنسان وغير الإنسان، فالرحمة مطلوبة للإنسان والحيوان، والغلظة والقسوة والعنف مرفوض لكليهما، وفي الحديث:

- «عذّبت امرأة في هرّة سجنتها حتى ماتت، لا هي أطعمتها وسقتها إذ هي حبستها، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض»[٣].

هذه الغلظة التي لا تنشأ إلا عن موات قلب، لا تتوافق مع أخلاق الرحمة والعطف والرقة التي يتحلى بها المسلم. وعلى العكس من ذلك يقول ـ عليه السلام ـ:

---

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

(٣) رواه البخاري وأحمد وغيرهما.

- بينما رجل يمشي بطريق، اشتد به العطش، فوجد بئراً فنزل فشرب، ثم خرج، فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش، فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ بي، فنزل البئر، فملأ خفّه، ثم أمسكه بفيه، فسقى الكلب، فشكر الله له، فغفر له[1].

شتان بين الموقفين، موقف المرأة وموقف الرجل، شتان بين الغلظة والقسوة والاستهتار، وبين الرحمة واللين والعطف والمسؤولية ويؤكد عليه السلام أن القول السيء لا يجوز أن يصدر عن المسلم حتى للجماد الذي لا يدرك ولا يفقه، حتى لا يصبح طابعاً عاماً للمسلم يحمله إلى استخدامه مع من يحسّ ويفقه ويدرك فيقول:

- «لا تسبّواالدهر . . »[2].

«لا تلعنوا الريح . . . »[3].

هذا هو الشمول الأخلاقي الاسلامي، لكل المواقف، والأوضاع والحالات والأشخاص، ليغدو الخلق القويم الكريم سمة بارزة على الفرد المسلم والمجتمع المسلم.

٤ - الاعتدال الأخلاقي:

الاعتدال من أهم مقومات تصرفات المسلم في هذه الحياة، والاعتدال ـ كما قيل ـ: «هو الحسنة بين السيئتين: الافراط والتفريط»، فالإسلام يأبى على المسلم مثلا أن يرى المنكر ولا ينكره، ولكنه في الوقت نفسه يأبى عليه أن ينكره بشدّة وعنف وغلظة وتشنّج وفظاظة تؤدي إلى نفور المنهي وإصراره على موقفه، ذلك لأن التفريط لا يحقق إصلاحاً كما أن الإفراط قد يعزز الفساد والانحراف، وقد جاء في الأثر: «أحبب حبيبك هونا ما عسى أن يكون بغيضك يوما ما، وابغض بغيضك هونا ما عسى أن يكون حبيبك يوما ما».

إن الاعتدال يمكّن المسلم من أن يكون ملتزما أخلاقياً وفي الوقت نفسه يعيش حياته بشكل طبيعي، فلا افراط في الشهوات ولا حرمان من ملذات الحياة، ولا

---

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه الحاكم.

(٣) رواه الترمذي وأبو داود وغيرهما.

اهلاك للمال في غير ما طائل، ولا عبودية له تقتل المعاني الانسانية وتتدنى بالذات، ولا إفراط في العقوبات مثلا بدعوى الانتصار للفضيلة ولا تفريط فيها بدعوى العطف على الناس.

إن الإفراط مزايدة على الشرع الكريم مرفوضة كليا من المنظور الاسلامي، كما أن التفريط استهانة بالشرع واستهتار به، لذلك يأخذ الرسول المسلمين بمراعاة الاعتدال في كل خلق وتصرف وفي كل قول وعمل، فهم النماذج العليا لرشد الإنسانية، وتوضح ذلك الحادثة الآتية:

- جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادته، فلما أخبروا بها كأنهم تقالّوها، فقالوا: وأين نحن من النبي، وقد غفر الله له ما تقدّم من ذنبه وما تأخر؟

قال أحدهم: أما أنا فأصلّي الليل أبداً، وقال آخر: وأنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال الثالث: وأنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدا» فجاء النبي فقال: «أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟» أما والله إنّي لأخشاكم لله، وأتقاكم له، ولكني أصوم وأفطر، وأصلّي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنّتي فليس مني»[1].

وحتى لا يندفع المسلمون في طريق المغالاة فيصبحوا كالمنبتّ الذي لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى يؤكد عليه السلام على الاعتدال وعدم المغالاة فيقول:

- «إن الدين يسر، ولن يشادّ الدين أحد إلا غلبه، فسدّدوا وقاربوا وأبشروا»[2].

- «يسّروا ولا تعسّروا، وبشّروا ولا تنفّروا»[3].

٥- الايجابية الأخلاقية:

يتبنى الإسلام الايجابية انطلاقا من استهدافه خيرية الحياة لكل الأحياء، لذلك لا يقبل من المسلم أن يعزل نفسه في صومعة بعيداعن الناس، وإنما يطلب منه أن

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه البخاري.

(٣) رواه البخاري.

يعاشر الناس ويخالطهم ويتفاعل ويتعاون معهم بل ويصبر على أذاهم لتحقيق سريان الروح الاسلامية في كل مناحي الحياة ولدى كل إنسان في مجتمعه، ومن ثم يرفض السلبية والعزلة واللامبالاة، وقد سبقت الاشارة إلى الحديثين الشريفين: «خير الناس أنفعهم للناس» و «من لا يهتم بأمر المسلمين فليس منهم».

إن الإسلام يأبى على المسلم أن ينسحب من معترك الحياة، وإنما يتطلب منه أن يكون عاملاً فاعلاً إيجابيا فيه، يؤثر ويتأثر، يألف ويؤلف، يعين ويعان، وينفع وينتفع، فانسحاب الخيّرين من حياة المجتمع، يفسح المجال للأشرار والمنحرفين والفاسدين ليقودوا حركة الحياة، وهؤلاء لا يقودونها إلا إلى مهاوي الردى والتخلف والاخفاق والاندحار، لا يقودونها إلى خير ولا يبعدونها عن شر، وبذلك يعاني من فسادها الجميع بدون استثناء.

على هذه المفاهيم ربّى رسول الله ﷺ المسلمين، حتى سأله رجل:

- أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: «نعم إذا كثر الخبث»[(١)].

لذلك أخذهم بإيجابيّة تعميم الخير في مجتمعهم، والحيلولة دون استشراء الشر، وفي ذلك يقول عليه السلام:

- «طوبى لعبد جعله الله مفتاحاً للخير، مغلاقاً للشرّ، وويل لعبد جعله الله مفتاحاً للشرّ، مغلاقاً للخير»[(٢)].

- «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الاثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئا»[(٣)].

---

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه الترمذي وابن ماجه.

(٣) رواه مسلم وأحمد وغيرهما.

ثالثاً: السلوك الخلقي

يقصد بالسلوك الخلقي أن تصبغ الأخلاق بصبغتها النبيلة واقع سلوك الانسان على الأرض، في تعامله مع كل من سواه، فتتحول مكارم الأخلاق وعليا الفضائل إلى سلوك يتعايش وفقا له الناس مع بعضهم البعض، وألا تبقى الأخلاقيات مجرد مثاليات يتغنّى بها الشعراء، فالناس قد تؤثر فيهم المواعظ حينا ولكنه يبقى تأثيرا محدودا ومؤقتا، ولكن الذي يرسخ في الأذهان هو الواقع العملي الذي يؤثل القدوة ويؤصّل الأسوة وقد قيل: «قنطار من موعظة لا يساوي درهماً من قدوة». وعليه كان المسلمون يحرصون على تمثل مكارم الأخلاق في حياتهم، متلافين طول الحديث عنها.

ولم يكن الرسول الكريم ﷺ بالذي يعظ الناس وينسى نفسه ـ حاشا لله ـ فقد حرص ـ عليه السلام ـ أن يكون القدوة المثاليّة للمسلمين، فكان المثال الذي احتذاه المسلمون ـ ولا زالوا ـ في خلائق النبل، وسموّ الفضائل، وروعة القيم، يعيش بين المسلمين كأي واحد منهم، حياة هادئة رزينة متواضعة خالية كليا من أي مظهر للعلوّ أو الغلو، لا تحجبه أسوار القصور، ولا تحول بينه وبينهم أرتال الحراس، وإنما يخلط نفسه بنفوسهم يؤاكلهم ويشاربهم ويماشيهم ويجالسهم ويزورهم ويلاطفهم ويهنئهم ويواسيهم وهكذا.

ونظرا لأن هديه ﷺ مستمر على تتابع الأجيال، فقد وضع الأسس العمليّة لانزال القيم الأخلاقية من ابراجها العاجيّة إلى أرض الواقع، لتعيش بين الناس، ويعيش الناس بها سعداء آمنين مطمئنين، متعاونين متفاعلين، عاملين مخلصين، فيرتقون بحياتهم ويرتقون معها، ويضربون أمثلة تقتدى في السلوك الأخلاقي الحضاري الذي يتعايش به الناس.

ونظراً لأن للسلوك الأخلاقي إيجابياته وسلبياته، فإنه ﷺ يتناول الجانبين معا، يتناول الايجابيات حاثّاً عليها مؤكداً على التزامها، كما يتناول السلبيات محذرا منها ومؤكدا على اجتنابها، ونتناول ذلك ـ بإيجاز ـ فيما يأتي:

أ- تزكية الأقوال

يقول العرب: «جرح السنان سريع اندماله، وجرح اللسان بطيء زواله» ويعنون أن الجرح المادي يشفى بسرعة لأن حيوية الجسم قادرة على ذلك، أما الجرح المعنوي بالكلمة الجارحة لا يزول بسرعة، لأن يجرح معنى لا مبنى يجرح كرامة أو إحساسا أو شعورا، فالكلمة النابية أكثر تأثيرا في تحطيم العلاقات من سيوف الأرض، لأنها تبقى كامنة تؤج وتضجّ، تهيج العداوات وتفرق الجماعات، فتقوض التآلف والتآخي والمودة والتفاهم والتوافق، لتحلّ محلها الأحقاد والضغائن. لذلك فإن الإسلام يهتم بتوجيه الكلمة لتكون عاملاً من عوامل توثيق علاقات الناس بعضهم ببعض.

ومن المعروف أن الخالق ـ سبحانه ـ الذي أدب رسوله فأحسن تأديبه، قد أنزل قرآنا يتلى يؤكد عليه التزام طيب القول، فيقول تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ﴾[1]، ﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾[2] ﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ﴾[3]، ويقول سبحانه لموسى وهارون ـ عليهما السلام ـ إذ أرسلهما إلى فرعون الذي تجبّر وطغى حتى ادعى الألوهية: ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ ﴾[4].

والرسول ﷺ يؤكد في تربيته للمسلمين على التزام طيب القول فيقول:

- «الكلمة الطيبة صدقة»[5].

- موجب الجنة: اطعام الطعام، وإفشاء السلام، وحسن الكلام[6].

---

(١) النحل (١٢٥).

(٢) فصلت (٣٤).

(٣) آل عمران (١٥٩).

(٤) طه (٤٤).

(٥) متفق عليه.

(٦) رواه الطبراني.

ولا شك أن طيب الكلام أساس قوامة المجتمعات فالناس إنّما يتبادلون معلوماتهم وعلومهم عن طريق الكلمة سواء أكانت مكتوبة أو ملفوظة، مسموعة أو مرئية، فإذا كانت طيبة صادقة ملتزمة، حققت الطمأنينة، وأسهمت في توثيق التواصل بين الناس، وإذا كانت عكس ذلك دمّرت الثقة بين الأفراد والجماعات.

لذلك كله يربي الرسول الكريم المسلمين على التزام طيب القول ومن ذلك:

١ - قوامة القول:

القول القويم هو الذي يلتزم الحق والحقيقة ولا يحيد عنهما، فلا يكذب ولا يزوّر ولا يفتري وإنما يلتزم الحق ويقصد الخير، مما يرتقي بالتواصل الإنساني، ومما يوجه إليه الرسول في هذا المجال:

١/١: التزام صدق القول:

والصدق يعني نقل الحقيقة كاملة دونما إضافة أو نقصان، أو تحريف أو تزوير، لتصل المعلومة كاملة غير منقوصة، تتم المعرفة بها، ويجري التصرف على أساس أحقيّتها بثقة وأمن واطمئنان وفي ذلك يقول الرسول الكريم:

- «عليكم بالصدق، فإن الصدق يهدي إلى البرّ، والبرّ يهدي إلى الجنّة، وما يزال الرجل يصدق حتى يكتب عند الله صديقا»[١].

- وسأله رجل: ما عمل الجنة؟ قال: «الصدق، إذا صدق العبد برّ، وإذا برّ أمن وإذا أمن دخل الجنّة»[٢].

١/٢: التزام خيرية القول:

وبالرغم من أن الصدق يحقق خيرية القول، فهو يصدر عن معين خير، ويصب في معين خير، إلا أن الرسول ﷺ ينبه إلى كثير من المجالات التي يجب أن يلتزم القول فيها بالخيرية ومن ذلك:

---

(١) رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

(٢) رواه أحمد.

- **الدعوة**: من دعا إلى هدى، كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينتقص ذلك من أجورهم شيئاً[١].

- **خيرية المقصد**: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فليقل خيرا أو ليصمت[٢].

- **تعليم الناس**: أفضل الصدقة أن يتعلم المرء المسلم علما ثم يعلمه أخاه المسلم[٣].

الاعلام: نضر الله امرءا، سمع منا شيئا فبلغه كما سمعه فربّ مبلغ أوعى من سامع»[٤].

- **النصيحة**: إذا استنصح أحدكم أخاه فلينصح له[٥].

- **الشفاعة**: اشفعوا تؤجروا[٦].

- «**التطوع بالشهادة**: ألا أخبركم بخير الشهداء، الذي يأتي بشهادته قبل أن يسألها»[٧].

- «**ردّ الغيبة**: من ردّ عن عرض أخيه، ردّ الله عن وجهه النار يوم القيامة»[٨].

هذه أمثلة من توجيهه عليه السلام إلى خيرية القول، والذي يكاد يستوفي كل مجالات استخدام الكلمة، ثم يضع ﷺ قولا جامعا لأسلوب المشاركة في أي حديث فيقول:

- خمس لهنّ أحسن من الدهم (النّوق) الموقفة، :

* لا تكلم فيما لا يعنيك فهو فضل ولا آمن عليك الوزر.

---

(١) رواه مسلم.

(٢) متفق عليه.

(٣) رواه ابن ماجه.

(٤) رواه الترمذي.

(٥) رواه البخاري.

(٦) رواه البخاري.

(٧) رواه مسلم.

(٨) رواه الترمذي.

* لا تكلم فيما يعنيك حتى تجد له موضعا، فإنه ربّ متكلم في أمر يعنيه قد وضعه في غير موضعه فعيب.

* ولا تمار حليما ولا سفيها فإن الحليم يقليك (يبغضك) وإن السفيه يؤذيك.

* واذكر أخاك إذا تغيّب عنك بما تحب أن يذكرك به، وأعفه مما تحبّ أن يعفيك منه.

* «واعمل عمل رجل يرى أنه مجازى بالإحسان مأخوذ بالإجرام»[١].

٢- تلافي انحراف القول:

انحـراف القول يعني مجافاة الحق والحقيقة، والتلاعب بمسار الكلمة وتحويله بالكذب والتزوير والتضليل وحرفه عن الخير، ممّا يهدم الثقة بين الناس، ويقوّض الطمأنينة، ويهدم التوافق والتفاهم والتعاون، ويبذر بذور الشك والريبة فيما ينقل من معلومات، وتجييرها للمصالح الخاصّة بالقائل ـ مادية كانت أو معنوية ـ.

ولا شك أن أمتنا العربية الاسلامية قد عانت في عهودها الأخيرة من انحراف القول أكثر مما عانت في كل المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية الأخرى، لأنها تخلّت عن صناعة الكلمة القويمة والمعلومة الوثيقة لغيرها، وبصفة خاصة لأعدائها لا سيما يهود، الذين سيطروا على ناصية الكلمة، وتحكموا في جميع وسائل الاعلام، وصناعة الارساليات الثقافية، التي شوّهت صورة العرب المسلمين في العالم، بما تبثّه من أكاذيب وأضاليل وأراجيف وأحقاد ضدّهم، وركزت على تشويه معتقدات الأمة ومفاهيمها وقيمها وحضارتها وتراثها، حتى عبأت الرأي العام ضدها، ولعل الأسوأ من ذلك أنها عبأت أبناء الأمة أنفسهم ضد أنفسهم لأنهم خضعوا لسيطرتها وأسرها الثقافي، نظراً لانعدام الموجات المضادة التي تبرز الحق والحقيقة.

والرسول الكريم يأخذ المسلمين بتربية حازمة تتلافى انحراف القول، ليعيش المجتمع الاسلامي في وئام وانسجام ومن ذلك:

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا.

٢ / ١ : تلافي الكذب:

الكذب ـ كما هو معروف ـ هو مجافاة الحق والحقيقة، وتزوير الواقع، لتحقيق نفع ذاتي أو إلحاق ضرر بالغير، والكذب هو جماع الشرور كلها، يجمع الظلم من أطرافه، فكم يوقع من عدوات وكم يضيع من حقوق، وكم يظلم ويفتري.

والرسول يأخذ المسلمين بتربية موضوعية تنأى بهم عن ارتكاب الكذب وترسّخ الابتعاد الكلي عنه، فيقول:

- «إياكم والكذب فإن الكذب يهدي إلى الفجور، والفجور يهدي إلى النار، وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب، حتى يكتب عند الله كذاباً»(١).

- وسئل ـ عليه السلام ـ أيكون المؤمن جبانا؟ قال: «نعم»، قيل: أيكون بخيلاً؟ قال: «نعم» قيل: أيكون المؤمن كذاباً؟ قال: «لا»(٢).

بل ويعتبر ﷺ الكذب خيانة كبيرة من الإنسان لأخيه الإنسان بقوله:

- «كبرت خيانة أن تحدث أخاك حديثا هو لك مصدق وأنت له كاذب»(٣).

٢ / ٢ : تلافي سوء القول:

وبالرغم من أن الكذب يجمع كل مساوىء القول، إلا أن النبي الكريم، يتناول كل مفردة من مفردات مساوىء القول محذراً منها، نظراً لما للقول السيء من تأثير هدام على المجتمعات ومن ذلك:

- **النأي عن الإشاعات:** «أيما رجل أشاع على رجل مسلم بكلمه وهو منها بريء، يشينه بها، كان حقا على الله، أن يذيبه في نار جهنم، حتى يأتي بنفاذ ما قال»(٤).

(١) رواه البخاري ومسلم وغيرها.

(٢) رواه مالك.

(٣) رواه أحمد.

(٤) رواه الطبراني.

- **كف الغيبة**: «أتدرون ما الغيبة؟ قالوا: الله ورسوله أعلم قال: ذكرك أخيك بما يكره، قيل: أرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهتّه»(١).

- **كف النميمة**: «لا يدخل الجنّةنمام»(٢).

- **رفض الوشاية**: «لا يبلّغني أحد من أصحابي عن أحد شيئاً، فإني أحبّ أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر»(٣).

- **رفض الشماتة**: «لا تظهر الشماتة لأخيك، فيرحمه الله ويبتليك»(٤).

- **منع السباب**: «سباب المسلم فسوق وقتاله كفر»(٥).

- **منع اللعن**: «لا يكون اللعانون شفعاء، ولا شهداء يوم القيامة»(٦).

- **تحريم الرياء**: «إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر، قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: الرياء»(٧).

- **تحريم النفاق**: «وتجدون شرّ الناس ذا الوجهين، الذي يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه»(٨).

- **تلافي البذاءة**: «ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش البذيء»(٩).

وهكذا قد لا نجد قولاً لا يتوافق مع الأخلاق الإسلامية إلا وحذّر الرسول الكريم منه ونهى عنه، لتستقيم حياة الناس على أساس من موضوعية الكلمة وخيريتها.

---

(١) رواه مسلم.

(٢) متفق عليه.

(٣) رواه أبو داود والترمذي.

(٤) رواه الترمذي.

(٥) متفق عليه.

(٦) رواه مسلم.

(٧) رواه أحمد والطبراني وغيرهما.

(٨) متفق عليه.

(٩) رواه الترمذي.

ب- أخلاقيات التواصل

إن تحقيق التواصل القويم بين المسلمين، قام أساساً ـ كما سبق القول ـ على أساس من الأخوة الإسلامية، مما يعني أن ينبع التواصل بينهم من خالص المحبّة والمودّة والتوافق والتفاهم وهكذا، ومع ذلك نجد في سنّة الرسول الكريم كل ما يحكم هذا التواصل على أساس من الطهر الخلقي، ونظافة العلاقة، وضبط علاقات الناس بعضهم ببعض بضوابط الحق والعدل والخير، مع النأي عن كل خلق من شأنه أن يعكر صفو العلاقات، أو ينأى بالنفس المسلمة عن الاختلاط بمن سواها من المسلمين، وفي هذا المجال يتناول كل خلق من شأنه أن يدعم التواصل وينميه بالتوجيه والحث عليه ومن ذلك ـ على سبيل المثال ـ أيضاً ما يأتي:

١ - التزام التواضع:

ذلك لأن فطرة النفس البشرية ترفض التواؤم مع من يترفع أو يتكبر أو يشمخ بأنفه عليها. سواء أكان ترفعه لأصلة أو حسبه أو لونه، أو لماله أو جاهه أو سلطانه، وإنما تتوافق مع من يلتزم خلق التواضع، ويتعامل مع الآخرين كأي واحد منهم، والأحاديث الشريفة في التواضع متعددة منها قوله ـ عليه السلام ـ:

- «طوبى لمن تواضع في غير منقصة»[١].
- «من تواضع لأخيه المسلم رفعه الله...»[٢].

وليكون التواضع فعالاً يتطلب نبذ خلقين سيئين لكل منهما تأثيره السلبي على نفس المسلم وهما الكبر والفخر.

---

(١) رواه الطبراني.

(٢) رواه الطبراني.

١/١ : نبذ الكبر :

لا تهضم القلوب والنفوس ذلك الذي يرى نفسه أفضل ممن سواه من خلق الله فيتكبر عليهم، نتيجة لاغتراره بماله أو سلطانه أو حسبه أو نسبه، مما يجعل الكبر من مسببات توهين علاقات الناس وتمزيقها، والحيلولة دون تلاقيها وتلاحمها، الأمر الذي لا يتوافق مع الصالح العام للمجتمع المسلم، ويمزق روابط الأخوة، لذلك يؤكد الرسول على نبذ هذا الخلق بقوله:

- «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر. . .»[١].

- «من كان في قلبه مثقال حبّة من خردل من كبر، كبّه الله لوجهه في النار»[٢].

١/٢ : ترك الفخر :

ما دام الإسلام قد ساوى بين الناس والأجناس، فلا داعي أن يفخر أحد على أحد، ولا قوم على قوم، بأي ميزة من المميزات التي تتحقق لبني الإنسان، إذا كان هذا الفخر مما يضير بالعلاقات بين الناس، لا سيّما وأن المتفاخرين يلجأون ـ لتضخيم مفاخرهم ـ إلى الكذب، كما يلجأون للحدّ من مفاخر الآخرين إلى التهوين من منجزاتهم، وبالتالي إلى هجائهم وتنقيصهم والافتراء عليهم، فالفخر والهجاء نقيضان لا يجوز أن يلجأ إليهما المسلم، لتبقى القلوب سليمة تعمرها المحبة، لذلك يؤكد ـ عليه السلام ـ على عدم اللجوء إلى الفخر بقوله:

- «إن الله أوحي إليّ: أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد»[٣].

- «لينتهينّ قوم يفتخرون بآبائهم. . إن الله أذهب عنكم عبيّة الجاهلية، وفخرها بالآباء»[٤].

---

(١) رواه مسلم والترمذي.

(٢) رواه أحمد.

(٣) رواه مسلم وأبو داود وغيرهما.

(٤) رواه الترمذي وأبو داود.

جـ- أخلاقيات التوائم الاجتماعي

الوئام الاجتماعي مقصد من مقاصد الاسلام الرئيسة، فلا مجال لتعاون أو تآزر أو تفاهم بين أفراد المجتمع ما لم يتحقق الوئام بينهم، ولا قوة ولا نهوض ولا تقدم لمجتمع تنتظم أفراده وجماعاته روح العداء والتربص والحقد والبغضاء والخصام، لذلك كان تأكيد الرسول الكريم في تربيته على حب المسلم لأخيه المسلم، وتفعيل العون المتبادل، والحرص على المصلحة المشتركة، وعدم تعريض المسلم إلى أي نوع من أنواع الأذى أو الظلم أو التحقير... إلخ لأخيه المسلم.

ولتحقيق ذلك يؤكد الرسول الكريم على الالتزام بكثير من الممارسات الاخلاقية التي تحول دون تمزيق اللحمة الاجتماعية ومن ذلك:

١ - إصلاح ذات البين:

المسلمون مثل بقية البشر قد يحدث بينهم الشقاق والخلاف والنّفور، الأمر الذي إن ترك ليتفاعل في النفس البشرية أجج العداوات وأدى إلى الاقتتال والقتل والظلم والقهر، واتّسع الخرق على الرّاتق، لذلك يربي الرسول المسلمين على المسارعة إلى وأد الخلافات في مهدها، وإصلاح ذات البين حتى لا تتفاقم الأمور، فيقول:

- «ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة؟ قالوا: بلى، قال: إصلاح ذات البين، فإن فساد ذات البين هي الحالقة، لا أقول تحلق الشعر، ولكن تحلق الدين»[١].

ويقول لأبي أيوب الأنصاري:

- «ألا أدلك على عمل يرضاه الله ورسوله؟ قال: بلى، قال: صل بين الناس إذا تفاسدوا، وقرب بينهم إذا تباعدوا»[٢].

(١) رواه الترمذي وابن حبان.

(٢) رواه الطبراني والبزار.

٢- كفّ التهاجر:

فساد ذات البين بين فردين أو جماعتين، يحول دون التواصل، ويؤدي إلى التهاجر، وابتعاد كل من الطرفين عن الآخر، وهذا التهاجر تلقائي وطبيعي، وقد يكون صمّام أمان يحول دون تفجّر المواقف والعداوات، إذ يحقق سكون فورة الغضب وحدّة الموقف، ولكن إذا طالت به المدّة قد يؤدي إلى تعميق القطيعة، لذلك فإن الرسول الكريم يؤكد على عدم استمراريته فيقول:

- «لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال، يلتقيان، فيعرض هذا ويعرض هذا، وخيرهما الذي يبدأ بالسلام»(١).

- «من هجر أخاه فوق ثلاث ليال فهو في النار، إلا أن يتداركه الله برحمته»(٢).

٣: تنمية التقبّل:

قبول فرد لفرد أو جماعة لجماعة ليس بالأمر الذي يقال له كن فيكون، وإنّما يتطلب نوعية أخلاقية من التعامل، تغرس التقبل في النفوس، وترتقي بالألفة وتعمق المحبة، والرسول ﷺ يربي المسلمين على التزام ما يحقق التقبل بينهم ومن ذلك:

- **استمرارية الصلة**: فيقول:

- «حق المسلم على المسلم ست: إذا لقيته فسلّم عليه، وإذا دعاك فأجبه، وإذا استنصحك فانصح له، وإذا عطس فحمد الله فشمّته، وإذا مرض فعده، وإذا مات فاتبعه»(٣).

- «عودوا المريض، وأطعموا الجائع، وفكوا العاني (الأسير)»(٤).

- **إفشاء السلام**:

- «ألا أدلّكم على شيء إذا فعلتمون تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم»(٥).

---

(١) متفق عليه.

(٢) رواه الطبراني.

(٣) رواه البخاري ومسلم.

(٤) رواه الترمذي.

(٥) رواه مسلم وأبو داود والترمذي.

- «سئل الرسول: أي الإسلام خير؟ قال: تطعم الطعام، وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف»[1].

- **المصافحة:**

- «ما من مسلمين يلتقيان فيتصافحان، إلا غفر الله لهما قبل أن يتفرقا»[2].

- «إن المؤمن إذا لقي المؤمن فسلّم عليه وأخذ بيده فصافحة، تناثرت خطاياهما كما يتناثر ورق الشجر»[3].

- **الشكر:**

- «لا يشكر الله من لا يشكر الناس»[4].

- «من أولي معروفا فليذكره، فمن ذكره فقد شكره، ومن كتمه فقد كفره»[5].

٤ : تحريم الاقتتال:

إجراءات التواصل السابقة تؤدي إلى التوافق، والتأكيد عليها يأتي للحيلولة دون الوصول إلى درجة الاقتتال التي تمثل المستوى الأخلاقي الذي يرفضه كل إنسان كريم وكل مجتمع قويم، لأن ذلك يعني تفريق الصف والكلمة، وإهدار الأرواح والأمكانات، وتعميق الضعف في كل القدرات، لذلك يأبى الإسلام على المسلمين أن يصلوا إلى هذا المستوى في علاقاتهم، ويؤكد الرسول الكريم على ذلك في تربيته للمسلمين فيقول:

- «إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار»، قالوا: يا رسول الله، هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال: إنه كان حريصاً على قتل صاحبه»[6].

- «لا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض»[7].

---

(١) رواه البخاري ومسلم وغيرهما.
(٢) رواه مسلم وأبو داود وابن ماجه.
(٣) رواه الطبراني.
(٤) رواه أحمد وأبو داود والترمذي.
(٥) رواه أحمد والطبراني والترمذي.
(٦) رواه البخاري.
(٧) رواه البخاري.

د- أخلاقيات التعامل

للأقوال الطيبة الملتزمة بالخلق الرفيع أهميتها بدون شك، ولبناء شبكة علاقات قوية على أساس من مكارم الأخلاق، الأهمية ذاتها، ولكن المحك الرئيس لاختبار الأخلاق على أرض الواقع هو المعاملات، حيث تتبدى المصالح الماديّة وتطلّ المنافع الدنيوية برأسها، وهنا تتبين حقيقة الالتزام بالخلق الإسلامي، وقد كان عمر ابن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ إذا أثنى رجل على آخر أمامه سأله: هل عاملته بالدرهم والدينار؟ فإن قال: لا، قال له: فإنك لم تعرفه.

إن المنفعة مقصودة ـ بلا ريب ـ في المعاملات، ولكن لا يجوز أن تتبع معياريّة خلوا من الالتزام الخلقي، فإذا توافقت المنفعة مع الخلق القويم فبها ونعمت، وإذا تضاربا فلا تفكير مطلقاً في تقديم المنفعة على الخلق، فالبنسبة للمسلم يبقى الخلق الإسلامي هو معيار التعامل.

وغني عن البيان أن الرسول الكريم ينطلق في إحكام انضباطية التعامل بين المسلمين، من رابطة الأخوة التي قررها الخالق ـ سبحانه ـ ولا يطلب من المسلم إلا الحدّ الأدنى من كرامة التعامل الذي يمثل عين العدل ألا وهو أن يساوي المسلم أخاه بنفسه «لا يؤمن أحدكم حتى يحبّ لأخيه ما يحبّ لنفسه»[1]، وبذلك يضع معيارا سهلا ميسرا لكل إنسان، فإذا أراد المسلم أن يتعامل مع المسلم بأي نوع من أنواع المعاملات، لا بد وأن يسأل نفسه: هل يرضى لنفسه ما رضيه لأخيه؟ فإن كانت الاجابة بنعم أمضى معاملته، وإلا كفّ وراجع نفسه. ولو اتبع المسلمون هذا المعيار في التعامل لارتاحوا وأراحوا، وقطعوا رحلة الحياة في غاية الرضا والأمن والطمأنينة والسعادة.

ومع وجود هذا المعيار الحاكم إلا أن الرسول الكريم الذي يعرف نفسيات البشر، ومدى تحولها وتبدلها وجموحها ونأيها عن الحق، والتزامها الذاتية في

---

(١) متفق عليه.

محاكمة الأمور، والأنانية في إمضاء المعاملات، عمل على أن يوضح للمسلمين إيجابيات التعامل التي يجب أن يتبناها المسلم، وفي الوقت نفسه يحدد سلبيات التعامل التي يجب أن ينأى عنها المسلم، وكما يأتي:

١ - التزام إيجابيات التعامل:

تمثّل هذه النوعية من المعاملات الالتزام الأخلاقي الإسلامي في مجال المعاملات، وقوامها: أن يحقق الإنسان الخير لنفسه ويبذله لغيره، دونما تجاوز أو تفريط، بحيث يكتفي هو ـ ماديا ومعنويا ـ ولا يحرم غيره هذه الكفاية. ولما كان الانسان حريصا على عدم التفريط فيما يعود عليه بالنفع فإن تربية الرسول الكريم تركز على التزام خلق التعامل مع الآخرين في مجالات عديدة أهمها:

- **العدل:**

- «إن المقسطين عند الله على منابر من نور. الذين يعدلون في حكمهم، وأهليهم، وما ولوا»[١].

- **الإعانة:**

- «من كان معه فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له، ومن كان له فضل زاد فليعد به على من لا زاد له»[٢].

- **النصح:**

- «إذا استنصح أحدكم أخاه فلينصح له»[٣].

- **المنفعة:**

- «أحب الناس إلى الله، انفعهم للناس..»[٤].

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه مسلم.

(٣) رواه البخاري.

(٤) رواه الأصبهاني.

- **التيسير**:

- «من يسّر على معسر يسّر الله عليه في الدنيا والآخرة»[١].

- **السماحة**:

- «رحم الله رجلاً سمحاً إذا باع، سمحاً إذا اشترى، سمحاً إذا اقتضى»[٢].

- **الجود**:

- «إن الله جواد يحب الجود، ويحب مكارم الأخلاق، ويكره سفسافها»[٣].

- **الإقالة**:

- «من أقال مسلما عثرته، أقال الله عثرته يوم القيامة»[٤].

- **إكرام الضّيف**:

- «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه...»[٥].

- **العفو**:

- «ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزا...»[٦].

- **المساندة**:

- «إن لله عند أقوام نعما أقرّها عندهم ما كانوا في حوائج المسلمين ما لم يملّوهم، فإذا ملوهم نقلها الله إلى غيرهم»[٧].

- **التقوى**:

---

(١) رواه مسلم وأبو داود والترمذي.

(٢) رواه البخاري وابن ماجه وغيرهما.

(٣) متفق عليه.

(٤) رواه أبو داود وابن ماجه وغيرهما.

(٥) متفق عليه.

(٦) رواه مسلم.

(٧) رواه الطبراني.

- «اتق الله حيثما كنت، واتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن»[١].

- **بذل المعروف:**

- «كل معروف صدقة»[٢].

- **التوقير:**

- «ليس منا من لم يوقّر كبيرنا ويرحم صغيرنا»[٣].

- **الاعذار:**

- «رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه»[٤].

- **الشفاعة:**

- «اشفعوا تؤجروا»[٥].

هذه أمثلة من الأخلاق الإسلامية التي يؤكد عليها الرسول الكريم لتحقيق إيجابيات التعامل بين الناس، ولو تتبعنا ما جاء في السنة النبوية لما وجدناخلقا يحقق هذه الايجابيات إلا وأخذ الرسول المسلمين به وحثهم عليه.

٢- تلافي سلبيات التعامل:

وكما أن إيجابيات التعامل الملتزمة بالأخلاق الاسلامية تحقق التوافق والتواؤم والتفاهم والتعاون بين الناس، فإن سلبياتها تؤدي إلى عكس ذلك، من انهيار الثقة بين الناس، وتعكير صفو العلاقات ووأد التعاون والتفاهم والتواصل بينهم، وتمزيق لحمة المجتمع، وهدر إمكاناته بكل نوعياتها.

(١) رواه الترمذي.

(٢) رواه البخاري.

(٣) رواه أبو داود والترمذي.

(٤) رواه الطبراني.

(٥) رواه البخاري.

ومما يعلمه القاصي والداني، وحفلت به مؤلفات العصور الوسطى، أن أبناء الأمم غير العربية كانوا يفضلون التعامل مع العربي المسلم لصدقه وأمانته ووفائه ونزاهته على أبناء جلدتهم، ونرى اليوم أن العربي يفضل التعامل مع أي إنسان من أي ملّة على أن يتعامل مع أخيه العربي لما وصل إليه العرب من مساوىء التعامل لا سيما في النواحي المادية.

ولعل تفهم تربية الرسول ﷺ للمسلمين، بالنأي الكلي عن سلبيات التعامل، والالتزام بإيجابياته يمكن أن يعيد الأمور إلى مجاريها الصحيحة، ويحول دون هدر مقدرات الأمة وتقويض إمكاناتها، ومن سلبيات التعامل التي يؤكد الرسول الكريم على تلافيها ـ على سبيل المثال ـ ما يأتي:

- **الغدر:**
- «لكل غادر لواء يوم القيامة، يقال: هذه غدرة فلان»[١].
- **الخيانة:**
- يقول الله عزّ وجلّ: «أنا ثالث الشريكين ما لم يخن أحدهما الآخر»[٢].
- **الخداع:**
- . . . «المكر والخداع في النار»[٣].
- **الظلم:**
- «اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة»[٤].
- **الغش:**
- «من غشّنا فليس منا»[٥].

---

(١) متفق عليه.
(٢) رواه أبو داود والحاكم.
(٣) رواه أبو داود وابن ماجه وغيرهما.
(٤) رواه مسلم.
(٥) رواه أبو داود وابن حبان وغيرهما.

- **الحسد**:

- «إياكم والحسد فإن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب»[1].

- **قصدية الأذى**:

- «إن الله يكره أذى المؤمنين»[2].

- **الترويع**:

- «لا تروعوا المسلم فإن ترويع المسلم ظلم عظيم»[3].

- **افتعال الخصومة**:

- «إن أبغض الرجال إلى الله الألدّ الخصم»[4].

---

(١) رواه البيهقي وأبو داود.

(٢) متفق عليه.

(٣) رواه الطبراني والبزار وغيرهما.

(٤) رواه مسلم.

رابعاً: الضبط الخلقي في الإسلام

أ- مفهوم الضبط الخلقي وأهميته

١ - مفهوم الضبط الخلقي:

قد لا يكون هناك إنسان غير مقتنع بجدوى الأخلاق وأهميتها ودورها في بناء قوامة الحياة وعدالتها وسعادتها، ولكن التساؤل الذي ثار منذ القدم: كيف يمكن تحقيق ضبط التزام الناس بالأخلاق التي يصطلح عليها المجتمع، بحيث تصبح روحا تسري في كل كيان المجتمع وكيان كل فرد فيه، مما يؤدي إلى شمولية الالتزام بأسس البناء الأخلاقي من حق وعدل وخير وحرية ومساواة، وتمتع بالحقوق ونهوض بالواجبات؟

أدى هذا التساؤل إلى وضع قوانين ـ مكتوبة أو غير مكتوبة ـ تعمل في اتجاهين، أولهما: يثيب الملتزم بالأخلاق والمتمثل لها سلوكا في حياته، ثوابا ماديا ومعنويا، وثانيهما يعاقب المنحرف عن الخلق الكريم والسلوك السويّ السليم، ولا زال كثير من دول العالم يتبنّى هذا الأسلوب.

إلا أن الممارسة على أرض الواقع أثبتت أن القوانين يسهل اختراقها والتحايل عليها بسهوله ويسر، كما يسهل احتواء القائمين على تنفيذها بالرشاوي وشراء الذمم أو بالتهديد والوعيد أو بالأذى في النفس والأهل والولد والسمعة وغيرها، وقد تفنّنت عصابات الجريمة المنظمة كالمافيا الإيطالية والأمريكية والروسية في هذه الأساليب إلى درجة تحييد القوانين أو تسييرها في خدمتها.

ويؤكد الإسلام أن الضبط الخلقي لا يتحقق إلا بالتعامل مع المكونين الرئيسين للإنسان: المادي والمعنوي أو الجسد والروح، فما منهما ما يغني عن الآخر، وعليه فإن الضبط الخلقي لا بدّ أن يسير في الاتجاهين معاً، وذلك بترسيخ الإيمان بالمعتقدات الاسلامية التي تضبط الإنسان ذاتياً مع مكارم الأخلاق بوازع داخلي،

وفي الوقت نفسه لا بدّ من أن يتضمن التشريع عملية الضبط الخارجي لقيم الإنسان وعلى ذلك شرعت الحدود لردع كل مستهتر أو منحرف.

وقد تبنى علماء الاجتماع في الشرق والغرب هذا المفهوم ووضعوا ضوابط خمسة للأخلاق هي: الضمير الخلقي، والمسؤولية الخلقية والالزام الخلقي، والحكم الخلقي، والجزاء الخلقي.

٢- أهمية الضبط الخلقي:

من المعروف أن معظم الناس لا يمكن أن يكرروا عملاً أبدعوا فيه إذا لم يكافأوا على عملهم الأول، وقلّما يرتدع إنسان عن ارتكاب خطأ أو جرم ما، إذا لم يعاقب على خطئه أو جرمه الأول، لذلك كان لزاما على أي مجتمع يسعى إلى تحقيق الأمن والطمأنينة والتقدم والابداع، أن يكافىء المحسن على إحسانه، والمبدع على إبداعه، وفي الوقت نفسه يعاقب المسيء على إساءته والمجرم على إجرامه، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾[1]، ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَىٰ﴾[2].

من هذا المفهوم جاءت أهمية الضبط الخلقي، الذي إذا تمّ إحكامه أدى إلى اندفاع المخلصين في سبيل الإبداع والابتكار والانجاز وترقية الحياة وإكسابها مستوى متقدما من الأمن والرخاء والازدهار، وفي الوقت نفسه ردع كل من يجنح إلى الهدم والتدمير، والاعتداء المادي والمعنوي على خلق الله، وما أحكم قول الإمام علي في رسالته إلى الأشتر النّخعي واليه على مصر: «لا يكن المحسن والمسيء عندك سواء، فإن في ذلك تزهيداً لأهل الإحسان وتشجيعاً لأهل الإساءة على الإساءة».

والإسلام الذي يهتم بسلامة مجتمعه وقوامته، وأمن مواطنيه واستقرارهم وصيانة كراماتهم وحقوقهم وحرياتهم وإعلاء إنسانيتهم يولي الضبط الخلقي اهتماماً مستحقا، وفيما يأتي بيان ذلك بالنسبة للضوابط الخمسة.

---

(١) يونس (٢٦).

(٢) الروم (١٠).

ب- الضوابط الخلقية في الإسلام

١- الضمير الخلقي:

هناك قوّة في أعماق النفس البشرية تعرض عليها ما تراه أو تتصوره من أقوال، أو أعمال، فإما أن ترتاح إليها فتمضيها، وإما أن ترفضها وتوقفها ويعبر عن هذه القوة بالضمير. والضمير بهذا المفهوم وازع داخلي، ينتج عن تفاعل المكونات الأساسية للنفس البشرية، بما يشكل شعورا رافضاً أو مستسيغاً لموقف ما ـ ماديا كان أو معنوياً ـ.

والإسلام يعتبر القلب مسؤولاً عن هذه المشاعر التي تشكل استجابات الضمير المتنوعة، فالله ـ جل وعلا ـ يقول: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾[(١)]، ﴿وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾﴾[(٢)] ﴿وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ﴾[(٣)]، ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ﴾[(٤)]، ﴿وَلَـٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾[(٥)]، ﴿وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ﴾[(٦)]، وبذلك يعتبر القلب محل السلامة والإثابة والطمأنينة والغفلة والقصدّية والرفض، والرسول ﷺ يقول: «ألا وأن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب»[(٧)].

وما يضمره الإنسان (يخفيه) لا يطلع عليه سوى خالقه وهو نفسه، لذلك فإن الضبط الخارجي للأخلاق، يغدو محدود الفعالية، ويغدو الضبط الداخلي هو

---

(١) الشعراء (٨٩).

(٢) ق (٣٣).

(٣) النحل (١٠٦).

(٤) الكهف (٢٨).

(٥) الأحزاب (٥).

(٦) التوبة (٨).

(٧) رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

المعوّل عليه لا سيما بالنسبة للمؤمن الذي يعتقد بأن الله تعالى يعلم ما توسوس له به نفسه، بما يجعله يوائم بين مكنونات الضمير وواقعية الأخلاق.

لذلك كان الرسول حريصاً على توجيه المسلمين إلى رياضة الضمير الخلقي بشكل متتابع متواصل مستمر، ليكون مطواعا لكريم الأخلاق، واتبع لذلك عديداً من الأساليب لعل أهمها الأساليب الثلاثة الآتية:

١ / ١ : تأمين الرفقة الصالحة:

رفقة الأخيار خير كلها، فهؤلاء يعيشون حياة الطهر الخلقي من عفّة وصدق وأمانة وعدل وخير وحق.. إلخ مما يرتقي بنفوسهم ويسمو بأخلاقهم، ورفقتهم تؤدي إلى الاقتداء بهم والتأسي بأقوالهم وأعمالهم، مما يحمي الضمير من الانحراف، فخيار الناس لا يتوافقون مع الشرّ ولا ينفذ الشرّ إليهم، ويغدو الخير، وتحقيق رضا الله تعالى غايتهم في الحياة، لذلك يضع الرسول الكريم أسس هذه الصحبة ويحث عليها في أحاديث كثيرة منها:

- «لا تصاحب إلا مؤمنا، ولا يأكل طعامك إلا تقيّ»(١).
- «الرجل على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل»(٢).

١ / ٢ : تحقيق الوقاية الخلقية:

النفس البشرية بفطرتها مطواعة لنزواتها وهواها وشهواتها، وقد تتردّد في إشباعها إذا وجدت صعوبة أو خطورة أو مذلّة في نيلها ولكن إذا كانت مواطن رغباتها سهلة المنال، معروضة مبذولة لكل راغب، فإن الشهوة والرغبة والنزوة تضغط على الضمير وتحيّده فتُرتكب الآثام وتنتشر الموبقات، لذلك يعمل الإسلام على تحرير ضمير الإنسان من هذه الضغوط بوقف المباذل في مجتمعه، ووقف كل أنواع الانحراف والخبث والرذيلة على اتساع مجالاتها ومن ذلك:

- تحريم الخمور والمخدرات والتعامل معها بأي نوع من أنواع التعامل، حتى لا تفتك بالعقل وتلغي قدرة التمييز لديه.

---

(١) رواه ابو داود والترمذي.

(٢) رواه أبو داود والترمذي.

- تحريم كل ما يؤدي إلى فاحشة الزنا، وسدّ كل المنافذ المؤدية إليها من تهتك وتبرج وخلوة واختلاط، ومراقص وكباريهات واتجار بالأعراض، مما يقي المسلم من الوقوع في أي من هذه الشراك.

- تحريم الانحراف في الصلات والعلاقات والمعاملات، وضبطها مع الاتجاه الأخلاقي الذي يقرّه الإسلام.

- تكوين الرأي العام الرافض للرذائل والمساند للفضائل بحيث يجد من يشذ نفسه معزولاً اجتماعياً.

وفي ذلك يقول الرسول ﷺ:

- «ما من مسلم ينظر إلى محاسن امرأة، ثم يغضّ بصره، إلا أحدث الله له عبادة يجد حلاوتها في قلبه»(١).

- «أيّما امرأة استعطرت، فمرّت على قوم ليجدوا ريحها فهي زانية»(٢).

- «لعن الله الخمر وشاربها وساقيها ومبتاعها وبائعها وعاصرها ومعتصرها وحاملها والمحمولة إليه»(٣).

- «فطوبى لعبد جعله الله عزّ وجلّ مفتاحاً للخير مغلاقاً للشر، وويل لعبد جعله الله مفتاحاً للشرّ مغلاقاً للخير»(٤).

١ / ٣: تهيئة المناخ الأخلاقي:

الإنسان ذو ضمير اجتماعي، يتوافق ضميره ـ في الغالب ـ مع محددات الضمير في المجتمع الذي يعيش فيه، فلا يحب أن يراه الناس حيث يكرهون، فما من إنسان يودّ أن يعيش في مجتمع ينبذه ويكرهه كل من فيه ويمقتونه ويحتقرونه. مما يجعل سيادة أجواء الصلاح في أي مجتمع، عاملا من عوامل التمكين للأخلاق الكريمة.

---

(١) رواه أحمد والطبراني.

(٢) رواه الحاكم.

(٣) رواه أبو داود وابن ماجه.

(٤) رواه ابن ماجه والترمذي.

والإسلام يأخذ المسلمين بالعمل الدائم لسيادة هذا المناخ الأخلاقي باللقاء اليومي الخماسي في المسجد، وفي الارتباط الدائم بمكارم الأخلاق في المنتديات والمعاهد والأسواق وغيرها، وبالتزام الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. . إلخ، حتى ينمو الضمير الخلقي في هذه الأجواء الصحية.

ويأخذ الرسول الكريم المسلمين بهذا الاتجاه فيقول:

- «إياكم والجلوس في الطرقات» قالوا: يا رسول الله، ما لنا من مجالسنا بدّ، نتحدث فيها، قال: إذا أبيتم فاعطوا الطريق حقهّ قالوا: وما حق الطريق؟ قال: غض البصر، وكف الأذى، وردّ السلام، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»[1].

- «ثلاث من كنّ فيه استوجب الثواب واستكمل الإيمان: خلق يعيش به بين الناس، وورع يحجزه عن محارم الله، وحلم يرد به جهل الجاهل»[2].

٢- المسؤولية الخلقية:

كل قول أو عمل أو خلق أو سلوك يحاكم في الإسلام على أساس معيارين هما: المعروف، وهو ما عرف بالشرع على اعتبار أنه لازم الخيرية باتباعه ما جاء عن الله ورسوله، والمنكر، وهو كل ما ينكره الشرع ويأمر باجتنابه والنأي عنه مما يتطلب إنكاره من كل مسلم. ويعتبر الإسلام المسؤولية الخلقية واقعة ضمن حدود المعروف والمنكر، فالمعروف يجب أن يلقى دعماً وتأييداً وتحبيذاً وتشجيعاً من كل فرد في المجتمع وفي الوقت نفسه تكريم الملتزم به، والمنكر يجب أن يلقى مقاومة ونبذا من كل فرد، وردع المرتكبين له من كل فرد أو جماعة في المجتمع وفي الوقت نفسه عدم تكريم من يرتكبه حتى يكف عنه ويتوب.

وقد سبق تناول المسؤولية في الإسلام في الفصل السابق، واتصافها بالشمولية التامّة، حيث تبدأ من مركز الدائرة وهو الفرد، الذي يعتبر مسؤولا عن ذاته وكل ما يصدر عنها، وعن توجيه وإرشاد كل فرد في أسرته، وعن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في مجتمعه، ومروراً بكل جماعة أو هيئة أو مؤسسة في المجتمع، حيث يكون كل فرد فيها مسؤولاً عن نفسه وعمّن حُمّل مسؤوليتهم.

---

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه البزار.

على هذا الأساس تعتبر المسؤولية في الإسلام ومنها المسؤولية الخلقية شاملة لكل جزئية في الكيان الاجتماعي ككل متكامل، بحيث تطال كل نشاط يجري على أرض الواقع ـ مادياً أو معنوياً ـ وتنبثق هذه المسؤولية من واجبات الرعاية التي أكدها الرسول بقوله: «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته» مما جعل كل من تنتظمه السلسلة الاجتماعية معنيّاً بهذه الرعاية، التي لا تقتصر على معنى دون آخر، ولا على تصرف دون غيره.

وقد سبق الاستشهاد بالأحاديث النبوية المؤكدة على الاضطلاع بالسؤولية، سواء أكان ذلك فيما يتعلق بنهوض الفرد بمسؤولياته أو المجتمع أو الدولة مما يغني عن الإعادة.

٣- الالزام الخلقي:

اكساب الخلق صفة الزامية هو الذي يعطيه جدواه الحقيقية، حيث يتحول من النظرية إلى التطبيق في حياة الناس، ويغدو سلوك الناس وتعاملهم وتصرفاتهم وعلاقاتهم مبنية عليه، وبدون هذه الصفة الالزامية يبقى في مهبّ الريح، حيث يحسن من يحسن، ويسيء من يسيء حسبما يدفعه هواه.

والإسلام يعتبر خلق المسلم مسؤولية، لذا ينطبق عليه ما ينطبق على المسؤولية من حيث اتجاهي الارتباط به وهما: الالتزام والالزام، ونبيّن ذلك فيما يأتي:

٣/ ١: الالتزام الذاتي:

يعتبر الاسلام الالتزام بالأخلاق الكريمة الفاضلة أساس المسعى الذي يحقق به الالزام الخلقي، معتبراً أن المؤمن لا بد وأن يلتزم تلقائياً بأخلاق الإيمان ويسوق ذلك بإسلوب موضوعي يتوافق مع المعطيات الادراكية للإنسان العادي.

إنّ الايمان يتطلب أن يتوافق سعي الإنسان مع ما يؤمن به، وألا يوقع ذاته في حبائل النفاق والمراءاة، والغش والخداع والتضليل، بل يحترم نفسه ويقدر ذاته ويعتز بمواقفه بالتزامه بالخلق القويم الذي يعتقد بأحقيته وكرامته.

والمسلم يؤمن بأنه لا بدّ من بعث ونشور وحساب، ولن ينفض سوء الحياة دون محاسبة ويغدو مآل الأخيار كمآل الأشرار، فهذا ما لا يستقيم مع عدل صاحب

العدل المطلق ـ سبحانه ـ وبذلك يضع مفهوم الحساب المسلم على أول عتبات الالتزام الخلقي.

والحساب لا يقوم عليه أحد من البشر، بحيث يسهل خداعه وتضليله، وإنّما يتولاّه ربّ البشر الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور، والشهادة ستكون من الذات على الذات ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾﴾[1]، فلا تحايل ولا تبرير ولا شراء ذمم ولا تزوير.

وإذا وضع الإنسان هذا في اعتباره، يصبح التزامه الخلقي واقعا، دونما أي حاجة لقانون الزام، والرسول ﷺ يعمق هذه المعاني في تربيته للمسلمين، لربطهم بمنهج الله الحق في كل أمور حياتهم ومنها الأخلاق فيقول:

- «الكيّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والأحمق من اتبع نفسه هواها وتمنّى على الله الأماني»[2].

- «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه، فإنّه يراك»[3].

- «إن العبد ليبلغ بحسن خلقه عظيم درجات الآخرة، وشرف المنازل، وإنه لضعيف العبادة»[4].

٣/ ٢ : الالزام الخارجي:

مع أهمية الالتزام الخلقي، إلا أن هناك نوعية من البشر لا تحترم نفسها ولا ترتقي بأخلاقها وسلوكها، فهل يترك هؤلاء يعيشون في الأرض فساداً؟

إن الإسلام إذ يأخذ بالالتزام ويحث عليه ويهتم به ويدعو له لا يهمل عملية الزام غير الملتزمين بالأخلاق الكريمة بأسلوبين:

---

(١) النور (٢٤).

(٢) رواه البخاري.

(٣) رواه البخاري.

(٤) رواه الطبراني.

- **الزامية الرأي العام:**

الأصل في الرأي العام المسلم الالتزام بالأخلاق الكريمة وعدم التفريط فيها والحرص على أن تكون الصفة العامة لكل فرد في مجتمعه، لذلك فإن للرأي العام دورين، أحدهما إيجابي وهو تشكيل قوة رادعة تقف في وجه كل انحراف في القيم والأخلاق الاسلامية، وإعادة المنحرفين إلى الجادة، وقد قامت مؤسسات الحسبة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بدور رائد في هذا المجال في العصور الإسلامية السابقة، وثانيهما: سلبي، ويقوم على عدم التعامل مع المتحلل من الأخلاق، ومقاطعته مقاطعة شاملة، فلا علاقة ولا مجاملة ولا تزاور ولا تهنئة ولا مواساة ولا مؤاكلة ولا مشاربة ولا حتى الكلام، وما من إنسان يصبر على مثل هذا الوضع من أبناء مجتمعه ولذلك يضطر إلى الالتزام بإلزامية الرأي العام.

والرسول الكريم ﷺ يربي الرأي العام المسلم على هذه الايجابية للإلزام بالأخلاق فيقول:

- «إذا رأيت أمتي تهاب أن تقول للظالم يا ظالم فقد تودع منها»[١].

- «عن أبي ذر ـ رضي الله عنه ـ قال: أوصاني خليلي ﷺ بخصال من الخير: أوصاني ألا أخاف في الله لومة لائم، وأوصاني أن أقول الحق ولو كان مرّا..»[٢].

- إن أول ما دخل النقص على بني إسرائيل، أنه كان الرجل يلقى الرجل، فيقول: يا هذا اتق الله، ودع ما تصنع فإنه لا يحلّ لك، ثم يلقاه من الغد وهو على حاله، فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده، فلما فعلوا ذلك، ضرب الله قلوب بعضهم ببعض[٣].

- **الزامية السلطات:**

والسلطات الإسلامية على مختلف أجهزتها ومؤسساتها معنية بتنفيذ شرع الله، وحماية الأخلاق الاسلامية وصيانتها وهي تملك القوة التي تستطيع أن تردع كل

---

(١) رواه الحاكم.

(٢) رواه ابن حبّان.

(٣) رواه أبو داود والترمذي.

منحرف وتلزم كل فرد بالأخلاق الفاضلة عبر جندها وأجهزتها الأمنية ومحاكمها وقضاتها. . . إلخ.

والسلطات تستطيع القيام بدور الوقاية الخلقية ابتداء، بعدم الترخيص للخمارات والكباريهات والملاهي والمراقص وكل أنواع الانحرافات الخلقية والموبقات ومطاردة المنحرفين، كما تستطيع القيام بالعلاج الخلقي بتنفيذ شرع الله وإقامة الحدود وتشديد التعزير.

والرسول ﷺ يرتب على السلطات واجباً رئيساً في تحقيق الزامية الأخلاق فيقول:

- ما من أمير يلي أمور المسلمين ثم لم يجهد لهم، وينصح لهم، إلا لم يدخل معهم الجنة[١].

- أقيموا حدود الله في القريب والبعيد، ولا تأخذكم في الله لومة لائم[٢].

٤ - الحكم الخلقي:

هذا التصرف أخلاقي أو غير أخلاقي، على أي أساس يصدر هذا الحكم؟ هل يترك الأمر لكل إنسان ليقرر ما هو أخلاقي وما هو غير أخلاقي، فيحلّ هذا حينا ويحرّمه حيناً آخر، مشرقا ومغربا مع هواه، فما يراه حقا مطلقا يراه غيره باطلا مطلقا؟. لقد وجدت البشرية منذ زمن طويل أن لا بدّ من وجود معيار حكم، تحاكم على أساسه الأخلاق.

وقد بحثت شعوب العالم طويلا عن هذا الحكم الأخلاقي فقال بعضهم بالعقل، ولكن عقل من؟ فكل عقل له حكمه، وقال آخرون بالضمير، ثم بالعدل، ثم بالخير، ولكن من يحدد معالم هذا أو ذاك، وجاء مكيافيللي ليقول قولته المشهورة: «الغاية تبرر الوسيلة» وجاءت البراجماتية لتقول بالمنفعة، وتتبنى نظرية القيمة المنصرفة للقيم والأخلاق، وانتهى الأمر بأن يضع كل شعب معاييره الأخلاقية ويحتكم إليها، غير آبه بآراء غيره من الشعوب، فإذا كانت كل شعوب الأرض ترى

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه ابن ماجه.

في اللواط جريمة بشعة، تراه بعض الدول الغربية حرّية شخصية وتُشرّع لإباحته، وإذا رأت كل الشعوب قتل الزوجة أثر موت زوجها ظلما لا يدانيه ظلم، فإن الهنود يرون حرق الزوجة في نار زوجها الميت عدلا ما بعده عدل، وأصبح الحكم الأخلاقي خاصا بكل مجتمع، ويعود إلى القوانين التي تحدد المباح والممنوع في كل خلق وسلوك.

والأمر في الإسلام مختلف تماماً، فتحديد الحكم الأخلاقي ليس للناس وإنما لربّ الناس، وهو الذي خلقهم، ويعلم علم اليقين ما يصلحهم وما يفسدهم، لذلك فإن ما جاء في الكتاب والسنة من الأخلاق مندوباً إليه فهو من الأخلاق الإسلامية حكما، وما جاء منهيا عنه فهو لا أخلاقي حكما، وعلى ما جاء منهما تقاس المستجدات والمتغيّرات في الميدان الأخلاقي - اجتهاداً -

والحكم بأخلاقية أي عمل في الإسلام يقوم على ركيزتين:

- **أن يكون صواباً**: بمعنى أن يكون متوافقا مع ما أمر به الله ورسوله، فما أمرا به هو الصواب الأخلاقي في المفهوم الإسلامي.

- **أن يكون خالصاً**: أي أن يكون أخلاقيا بحتا، لا قصدية للمنفعة أو الهوى أو المصلحة أو المحاباة فيه فالخلق الخالص منزه عن ذلك كله، فمن يتوخّى العدل عادل إذا كان يطبق العدل بالمعيار ذاته على نفسه أو غيره، وعلى من يكره أو يحب، وبذلك يكون عدلاً خالصاً لله تعالى ويكون صاحبه عادلاً، وهكذا بالنسبة لكل قيمة وخلق.

هذا الحكم الخلقي يأخذ مسارين أحدهما ظاهري وهو ما تتبعه أي سلطة، حيث تتبع الظاهر، والأدلة المرجحة وشهادات الشهود... إلخ، وثانيهما باطني يتعلق بصاحب الخلق نفسه فإذا حكم له بحكم موضوعي حسب الظاهر، وهو يعلم علم اليقين أنه ليس له، فإن الإسلام يأبى عليه أن يقبله برغم حكم الجهة المعنية، وفي ذلك يقول الرسول الكريم:

- إنّما أنا بشر، وإنه يأتيني الخصم، ولعل بعضهم يكون أبلغ من بعض، فأحسب أنه صادق، فأقضي له، فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هي قطعة من النار، فليحملها أو ليذرها»[1].

---

(١) رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

ونظراً لأن مرجعية الحكم الأخلاقي في الإسلام محددة واضحة، فإن الرسول يربي المسلمين على الاحتكام لهذه المرجعية حكما، ولا يمنع ذلك من محاكمتها عقليا، فما من محاكمة جرت لها على مدى التاريخ إلا وأثبتت أحقيتها وعدالتها وخيريتها، والمحاكمة العقلية لا تأتي للتملّص منها، وإنما لمزيد من الثقة بها والاطمئنان إليها، وفي ذلك يقول ـ عليه السلام ـ:

- إن الله قد أعطى كل ذي حقٍ حقّه، إلا أن الله قد فرض فرائض وسنّ سنناً وحدّ حدودا وأحل حلالا وحرّم حراما، وشرّع الدين، فجعله سهلا سمحا واسعا، ولم يجعله ضيّقا، ألا إنه لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له. . .[1].

- يقول الله عز وجل: «ما تقرب إليّ عبدي بشيء أحب إليّ مما افترضت عليه»[2].

٥- الجزاء الخلقي:

المساواة بين العادل والظالم ظلم، وبين المجدّ والمهمل ظلم، وكذلك هي بين الملتزم بالأخلاق والمتحلل منها، ذلك لأن مساواة الملتزم بالمتحلّل، تدفع الأول إلى الإحباط والثاني إلى التمادي وإفساد حياة الأحياء.

من هذا المفهوم جاء الجزاء الخلقي، لدفع المحسن إلى الاستمرار في إحسانه، وردع المسيء للتوقف عن إساءته، فنشأت الحوافز الايجابية بتكريم الملتزم ماديا ومكافأته وترفيعه وتحميله مسؤوليات قيادية أعلى أو معنويا بشكره وتقديره والتنويه باسمه ومكانته، وفي الوقت نفسه معاقبة غير الملتزم ماديا بالعقوبات المتنوعة أو تعزيره أو تغريمه أو فصله من عمله، ومعنويا بإسقاط شهادته أو لومه وإنذاره، أو إسقاط مكانته في المجتمع. . . إلخ.

وقد أقيم الجزاء وفق ما سبق على اتجاهين: اتجاه إيجابي بتشجيع المحسن وحفزه ومكافأته، واتجاه سلبي بمعاقبة المسيء وردعه وإعادته إلى جادة الصواب، وفيما يأتي موقف الإسلام من كل منهما:

(١) رواه الطبراني.

(٢) رواه البخاري.

١/٥ : الجزاء الإيجابي:

يهدف الإسلام إلى أن يكون مجتمعه مجتمع الأخلاق الكريمة والفضائل العالية، لذلك فهو يعلي مكانة الملتزمين بمكارم الأخلاق، ويكافئهم مادياً ومعنوياً. . ماديا بأن يسلمهم مقاليد الأمور والقيادات العليا في المجتمع والمهام ذات التّميّز الخاص، وتقدير أي مكافأة على أساس الجهد والجد والاتقان، فالعطاء كان يقل أو يكثر حسب السابقة في الإسلام، والأنفال للذين ينفذون مهام متميزة وتقدر حسب البلاء في الجهاد، وفي الزكاة نصيب للغارمين الذين يغرمون أموالاً في سبيل الخير، وعندما تشفّعت سفانة بنت حاتم بالنبي، وعددت مناقب أبيها، قال ـ عليه السلام ـ خلوا عنها فإن أباها كان يحب مكارم الأخلاق، وعندما جاء وفد نجران وطلبوا أن يرسل معهم من يعلمهم الإسلام قال: لابعثن معكم رجلاً أمينا حق أمين، وكان هذا الأمين هو أبو عبيدة.

وفي تولية القيادة يقول ﷺ:

- «من استعمل رجلاً من عصابة، وفيهم من أهو أرضى لله منه، فقد خان الله ورسوله والمؤمنين[١]».

وحتى في الزواج يقول:

- «إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه»[٢].

أما بالنسبة للجزاء المعنوي فجزاء الآخرة هو ما يحرص عليه المسلم وهو مضمون بوعد الله ـ تعالى ـ ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ﴾[٣] وسئل الرسول عن أكثر ما يدخل الناس الجنّة فقال: «حسن الخلق».

ولا نجد مناسبة إلا ويقدّم فيها الرسول ـ عليه السلام ـ أصحاب الخلق الملتزم، وبخاصة الأنصار الذين يقول فيهم: «لا يحبهم إلا مؤمن، ولا يبغضهم إلا منافق» والصحابة الذين يقول فيهم: «من أحبهم فبحبي أحبهم ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم، ومن آذاهم فقد آذاني».

(١) رواه الحاكم.

(٢) رواه الترمذي.

(٣) النحل (٣٠).

ونجد كثيراً من الصحابة قد خص بتكريم خاص بقي مستمراً على مدى القرون: أبو عبيدة أمين هذه الأمة، وخالد سيف الله، والزبير حواري رسول الله، وأبو ذر: ما أقلت الغبراء، ولا أظلت الخضراء أصدق لهجة من أبي ذر وحمزة أسد الله، وعمار مليء إيماناً، وسلمان لقمان الحكيم وهكذا.

٥/ ٢ : الجزاء السلبي:

أما الجزاء السلبي فهو لردع أولئك المستهترين بالقيم والأخلاق في المجتمع المسلم، ويأخذ أيضاً الاتجاه المادي فالحدود إنما شرعت لردع هؤلاء، فالقاتل المتعمد يقتل، والسارق يقطع، والزاني يجلد أو يرجم وهكذا، بل لقد مارس الرسول ضد بعض الفئات عملية العزل الاجتماعي، كما حدث مع أصحاب مسجد الضرار، ومع المنافقين ومع المخلفين، ولا ولاية أو قيادة أو مسؤولية لمن لا يلتزم بالأخلاق الإسلامية، وقد منع عمر تولية القيادة لمن سبقت ردّته.

أما الجزاء المعنوي السلبي لهؤلاء فهو أشد، فليس لهم في الآخرة إلا ما يسوءهم، وفي الدنيا لا مكان لهم في المجتمع المسلم، وفي ذلك يقول عليه السلام:

- «من غشنا فليس منا»[١].
- «من خبب (أفسد) زوجة امرىء أو مملوكه فليس منا»[٢].
- «ليس منا من لم يوقّر كبيرنا ويرحم صغيرنا»[٣].

ويسقط مكانة غير الملتزم خلقيّا، فيقول:

- «لا تجوز شهادة خائن ولا خائنة»[٤].

وكان عليه السلام يحاسب ولاته حساباً موضوعياً دقيقاً، فيحسن إلى المحسن ويعاقب المسيء، ويصادر أموال من نمت أمواله، باستغلال وظيفته وهكذا فعل الخلفاء الراشدون من بعده.

---

(١) متفق عليه.

(٢) رواه أبو داود.

(٣) رواه أبو داود والترمذي.

(٤) رواه أحمدوأبو داود والبيهقي.

خامساً: خلاصة الفصل الرابع

لقد قيل عن حق: «البقاء للأصلح» فأي الأمم هي الأصلح لقيادة حركة الحياة على الأرض؟ أهي الأمة التي حازت القوّة المادية من أطرافها ولم تعن بالقيم والفضائل؟، أم تلك التي التزمت بالقيم والفضائل ولم تعن بالجوانب المادية والتطور الحضاري؟ والإجابة البديهية المعروفة أن ما منهما هي الأصلح، وإنما الأصلح هي التي تجمع المقومين معا، فأي أمة عنيت بالأخلاق فقط ولم تعن بالجوانب المادية مصيرها الهلاك، وأي أمة تبني وتعلي مهملة الأخلاق مصيرها الزوال، كما يقول شوقي:

إنمـا الأمـم الأخـلاق مـا بقيـت   فـإن هـمُ ذهبـت أخـلاقهـم ذهبـوا

والإسلام لا يضحي بإحدى القوتين: المادية أو المعنوية، لحساب الأخرى، وإنما يدعو إلى تنميتهما معاً، بحيث لا تطغى قوة على قوة، فيختل التوازن، وتميد الحياة بأحيائها، فلا قوة بلا قيم وفضائل فتغدو قوة سفه وتآمر وقهر وظلم للإنسان، ولا قوة قيم وأخلاق بدون قدرات ماديّة فتغدو استكانة واستذلالا وهوانا لا يتعايش معه الإنسان.

وأمتنا لها رصيد تراثيّ ضخم لا مثيل له بالنسبة للقيم الأخلاقية التي رسختها تعاليم السماء، مما لا يجيز لها أن تلتمس الفتات من نفايات الأيدلوجيات، وأن يسيطر عليها الكسل والخمول وتغرق ذاتها وأجيالها في الوحول، تقبل بالدون، وتجتر الهون، وتغفو على قارعة التاريخ.

لقد شاء الله تعالى الخيرية والعلو لهذه الأمة، وأناط برسول منها تحقيق علوها وخيريتها فعمل عليه السلام على إطلاق عقولها من أسرها لتبدع في كل مجال ومنه المجال الأخلاقي، الذي يكسبها سكينة في النفوس، واستمساكا في مزالق الفتن، واستبسالا في أتون المحن، وتمسكا بالفكرة والعقيدة وسببا إلى العلا.

وإذا استوعبنا هذا الفصل نجد الرسول الكريم قد أوفى فيه على الغاية في وضع الأسس الحاكمة لرقي الأخلاق ومن ذلك:

١- التأكيد الحازم والتنويه المستمر بأهمية الأخلاق في حياة المجتمعات بعامة والمجتمع الإسلامي بخاصة، وبيان انعكاسات مساوىء الأخلاق على أمن المجتمع وحقوق مواطنيه وحرياتهم وحرماتهم، ومن ثمّ التدني بقدراتهم على العمل والجد والإبداع والنهوض الحضاري.

٢- البيان الواضح لما يسمى اليوم بالدستور الأخلاقي، الذي يبين بشكل حصري محدد الأخلاق ذات الإيجابية الفاعلة في حياة الكائن الإنساني، ووصفها بأخلاق الإيمان، حيث يجب على من يؤمن بالله ربا وبالإسلام دينا، وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً، أن يلتزم بهذه الأخلاق التي تحقق ايجابياتها صلاح المجتمع وفلاحه ورقيه وتقدمه وأمنه وسعادته، من صدق وأمانة واستقامة وعفاف وطهر وعطف وتواضع وتراحم وتعاون وتآزر وحق وعدل. . . إلخ.

كما يؤكد على كل مؤمن ألا يعيش سلبية الأخلاق، التي يتبعها الكافرون من كذب وخيانة وانحراف وفسوق وكبر وخيلاء، أو التي يتبناها المنافقون من غش وخداع وتحايل وتمويه ومراءاة وجبن وخنوع وذلة وخضوع وتعمية ومراوغة وتزوير وتضليل. . إلخ فكلا هذين الاتجاهين مدمر لإيمان المؤمن ولإنسانية الإنسان.

٣- ويبين ـ عليه السلام ـ أن الأخلاق الواعية الواعدة الملتزمة، يجب أن ترتبط بشرف الغاية ونبل المقصد، وتلتزم بالموضوعية المطلقة التي تحيّد الهوى وتلجم النزوات، وأن يكون لها من الشمول بحيث تعمّ كل خلق الله، من الكائنات الحيّة وغير الحيّة، يقوّمها الاعتدال الذي ينأى عن الإفراط والتفريط فلا يكلف النفس إلا وسعها ويرتقي بمضمون هذا الوسع، إضافة إلى الإيجابية التي تحكم على الذات ألا ترضى لغيرها إلا ما ترضاه لنفسها، ليعم الصلاح، ويسعد الإنسان بالإنسان ومع الإنسان، وهكذا بالنسبة للتكامل الأخلاقي الذي لا يقبل التجزئة ولا يميل إليها وإنّما يتبنّى القيم التي تتعامل مع الإنسان من حيث كونه إنساناً.

٤- ويستقصي ﷺ مفرزات الأخلاق السلوكية، باعتبار أن الأخلاق ليست حلية وإنما ممارسة على أرض الواقع، فلا نفع منها إذا لم تترجم سلوكاً واقعياً على

الأرض يحكم تعامل الناس بعضهم مع بعض، ويركز تركيزا واضحا على أخلاقية الأقوال وتزكيتها والتزامها الحق والحقيقة، والعدل والخير، واستثمار الكلمة وتأثيرها في ترقية الحياة والتوافق بين الأحياء، من حيث التزام الصدق وتجنب الكذب، وكف الغيبة وردها، وقصدية الخير والهدى والنصح والنصرة والشفاعة، واستثمارها في التعليم والنهوض بالأمة، وتلافي كل ما من شأنه أن يعكر صفو العلاقات من نميمة ووشاية وشماته ورياء، ولعن وسب وتجسس وبذاءة ونفاق وخصام وجدل عقيم . . . إلخ.

وغير خاف أن أسوأ هزيمة حاقت بأمتنا في القرن العشرين هي هزيمتها في ميدان الكلمة، حيث شغلتها انقساماتها السياسية وتخلفها في عديد من الميادين، ومنها صناعة المعلومة التي سيطر عليها يهود، وغدوا يملكون ويسيرون الكلمة وسيطروا على الأغلبية الساحقة من وسائل الإعلام القادرة على صناعة المعلومة، ثم صمموا صناعتها على أساس من الكذب والخداع والتزوير والتضليل ضد شعوب العالم ونال الشعوب العربية الإسلاميّة النصيب الأكبر من ذلك، حيث أخذت في تشويه عقيدتها ومفاهيمها وأخلاقها وقيمها وحضارتها وواقعها المعاشي، حتى أظهرت العرب والمسلمين في صورة الرعاع والهمج مصاصي الدماء، الذين يعيشون على الاغتصاب وهتك الأعراض وقتل الأبرياء وأن يهود وحدهم هم الذين يمثلون حضارة الإنسان المتمدين دون سواهم، وسقطت وسائل إعلامنا في أسرها الثقافي حتى غدا كل من يتصدى لمخططات يهود ومن وراءهم يوصف بأوصاف يحشد الرأي العام العالمي لاستنكارها وكلما سقط وصف ابتدعت آخر، حتى استقرت في أيامنا هذه على وصفهم بالإرهابيين وحشدت دول العالم للتصدي للإرهاب وملاحقته، وغدت شعوب تباد وأخرى تحاصر حتى من قومها بدعوى تبنيها للإرهاب.

٥ - ويؤكد ـ عليه السلام ـ على أهمية الأخلاق في إحكام التواصل بين المسلمين، وتحقيق خيريته، بحيث يستقطب اقتناع كل الأفراد ويحفّز تعاونهم وتآرزهم وتفاهمهم، بقيامه على أساس من التواضع ونبذ الكبر، وتلافي الفخر، وإفشاء السلام وما يؤدي إليه ذلك ويحقّقه من عدم التهاجر، وإصلاح ذات البين

وتحريم الاقتتال، وتنمية تقبل الأفراد بعضهم لبعض، ولو تمسك المسلمون بهذا الهدي لما وصلوا إلى ما وصلوا إليه من تنابذ وعداء واقتتال وتمزق وتيه وضياع، حتى غدا جمعهم على رأي واحد أو موقف واحد أو اتجاه واحد ضربا من المحال.

٦- ويضع ﷺ أسس التعامل الأخلاقي القويم الذي يأخذ منحى إيجابيا في تعزيز العلاقات فلا يترك أسلوب تعامل موضوعي يرتضيه الذوق السليم إلا ويؤكد عليه، وفي الوقت نفسه لا يترك أسلوب تعامل غير كريم إلا ويحذر منه، حتى تتوطد الثقة بين الناس، ويقدموا على التعامل مع بعضهم البعض، وفق ما يتطلبه التعاون من تفاهم وتوافق وحرص متبادل على منفعة بعضهم البعض. ولما تنكر المسلمون لهذا الهدي كان أول ما هدموه التعامل فيما بينهم، حتى غدا أحدهم يثق في صدق وأمانة ووفاء غير المسلم، أما المسلم فهو غير ذي موضع ثقة، وبذلك قوضت قدرات الأمة لا سيما الاقتصادية منها وأصبحت الأمة تزداد كل يوم تخلفا وتمزقا، وغدا كل قطر من أقطارها يزداد كل يوم عزوفا وإعراضا عن التعامل مع القطر الآخر.

٧ - أما اسس الضبط الاخلاقي الخمسة التي اصطلحت عليها البشرية، والتي جرى تبنيها أساساً استنادا إلى المفاهيم الاسلامية، فقد بين الرسول الكريم كيف يمكن أن يتم هذا الضبط على أقوم أسس واوفاها وأكثرها فاعلية، بما يشكل التزاما خلقيا ذاتيا، دونما إهمال لأهمية الالزام إلى جانب الالتزام، لا سيما بالنسبة لالزامية الرأي العام وإلزامية السلطات، وبناء الحكم الخلقي والجزاء الخلقي على أساس دنيوي أخروي في الوقت نفسه.

وما من أحد يجهل أن الأخلاق الإسلامية بالذات هي التي مكنت ولا زالت تمكن للإسلام في نفوس مئات الملايين من كل الأجناس البشرية على مدى تتابع الأيام وتوالي الأعوام، فقد كانت الدعوة للإسلام يرافقها التطبيق الخلقي والسلوكي لمبادئه على أرض الواقع وفي دنيا الناس، وإذا قارنا من يرتد عن الإسلام اليوم بمن يدخل فيه يوميا، بعدما وصلت المحاكمة العلمية الموضوعية إلى أعلى درجاتها لا نكاد نجد رقماً ضئيلاً نعبر به عن هذه النسبة، حتى في عصور إخفاق العرب والمسلمين وتخلفهم.



الفصل الخامس

التربية المعرفية

أولًا: أبعاد المعرفة

أ- مفهوم المعرفة

١ - بين المعرفة والعلم:

المعرفة من عرف بمعنى أحاط واستوعب، تعني الإحاطة بمكونات شي ما أو معنى ما، وإستيعاب خصائص هذه المكونات ومميزاتها ونقائصها، فالمعرفة بهذا المعنى: «علاقة عقلية تفاعلية بين العارف (الإنسان) والمعروف (الأشياء والمعاني)»[١].

ومن البديهي أن هذه العلاقة التبادلية ترتبط كمّاً ونوعا بطبيعة العارف: قدراته الإدراكية ومواهبه وإمكاناته... الخ، والمعروف: بمدى بساطة أو تعقيد الذات أو المعنى المعروف، ولذلك نقول من حيث كم المعارف: فلان واسع المعرفة أو غزير المعرفة أو موسوعي المعرفة، وفلان ضحل المعرفة وفلان سطحي المعرفة... الخ.

والمعارف التي يطلب من الإنسان استيعابها واسعة إلى درجة قد يصعب حصرها، من معتقدات ومفاهيم وأفكار، وأعيان الأشياء وهكذا. وهذه المعارف تتنامى يوميا بالعطاء الحضاري والمعرفي المتراكم للإنسان حول الكون والإنسان والحياة. لذلك غدت الإحاطة الكلية أو الشاملة بالمعرفة مستحيلة، وأصبح استيعابها نسبياً، يختلف من إنسان إلى إنسان، وفق ما يتوافر للإنسان من قدرات عقلية وحسّيّة واهتمام بالمعرفة وجد واجتهاد ومثابرة على تحصيلها.

وتختلف المعرفة نوعيا عن العلم في مستوى ادراك المعلومة، وأسلوب تحصيلها، ومستوى موضوعيّتها، وكما يأتي:

---

(١) عن فيليب فينكس، فلسفة التربية، مترجم، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٦٥، ط١، ص٢٤٧.

- مستوى الإدراك:

هناك إدراك جزئي للمعلومة، وهناك إدراك كلي محيط واستيعاب شامل، ولذلك نقول فلان عارف بنظرية كذا الهندسية، في حين نقول: فلان عالم بالهندسة، أي أنه محيط بكل النظريات والعلوم الهندسية. ومن هنا نقول فلان عارف بالله أو من العارفين بالله، ولا نقول عالم بالله، لأنه يستحيل على الإنسان الإحاطة علماً بالذات الإلهيّة.

- أسلوب التحصيل:

المعرفة تتم بكل وسائل التحصيل الممكنة، بالقراءة أو النظر أو أي حاسة من الحواس او بالعقل المجرّد، دونما فرز أو نقد أو تحقيق، ولذلك قد تقع حواسنا على أشياء كثيرة فنعرفها، ولكن لا تعرف مدى صحتها ودقّتها وموضوعيتها... الخ.

أما العلم فيتأتّى بأسلوب موضوعي كالأسلوب التجريبي، ولذلك إذا تلقى المعلومة يخضعها لأسلوب التحقق التجريبي الذي يثبت صحتها أو عدم صحتها.

- الموضوعية:

المعرفة معلومة خام، تحتمل الصواب كما تحتمل الخطأ، لأنه لم يجر التحقق منها، فإذا وجد فلّاح أن بعض أشجاره أو نباتاته جفت، يتبادر لذهنه لأول وهلة أن السبب في ذلك عدم سقيها لفترة طويلة، وهذه معلومة قد تكون صحيحة، ولكنها في الوقت نفسه قد لا تكون، إذ ربما كان الجفاف عائدا لأسباب أخرى، كزيادة الملوحة أو بعض الآفات.

أما المعلومة العلمية فهي معلومة مستقصية للأسباب والمسببات، تعتمد أسلوب البحث والتجريب فهي لا تسلم ابتداءً بأن الجفاف ناتج عن ندرة المياه، وإنما تضع قائمة حصرية بالمسببات، وتأخذ في فحصها حتى تتبيّن السبب الحقيقي.

بناء على ما سبق يقال: «كل علم معرفة، وليس كل معرفة علما»، ولذلك أخذ تصنيف المعرفة يأخذ اتجاهين هما:

٢- المعرفة العاميّة والمعرفة العلمية:

- المعرفة العاميّة:

وهي المعرفة التي تتوافر لعامة الناس بناء على خبراتهم ومشاهداتهم اليومية. دونما لجوء إلى تجريب أو تدقيق، فالبحّار العادي مثلاً يعرف أن سفينته تغرق إذا زادت حمولتها، أما لماذا؟ فهو لا يعرف، لأنه لا يعلم شيئاً عن قانون الطفو وعلاقة الكتلة بالإزاحة لذلك فإن تصرفه لمنع سفينته من الغرق يقوم على التجربة في كل حمولة.

ومثل هذه المعرفة العامية مفيدة بدون شك، ولكنها غير صالحة للتعميم لاختلاف الحجم بين سفينة وأخرى واختلاف الكتلة من حمولة إلى أخرى، واختلاف الكثافة بين مياه وأخرى ، الأمر الذي يحتم ان يعتمد كل بحار على تجاربه الذاتية.

- المعرفة العلمية:

تتم هذه المعرفة وفق خطوات موضوعية موثوقة، تبدأ بالمشاهدة أو الملاحظة، فالتأمّل، لإدراك أبعاد المعلومة، ثم وضع الفروض الممكنة لأسبابها ومسبباتها، ثم تجريب كل فرض من هذه الفروض، وفق معايير وثيقة ودقيقة، فإذا ثبتت صحة فرض أعيدت التجربة مرارا، حتى اذا اتصفت النتائج بالثبات، توضع لها القواعد والقوانين للاحتكام إليها في المجالات المماثلة، وبذلك تعلل الحوادث وفق قواعد وقوانين معتمدة، فإذا أخذنا تجربة تورشيللي التي أثبتت التناسب العكسي بين الارتفاع والضغط الجوي ـ مثلا ـ وطبقناها على مئات الأماكن، لخرجنا بالمعلومة ذاتها: كلما زاد الارتفاع، نقص الضغط الجوي والعكس صحيح، والأمر ذاته في كل قاعدة علمية.

٣- يقينيّة المعرفة:

من الواضح أن ليس كل المعارف يمكن إخضاعها للأسلوب العلمي التجريبي، فالتاريخ والاجتماع والاقتصاد والإدارة والسياسة وغيرها، ليست كذلك، الأمر الذي حصر الأسلوب العلمي التجريبي في العلوم التجريبيه والتطبيقية، ويعتبر علماء

هذا المجال ما سواه معرفة فقط وليس علما، ويرى غيرهم أن حصر العلم في العلوم التجريبية والتطبيقية إزراء بالعلم وتضييق لمجالاته، وأن الأصل ليس في الأسلوب الذي تتحقّق به المعلومة وإنما بمستوى يقينيّة المعلومة، فالمعلومة التي لا يعتريها أي شك معلومة علمية، سواء أتمت بأسلوب تجريبي أو بأي أسلوب آخر.

واليقينيّة لها مستويات ثلاثة هي: علم اليقين، وعين اليقين، وحقّ اليقين، وهو أرقاها، ولذلك يعتبر المسلم كل معلومة جاءت عن الخالق ـ جل شأنه ـ حق اليقين، لأنها صادرة عن صاحب العلم المطلق ـ سبحانه ـ الذي وسع علمه كل شئ، ولذلك يقول ـ سبحانه وتعالى ـ عن القرآن الكريم: ﴿وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ ﴿٥١﴾﴾[1] ويقول سبحانه عن مصير المؤمنين والكافرين في الآخرة: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ ﴿٩٥﴾﴾[2].

ونورد الآتي كمثال للمستويات اليقينيّة الثلاثة: إذا فقد إنسان ما ابنه مثلا، في كارثة من الكوارث وبحث عنه طويلا ولم يجده، ثم جاءه من يعرف ابنه وأخبره أنه موجود في مكان كذا، حصل لديه علم اليقين، لثقته بمن بلغه ومعرفة المبلغ بابنه، ومع ذلك يبقى الشك لديه قائما، فربما رأى شبيها له، وربما... فإذا اتصل به ابنه من المكان الذي حدده المبّلغ، وصل إلى عين اليقين، لقد وصل إلى درجة أعلى من الأولى، ومع ذلك يبقى التردد قائما، ربّما اختلط عليه الصوت، ربّما يتلاعب به أحد الناس مقلّدا صوت ابنه ... الخ، أما إذا جاء ابنه ورآه بعينيه ماثلا أمامه، فلم يعد هناك أدنى شك لقد وصل إلى مستوى حق اليقين.

وما من شك أن حقّ اليقين المعرفي هو المطلوب لاستثمار المعلومة، حتى لا يبقى أي مجال للظنّ والتخمين، والتدليس... الخ. وهناك أسلوبان لبلوغ حق اليقين المعرفي هما:

- الأسلوب التجريبي:

وهو الأسلوب الذي بينّاه في المعرفة العلمية، ويتّبع هذا الأسلوب عادة في المختبر حيث تجرى التجارب للتيقّن من المعلومة، وهو ليس قصرا على المختبرات وإنما يمكن أن يستخدمه الإنسان العادي في حياته اليومية ولكن بالخطوات المعرفية ذاتها.

---

(١) الحاقة (٥١).

(٢) الواقعة (٩٥).

فإذا افترضنا أن إنساناً ما شاهد انقطاع التيار الكهربائي في منزله، ولاحظ أن منزله وحده هو الذي انقطعت فيه الكهرباء، فإنه يضع كل الفروض الممكنة والمسببة لانقطاع التيار، ثم يأخذ في تجربتها فرضا فرضاً حتى يتبين السبب الحقيقي وهكذا.

- **الأسلوب الادراكي:**

وهو أسلوب لا يعتمد على التجربة وإنما على استثمار القوى المدركة التي أودعها الله في الإنسان للوصول إلى المعلومة الموثوقة التي تصل إلى درجة حقّ اليقين، ومن الأساليب الشائعة فيه ما يأتي:

- **الإدراك الحسي:** قد يسمع الإنسان عن فاكهة ما فيحصل العلم بها، ويصفها إنسان موثوق فتزداد معرفته بها، ولكنه إذا حصل عليها، ورآها ولمسها وتذوقها وشمها. وصلت معرفته بها إلى حق اليقين.

- الإتّساق العقلي: إذا نزعنا لحاء شجرة باستدارة كاملة علمنا أنها ستجف وتموت لأنه لا سبيل إلى صعود العصارة الغذائية إلى أعلى، ولا نحتاج إلى تجارب للتحقق من ذلك، فهو معروف بداهة.

- **القياس:** كل طائر يبيض، والنعامة طائر ـ برغم ضخامتها ـ وبذلك إذا قلنا إنها تبيض فمعلومتنا هنا هي حق اليقين لقياس الشيء على مثله.

- **الاستقراء:** طن القمح ينتج أربعين طنا في الظروف العادية، ولكن إذا طورنا هذه الظروف بتحسين نوعية البذور وجميع الخدمات التي تقدّم للحقل من أسمدة ومياه ووقاية من الأمراض إلى غير ذلك، فإننا نجزم بأن كمّ الإنتاج سيزداد ويكون حكمنا صحيحا.

- **الاستنباط:** أي ضلعين في المثلث أطول من الضلع الثالث مهما بلغ طول هذا الضلع، لذلك إذا أردنا الوصول إلى بلدة ما لها ثلاثة طرق تشكل مثلثا، علمنا أن أي طريق من الثلاثة أقصر من الطريقين الآخرين وإن تهيأ لنا غير ذلك.

وهكذا تتعدد الأساليب التي يمكن الوصول بها إلى حق اليقين المعرفي، وهذا ما دعا كثيرا من العلماء إلى الاعتراض على كون الأسلوب التجريبي هو الوحيد الممثل لحق اليقين العلمي أو المعرفي.

ب- أصناف المعرفة

أصناف المعرفة وأنواعها كما سبق القول لا يحدْها حصر، لذلك جرى تصنيفها تيسيرا لتناولها إلى ثلاث مجموعات معرفية متكاملة، تضم كل منها نوعيات المعرفة المتعلقة بها وكما يأتي:

١ - المعرفة الدينية:

وهي المعرفة التي أخذت في الإلحاح على الفكر الإنساني منذ أزمنة متقدمة، وربما منذ بداية وجود الإنسان واستخدام عقله. كانت مشاهدة الكون وما يزخر به من موجودات نقطة البداية، حيث بدأ التساؤل: من أوجده؟ ولماذا؟ وكيف؟... الخ، وبالرغم من أنه لم يصل إلى إجابة وافية، إلاّ أنّه قد وقر في ذهنه أن هناك قوة عظمى هي التي أوجدته وتسيّره، فأخذ يقدّس هذه القوّة وينزّهها، ويدعوها ويرجوها ويخافها ويخشاها وهو غير مستوعب لحقيقتها، وإن كان قد اعتبرها إلٰها يعبد.

ونظرا لأن العقل البشري يقيس الأمور بقدراته، فقد استبعد أن يكون للكون كله إلٰه واحد، لذلك شاع الاعتقاد في الحضارات القديمة بتعدد الآلهة، فهذا إلٰه الرحمة وذلك إلٰه العذاب، وهذا إلٰه الجبال وذلك إلٰه البحار وهكذا.

ونزلت الرسالات السّماوية لتبين حقيقة الخالق والخلق والحياة، ثم جاء الإسلام ليختم هذه الرسالات، بدين جامع يلبي احتياجات قوامة المسار البشري في الحياة الدنيا، وأخذت المعرفة الدينية في الإسلام تأخذ بعداً شمولياً متكاملاً.

ولما كانت المعرفة الدينية هي التي تربط ابن الأرض بأسباب السماء، والحياة الدنيا بالآخرة، والذات بالمعنى والمسير بالمصير، فقد أصبحت موضع اهتمام كل إنسان عاقل على أمل أن يربط سعيه بهدي الخالق القدير فيسعد في الدنيا والآخرة.

والمعرفة الدينية في الإسلام أساس معرفة المسلم إذ هي منطلقه للحكم على كل المعرفة فهي ليست اثرائيّة أو اضافية، وإنما هي معرفة أساسية لكل فرد مسلم وتأخذ من حيث الزاميتها مستويين :

- فرض عين :

وهو قدر مفروض لزوما على كل مسلم بالغ عاقل، عليه أن يلمّ به إلماما مستقصياً، ومن ذلك العقائد، والعبادات، والآداب والأخلاق، والمعاملات الإسلامية، بما يضبط حياة المسلم ـ أخذا وعطاء ـ بضوابط الشرع الإسلامي الحنيف، بحيث يعرف الأصول الدينية من ناحية ويعرف ما أحلّ له وما حرم عليه من ناحية ثانية.

وجدوى هذه المعرفة للإنسان المسلم أنها تحقق له الرقي المادي باتّباعه كريم التعامل والتواصل والتبادل والتفاعل مع بني جنسه، ملتزما بأكرم الأخلاق وأعلى الآداب التي تجعله موثوقاً مؤتمنا، يُفتح التعاون معه على مصراعيه، ولكن الأهم من ذلك الرقي المعنوي الذي يحقق له الأمن النفسي والطمأنينة الوجدانية، والتحرر من ضغوط الحياة والثقه بكرامة المصير.

- فرض كفاية :

ويتعلق بالمعرفة الدينية المتخصصة المتعمّقة في فرع أو أكثر من فروع المعرفة الدينيّة، والتي تحتاج إلى استقصاء معرفي يحيط بكل جوانبها، بحيث يصبح القائم بها أو عليها مرجعا للمسلمين في اختصاصه، يعودون إليه لفهم ما استغلق عليهم فهمه، ولمعرفة الحكم فيما التبس عليهم حكمه.

والمعرفة الدينية الإسلامية تتسع في فروض الكفاية لتغطي الكتاب والسنّة وجميع متطلبات الشريعة الإسلامية، وغدت هناك تخصصات في العقائد وأصول الدين، وفي تفسير القرآن الكريم وتلاوته، وفي الحديث الشريف، وفي الفقه وفقه اللغة، وفي الاقتصاد الإسلامي والثقافة الإسلامية والحضارة الإسلامية وهكذا. أمّا في المعارف الأخرى فتغطّي كل تخصص يلزم المجتمع المسلم.

وفرض الكفاية يعني أنه إذا قام به البعض سقط عن الباقين، وبذلك فإن المعرفة الدينية تأخذ صفة اللزوم لعموم المسلمين في المعرفة العامة، وصفة الخصوص لبعض الناس في المعرفة المرجعيّة المتخصصة.

٢- المعرفة الاجتماعية:

تنتظم هذه المعرفة كل العلوم والمعارف المتعلقة بالاجتماع البشري، وأسس قيام المجتمعات، ونهوضها ورقيها وتقدمها وازدهارها وتطورها، وعوامل تفككها وتحللها واندحارها وتمزقها وضياعها، بحيث يفيد التّنظيم الاجتماعي بالأولى لضمان سلامة المجتمعات، ويتلافى الثانية حتى لا يصاب بالانتكاس والاخفاق.

هذه العلوم تشمل كل ما يتعلق بعمليات التسيير الاجتماعي والضبط الاجتماعي من سياسة وتربية واقتصاد وأخلاق وتاريخ وجغرافية وإدارة وقانون وبيئة وعلم نفس وإعلام وغير ذلك.

وجدوى المعرفة الاجتماعية بالنسبة للإنسان، تتمحور حول ضبط نوعية العلاقات المتبادلة بين أبناء المجتمع الواحد، على أساس من الحق والعدل والخير وتكافؤ الحق مع الواجب، والجهد مع المكافأة، والإبداع مع التقدير .. الخ، سواء أكان ذلك بين الحاكم والمحكوم، أو بين الناس بعضهم مع بعض في كل أنواع المعاملات، بما يتيح للإنسان أن يأمن في حياته، ويقطع رحلتها برضا وسعادة وسرور، مما يتيح له أن يعمل ويبدع وينجز ويتقن ويطور، ويحول دون الانحراف بقوامة العلاقات حتى لا تنحرف بكرامة الحياة.

٣- المعرفة الكونية:

تتعلق هذه المعرفة بالأسس البنائية لكل موجودات الكون، الحيْة منها وغير الحيْة، والتي هي بمجملها ـ كما سبق القول ـ مسخّرة للإنسان لتحقيق قوامة حياته على الأرض على أفضل مستوى ممكن، سواء في مأكله ومشربه أو ملبسه ومسكنه أو صحته وسلامته، وتيسير كل مطلب من مطالب الحياة، بما يؤمّن له إمكانات تعميرها وتنميتها والنهوض المستمر بها من الحسن إلى الأحسن، فالأفضل فالأمثل.

والعلوم الكونية تشمل جميع العلوم البحتة والحيوية والتطبيقية على أنواعها العديدة والواسعة من طب وهندسة وصيدلة وزراعة وتعدين وعلوم المياه والفضاء والذرة وعلوم الفلك والرياضيات والفيزياء والكيمياء والأحياء والطيران والاتصالات وغيرها وغيرها.

وجدوى المعرفة الكونية للإنسان تكمن في تمكينه من اثراء حياته على الأرض، وتهيئة كل ما ينهض بمحتوياتها الأساسية ليعيش حياته بكفاية وفاعليّة ورضا وسعادة، مستشعراً هناءة الحياة في كل نشاط له فيها، بما يعلي كرامته، ويرتقي بإنسانيته.

جـ- أهمية المعرفة

قد لا نجد مجتمعاً عاش على الأرض على مدى حياة الإنسان على الأرض، إلاّ ويعتبر المعرفة قيمة عليا، تحيط صاحبها بالتقدير والاحترام والتوقير، أكثر من أي شيء سواها من مقوّمات الحياة الماديّة، ممّا يفسّر لنا خلود أسماء العلماء والعارفين على مدى العصور والدهور، واحتفاء التاريخ بهم في حين نسي أو تناسى حتى أسماء الملوك والأمراء والسلاطين الذين عاصروهم.

ولا تكمن أهمية المعرفة في كونها ترتقي بصاحبها، وإنما لأنها ترتقي بحياة الأحياء ككل، سياستها واقتصادها واجتماعها، وبالمكونات الأهم في كيان الإنسان: عقله وفكره وثقافته ومواهبه وملكاته وميوله واتجاهاته وأخلاقه وسلوكه.

وقد استوعب الناس منذ زمن طويل أن إدارة حركة الحياة بدون علم، تؤدي إلى اختلالها واضطرابها وانحرافها وفسادها وتردّيها، فالجهل هدّام وجهلة الناس قد يفسدون حتى لو أرادوا الإصلاح، وبذلك تستشري المشكلات الحياتية التي ينوء بها بنو البشر وتعكر صفو حياتهم.

إن السياسة التي تتنكب المعرفة والعلم وتركب مراكب الجهل، تتحول الى أنانية وعنجهيّة واستبداد واستعباد وجبروت وتسلط، تضيق بالكلمة وتختنق بالرأي، وتسحق الشورى وتعدم النصيحة فتمسخ القرار.

والاقتصاد إذا لم يبن على علم ومعرفة غدا إهلاكاً للثروات، وحرقا للمقدرات، وتبديدا للخيرات، وتمكينا للتبعية والاتكالية واستذلالاً للديون الخارجية، ومن ثمّ ترسيخا للفقر والبطالة والعجز والمرض.

والاجتماع الذي يبنى على جهالة وضلالة، يتحول إلى احتيال واغتيال، وتنابذ وعداء وتمزق وتيه وضياع، يتربص فيه الإنسان بأخيه الإنسان، ويستبدّ القوي بالضعيف، والغني بالفقير، والحاكم بالحكوم، والكثرة بالقلة وهكذا.

لذلك كله نجد الله سبحانه وتعالى يسوق آياته لقوم يعلمون وليس لقوم يجهلون ﴿ وَنُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾[١] والرسول الكريم يبين مآل الحياة إذا سادها الجهّال ـ وإن ادعوا العلم ـ فيقول:

- إن الله لا يقبض العلم انتزاعا من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق عالم اتخذ الناس رؤساء جهّالا، فسئلوا فأفتوا بغير علم، فضلوا وأضلوا[٢].

وقد وعى المسلمون ذلك كل الوعي حتى يقول الحسن البصري:

- من أراد الدنيا فعليه بالعلم، ومن أراد الآخرة فعليه بالعلم، ومن أرادهما معا فعليه بالعلم.

والشاعر العربي يقول:

لا يصلح الناس فوضى لاسراة لهم ولا سراة إذا جهالهم سادوا

إن المعرفة الدينية ترتقي بالنفس البشرية لتجعل منها مطواعة للخير والصلاح والإصلاح مستعصية على كل اعوجاج أو التواء أو فساد، خيّرة بذاتها وتفيض خيراً على من سواها وما سواها، فتعلو بذلك انسانية الإنسان وترتقي كرامته ويسهم في تحقيق نضارة الحياة وبهجتها.

والمعرفة الاجتماعية تبنى العلاقات على أقوم الأسس وأحكمها، فتعمّ الثقة بين الناس وترتقي صلاتهم، وتحرس المحبة والمودة تواصلهم، وبذلك يتماسك الكيان الاجتماعي تماسك البنيان الواحد، وتسري في كل جزيئيّة من جزيئيّاته روح الرضا والسرور والحبور، ومثل هذا المجتمع هو الذي يرتقي بالحياة ويرتقي معها.

وأهمية المعرفة الكونية يعرفها القاصيّ والدّاني، فالأرض والكون المحيط بها وأنواع الحياة عليها مسخّرة للإنسان، والمعرفة هي بوابة هذا التسخير، والمعرفة الكونيّة هي مفتاح هذه البوابة، ولولا هذه المعرفة لم يصل الإنسان إلى ما وصل إليه من غزو الفضاء وتطوير الاتصالات والمواصلات والارتقاء النوعي بكل وسائل الحياة، ومكافحة الأوبئة والأمراض والكوارث التي تستهدف هلاك الإنسان.

---

(١) التوبة (١١).

(٢) رواه مسلم والبخاري.

د- مصدريّة المعرفة

كل علم متاح حول هذا الكون مصدره خالق الكون وموجده من عدم ـ سبحانه وتعالى ـ وكل علم يتأتّى للإنسان حول ذاته أو الكون المحيط به، إنما مصدره من خالقه وخالق الكون، وبالقدر الذي يرى الخالق ـ جلّ شأنه ـ أن يزوده به، وبما يتيسّر للقوى المدركة التي زوده بها استيعابه، ولذلك يقول تبارك وتعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾[1] وعليه فإن المصدر الرئيس والأساسي في كل علم حول الإنسان والكون والحياة إنما مصدره الله تعالى.

وتوضيحا لما سبق نضرب المثل الآتي: لنفرض أن إنسانا اخترع آلة ما أو ماكنة أو جهازا، فإننا نحكم تلقائيا بأنه أعلم من كل من سواه بها، لأنه هو الذي فكر فيها ابتداء ثم صممها، وحدد كل مكون من مكوناتها والمواد الداخلة فيه، ويعرف عمرها الافتراضي، واحتمالات الخلل التي تتعرض لها وأساليب إصلاحها.. الخ، ولذلك نعتبره أعلم من كل من سواه بها. والله تعالى هو الذي صمم الكون وموجوداته. وهو واسع العلم طليقه ﴿وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾[2]، وعليه فإن كل علم في الكون وعنه مصدره الخالق ـ سبحانه ـ.

١ - المعرفة بين الطّلاقة والمحدودية:

من المعروف لدى الإنسان أن العلم يختلف ـ كمّاً ونوعا ـ من إنسان إلى آخر، فهناك من لديه استعداد عال للتعلّم، وهناك من لديه استعداد محدود، ولكننا نعلم أن من لديه أعلى الاستعدادات التي عرفتها البشرية، لا يمكن أن يكون طليق العلم، بمعنى أن يحيط بكل أنواع العلوم إحاطة كاملة، ولو كان الأمر كذلك لبرزت العلوم بأوفى صورها منذ الإنسان الأول، ولما أضاف اللاحقون علما على ما أبدع السابقون. بناء على ذلك ندرك أن حيازة العلم ـ كما ونوعا ـ محدودة لدى الإنسان

(١) البقرة (٢٥٥).

(٢) الأنعام (٨٠).

مهما تضخّمت، ولذلك يقول الخالق ـ سبحانه ـ ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[1]، وهذا القليل يتزايد باستمرار مع العطاء البشري عاما بعد عام حتى يرث الله الأرض ومن عليها، ومع ذلك يبقى قليلا بالنسبة للعلم الكلي المطلق، ويبقى الإنسان عاملا على زيادته ليصل إلى أقصى درجات الكمال العلمي المتاحة للإنسان.

والسبب الرئيس في محدودية علم الإنسان أنه لا يعلم إلا بوسيلتين هما: العقل والحواس الخمس: السمع، البصر، اللمس، الشم، الذوق، وهذه كلها محدودة بحكم كينونتها.

ومما نعرفه عن الذات الإلهيّة أن الخالق ـ سبحانه ـ يعلم كل شى عما خلق ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ۝١٤﴾[2]، وعلمه لا حدود له ـ كما أو كيفا ـ وبذلك فهو سبحانه يعلم كل علم في الوجود ودون حدود وعليه نسمي علمَ الله بالعلم المطلق.

أدى هذا الفهم إلى أمرين:

- اهتمام الإنسان بالمعرفة الحسّية، والإبداع المستمر فيها.
- تلقي علم ما وراء الحسّ من الخالق سبحانه.

وهذا ما يقودنا إلى بيان معرفة ما وراء الحس ووسائلها، والمعرفة الحسّيّة ووسائلها.

١/١ - معرفة ما وراء الحسّ:

يقر المنطق الإنساني بأن هناك حياة أخرى، ولكن أنى لنا أن نعرف كنهها ونحن لم تقع حواسنا عليها؟ ونعلم أن الحياة على الأرض لها بداية ولكن كيف هي؟ ونقتنع بوجود ملائكة ولكن ما تركيبتهم؟ ونعلم أن لنا آجالا لا بدّ بالغيها. ولكن متى هي؟ ونعلم أن هناك بعثاً ونشوراً ـ بالاتّساق العقلي ـ ولكن كيف يتمّ؟ . . . الخ هذه معلومات نتطلّع إلى استيعابها ولكننا لا نستطيع، لأن حواسنا لا تقع عليها، ولذلك نسمي هذا النوع من المعرفة: «معرفة ما وراء الحسّ».

---

(١) الإسراء (٨٥).

(٢) الملك (١٤).

ولا شك أن الإنسان يودّ أن يعرف ما وراء الحسّ وما غُيّب عنه، لذلك شاء الله تعالى أن يمدّه ببعض حقائق الوجود التي غيبت عنه، فأنزل رسالاته وأرسل رسله للناس ليبيّن لهم بعض ما يرى - سبحانه - أنه مناسب لمعرفتهم، سواء ما يتعلق بطبيعة الوجود والموجودات أو الحياة والأحياء أو صفات الخالق وقدراته... الخ.

وبذلك فإن مصدريّة كل علم حول ما وراء الحس لا تعدو مصدراً واحداً هو ما أوحاه الله إلى رسله ليبينوه للناس، فالوحي الإلهي سبيل معرفة الرسل عما وراء الحس وهم يعلّمون من أرسلوا إليهم، وفي ذلك يقول - جل شأنه - ﴿ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ﴾[1]، فالوحي إما مباشر بالالقاء في الروع، أو بإعلام خفي أو برؤيا واضحة، أو بوحي من وراء حجاب، أو بإرسال أحد ملائكته الأطهار، وكل علم موحى به يتضمنه كتاب من كتب الله تعالى - ويجمع ذلك كله القرآن الكريم - يعتبر بالنسبة لكل مؤمن بالله علما يقينيا حق اليقين.

٣- المعرفة الحسّيّة:

الحواس:

المعرفة الحسّيّة هي الأساس في معرفة الإنسان، ولها وسيلتان هما: الحواس والعقل، فقد أمدّ الخالق - سبحانه - الإنسان بخمس حواس جعلها منافذه على المعرفة وهي: البصر، السمع، الشمّ، اللمس، الذوق، وبوساطتها يدرك حقائق المرئيات والمسموعات والملموسات والرّوائح والأطعمة.

وتتأتّى المعرفة الحسّيّة بتفاعل بين الحاسة والعقل، إذ يسمع الإنسان فينقل العصب السمع المعلومة إلى المخ البشري، حيث يستقبلها مركز التمييز في منطقة العقل ليستوعبها، ويكوّن ردّ الفعل تجاهها في لمسة زمن - قبولا أو رفضاً - ويصدر الإشارات إلى مراكز ردّ الفعل بناء على الموقف من المعلومة، وهكذا بالنسبة للحواس الأخرى.

(١) الشورى (٥١).

وكل من الحواس الخمس ـ كما هو معروف ـ محدود، فالبصر لا يستطيع الإحاطة بكل المرئيات حتى على مستوى قرية واحدة وليس الكون كلّه، ولا يستطيع رؤية الكائنات الدقيقة، وهكذا بالنسبة لكل حاسة، مما يجعل استيعاب العقل مما تنقله إليه الحواس محدودا.

وإضافة إلى المحدودية التي بنيت عليها الحواس، فإنه قد يعتريها قصور، سواء أكان خلقيا أو مرضيا، فهناك طول النظر وقصر النظر وانعدام النظر، وهناك الصمم المؤقت والدائم والجزئي والكلي وهكذا، ولذلك يرسّخ قصور الحواس محدودية الاستيعاب لدى العقل البشري.

ولما كان الإنسان حريصاً على استيعاب أكبر قدر ممكن من المعرفة، فقد عمل جاهدا حتى أوجد أجهزة تعويضية للحاسّتين الرئيستين: السمع والبصر، فاخترعت المساميع بأنواعها، والمجاهر بأشكالها المختلفة، ودخلت الحواسيب في مجال تحليل المعلومة وبيانها.

وهناك تعويض الهي في حالة فقدان حاسة ما، فنجد الضرير لا يعرف الناس بالنظر، وإنما بالسماع أو اللمس، ومن فقد السمع يتعلم بالنظر بلغة الإشارة وهكذا.

- العقل:

العقل هو معجزة الخلق الكبرى، ولذلك يقول الإمام الغزالي: «بالعقل صار الإنسان خليفة الله في الأرض»[1]، وحتى اليوم لا يوجد تعريف علمي موثوق له، مما جعل العلماء يهتمون بوظائفه اكثر من اهتمامهم بتكوينه، ويقوم العقل بثلاث وظائف رئيسة هي:

- التمييز والاختزان:

حيث تتلقى الشبكة العصبية في المخ أي معلومة ترسلها حاسة من الحواس في المركز المحدد لها، ثم تحيلها الى منطقة التمييز الواقعة ضمن العقل، فتقوم بفرز المعلومات الواردة إليها، لتحكم على مدى موضوعيتها ومعقوليتها، وتفرز صالحها

(١) الإمام الغزالي، ميزان العمل، مطبوعات الجندي، القاهرة، ط١، ـــــ، ص١٠٦.

من طالحها، ثم تحيلها الى منطقة الذاكرة لاختزانها واستعادتها عند الحاجة مرتبطة بالموقف التمييزي منها قبولا أو رفضاً.

- **الحكم:**

وحكم العقل تفاعلي، قد يصدره بناء على تفاعل كامل بين كل معطيات الحواس أو بعضها، فإذا سمع انسان بنوع متميز من الطعام، تختزن الذاكرة معلومة عنه، ولكنها تبقى تنتظر غيرها، فإذا رآه حكم على منظره، وإذا انبعثت منه الروائح حكم على رائحته، واذا لمسه كذلك، ثم تختتم الجولة بالذوق، وكل منها يؤكد المعلومةأو ينفيها، فإذا تكاملت في اتجاه واحد حاز القبول وإلاّ فلا، ولو أجمعت الحواس الأربع الأولى على تميّز الطعام، ثم جاء الذوق ووجده كريها لا يستساغ فإن العقل يرفضه، وتختزن الذاكرة موقف رفض تجاهه.

- **الفعل:**

والفعل ذاتي ونسبي، يختلف من إنسان إلى إنسان، وفق المكونات الإدراكيّة للإنسان ومستوى قوامة الحواس، فكلمة ما أو منظر ما أو رائحة ما، قد تشيع الراحة والاستساغة والقبول لدى إنسان ما، وبالعكس قد تثير رفضا وكرها واشمئزازاً لدى إنسان آخر، وبالتالي يختلف الحكم تجاه كل منها من إنسان إلى آخر، وبالتبعية يختلف الفعل.

وقد يضطرب الحكم بناء على موروثات فكرية أو رغبات شخصية من هوى النفوس وتسلط النزعات والنزوات، وبذلك يكون الحكم جائرا على المعلومة، ويفقد الإنسان موضوعية حكم العقل والحواس معاً، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾[1]، ويقول ـ سبحانه ـ ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ﴾[2].

مع ذلك يعتبر الإسلام العقل مناط التكليف للإنسان. لأنه القائم على الفرز والتمييز والاختيار وموطن الحكم والقبول أو الرفض والتأييد أو المعارضة، ومكمن

---

(١) الحج (٤٦).

(٢) الأعراف (١٧٩).

الفعل واتخاذ القرار وتوجيه الإرادة والنية والمقصد، فمن فقد العقل فقد الأهلية ورفع عنه التكليف.

٣- المعارف الخاصة:

المعرفة التي يبنى عليها حكم، والتي تسيّر الحياة بناء على معطياتها هي المعرفة الموحاة، أو المعرفة الحسّيّة، ولكن هناك معارف تتحقق فعلا على أرض الواقع، ولا علاقة لها بالوحي، ولا تستقيم مع محاكمة العقل، ولا تتأتّى عبر الحواس فما حكمها؟، ولعل اكثرها شيوعا نوعان من المعرفة هما: الحدس والإلهام، وفيما يأتي بيانهما:

٣/ ١ : الحدس:

يحدث أن يغيب أخ لك سنوات طويلة في بلاد بعيدة، ثم تنقطع أخباره عنك كليا، وبينما أنت جالس مع العائلة على مائدة الطعام يدق جرس الباب، فيقول ابنك الصغير ذو السنوات الخمس أو الست: «عمّي فلان» مع أنه لم يره في حياته، وتفتح الباب فإذا هو هو، كيف حدثت هذه المعرفة لهذا الطفل؟ إنه الحدس. وقد ينتفض شيخ كبير قائلاً: «إنا لله وإنا إليه راجعون» ماذا؟ توفي فلان، اصطدمت سيارته بصخرة وتحطمت و. . . ، وفلان هذا يبعد آلاف الأميال عن الشيخ، وبعد فترة يأتي الخبر عبر الهاتف مؤكدا ما قاله الشيخ. . . كيف تأتى له هذا العلم؟ إنه الحدس.

والحدس هو نوع من الإشراق الذهني لدى بعض الناس، يكشف المعارف في لمحة سريعة، ناقلا معلومات حقيقية ودقيقة تنطبع في العقل دون مرور بالحواس، ويقول عنه ابن سينا: «إنّه مرتبة بين التفكير والإشراق» أي يفكر الإنسان طويلا فلا يصل إلى المعلومة وفجأة تشرق في ذهنه، أما التّهانوني فيقول: «إنه تمثّل للمبادىء دفعة واحدة من غير قصد أو اختيار» كالطالب الذي يعجزه حلّ تمرين ما فينصرف عنه يائسا، وفجأة يشرق في ذهنه الحل ويكون صحيحا.

والإسلام يعترف بالحدس كوسيلة من وسائل الحصول على المعرفة، ولكنه يرفض إقامة حكم عليها وذلك حتى لا يفتح الباب أمام مدّعي الوصول بدون مراعاة الأصول، من الدّجّالين والمشعوذين الذين يشترون الحياة الدنيا بالدين، فيضلّون ويُضلّون.

٣/ ٢ : الإلهام:

والإلهام كما الحدس، يحمل معارف وثيقة ليست موحاة ولا تقع ضمن حسّ، ولا تمرّ بالعقل، ولكنه لا يأتي لعموم الناس كما الحدس، وإنما يشرق بعد طول تأمل، ورياضة النفس والروح والقلب في اتجاه ما، بحيث يصفو التفكير ويتركز عليه، فتشرق الحقائق في الذهن فجأة.

ومن الملهمين المعروفين من الخلفاء الراشدين ـ رضي الله عنهم ـ عمر بن الخطاب، وقصته مع سارية بن زنيم الكناني مشهورة.

كان سارية يقود جيشاً في خراسان، وانقطعت أخباره عن عمر، فقد تكاتف الترك من وراء سيحون وجيحون ضدّه، وأحاطوا بقواته، وكان عمر يفكر في هذا الجيش ليله ونهاره، وبينما هو يخطب الجمعة في مسجد رسول الله (ﷺ)، قطع الخطبة واتجه إلى خراسان، ونادى بأعلى صوته: «الجبل يا سارية الجبل» ثم عاد إلى خطبته، ولم يفهم المسلمون شيئاً عما حدث.

عندما نزل عمر سأله علي بن أبي طالب ـ كرم الله وجهه ـ ما هذا الذي ناديت به؟

قال: أو سمعته؟ قال: نعم، أنا وكل من في المسجد، فقال:

وقع في خلدي أن المشركين هزموا إخواننا، وركبوا أكتافهم، وأنهم يمرّون بجبل، فإن عدلوا إليه امتنعوا وظفروا، وإن جاوزوه هلكوا، فلم أملك نفسي أن خرج مني هذا الكلام.

وتوالت الأيام، وجاء البشير بعد شهر بالفتح، ووصف ما حدث كما رآه عمر، ويقول: لقد كدنا نهلك، وإذا بصوت يشبه صوت عمر ينادي «الجبل يا سارية الجبل» فعجنا إلى الجبل وقاتلنا المشركين حتى نصرنا الله عليهم»(١).

وهناك حوادث مماثلة مع عدد من القادة المسلمين، ومع ذلك لا يقيم الإسلام حكما عاما على مثل هذه المعارف، فالقاضي في الإسلام مثلا لا يحكم إلا بناء على معلومات حسّية عقلية قاطعة، فالحكم على الظاهر، وليس له أن يستقصي السرائر، فالحدس والإلهام وما إلى ذلك من الكرامات، لا تتأتى إلا لفئة مخصوصة في أوقات مخصوصة وفي موضوعات مخصوصة، لا يجوز بناء حكم عام عليها.

(١) عن ابن جرير الطبري، تاريخ الأمم والملوك، مرجع سابق، جـ٣ ، ص٢٥٤، بإختصار.

ثانياً: تربية الرسول المعرفية

إنّ تربية أمة واعدادها للتفوّق والعلوّ والتقدم، لا تتكامل مطلقاً، مالم ترتق بتربيتها المعرفية، فالمعرفة بأنواعها ـ كما سبق ـ هي السبيل القويم لتحقيق أمن الناس وتفاعلهم وتعاونهم وتواصلهم، مما يركز جهودهم على تحقيق الرّقيّ، وهي سبيل استثمار مذخورات الكون لترقية نوعيّة الحياة ووسائلها وأساليبها وهي سبيل ضبط قيادة حركة الحياة ـ سياستها واقتصادها واجتماعها ـ وفق أساليب يتوافق معها البشر، وتتوافق مع كرامة الحياة والأحياء. لذلك كان بديهيا أن يولي الرسول الكريم ﷺ تربية المسلمين معرفيا اهتماما مستحقا.

كانت بيئة الرسالة والرسول ـ جزيرة العرب ـ عشية بزوغ فجر الرسالة، صريعة الجهل المطبق، حتى سميت الحالة التي كانت عليها «الجاهلية» فقد كان أقل القليل من أبنائها الذين يعرفون مبادىء القراءة والكتابة فقط، ولم تحظ يوماً بعلماء فطاحل في مختلف مجالات العلم كاليونانيين والفرس والرومان وغيرهم. كانت أمة «أميّة» وكان أبناؤها أميين ولذلك يقول الخالق ـ جل شأنه ـ في كتابه العزيز ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ ﴾[1].

والرسالة ـ كما سبق القول ـ تستهدف خيريّة الأمة لتحمل الخير للإنسانية جمعاء، ولا خيرية يمكن أن تتحقق مع الجهل. ولما كانت الرسالة خاتمة، تتعلق هدايتها بأجيال تلو أجيال حتى يرث الله الأرض ومن عليها، والله تعالى يعلم أن بني الإنسان ستتزايد معارفهم طبقاً لتنامي نضجهم العقلي مع مرور الأيام والأعوام، وبذلك تزدهر العلوم وتتراكم الإنجازات، وترتقي المعارف، فإن على الرسول أن يتولى تربية أبناء الأمة ليكونوا أساطين العلم ورواد المعرفة، بل وأن يكون لهم قصب السبق في كل العلوم التي تحقق موضوعية حركة الحياة بحيث يدرك كل من انتمى إليها علوّها في كل ميدان حياتي.

---

(١) الجمعة (٢).

وكان حملة الرسالة الأوائل من العرب، وكي تحقق أمة العرب السبق المعرفي تحتاج إلى معجزات لا معجزة، وتحتاج إلى قرون تلو قرون، ذلك لأن الهوْة بينهم وبين الأمم المعاصرة لهم كانت واسعة جدّاً في مجال المعارف والعلوم، فإذا ما تقدموا خطوة تقدمهم اولئك خطوات، لذلك كان على الرسول الكريم أن يحكم التخطيط للارتقاء المعرفي بالأمة وتمكينها من السبق وقيادة الأمم في هذا المجال، ويتبين ذلك فيما يأتي:

أ- نحو الإقلاع المعرفي

١ - حفز الاحتواء المعرفي:

كلنا يعرف ما تمارسه الدول المتقدمة اليوم من ضغوط وجهود دؤوبة مستمرة للوصول إلى الإحتواء المعرفي، فالولايات المتحدة مثلا لم ترتق في كل مجالات العلوم بجهود أبنائها فقط، وإنّما عملت المستحيلات لاحتواء العلماء الأوروبيّين وبخاصة الألمان ومنحهم جنسيتها وضمهم إلى مجتمعها، ثم أخذت تجتذب كل عالم مبدع وكل ذكي متفوق من كل أنحاء العالم، بتوفير كل الظروف الحياتية المناسبة له، فغدا فيها العربي والإيراني والهندي والإفريقي والأوروبّي من نخبة العلماء والأذكياء الذين وفرت لهم كل الظروف التي تحقق إبداعهم وإبتكارهم، وما من أحد يجهل كم من العلماء العرب أصبح أميريكيّاً، وهكذا حققت هذه الدولة احتواء معرفيا جعلها في مقدمة دول العالم، ولعلنا لا نعدو الحقيقة إذا قلنا إنهم استفادوا من التجربة الإسلامية في الاحتواء المعرفي، فهم يستقرئون التاريخ ونحن نتنكر له.

كان تركيز الرسول الكريم في مجال الاحتواء المعرفي على نشر الدعوة الإسلامية، بأسلوب حكيم سلس جذاب، بحيث يستقطب ـ فيمن يستقطب ـ العلماء الذين هم اكثر استجابة لمنطق الحق، واستيعابا لدعوة الحق، فلم يبق عالم معروف في جزيرة العرب، إلا ودخل في الإسلام، وغدا من علماء الإسلام، وتابع الخلفاء هذا الجهد فيما وراء جزيرة العرب، فدخلت في الإسلام شعوب عديدة، يتقدمها علماؤها في مختلف المجالات العلمية، فأصبحوا جزءا لا يتجزّأ من الأمة الإسلامية

المقصودة بالخيرية والعلوّ، وبذلك تحقق الاحتواء المعرفي ولكن ليس على أساس مادي ـ كما تفعل دول اليوم ـ وإنما على أساس معنوي إيماني إعتقادي.

وكان الإقلاع . . كان الإقلاع ابتداء بالعلماء المسلمين من غير العرب، لأن عقلياتهم واستعداداتهم وقدراتهم كانت مهيئة لهذا الإقلاع في كل مجال علمي أومعرفي، ولم يمض طويل وقت حتى تفوقوا على معاصريهم في مختلف العلوم، آخذين بالضوابط الإسلامية المعرفيّة، وغدت العلوم التي تتعامل معها البشرية، والتي استمرت تتعامل معها ردحاً طويلا من الزمن علوما إسلامية الصبغة سواء أكان ذلك في الكيمياء أو الفيزياء أو الرياضيات أو الطب أو الهندسة أو النبات. . إلخ، ومن المعروف أن معظم علماء العلوم الكونيّة الذين زخر بهم تاريخ العلوم، كانوا نتاج الاحتواء المعرفي كالخوارزمي والرازي وابن سينا والغزالي وابن الهيثم وغيرهم كثير، ليسوا عربا وإن كانت اسماؤهم عربية، ولكن الإسلام احتواهم جميعا إضافة إلى إخوانهم العرب، فانتظمت القافلة على أساس من الدين الجديد.

٢- حفزْ الجهد المعرفي:

أما الأساس الثاني الذي أرساه الرسول الكريم للإقلاع المعرفي فهو حفز الجهد المعرفي، لتحقيق بناء صرح علمي معرفي شامخ باسم الإسلام، يحتضن كل المعارف الدينية والاجتماعية والكونية الوثيقة الدقيقة التي تنهض بالحياة والأحياء من بني الإنسان.

إنّ الدين الإسلامي يعنى أول ما يعنى بإيقاظ الإدراك البشري، وتحريره من قيود الجهل، وأصفاد الوهم، وأغلال التقليد، والخبط العشوائي في متاهات الحياة، بحيث يعمل الإنسان ضمن دائرته حرّ الفكر، سلس المنطق، موضوعي المحاكمة، غير متبلْد الحس والوعي، وإنما يسمو إلى تحقيق الكمال الإنساني، بقدر ما يتاح للإنسان من كمال.

ولعل احتفاء القرآن الكريم بالمعرفة الدينية والمعرفة الاجتماعية غير مجهول من أحد، ولكن القرآن الكريم لا يتوقف عند هذين النوعين، وإنما يهتم بالنوع الثالث وهو المعرفة الكونية، لكونها أساس الاحتياجات المادية للإنسان، فنجد الآيات تركز على سنن الله تعالى في الأنفس والآفاق: ﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝٢٠ وَفِيٓ

﴿أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝﴾[(١)]، وهذه السنن هي أساس المعرفة الكونية من حيث: خصائص الكون، وطبائع المخلوقات، وحقائق الوجود، ومقومات الموجودات.. الخ.

والقرآن الكريم ينطلق في ذلك من أقوم الأساليب العلمية، حيث يأخذ بزمام الفكر الإنساني في اتجاه صاعد، من المعلوم إلى المجهول، ومن الدّقيق إلى الجليل ومن المعارف البسيطة إلى المركبة، ومن الجزئية إلى الكلية، فالذرّة التي يلفت الأذهان إليها على بساطتها هي مادة بناء الكون كله، كما الخلية مادة بناء الحياة.

ولكن القرآن الكريم ـ وإن كان يتناول أسس المعرفة الكونية ـ ليس كتاب علوم كونية، وإنما كتاب هداية يأخذ بالناس نحو الارتقاء بالوجود الإنساني في كل مجالات الحياة، وسنّة الرسول هي سنّة بيان هذا الكتاب المعجز، أما الانطلاق من الأسس إلى البناء المتكامل فهو مهمّة البشر، بادراك السنن والقوانين والأسباب والبناء عليها.

ومن هنا يأتي تأكيد الرسول الكريم في تربيته للمسلمين على حفز الجهد العلمي والمعرفي، منطلقا من فضل العلم، دون تحديد لنوعية العلم فالإنسان في حياته الدنيا بحاجة إلى كل أنواع العلوم، والتي تنمو وتتطور ـ كما ونوعا ـ مع استمرار الحياة، وفي ذلك يقول:

- «فضل العلم خير من فضل العبادة»[(٢)].

- «ما اكتسب مكتسب مثل فضل علم يهدي صاحبه إلى هدى، أو يردّه عن ردى»[(٣)].

- «إذا مات ابن آدم، انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعوله»[(٤)].

---

(١) الذاريات (٢١).

(٢) رواه الطبراني والبزّار.

(٣) رواه الطبراني.

(٤) رواه مسلم وغيره.

ب- نحو الرسوخ المعرفي

الإقلاع المعرفي وحفز الجهود لتحقيق هذا الإقلاع وحيازة المعرفة أمور مهمة، ولكنها غير كافية لوضع العلم في دائرة نفعية الحياة والأحياء، وإنما يتطلب ذلك رسوخاً معرفيا، وتعمقا واستقصاء، واتباع أحكم أساليب البحث والتجريب، وصولاً إلى معرفة علمية موثوقة ليقوم البنيان الحضاري على قواعد ثابتة راسخة لا تحتمل الخطأ والزلل وبالتالي الفشل والإخفاق.

ولتحقيق هذا الرسوخ أو التعمق المعرفي، يضع الرسول الكريم ثلاثة منطلقات رئيسة إذا اتبعها المسلم تحقق له هذا الرسوخ، الذي يمكّنه من البناء الحضاري القويم السليم، وهي:

١ - طلب العلم:

طلب العلم عملية تبدأ من معرفة القراءة والكتابة في سنّ مبكرة، وتستمر ما استمرت الحياة، تتخللها عمليات التلقّي والاستيعاب، ثم الدراسة والبحث والتجريب، فالإنجاز والإبداع ونظراً لطول المسيرة وما يعتريها من متاعب ومشاق وصعوبات وتحدّيات، وما تتطلبه من إذكاء إرادة، وشحن مواهب وقدرات، واستمراء للمشقة والتعب والسهر الطويل المضني، ودفق متواصل من الحماسة والمثابرة والأمانة والإخلاص... الخ، فإن كثيراً من طلاب العلم يتساقطون على الطريق، ولا يصل إلى نهاية المشوار إلا كل صلب العود، قوي النفس، وثّاب الإحساس صادق الإخلاص.

لذلك توصلت شعوب الأرض إلى تقسيم طلب العلم إلى مراحل، فهناك عدة مراحل قبل التعليم الجامعي ثم الدرجة الجامعية الأولى فالثانية فالثالثة، وهناك من يكتفي بالمرحلة الأولى أو الثانية وهناك من يصرّ على الحصول على الدرجة الجامعية الثالثة «الدكتوراة»، ولكن الحصول على هذه ليس المحطة الأخيرة ولا النهاية، وإنما غدت الأمم تعتبرها البداية.. بداية وضع العلم في مجال نفعية الحياة

والأحياء، إذ يتسنى بعدها للمتعلم خوض غمار البحث والتجريب والإبداع والاختراع. وما من علم يتحقق لإنسان إلا بالاتجاه إلى التعلم والرسول الكريم يقول:

- «إنّما العلمبالتّعلّم»[١].

والتعلم لا يتحقق تلقائياً وإنما بطلب العلم من مظانّه ـ محليا أو خارجيا ـ فهو السبيل لتحقيق العلم، وإنجاب العلماء الذين تستقيم بهم الحياة. ومن هنا ندرك أهمية التركيز الكبير من الرسول ﷺ في تربيته للمسلمين على طلب العلم في كثير من الأحاديث منها قوله:

- «من خرج في طلب العلم كان في سبيل الله حتى يرجع»[٢].

- «من سلك طريقاً يطلب فيه علماً سهّل الله له طريقا إلى الجنّة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع»[٣].

- «من جاءه أجله وهو يطلب العلم لقي الله ولم يكن بينه وبين النبيين إلا درجة النبوّة»[٤].

٢- إتقان العلم:

ليس كل من يطلب العلم يتقنه، وإلا لأصبح طالبو العلم كلهم على مستوى واحد، ولكن الواقع غير ذلك ففي أي اختصاص كالطب أو الهندسة أوالصيدلة أو غير ذلك نجد مختلف المستويات، وكم يتزاحم المرضى على طبيب ويتركون غيره، أو على مهندس متفوق ويتركون من سواه.

ومتقنو العلم هم الذين ينهضون بأنفسهم وبمجتمعاتهم، لأنهم يعتمدون المعلومة الموضوعية الواثقة المتقنة التي تجلّي الحق الناصع والحقيقة الواضحة، وبذلك يكون أي قرار لهم ـ مبنيا عليها ـ قراراً سليما حكيما واعياً واثقاً، سواء أكان

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه الترمذي.

(٣) رواه أبو داود والترمذي وغيرهما.

(٤) رواه الطبراني.

ذلك في السياسة أو الاقتصاد أو الاجتماع أو الطب أو الهندسة أو غيرها، وتكون النتائج سليمة قويمة لا يشوبها احتمال الخطأ والخلل والزلل.

وإتقان المعرفة يتطلب عزما وحزما ووعيا ومثابرة وصبرا من العالم، كما يتطلب توفير كل مقوّمات الإتقان من الدولة، من مختبرات وأجهزة ومعدات وأدوات ومواد خام ومراكز بحث وغيرها بالنسبة للمعرفة الكونية، ومن مراجع ومصادر ومكتبات ووسائل اتصال وتنظيم فرق عمل... الخ بالنسبة لغيرها، إضافة إلى تأمين حرّيّة البحث والفرز والنقد والتقويم، وعدم الحجر على الفكر والرأي والكلمة.

إن أنصاف المتعلمين ـ الذين لم يتقنوا العلم ـ أخطر على أي أمة من الجهلة، لأنهم يبنون مواقفهم على معلومات مغلوطة أو منقوصة فيضلّون ويُضلون وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا، في حين أن الجهلة لا يفتون ولا يدّعون المعرفة فليسوا مظنة ذلك.

لهذا نجد الرسول الكريم يؤكد على إتقان المعرفة من ناحية، ويحذر من اللجوء إلى المعرفة غير اليقينيّة فيقول:

- **في الإتقان:**
- «إن الله يحبّ إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه»[١].
- **في الادعاء:**
- «من تطبب ولم يعلم عنه الطب فهو ضامن (يضمن نتيجة معالجته)»[٢].
- **في البناء الحكمي:**
- «من أفتي بغير علم كان إثمه على من أفتاه»[٣].

---

(١) رواه البيهقي.

(٢) رواه النسائي وأبو داود وغيرهما.

(٣) رواه أبو داود والحاكم.

- في المعلومة الظنيّة:
- «إياكم والظنّ، فإن الظنّ أكذب الحديث»[(١)].
- في اختلال المعلومة:
- «بئس مطية الرجلّ زعموا»[(٢)].
- في الشعوذة:
- «من أتى عرّافاً أو كاهناً يؤمن بما يقول، كفر بما أنزل على محمد»[(٣)].

٣- تكريم العلماء:

طلب القوم العلم وأتقنوه، ثم ماذا؟.. لا بدّ أن يستثمروا علمهم لتحقيق خيريّة حياة قومهم كل في مجال اختصاصه، هذا يتصدى للأمراض، وذاك لأزمة الاسكان، وغيرهما لتنمية الاقتصاد وهكذا. وهذه أعمال في قمة التميّز لعطاء البشر، وتحتاج إلى صفاء ذهن وتركيز فكر وإعمال عقل وبذل جهد.. الخ، فهل يتاح هذا لإنسان تداس كرامته وتسلب حقوقه وتصادر حرْيته؟ بالحتمية لا، لأنه يصاب حتما بالإحباط والتثبيط وفقدان الحماسة للإنجاز والإبداع..

واذا فكرنا بصدق وأمانة في واقعنا المعاصر، لا نجد أمة متخلفة، إلا ونجد علماءَها مضطهدين مطاردين ملاحقين من الناحية المعنوية، ولا يحصلون إلا على الكفاف أو كفاف الكفاف من ناحية الماديّة، ولا نجد أمة متقدّمة إلا ونجد علماءها محترمين مقدرين مكرمين، مما مكنهم من الإنجاز والإتقان والإبداع، فغدت لهم المكانة العليا معنويا وأدبيا، ولهم أفضل المكافآت والجوائز والمنح المادية التي لا يصل إليها سواهم.

من هذا المنطلق نجد القرآن الكريم يضع العلماء في أعلى مكانة فالحق ـ سبحانه وتعالى ـ يقول:

---

(١) متفق عليه.
(٢) رواه أحمد وأبو داود.
(٣) رواه الطبراني.

- في عدم تسويتهم بغيرهم:

- ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1].

- وفي رفع مكانتهم:

- ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾[2].

- وفي تقدير علمهم:

- ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ﴾[3].

ويأخذ الرسول ﷺ من تكريم الخالق سبحانه للعلماء، منطلقا للتأكيد الحازم الجازم على تكريم العلماء فيقول:

- «ثلاثة لا يستخف بهم إلا منافق: ذو الشّيبة في الإسلام، وذو العلم، وإمام مقسط»[4].

- «إن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً وإنما ورثوا العلم، فمن أخذ به أخذ بحظ وافر»[5].

- «إن مثل العلماء في الأرض مثل النجوم يهتدى بها في ظلمات البرّ والبحر، فإذا انطمست النجوم، أوشك أن تضلّ الهداة»[6].

جـ- أخلاقيات المعرفة

إذا كانت مكارم الأخلاق وعليا الفضائل ذات أهمية مقدرة لكل إنسان في الكيان الاجتماعي، فهي للعلماء بالذات اكثر أهمية واكثر لزوما، لأنهم موطن الثقة

(١) الزمر (٩).

(٢) المجادلة (١١).

(٣) آل عمران (١٨).

(٤) رواه الطبراني.

(٥) رواه أحمد وأبو داود وغيرهما.

(٦) رواه أحمد.

من عموم الناس الذين يتأثرون بهم ويقتدون بأقوالهم ويتأسون بتصرفاتهم وأعمالهم، فباستقامتهم يستقيمون وبصلاحهم يصلحون، ما التزموا بالأخلاق النبيلة والقيم الجليلة.

أما اذا تنكب العلماء الأخلاق الفاضلة، فإنهم يصبحون آفة الحياة والأحياء والداء الذي لا يرجى له شفاء، فهم مظنّة إصلاح الناس، فمن يصلحهم إذا فسدوا؟ وكما قيل: أيها العلماء يا ملح البلد من يصلح الملح إذا الملح فسد؟

لقد عانت الإنسانية طويلا ولا زالت تعاني من انحراف أخلاق العلماء، وما تكريس بعض العلماء حياتهم وتسخير علومهم لخدمة مصالح السادة والأقوياء والأغنياء في عصرنا الحاضر، إلا بعض نماذج عما سببه انحراف العلماء على مدى التاريخ البشري، فبعضهم سخّر علومه لإنتاج أسلحة الدمار الشامل من ذرية ونووية وهيدروجنية.وكيماوية. لإرضاء غرور عشاق إذلال الشعوب، فأبادوا بسلاح واحد ما أبادته حروب سنوات طويلة من الحروب السابقة، وبعض العلماء وظفوا علمهم لأصحاب رؤوس الأموال وإنتاج المخدرات والمغيبات أو إنتاج الفطريات للقضاء على منافسة الخصوم، وغيرهم يفتي لأصحاب السلطان كذبا وزورا وبهتانا مبرّراً ظلمهم وانحرافاتهم، . . . الخ، فانحراف العلماء وبال على الإنسانية.

لذلك يهتم الرسول الكريم بتربية المسلمين على أساس من الالتزام بأخلاقيات العلم والعلماء، التي تؤمّن قوامة العلم ونفعيته للفرد والجماعة مؤكدا على ما يأتي:

١ - الأمانة:

الأمانة هي التزام الحق والحقيقة، بحيث يكون قول العالم وعمله وسلوكه وتصرفه منطلقا من معين الحق، فلا يكذب أو يزوّر أو يضلّل أو يخادع أو يخاتل أو يغش لأي سبب من الأسباب، فالأمانة هي التزام كامل بالحق والعدل، وعلى عكسها الخيانة التي تتلازم مع الباطل والظلم. وإذا التزم العلماء الأمانة غدوا موطن الثقة بالنسبة لعموم الناس، فعمموا الصلاح لمجتمعهم وأمتهم.

ومن الأمانة أن ينسب العالم كل انجاز إلى صاحبه دون مخاتلة أو مواربة وألاّ يحكم أو ينصح أو يشير إلا بما يعلم علم اليقين بأحقيته فإذا لم يكن يعلم فليقل «لا

أدري» وكان علماء المسلمين يقولون: «لا أدري نصف العلم» فما من إنسان يدري كل شى أو ختم العلم كله، وفي الوقت نفسه ألا يحتكر العالم ما يتوصل إليه من علم ويضنّ به على الناس.

والرسول الكريم ﷺ يؤكد على أمانة العلماء، ليكون العلم موطن ثقة بين الناس، يطمئنون إلى الأخذ به دونما حاجة إلى إعادة البحث من نقطة الصفر، ومن ذلك قوله:

- «تناصحوا في العلم، فإن خيانة أحدكم في علمه، أشدّ من خيانته في ماله، وإن الله تعالى سائلكم يوم القيامة»(١).

- «. . . من أشار على أخيه بعلم يعلم أن الرشد في غيره فقد خانه»(٢).

ويوضح الرسول أسلوب التزام أمانة العلم وفق حالات ثلاث: حالة التيقن من الرشد والتيقن من الغي، وحالة الاختلاف بينهما فيقول:

- «إنما الأمور ثلاثة: أمر تبيّن لك رشده فاتبعه، وأمر تبين لك غيّه فاجتنبه، وأمر اختلف فيه فردّه إلى عالم»(٣).

٢- الإخلاص:

سبق بيان كون الإخلاص، هو تخليص الشى من الشوائب، والشوائب التي تعلق بنفوس العلماء كثيرة وإن كان أظهرها، النفعيّة: حيث يستغلّ العالم علمه لاقتناص المنافع والمصالح الذاتية، فلا يتورّع عن الانحراف بالعلم، وتسخيره للإضرار بالناس والحياة، والتزوير والتضليل والخداع لصالح الأقوياء، إلى غير ذلك من الإنحرافات التي تدفع إليها عبودية المال وجمعه، حتى على حساب الحاق الأذى بالناس، أو أن يقصد بعلمه تلميع ذاته، والحصول على المنصب أو علو المكانة أو إرضاء غرور النفس بالتباهي والتفاخر إلى غير ذلك.

---

(١) رواه الطبراني.

(٢) رواه أبو داود والحاكم.

(٣) رواه الطبراني.

والعلم مطلب كل حي، والعالم في أي مجال من مجالات الاختصاص هو قبلة الجماهير العلمية، لا يستغنون عنه في شؤون حياتهم المختلفة، الأمر الذي يوجب عليه أن يتصف بالإخلاص، قاصدا وجه الله الكريم ببذل علمه، ولا يعني ذلك ألا يستفيد مادياً بإنجازاته، فهذا مطلب مستحيل، بل له أن يستفيد باستشاراته العلمية، ونواتج بحوثه وتجاربه ودراساته وخبراته، ولكن على ألا تكون المنفعة والمصلحة غايته من ذلك، وألا تحرفه المصلحة عن الحق والعدل مهما بذل له لتحقيقها، وإلا غدا العلم تجارة يوضع في خدمة من يزيد، وبذلك يغذّ الخطى نحو الانحراف.

والرسول الكريم يؤكد على أن تكون قصديّة العلم ـ حيازة، ونشرا، ونفعاً ـ هي الله تعالى ، ومن يجعل علمه لله، يحصّنه ـ حتما ـ ضد كل عوامل الانحراف، وفي ذلك يقول ـ عليه السلام ـ.

- «من تعلّم علما مما يبتغى به وجه الله تعالى، لا يتعلّمه إلا ليصيب به عرضا من الدنيا، لم يجد عرف الجنّة (ريحها) يوم القيامة»[١].

- «من تعلّم علما لغير الله، أو أراد به غير الله، فليتبوأ مقعده من النار»[٢].

٣- التواضع:

التواضع هو عكس الكبر، وما من نفس بشرية قويمة الفطرة تقبل التعامل مع من يتكبر أو يترفّع أو يشمخ بأنفه عليها، وحتى المبتلى بالكبر نفسه، لا يقبل أن يتعالى عليه إنسان أو يعامله بكبر وغطرسة ولو أنصف لعامل الناس بما يحب أن يعاملوه به.

ولما كان تعميم فائدة العلم ونفع العلماء وأخذهم بدور رائد في حياة مجتمعاتهم يتطلب إحكام التواصل مع من سواهم، فإن التواضع لا الكبر هو الخلق الذي يجب أن يتحلّوا به، بحيث تبنى المعاملات والعلاقات على أساس من المساواة والاحترام المتبادل، وتعميق الألفة والمحبة والتقدير والتوقير فيما بينهم.

(١) رواه أبو داود وابن ماجه وغيرهما.

(٢) رواه الترمذي وابن ماجه.

ويقتضي التواضع عدم ركوب الغرور العلمي وادعاء التفوق أو التفرّد بالمعرفة والإحاطة الجامعة بها، فليس هناك من أحاط بكل شى علما إلا الله، وكلّ إنسان علم شيئاً وغابت عنه أشياء ، كما يقتضي احترام علوم الآخرين وأفكارهم وآرائهم، وعدم اللجوء إلى الاستهزاء بمن يخطىء منهم، فإن هذا مما يحول دون استمراريتهم في البحث والاجتهاد، وحتى لو وجد أحد العلماء نفسه مضطرا للنقد أو المعارضة فيجب أن يكون متواضعا في ذلك، بمعنى أن يكون نقده هادئاً موضوعياً يلتمس الحكمة والموعظة الحسنة والكلمة الطيبة، بعيداً عن القدح والذم والتجريح والتسفيه، كما يتطلب التواضع أن يكون تعليم الناس ملتمساً كل إمكانات التيسير والتحلي بالصبر والأناة فليس معارف أو قدرات من يعلمهم مثل معارفه وقدراته.

والرسول الكريم الذي يدرك قيمة خلق التواضع في تعميم العلم ونشره وإعلاء قيمته واستثمار معطياته، يؤكد على خلق التواضع لا بالنسبة لمن يعلم العلم فقط وإنما بالنسبة لمتعلمه كذلك، فيقول:

- «تعلموا العلم، وتعلموا مع العلم السكينة والوقار، وتواضعوا لمن تعلمون منه»[١].

- «إن الله لم يبعثني معنّتاً ولا متعنّتاً، ولكن بعثني معلماً ميسّراً»[٢].

- «لا تعلّموا العلم لتباهوا به العلماء، ولا تماروا به السفهاء، ولا تخيروا به المجالس، فمن فعل ذلك فالنار النار»[٣].

٤ - الإيجابيّة:

إن عموم الناس لا يهمهم إن كان فلان مخزن علم يحتوي على أرقى العلوم ولكنه مقفل على ما فيه، فالعلم أصلا لينتفع به لا ليخزن أو يدفن أو يكنز، لذلك فإن سلبية العالم وإنطوائيته وإنعزاله عن الناس أخلاق مذمومة، وإنما يجب أن

(١) رواه مسلم وأحمد والطبراني.
(٢) رواه الطبراني.
(٣) رواه البيهقي وابن حبان وغيرهما.

يتحلى العالم بالإيجابية الفاعلة، وأن يكون في كل موطن لسان صدق، وداعية حق وميزان عدل، فالناس أكثر طواعية له واقتداء به ممن سواه.

والعلماء في كل أمة ناهضة هم دعائم خيريّة مجتمعاتهم، ومن تاريخنا نلمس ذلك بوضوح، لقد كان علماؤنا ملاذ المظلوم وملجأ المغبون، يقصدهم الناس كلما أطل الظلم برأسه، فكانوا لسان الشعب، والمعبّرين عن إرادته، يجأرون بالحق من غير ما وجل، لا يثنيهم وعد، ولا يثبطهم وعيد، وبذلك أصبحوا محصّلة القوى الاجتماعية، وأهم عوامل التوازن بين الحاكم والمحكوم، والغني والفقير والقوي والضعيف، فحققوا لأنفسهم ومجتمعاتهم كرامة الحياة.

والرسول الكريم يؤكد على هذه الإيجابية لتكون قوة دفع دائمة، تدفع إلى الهدى وترد عن الردى، مؤكدا على قصدية الخير في التعلّم والتعليم، ومحذرا من السلبية التي تهوي بالمجتمعات، وفي ذلك يقول:

- «ما اكتسب مكتسب مثل فضل علم، يهدي صاحبه إلى هدى أو يردّه عن ردى...»[١].

- «من جاء مسجدي هذا، لم يأته إلا لخير يتعلمه أو يعلمه، فهو بمنزلة المجاهدين في سبيل الله»[٢].

- «مثل الذي يعلّم الناس وينسى نفسه مثل الفتيلة تضيء على الناس وتحرق نفسها»[٣]:

(١) رواه الطبراني.
(٢) رواه ابن ماجه والبيهقي.
(٣) رواه البزار.

د- مسؤوليات المعرفة

لا شك في أن كل أمر من الأمور، لا مسؤولية عليه ـ أدبية أو مادية ـ أمام الله أو الناس أو الأجهزة المعنيّة، مصيره الضياع، فالإنسان بطبيعته حريص على حقوقه فقط، في حين يسعى جاهدا للتخفف أو التخلص والتنصّل من مسؤولياته، وما ترتبه عليه من واجبات والتزامات. لذلك فإن الاجتهاد البشري آل إلى تحديد مسؤوليات لكل أمر من أمور الحياة بعامة، يكافأ من ينهض بها ـ مادياً وأدبياً ـ ويعاقب من يهملها. والإسلام كما سبق القول يضع لكل شأن من شؤون الحياة مسؤوليات أدبية ومادية، يحاسب عليها أمام أولي الأمر والسلطات بأنواعها في الدنيا وأمام الله تعالى في الآخرة.

ومسؤولية المعرفة أدبية بالدرجة الأولى، إلا إذا كلف حائز المعرفة بمهام محددة لها مسؤولياتها، لذلك نتناول هنا المسؤوليات الأدبية التي يجب أن ينهض بها العلماء والعارفون ذاتيا.

١- نشر المعرفة:

قد ينبغ بعض الناس فيرتقي مدارج العلم والمعرفة وربما يتفرّغ لذلك، في حين لا تحمل قدرات آخرين أو ظروفهم إلى هذا المستوى، والنتيجة المتوقعة أن تصبح لدى الصنف الأول حصيلة معرفية كبيرة، قد لا يتوافر قدر كبير منها للفئة الثانية، ولكن هذه الحصيلة تبقى بدون جدوى إذا بقيت داخل جدران ذاكرة صاحبها لأنه يبقى عالما بين جهّال فينا صبونه العداء أو يقفون منه موقف اللامبالاة.

لذلك فإن الإسلام يؤكد على نشر المعرفة، ليتحقّق بذلك الارتقاء المعرفي للمجتمع ككل، وتتحقق بذلك الفوائد الآتية:

- تحقيق اهتمام واع بالمعرفة، وبذلك يجد العلماء أنفسهم يتحدثون مع الناس بلغة علمية مشتركة، يفهمها الناس فلا يقفون منهم موقف السخرية واللامبالاة أو موقف العداء، وإنما موقف التقدير والتكريم والاحترام لعلمهم. مما يدفعهم في طريق الاثراء المتواصل لمعارفهم.

- استقطاب عناصر جديدة ممن لديهم استعدادات ومواهب وملكات مبدعة للاهتمام بالمجالات المعرفية التي تستحوذ على اهتمامهم، وبذلك تتنامى فئة العارفين، مما يسهم في النبوغ العلمي والمعرفي في مجالات واسعة.

- تكوين رأي عام مهتم بالمعرفة بحيث يدفع إلى مساندتها وتدعيمها ومؤازرتها، وإمدادها بمتطلبات تطورها، لا سيما بالمتطلبات الماديّة.

- الاندفاع في تنمية أي مجال من مجالات حياة المجتمع ، على أساس علمي واع مدروس، بناء على تعميم المعرفة، الأمر الذي يؤمن له النجاح.

لذلك نجد الدول الحديثة تهتم أول ما تهتم بوسائل الإعلام الجماهيرية، التي تعتبر مهمتها الأوَلى في الدول المتقدمة نشر المعرفة وتنمية الوعي الثقافي والعلمي لدى المواطنين، وليس الدعاية للنظام وسلطاته كما في العالم الثالث.

والإسلام يؤكد على نشر المعرفة، ويجعل ثوابها كبيرا عند الخالق ـ سبحانه ـ إضافة إلى ما يلقاه العالم الذي ينشر معرفته من تكريم من الناس، والرسول ﷺ يربي المسلمين على أساس من إيجابية المعرفة، بالتأكيد على نشرها، وفي الوقت نفسه يحذر من كتمان العلم، الأمر الذي أصبح شائعا في أيامنا هذه، فيقول.

- «إن مما يلحق المؤمن من عمله وحسناته بعد موته، علّمه ونشره..»[١].

- «ألا أخبركم من الأجود الأجود؟ الله الأجود الأجود، وأنا أجود ولد آدم، وأجودكم من بعدي رجل علم علما، فنشر علمه، يبعث يوم القيامة أمة وحده»[٢].

- «أفضل الصدقة، أن يتعلّم المرء المسلم علما ثم يعلمه أخاه المسلم»[٣].

- «من كتم علماً، ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار»[٤].

(١) رواه ابن ماجه والبيهقي.

(٢) رواه البيهقي وأبو يعلى.

(٣) رواه ابن ماجه.

(٤) رواه الحاكم وابن حبان.

٢- توظيف المعرفة:

إذا حصل الإنسان على المعرفة، وارتقت علومه في مجال ما، فإن المطلوب منه أن يعمل بما علم مستثمرا كل ما توصل إليه من علم في تنمية مقومات الحياة - وفق اختصاصه - في مجتمعه، بما يحقق أمنه ورخاءه ورفاهيته، ويبني له مكانة لائقة بين أمم الأرض، ولا جدوى من علم مهما ارتقى إذا لم يوظف لتحقيق خيرية الحياة والأحياء.

ولعل الأصل لدى معظم علماء الناس الذين عرفتهم البشرية هو توظيف علومهم ومعارفهم في تطوير النواحي الإيجابية القويمة للحياة، وعلى هذا الأساس أسهم العلماء في الماضي والحاضر - ومنهم علماء أمتنا - في الانتفاع بخيرات الكون وموجوداته لعمران الحياة، وتحطيم أغلال الحاجة والعوز والمرض، والارتقاء بالمستويات السائدة إلى مستويات أفضل. وقد وصل توظيف العلم بالإنسان في زمننا الحاضر إلى جعل الحياة أكثر أمنا ويسرا، فتم القضاء على كثير من الأمراض والأوبئة وتم تطوير علاج معظم ما يصيب الإنسان منها، وتم تطوير وسائل الحياة المنزلية والاتصالات والمواصلات وكل مقومات الاقتصاد بتوظيف العلم وتطبيقاته التكنولوجية في الحياة. ولاشك أن هناك من وظف العلم لإفساد مقومات الحياة. وهذا ما يرفضه كل إنسان سوي سليم. والإسلام يجزي العالم بما عمل به في علمه من ناحية، ويؤاخذه على عدم العمل بعلمه أو توظيف علمه في الاتجاهات السلبية من ناحية ثانية، وفي ذلك يقول الرسول الكريم ﷺ:

- «كل علم وبال على صاحبه إلا من عمل به»[١].
- «اللهمّ إني أعوذ بك من علم لا ينفع»[٢].
- «لا تزول قدما عبد حتى يسأل عن عمره فيم أفناه، وعن علمه فيم عمل به»[٣].

---

(١) رواه الطبراني.

(٢) رواه مسلم والترمذي والنسائي.

(٣) رواه الترمذي والبيهقي وغيرهما.

٣- تنمية المعارف:

من المعروف أن العطاء العلمي والمعرفي الإنساني لا يتوقف، ففي كل يوم تبرز علوم جديدة في الشرق أو الغرب، وفي كل يوم تخترع تطبيقات تكنولوجية جديدة للعلوم التي برزت، والمعلومات على مختلف نوعياتها أخذت تتدفق بسهولة ويسر عبر عديد من القنوات المعرفية وفي سرعة لحظية، حتى شاع التعبير: «العالم قرية معلوماتية صغيرة»، وما من علوم استجدت ولا تطبيقات ابتدعت سواء في الزراعة أو الصناعة أو الإدارة أو الاتصالات أو المواصلات... الخ، إلا ولها أهميتها في النهوض بحياة الإنسان وترقيتها، الأمر الذي يوجب على كل عالم أن ينمّي معارفه باستمرار للافادة منها.

وغني عن البيان أن التوقف عن طلب العلم وتنمية المعارف، يضع العالم على منزلق خطر، ينزلق به إلى الجهل، ذلك لأن الإضافات العلمية تصبح الكمّ العلمي المقدّر بسرعة، وما أن تمضي فترة من الوقت حتى يصبح المتوقف عن التعلم جاهلا بالجديد الذي يغدو الكم العلمي الرئيس، حيث تتجمد معارفة عند مستوى معين يتعداه التسارع العلمي ونتاج المعرفة المتقدمة، فيحكم على معارفه بالتخلف الأمر الذي حدا بمجتمعات اليوم ـ وبخاصة المتقدمة منها ـ إلى الأخذ بمفهوم: «المجتمع دائم التعلم» وأبدعت في إعداد مراكز متطورة لمصادر التعلم ليواكب علماؤها كل جديد، ويفيدوا مجتمعاتهم به.

ولعلنا ندرك عظمة موضوعية فكر الرسول الكريم ﷺ الذي أكد قبل ثلاثة عشر قرنا من الزمان ونيّف على استمرارية التعلم لتنمية المعارف والعلوم وفي ذلك يقول:

- «منهومان لا يشبعان: طالب علم وطالب مال»[١].
- «من قال إني عالم فهو جاهل»[٢].

---

(١) رواه البزار.
(٢) رواه الطبراني.

ويعني ذلك أن الإنسان الذي يقنع نفسه بأنه أصبح عالما، ولا يطلب العلم وينمي معارفه أصبح بالحتمية جاهلا، ولذلك يقول سفيان بن عينية ـ رضي الله عنه ـ.

-لا يزال المرء عالما ما طلب العلم، حتى إذا ظنّ أنه قد علم فقد جهل.

وهو صاحب القول المشهور الذي يحسبه بعض الناس حديثا وليس كذلك ـ: اطلب العلم من المهد إلى اللحد.

وسأله أحدهم: من أحوج الناس إلى العلم؟ قال: أعلمهم، لأن الخطأ منه أقبح.

وسئل عبد الله بن المبارك: إلى متى تطلب العلم؟ قال: حتى الموت.

وسئل الحسن البصري: هناك رجل بلغ الثمانين أيحسن به أن يتعلم؟ قال: نعم إذا كان يحسن به أن يعيش.

٤- الانفتاح المعرفي:

كم من العلماء أبدع علما مذ بدأت الحياة على الأرض؟ لا يستطيع أحد احصاءهم على مستوى البلدة الواحدة أو المنطقة الواحدة فكيف بكل مكان على الأرض، وكل من اللاحقين بنى على ما أبدع السابقون ولم يبدأ من الصفر، ولولا جهود السابقين لما حقق المعاصرون إنجازاً يذكر، لأنه كان عليهم أن يبدأوا من لا شيء.

لذلك فإن الإنجاز العلمي المعاصر، بل كل المنجزات الحضارية، ليست ملكا لأمة من الأمم، وإنما لبني الإنسان جميعا، فما من أمة إلا وكان لها دور فيها، ولم يكن دور أمتنا بالذات مما يمكن نكرانه أو الاستهانة به. لذلك فإن احتكار المعارف وحجبها عن الآخرين، لا يتوافق مع الحق ولا الخلق الكريم، وإنما يجب أن يكون كل إنجاز مشاعاً بين بني البشر، فيتحقق الإقلاع الحضاري الشمولي المتكامل لبني الإنسان.

وإنه لمن سبيل النكوص المعرفي والاستكانة العلمية أن تدّعي أمة بأنها لا تستطيع حيازة المعرفة المتقدمة، فليس هناك حجب كامل على المنجزات العلميْة، وحتى بالرغم من الحجر الرسمي على بعض العلوم كالعلوم العسكرية وبخاصة

النووية والهيدروجنية والكيماوية والبيولوجية منها، إلا أننا نعلم أن كثيرا من الدول قد اخترقت هذا الحجر وأصبحت قوى نووية، لذلك فإن كل أمة جادة يمكنها ـ ولو بصعوبة ـ الإفادة من كل إنجاز يتم على الأرض.

والانفتاح المطلوب قد يكون محليا بانفتاح العلماء على عطاء وإنجاز بعضهم البعض، وقد يكون خارجيا بالانفتاح على عطاء الشعوب الأخرى. وهذا ما قام به المسلمون في عصر الترجمة والنقل في العهد العباسي.

والرسول الكريم ﷺ يؤكد في تربيته للمسلمين على هذا الانفتاح فيقول:

- «الحكمة ضالة المؤمن، أنى وجدها، فهو أحق الناس بها»(١).

ونعلم اهتمام الرسول الكريم بتعلم المسلمين للغات، حيث يقول زيد بن ثابت رضي الله عنه أمرني رسول الله، فتعلمت له كتاب يهود بالسريانيّة(٢).

٥- تنمية لغة المعرفة:

اللغة وعاء المعرفة، يحفظ عطاء الأمة المعرفي، ويضم كل جديد، ليتم تمريره لأجيال الأمة المتتابعة جيلا بعد جيل، فتتواصل الأجيال عبر نتاج فكرها، لذلك تولي أمم الأرض تنمية لغتها باستمرار لتستوعب كل المستجدات.

وتفاعل اللغة مع المعرفة تبادلي العطاء، فالمعرفة تزيد من قدرات اللغة الاستيعابية بما ترفدها به من المستجدات، واللغة تيسّر استيعاب المعرفة التي تتم بها، لكونها أداة التواصل بين المعلم والمتعلّم.

ولغتنا العربية الرصينة الجميلة المطواعة نهضت بنهضة الأمّة إثر نزول دستورها الخالد: «القرآن الكريم» وأخذت تستوعب كل عطاء حضاري وإنجاز علمي ومعرفي، عندما كنا. وبالإسلام انطلقت من الإقليمية الضيقة إلى العالمية الواسعة، ومن محدودية المضمون إلى سعته، ولا يتسع المجال هنا لاستقصاء مميزات هذه اللغة، ويكفي أن نستعير القول فيها لواحد من غير أهلها بالرغم من أنه لم يتذوق حلاوتها وطلاوتها وإنما حاكمها موضوعيا، فهذا «ارنست رينان» يقول:

---

(١) رواه الترمذي وابن ماجه.

(٢) رواه البخاري وأبو داود والترمذي.

- من أغرب ما وقع في تاريخ البشر وصعب حلّ سرّه هو انتشار اللغة العربية، لقد كانت هذه اللغة غير معروفة، فبرزت فجأة في غاية الكمال، سلسلة أيّ سلاسة غنيّة أي غنى، كاملة أي كمال، بحيث لم يدخل عليها حتى يومنا هذا أي تعديل مهم. ليس لها طفولة أو شيخوخة، وإنما شباب فقط بحيث ظهرت تامة محكمة.

ولم يمض على فتح المسلمين للاندلس اكثر من خمسين عاما، حتى اضطر رجال الكنيسة أن يترجموا صلواتهم إلى اللغة العربية حتى يفهمها النصارى.

ومن أغرب المدهشات أن تنبت هذه اللغة وتصل إلى درجة الكمال وسط الصحارى لدى أمّة من الرحّل.

تلك اللغة التي فاقت أخواتها، بكمال مفرداتها، ودقة معانيها، وحسن تنظيمها. .[١]» وربّما يجهل «ارنست رينان» أن الفضل في ذلك كله للرسالة الإسلامية وبصفة خاصة إلى القرآن الكريم. ويوضح ذلك الأستاذ مصطفى صادق الرافعي بقوله:

- العربية لغة دين قائم، على أصل خالد هو القرآن الكريم فأصبحت لغة دين، ولغة أمة ولغة عبادة، ولغة فكر وعلم وثقافة. . .[٢].

أما اليوم وقد أصبحنا أسرى الإرسليات الثقافية الوافدة الحاقدة المعادية، فنجد علماءنا لا يتورعون عن القول: «العربية غير قادرة على استيعاب الإنجاز العلمي والحضاري» والعيب ـ لو انصفوا ـ فيهم لا فيها، وهم بذلك يحققون أهداف الحملة ضد أمتهم، حيث لم يبق من مجال تواصل بين الأمة سوى اللغة.

إن تنمية العربية تحتاج إلى وعي طليق غير مأسور، وفكر قحام غير متردد ولا وجل، فالأمر جدّ ويجب أن نجدّ. لقد سمع الرسول الكريم أحد المسلمين يلحن فقال: أرشدوا أخاكم فقد ضلّ وهو القائل: أنا أعربكم. . أنا قرشي واسترضعت في بني سعد ويسدّد عمر رمي قوم بالسهام فيتكلم أحدهم فيلحن، فيقول عمر: خطأكم في لسانكم، أشدّ علينا من خطئكم في رميكم.

---

(١) عن أنور الجندي، صفحات مضيئة من تاريخ الإسلام، دار سلامة، تونس، ط٢، ١٩٨٣، ص٩١-٩٢.

(٢) المرجع السابق ص ٥٩.

ثالثاً: خلاصة الفصل الخامس

لعل هذا الفصل يلمس أعماق واقعنا المؤلم، ويلقى شعاعاً من نور على مستقبل نرجوه لأجيالنا التي نأمل أن نجنّبها مواطن الإخفاق ومكامن الفشل التي منينا بها في حاضرنا.

لا يجهل أحد أن المعرفة بعامّة هي الأساس القوي المتين لكل نهوض حضاري، فما نهضت أمة يوما بالجهل والغاء عقولها، وإنما بالعلم وتفعيل عقولها، لذلك نجد رب العزّة الذي يعلم ما يصلح خلقه، يؤكد على العلم في محكم كتابه، حيث ترد مادة «علم» ومشتقاتها في اكثر من تسعمائة موضع في القرآن الكريم. ومن هذا الهدي ينطلق الرسول الكريم في تربيته للمسلمين مركّزاً على العلم والمعرفة، انطلاقاً من التكليف الذي يؤكد على خيرية الأمة وعلوّها.

وإذا تتبعنا تربية الرسول في هذا المجال، فإننا نستطيع أن نستوعب الأسلوب القويم لتحقيق خيرية هذه الأمة وعلوّها، ليس في المجال العلمي فحسب، وإنما في كل مجالات الحياة التي تبنى عليه، بالرغم من كل الظروف الضاغطة التي نحياها. ومن ذلك:

- **حيازة المعرفة:**

إن حيازة المعرفة المتقدمة لا تتحقق بمجرد المنى والأماني، وإنما بالعمل الجاد المثمر البناء، والتفكير الموضوعي الواعي، الذي يقوم على نبذ التفكير العفوي والتخطيط الآني، وإنّما اعتماد التخطيط العلمي الموضوعي طويل الأمد للنهوض العلمي والمعرفي للأجيال، الذي يبنى عليه النهوض الشامل، وأن نستلهم هدي الرسول في ذلك من حيث:

- السعي لحيازة المعرفة المتقدمة والانجازات العلمية وتطبيقاتها التقنية من كل مظانّها في أي أرض وفي أي موطن، انطلاقاً من قائمة حصريّة تحدد هذه الاحتياجات، حسب أولوياتها الملحّة.

- إفراز العناصر المتميزة بالذكاء والميول والمواهب العلمية والقادرة على الاستيعاب في المجالات المحددة، لا بتعاثها للحصول على المعرفة من مواطنها، بعد إخضاعها لبرامج توعية دينية ووطنيّة مكثفة، وتيسير جميع الظروف التي تحقق لها الإبداع.

- عدم التركيز على حصد الشهادات العلمية كهدف رئيس وأساسي، وإنما التركيز على استيعاب المعرفة، والمهارات العالية في التعامل مع تطبيقاتها.

- تنظيم العائدين من هؤلاء في فرق عمل وفق التخطيط المعتمد للنهوض الشامل، والبرمجة المعدة له، وربط هذه الفرق بمراكز البحوث المتخصصة في المجالات التي تخصصوا فيها، لإقدارهم على متابعة كل جديد واستيعابه واستثماره وتوظيفه للارتقاء بالمجالات الموكولة إليهم، وتزويدهم بالإمكانات المادية التي تساند إبداعهم.

- **إتقان المعرفة:**

يؤكد الرسول الكريم على إتقان المعرفة والعمل بها. وهذا الإتقان ليس بالأمر اليسير، ولا سيما بعد أن وضع العلماء والعارفون في ظروف أجبرتهم على تسطيح المعرفة، مما يتطلب أن تركز برامج التوعية قبل الابتعاث على الأهداف المتوخاة والغايات المعتمدة، وتشريب الأبناء تزكية روح العمل والجدّ والمثابرة، وشحذ عقولهم وضمائرهم بالإحساس بالمسؤولية تجاه وطنهم وأمتهم، مما يوطّد نفوسهم على استمراء العلم الجاد، والسهر الطويل، واليقظة الدائمة، في الإفادة من المواطن التي يقصدونها.

وغير خاف أن فقدان الأمة للإتقان قد كلفها الكثير الكثير من مقدراتها. إن تخريج مهندس واحد يحلّ مشكلة الإسكان، ويتصدى بموضوعيّة للتحديات التي تواجهها، أفضل من تخريج ألف مهندس، يستهلكون في العمل الروتيني، وهكذا بالنسبة للصناعة والزراعة وغيرهما.

وإتقان المعرفة ذو مردود أوفى بكثير من أي مخصصات تشجعية تبذل لتحقيقه، وربط المكافأة بالجهد المتقن خير وسيلة لدفع الإتقان قدما.

يضاف إلى ذلك تكريم العلماء المبدعين والمتقنين تكريما ماديا وأدبياً، كما أكد الرسول ﷺ ليغدوا منارات علم للأجيال المتتابعة، وروّاد المعرفة المتقدمة، والاقلاع الحضاري، وغير مجهول أن الأمم التي نهضت حضاريا، أولت علماءها من التقدير، ما جعلهم يبذلون أعلى وأحكم جهد ممكن لنهضة شعوبهم، وما الجوائز الكبيرة التي تخصص للمبدعين إلا نزر يسير من هذا التكريم.

- أخلاقيات المعرفة:

إننا نحن العرب المسلمين أهل هذه الأخلاقيات، فأمتنا هي التي زكتها ووطّدتها وعممتها، ولكنها تخلّت عنها إبان عهود التخلف، ليتبناها غيرها. ولا شك أن التمسك بأخلاقيات المعرفة من أمانة وصدق وتجرّد وإخلاص والتزام وتواضع، من شأنه أن يحرّك الوعي الاجتماعي، ويجذب الناس إلى مجالات المعرفة المتنوعة، ويرتقي بهم إلى مستوى تحمل مسؤولية المحاكمة العلمية الموضوعية لكل أمر من الأمور، والأخذ بنصيب وافر من نشر المعرفة وتعميمها وتعميقها، وتلافي الجهالة والعفويّة والعشوائية في التصدي للمشكلات ومواجهة التحديات، فالمجتمع العالم أقدر على ضبط أموره، وتقويم مساره، ونقد أوضاعه وتقويمها، ممّن سواه.

- نفعية المعرفة:

إن الإسلام إذ يؤكد على حيازة المعرفة لا يفعل ذلك لتكون حلية يتحلّى بها الإنسان، أو نيشاناً يفاخر به، وإنما لينفع بها دينه وأمّته ووطنه، لذلك يستعيذ الرسول الكريم بالله من علم لا ينفع، لأن العلم الذي لا ينفع لا يرتقي كثيرا عن الجهل.

إن نفعيّة المعرفة في تاريخنا الحضاري هي التي أطلقت إرادة التّغيير حرّة طليقة، وارتقت بدوافع الإنجاز والإبداع والتجديد والتطوير، في كل مجال من المجالات العلمية، سواء أكان ذلك في المجال الزراعي أو الصناعي أو التجاري أو العلوم البحتة التي مهّدت للحضارة المعاصرة، حتى تقول المستشرقة الألمانية زيغريد هونكة: «لقد أبدع العقل الإسلامي، وابتكر واكتشف، وأغنى المعرفة العلمية، حتى شملت منجزاته شتى أنواع العلوم»(١).

(١) زيغريد هونكة، شمس العرب تشرق على الغرب، مترجم، المكتب التجاري، بيروت، ط٣، ١٩٦٧، ص١٢.

وقد أبدع اليابانيون بخاصة ودول شرقي أسيا بعامة في نفعية المعرفة، إذ استوعبوا العطاء العلمي المعاصر لا سيما الغربي منه، وتطبيقاته التكنولوجية في مختلف المجالات، وسخروا ما استوعبوه للارتقاء ببلادهم صناعيا وتجاريا وزراعياً، وإذا بها في عقود معدودات تنافس أرقى بلدان العالم في المجالات التي تخصصت فيها.

إن هذا ما يؤكد لنا أهمية أن يستوعب أبناؤنا جدوى نفعية المعرفة، وأن يضعوها في اعتبارهم بما يحفزهم للإبداع والارتقاء بعطائهم الحضاري.

- **استمرارية التعلم:**

«لا يزال المرء عالما ما طلب العلم، حتى إذا ظنّ أنه علم فقد جهل» ـ سفيان بن عيينة. إنّها حكمة تدل على مدى عمق وعي سفيان ـ رضي الله عنه ـ إن شرط الاتّصاف بالعلم كما يراه سفيان، هو استمرارية التعلم حتى إذا حصل التوقف عن ذلك كان الجهل.

إن كل يوم يحمل جديداً في مجال العلوم، فعلوم العقد الحالي غير علوم العقد الماضي، وليس علوم اليوم كعلوم الغد، الأمر الذي يتطلب من العالم أن يستمر في طلب العلم والتماسه، وإلا فسيأتي عليه يوم تصبح كل علومه ما ضويّة، تعدّتها حركة العلم بمراحل، ويغدو جاهلا بالمستجدات العلمية.

ومما يؤسف له أن نجد أبناءنا يهتمون بالعلم للحصول على الشهادة، لأنها بوابة الحصول على الرزق. حتى إذا ما حصلوا على الشهادة طلقوا العلم ثلاثاً، وقطعوا كل صلة لهم به، ولا يفكرون في شراء كتاب واحد ولو في مجالات اختصاصهم، ولا متابعة برنامج علمي أو حضور محاضرة أو ندوة علمية فأنى لهؤلاء أن يصبحوا علماء؟.

لقد أبدعت الأمم اليوم في انشاء مراكز مصادر التعلّم لمتابعة تنامي العلم وتطوره المستمر، وتيسير وصوله إلى الراغبين فيه، وقد أبدع الغرب في تطوير الحواسيب، وغدت شبكة «الانترنت» تصل الإنسان بمصادر المعرفة التي يريد، الأمر الذي يوجب الاهتمام بهذا المجال.

أما الحديث عن اللغة العربية، أروع لغة بيان عرفها بنو الإنسان، وما لحقها من تعطيل على أيدي أبنائها فأمر محزن، ولا زالت في انتظار تصدّي المخلصين من العلماء من أبنائها ـ كل في مجال تخصصه ـ لإثرائها واغنائها بزيادة قدراتها الاستيعابية للعلوم المعاصرة.

- الانفتاح المعرفي:

تقدم العلوم المتسارع، والاتجاه إلى التخصص الدقيق فالأدقّ، جعل الاعتماد على مصدر واحد للعلوم ضربا من الجهالة، فقد عمدت دول كاملة إلى تركيز اهتمامها على مجال دقيق كصناعة الساعات أو الالكترونيات أو السيارات الامر الذي يوجب على طالبي الإقلاع الحضاري والتطور الصناعي أو الزراعي ان يوسعوا دائرة الانفتاح، لا أن يعتمدوا فقط على علوم الأقوياء، الذين خططوا لعدم إغناء علوم من سواهم.

والانفتاح يتطلب تحصينا حضاريا للأبناء الذين يزجّ بهم في مجالات المعرفة المفتوحة، واقدارهم على التفكير النقدي الذي يمكنهم من تركيز اهتمامهم على ما ينفع شعوبهم، وتلافي ما لا يتلاءم مع اهتماماتها أو ما يضر بها، كما يتطلب الاهتمام بما يمكن توطينه والبناء عليه مما يتعلمونه، وبشحذ روح التحدي الحضاري إثباتا لكفايتهم.

ونحن نخطىء كثيرا إذ نعتبر أبناءنا أقل ذكاء أو موهبة أو تفتحا من غيرهم، وهم ليسوا كذلك واقعا، وإنما الظروف التي وضعوا فيها هي التي تدنت بكل مقوماتهم، وأي جهد موضوعي حقيقي يبذل للأخذ بأيديهم سيثبت أنهم يفوقون كل حسن ظن بهم.

الفصل السادس

التربية السياسية



أولاً: مفهوم التربية السياسية وأهميتها

أ- مفهوم السياسة

السياسة لغة من ساس بمعنى: «قاد، ودبّر، وأصلح»[1] وبذلك لا تعني مجرد القيادة التلقائية، وإنما تميّز قيادة الأمور بالتدبير والإصلاح، والسياسة في الاصطلاح لا تعدو المفهوم ذاته، فإذا قيل سياسة بلد ما، فإن المقصود: قيادة حركة الحياة فيه، وتدبيرها بعلم وموضوعية ووعي، وإصلاح كل خلل أو قصور في مساراتها.

والسياسة مضموناً معروفة منذ عاش الإنسان حياة الاستقرار، فكل جماعة كانت تسلم أمورها إلى من يسوسها، سواء أكان رب أسرة أو رئيس عشيرة أو شيخ قبيلة، بل وانسحب المسمى على الحيوانات الأليفة، ولا زال حتى اليوم هناك سائس لكل خيل. وقد أخذت السياسة تنحو إلى التقنين بعد أن وضع جنكيز خان كتابه المعروف باسم «الياسة» الذي وضع فيه أسس حكم التتار.

ومع تطور الزمن، وتزايد المصالح والمهام والمسؤوليات التي تناط بالساسة، أخذ الجهاز السياسي يتكامل في السلطة التنفيذية، وحتى لا يخضع القضاء لتقلبات السياسة، استقلت السلطة القضائية، وللغاية ذاتها استقلت السلطة التشريعية، لتشرّع للمستجدات بالنسبة للمسلمين، ولكل أمور الحياة بالنسبة لغيرهم، وغدت السلطات الثلاث معنية بقيادة حياة الناس وتدبيرها وإصلاحها كل منها في مجال اختصاصه.

ولكون السلطة التنفيذية هي الأقوى، لأن قوة الجيش وقوى الأمن وعيون المال وحركة الاقتصاد مناطة بها، فقد غدت السياسة متعلقة واقعياً بالسلطة التنفيذية، لا سيما وأنها غدت تقوم بتعيين القضاة ودفع رواتبهم وعزلهم وحرمانهم، وتتدخل في أنتخاب السلطة التشريعية بما يوافق اتجاهاتها.

---

(١) عن المعجم الوسيط، جـ١، ص ٢٦٢.

وبرز النظام السياسي في دساتير وقوانين مكتوبة، تنظم ممارسة السّياسة، وأصبح مفهوم السّياسة بصفة عامة يعني: النظام، والقائمين علي تطبيقه على أرض الواقع، لذلك عندما يقال: إن سياسة بلد ما سياسة جيدة أو فاسدة، فإنما يُقصد بذلك الكل المتكامل للسياسة، نظرية وممارسة وتطبيقاً. وفيما يأتي مفهوم السياسة الإسلامي:

١ - الإسلام والسياسة:

إبان القرن الماضي «القرن العشرين الميلادي» برزت تساؤلات لدى بعض الناس ومنهم من يعتبرون أنفسهم رجال دين، قوامها الآتي:

- ما علاقة الإسلام - وهودين موحى به من الله تعالى - بالسياسة - وهي مجرد تدابير بشريّة لتسيير شؤون الحياة ـ؟

وانتهى هؤلاء إلى القول: «لا سياسة في الدين ولا دين في السياسة» مؤكدين على أنه لا علاقة للإسلام بالسياسة.

لم يكن هذا الفكر السقيم ليظهر في غير هذه الفترة، حيث كان الفكر الإسلامي معافى، والإرادة الإسلامية حرّة، ولكنه وجد ظروفاً ملائمة عندما أصيبت الأمة بما أصيبت به من نكسات ونكبات، فغدا يسوّق بضائع المنتصرين الفكرية، ولما كان هؤلاء يصدرون عن الفكر المسيحي الذي استقر على فصل الدين عن الدولة ـ بعدما قاسى المسيحيون من تسلط الكنيسة ـ والتزم بالقول المعروف: ما لقيصر لقيصر ـ ولا دخل لله فيه ـ وما لله لله ولا دخل لقيصر فيه ـ » وانعزلت الكنيسة عن حياة الناس العامة فانتهز المنحرفون الفرصة لينادوا بعزل الإسلام عن الدولة، غير آبهين بالاختلاف الجذري بين الإسلام والمسيحية.

ولتوضيح علاقة الإسلام بالدولة ومنها السياسة نبين الآتي:

١/١ عهد استخلاف الإنسان:

الإنسان ـ بالمفهوم الإسلامي ـ لم يوجد صدفة ولا مصادفة، ولم يوجد هو نفسه، ولم يتطور عن الخلية الأولى ولا عن غيره، كما يقول العلمانيون الغربيون، وإنما خُلق وحده، خلقاً مباشراً من خالق قدير هو الله تعالى. والله ـ سبحانه ـ لم

يخلق الإنسان عبثاً ـ حاشا لله ـ وإنما ليستخلفه في كوكب الأرض ـ كما سبق القول ـ ولما كان الاستخلاف يحتّم وجود عهد استخلاف، بين المستخلِف والمستخلَف، ليتصرّف المستخَلف وفق أوامر من استخلفه، فقد أنزل الله لهذا الإنسان رسالاته، ومنها الإسلام الذي تعتبر شريعته عهد الاستخلاف للإنسان ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا﴾[1].

هذا يعني أن كل حركة الحياة بالنسبة للمسلم محكومة بشرع الله، وحرّيّة الإنسان وطلاقة تصرّفه مسيّجة بها، فلا يجوز له تجاوزها، باهمال ما أمرت به أو ارتكاب ما نهت عنه. والتزام الطاعة هو التطبيق العملي الواقعي لإيمان الإنسان بما يؤمن به، والإسلام هو الاستسلام لله بالطاعة.

هذه هي محاكمة الموضوع من المنطلق الإسلامي أما من المنطلق العقلي البحت ـ والذي لا يتعارض مع الإسلام ـ فنوضح ما يلي:

١ / ٢ : بين المذهب والنظام:

استساغ العقل البشري بأن يبدأ أيٍ علم من العلوم انطلاقه من مسلّمات وثوابت وأسس يبني عليها، موقناً بصحتها ودقتها وموضوعيتها، لذلك لا يجادل فيها ولا يناقش ولا يختلف عليها اثنان، ثم وجد أن كل مجال من مجالات الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية، لابد وأن تحكمه مثل هذه المسلّمات التي تضبط السعي البشري، فوضع لنفسه ما يسمى بالمذهب السياسي أو الاقتصادي أو الاجتماعي، بقصد أن تلتزم النظم مهما تطورت بالمذهب المعتمد، وغدا هناك المذهب الشيوعي والمذهب الاشتراكي والمذهب الرأسمالي والمذاهب المختلطة.

والإسلام له مسلّماته وثوابته التي تحكم حياة المسلمين في كل مجال والتي يطلق عليها تجاوزاً «المذهب الإسلامي»، فهناك المذهب الإسلامي السياسي والمذهب الإسلامي الاقتصادي والمذهب الإسلامي الاجتماعي وهكذا، وتحدد الشريعة الإسلامية ثوابت ومسلمات كل مذهب، وله كذلك اجتهادات المسلمين التطبيقية التي تسمى نظاماً، ومنها النظام السياسي والنظام الاقتصادي والنظام الاجتماعي.

(١) الجاثية (١٨).

ولما كانت الحاكمية للمذهب وليس للنظام، فإن المذهب الإسلامي المتضمن في الشريعة هو الذي يحكم النظام، ولا يجوز للنظام مخالفته، وإنما يجب أن يلتزم به كل الالتزام.

١/ ٣ بين الحرّية والتقييد:

- المذهب الإسلامي السياسي المحدد بالشريعة الإسلامية ثابت لا تناله يد التغيير أو الكف أو التطوير، فالعدل والشورى والمساواة والحقوق والحريات والحرمات والحدود ثابتة، وهي ثوابت عادلة تتوافق مع كل فكر قويم.

أما النظام السياسي وهو مجموعة التدابير والإجراءات والتنظيمات والأساليب والقواعد والوسائل التي يقوم بها المسلم لتسيير حياته السياسية، فتمثل جهداً بشرياً مفتوحاً له مطلق الحرّية شريطة الالتزام بالمذهب الذي تحدده الشريعة، الأمر الذي لا خلاف عليه بين عقلاء بني البشر، فما من أيدلوجية بشرية تبيح للنظام أن ينتهك المذهب.

وبناء على ما سبق فإن السياسة التي تلتزم ـ مذهباً ونظاماً ـ بالشريعة الإسلامية هي سياسة إسلامية، والتي تخالفها هي سياسة غير إسلامية مهما ادّعت أنها إسلامية.

وعليه فإن المعارك التي اشتعلت حول علاقة الإسلام بالسياسة والسياسة بالإسلام، إنما افتعلها أعداء الأمة لتمزيق العقل المسلم، وتضليل الفكر المسلم، حملها جهلة أو مأجورون للإنكاء بهذه الأمة، واستنزاف بصائرها.

ب- مفهوم التربية السياسية

تربية الإنسان سياسياً تقوم على تنمية ثقافته السياسية ووعيه السياسي وأخلاقياته وكفاياته واستعداداته للتعامل مع النظام السياسي والقائمين عليه، عبر مناهج وبرامج محددة، تستهدف تحقيق فعاليات سياسية محددة ـ لكل فرد ـ ومنها:

- الوعي بالمذهب السياسي، وهو في الإسلام ثوابت الشريعة ومسلماتها التي يجب أن يتقيد بها النظام ولا يتجاوزها، فلا يحرّم حلالاً، ولا يحلّ حراماً، وذلك للحيلولة دون شطط النظام وإلحاقه أذى بالوطن والمواطن.

- الإحاطة بالحقوق الأساسية التي قررتها الشريعة للفرد في الحقل السياسي، بهدف التمسك بها والمحافظة عليها والدفاع عنها، وترسيخ الوفاء بها لنفسه وللآخرين، وحقوق السلطات السياسية بحيث لا يتجاوزها.

- الوعي بالواجبات السياسية التي يرتبها النظام السياسي على الأفراد والجماعات، وعلى سلطات القرار بمختلف مواقعها، والتصدّي لأي تقصير فيها أو انحراف بها.

- معرفة أساليب بناء النظام السياسي، والإجراءات التي يمرّ بها، والأسس التي يراعيها، للوقوف على نواحي القصور في أي نظام مقترح والعمل على تلافيها، ونواحي الجودة والتميز والعمل على تأييدها ودعمها ومؤازرتها، وفي الوقت نفسه أساليب بناء القرار السياسي للقيام بالدور ذاته.

- تفهم أساليب المشاركة التقويمية في الجهود السياسية المباحة لكل فرد أو فئة، لتحقيق تفعيل هذه المشاركة، بهدف الارتقاء بالمجال السياسي وتحقيق انضباطيته وتميزه.

- استيعاب الأساليب العلمية القويمة للنقد والتقويم والمعارضة السياسية، والآداب التي تراعى فيها، تلافياً للصداميّة والعنف أو العفويّة والعشوائية في كل منها.

وبتحقيق هذه التربية السياسية للمواطنين، يصبح صنّاع القرار السياسي، وروّاد الموقف السياسي، والمواطنون جميعاً، في خندق واحد، يضم الجميع، ويؤدي إلى الصالح العام للوطن والمواطنين، باحترام وتقدير وود ومحبة من الفئتين لبعضهما البعض، فالهدف واحد لا ذاتيّة فيه.

جـ- أهمية التربية السياسية

التربية السياسية الموضوعية، تؤهل المواطن لأن يحصر كل جهد سياسي يقوم به ـ فردياً أو عبر جماعة أو حزب ـ في اتجاه البناء لا الهدم، والإصلاح لا الإفساد، والتعمير لا التدمير، إنطلاقاً من كون رقي النظام السياسي وصلاحه وموضوعيته، يحقق أمناً ورقياً ونهضة للوطن والمواطن، وعلى العكس فإن فساد النظام السياسي

وظلمه وانحرافه، يدمّر المجتمع، ويترك آثاره السلبية على كل فرد وكل ناحية من نواحي الحياة فيه.

ولعله ما من مواطن واع سياسياً، إلا ويودّ أن تكون له مشاركته السياسية، في هذا المجال أو ذاك، لذلك فهو سيشارك شاء النظام أم أبى، سراً أو علناً، وإذا لم يخضع الإنسان لتربية سياسية واعية، فقد تكون مشاركته عفويّة تلقائية أو عشوائية لا تقوم على فهم ولا تبنى على علم، مما يجعلها تنقلب إلى فوضى سياسية تخرب وتدمّر لا تبني وتعمر.

لهذا غدت الدول التي تعنى برقيها السياسي، وباحتجاز مكانة لها بين دول العالم المتحضرة، تعنى بالتربية السياسية، التي غدت تتغلغل في كل منهج من المناهج حتى المناهج العلمية البحتة، وذلك توخياً لتحقيق المصالح العليا لكل من النظام السياسي والمواطن العادي، وكما يأتي:

١ - بالنسبة للنظام السياسي:

١/١: تحقيق استقرار النظام:

كل شعب يود أن يكون نظامه السياسي حيّاً متحركاً فعالاً، قادراً على التخطيط بموضوعية، والبرمجة بعقلانيّة للبناء والتعمير وتنفيذ المشروعات الحيوية لنهضة البلاد وإسعاد العباد، ولكن أي نظام سياسي - مهما بلغ القائمون عليه من الأمانة والعلم والإخلاص - لا يمكن أن يحقق أماني شعبه ما لم يحظ بالاستقرار.

إن القائمين على أي نظام سياسي بشر، والبشر لا يجترحون المعجزات، والبناء يحتاج إلى عناصر رئيسة يستحيل قيامه بدونها، سواء في ذلك البشرية منها أو المادية، ولكن أهم من ذلك عنصر الأمن وعنصر الزمن، وأي نظام سياسي تهدده الثورات والانتفاضات والانقلابات ويناصبه شعبه العداء، أو لا يبقى يصرف أمور الحكم لفترة كافية من الزمن يستحيل عليه أن يحقق لشعبه أي تنمية تذكر في أي مجال من المجالات، فعنصرا الأمن والطمأنينة لازمان لإحكام الدراسات والبحوث والخطط والبرامج، وعنصرا الوقت والاستقرار لازمان للتنفيذ والمتابعة والتقويم والتعزيز والتطوير، وبدون ذلك لا تنمية في أي مجال.

وقد وعى الساسة الاستعماريون ذلك، فعملوا طوال تحكمهم الاستعماري في بلدان العالم الثالث، على حرمان حكوماته من الأمن والاستقرار، وعلى اشعال الأحقاد والضغائن بين سلطات القرار وقوى الشعب فلا أمن، ثم على تغيير متكرر لعدة مرات سنوياً للحكومات فلا استقرار، وبذلك لا تخطيط ولا بناء ولا اعمار ولا تطوير، وتزيد النّقمة ويتناسب معها كل من الأمن والاستقرار عكسياً.

ولعل المتتبع للأوضاع السياسية في الوطن العربي في القرن العشرين، يدرك بعض الأسباب الحقيقية للتخلف الذي وصلت إليه في مختلف شؤون حياتها من دكتاتورية سلطات وصلف مواقف، مما أدى إلى نقمة الشعب، واستقطاب تمرده، وإتاحة الفرصة لقادة الجيش أو بعض ضباطه للثورة بدعوى الاستجابة إلى رغبات الجماهير ومن ثم السقوط في الدوامة المعروفة:

ثورة تثور على ثورة، وانقلاب ينقلب على انقلاب، ونظام يقوّض نظاماً، وحركة تصحيح تصحح حركة تصحيح، ويخيم ظلام الليل، وتغرق الأمة في دماء أبنائها، وتحرق ثرواتها ومقدراتها، وتحاول أن تتقدم خطوة لكنها تتراجع خطوات.

إن التربية السياسية الموضوعية الواعية هي المخرج الآمن من هذه الظلمات، فإذا كانت السلطات إنما تصدر عن هذه التربية، وكانت فئات الشعب إنما تتصرف على أساس منها، اعتدلت الموازين وانضبطت المقاييس، وتلاقت الجهود على تحقيق الأهداف المعتمدة: الشعب يختار سلطاته بملء إرادته الحرّة، من نوعية متميزة بالأمانة والإخلاص والكفاءة والقدرة، ولا يترك لها الحبل على الغارب، وإنما يتابع وينقد ويؤيد ويعارض بعيداً عن الهوى ونزوات الذات، والسلطات تعي ذلك وتتفهمه، وتتبع قول أمير المؤمنين عمر: «لا خير فيكم إن لم تقولوها، ولا خير فينا إن لم نقبلها».

حينذاك يتم الأمن ويتوافر الاستقرار وتتاح الفرصة الملائمة للتنمية بكل متطلباتها، ويشعر بالرضا الحاكم والمحكوم معاً.

١/ ٢: رفع كفاءة النظام:

كثيراً ما يقال هذا نظام كفؤ حقق لمواطنيه استقرارا سياسياً وتطوراً اقتصادياً ورقياً اجتماعياً وهكذا، وذاك نظام فاشل، أدى إلى سقوط مواطنيه في أتّون

الاضطراب السياسي، وحمأة التخلف الاقتصادي، ومهاوي التردّي الاجتماعي، والفرق بين النظامين كالفرق بين العلم والجهل، و الموضوعية والعفوية، أو الحق والضلال . . . الخ.

النظام الناجح هو الذي تعتبر سلطاته كل عقول شعبها عقلا لها، وكل قدراته قدراتها، وهكذا جميع خبراته وتجاربه واختصاصاته، فتصبح كفاءة النظام محصلة لكفاءة شعب كامل، وبذلك يغدو ذا إمكانات مهولة في كل مجال، وهذا ما تحقق فعلياً للدولة الإسلامية الأولى، وما تحقق إبان القرن العشرين لليابان وألمانيا ومعظم دول غرب أوروبا وشمال أميريكا.

والنظام الفاشل هو الذي يعزل نفسه عن شعبه مهما تمتعت سلطاته بالذكاء والحكمة والعلم والخبرة، ويعيش تلك العقلية الاحتكارية البغيضة، التي يعتبر فيها كل مسؤول نفسه واحد عصره فالعلم علمه، والعقل عقله، والخبرة هي التي حازها من أطرافها، فالرأي مهما كان ودوداً محظور والنقد محرّم، والتقويم مجرّم، والمعارضة مطارة، وقديما قيل: «من استغنى برأيه عن آراء الناس ضلّ».

إن التربية السياسية الواعية تغير مفهوم السلطة من كونها تشريفاً إلى كونها تكليفاً، مما يجعل متسنّم السلطة يبحث دوماً عن الأصلح والأقوم والأجدى والأسلم، تعينه في ذلك جماعات سياسية، ومراكز بحوث علمية، وعقول وخبرات واختصاصات وتجارب وأفكار وفعاليات فيغدو قراره قرار كل علمائه وحكمائه وخبرائه ويغدو محكماً كل الإحكام، مما يجعله ينأى عن الفشل وينأى الفشل عنه.

ولعل أي صاحب سلطة لا يستنكف عن هذه المشاركة الموضوعية الفاعلة، لا سيما إذا التزمت بأدب الحوار وأدب الخلاف وأدب المعارضة والنقد والتقويم، ما دام يسعى للنهوض بشعبه أو وطنه وأمته.

٢- بالنسبة للمواطن:

٢/١: الارتقاء الذاتي:

تؤكد التربية في أي بلد على تخريج مواطن لديه اعتزاز بذاته وثقة بنفسه، ومثل هذا الإنسان هو الذي يقدّم خيراً لمجتمعه، يتخذ مواقفه في الحياة بحكمة

وموضوعية، يقدم ولا يحجم، ويمضي ولا يتردد، متى اقتنع بخيرية الموقف وصوابيته، لا يتردد فالتردد مضياع للفرص التي تمرّ مرّ السحاب، ولا يشكو فالشكوى إعلان عن الضعف والقصور وعدم الاستقرار، يؤول إلى إصابة العزائم والعقول والهمم بالشلل، أما الواثق بنفسه المعتز بذاته فلا يتردد ولا يشكو إذا تبين له الحق والعدل والخير، فالذين يرتقون بمجتمعاتهم فعلاً، هم الذين يعملون ولا يشكون، ويفكرون ولا يتذمرون، وينطلقون ولا يتوقفون حتى بلوغ الهدف وتحقيق الغاية.

وما من إنسان سويّ يولد بلا إرادة، ولكن نوعية التربية هي التي تعزز إرادته وثقته بنفسه واعتزازه بذاته أو تسلبها، والإنسان السويّ لا يقبل ـ بفطرته ـ أن يكون هملاً في مجتمعه، لا رأي له ولا تأثير فيما يدور حوله أو ما يبرم من أمره، وإنما يودّ أن تكون له مكانته في مجتمعه، وأن يعيش فيه مقدّر الفكر، موفور الكرامة، يُحترم رأيه ويقدر فكره ويعرف مكانه وينتفع بوجوده.

ونظراً لأن السياسة غدت تتحكم في كل مجال من مجالات الحياة الإنسانية، فقد أصبح كل إنسان يودّ أن يكون له رأيه فيها ـ حسب موقعه ـ سواء أكان ذلك مباشرة أو عن طريق ممثليه، الأمر الذي يشعره بثقته بنفسه ووجوده واعتزازه بذاته وكفاياته وقدراته.

والتربية السياسية تعمل في الاتجاهين: بأخذ سلطات القرار بالاهتمام باستقطاب أفكار الناس ورؤاهم، وأخذ كل مواطن بممارسة حقه والقيام بواجبه، مما يجعل كل موقف من الفئتين يصدر عن فهم وينطلق من علم، ويتوخّى الأمانة والنزاهة والإخلاص، ويستهدف الصلاح والإصلاح.

وإذا تحققت للفرد هذه التربية السياسية الموضوعية، ومارس حقوقه وواجباته السياسية بعقلانية، تبلورت شخصيته الإيجابية التي يعتز بها، فيشعر بذاته ويحترم نفسه، ويقدر مواهبه وملكاته وقدراته، ويضعها حيث يجب أن تكون، بكامل حريته.

ولا شك أن أي أمة تنشد تقدمها، في حاجة إلى هذه النوعية من الأحرار، الذين يدافعون عن حقوقهم، وينهضون بواجباتهم، يتنافسون في الفضائل ويسارعون في

الخيرات، أما أولئك الذين يسيرون مع كل تيار، ويلتحفون كل دثار، لا رأي لهم ولا موقف ولا مبدأ، فهم كمّ ملغى من أي مجتمع، لا يحقون حقاً ولا يبطلون باطلاً.

٢/٢ : تعميق الولاء والانتماء:

لعلّ أكثر ما أصيبت به شعوب العالم الثالث هو فقدان أبنائها روح الولاء والانتماء لاوطانهم لذلك ما أن تتاح لأحدهم فرصة الهروب من وطنه ـ الذي يفترض أنه من أعز ما يعتز به - نجده يترحّل عنه ويهجره إلى ما سواه ولا يفكر في مجرد زيارته وليس العودة إليه. والسبب الواضح لذلك هو أن الولاء أو الانتماء شعور وجداني، لا يمكن أن يتأتى للإنسان تجاه قوم أو وطن أو أمة حيث يسام الخسف والقهر والإذلال وطمس الذات، ويطارد فيها فكره وتعتقل حرّيّته ويعدم شخصه، ويعيش فريسة للخوف والجزع والهلع والتوجس والترقّب، إرادته مقهورة وعزيمته مبتورة وكرامته مهدورة. وبعد ذلك نجد من يتساءل لماذا ينبغ أبناؤنا في الخارج ولا يتأتى لهم النبوغ في الداخل؟

إن التربية السياسية الأمينة، من شأنها أن تتلافى ذلك كله، فلا تركب سلطات القرار مركب الاستبداد والبطش والإرهاب ومطاردة الفكر والرأي الآخر ودكتاتورية المواقف، كما تحول دون ركوب الأفراد مراكب العنف والتشنّج والتوتر والصدامية، وإنما يلتزم كل من الطرفين بالحق والحقيقة والعدل والإنصاف والخير والصلاح، وأدب النقد وأدب الحوار وأدب الخلاف.

وإذا توافرت مثل هذه الأجواء للمواطن العاقل السوي، أصبح ولاؤه لدينه ووطنه وأمته ثابتاً راسخاً لا يتزعزع، لا تحرفه عاتيات المحن ولا عوادي الزمن، يتعشق العيش في هذه الأجواء، ولا يهجرها لغيرها مهما كانت مميزات هذا الغير.

والمواطن الذي يشعر بعمق الولاء والانتماء لوطنه وأمته، تتوافر له تلقائياً مقومات الرضا والطمأنينة والاستقرار وهو الذي يستطيع أن يعمل ويتقن وينجز وينتج وينبغ ويبدع، والذي يستطيع الاسهام في وقف التآكل الداخلي والتصدي للتآمر الخارجي.

٢/٣ : تنمية الفعاليات الذاتية :

إن التربية السياسية تعنى بالارتقاء الموضوعي بكفايات الفرد وفعالياته ومن ذلك :

- تنمية الذكاء السياسي : بتحليل القرارات والإجراءات السياسية، وكشف نواحي القوة والضعف في كل منها، وتوجيه الناس نحو القيم السياسية المطلوبة.

- تنمية العلاقات السياسية : باستيعاب هذه العلاقات ـ الخارجية منها والداخلية ـ وتأصيل العلاقات على أساس من الحق والعدل والخير والصلاح وتغليب المصلحة العامة، وفق الضوابط الأخلاقية والقيم الرفيعة.

- تنمية الوعي التخطيطي السياسي : بربط الأهداف السياسية العليا بإمكانات الأمة وقدراتها، واتجاهاتها الفكرية وخصائصها السلوكية، وتنظيم متابعة كفاية الأدوار والوقوف في وجه أي اتجاهات تخريبية.

- الوعي بالانتقال من ردّ الفعل السياسي إلى صناعة الفعل السياسي وصناعة المعلومة السياسية وتنمية الإرادة السياسية، والانفتاح الفكري على عطاء الحضارة المعاصرة.

وبذلك تصبح التربية السياسية قوة للفرد وقوة للمجتمع وقوة للنظام.

ثانياً: مقومات النظام السياسي الإسلامي

كل نظام ينظم حياة البشر على الأرض يشرع أساساً من مسلّمات رئيسة يرتضيها الناس كعلامات بارزة على المسار الذي يتبعه النظام في قيادة حركة الحياة، سواء أكان ذلك في السياسة أو الاقتصاد أو الاجتماع. هذه المسلّمات هي الضابطة لحركة النظام، أهدافاً وغايات، وتخطيطاً وتنفيذاً وتقويماً، وهي التي اصطلح على تسميتها بالمذهب - كما سبق القول- والذي بدونه يغدو أي نظام عشوائي المسار، يضرب في فيافي التيه، مشرّقاً مرّة ومغرباً أخرى من غير ما دليل، توجهه كفاءات أو أهواء أفراد، وليس مسلّمات فكر صادرة عن معتقدات الشعب ومفاهيمه وتصوراته التي آمن بها وتبنّاها.

والنظام السياسي الإسلامي له منطلقاته الثابتة من الشريعة، والتي يصدر عنها ويلتزم بها ويحتكم إليها ويحكم مساره وفقاً لها، ولا يجوز أن يتنكّر لها أو يتخلّى عنها أو يتجاوزها.

ولما كان كل مبدأ ثابت إنما يتناول تحديد الاتجاه دون دخول في التفاصيل، فإن التفاصيل الإجرائية بكل حيثياتها، وما تتضمنه من تدابير وإجراءات وقواعد وأساليب ووسائل تنظيميه، فمردّها للبشر الذين يُعملون فكرهم مجتهدين في إتقان كل منها لتحديد معالم النظام السياسي، بما لا يعارض ثوابت ومسلمات المذهب السياسي.

والثوابت الإسلامية التي تضمنتها الشريعة لها الطلاقة والنزاهة الحكمية، أما الإجراءات فلا طلاقة ولا نزاهة ولا قدسية لها، فهي عرضة للاجتهاد والتغيير والتبديل وهي المعنية بقول الرسول الكريم: «أنتم أعلم بأمر دنياكم».

ومنطلقات النظام السياسي الإسلامي التي هي مسلمات المذهب السياسي الإسلامي هي:

أ- المرجعية الحاكمة

اختلاف الناس وارد في كل حال، فهم بحكم تفاوت مفاهيمهم وقدراتهم وخبراتهم وتجاربهم، تتأتى لهم وجهات نظر حياتية مختلفة ـ كلياً أو جزئياً ـ فما يراه هذا سليماً يراه ذاك سقيماً، وما يراه أولئك صالحاً يراه هؤلاء طالحاً، فكيف تسوّى الخلافات بينهم؟ لا بدّ إذن من وجود مرجعية حاكمة يلتزم بها الجميع في الحالات الخلافية.

هذه المرجعية الحاكمة في النظم الوضعية هي الدستور الذي يعتبر مرجعية جميع القوانين والأنظمة، وأي اختلاف يحسم بنص القانون أو النظام وإلا فيحكّم الدستور.

وفي الإسلام تعتبر المرجعية الحكميّة كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ويؤكد ذلك قوله تعالى: ﴿ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم ﴾[1] ، وقوله: ﴿ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾[2] وقوله: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ ﴾[3] وحاكمية الشريعة تعني التزام كل ما أمرت به واجتناب كل ما نهت عنه، ولذلك لا يجوز لأي نظام إسلامي أن يتنكر لأي أمر جاء فيها أو أن يرتكب أي نهي نهت عنه.

إن مرجعية الشريعة الحكميّة ليست بدعاً بالنسبة للفكر البشري، فهي من حيث المبدأ تعني حاكمية المذهب للنظام، وكل مذهب إسلامي لأي شأن من شؤون الحياة إنما تحدد مسلماته وقواعده الشريعة الإسلامية، ولذلك فإن أي نظام سياسي يطبق على المسلمين لا يعتبر إسلامياً ما لم يراع أوامر الشريعة ونواهيها.

والشريعة الإسلامية ـ كما هو معروف ـ ليست من وضع أحد من البشر، بحيث تطالها اجتهادات البشر فتقر هذا أو ترفض ذاك بما جاء في الشريعة، وإنما هي من

---

(١) الأعراف (٣).

(٢) المائدة (٤٩).

(٣) الحشر (٧).

وضع رب البشر للبشر، وهو سبحانه الأعلم ممّا يصلح البشر، فمن يستثني على رب البشر أو يعدل عليه؟

ولم تكن الشريعة يوماً موضع اختلاف في مرجعيتها الحكمية بين المسلمين على مدى أكثر من اثني عشر قرناً من الزمان، ولكن سيطرة الأقوياء على مقاليد الأمور في العالم الإسلامي، وزخم موجات التسيير الإعلامي وصناعة المعلومة الموجهة وما أدت إليه من أسر ثقافي لعقول المسلمين، إضافة إلى استخدام هؤلاء الأقوياء لأبواق دعاية لأفكارهم بين المسلمين، أدت إلى أن يبرز بين صفوفهم من يعارض حاكمية الشريعة، ووضعت تحت تصرفهم وسائل الإعلام الجماهيرية فغدا وصولهم إلى الناس ميسوراً، في حين حجبت الأصوات الأمينة المخلصة عن سمع الجماهير.

ولا زال كثير من أبناء هذه الأمة ممن أجروا عقولهم وباعوا أنفسهم لأعدائها يبكون وينشجون ويسفحون الدموع عند المناداة بقطع السارق، أو قتل القاتل، أو جلد الزاني أو رجمه، ولا يذرفون دمعة واحدة على بريء قتل ظلماً وعدواناً وترك ذرية ضعافاً نهباً للتيه والضياع والفقر والمرض والعوز، ولا على من سلب ماله وهدد أمنه وروع أطفاله واغتصبت مقدرات حياته . . وهكذا، وكأن الأمر انتهى بهؤلاء إلى تقديس المعتدي وتكريمه وتقديره ومساندته وشدّ أزره ضد المعتدى عليه، والمباركة للظالم وتهنئته وتقديم الأوسمة له ومناصرته ضد المظلوم.

والرسول ﷺ، يؤكد على مرجعية كتاب الله وسنته الحكيمة في كل أمر من أمور المسلمين فيقول:

- «أليس تشهدون أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له وأنّي رسول الله؟ وأن القرآن جاء من عند الله؟ قالوا: بلى، قال فأبشروا، فإن هذا القرآن طرفه بيد الله، وطرفه بأيديكم فتمسكوا به، فإنكم لن تهلكوا ولن تضلوا بعده أبداً».[١]

«كل أمتي يدخلون الجّنة إلا من أبى، قيل: ومن يأبى يا رسول الله؟ قال: من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى»[٢].

(١) رواه الطبراني والبزار.

(٢) رواه البخاري.

ب- الوحدة

المنطلق الثاني من متطلبات النظام السياسي الإسلامي التي لا يجوز له أن يتنكبها أو يتنكر لها هو وحدة الأمة، ذلك لأن الوحدة بأي شكل من أشكالها قوة: قوة مادية وقوة معنوية، قوة سياسية واقتصادية وعسكرية واجتماعية، تضيف إمكانات إلى إمكانات وقدرات إلى قدرات وطاقات إلى طاقات وثروات إلى ثروات و خبرات إلى خبرات .. وهكذا. والفرقة ضعف بكل مكونات الضعف المادية والمعنوية.

لقد أرخصت الأمم الدماء، وضحّت بالأرواح، وقدمت الرجال وبذلت الأموال لتحقيق وحدتها، لعلمها بما في الوحدة من فوائد لأبنائها وما في الفرقة من مضار، فالوحدة الألمانية والوحدة الإيطالية والوحدة الأمريكية لم تتم بجرّة قلم، وإنما استهلكت ملايين الأرواح وأطنان الذهب، دونما تردد حتى تحققت. وها هي دول أوروبا اليوم تسعى لتحقيق نوع جديد من أنواع الوحدة يقوم على الوحدة الاقتصادية عبر السوق الأوروبية المشتركة، والتي قد تؤول إلى وحدة ناجزة بأسرع مما نتوقّع، وها هي كبرى الشركات العالمية التي تملك رؤوس أموال بالمليارات تتضام وتتوحد في شركات كبرى لتغدو لها سيطرتها على مقدرات العالم.

لقد أراد الله ـ سبحانه وتعالى ـ لهذه الأمة وحدتها ﴿ إِنَّ هَـٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾[1] وقامت فعلاً على أساس هذه الوحدة في كل مناحي حياتها، إلا أن السياسة التي كان يفترض فيها أن تكون عامل توحيد تحولت بالتآمر الخارجي والتآكل والتناحر الداخلي إلى عامل فرقة.

لقد عمل الرسول الكريم ﷺ طوال حياته علىترسيخ مفهوم الوحدة، وبناء الكيان السياسي الإسلامي، والنظام السياسي الإسلامي على أساس من الوحدة، ولم ينتقل - عليه السلام - إلى الرفيق الأعلى حتى وحّد العرب في جزيرتهم كلها

(١) الأنبياء (٩٢).

تحت راية الإسلام، ورسخ مفاهيم الوحدة الأساسية التي التزمت بها الأمة ردحاً طويلاً من الزمن وأهمها: وحدة الأمة، ووحدة الدولة، ووحدة القيادة، ووحدة المواقف وفيما يأتي بيان ذلك:

١ - وحدة الأمة:

هناك عدة أشكال لوحدة الأمم، منها الوحدة على أساس المنابت والأصول والجذور القومية، كالوحدة الإيطالية والوحدة الجرمانية والوحدة الصينية وغيرها، ومنها ما يقوم على وحدة المصالح والمفاهيم التي يلتقي عليها أهل اقليم واحد كالوحدة الأمريكية والكندية، ومنها ما يقوم على اساس وحدة المفاهيم والمعتقدات. كالوحدة الإسلامية في عصورها الأولى، والتجربة الشيوعية في الاتحاد السوفيتي في القرن العشرين.

ولا شك أن الوحدة القائمة على أساس من وحدة المفاهيم والمعتقدات والقيم تبقى الأهم، حيث تحقق التفاهم والتوافق بين أبناء الشعب، مادامت القيادات ملتزمة بالمبادىء التي قامت عليها الوحدة، أما إذا تخلّت عنها فمن البديهي أن يبحث الناس عن الأساليب الأخرى للتوحيد، كأن تنزع الأجناس القومية إلى بعضها البعض، أو تجذب المصالح والمنافع الناس إليها، وهذا ما حدث في عصور التخلّف.

قامت الوحدة الإسلامية ابتداء على أساس من الدين الإسلامي، أي وحدة المفاهيم والمعتقدات والقيم، وشملت الوحدة كل جزيرة العرب إبان حياة الرسول ﷺ، ثم لم تلبث أن ضمت قوميات عديدة أخرى كالفارسية والتركية والهندية والكردية والمصرية والروميّة والبربرية وغيرها، وعلى أساس من ركائز وجدانية وليس مادية، رسخت وحدة الشعور.

وجاءت تعاليم السماء مؤكدة على التزام الوحدة وتلافي كل ما يفكك أواصرها، لا سيما النزاع والخلاف والفرقة، وتتابعت الآيات الكريمة مؤكدة على هذا الاتجاه فيقول تعالى:

- ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ﴾[١].

---

(١) آل عمران (١٠٣).

- ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ﴾[1].
- ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخۡتَلَفُواْ﴾[2].

وعمل الرسول الكريم طوال حياته على ترسيخ وحدة الاتجاه والغاية والشعور بين المسلمين انطلاقاً من وحدة المعتقدات والمفاهيم، فقام بالمؤاخاة بين المسلمين ـ كما سبق ـ مركزاً على القيم الإسلامية التي تحول دون الشقاق والنزاع والتنابذ والعداء، والتي قد تشعلها وحدة الأصول أو المصالح والمنافع، فعمل ابتداء على إذابة فوارق الأصول والحسب والنسب والجنس واللون والمال والجاه في التطلعات العقائدية، وتمّ له ذلك فعلاً بالنسبة لجزيرة العرب، وأكد عليه السلام على ضرورة المحافظة على الوحدة والضرب على أيدي النعّاقين بالفتنة، المحاولين شطر وحدة الأمة بالسيف فقال:

- «من أراد أن يفرّق هذه الأمة وأمرها جميع فاضربوه بالسيف كائناً من كان»[3].

ولكن وحدة المصالح والمنافع كما وحدة الأصول والجذور ذات جذب ذاتي، إذالم تحل دونها وحدة المعتقدات، لذلك ما أن توفي الرسول الكريم، حتى برزت النزعات العصبية الاستقلالية وبخاصة لدى أولئك الذين لم تتعمق لديهم المعتقدات، فكانت الردّة.

ورفض أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ شطر وحدة الأمة، ووقف ذلك الموقف الشامخ ضد المرتدين، فلم يترك اليمنيين في يمنهم والنجديين في نجدهم والعمانيين في عمانهم ويكتفي بالحجاز، وإنما شمّر عن ساعد الجّد وجيّش أحد عشر جيشاً حارب كل فئة منشقّة في ديارها، حتى لا تؤول الأمة إلى ما آلت إليه اليوم، ولم يلبث أن قضى على تلك النزعات الاستقلالية التي برزت من أول يوم لتوليه الخلافة.

---

(١) الأنفال (٤٦).

(٢) آل عمران (١٠٥).

(٣) رواه مسلم.

٢- وحدة الدولة:

وحدة الدولة هي الغطاء السياسي لوحدة الأمة، فلم يستسغ عقلاء بني البشر، أن تكون أمة واحدة ـ سواء أكانت واحدة في أصولها أو مصالحها أو معتقداتها ـ وفي الوقت نفسه تتوزع إلى عدة دول تقوم بينها الحدود والسدود ـ كما هو حالنا اليوم ـ ثم لا تلبث أن تتضارب مصالحها واتجاهاتها، فتتعمق بينها النزاعات والخلافات وتمزق لحمة الأمة الواحدة إلى أجزاء أو نتف أمميّة.

إن الأصل في الأمة الواحدة أن تكون لها دولة واحدة - إذا أرادت لنفسها القوة والعزة والرقي ـ حيث تتضام إمكانات الأمة وقدراتها وكفاءاتها وثرواتها وطاقاتها، لتصب في مجرى مصلحة الأمة. فتحقق لها القوة والمنعة من ناحية والرخاء والتقدم والازدهار من ناحية ثانية، فلا يطمع فيها طامع ولا يعتدي عليها معتد ولا يتحكم فيها غيرها، ولا تبقى فريسة للنّوائب والنوازل.

ووحدة الدولة ـ كما هو معروف ـ تعني وحدة الأراضي والمياه والأجواء والشعب، وتعمق شعور المواطن بالانتماء والولاء لأمته، حيث سكانها أهله، وحدودها حدوده، ينتقل داخلها وقتما يشاء حيثما يشاء، فكل بقعة فيها وطنه وكل ناس فيها أهله، ومن ثمّ يسخّر كل إمكاناته وقدراته وطاقاته وملكاته ومواهبه للحفاظ عليها والنهوض بها.

وغني عن البيان أن وحدة الدولة ـ إضافة إلى وحدة الأمة ـ كانت في العصور الإسلامية الأولى مسلّمة من المسلّمات التي لا يختلف عليها إثنان، فابن بخارى أو كابل أو سمرقند ينتقل من الشرق إلى الغرب آلاف الكيلومترات ليستقر في الاسكندرية أو طنجة أو غرناطة، يعمل ويبدع لأمته الواحدة، شاعراً بأنه انتقل من بقعة في وطنه إلى بقعة أخرى في ذات الوطن، ومن بين أهله إلى بين أهله، والعكس صحيح في انتقال ابن الغرب إلى الشرق، فالدولة واحدة، وما يسرى من نظام هنا يسري هناك.

وليس مجهولاً أن وحدة الدولة أدت إلى تكامل الإمكانات، فعندما أصيبت الحجاز بالجدب والقحط بسبب الجفاف في عام الرمادة في عهد عمر ـ رضي الله عنه ـ لم تسلمها أقطار الدولة الأخرى، وإنما خفّت لها النجدات من هذه الأقطار من

مختلف الجهات من مصر والشام، ومن العراق والأهواز وفارس، فالدولة الواحدة وإن قسمت إلى أقسام إدارية، لا يسلم قسم منها الآخر.

لقد قامت محاولات عديدة منذ بداية الدولة الأموية وحتى أواخر الدولة العباسية لتجزئة الدولة ولكن حرص المسؤولين على وحدة الدولة قضى على كل هذه المحاولات، حيث تصدّى الأمويون لمحاولات الخوارج والشيعة، كما تصدّى العباسيون لمحاولات هؤلاء إضافة إلى محاولات الزطّ والزّنج والقرامطة والخرميّة والصفارية والصليبيين وغيرهم.

والرسول الكريم يؤكد على هذا الاتجاه معبراً عنه بوحدة الجماعة قائلا:

- «من مات وهو مفارق الجماعة، فإنه يموت ميتة جاهليّة»(١).

ولم تأخذ الدولة الإسلامية في التفكك والتشرذم والتنائي إلا بعد أن استبدّ الراعي وتهاونت الرعية، فكان ما كان مما ليس نحمده، ولا يحمده عاقل.

٣- وحدة القيادة:

عندما كانت الدولة الإسلامية من حدود الصين شرقاً حتى حدود فرنسا غرباً كانت قيادتها واحدة، في حين كانت وسائل المواصلات الخيل والإبل ووسائل الاتصالات الأفراد أو الحمام الزاجل، ويأتي اليوم من يسأل هل يمكن أن تكون الأمة العربية ذات قيادة واحدة؟ في وقت أصبحت فيه المواصلات أسرع آلاف المرات والاتصالات لحظية. إن الصين التي يبلغ عدد سكانها ستة أضعاف عدد سكان الوطن العربي ذات قيادة واحدة، والولايات المتحدة واستراليا وكندا ذات الأطراف المترامية ذات قيادة واحدة.

إن القيادة الموحدة للأمة تقيها شرذمة الرأي وتمزق المواقف وتشتّت الاتجاهات وتناقض القرارات وقد كانت أمتنا أول أمة ابتدعت وزارات التنفيذ ووزارات التفويض، حيث قسمت الدولة إلى ولايات: ولاية خراسان، وولاية سجستان، وولاية الكوفة وولاية البصرة، وولاية الموصل، وولاية الحجاز، وولاية الشام وولاية مصر وإفريقيا وولاية الاندلس وهكذا وهكذا، ولكل ولاية وال

(١) رواه مسلم.

وحكومة محلية ذات خزينة مستقلة وجيش مستقل وموظفين مستقلين، وعلى رأس الجميع حكومة مركزية واحدة وخليفة واحد يحقق تسيير جميع أمور الدولة وفق نسق عام لا تتجاوزه أي ولاية في حين لكل ولاية نسقها الخاص.

وعلى المفهوم التنظيمي ذاته تقوم معظم دول اليوم الكثيرة السكان والمترامية الأطراف، حيث الاتحادات الفيدرالية - كما الولايات المتحدة الأمريكية - التي لها حكومتها المركزية «الفيدرالية» ولكل ولاية حكومتها، وللحكومة المركزية اختصاصاتها ولحكومات الولايات اختصاصاتها.

إن مفهوم وحدة القيادة كان الأساس المعتمد في عهد الخلفاء الراشدين ثم الدولية الأموية والعباسية والعثمانية، ولم تمزق هذه الوحدة إلا بعد سيطرة الاستعمار الأوروبي على الأمة العربية والإسلامية وتمزيقها شرّ ممزق، وغرس الأحقاد والخلافات والعداوات بينها حتى لا تتوحد وتقوى وتخرج من الدوران في فلك المستعمرين.

والإسلام يؤكد تأكيداً جازماً على وحدة القيادة، ولا يسمح بتعدد القيادات العامة، تلافياً للخلافات وتضارب الاتجاهات والاجتهادات، ولا يبيح وجود خليفتين في وقت واحد مهما اتسعت الدولة، وعلى هذا المفهوم رفض أبو بكر وعمر وأبو عبيدة وبعض الأنصار ـ رضي الله عنهم ـ اقتراح أصحاب سعد بن عبادة في سقيفه بني ساعدة عشية وفاة الرسول ﷺ والقائل: «منّا أمير ومنكم أمير» وكان الردّ: «نحن الأمراء وأنتم الوزراء» أما شق القيادة بتنصيب أميرين فمرفوض كلياً.

وكانت أول فتنة نشأت بشأن وحدة القيادة بين الإمام علي ومعاوية، ولو كان الإسلام يبيح شق القياة وازدواجيتها، لاكتفى معاوية بالشام والإمام عليها بالجزيرة والعراق وإيران وخراسان وسجستان ومصر وأفريقيا وهي دولة ضخمة، وكفيا نفسيهما شرّ الاقتتال، ولكن رسوخ مفهوم عدم جواز وجود إمامين لدولة واحدة، هو الذي أدى إلى الاقتتال.

وعندما ثار العباسيون ضد الأمويين واستولوا على القسم الشرقي من الدولة الإسلامية، من حدود سيبيريا شمالاً وحتى بحر العرب جنوباً، ومن حدود العراق غرباً حتى حدود الهند والصين شرقاً، كان بإمكانهم التوقف والاحتفاظ بهذه الدولة

الضخمة دون دخول العراق وخوض المعارك ضد الأمويين، ولكنهم كانوا يؤمنون بأن وحدة القيادة مبدأ إسلامي لا يجوز التفريط فيه.

إن وجود إمامين لدولة إسلامية مرفوض شرعاً والبيعة لإمامين أو خليفتين في وقت واحد باطلة ويؤكد ذلك الرسول الكريم ﷺ بقوله:

- «إذا بويع لخليفتين فاقتلوا آخرهما»[1].

- «من بايع إماماً، فأعطاه صفقة يده، وثمرة قلبه، فليطعه إن استطاع، فإن جاء آخر ينازعه فاضربوا عنق الآخر»[2].

٤- وحدة المواقف:

إذا تحققت وحدة الأمّة في دولة موحدة ذات قيادة موحدة، فيجب أن تكون مواقفها في الأمور المصيرية موحدة، ولكن كثيراً ما يقود عوج الفهم إلى تمرد فئة ما أو حزب ما أو جماعة ما على الموقف العام الموحّد، بدعوى أنهم لم يوافقوا على الموقف، أو أن لهم رأيا أو وجهة نظر مختلفة حياله، وهنا يشق الصف ويتخلخل الموقف.

إن تحديد موقف الأمة أو الدولة تجاه أمر ما له آلياته التي تراعيها جهات اتخاذ القرار بشأن تحديد الموقف، فإذا روعيت وتم اتخاذ القرار يجب أن يقف الجميع وراءه سواء أكان يمثل آراءهم أم لا يمثلها ما دام يمثل رأي الأغلبية ويراعي الآلية المعتمدة لاتخاذ القرار.

وهناك مواقف يناط بالقيادة اتخاذها كإعلان السلم أو إعلان الحرب، وأيضاً وفق آلية محددة، وفي كل من الحالتين يقف الشعب وراء قيادته، وبعد استقرار الموقف تتم المحاسبة على الآلية التي روعيت، أما أن تنفرد ولاية ما بإعلان الحرب دون غيرها فإن ذلك قد يؤول إلى كارثة تتحمل الأمة ككل نتائجها، وإذا أعلنت القيادة العامة حرباً، فلا يجوز لأي ولاية أن تعقد سلماً منفرداً بدعوى تحقيقه لمصالحها، فإن ذلك قد يؤدي إلى الاستفراد بالولايات الأخرى وتتحمل الأمة النتيجة، فآثار الموقف الفردي لا تخص متخذه وإنما تعم الأمة كلها.

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه مسلم.

لذا فإن الإسلام يؤكد على أن يكون الموقف العام موحداً، سواء في إعلان حرب أو مقاطعة سياسية أو اقتصادية أو غيرها، مما يجعل للموقف قوته وتأثيره وللأمة هيبتها ومكانتها، ومن يراجع التاريخ يجد أنه ما كان من موقف عام وبصفة خاصة في إعلان الحرب أو قبول السلم، إلا بعد موافقة الحكومة المركزية وعلى رأسها الخليفة.

وتحدد الوثيقة التي أمر بكتابتها الرسول الكريم كميثاق بين أهل المدينة ـ مسلمهم وكافرهم ويهوديهم ـ بشكل واضح وحدة مواقف المسلمين في الأمور العامة، ومما جاء فيها:

- «إن المؤمنين المتقين على من بغى عليهم .. وإن أيديهم عليه جميعاً ولو كان ولد أحدهم.

- إن سلم المؤمنين واحدة، لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله، إلا على سواء بينهم.

- «هذا كتاب من محمد النبي الأمي، بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب، ومن تبعهم وجاهد معهم، أنهم أمة واحدة من دون الناس»[(١)].

ثم يؤكد ذلك ﷺ في عديد من الأحاديث الشريفة فيقول:

- «عليك بالسمع والطاعة، في عسرك ويسرك، ومنشطك ومكرهك، وأثرة عليك»[(٢)].

- «من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله، ومن يطع الأمير فقد أطاعني، ومن يعص الأمير فقد عصاني»[(٣)].

هذا ولا يعني عدم قيام وحدة ناجزة بين المسملين، ألا يحكّم الإسلام في شؤون الناس، فكل فرد معني أن يطبق الإسلام في حياته وكذلك كل جماعة، وكل قطر عليه التزام النظام السياسي الإسلامي حتى ولو لم تقم الوحدة، فالأصل أن تقوم

(١) عن الحافظ ابن كثير، البداية والنهاية، مرجع سابق، جـ٣، ص٢٢٣.
(٢) رواه مسلم.
(٣) متفق عليه.

الوحدة على الإسلام ومذاهبه وأنظمته، ولا يعني عدم قيام الوحدة تعطيل العمل بالإسلام والاحتكام إليه.

جـ- الشورى

المنطلق الثالث للنظام السياسي الإسلامي هو الشورى، والشورى تعني أن يستشار الناس في تصريف أمورهم وإدارة شؤونهم العامة، وأن يكون لهم رأي في أساسياتها، وألاّ تفرض عليهم من علٍ فرضاً بناء على قناعات صناع القرارات وهواهم فقط.

لقد وعى بنو البشر أهمية الشورى في انضباط مسيرة الحياة منذ وقت طويل، وعملت مختلف شعوب العالم على ترسيخ شورية القرارات أو ديمقراطيتها، وضحّت في سبيل تحقيق ذلك بالأرواح والأموال والبنين والممتلكات. رافضة أن تدار أمورها بأسلوب الفرض القسري، وما عليها إلا التنفيذ بالإكراه وذلك لأسباب عديدة أهمها:

- إن الموقف السياسي أو القرار السياسي لا تتوقّف آثاره على أفراد السلطة أو أي حزب حاكم أو مجلس قيادة ثورة . . الخ وإنما تعمّ الشعب كل الشعب، لذلك يقتضي العدل أن يصدر بمشاركة الناس وموافقتهم بحيث يتحملون مسؤوليته ـ إن سلباً أوإيجاباً ـ فمن أفدح أنواع الظلم أن يتحمل إنسان نواتج موقف أو قرار مفروض عليه فرضاً ولا رأي له فيه.

- إن مشاركة الناس يستقطب فكر النخبة، والمشاركة المؤسسية التي ترفد سلطات القرار بأدق البيانات وأوفى المعلومات وأشمل الرؤى، لكل أو معظم العلماء والمصلحين من مختلف الاختصاصات ومتنوع الثقافات ومتعدد الخبرات ومتفاوت المواقع، والتي تصهر في بوتقة مصلحة الأمة، وبذلك تحكم القرارات كل الإحكام، وتبقى المسارات حميدة رشيدة.

- تنفيذ القرار أو الالتزام بالموقف يعود إلى جمهور الناس، وقلّما يتحمس الناس لتنفيذه بإخلاص ومتابعته بدأب، وتقويمه بأمانة، ما دام مفروضاً عليهم،

وعلى العكس إذا كان صادراً عنهم فإنهم يبذلون كل جهد ممكن لتجنيبه عوامل الفشل والإخفاق لأن النتائج ستعزى إليهم.

- الشورى تحكم صلة القمة بالقاعدة والراعي بالرعية، وترسخ الثقة بينهما وتتيح إقرار مبدأي النقد والتقويم، وما يصاحبهما من نقاش وحوار ودراسة وبحث وتحليل، فتتوطد العلاقة، وينمو التعاون، وتستنفر كل القوى المادية والمعنوية والطاقات البانية لتحقيق خيرية الأمة والوطن والمواطن.

أما أسلوب ممارسة هذه الشورى فهو محل اجتهاد، وقد يكون ما وصلت إليه البشرية من اجتهاد لتحقيق ديمقراطية الموقف والقرار رافداً لذلك على أن يراعى فيه:

- أن تكون الانتخابات حرّة مباشرة، ليكون النائب ممثلاً فعلاً للأغلبية.

- أن يناقش النائب اتجاهات المواقف والقرارات مع قاعدته الانتخابية.

- أن تتوافر فيه الشروط الشرعية التي تحقق كفاية التمثيل من إسلام وبلوغ وعقل وحرية وعلم وقدرة وعدالة . . الخ. وفيما يأتي مفهوم الإسلام للشورى.

١ : مفهوم الشورى:

١/١ - طلاقة المبدأ:

مبدأ الشورى في الإسلام مبدأ ثابت طليق، بنص الكتاب والسنّة، بمعنى أنّ له الطلاقة الحكميّة، فلا اجتهاد لأحد مهما كان موقعه في: كفّه أو قفه أو إلغائه، لأي سبب من الأسباب، وهذه الطلاقة الحكميّة جاءت من تقرير الخالق - سبحانه - بقوله:

﴿ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾، والنص هنا بالتّعميم، لذلك لا مجال لأي اجتزاء أو تبعيض أو اجتهاد، وقوامه أن أمر المسلمين لا يدار برأي فرد ولا بدكتاتورية جماعة، ولا بادعاء العصمة والنزاهة وادعاء عبقرية صنع القرار، وإنما بالشورى، التي تستقطب رؤى وعقول وأفكار وخبرات شعب كامل، فرأي الجماعة أحكم من رأي الفرد.

﴿فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ﴾[1] والخطاب هنا موجه للرسول، يفرض عليه أن يشاور المسلمين في الأمر - كل أمر - ولو استغنى أحد عن الشورى لكان هو ﷺ الذي يمدّه وحي السماء، ولا ينطق عن الهوى، وكل قرار يصدر عنه حريّ بأن يكون محكماً كل الإحكام، ومع ذلك جاء تكليفه بالشورى الزامياً وليس تخييريّاً، لالزام كل ولي أمر للمسلمين بالمبدأ.

من هنا يتفق المسلمون على أن مبدأ الشورى ملزم لكل ولي أمر وكل مسؤول، وليس لأحد منهم إدعاء عدم الالتزام بالشورى لأي سبب أو بركوب أي مبرر من المبررات، ورحم الله شوقي إذ يقول:

رأي الجماعة لا تشقى البلاد به ـ رغم الخلاف ـ ورأي الفرد يشقيها

١/ ٢- تغير التطبيق:

إذا كان مبدأ الشورى ثابتاً وله طلاقة حكمية فإن تطبيق المبدأ خاضع لاجتهادات المسلمين فلا طلاقة حكميّة للتطبيق ولا نزاهة، وإنما هو أسلوب تنفيذي لترسيخ معالجة موضوعية جماعية لجميع القضايا السياسية والاقتصادية والاجتماعية للأمة، بروح الفريق، وليس بتحكم الفرد.

وإذا استقصينا مواقف الصحابة بالنسبة للشورى نجد أنها تفرّق جذريا بين ما هو ثابت وما هو متغير وتكفي الإشارة إلى الموقفين الآتيين:

- في مشورة الحباب بن المنذر في بدر والتي تناولتها كل كتب السيرة بالألفاظ ذاتها يتبين لنا ما يأتي:

*- أمر الرسول بنزول الجيش على أدنى مياه بدر من موقع الجيش الإسلامي.

*- أشرقت فكرة في ذهن أحد شباب الأنصار وهو الحباب بن المنذر فجاء إلى الرسول ودار بينهما الحوار الآتي:

- يا رسول الله، أرأيت هذا المنزل، أمنزلا أنزلكه الله، وليس لنا أن نتقدمه أو نتأخر عنه، أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟

(١) آل عمران (١٥٩).

-«بل هو الرأي والحرب والمكيدة».

- يا رسول الله، إن هذا ليس بمنزل، فامض بالناس حتى نأتي أدنى الماء من القوم فننزله، ثم نغوّر ما وراءه من القُلُب، ثم نبني عليه حوضاً فنملؤه ماء، ثم نقاتل القوم، فنشرب ولا يشربون.

- «لقد أشرت بالرأي»[(١)].

والعبرة هنا في قول الحباب: «أمنزلا أنزلكه الله» فإن كان كذلك فلا شورى ولا اجتهاد ولا تقليب للآراء، فإن كان الأمر من عند الله فهو منزّه عن القصور، بل هو محكم كل الأحكام، ومعصوم كل العصمة، أما وأن الأمر ليس من عند الله فهو اجتهادي ولكل أن يجتهد رأيه، وقد كان فاجتهد الحباب، وكان اجتهاده صائباً، فأخذ به الرسول الكريم.

- في غزوة الأحزاب تكاتفت كل قوى الشرّ ضد المسلمين، فرأى الرسول أن يستميل قائدي غطفان ـ عيينة بن حصن، والحارث بن عوف ـ بصفقة مادية، قوامها ثلث ثمار المدينة لذلك العام، على أن يرجعا بغطفان، واستشار زعيمي الأنصار ـ سعد بن معاذ وسعد بن عبادة ـ والأنصار هم أصحاب الموقف، فجرى الحوار الآتي بينه وبين سعد بن معاذ:

- يا رسول الله، أأمراً تحبّه فنصنعه، أم شيئاً أمرك الله به، أم شيئاً تصنعه لنا؟

- بل شيء أصنعه لكم.

- ما لنا بهذا من حاجة، والله لا نعطيهم إلا السيف، حتى يحكم الله بيننا وبينهم.

- أنت وذاك.

ونتبين من الموقفين ما يأتي:

- إذا كان الأمر من عند الله أو من عند رسوله فله الطلاقة الحكميّة ولا شورى فيه، وإلا فالشورى هي الأساس.

---

(١) عن ابن جرير الطبري، تاريخ الأمم والملوك، مرجع سابق، جـ٢، ص ٢٩.

- إذا كان الموقف عاماً ـ كما في الحادثة الأولى ـ فالشورى عامة، أما إذا كان الموقف خاصاً فالشورى خاصة.

وعليه فإن القضايا العامة المصيرية الكبرى موضع شورى عامة، أما القضايا المتخصصة فالشورى فيها لأهل الاختصاص، ففي الأمور التربوية يستشار التربويون، وفي الأمور العسكرية يستشار العسكريون، وهكذا في الأمور الاقتصادية والاجتماعية وغيرها.

٢ : مدى الزامية الشورى:

لما كان النص الملزم للشورى: «وأمرهم شورى بينهم» فقد تاه كثيرون في نواتج الشورى ـ وليس في مبدأ الشورى ـ فإذا جاءت النواتج حول أي موقف أو قرار عام بالقبول فهل ولي الأمر ملزم بقبوله؟ وإذا جاءت بالرفض فهل هو ملزم برفضه؟ والأمر لا يحاكم بهذه العمومية، وإنما حسب واقع الرأي وكالآتي:

- إذا كان الرأي مخالفاً لمبدأ ثابت، لا يأخذ به ولي الأمر حتى لو اجمع عليه كل أهل الشورى فلا اجتهاد في موضع النص، ومثال ذلك ما يأتي:

- عندما ارتدّت قبائل العرب بعد وفاة الرسول، عرض وفدهم على الصحابة، ومنهم عمر بن الخطاب أن يصلّوا وألا يزكّوا، وقبل الصحابة ذلك، ولكن أبا بكر رفض العرض، فأرسل الصحابة إليه عمر بن الخطاب - فقال له:

- علام تقاتلهم وقد قال رسول الله: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها». فقال أبو بكر:

- الزكاة حقّها، إنها حق الله في المال، والله لا قاتلنّ من فرق بين الصلاة والزكاة، والله لو منعوني عقالاً كانوا يؤدونه لرسول الله لقاتلتهم عليه ما استمسك السيف بيدي.

فيقول عمر:

- «فما هو إلا أن رأيت أن الله قد شرح صدر أبي بكر لذلك حتى علمت أنه الحق»[١]. وفعلاً تراجع جميع الصحابة ومنهم عمر عن موقفهم عندما تبين لهم أن الأمر يتعلق بمبدأ ثابت.

- أما إذا كان الأمر متعلقاً بأساليب التطبيق للمبدأ الثابت أو طرق التنفيذ فيأخذ الأبعاد الآتية:

* إذا قبل ولي الأمر رأي أهل الشورى من ممثلي الشعب فنواتج الشورى ملزمة له.

* إذا اختلفت وجهة نظر ولي الأمر أو حكومته مع أهل الشورى فيحال الأمر إلى التحكيم.

* إذا لم يوافق أحد الطرفين على نواتج التحكيم عرض الأمر على استفتاء عام وتعتبر نتيجته ملزمة.

* في حالات الطوارىء يمنح ولي الأمر تفويضاً محدوداً بالتصرف المباشر على أن يحاسب بعد انتهاء الظرف الطارىء.

٣: تطبيق الشورى اليوم:

مما لا شك فيه أن تطبيق الشورى اليوم أيسر منه في أي وقت مضى، نظراً للتطور المهول الذي حدث في عالم المواصلات والاتصالات واختزان المعلومات واسترجاعها بالحاسبات وتقدم وسائل الإعلام.. الخ يضاف إلى ذلك تجارب الأمم في تحقيق ديمقراطية اختيار القيادات وديمقراطية الموقف السياسي والقرار السياسي، فلم يعد الأمر مستحيلاً بل ولا صعباً إذا خلصت النوايا وصدقت العزائم، ولعلّ من الأساليب التي تتوافق مع روح الإسلام، وتتماشى مع بعض ما هو مراعى في بلدان العالم ما يأتي:

١/٣: اختيار ولي الأمر:

يقصد بولي الأمر هنا رئيس الدولة ـ بغض النظر عن التسميات ـ الذي يعتبر المسؤول الأول عن كل مجريات أمور الأمة والذي تنطبق عليه شروط المسؤولية في الإسلام، ويمكن أن يتم بأحد الأسلوبين الآتيين:

---

(١) المرجع السابق، جـ٦، ص٣١٥.

- بالانتخاب المباشر من الشعب من بين المرشحين.

- أو بالانتخاب المباشر من ممثلي الأمة من بين المرشحين.

٣/ ٢ مجلس الأمة:

نقصد به المجلس الّذي يمثل جماهير الأمة تمثيلاً صحيحاً من المنظور الإسلامي، في اتجاهين: الأمور العامة التي تعنى بأمور الشعب العامة ـ البرلمان، مجلس الشعب، مجلس النواب .. الخ والأمور الخاصة التي تعنى بالشؤون المتخصصة التي تتطلب علماً ووعياً وخبرة ودرايه - مجلس الحكماء، مجلس المختصين، مجلس الشيوخ، مجلس الشورى .. الخ، ويتضام المجلسان في مجلس واحد أو يعملان بانفصال مع التكامل الإجرائي، ويتم تشكيل المجلسين كالآتي:

- **مجلس النواب**: يتم اختيار أعضائه بانتخاب حرّ ومباشر من الشعب على أساس تمثيلي.

- **مجلس الشورى**: يتم اختيار نصفه بالاختيار الحر المباشر حسب الاختصاصات الرئيسة، والنصف الآخر بترشيح من ولي الأمر وحكومته وموافقة مجلس النواب.

٣/ ٣- رئيس الحكومة:

ويتم اختياره بأحد الأسلوبين الشائعين:

- بالانتخاب المباشر من الشعب لمدة محددة.

- أو بالترشيح من ولي الأمر وموافقة مجلس الأمة.

٣/ ٤- أعضاء الحكومة:

بترشيح من رئيس الحكومة للوزارات المعنية، ومنح الثقة أو حجبها من مجلس الأمة.

والاجتهاد يمكن أن يضع التفاصيل الدقيقة لكل منصب، سواء من حيث شروط الترشيح أو أساليب الانتخاب وتوزيع الدوائر، أو وسائل الانتخاب وفرز

الأصوات، وصلاحيات كل جهة، ومدة عمل كلها منها، وعمليات التقويم والمراجعة والمحاسبة إلى غير ذلك.

إن طرائق التنفيذ لا حجر عليها، وللفكر البشري أن يبدع في تحديد أيسرها تطبيقاً، وأكثرها جدوى لمصالح الشعب وتقدم الأمة.

ثالثاً: التربية النبوية للقيادات السياسية

أ- الإعداد المسبق:

يقصد بالإعداد المسبق، تأهيل الفرد الإنساني وتدريبه للنهوض بأعباء مهنة ما، علماً ومعرفة ووعياً ودربة وممارسة ومراناً، لينهض بأعباء المهنة الموكولة إليه بقدرة وكفاية وفاعليه، عبر مؤسسة إعداد متخصصة. وقد تطورت مؤسسات الإعداد في وقتنا الحاضر لتصبح كليات جامعية وبخاصة بالنسبة للمهن العليا، وأصبحت هناك نصوص قانونية تحظر على أي إنسان ممارسة مهنة ما قبل حصوله على الدرجة الجامعية الأولى كحدّ أدنى، فلا يسمح لطبيب أن يمارس مهنة الطب قبل حصوله على بكالوريوس الطب، ولا محام أن يضطلع بالمحاماة قبل حصوله على ليسانس الحقوق، وهكذا بالنسبة للمهندس والصيدلي والمعلم ومن إليهم.

وللإضطلاع بالعمل السياسي هناك في كل جامعة ـ تقريباً ـ كلية للعلوم السياسية، المفترض فيها أن تعد السياسيين للقيام بمهامهم، إلا أننا لا نجد قانوناً في أي بلد يفرض على رئيس الدولة أو أحد نوابه أو رئيس الحكومة أو أحد نوابه أو حتى الوزير الحصول على بكالوريوس العلوم السياسية، بالرغم من أن المهن السياسية من أعلى المهن.

والسبب الرئيس وراء تجاهل القانون لمؤهلات السياسيين، ليس الاستهانة بالسياسة أو اعتبار السياسة مهنة من لا مهنة له، وإنما لأن الأمم لا زالت ترى أن المقوّمات الذاتية للإنسان من ذكاء وحكمة وحنكة ولباقة وخبرة في الحياة وتجربة، أهم من المؤهل الدراسي لهذه المهام القيادية، التي تأتمن الأمة قياداتها على إدارة حركة حياتها وتسديد مساراتها، ولذلك يراعى في انتخاب رئيس ما واقع المقوّمات الذاتية التي يعرفها الناس للمرحلة التي يمرّون بها واحتياجاتها الحقيقية، ويجددون للمنتخب أو يرفضون التجديد له حسب ملاءمة مقوماته الذاتية لمرحلة التجديد أو عدم ملاءمتها، ولذلك فإن عشوائية الانتخاب أو الاختيار غير واردة إلا في الدول المتخلفة.

وأسلوب ترجيح المقومات الذاتية ليس جديداً، وإنما هو قديم قدم المدنيات الأولى التي قامت على الأرض، وبالرغم من اعتماد الرسول ﷺ لهذا الأسلوب إلا أنه قد تميّز في أسلوب تطبيقه بميزات نوعية نذكر منها ما يأتي:

١ - التعريض لمواطن الخبرة:

ذلك لأن معظم المقومات الذاتية لا تبرز بوضوح إلا عبر التجربة الحقيقية واثبات الوجود في مواطن الخبرة، فالقدرات الحقيقية تبقى لدى معظم الناس كامنة حتى توضع على المحك فتبرز، لذلك كان ـ عليه السلام ـ يضع من يتوسم فيهم حيازة المقومات العليا في بؤرة التجربة، ويتابع أداءهم بنفسه، وعلى سبيل المثال:

كان غياب الرسول في الغزوات يستمر فترة طويلة، وفي هذه الفترة كان يستخلف على المدينة وهي حاضرة الدولة أحد صحابته، هذا الاستخلاف الذي يضعه على محك التجربة، فالصحابي المستخلف كان عليه إدارة جميع أمور الدولة بكل حيثياتها، ولما كانت وسائل الاتصال بطيئة للغاية، كان عليه أن يجتهد رأيه ويكدّ ذهنه ويفعّل طاقاته ومواهبه وقدراته ولا يألو جهداً، ليصرّف الأمور بأعلى وعي وأعمق حكمة، أي كان عليه أن يكون رئيس الدولة الحقيقي ولو لفترة محدودة من الزمن.

لم يكن هذا ديدن الرسول في رئاسة الدولة وإنما اتبع الأسلوب ذاته في القيادات العسكرية، وفي المفاوضات وفي القضاء، وفي ولاية المدن والمقاطعات وفي تولي أمور القبائل، وحتى في الكتابة لم يوكلها لواحد فقط وإنما أكسب الخبرة من موقع الخبرة لعدد من الصحابة، فتروي كتب السيرة أن الذين كتبوا للرسول هم: عثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، وخالد بن سعيد، وأبان بن سعيد، والعلاء بن الحضرمي، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت، ومعاوية بن أبي سفيان، وحنظلة الأسدي وغيرهم.

٢- توسيع قاعدة الإعداد:

المهام العليا في الدولة تتطلب أعداداً كبيرة من ذوي الكفاءات المتميزة، لذلك لم يكن الرسول ـ عليه السلام ـ ليعرض لمواطن الخبرة عدداً محدوداً يركز عليه ولا

يتعداه، وإنما كان يعطي فرصة البروز لعديد ممّن توسّم فيهم كفاية المقومات الذاتية، متّبعاً الأسلوب الذي يسمّى في وقتنا هذا: «الجاهزّية الحركية الفورية» والتي تؤدي إلى ملء أي شاغر متى حدث بأقصى سرعة ممكنة.

كان هذا ديدنه ﷺ في الاستخلاف على المدينة، وفي قيادة السرايا وفي التكليف بالمهام الرئيسة، بحيث يتيح للكفاءات أن تبرز في كل مجال يتحقق تفوقها فيه، ونبين هنا أسماء من استخلفهم عليه السلام في غزواته على المدينة.

الغزوة	خليفة الرسول على المدينة
الأبواء	سعد بن عبادة
بدر الأولى	زيد بن حارثة
بدر الكبرى	بشير بن عبد المنذر
بني سليم	سباع الغفاري
ذي أمر	عثمان بن عفان
أحد (والغزوات القريبة)	ابن أم مكتوم
ذات الرقاع	أبو ذر الغفاري
بدر الآخرة	عبد الله بن عبد الله بن أبي
الحديبية	نميلة الليثي
الفتح	كلثوم بن حصين
تبوك	محمد بن مسلمة

وهكذا في بقية الغزوات في كل مرة شخصية جديدة لتحقيق زيادة مقدّرة في إعداد القيادات العليا، وهكذا في كل القيادات. ولا يروي لنا التاريخ أن أحدهم أصر على استمرارية استخلافه أو طلب استخلافه مرة أخرى، فقد كان واضحاً أن المقصود هو توسيع قاعدة الإعداد لتحقيق الجاهزية الحركية لملء أي شاغر عندما يستجد.

٣- الجاهزية القيادية :

تنوع الإعداد وتوسيع قاعدته أدى إلى ارتقاء الجاهزية القيادية، فما أن يسقط القيادي الأول حتى يتسلم الزمام وعلى الفور من يحلّ محلّه، فالمسؤول الثاني والثالث وهكذا على أعلى مستوى ممكن من الجاهزية، وقد اتبع ـ عليه السلام ـ ارساء قواعد المسؤولية التتباعية، لا سيما في المهام البعيدة عن حاضرة الدولة كما حدث في بعث مؤتة إذ جعل قائد البعث زيد بن حارثة فإن أصيب فجعفر بن أبي طالب فإن أصيب فعبد الله بن رواحة فإن أصيب يختار المسلمون لأنفسهم، وهذا ما اتبعه عمر رضي الله عنه في موقعة نهاوند.

ومن الانعكاسات التي منيت بها الأمة أن المسؤول الأول في الدولة لم يعد يهتم بإعداد المسؤول الثاني بله الثالث والرابع، وحتى في الأنظمة الجمهورية نجد الرئيس لا يعنى بذلك، فإذا ما أصيب ضاعت الأمور، إذ غالباً ما يؤتى بمن لا خبرة له ولا تجربة ليحل محلّ من ذهب.

لقد كانت الجاهزية القيادية مما حمى دولة الإسلام في الجزيرة ورسخ وجودها فيما وراءها فعندما توفي الرسول ﷺ اعتقدت قبائل العرب أن دولة الإسلام ستزول بغياب قيادة الرسول، ولكن جاهزية أبي بكر القيادية أثبتت وجودها الفوري، وأعادت المرتدين إلى حوزة الإسلام خلال فترة وجيزة، وبدأ تسديد الضربات للقوتين العظميين اللتين شجعتا التمرد وآويتا شراذمه، وانتظر الفرس والروم غياب أبي بكر ليسحقوا الدولة الوليدة، ولكن جاهزية القيادة أفرزت الفاروق الذي سدّد للدولتين أوجع الضربات حتى دانتا لدولة الإسلام.

لقد تاه المؤرخون في تعليل عزل خالد بن الوليد والمثنى بن حارثة الشيباني وهما في ذروة النصر، ومع تقدير كل وجهات النظر التي طرحت إلا ان الحكمة المثلى تتمحور حول اثبات كفاءة جاهزية القيادة، فلا خير في أمة تعتمد على قائد واحد، حتى إذا أصيب انتكست أوضاعها. لقد أثبت الفاروق أنه لا انتكاس بعزل خالد أو المثنى ـ وكان الناس قد افتتنوا بهما ـ فهناك قيادات جاهزة لا تقل عنهما كفاءة، وبرزت قيادات فعلاً ملأت سمع التاريخ وبصره، وأكملت المسيرة بالكفاءة ذاتها.

ب- ضبط مسؤوليات القيادات السياسية الإسلامية

إن القيادات السياسية لأي مجتمع ذات تأثير بالغ في صلاح المجتمع أو فساده، نجاحه أو فشله، تقدمه أو تخلفه، وهكذا، لأن تصريف جميع الأمور تغدو في قبضتها، تصرفها حسبما يتراءى لها. صحيح أن هناك نصوصاً تحدد المهام والصلاحيات الممنوحة لهذه السلطات واختصاص كل منها، ولكنها تبقى حبراً على ورق، أو كلمات هامدة على صفحات جامدة، والذي يفعّلها ويجعلها محلّ تقدير وموضع التزام هو الإنسان ذاته.

والسلطات لا تأتي إلى أي مجتمع من مكان بعيد، وإنما من اختياره لنفسه، من أبنائه الذين يأنس فيهم الكفاءة والقدرة والعلم والوعي والحرص على مصالحه، ولكن هذه المؤهلات الذاتية لا تمنع انحراف السلطات وانطلاقها على هواها بمجرد استلامها السلطة، فتعيث في البلاد فساداً، وتجيّر الأمور لمنافعها الذاتية، وتورد البلاد والعباد موارد الهلكة، ونتيجة لهذا الإنحراف يناصبها الشعب العداء، وتأخذ لحمة الشعب في التمزق، حيث تتعمق الخلافات، ويترسّخ التنافر والتباغض والعداء بين الشعب وقياداته، مما يقضي على أمن الحياة لكلا الفريقين.

والإسلام وإن كان يأخذ بكفاية وقدرة من يتولى مقاليد الأمور السياسية، إلا أنه لا يقتصر على ذلك، وإنما يؤكد على المنطلق الإيماني في تربية هؤلاء القادة، هذا المنطلق الذي يحكم صلاح النفس وصفاء السريرة، وطهارة الوجدان ونقاء الضمير، ويرسّخ الاتجاه إلى تحكيم الحق والعدل والخير والصلاح في تسيير الأمور، مما يعود بالخير على الفرد والجماعة، ويحرس اتجاهات المصلحة العامة.

والإسلام يؤكد على أن يفرز المجتمع قياداته، ويرفض الاستجابة إلى سعي أي إنسان بأي اسلوب من الأساليب لتولي المناصب القيادية، فالأصل أن يعلن عنه عمله وترشّحه كفاءته، لا أن يعلن هوعن نفسه ويرشحها، ولذلك كان القول السائد: «طالب الولاية لا يولّى». والرسول ﷺ يقول:

- «إنا لا نولّي هذا العمل أحداً سأله أو أحداً حرص عليه»[١].

وإذا تم اختيار القيادات بأي أسلوب يراه المجتمع، فإن العلاقة التي تقوم بين القيادات وجماهير الناس، يجب أن تبنى على المحبّة، التي من شأنها ان تعمّق التقبّل والتواؤم والتوافق بين الفئتين ومن ثمّ: التعاون والتناصر والتآزر والاحترام والتقدير، وحرص كل منهما على المصلحة العامة لا المصلحة الذاتية، وفي ذلك يقول - عليه السلام ـ:

- «خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم، وتصلون عليهم ويصلون عليكم (تدعون لهم ويدعون لكم) وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم وتلعنونهم ويلعنونكم»[٢].

ولما كان اختيار القيادات ـ بأي أسلوب كان ـ لا بدّ منه لأي مجتمع، فإن ترسيخ هذه المحبة من الشعب تجاههم، ومنهم تجاه الشعب لا تتأتى بمرسوم ولا قرار، وإنما عبر التربية الإيمانية، التي إذا روعيت مفرزاتها جعلت المحبة ومتعلقاتها واقعاً ملموساً، تنعكس على أداء السلطات من ناحية وعلى موقف الشعب تجاهها من ناحية ثانية.

ويراعي الرسول الكريم في تربيته للقيادات السياسية أن تكون ذات مواقف مسؤولة وموضوعية، منضبطة مع مفاهيم الأمة ومعتقداتها وآمالها، لتتعمق ثقة الناس بها وليلتفوا حولها، ومن ذلك: إحكام الأداء، تأمين الحقوق، وتحكيم العدل.

ولو استفتي أي شعب حول ما يطلبه من قياداته لن يتعدى هذه الحزم الثلاث التي أكد عليها الرسول الكريم، والتي تستقطب آمال الناس وطموحاتهم وتطلعاتهم، وتحقق الرضا والسعادة والأمن والطمأنينة للحياة بعامة، ولما كان المجال لا يتسع للاستطراد في مهام القيادات السياسية فنكتفي بتربية الرسول للقيادات في التزام هذه الضوابط.

---

(١) متفق عليه.

(٢) رواه مسلم.

١ - إحكام الأداء :

لا يهمّ الشعب أن يكون القائد أو المسؤول السياسي أو ولي الأمر أعلم أهل الأرض وأذكاهم، ولا يهمّه أن يكون أقواهم شخصية وأعلاهم خبرة وأكثرهم فطنة وحكمة، وإنما الذي يهمه هو ممارساته على أرض الواقع، وأداؤه في كل موقف يحقق خيرية الحياة ويتلافى سلبياتها، فالناس إنما سلموه مقاليد أمورهم ليحمي الوطن ويرعى مصالح الشعب بعامة ويرتقي بها تدريجياً إلى أعلى وأفضل مستوى ممكن في كل منحى من مناحي الحياة، لا أن يعزل نفسه في برج عاجي ويترك الأمور على عواهنها.

وحتى يتحقق إحكام الأداء واقعياً لأي قيادة، لابّد لها من اجراءين رئيسين يصبان في خانة كفاية الأداء هما: إحكام اصطفاء الأجهزة المعاونة، وإحكام أساليب الأداء ذاتها وهما ما أكد عليها الرسول ﷺ وكما يأتي:

١/١ : إحكام اصطفاء الأجهزة المعاونة :

قد يختار الشعب رئيس الدولة ـ بغض النظر عن التسميات ـ متوسماً فيه كل الخير، ومراعياً أن تكون له كل مقومات الكفاءة، ولكن هذا الرئيس لا يمكنه تصريف الأمور بمفرده، وإنما لا بّد من وجوده أجهزة معاونة، فيما يسمى السلطة التنفيذية من رئيس وزراء ووزراء وأمناء ومديرين وغيرهم. والحقيقة التي لا تغيب عن أحد أن هذه الأجهزة المعاونة هي المؤثر الأول في تعزيز وتعميق كفاية الأداء او تنكّبها.

إن الأداء السياسي إنما يبدأ بالقرار السياسي الذي يصدره النظام السياسي ملتزماً بالمذهب السياسي، والقرار السياسي لا يصنع في الأمم الجادة بناء علىمقتضيات هوى فلان أو علان، ولا بناء على رأي فرد أوعدد من الأفراد، وإنما يتم بمشاركة فاعلة من أجهزة شبكية ممتدّة، تقوم عليها أجهزة مختصة وخبراء واعون في كل مجال، تغذي صنّاع القرار بالبيانات الدقيقة والمعلومات الوثيقة التي تبين موضوعية القرار أو عدم موضوعيته.

وإذا كانت هذه الأجهزة على تنوعها على مستوى من الكفاءة والأمانة، فإن البيانات والمعلومات والإحصاءات والدراسات والبحوث التي تقدم لمتخذي القرار

تبنى على الحق والحقيقة، فيصدر القرار بناء عليها موضوعياً موضوعية تامة، أما إذا كانت هذه الأجهزة ضالة منحرفة فإنها تحوّر البيانات والمعلومات بما يخدم انحرافاتها فيصدر القرار من معين السوء والضلال.

لذلك فإن الأجهزة المعاونة قد تكون عوامل مساندة لتحقيق إحكام الأداء ومراعاة مصالح الناس العليا، ودفع عجلة الإصلاح والتقدم والرفاه، وقد تكون عكس ذلك عوامل مساعدة للفساد والإفساد، وبؤراً للشر ومعاول للهدم.

ويؤكد ذلك الرسول الكريم بقوله:

- «ما بعث الله من نبي ولا كان بعده من خليفة، إلا كان له بطانتان: بطانة تأمره بالمعروف وتنهاه عن المنكر، وبطانة لا تألوه خبالا، فمن وقي شرّها فقد وقي»[١].

- «إذا أراد الله بالأمير خيراً، جعل له وزير صدق، إن نسي ذكّره، وإن ذكر أعانه، وإذا أراد به غير ذلك، جعل له وزير سوء إن نسي لم يذكره، وإن ذكر لم يعنه»[٢].

ويؤكد الرسول ﷺ على القيادات الإسلامية أن تبتعد كلياً عن كل من أساليب الاصطفاء الشائعة والتي تؤدي إلى سوء الاصطفاء، بحيث يستمر إحكام الأداء على أعلى مستوى ممكن، وهذه الأساليب المؤدية إلى ضلال الاصطفاء وانحرافه هي:

- **العصبية:**

العصبية في الأصل للقرابة التي تفرض ذاتها على المسؤول، وقد تكون لعلاقات وصلات تصب في ممالأة المسؤول، والوقوف معه تعصّباً أكان على الحق أم على الباطل، وأخطأ أم أصاب، والنفس البشرية ميالة لمن يمالئها، ولكن هؤلاء الممالئين سرعان ما يصبحون معاول هدم للمصلحة العامة، بل وسياطاً تلهب ظهور الأبرياء، لا سيما المعارضين لسياسة ولي الأمر أو المسؤول.

ولعل أمتنا اليوم تعيش هذا النوع من العصبية، فما أن يتسلم وزير أي وزارة أو مسؤول أي مصلحة، حتى يتخلص من القائمين على أمورها ـ بغض النظر عن

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه النسائي وأبو داود وغيرهما.

كفاءاتهم ـ ويحشد لها وفيها مجموعات من عصبياته، وبذلك يحيّد النقد ويقضي على المعارضة ويعدم الرأي الآخر، ويبقى الرأي والفكر والاجتهاد حكراً على العصابة التي توجهه كيف تشاء، وقلّما توجهه إلى خير.

لذلك فإن الأساس الذي يقوم عليه الاختيار هو المقومات الذاتية للشخص، والذي قد يكون من عصبة المسؤول على أن تقدمه كفاءاته وقدراته وليس عصبيته، وقد يكون من غير عصابته والرسول الكريم يؤكد على عدم استعمال عصابة المسؤول إذا كان هناك من هو أكفأ منها فيقول:

– «من استعمل رجلاً من عصابة، وفيهم من هو أرضى لله منه، فقد خان الله ورسوله والمؤمنين»[1].

– المحاباة:

المحاباة تعني الميل إلى شخص ما لأي سبب من الأسباب، وهذا الميل لا حساب عليه لأنه عمل قلبي لا يملكه الإنسان، ولكن الفعل المترتب على هذا الميل من إعطاء هذا الشخص فوق حقه أو تسويغه ما ليس له بحق هو الذي عليه الحساب، وهو الذي أصبح يعرف لدى عموم الناس بالمحاباة، فعندما يقال عيّن المسؤول فلاناً محاباة، فمعنى ذلك أنه عينه دون حق له في هذا التعيين وإنما لمجرّد ميله إليه.

وميل إنسان لإنسان ما له مسببات عديدة منها ما هو معنوي كالصداقة أو العلاقة الحزبية أو التوافق في الرأي والاتجاه، وقد يكون مادياً لمكانة الآخر الاجتماعية أو الاقتصادية ... الخ. والمحاباة مرفوضة في الإسلام لتنكبها الموضوعية، حيث تؤدي إلى حرمان صاحب الحق من حقّه، وتحويله إلى من لا حقّ له، وبذلك تختل الأمور.

والرسول الكريم يؤكد في تربيته لولاة الأمور على النأي كل النأي عن المحاباة، حتى تبقى الأمور في مجرياتها الموضوعية، ولكيلا تبذر بذور التباغض والتحاقد بين المسلمين فيقول:

---

(١) رواه الحاكم.

- «من ولي من أمور المسلمين شيئاً، فأمّر عليهم أحدا محاباة، فعليه لعنة الله، لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً حتى يدخله جهنّم»[١].

- **النفعية**:

يقصد بالنفعية أن يحقق المسؤول منفعة ذاتية من وراء اختيار من يؤمّره، كأن يحقّق له فرصة لمنصب أعلى عصبية أو محاباة، أو أن يستخدمه في ترويج تجارته والحصول على أرباح أعلى، أو أن يستفيد من حشد قبيلته أو عشيرته وراءه لتأييده في مواقفه والدفاع عنه . . إلى غير ذلك.

إلا أن أكثر أساليب النفعية شيوعاً في الحكم هو الرشوة، حيث يقدّم شخص ما مقداراً من المال ليحصل على منصب معين، وهو الأسلوب السائد في دول العالم الثالث عموماً، ومن المعروف أنه ما من إنسان يدفع رشوة للحصول على منصب ما ويستهدف تحقيق الخير والصلاح للمجتمع من تسنّمه هذا المنصب، وإنما يدفع القليل ليحصل على الكثير، وبذلك تصبح مصالح الناس سلعة تطرح للمزايدات وتمنح لمن يزيد.

لذلك يؤكد الرسول الكريم على تحريم الرشوة في الحكم بخاصة، إضافة إلى تحريمها بعامّة بأسلوب جازم حاسم فيقول:

- «الرشوة في الحكم كفر، وهي بين الناس سحت»[٢].

- «لعن الله الراشي والمرتشي في الحكم»[٣].

١ / ٢ : ترقية مقاصد الأداء:

ما من قرار سياسي أو إجراءات تنفيذية أو تنظيمات معيّنة تتم بدون قصدية، بل إن المقاصد هي التي تقود مثل هذه الأعمال وتوجهها إن خيراً فخير وإن شرّاً فشرّ.

ولما كانت مفردات الأداء كثيرة ومتنوعة ومتشعبة فإن التربية ـ ومنها التربية النبوية ـ لا تعنى بالتفاصيل المتغيرة، وإنما تعنى بالأسس الحاكمة للتصرفات التي يقوم عليها الأداء.

(١) رواه الحاكم.
(٢) رواه الطبراني.
(٣) رواه الطبراني.

والرسول ﷺ يأخذ ولاة أمور الأمة بالحرص على المقاصد القويمة في قيادتهم لها، تحقيقاً لصلاح مجتمعاتهم وخيريتها وفلاحها، وتلافياً للمقاصد المنحرفة التي تعمق مكامن الخلل والخطر لدى الراعي والرعية، وكما يأتي:

- **المقاصد القويمة:**

هذه المقاصد كثيرة أيضاً، وتتسع اتساع مجالات الحياة التي تعنى بها السياسة ويعنى بها السياسيون ولكن الرسول الكريم يجمعها في المقاصد الأربعة الآتية:

*- **حفظ الأمة**: هذا أحد الاتجاهات العامة التي يجب أن تكون قصديتها ماثلة في ذهن أي ولي أمر أو مسؤول مسلم، فهو لم يحتل مركزه ليضيّع الأمة أو يوردها موارد الهلاك وإنما ليحفظها، يحفظ دينها وقيمها وأمنها وكرامتها وحقوقها وحرياتها، ويحفظ ثرواتها من التبديد وخيراتها من سوء الاستغلال، وحدودها من الانتقاص، وهكذا.

ولا شك أن تقدير الرؤساء والمسؤولين من شعوبهم إنما يقوّم ابتداء بمدى حفظهم لأممهم والرسول الكريم يؤكد على ولاة أمور المسلمين أن يحفظوا الأمة، بقول جامع يغني عن كل التفاصيل، قوامه أن يحفظ المسؤول الأمة مما يحفظ به نفسه، فيقول:

- «ما من أمتي أحد، ولي من أمر الناس شيئاً، ثم لم يحفظهم بما يحفظ منه نفسه، إلا لم يجد رائحة الجنّة»[1].

* **النصح للأمة**: هذا زعيم ينصح لأمته وذاك يغشّها، والذي ينصح لأمته في كل أمر من أمورها، في تربية أجيالها وتنمية اقتصادها وتعميم عمرانها وحشد قواها ونشر الأمن فيها .. الخ هو الذي يستحق التقدير والثناء، ويحوز شرف الانتماء لها، أما من يغشّ أمته ويضرب بمصالحها عرض الحائط لإرضاء الأقوياء أو حماية عرشه أوتضخيم أرصدته، فهو ليس من الأمة وإن كان يحمل وجه أبنائها واسم أحدهم وشكله.

---

(١) رواه الطبراني.

ولعلّ كل أمة عرفها التاريخ لم ترتق إلا بالنصح من ولاة أمورها، الذين كرسوا كل ما وهبهم الله من مواهب للنهوض بها وتحقيق رقيها وتقدمها، وعلى العكس من ذلك، فإنّما تهبط مكانة الأمم بالغششة من ولاة أمورها، الذين يرون مصالحهم أهم من مصالح شعبهم، وذواتهم أولى بالرعاية والعناية من أمتهم.

والرسول الكريم يؤكد على ولاة أمور المسلمين أن يلتزموا النصح لأمتهم فيقول:

«ما من عبد يسترعيه الله عز وجل رعية، ولم يحطها بنصحه إلا لم يرح رائحة الجنّة»[1].

* **الرفق بالأمة**: ولي الأمر لديه المال ولديه السلاح ولديه الجنود ولديه الاتباع، وما من فرد أو جماعة تستطيع أن تقاومه أو تقف في وجهه، لذلك فإن العنف في التعامل مع الناس أسلوب بغيض لا يجوز اللجوء إليه من قبل السلطة التي تملك القوة من أطرافها.

والعنف مراكبه كثيرة، سواء أكان ذلك في اضطهاد الكلمة والرأي الآخر، ومحاربة النقد والتقويم وتجريم المعارضة ومطاردتها، واتباع أساليب العزل السياسي والسجن السياسي والاضطهاد السياسي، أو في تعسير الأمور الحياتية للناس بأساليب متعسّفة وتعقيد الإجراءات إلى درجة مذّلة للمواطن، في حين بإمكانها أن تيسّر هذه الإجراءات وتجعلها هينة ليّنة سهلة، تحقق الرضا والسرور للناس، أو بضغط فرص العمل وتقليصها لتعمّ البطالة ويتم إذلال الناس بضغط الحاجة والعوز.

وغير خاف أن الدول المتقدمة قد تخلّت كلياً عن أساليب العنف والتعسير على مواطنيها في أي أمر، وإنما يسرت المعاملات الإجرائية إلى درجة لم يسبق لها مثيل.

والإسلام الحريض على كرامة وجود المسلم يأبى العنف، ولذلك يؤكد الرسول الكريم على كل ولي أمر ألا يشق على رعيته وأن يتبع إزاءهم الرفق فيقول:

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

- «اللهم من ولي من أمر أمتي شيئاً فشق عليهم، فاشقق عليه، ومن ولي من أمر أمتي شيئاً فرفق بهم فارفق به»[1].

* **التواصل مع الناس**: لماذا حجب أولياء الأمور أنفسهم عن الناس في زماننا هذا، وأحاطوا أنفسهم بستار حديدي تلو ستار من الحجّاب والحراس والدبابات وغيرها؟ بحيث لا يستطيع أن يصل إليهم إلا أهل الحظوة، من يدري؟ ما أن يتسنّم أحدهم سدّة الحكم حتى يتصرف وكأنه لا صله له بالشعب الذي يقوده ولا صلة للشعب به .. إنها الارساليات الوافدة التي صورت ولي الأمر عدواً للشعب وصورت الشعب عدواً له يتربص به ليل نهار.

إن التواصل مع الناس لا يتنافى مع الاحتياطات الأمنيّة، وكثرة مشاغل المسؤولين لا تمنع من تخصيص ساعات معدودة بين الفينة والأخرى للاستماع إلى آمالهم وآلامهم، ووجود القضاء لا يغني عن ديوان للمظالم وهكذا.

إن التواصل مع الناس يمكن أن يتم بأساليب عديدة ومتنوعة دون تعريض ولي الأمر للخطر ـ إن كان هناك خطرٌ ـ وهذا التواصل يحول دون تواطؤ الأجهزة المعاونة على ظلم أحد، إذ يعلمون أن ظلامة المظلوم ستصل إلى ولي الأمر.

وبغض النظر عن الأسلوب الذي يتم به التواصل، فإن مبدأ التواصل مطلب هام حيوي وأساسي لاستقامة أوضاع المجتمع، وهذا ما يؤكد عليه الرسول الكريم بقوله:

- «من ولي من أمر الناس شيئاً، فاحتجب عن أولي الضعف والحاجة، احتجب الله عنه يوم القيامة»[2].

- «من ولي أمر المسلمين، ثم أغلق بابه دون المسكين وذي الحاجة، أغلق الله تبارك وتعالى أبواب رحمته دون حاجته وفقره، أفقر ما يكون إليها»[3].

(١) رواه مسلم والنسائي.

(٢) رواه أحمد والطبراني.

(٣) رواه مسلم وأبو داود والنسائي.

- المقاصد المنحرفة:

وكما يربي الرسول الكريم القيادات السياسية على التزام المقاصد القويمة الكريمة، فإنه يؤكد على تجنب المقاصد المنحرفة الكريهة الهدامة بالنسبة للسلطات ومنها:

* **الظلم السياسي**: في كل بلد من بلدان العالم الثالث نجد أرتالا من المساجين السياسيين والمطاردين السياسيين، والمضطهدين السياسيين الذين تغصّ بهم القوائم السوداء ممن يعارضون النظام وينتقدونه، وهؤلاء لم يرفعوا سلاحاً في وجه السلطات، ولم يقوموا بأي عمل تخريبي، كل ما في الأمر أنهم عارضوا بالكلمة، وجاهروا بالرأي، ونقدوا وقوموا، ولكن السلطات وصلت إلى مستوى تحريم أي رأي سوى رأيها ووأد أي فكر سوى فكرها، وإعدام أي كلمة سوى كلمتها، وبذلك اعتبر هؤلاء أعداء النظام فيجب أن ينكّل بهم،وأن يسجنوا ويقتّلوا أو ينفوا من الأرض.

والأمم الجادة تقدّر كون النقد والتقويم والمعارضة ظواهر صحّية لا مرضيّة، لأنها ترفد رأي السلطة بآراء كثير من العلماء المختصين والمصلحين المخلصين، فتضيف عقولاً إلى عقول وآراء إلى آراء وخبرات إلى خبرات وتجارب إلى تجارب، مما يسهم في تعزيز نواحي الجودة وتلافي نواحي القصور، ويعود بالخير على الراعي والرعية معاً.

والظلم السياسي أشد قهراً للإنسان من أي ظلم سواه، لأنه يصدر عمّن يتوقع منهم الشعب انصافه من ناحية، ولأنه يتطاول بقوة السلطان وتسيير وسائل الإعلام، فيحيل المواطن المعارض إلى طريدة للخوف والهلع والتوجس والترقّب، فلا يجد مجالاً إلا أن ينسحب من الحياة العامة، فالظلم لا يترك في الإنسان إنساناً.

والرسول الكريم يؤكد على نفي الظلم عن المجتمع المسلم كلياً، ويخصص نفيه عن الأقوياء القادرين على إنفاذه فيقول:

- يقول الله تبارك وتعالى: «اشتد غضبي على من ظلم من لا يجد له ناصراً غيري»[١].

(١) رواه الطبراني.

- «اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة»[١].

* **الغش السياسي**: السلطات السياسية جزء لا يتجزأ من شعبها، منه وإليه، وما من أحد منهم هبط إلى الأرض من السماء من مجتمع الملائكة، بحيث لا يخطىء أبداً، وإنما هو من بني آدم وكل بني آدم خطاؤون، والناس الذين يقودهم ليسوا كتلة غباء بحيث يجوز عليهم كل تمويه وتضليل، لذلك فإن الأصل في التعامل بين القمة والقاعدة تلافي أي غش في قول أو عمل.

إن المجتمع قد يتعرض لكوارث ونوازل وأزمات، وعرضها بأسلوب موضوعي يمكّن الشعب من الإعداد لمواجهتها بأساليب بناءة، والمشروعات ـ على تنوعها ـ قد تحقق النجاح وقد تتعرض للفشل، وبيان نواحي النجاح بموضوعية ونواحي الفشل بمصداقية، لا يترك الناس يبنون قصوراً في الهواء، وإنما ينزلون إلى أرض الواقع، وهكذا في الانتصارات والهزائم، والحرب والسلم .. الخ، والسلطات القوية الأمينة هي التي تواجه شعبها بالحقائق كما هي. أما أن تلجأ إلى التبرير والتضليل والخداع، فإذا الفشل نجاح لا يبارى والهزائم انتصارات لا تجارى، والخسائر أرباح لا تدارى فهو **الغش** بعينه، الذي يفقد الناس الثقة بسلطات القرار لديهم، ويجعلهم يتشككون في كل قول تبديه وفي كل عمل تؤديه، ويصيبهم بالتوجس الدائم الذي يهدّ العزائم، وأبواب الغش السياسي لا حصر لها وهذا نوع منها.

لذلك يأبى الرسول الكريم على ولي الأمر أن يلجأ إلى **الغش** تجاه شعبه فيقول:

- «من ولي من أمور المسلمين فغشهم فهو في النار»[٢].

- «ما من عبد يسترعيه الله رعية، فيموت يوم يموت وهو غاش لهم إلا حرّم الله عليه الجنّة»[٣].

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه الطبراني.

(٣) رواه البخاري ومسلم.

٢- تأمين الحقوق :

المهمة الرئيسة الثانية التي يؤكد الرسول الكريم على نهوض القيادات السياسية الإسلامية بها هي تأمين الحقوق لأصحابها، ذلك لأنّ كل حق لإنسان يقابله واجب عليه، ومن العبث الفكري وضلال الرأي أن نعتقد بأن إنساناً ما يمكن أن ينهض بواجباته إذا لم تؤمن حقوقه، فتعطيل الحقوق يعني تعطيل الواجبات وبالتالي دمار المجتمعات، ولو كنا نستفيد من تاريخنا لوضعنا عبارة أبي بكر - رضي الله عنه - في مكتب كل مسؤول لدينا، ونقصد عبارته المشهورة في أول خطبة له بعد مبايعته بالخلافة والتي يقول فيها: «ألا إن القويّ فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه، والضعيف فيكم قوي عندي حتى أخذ الحق له»[1]، إنه الإدراك الواعي بأن تأمين الحقوق هو أهم مهام السلطات، لأنه أساس عافية الحياة بكل أبعادها.

والحقوق في الإسلام ليست محل تنازع في أساسياتها، فهذه الأساسيات ثابتة مضمونة مؤكدة بالشريعة الإسلامية وهي مقصد من مقاصد الشريعة الغرّاء ليعيش الفرد المسلم حياته رضيّ النفس، هادىء البال، قرير العين والضمير والوجدان، وبذلك يسهم في تحقيق خيرية ذاته ومجتمعه وحياته على هذه الأرض.

وتأمين الحقوق يتطلّب ترسيخ حراسة السلطة لها، بحيث لا يعتدي معتد على أي حق لفرد أقرّه الشرع له، ولا تقوم جهة ما بمصادرته أو انتقاصه، ما لم يتسبب صاحب الحق نفسه في مصادرته، فإذا ما أُمن الحق الزم بالواجب، فتنمو الحياة وتتطور.

ومن المؤسف ان أمتنا ذات التاريخ العريق في تأمين الحقوق لأبنائها والمحافظة عليها، تتهم اليوم من عديد من المنظمات الدولية بأنها أكثر الأمم انتهاكاً لحقوق الإنسان.

والرسول الكريم يربي المسلمين عموماً وولاة الأمر خصوصاً على تأمين الحقوق لأصحابها دونما هوادة مؤكداً على اتجاهات ثلاثة لتحقيق ذلك هي:

---

(١) ابن جرير الطبر ي، تاريخ الأمم والملوك، مرجع سابق، جـ٢، ص٢٣٨.

٢/ ١ النزاهة:

النزاهة في تأمين الحقوق تعني عدم حرمان إنسان من حق أقرّه الشرع إلا بمبرر شرعي، فواهب الحقوق - سبحانه - هو الحكم العدل في التمتع بها أو مصادرتها، فحق الحياة أو النفس واجب المحافظة عليه من الدولة والمجتمع، ما لم يقم صاحبه بحرمان غيره من هذا الحق بالقتل مثلاً، وفي هذه الحالة يحرم من حق الحياة إذا كان عامداً، وهكذا في بقية الحقوق.

كما تقتضي النزاهة ألا يسوّغ الإنسان الحصول على ما ليس له بحق سواء أكان ذلك لمكانته السياسية أو الاجتماعية أو غيرها، كما يحدث في السطو على ممتلكات الدولة أو إرساء العطاءات أو سواها.

إن حرمان إنسان من حق هو له، أو تسويغ إنسان حقاً ليس له، وجهان لعملة واحدة لا تبتاع إلا الفساد واختلال موازين كرامة الحياة، لأنها تثبّط عزيمة الأول، وترسخ انحراف الثاني، بما يلتوي باستقامة حياة هذا وذاك.

ومن المعروف عن الرسول الكريم أنه كان يقيد من نفسه حتى لا يضيع حق صاحب الحق لدى من بعده، وكذلك فعل الخلفاء من بعده، وكان عليه السلام ـ يسعى مع صاحب الحق إلى خصمه ـ مهما كان الخصم جبارا ـ حتى يؤمنه له، وتوضح ذلك قصة الاراشي.

- «قدم رجل من إراش بإبل فاشتراها أبو جهل ومطله حقه، فشكا إلى زعماء قريش، فقالوا: ذلك الرجل يعديك عليه وأشاروا إلى الرسول استهزاء لعلمهم بعداوة أبي جهل له، ولكن الرسول لم يتردد، وإنما ذهب مع الرجل وطرق الباب على أبي جهل، وقال له: أعط هذا الرجل حقه، فلم يتمالك أبو جهل وقد فوجىء بالموقف وامتقع لونه، إلا أن أعطى الرجل حقه»(١).

وعندما عاقب أبو موسى أحد جنوده بحلق شعره، جعل الرجل شعره في خرقة وسافر من الأهواز إلى المدينة ليقابل عمر بن الخطاب ويقذف في وجهه بالشعر قائلاً: هكذا يفعل بنا عمالك يا ابن الخطاب، ولا يسكت عمر عليها، وإنما يعزم

---

(١) عن ابن كثير، البداية والنهاية، مرجع سابق، جـ٢، ص٤٣ باختصار.

على أبي موسى وهو القائد العام أن يقيد الجندي من نفسه، ويجلس أبو موسى للقصاص ولكن الجندي يعفو . . لقد عرف كل فرد مسلم حقّه فحافظ عليه، وأمنته الدولة له.

والقصص في هذا المجال أكثر من أن تحصر، لقد كان تأمين الحقوق سياسة دائمة لولاة الأمور، دونما تجاوز أو إخلال، مما جعل الناس يتواءمون معهم، يفدونهم بالنفس والنفيس.

٢/٢ : المساواة:

المساواة في أصل الخلق مبدأ من مبادىء الإسلام الثابتة التي كان لها دورها الرئيس في نشر الإسلام، فالإسلام يرفض أي تمايز بين بني البشر بسبب أي عنصر من عناصر الخلق كالأصل أو الجنس أو الشكل أو أي من المقومات الخلقية، لأن الإنسان لا دور له في هذه المقومات ولا اختيار، لذلك لا تفاوت فيها بين إنسان وإنسان. ولكن الإسلام يجعل التفاوت في الكسب أي ما يكسبه الإنسان بجدّه واجتهاده وسعيه وقوله وعمله، وتفعيل ما وهبه الله من قوى مدركة وطاقات ومواهب وملكات وقدرات.

إن الإسلام إذ يؤكد على المساواة بين الأبيض والأسود والعربي والعجمي والقرشي والمولى، يؤكد كذلك على التفاوت في المكتسبات، فليس العالم كالجاهل، ولا المجدّ كالكسول، ولا العامل كالعاطل، ولا المستقيم كالمنحرف، ولا المهذب كالبذيء وهكذا . . إنّه التفاوت في السعي الإنساني، والله تعالى يقول: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ ﴾[1] والرسول الكريم يجعل التفاوت في التقوى وهي جماع كل قول صالح وعمل صالح فيقول:

- «أيها الناس إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم وآدم من تراب، لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى»[2].

---

(١) النجم (٣٩).

(٢) متفق عليه.

- «ليس لأحد فضل على أحد إلا بالدين أو عمل صالح»[١].

وقد وعى المسلمون هذه المفاهيم، فأصبحت التفرقة العنصرية ذات حساسية خاصة بالنسبة للمسلم، يأباها على نفسه، فنجد عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ وهو القرشي العدوي يقول: «بلال سيدنا» وبلال كان عبداً حبشياً، لم يكن قبل الإسلام شيئاً مذكوراً، فأصبح بالإسلام سيد السادة، ولا يذكر اسمه على مدى تتابع السنين والقرون إلا هبّ السامع المسلم قائلاً: «رضي الله عنه». وغدا ملايين المسلمين يتشرفون بتسمية أبنائهم باسمه، لقد رفعه دينه وسمت به تقواه وعلا به سعيه ـ رضي الله عنه ـ.

وقد وصلت هذه الحساسية لدى المسلمين مستوى لم تعرفه البشرية قبلهم ولا بعدهم. لا سيما في إحقاق الحقوق وتدل على ذلك الحادثتان الآتيتان:

- تقدم الإمام علي مع خصم له إلى عمر بن الخطاب ليقضي بينهما، وأدلى الخصم بحجته فقال عمر: ما تقول يا أبا الحسن؟ فتمعّر وجه الإمام علي وبان الغضب في خلجات صوته، وبعدما حكم عمر في القضية تبع علياً وسأله:

- كأنك غضبت مني يا أبا الحسن؟

- أي والله.

- ولم؟

- لأنك لم تسوّ بيني وبين خصمي وقد أُمرنا بالمساواة.

- وكيف ذلك؟

- ناديت خصمي باسمه، وناديتني بالكنية فقلت: «يا أبا الحسن».

ويدرك عمر سبب غضبه، ولم يملك نفسه أن بكى وتفجرت الدموع من عينيه، واحتضن الإمام قائلاً: «يرحمكم الله أهل البيت، فبكم هدانا الله».

- ويشكو أحدهم الخليفة المأمون، ويستدعيه القاضي يحيى بن أكثم، ويمتثل الخليفة ـ رئيس عشرات من دول اليوم ـ ويدخل مجلس القضاء، فيضع له أحد الخدم سجّادة ليجلس عليها، فيغضب يحيى ويقول بصوت عال متهدّج:

---

(١) رواه البيهقي.

- لقد أُمرنا بالمساواة بين الخصوم.

- وما ذاك؟

- لا تأخذ على خصمك شرف المجلس.

ويذهل المأمون من شجاعة يحيى الأدبية، ومجابهته بهذا الموقف برغم تميز علاقته معه، فلا يلبث أن يبتسم ويقول للخادم: «إما أن ترفع سجادتك أو تأتي لخصمي بمثلها».

ويأتي في زماننا هذا من يقول: «هم رجال ونحن رجال» .. نعم ولكن أي نوعية من الرجال كانوا وأي نوعية من الرجال أصبحنا؟

٢/ ٣ تفعيل الحدود:

لم يشرع الخالق ـ سبحانه ـ الحدود ليعطلها الناس، وإنما لتغدو ضمانة لإحقاق الحق وإصلاح مسيرة الحياة، فالقاتل المتعمد يقتل ـ ما لم يعف ولي الدم ـ وبذلك تهدأ نفوس أهل المقتول وأقاربه وعشيرته وقبيلته، فمن حرم ابنهم حق الحياة حُرمه بحكم الشرع، وبذلك لا تتعمق الأحقاد والضغائن والعداوات، ولا تسيل أنهار من الدماء تمدّها أنهار، وكم من حادثة قتل لم يتم فيها القصاص قد جرّت ضياع عشرات أرواح الأبرياء، والسارق يقطع حتى يرى في كل صباح ومساء نتيجة جريرته، وبذلك تهدأ نفوس الأسر التي انتهكت حرماتها وروع أطفالها وسلبت أموالها، فلا تعود تتربص باللص لتعاقبه على فعلته، ويرى الناس مآل هذا، فلا يفكرون في السرقة، ولا تعود الأموال التي جمعت بسهر الليالي وضنك الأيام نهباً لأي لص أو سارق أو قاطع طريق، فيعم الأمن البلاد والعباد.

وهكذا الأمر بالنسبة للزاني والقاذف والسكير وقاطع الطريق ومخيف السبل والمرتد وغيرهم وغيرهم .. والحدود الإسلامية ليست عقوبة لوجه العقوبة، وإنما هي إجراءات موضوعية حازمة لكف الشرّ، ومنع تعمقه واستشرائه، وقطع للعضو المعتل حتى لا يقضي على الجسد كله، وبذلك تقي المجتمع المسلم من استمراء الشرّ والانحراف، وتمكن له من حياة الطهر والعفاف.

وقد بقيت هذه الأمة مصانة الحقوق بتفعيل الحدود قروناً تلو قرون، فحصدت أمن الحياة وكرامتها، ولكنها في الآونة الأخيرة أخذت تدور في فلك الدول الكبرى، وغدت تصدر عن حكم السادة لا حكم الله، وهؤلاء السادة يدركون كل الإدراك مدى وقائية الحدود الإسلامية من شرور الإنسان، لأنهم يطّلعون بأنفسهم على حصاد الجرائم اليومي في بلادهم، ولكنهم لا يريدون لهذه الأمة وقاية ولا علاجاً، فأخذوا في ضغط متواصل على قادة هذه الأمة حتى عطلت الحدود.

إن الأمة القوية تحرص كل الحرص على استقلالية إرادتها وبالتبعية استقلالية قراراتها، وتأبى الانقياد لغيرها والتبعية لمن سواها تحت أي ظرف من الظروف، لذلك نجد الرسول الكريم يؤكد على إقامة الحدود التي تؤمن للفرد المسلم أهم ما يهتم به في حياته الدنيا: دمه وعرضه وماله، وفي ذلك يقول عليه السلام:

- «أقيموا الحدود في القريب والبعيد ولا تأخذكم في الله لومة لائم»[١].

- «إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد..»[٢]

٣- تحكيم العدل:

تحكيم العدل وإحقاق الحقوق صنوان، فلا ضمان للحقوق بدون تحكيم العدل، ولا عدل دون إحقاق الحقوق، فالعدل يعني حصول كل ذي حق على حقه دون زيادة أو نقصان، وعدم تسويغ حق لمن لا حق له بأي قدر كان، وقد قيل: «العدل أساس الملك» فما من ملك من أي نوع يمكن أن يستمر بدون عدل، وإنما يبقى ضعيف البنيان، مزعزع الأركان، لا يصمد أمام أي هزة.

والإنسان بتركيبه المعنوي بعامة يعتبر العدل الروح التي تسري في كيان حياته، وبدونه ينعدم كل معنى لها، فهو الأساس الذي تقوم عليه كرامة الحياة وعزتها، وبه تطيب وتسمو وتتحقق بهجتها ونضارتها وسعادتها حتى لو عاش على الفتات، أما إذا افتقده فإنه لا يستسيغ طعم الحياة، حيث يهتصره القهر والذل والحقد والغضب

---

(١) رواه ابن ماجه.

(٢) رواه البخاري ومسلم.

وتستبد به الهموم، فيغدو كمّا مهملاً في عالم الأحياء أوحياً كميت. حتى لو توافرت له كل أموال الدنيا.

والعدل لا يتحقق بالمنى والأماني، ولا بمجرّد الرغبة فيه والاقتناع به، وإنما يتطلب إيماناً وتقوى وإخلاصاً وتجرّداً، كما يتطلب شجاعة وجرأة وقوة: شجاعة في مواجهة المواقف وجرأة قلب ولسان لإعلان الوقوف مع العدل، وقوة في إنفاذه لا تترك مجالاً للتردد. لذلك يقول عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ «ألا إن القوة ليست طعناً بالرمح ولا ضرباً بالسيف وإنما هي حكم بالعدل. ويعتبر عمر بن عبد العزيز ـ رضي الله عنه ـ العدل أمن الحياة، فيكتب له أحد ولاته على إفريقيا طالباً تخصيص قدر من المال لتحصين مدينته فيرد عليه بكلمتين: «حصنها بالعدل». وصدق ـ رضي الله عنه ـ فالعدل هو الحصن المانع من أي تمرد وأي جريمة.

والعدل في الإسلام كل متكامل في الأمور السياسية كما الاجتماعية كما الاقتصادية، مع العام والخاص، والقريب والبعيد، والمؤيد والمعارض، والقوي والضعيف، فلا استقرار لأمن الحياة ولا كفاية الأداء واتقانه أو الانجاز والابداع إذا فقد العدل، وبالتالي لا رقي ولا نهوض ولا تقدم للمجتمع بدونه، وعليه فإن أي مسؤول في جسم الدولة معني بتحكيم العدل وتعميمه، والزام نفسه وغيره به، حتى يصبح عاماً مشاعاً بين جميع الناس، فلا ظلم ولا تظالم ولا اضطهاد ولا استبداد، لتحرر إرادة المواطن من كل الضغوط التي تتردى بها وتؤول بها إلى السقوط في مهب الريح.

لذلك كله نجد الرسول الكريم يؤكد على ولاة الأمور التزام العدل في كثير من الأحاديث ومنها قوله:

- «أفضل الناس يوم القيامة إمام عادل رفيق . . »[١].

- «ما من إمام عشرة إلا ويأتي يوم القيامة مغلولاً لا يفكّه إلا العدل»[٢].

---

(١) رواه الطبراني.

(٢) رواه أحمد.

- «أحب الناس إلى الله يوم القيامة وأدناه منه مجلساً إمامعادل. . . »[١].

بناء على ذلك كان أهم ما يهتم به ولاة أمور المسلمين إقامة العدل بين الناس، . وكان العدل أهم محفّز لدخول الشعوب المغلوبة على أمرها في الإسلام، وكان للقاضي من الاستقلالية ما يمكنه من إقامة العدل حتى على الخليفة نفسه، ويأخذ الحق منه، ونجد أهم ما يوصى به القادة، سواء في عهد الخلفاء الراشدين أو من بعدهم هو العدل.

هذه هي أهم ضوابط الحياة السياسية الإسلامية: إحكام الأداء وفق شرع الله وسنة نبيّه، وتأمين الحقوق لأصحابها وتحكيم العدل بني الناس، فأصبح كتاب تولية أي مسؤول يتضمن هذه المعاني، ونستعير هنا بعض فقرات الكتاب الذي كتبه طاهر ابن الحسين الخزاعي لابنه عبد الله بن طاهر عندما ولاه المأمون ديار ربيعة، وهو مثال لكتب التكليف في العهد العباسي.

- «عليك بتقوى الله وحده لا شريك له وخشيته ومراقبته وحفظ رعيتك».

«ولا يمنعك حسن الظنّ بأصحابك الحياطة للرعيّة، والنظر فيما يقيمها ويصلحها، فإن ذلك أقوم للدّين وأحيى للسنّة».

- «وأقم حدود الله في أصحاب الجرائم، ولا تؤخر عقوبة أهل العقوبة، فإن تفريطك في ذلك يفسد عليك دينك».

- «والزم السنن المعروفة، وجانب الشّبه والبدع، يسلم لك دينك وتستقيم مروءتك، وإذا عاهدت فف، وإذا وعدت فأنجز، واقبل الحسنة وادفع بها، واشدد لسانك عن قول الكذب والزور، وأقص أهل النميمة، لأن الكذب رأس المآثم، والزور والنميمة خاتمتها».

- «وقم بالحق في رعيّتك، وأنعم بالعدل في سياستهم، واملك نفسك عند الغضب، وآثر الوقار والحلم وإياك والحدّة والغرور، ولتكن ذخائرك البر والتقوى والمعدلة وإصلاح الرعيّة، وإعمار بلادهم، و التفقد لأمورهم، والحفظ لعامتهم، والإغاثة لملهوفهم».

---

(١) رواه الترمذي والطبراني.

- «واقض بالحق، والبس العافية والكرامة، ولا تُحقرن ذنباً، ولا تمايلنّ حاسداً، ولا ترحمنّ فاجراً، ولا تصلنّ كفوراً، ولا تداهننّ عدواً، ولا تصدّقنّ نماماً، ولا تأمننّ غادراً، ولا توالينّ فاسقاً، ولا تتعبنّ غازياً، ولا تحمدنّ مراثيا ولا تحقرنّ إنساناً، ولا تردّنّ سائلاً، ولا تجيبنَّ باطلاً، ولا تخلفنّ وعداً، ولا تمشينّ مرحاً، ولا تركبنّ سفهاً، ولا تفرِّطنّ في طلب الآخرة، ولا تغمضنّ عن ظالم».

- «وأقم العدل، تصلح الرعيّة وتأمن السّبل وينتصف المظلوم وتحسن المعيشة، ويؤدى حق الطاعة، ويرزق الله العافية والسلامة، ويقوم الدين وتجري السنن والشرائع، وعلى مجاريها ينجز الحق والعدل».

«وأقم نفسك للنظر في أمور الفقراء والمساكين ومن لا يقدر على رفع مظلمة إليك، وتعاهد ذوي البأساء ويتاماهم وأراملهم، واجعل لهم أرزاقاً من بيت المال، اقتداء بأمير المؤمنين في العطف عليهم، والصلة لهم، وانصب لمرضى المسلمين دوراً تؤويهم، وقوّاماً يرفقون بهم، وأطباء يعالجون أسقامهم».

«وأكثر الإذن للناس عليك، وأبرز لهم وجهك، واخفض لهم جناحك، وأظهر لهم بشْرك، ولن لهم في المسألة والمنطق، واعطف عليهم بجودك وفضلك، والتمس بذلك الأجر غير مكدّر ولا منّان، واستعن بالله على جميع أمورك فإن الله مع الصلاح وأهله . . . الخ»[1].

إنها تربية رسول الله، محمد بن عبد الله ﷺ فهل من يعقل؟

جـ- التزامات الشعب السياسية

لا أمل في نهوض أمة ما لم يصلح ولاتها ويصلح شعبها معا، كما أنه لا أمل في حياة انسان ما لم يصلح رأسه وجسده معاً، فالأمة كل متكامل، كما أن الجسد كل متكامل، ولا بدّ من سلامة كليهما لتحقيق السلامة، وإذا كنا قد تناولنا ـ فيما سبق ـ التزامات السلطة فإننا هنا نتناول التزامات الشعب التي إذا التزم بها استقامت

(١) عن محمد بن جرير الطبري، تاريخ الأمم والملوك، مرجع سابق، جـ٥، ص١٥٦- ص١٦٠ بتصرّف.

الأمور . ولعل هذه الالتزامات مما لا يمكن حصره في عجالة، فهي متعددة متشعبة، ولكننا نجمعها في أربع التزامات رئيسة، تعتبر جامعة لها وهي :

١ - الطاعة :

إذا اختار الشعب قيادته بملء إرادة الأغلبية وحرّيتها، فإن عليه طاعتها بالمعروف، والمعروف في الإسلام هو كل ما عرفت أحقيته وعدالته وخيريتة بالكتاب والسنّة، فالطاعة في المعروف لازمة لزوما حكمياً، لا مجال فيها للتملّص أو التحلّل أو التحايل، فالطاعة أساس وحدة الصف والكلمة والرأي والموقف، وأساس تكامل الامكانات والقدرات والطاقات التي ترتقي بالأمة.

واختيار ولي الأمر من الشعب إنما يتمّ برأي الأغلبية، ويلتزم به الجميع، لذلك لا مجال في الاسلام، لأن تقول فئة من المسلمين: نحن لم نختر ولي الأمر هذا لذلك لا طاعة له علينا، ولا لأن تقول جماعة هذا قرار أو أمر لم نوافق عليه لذلك لا نلتزم به، فإن مثل هذا التمرّد هو بوابة الفتن الواسعة التي تهدّ قدرات الأمة ومقوماتها.

هذه الطاعة في الإسلام أصل من الأصول المؤكدة بالكتاب والسنة، فيقول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ ﴾[١] .

ويقول الرسول ﷺ :

-«اسمعوا وأطيعوا وأن تأمر عليكم عبد حبشي ... »[٢] .

ونجد الرسول الكريم يولّي في بعض الأحيان الموالي في مهام قيادية عليا، كما ولّي زيد بن حارثة ـ رضي الله عنه ـ المدينة عند خروجه في غزوة بدر الأولى وقيادة جيش مؤته، وجعل التالي له ابن عمه «جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه» وكما ولّى اسامة الجيش المعروف ببعث اسامة، ليرسخ طاعة من تولّى أمراً بغض النظر عن حسبه ونسبه وقبيلته وأصله. وقد أستوعب ذلك المسلمون تماما، وتدل على ذلك حوادث أكثر من أن تحصر في التاريخ الاسلامي ومنها:

---

(١) النساء (٥٩).

(٢) متفق عليه.

- في صفر من سنة ثمان للهجرة أسلم عمرو بن العاص، ولم يمض على إسلامه أكثر من ثلاثة أشهر حتى أرسله ـ عليه السلام ـ إلى السلاسل من أرض قضاعة على رأس جيش من أهل الشرف من المهاجرين والأنصار، وهو تشريف لعمرو من ناحية واختبار لطاعة المسلمين من ناحية أخرى، ولما تجمعت القبائل على السلاسل، أرسل عمرو يستمد الرسول، فأرسل اليه مددا من المهاجرين والأنصار بقيادة أبي عبيدة وفيهم أبو بكر وعمر ـ رضي الله عنهم ـ فقال أبو عبيدة لعمرو: أنا أمير على من معي وأنت أمير على من معك، قال عمرو: لا، إنّما أنا الأمير وأنت مدد لي، فقال أبو عبيدة: يا عمرو، إن رسول الله قد قال لي: لا تختلفا، وأنت إن عصيتني أطعتك، قال عمرو: فأنا أمير عليك، قال: فدونك، فكان عمرو هو الذي يصلي بالناس[1]، وهكذا تأمر حديث الإسلام على أول من اسلم حتى لا يشمخ أحد بسابقته في الإسلام على الآخرين، مع أنّ السابقة مقدّرة.

- «بعد أن أعاد خالد بن الوليد من ارتد من قبائل: أسد وغطفان وطيء وهوازن إلى الاسلام، سار يريد البطاح وعليها مالك بن نويرة، فقال جماعة من الانصار: إن الخليفة عهد الينا إن نحن فرغنا من بزاخة واستبرأنا بلاد القوم ان نقيم حتى يكتب الينا، قال خالد: إن كان عهد إليكم هذا فقد عهد إلىّ أن أمضي، وأنا الأمير والىّ تنتهي الأخبار، وهذا مالك بن نويرة بحيالنا وأنا قاصد إليه بمن معي على الطاعة، ولست أكرهكم، ومضى خالد، وندم الأنصار، فأرسلوا إليه أن أقم حتى نلحق بك، ولم يجدوا بدّاً من الطاعة»[2].

والطاعة في الإسلام ليست تجزيئية، بحيث يطيع الناس فيما يحبون ويعصون فيما يكرهون، وإنما هي طاعة عامة، وهي ليست طاعة عمياء وإنما هي طاعة مبصرة، طاعة في المعروف، ولا رفض لها إلا في حالتين:

١/١: حالة المعصية:

إذا أراد ولي الأمر الناس على معصية فلا طاعة له على المسلمين، والرسول ﷺ يقول:

(١) ابن جرير الطبري، تاريخ الأمم والملوك، مرجع سابق، جـ٢، ص١٤٦-١٤٧ بتصرف.

(٢) المرجع السابق، جـ٢، ص٢٧٢ بتصرف.

-«على المرء المسلم السمع والطاعة، فيما أحبّ أو كره، إلا أن يؤمر بمعصية، فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولاطاعة»[1].

وفي هذه الحالة يرفض الناس الامتثال لأمر ولي الأمر بارتكاب المعاصي، وعليهم معارضته وتوجيهه ومراجعته ومحاججته، فإن عاد امتثلوا طاعته، وإن اصرّ رفضوا أمره، وعلى هذا كان المسلمون، وتدل على ذلك الحادثتان الآتيتان:

- كتب زياد بن أبيه إلى الحكم بن عمرو الغفاري وهو على الصائفة: «إن أمير المؤمنين معاوية، كتب الي أن أصطفي له الصفراء والبيضاء، فلا تقسم بين الناس ذهباً ولا فضّة، واقسم ما سوى ذلك» فكتب إليه الحكم: «إني وجدت كتاب الله قبل كتاب أمير المؤمنين» وقسم الحكم ما توافر عنده من مال بين الناس، ولم يطع زيادا ولا معاوية»[2].

- كتب أبو جعفر المنصور إلى واليه على البصرة أن يغلق نهر ابن عمر، وهمّ الوالي بذلك، فانتدب أهل البصرة وفداً ليراجع المنصور، وتكلم نيابة عنهم سوّار ابن عبد الله، واحتدّ النقاش بين سوار والمنصور، فقال سوّار: يا أمير المؤمنين، إنك تقتل بإغلاقه مائة ألف من أهل البصرة عطشاً، ولما لم يستجب المنصور، قال سوّار: يا أمير المؤمنين: إنّي أحذرك أهل البصرة، قال المنصور: أتخوفني أهل البصرة؟ قال: لا إنما أخوفك دعوة اليتيم والأرملة والمسكين ومن لا حيلة له، فرجع المنصورة عمّا أراده، وكتب إلى واليه معهم أن يكف عن إغلاق النهر.

لذلك فإن المعصية يمكن أن تواجه بالأساليب السلمية والحوار الهادىء الهادف، والحكمة والموعظة الحسنة، وقد يتطور الأمر إلى المقاطعة والعصيان السلمي إذا أصرّ ولي الأمر على المعصية ولكن ليس بالتمرد واللجوء إلى السلاح والاقتتال.

١ / ٢ : حالة الكفر:

أما إذا كفر ولي الأمر فإن الطاعة تنتفي كليا، لأن ولي الأمر إنما اختير لكونه مسلماً ليقود جماعة المسلمين، فإذا كفر لم يعد من الأمة، وأصبح اختياره لاغيا

(١) متفق عليه.

(٢) أحمد بن عبد ربه، العقد الفريد، لجنة التأليف، القاهرة، مصر، جـ١، ص٥٨.

كليا، وفي هذه الحالة تنعدم طاعته كليا، وفي ذلك يقول عبادة بن الصامت ـ رضي الله عنه ـ:

-«بايعنا رسول الله ﷺ، على السمع والطاعة، في العسر واليسر، والمنشط والمكره، وعلى أثرة علينا، وألا ننازع الأمر أهله، وقال: إلا أن تروا كفرا بواحا، عندكم من الله فيه برهان»[١] الأمر الذي يرتب على الأمة ما يأتي:

- أن تكون هناك مرجعية مؤسسية لاثبات الكفر والحكم به، فالكفر البواح من السلطان حالة خطيرة لا تترك لاجتهادات هذا أو نزوات ذاك، فالأمر ليس ذاتيا بحيث يفتي إنسان ما بتكفير آخر على هواه كما فعلت الخوارج، فتشتعل الفتن، وإنما يؤول الحكم في الكفر البواح إلى مؤسسية مختصة، تستطيع استلهام برهان الله تعالى من شريعته بشكل محدد واضح لا يختلف عليه الناس، وبذلك تجتمع آراؤهم على تكفير صاحب الكفر البواح.

-إذا ثبت الكفر البواح فإن خلع ولي الأمر والتمرد عليه وعصيانه والثورة ضده بل وقتاله، لا يعود مهمة فرد واحد أو جماعة واحدة في المجتمع، وإنما واجب الشعب كله بكل فئاته، حتى لا تتاح الفرصة لهذا الذي كفر بأن ينفرد بفئات الشعب وجماعاته الواحدة بعد الأخرى ويسحق إرادة الشعب بما يتوافر له من قوة لا تستطيع مواجهتها جماعة واحدة.

والكفر البواح أمر مستبعد من أي ولي أمر مسلم، ولم يحدث في التاريخ الإسلامي، وإنما الغالب حالات انحراف عن الجادّة، يمكن أن تواجه بالحوار وحتى بالعصيان دون لجوء إلى الاقتتال.

إن الأصل هو التزام ولي الأمر بالمعروف، وعلى هذا الأساس تأتي تربية الرسول الكريم حاثة على طاعة ولي الأمر، لتبقى للأمة قوتها ووحدتها، وتتلافى كل ما يسبب اخفاقها وترديها، وفي ذلك يقول ـ عليه السلام ـ:

- «من كره من أميره شيئا فليصبر، فإن من خرج من السلطان شبرا، مات ميتة جاهلية»[٢].

---

(١) رواه البخاري.

(٢) متفق عليه.

- «من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله، ومن أطاع أميري فقد أطاعني، ومن عصى أميري فقد عصاني»(١).

٢- النصح:

«كل بني أدم خطاؤون . . . » فبنو آدم ليسوا ملائكة ولا معصومين، فلم يعصم الله منهم سوى الأنبياء، لذلك فالخطأ وارد، وإنّما يقوّمه النصح المخلص الأمين، فتستقيم الأمور، وتستقيم باستقامتها الحياة، لذلك نجد الرسول الكريم يجمع الدين في النصيحة: «الدين النصيحة . . . ».

والنصح لولي الأمر ـ على اختلاف مواقعه ـ متعدد الأبعاد، منه النصح الفردي، والنصح الجماعي ونكتفي بهما هنا:

١/٢: النصح الفردي:

ونعني بالنصح الفردي أن يقوم به فرد مسلم موجّها النصح لمن يتولى أي أمر من أمور المسلمين، إذا لمس منه أي قصور أو سوء تصرف أو انحراف عن الجادة، سواء أكان ذلك عمداً أو سهواً أو جهلاً، ويدخل مثل هذا النصح في باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر اللذين يعتبران من أهم واجبات المسلم، وأهم عوامل خيريّة الأمة، وكذلك إن وجد الإنسان نصيحة فيها خير للأمة، يجب ألا يحجبها عن ولي الأمر.

والنصح الفردي قد يأخذ الأسلوب المباشر، وذلك لمن يستطيع الوصول إلى ولي الأمر ومكاشفته ومصارحته بأخطائه، دون أن يشكّل هذا النصح ردّات فعل عكسيّة، ويعتبر هذا النوع من النصح أمانة في أعناق أعوان صاحب السلطان والمقربين منه وأصدقائه ومن اليهم.

وقد يأخذ النصح الفردي الأسلوب غير المباشر عبر الوعظ والإرشاد وخطب المساجد والكتابة في الصحف وإبداء الرأي بأي من وسائل الأعلام الجماهيرية أو بالكتابة مباشرة إلى ولي الأمر إلى غير ذلك من الأساليب التي توصل النصح إلى ولي الأمر دونما توليد رد فعل عكسي.

---

(١) رواه الطبراني.

والاسلام إذ يوجب على الفرد المسلم أن يوالي النصح لولي الأمر، يوجب عليه الالتزام بآداب النصح، وكون هدفه منه هو الاصلاح، والاصلاح يتوخّى صالح القول وصالح الأساليب لتقع النصيحة موقعها وتحقق أهدافها، لذلك تساق النصيحة بأسلوب مؤدب مهذّب حكيم، بعيدا عن العنف والتوتر والفظاظه والتجريح أو الصداميّة والاستفزاز.

وفي الوقت نفسه يوجب على ولي الأمر قبول النصيحة المخلصة بصدر رحب وألا يضيق بها ذرعا، ويعادي من يوجهها.

٢/٢ : النصح الجماعي:

ونعني بالنصح الجماعي أن تقوم به جماعة من المسلمين وليس فردا، وهو الذي أصبح شائعا في معظم بلدان العالم المتقدمة، حيث تقوم مراكز البحوث والدراسات، بموافاة أولياء الأمور بالبيانات والمعلومات الدقيقة الوثيقة حول كل شأن من الشؤون السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وبالآراء والأفكار الموضوعية حول أيّ مفردة من مفرداتها، وأصبح هذا الاتجاه نهجا ثابتا لهذه الدول بحيث لا تقدم على أمر ما قبل اشباعه بحثا ودراسة.

وقد يأخذ النصح الجماعي أسلوب اللجان المتخصصة أو الندوات والمحاضرات أو استقصاءات الرأي العام إلى غير ذلك، وتستخدم كل منها وسائل الإعلام المتاحة.

ومثل هذا النصح يحتاج إلى هامش واسع من حرّية الرأي، وإتاحة الفرصة لاستخدام وسائل الاعلام بحرّية، وعدم تكميم أفواه القادرين على النصح الجماعي من الإعلاميين وخطباء المساجد والعلماء والباحثين ومن إليهم.

وما قيل في النصح الفردي يقال هنا، فلا يساق إلا بالحكمة والموعظة الحسنة وبالتي هي أحسن، لفظا ومحتوى وأسلوبا ومقصدا لتقع النّصيحة موقعها.

والنّصح بكل أشكاله وأساليبه يدل على فعالية الأمة واهتمامها بأوضاعها وحرصها على سلامتها وقوامة مسيرها، وعلى موضوعية القيادات بقبولها النصيحة من أي جهة جاءت، والرسول الكريم يوالي التأكيد في تربيته للمسلمين على بذل النصيحة ومن ذلك قوله:

- «الدين النصيحة»، قلنا: لمن يا رسول الله؟ قال: لله ولكتابة ولرسوله ولائمة المسلمين وعامتهم»[1].

-«من لا يهتم بأمر السلمين فليس منهم، ومن لم يصبح ويمس ناصحا لله ولكتابه ولإمامه ولعامّة المتهلمين فليس مهم»[2].

- «المؤمنون بعضهم لبعض نصحة وادّون وإن بعدت منازلهم وأبدانهم.»[3].

وقد التزم المسلمون بالنصح لأولياء الأمور وبالأساليب الحسنى، فكان لنصائحهم دورها في استقامة الأمور، ومن أمثلة ذلك:

- قدم عقيبة الأسدي على معاوية وكلمه في إصلاح أوضاع قومه، وأراد معاوية أن يقطعه فقال: ما الذي جرأك عليّ؟ قال عقيبة: نصحتك إذ غشّوك، وصدقتك إذ كذبوك، فقال معاوية: صدقت وقضى حوائجه.

- ونصح أعرابي سليمان بن عبد الملك بكلام فصيح بليغ فقال سليمان: لقد سللت علي أقطع سيفيك وهو لسانك، قال الأعرابي: أجل يا أمير المؤمنين ولكن لك لا عليك، فسرّ سليمان وأكرمه وأمر بانفاذ نصائحه.

- وبعد أن أوغل عبد الله بن علي العباسي في قتل بني أميّة وسلب أموالهم استدعى الأوزاعي وسأله:

- ما تقول في دماء بني أميّة؟

- قال رسول الله: لا يحل دم امرىء مسلم إلا بإحد ثلاث: النفس بالنفس، والثيّب الزاني، والتارك لدينه المفارق للجماعة.

- وما تقول في أموالهم؟

- إن كانت في أيديهم حراما فهي حرام عليك، وإن كانت في أيديهم حلالا، فلا تحل لك إلا بطريق شرعي.

---

(١) رواه مسلم والنسائي.

(٢) رواه الطبراني.

(٣) رواه ابن حبّان.

- أوليس لنا الأمر ديانة؟

- كيف؟

- أو لم يوص النبي لعلي؟

- لو كان أوصى له لما حكّم الحكمين.

وغضب عبد الله غضباً شديدا، فانصرف الأوزاعي، ولكن عبد الله لم يلبث أن كفّ عن دماء بني أمية وأموالهم. والحوادث في هذا الشأن أكثر من أن تحصر، وقد كان ولاة الأمور أنفسهم يطلبون النصيحة من العلماء المخلصين فقد روى الغزالي أن هارون الرشيد زار الفضيل بن عيّاض التميمي وقال له:

- عظني يرحمك الله.

- إن أردت النجاة غداً من عذاب الله، فأحبّ للمسلمين ما تحبّ لنفسك، واكره لهم ما تكره لنفسك، وليكن كبير المسلمين عندك أبا، وأوسطهم عندك أخا، وأصغرهم عندك ولداً، فبّر أباك، وارحم أخاك وتحنّن على ولدك.

- زدني رحمك الله.

- «إياك أن تصبح أوتمسي غاشاً لرعيتك فإن النبي ﷺ يقول: «ما من عبد يسترعيه الله رعية، فيموت يوم يموت وهو غاش لهم إلا حرّم الله عليه الجنّة»[1].

فبكى هارون الرشيد بكاءً شديداً حتى اختلجت أضلاعه، وهكذا استقامت أمورهم.

٣- النّصرة:

كثيراً ما يتساءل الناس: هل تحتاج السلطات إلىنصرة شعبها ومناصرته؟ وقد يكون الداعي إلى التساؤل أن السلطات تملك القوة من أطرافها، قوة الجند والسلاح، وقوة المال، وقوة وسائل الإعلام، إلا أن السلطة لا غنى لها عن شعبها مطلقاً، وهي بحاجة إلىنصرته باللسان واليد والمال ونبيّن ذلك فيما يأتي:

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

٣/ ١ : النصرة باللسان :

النصرة باللسان تعني أن تتناول ألسنة الشعب أي منجز من منجزات السلطة بصدق وإخلاص وموضوعية فإذا كان إيجابيا ويحقق خيراً للشعب والوطن والأمة، تناولته بالتأييد والمعاضدة والمساندة مبرزة جدواه الحقيقية وإنعكاساته الخيّرة على المجتمع، وإذا كان سلبياً ويضير بالشعب والمجتمع والأمة تناولته بالنقد والتقويم والمعارضة، بحياديّة وموضوعية أيضاً، مبرزة آثاره السلبية على الشعب والسلطة معاً.

وكل من الاتجاهين السابقين نصرة للسلطة، لأن تأييد المنجزات الإيجابية يبين للسلطة أنها على الحق وتنحو منحىً سليماً قويماً في إدارة حركة حياة مجتمعها، ولذلك تأخذ في تنمية هذه الاتجاهات الإيجابية وتعزيزها وتطويرها، مما يحقق خيراً لمجتمعها، أو معارضة التصرّفات السلبية ونقدها وتقويمها، ممّا يدعو السلطة إلى إعادة النظر في أساليبها، ويتيح لها التبصر في الأمور، والإطلاع على وقائعها من جميع زواياها وجوانبها، فتكتشف نواحي القصور وتعمل على تلافيها، إلا أن هناك أسلوبين شائعين بشأن القول في السلطان يأبى الإسلام كلاً منهما وهما :

- أسلوب الممالأة للسلطان بحق وبغير حقّ، حيث فرزت طائفة من الناس نفسها لتضخيم إنجازات السلطان والنّفخ فيها وطلائها بألوان جذابة، واستهلاك أنفسهم في تبرير الأخطاء والاخفاقات، وطمس كل عيب حتى وإن ربا على جبل أحد، بل واستخدام الخداع لاظهاره بأنه صواب لا يجاريه صواب وانجاز لا يباريه إنجاز.

وهؤلاء يظنون أنهم يناصرون السلطة بأسلوبهم هذا، وهم على العكس يطعنونها طعنات قاتلة، إذ يحرمونها اكتشاف الأخطاء وكل عمليات المراجعة والتقويم وتلافي نواحي الخلل والزلل والقصور فتغرق في سوء أعمالها من حيث تدري ولا تدري.

ومما يؤسف له أن تستمريء بعض السلطات هذا الأسلوب وتأخذ في تشجيع أصحابه، واغداق الأموال والأوسمة والمناصب عليهم، فتسير كل الأمور من السيء إلى الأسوأ، وهذا ما هو حادث في معظم البلدان المتخلفة.

- أسلوب عداء السلطان، وبحق وغير حق أيضاً، حيث تجعل طائفة من الناس همّها الأكبر تصيّد أخطاء النظام والسلطات، أو ما تظنه أخطاءً، وتطير بها في كل حدب وصوب، لتستقطب كره الناس لهذه السلطات ومناوأتهم لها ونقمتهم عليها، فتشعل الفتن في كل الأرجاء، وتشلّ قدرات النّاس، وتقضي على استقرارهم وبالتالي قدرات السلطات وفعالياتها، وفي الوقت نفسه تطمس كل إنجاز حقيقي للسلطة، بل وتظهره بأنه فشل وقصور، فتنعدم رؤية الحقائق على الناس، ويلتبس الحق بالباطل.

ومن المعروف أن الإسلام يرفض كلا من الاتجاهين السابقين، اللذين يفرِط أولهما في التبرير كما يفرِط الآخر في التشهير، فالقصدية الرئيسة في الإسلام هي إظهار الحق والحقيقة، سواء أكانتا مع السلطات أو ضدها، فعلى أساس من الحق والحقيقة تعالج الأمور، دون أي تجاوز.

ولذلك يقف الإسلام موقفاً رافضاً لأي من الأسلوبين السابقين، ويؤكد الرسول الكريم في تربيته للمسلمين على تلافي كل منهما، فيقول في الفئة الأولى:

- «إذا رأيتم المدّاحين فاحثوا في وجوههم التراب»[١].

- «إن الله ليغضب إذا مدح الفاسق»[٢].

وفي ضبط توجهات الفئة الثانية يقول:

- «من أهان السلطان أهانه الله»[٣].

- «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً» قال رجل: «يا رسول الله، أنصره مظلوماً، أرأيت إن كان ظالماً كيف أنصره؟ قال: تمنعه من الظلم فإن ذلك نصره»[٤].

- «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده . . »[٥]

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه البيهقي.

(٣) رواه الترمذي.

(٤) رواه البخاري.

(٥) رواه البخاري.

٣/ ٢ النصرة باليد:

نصرة ولي الأمر باليد، ومثله كل سلطة شرعية يعني أن يقف المسلمون بالقوّة ضدّ أي تجاوز على ولي الأمر أو السلطات الشرعية، سواء أكان هذا التجاوز داخلياً أو خارجيا، لتمكينها من القيام بمهامها في أجواء يحوطها الأمن والاستقرار، ولا يتهددها التمرد والعصيان ومن أمثله ذلك:

- **التجاوزات الداخلية**: يوجب الإسلام على كل مسلم أن يتصدّى بالقوة لكل نوع من هذه التجاوزات، كالتصدّي للعابثين بالأمن، واللصوص وقطاع الطرق وتجار المخدرات والموبقات والمهرّبين ومن إليهم ممن يعيثون فساداً في المجتمع، سواء أكان ذلك بمبادرات ذاتيّة أو بالتعاون مع السلطات المعنيّة، ولذلك جاء في الحديث الشريف: «من رأى منكم منكراً فليغيّره بيده . . .»[1]، أما ما هو شائع اليوم من اللامبالاة بحيث يرى الإنسان جاره يعتدى عليه أو تسلب أمواله أو ينتهك عرضه، ولا يحرك ساكناً، بل ولا يكلف نفسه مجرد الاتصال بالسلطات المعنية، فليس من الإسلام في شيء، وهذه أخلاق سلبية قد تودي بأمن المجتمع كله وبالتالي تتردى باستقراره وفعالياته وتسهم في تخلفه واضطرابه.

ومن التجاوزات الداخلية التي يجب ان يتصدى لها الشعب بالقوّة، قيام بعض قيادات الجيش باستلاب الحكم من السلطات الشرعية بقوة السلاح كما يحدث في الانقلابات العسكرية، فإذاكانت السلطات شرعية أي جاءت إلى الحكم باختيار الشعب اختياراً حراً نزيها، فإن كل اعتداء عليها يعتبر بغياً، ويعتبر الإنقلابيون بغاة، يجب التصدّي لهم بكل قوة متاحة، انتصاراً للشرعية، مهما بلغت التضحيات، وإلا غدت السلطة نهباً لكل ناهب، وتمزقت مصالح الشعب شرّ ممزق. أما وقوف الشعب موقف اللامبالاة كذلك فيأباه الإسلام كلياً، لأنه سبيل تردي الأمة.

وإذا استقرأنا التاريخ نجد المسلمين يبادرون ذاتياً للتصدي لكل من تمّرد على السلطة الشرعية وأراد استلابها، فقضوا على تمرد المختار والخوارج وابن الأشعث والصفّار والزّطّ والقرامطة والزنج والخرمية وغيرهم وغيرهم. وقد كان لتواني المسلمين عن نصرة الخليفة الراشد الثالث عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ مع أنه

---

(١) رواه مسلم.

كان لهم عذرهم الواضح بأنهم لم يخطر على ذهن أحد منهم أن الخلاف في الرأي سيؤدي إلى قتل الخليفة - قد كان له اسوأ الأثر على الحياة السياسية الإسلامية بعامة، وبقيت الأمة تعاني منه ردحاً طويلاً من الزمن.

وكم من ثورة شعبية في زماننا هذا قامت في وجه الانقلابيين، واستطاعت أن تعيد العسكر إلى ثكناتهم والتخلي عن السلطة لأصحابها الشرعيين، ولكن أمتنا وقفت موقف اللامبالاة تجاه هذه الاعتداءات على السلطة، فجنت طغيان العسكريين وضياع البلاد والعباد.

- **التجاوزات الخارجية**: وهذه التجاوزات تتناسب عكسياً مع قوّة الشعب، فقوة الشعب متكاملاً - الراعي والرعية - كلما ازدادت أجبرت التجاوزات الخارجية على التراجع، وكلما تناقصت أغرت التجاوزات الخارجية بالتزايد والتفاقم، سواء أكانت اقتصادية أو سياسية أو عسكرية.

إن الإسلام يجعل الجهاد فرض عين على كل مسلم إذا اعتدى معتد على ديار المسلمين، وكل قادر يصبح جندياً في جيش الأمة بتعبئة عامة تتصدى للعدوان وتردع المعتدين وترسخ هيبة الأمة، فجيش الأمة يساوي عددا جميع القادرين على حمل السلاح، مما يوجب على السلطات إعداد وتدريب وتأهيل هؤلاء للتصدي للعدوان - كما سيأتي - وألا تقتصر حماية الأوطان على الجيش الرسمي.

لقد أخذت الدولة الإسلامية منذ عهد المعتصم العباسي بالجيش الرسمي، إذ كون جيشاً من الأتراك والفراغنة والموالي والمغاربة والأشروسنيّة وغيرهم، ولعل ذلك كان السبب في بداية الانحدار إذ سرعان ما عاث هؤلاء بأمن الأمة وتمزيق سلطاتها بعدما قتلوا المتوكل، ومع ذلك كان من سمّوهم «المتطوّعة» في كل معركة يزيدون على أعداد الجيش الرسمي .. ولكن الأمر اختلف في زماننا هذا مما جرّ على الأمة الويلات.

إن الإسلام ينظر إلى الأمة ككل متكامل، سلطاتها وشعبها، ولابقاء لها ما لم تحرص السلطات على سلامة شعبها، والشعب على سلامة سلطاته، وفي ذلك يقول الرسول الكريم:

- «المؤمن للمؤن كالبنيان يشدّ بعضه بعضاً»[١].

٣/٣: النصرة بالمال:

ما من نشاط يجري على الأرض بدون مال، وما من خدمات تنجز بعيداً عنه، فقد اصطلحت البشرية منذ زمن طويل على أن تقوّم السلع بمختلف أنواعها بالمال وكذلك الخدمات المؤداة صغرت أم كبرت. والمال بالنسبة للمسلم عارية مستردّة فهو مال الله وهو مستخلف فيه يكسبه من حلّه وينفقه في حقه، ومن الحقوق التي ينفق فيها المال في الإسلام نصرة ولي الأمر بالبذل في وجوه الخير اللامتناهية التي تعود على المجتمع والأمة بالخير.

إن السلطات ترتب عوائدها المالية بما يتناسب مع موازناتها التشغيلية وخططها التنموية، وهي في الأوضاع العادية لا تجيز لنفسها، ولا يجيز الإسلام لها، أن تمدّ يدها إلى ما في أيدي الناس، فالنظام يؤمن للمال الفردي حمايته، كما يؤمن للمال الجمعي حمايته، فيحفظ للفرد ماله ـ ما دام يؤدي حق الله في المال ـ وللسلطة مالها ما دامت كذلك.

ولكن الحياة لا تسير على الوتيرة الاعتيادية دائماً، فهناك ظروف غير اعتيادية لا يحسب لها حساب في الموازنات التشغيلية، والتي قد تطرأ وقد لا تطرأ، ومن ذلك: الزلازل، والفيضانات، والحرائق، والفتن، والحروب والقحط والجدب والكساد.. الخ فما الموقف إزاء هذه النوازل؟

يوجب الإسلام على الشعب بكل أفراده القادرين أن يبذل من ماله لمواجهة هذه الحالات طائعاً مختاراً فإن لم تف الأموال التطوعية، للسلطة أن تستدين من ذوي القدرات الماليّة، وإن تعذر ذلك أو لم يكف فلولي الأمر أن يفرض على القادرين قدراً من المال يغطي مجموعة الاحتياجات الطارئة، على أن يقترن هذا الإجراء بموافقة الشعب أو ممثليه، وأن يوقف بمجرد انتهاء الحدث الطارىء.

والرسول الكريم ﷺ يحث المسلمين على البذل في الحق في أحاديث عديدة منها قوله:

---

(١) متفق عليه.

- «لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالاً، فسلطه على هلكته في الحق، ورجل أتاه الله حكمه فهو يقضي بها ويعلمها»[١].

- «اليد العليا خير من اليد السفلى، واليد العليا هي المنفقة والسفلى هي السائلة»[٢].

- «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه، ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرّج عن مسلم كربة فرج الله عنه بها كربة من كربات يوم القيامة، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة»[٣].

٤- التقويم:

التقويم ـ أو التقييم حسب الشائع ـ من قوّم الشيء بمعنى بيّن قيمته، وإيجاد قيمة سلعة ما قد يكون يسيراً بتقدير قيمة المنفعة منها أو بالقياس على قيمة المثل وهكذا، ولكن التقويم المقصود هنا هو تقويم عمل السلطات ومناهجها وأهدافها وخططها وبرامجهاوأساليب تنفيذها والجدوى والعائد منها . . الخ.

مثل هذا التقويم يتطلب علماً ووعياً وخبرة ودراية للقيام بعمليات النقد والفرز والوزن والمحاكمة ثم التصنيف وفق قائمتين: أولاهما، تتضمن نواحي الجودة والتميز والإتقان والإبداع، وتقدير الجدوى والعائد إلى غير ذلك، وثانيتهما، تتضمن نواحي القصور والخلل وسوء التصرف، وتقدير سلبيات ذلك وانعكاساته على السلطة والمجتمع.

والهدف الرئيس من التقويم هو حصر المميزات بهدف تنميتها وتعزيزها وتجويدها وتطويرها، وفي الوقت نفسه حصر المثالب والعمل على تلافيها وتجاوزها والنأي عنها، و كلا الأمرين يصب في صالح ترقية المجتمع وتقدمه.

والإسلام إذ يوجب على الفرد المسلم أن يطيع السلطات وينصح لها ويناصرها، يأبى عليه أن يكون إمّعة، يأخذ بمقولة بعض السلطات: «الغ عقلك

---

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه البخاري.

(٣) متفق عليه.

واتبعني»، وإنما يوجب عليه أن يعلي عقله، ويفعّل فكره، ويستثمر مواهبه، ليميز الحق من الباطل، فيتبنّى الحق وينبذ الباطل، والخبيث من الطيب، فيلتزم الطيب وينأى عن الخبيث وهكذا بالنسبة لكل المتناقضات الحياتية.

ومن الطبيعي أن ينتج عن التقويم بالنسبة لعموم الناس لا سيما القائمين على التقويم موقفان: أحدهما مؤيد والآخر معارض، ونبين موقف الإسلام إزاء كل منهما فيما يأتي:

٤/١ : التأييد:

تأييد السلطات في سياساتها واتجاهاتها وقراراتها، محبب إلى السلطات، فأفرادها كأي ناس من الناس، يحبون أن يمدحوا ويثنى عليهم ويقرّظوا، وهذا ما لا بأس به إن كان ملتزماً الحق والحقيقة، ولكن كثيراً من الناس يودّون أن يأتيهم المدح مجاناً دون جهد يبذلونه أو خير يقدمونه، وفي هؤلاء يقول الله تعالى:

- ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾﴾[1].

إن التأييد ليس ظاهرة سلبية ـ كما اعتاد الناس أن يعتبروها كذلك ـ فهو أحد وجهي التقويم ما دام ملتزماً بالحق والحقيقة، لأنه يبين الايجابيات ويتيح الفرصة لتنميتها وتعزيزها، ولكن إذا جافى الحق أصبح ظاهرة سلبية، لأنه يعزز عشى النظر للأمور، ولا يتيح اكتشاف مواطن الإخفاق وتلافيها.

والسلطات ـ بصفة عامة ـ تنحو إلى تبنّي المؤيدين أو حزب الحكومة كما يسمّون، وإلى تدعيم مواقفهم، ووضع شتى الإمكانات تحت تصرفهم، الأمر الذي قد يغري هؤلاء بممالأة الحكومة والوقوف إلى جانبها بحق أو بغير حق حرصاً على مكاسبهم، وهذا الاتجاه هو الذي يأباه الإسلام الذي يؤكد على التزام الحق والعدل والخير.

والرسول الكريم يربي السلمين على أساس التزام الحق في كل موقف، وأن تنبثق الحقائق من أعماق المسلم دوماً ويتسق إشعاعها مع نبضه الذاتي حراً طليقاً من كل الضغوط وفي ذلك يقول:

---

(١) آل عمران (١٨٨).

- «.. من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت»[١].

- «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك، فإن الصدق طمأنينة، والكذب ريبة»[٢].

- وعن عبادة بن الصامت ـ رضي الله عنه ـ قال: «بايعنا رسول الله على أن نقول الحق أينما كنا لا نخاف في الله لومة لائم»[٣].

٢/٤ : المعارضة:

والمعارضة التي يأمر بها الإسلام هي المعارضة الموضوعية التي لا تسفّ ولا تجور، وإنّما تلتزم الحق والحقيقة. والمعارضة بهذا المفهوم ليست ظاهرة سلبية ولا هدّامة، وإنما هي ظاهرة صحيّة تماماً، تغني العقول بخصوبة الرأي، والأفكار بتفتّح المدارك، وتحقق لولي الأمر والسلطات رؤية الأمور بعيون الآخرين من كل زواياها وأبعادها وجوانبها، المظلم منها والمضيء، من وجهة نظر الناس إضافة إلى وجهات نظر أفرادها، الأمور التي تمكّن من سدّ الثغرات ـ إن وجدت ـ والتصدي للتحديات مهما تعاظمت.

وحتى تكون المعارضة موضوعية بناءة، يجب أن يتاح لها هامش واسع من حرّية الوصول إلى البيانات والمعلومات، لتصدر عن علم، وتنبع من فهم، كما تتاح لها حريّة التعبير عن وجهات نظرها بوسائل الإعلام الجماهيرية، وحرية البحث والدراسة والحوار والنقاش وعقد الاجتماعات وإقامة الندوات والمحاضرات لتتبلور الحقائق وتصب في مجرى تحقيق خيرية الأمة.

والسلطات القوية ترحب بالمعارضة كل الترحيب، وتساندها وتعاضدها وتتيح لها أوسع هوامش الحرية، لأن حصاد فكرها إنما يصب في صالح نهوضها بمهامها، والارتقاء بأدائها، ونشر بذور الثقة بينها وبين شعبها.

أما السلطات الضعيفة فتضيق أفقاً بالمعارضة، وتعتبر كل قول ناقد أو معارض طعناً في أشخاصها وكفاياتها وقدراتها، ولذلك تناصب المعارضة العداء، فتحرم

---

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه الترمذي.

(٣) رواه البخاري.

الرأي الآخر، وتجرّم المعارضين، وتأخذ في مطاردتهم في كل أرض على الأرض، لتعدم مقابلة رأيها برأي آخر، ومقارعة حججها بحجج أخرى، ومحاكمة قراراتها بعقلانية منطقية.

والمعارضة لا يمكن أن تختفي كلياً وإنما تتحول من العمل في النور إلى العمل في الظلام، بعيداً عن سمع السلطة وبصرها، وكلما زادت السلطة في القمع زادت المعارضة في التمرد وتأجيج نقمة الشعب، وتدريجياً تعزل القمة عن القاعدة، ويفصل رأس الأمة عن جسدها، ويناصب الشعب سلطاته العداء، وتقابل السلطات عداء الشعب بعداء أشد، ويغدو كل منها يتربص بالآخر، وينتظر أن تدور عليه الدوائر، والنتيجة الحتمية زلازل متتابعة وهزات متتالية لا تخلّف إلا الدمار.

وقد وعت أمتنا منذ بداية انطلاقتها توجيهات رسولها ﷺ فأتاح الخلفاء الفرصة للمعارضة أن تظهر في النور وفي وضح النهار لا أن تتخفى في الظلام في دامس الليل، فيقف أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ في أول خطاب رسمي له يقول: «أطيعوني ما أطعت الله فيكم، فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم» ويقف عمر ليقول: «إن رأيتم فيّ أعوجاجاً فقوموني» فيقف أحد عامة الشعب ليقول: «إن رأينا فيك اعوجاجاً قومناه بحدّ سيوفنا» فلا يغضب عمر، ولا يأمر بسجن القائل ولا إعدامه أو تقطيع أوصاله وإنما يقول: «الحمد لله الذي جعل في أمة محمد من يقوّم إعوجاج عمر بالسيف» وتعارضه امرأة في المهور استناداً إلى كتاب الله فيقول: «أصابت امرأة وأخطأ عمر» ويعود إلى قولها لأنه الحق .. إنّها نماذج السلطة القوية التي تنصاع للحق ولا ترتكب مراكب الهوى.

ومن المعروف أن معارضة جماعية من المهاجرين قامت ضد عمر بن الخطاب بشأن ارض السواد، فلم يقمعها ولم يطاردها أو يصادر فكرها، وإنما اقترح على المعارضين «التحكيم» وقبلوا، وشكلت هيئة تحكيم محايدة: خمسة من الأوس وخمسة من الخزرج، وحكمت هيئة المحكمين لصالح رأي عمر، فكان أول قرار موضوعي جامع بشأن أحد اتجاهات السياسة المالية للدولة، وقبل المعارضون ولم يركبوا رؤوسهم، وانتهى الخلاف بين السلطة والمعارضة بكل سهولة ويسر وود ومحبّة، ودونما انتصار للذاتيّة والهوى الشخصي.

والرسول الكريم ﷺ يعلي شأن المعارضة في المجتمع الإسلامي، ويؤكد في تربيته للمسلمين على الوقوف موقف المعارضة تجاه كل اعوجاج، والجرأة في إبداء الرأي ومساندة الحق، ويأبى على المسلمين سياسة السّير العشوائيَ أو ما يسمى «اتّباع القطيع» فيقول:

- «لا يكن أحدكم أمّعة، يقول: أنا مع الناس، إن أحسن الناس أحسنت، وإن اساءوا أسأت، ولكن وطّنوا أنفسكم، إن أحسن الناس أن تحسنوا، وإن أساءوا أن تجتنبوا إساءتهم»(١).

كما يؤكد على عدم التواؤم مع الزيغ وممالأة الأقوياء، وإغماض العين على القذى فيقول:

- «إذا علمت الخطيئة في الأرض، كان من شهدها فأنكرها كمن غاب عنها، ومن غاب عنها فرضيها كان كمن شهدها»(٢).

ويأخذهم بتنمية المقومات الذاتية وعدم وأدها خوفاً أو طمعاً فيقول:

- «لا يحقرنّ أحدكم نفسه»، قالوا: وكيف يحقر أحدنا نفسه، قال: «يجد عليه مقالاً ولا يقول فيه»(٣).

ويأبى عليهم الرضوخ للظلم أو السكوت عليه فيقول:

- «إن الناس إذا رأوا الظالم ولم يأخذوا على يديه أوشك أن يعميهم الله بعقاب منه»(٤).

ويرفض كلياً التأسي بالسلوك المنحرف حتى لو كان من أخص الفئات الخاصة، بل يوجب على العامة معارضة إنحراف الخاصة والعمل على تغييره فيقول:

---

(١) رواه الترمذي.

(٢) رواه أبو داود.

(٣) رواه ابن ماجه.

(٤) رواه النسائي والترمذي وغيرهما.

- «إن الله لا يعذّب العامة بعمل الخاصة، حتى تعمل الخاصة بعمل تقدر العامّة أن تغيّره ولا تغيّره، فذلك حين يأذن الله في هلاك العامة والخاصة»[1].

ويجعل عليه السلام من المعارضة إذا وقع الجور فعلاً، أرفع أنواع الجهاد فقد سأله رجل: أي الجهاد أفضل؟ فقال:

- «كلمة حق عند سلطان جائر»[2].

إن الإسلام يعلي مكانة المعارضة على أن تكون موضوعية وتلتزم الحق والحقيقة، لأنها السبيل القويم لتحقيق استقامة السلطات والتزامها الحق والعدل والخير في إدارة حياة مجتمعها.

(١) رواه الطبراني.

(٢) رواه النسائي.

رابعاً: خلاصة الفصل السادس

السياسة مركز انطلاق الخلافات والمنازعات والعداوات بين الناس، بين القيادة والقاعدة، والحكومة والمعارضة، وفئات الشعب وجماعاته وأحزابه . . الخ.

وأمتنا العربية الإسلامية في عصرها الحاضر ـ لا سيّما في النصف الثاني من القرن العشرين ـ من أكثر أمم الأرض ابتلاء باختلال العلاقات من جراء الخلافات السياسية، نظراً لأن الفكر الوارد أو المستورد حمل معه أيدلوجيات شتى، لا تتوافق مع مفاهيم أبناء الأمة، ولا مع نبض إحساسهم الذاتي، فأشعلت منازعات لا تنتهي، الأمر الذي يتطلب أن يتصدى لهذا البلاء عقلاء القوم حتى لا تبقى الأمة ضاربة في فيافي التيه والضياع.

وهذا الفصل لا يتناول بالتحليل ولا بالتفصيل أياً من المذهب السياسي أو النظام السياسي الإسلامي، فالمجال أضيق من ذلك، وإنما يركز على المفاهيم القويمة من ناحية، وكيف تعامل معها رسولنا الكريم في تربيته للمسلين بحيث لا تمزقهم الخلافات السياسية، فتزيد تردّيهم تسارعاً من ناحية أخرى. وتوجيهاته عليه السلام، سنّة تتبع من المسلمين، وهي ليست وليدة الهوى. وإنما وفق وحي يوحى، لذلك فهي كاملة لا يعتريها نقص الإنسان، ولا ينال منها تغير الزمان أو تطور المكان،و عليه تعتبر دستوراً في السياسة إضافة إلى كونها أصلاً في التشريع.

ولعل هذا الفصل ينير السبيل أمام الأجيال للخروج من المتاهة التي ابتلعتنا على مدى سنوات القرن العشرين، باستلهام هدي المصطفى ـ عليه السلام ـ في ضبط مفاهيمها وممارساتها السياسية، ومن هذا الهدي:

١- يصدر المسلمون عن مذهب سياسي له حاكميّته على كل نظام سياسي ونشاط سياسي وقرار سياسي، على أي أرض إسلامية، ومنطلق المذهب هو الشريعة الإسلامية التي لها القدسية والعصمة والنزاهة والاحترام والتقدير بوصفها

صادرة عن خالق الخلق، وتمثل عهد الاستخلاف من الخالق للمخلوق إذ استخلفه في هذه الأرض.

والشريعة بهذا المفهوم هي المرجعية الرئيسة لكل نشاط يمارسه المسلم على الأرض، ومنه النشاط السياسي، فمقاصد الشريعة هي التي تحدد ما هو صائب وما هو خطأ، وما هو مباح وما هو ممنوع، وما هو حلال وما هو حرام في كل نشاط، وعلى أساس من ذلك تقوم المفاهيم الموحدة أو المتقاربة بين المسلمين، والتي تحفظ لهم توازن اتجاهاتهم وسعيهم في هذه الحياة.

وتقوم الممارسات السياسية الإسلامية بكل أبعادها وفقاً لنظام سياسي إسلامي، يتناول تنفيذ المذهب السياسي على الأرض، وتطبيقه في حياة الناس، ولذلك يتناول مجموعة لا متناهية من التدابير والإجراءات والتنظيمات والوسائل والأساليب التي يتطلبها النظام لضبط الحياة السياسية، وبقدر وعي الأمة وعلمها واجتهادها تكون قوامة النظام، الذي لها مطلق الحرّية في تنظيمه وضبطه وتقويمه وتطويره، ما دام ملتزماً بالمذهب الذي تحكمه الشريعة.

وهذا الفهم لم يعد مستهجنا في وقتنا الحاضر، فما من أمة ولا أيدلوجية، إلا ولها مذهبها السياسي ونظامها السياسي الملتزم به، والذي يجري الارتقاء به وفقاً للفكر المتطور والزمن المتغير، أو الهبوط به إذا تحجر الفكر، وأوقف السعي العقلاني.

٢- ويؤكد المذهب الإسلامي ومرجعيته الشريعة على مسارين رئيسيين لا يجوز تجاوزهما وهما:

وحدة الأمة: هذه الوحدة التي قامت عليها الأمة الإسلامية ونشأت وشبّت وترعرعت، لأنها مجمع الآلام والآمال، والأهداف والغايات، تربط كل فرد فيها بمفاهيم لا تحول، ومسلمات لا تزول، تؤكد على وحدة الدولة الممثلة للأمة، والتي بوحدتها تتوحد الإمكانات والمواهب والقدرات والكفايات والثروات. فتغدو ضخمة مهولة تستطيع أن تصمد في وجه التحديات. كما تؤكد على وحدة القيادة، التي تحول دون شرود الهوى وشذوذ النزوات، وتمزق السلطات، وتقي الأمة التمزق والتشرذم في دول هزيلة وأقطار كليلة، لا تسر صديقاً ولا تغيظ عدواً.

وتؤدي وحدة الأمة والدولة والقيادة إلى وحدة المواقف في كل مجال من مجالات الحياة، مما يعطي للموقف قوة يحسب لها كل حساب.

الشورى: والشورى غدت مركز اهتمام شعوب العالم كله اليوم وإن كانت تسمية الأقوياء الغالبين لها هي الديمقراطية، ففرض السلطة بقوة السلاح أو قوة المال وحشد الاتباع، غدا أمراً ممجوجاً لدى من بقي له عقل من الناس، فأي إنسان يقبل أن يتقدم عليه من يتفوق عليه علماً ووعياً وذكاء وحكمة وخبرة وحنكة، ولا يقبل أن يتقدم عليه أحد لأصله أو ماله أو سلاحه . . الخ.

والشورى قوة للسلطة والأمة والشعب والقرار، لأنها تحمل إلى سدّة الحكم والمسؤولية اكفأ العناصر وأفضلها بكل ما يفضل به الإنسان، وهؤلاء هم الذين يقودون البلاد والعباد إلى العزة والمنعة والقوة والكرامة.

والشورى تعني مشاركة فئات المجتمع ـ كل حسب اختصاصه ـ في صنع القرار وإصدار القرار ـ مباشرة أو عن طريق ممثلي الشعب ومراكز الدراسات والبحوث ـ مما يعني صدور القرار بفكر جماعي، وفكر الجماعة أحكم ـ غالباً ـ من فكر الفرد، كما أن هذه المشاركة تحقق الرضا عن القرار، والحماسة لاتقان تطبيقه، وتفعيل آثاره.

٣- وإذا تم اختيار قيادات الأمة الواحدة بناء على الشورى فإنها تصبح في بؤرة المسؤولية أمام الله والناس، وحتى يكون حساب هذه القيادات يسيراً في الدنيا والآخرة يضع لها الرسول الكريم أسس تربية سلوكية متفوقة تراعي الآتي:

إحكام الأداء: فهي لا يتم اختيارها لترتفع بالمنصب وإنما ليرتفع المنصب بها، ولا يرتفع بها بحكم جنسها أو لونها أو حسبها أو نسبها، أو رتبتها العسكرية، وإنما بكفاءة أدائها للمهام والمسؤوليات المناطة بها، وممارستها للصلاحيات والاختصاصات الممنوحة لها، والأخذ بيد الأمة نحو الاستقرار والتقدم والرخاء.

وكفاية الأداء لا تقتصر على ولي الأمر الأول، وإنما تشمل كل العناصر العاملة تحت قيادته، الأمر الذي يوجب عليه أن يراعي أقصى درجات الأمانة والموضوعية في اختيار هؤلاء، وألا يلجأ إلى العصبية أو النفعية في اختيارهم، وإنما يجعل الدين والكفاءة أساساً لهذا الاختيار.

وكي يتسنى لولي الأمر الارتقاء بكفاية الأداء، يجب أن يحفظ الأمة التي يقودها مما يحفظ منه نفسه وأهله وولده، وأن ينصح للأمة كما ينصح لنفسه وأهله وولده، وأن يرفق بأفرادها وجماعاتها ويتواصل معهم ليعرف مواطن آلامهم وآمالهم، وليعمل على إزالة الأولى وتحقيق الثانية ما استطاع.

ويؤكد ـ عليه السلام ـ في كفاية الأداء على نبذ وتلافي كل ما يهدم كفاية الأداء من ظلم وقهر واستبداد، وغش وتزوير وتمويه وطمس للحقائق، وكذلك الترّفع كلياً عن العزل الاجتماعي، فهو مؤتمن على مجتمع متكامل.

- **إحقاق الحقوق**: وإحقاق الحقوق من أهم مهام ولي الأمر التي يؤكد عليها الرسول الكريم، مما يتطلب نزاهة وجدانية في ممارسة السلطة، دونما ممالأة لأحد أو تعصب على أحد، ومما يتطلب منه ترسيخ المساواة بين جميع أفراد الرعية فلا تفاضل إلا بالدين والعمل الصالح، ولا يتسنى له ذلك إلا بإقامة الحدود على البعيد والقريب، فلا مكانة لقرابة قريب ولا للومة لائم.

- **اتباع العدل**: وهنا القوة الحقيقيّة لولي الأمر التي تتراجع أمامها كل قوة، وبإقامة العدل واتباعه معياراً للتعامل مع كل عضو في المجتمع يتحقق رضا الناس، وتعم سعادتهم، ويعمق إنتماؤهم وولاؤهم للقيادة والمجتمع والوطن والأمة، وتوضع كل الأمور في نصابها الصحيح، ويغدو كل فرد حريصاً على أداء واجباته كما هو حريص على نيل حقوقه.

٣- والقيادات السياسية التي تحقق للأمة ما سبق، لا تهبط من السماء ولا تنبع من الأرض، وإنما تتأتى من إعداد حكيم قويم عبر تعريضها لمواطن الخبرة التي تفرز القادرين الأقوياء المتفوقين، والتي لا زالت كل المجتمعات البشرية تعتبرها أهم من كل شهادة.

والإعداد لا يستهدف شخصاً واحداً أو عدداً محدوداً وإنما كل من تؤنس فيه الكفاءة ابتداء مما يتطلب توسيع قاعدة الإعداد إلى أقصى حد ممكن، ومن خلال هؤلاء يختار الشعب قادته الذين اثبتوا أنهم أهل لها.

وأمر آخر أكد عليه الرسول الكريم وهو المسؤولية المتابعة، بحيث إذا سقط مسؤول في خضم الأحداث، كان التالي له جاهزاً، وقد اتّبعت هذه الأمة تحقيق جاهزية القيادة عندما كتب لها النهوض ولا زالت أمم الأرض تأخذ بها، لتهيىء لشعوبها قيادات كفؤة قديرة.

٤- ويحكم ـ عليه السلام ـ كفايات الأمة، بتربية القاعدة سياسياً كما أحكم تربية القمة، فالشعب الذي يختار قياداته بملء إرادته الحرّة عليه الالتزام تجاه هذه القيادة بما يأتي:

- طاعة هذه القيادة في كل معروف تتبعه أو تسعى إليه، فالطاعة في هذه الحالة لازمة لزوماً حكميّاً، لتبقى للأمة وحدة الصف والكلمة والرأي والموقف والإمكانات والقدرات، فلا عصيان ولا تمرّد ولا ثورة، وكل خلاف يحلّ بالحكمة.

- النصح لهذه القيادة عملياً بالنهوض بالواجبات والمسؤوليات بضمير نقي وعزم قوي، في السلم والحرب، واليسر والعسر، وبذلك يصدر رأي القيادة وفكرها كما تصدر قراراتها عن معين حكمة الشعب كله، كما تسدّد الأقوال ووسائل الاتصال عبر الإعلام والتوجيه والإرشاد كل مسار.

- والشعب ملزم بنصرة قيادته الملتزمة بالحق والعدل والخير، نصرتها بالقول والنصح والإرشاد وبيان رأي الناس، وبالمال بمساندة كل جهد وكل تطوير، وبالقوة بالوقوف في وجه أعدائها أو المتسلقين لانتهاب السلطة.

-والشعب مطالب ـ بحكم مسؤوليته ـ بألا يتبع السلطة معصوب العينين، فهو معني بمتابعة أداء القيادات وتقويم هذا الأداء ونقده ومعارضة ما يضير بمصالح الشعب وسدّ الثّغرات أينما وجدت ويؤكد ـ عليه السلام ـ على أهمية المعارضة الجماعية التي تصبح فعالة وقوية توقف الانحراف وتعيد الأمور إلى أوضاعها السليمة.

الفصل السابع

التربية الاقتصادية



أولًا: المفاهيم العامة

أ - مفهوم الاقتصاد ومجالاته

١ - مفهوم الاقتصاد

اقتصد في الأمر توسط واعتدل فيه فلم يُفرِط ولم يفرّط، والله تعالى يقول: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾[1]، أي معتدل، وعليه فالمقتصد هو الذي لا يسرف ولا يقتّر.

ومن اقتصد خرجت كلمة «اقتصاد»، وغدت اصطلاحاً يعبر عن ذلك المجال الذي يعنى بالتدابير المادية للإنسان، بما يحقق توازنها واعتدالها، وذلك بتأمين توازن احتياجات الإنسان ورغباته من ناحية، وإمكاناته وقدراته المتاحة من ناحية ثانية، كالتوازن بين الدخل والإنفاق، والإنتاج والاستهلاك، والتصدير والاستيراد، وهكذا.

وقد أصبح مجال هذه التوازنات يسمى: «المجال الاقتصادي» والنشاط الذي يسعى إلى تحقيقها يدعى «النشاط الاقتصادي»، ومع الزمن تضامّت هذه المفاهيم تحت ما يسمى: «علم الاقتصاد»، وإن كان هناك من العلماء ومن يعترض على تسمية الاقتصاد علما لعدة أسباب منها:

- إن العلم لا يبنى إلا على حقائق يقينيّة في حين أن الاقتصاد لا زال ظنّياً.

- إن حقائق العلم نواتج التجربة، في حين أن نواتج الاقتصاد لا زالت افتراضية لا تثبت للتجربة.

- في العلم يكون الباحث عن الحقيقة حيادياً حيادية مطلقة، في حين أن الاقتصاد يتأثر جذرياً بآراء الاقتصادي.

---

(١) فاطر (٣٢).

- في العلم تتوافق المخرجات مع المدخلات في حين أن ذلك قلّما يثبت في الاقتصاد الذي لا زال تنبؤيّاً.

لذلك أخذ الاقتصاديون يعملون جاهدين على الارتقاء بالمسلّمات الاقتصاديّة إلى مستوى العلوم التجريبية، متبعين الأسلوب العلمي التجريبي من حيث وضع الفروض وتجربتها واختبارها ومحاكمتها قبل تعميمها، وبرز التحليل الاحصائي الاقتصادي ليساند هذا الاتجاه، ونحا التصنيف الاقتصادي للمدخلات إلى الموضوعية، وأخذت التحليلات الاقتصادية تتقدم في البرمجة والتحليل وقياس النواتج.

وبصفة عامة أصبح الناس يتعاملون مع الاقتصاد كعلم. أخذاً بالمتبع في علوم غيره غير تجريبية، كعلم الاجتماع، وعلم الادارة، وعلم النفس، وعلم الاخلاق، وغيرها، وهكذا وضع لعلم الاقتصاد تعريف محدد هو:

«علم الاقتصاد هو علم إدارة الموارد الاقتصادية، إدارة موضوعية ـ انتاجاً وتوزيعاً ـ لتأمين المتطلبات والاحتياجات المادية اللازمة لحياة الإنسان»[1].

٢- الاحتياجات الاقتصادية:

ما دام الاقتصاد يستهدف أساساً تلبية الاحتياجات الإنسانية، فما هذه الاحتياجات؟

إذ هذه الإحتياجات بمفرداتها متعددة متنوعة متطورة، مما يعني صعوبة حصرها في قائمة واحدة، أو التنبؤ بما تؤول إليه مستقبلاً، وذلك لتغيرها من إنسان إلى إنسان، ومن مكان الى مكان، ومن زمان إلى زمان، فما يعتبر احتياجاً لهذا لا يأبه له ذاك، وما يمثل احتياجاً هنا لا يلقي إهتماماً هناك، وما هو أحتياج اليوم قد لا يكون كذلك غداً.

بناء على ذلك يتعامل الإقتصاديون مع الاحتياجات على أساس إنتظامها في مجموعتين: مجموعة الاحتياجات الطليقة، ومجموعة الاحتياجات المقيّدة، وبيانهما كما يأتي:

---

(١) محمد أحمد صقر، مقدمة كتاب الاقتصاد الإسلامي، المركز العالمي للاقتصاد الإسلامي، جدّه، المملكة العربية السعودية، ط١، ١٩٨٠م، ص٢٦.

٢/ ١ : الاحتياجات الطليقة :

هذه الاحتياجات هي أساس كينونة الأحياء على الأرض، فبدونها لا توجد حياة، ولو وجدت لا تستمر، لذلك حكم الخالق ـ سبحانه ـ بطلاقتها، ومنها: الهواء الجوي بكل مركباته، والنظام الكوني بكل تفاصيله من أشعة الشمس بأنواعها وتفاعلات مكونات الكون وتأثيرها على الأرض التي يعيش فيها الإنسان، من دورة الأكسجين في الجو، ودورة المياه، والحرارة والبرودة والرطوبة والجاذبية والضغط . . الخ .

هذه الاحتياجات طليقة وجوداً، وحيازة، وانتفاعاً، ومجالاً بالنسبة للانسان:

- طليقة وجودا، فوجودها غير مرتبط بالانسان، ولا دور له فيه، ولا يستطيع كفّ وجودها أو منعه .

- طليقة حيازة، بحيث لا يستطيع البشر امتلاكها وحيازتها حيازة كاملة والاستئثار بها .

- طليقة انتفاعاً، فلا ثمن لها، ولكل انسان الحرّية في اشباع احتياجاته منها .

- طليقة مجالا ، فهي مباحة لكل موجودات الكون بما فيها الكائنات الحيّة وغير الحية ولازمة لها جميعها .

هذه الاحتياجات تعمل في الاقتصاد، ولا يعمل الاقتصاد فيها، فما من نشاط اقتصادي يعمل بمعزل عنها، وفي الوقت نفسه لا دخل للاقتصاد في انتاجها أو توزيعها .

٢/ ٢ : الاحتياجات المقيدة :

وهي الاحتياجات التي تؤمّن استمرارية وجود الانسان من مطعم ومشرب وملبس ومسكن ومركب . .الخ . والمادّة الأولية لكل منها موجودة في الأرض والكون والمحيط بها، ولكنها مقيّدة وليست طليقة :

- مقيدة وجودا، لمحدوديتها في الأرض والكون، فبعضها لا يتجدد تلقائياً كطبقة الأوزون، وبعضها لا يتجدد إلا في مدى زمني يحتاج إلى قرون طويلة،

كالمعادن بعامة والغاز والبترول.. الخ، وبعضها إذا انقرض قد لا يستعاد كالحيوانات والنباتات المنقرضة.

- مقيدة استقلالاً: إذ ليس لها استقلالية بذاتها، فهي تبع للاحتياجات الطليقة ولا وجود لها بدونها.

- مقيدة حيازة: فهي ليست متاحة لكل انسان بحيث يأخذ منها بالمجان، وإنما لها ثمن من جهد أو فكر أو مال.

- مقيدة انتفاعاً: فهي لا تصل إلى الإنسان جاهزة كالطليقة، وإنما تتطلب فعلاً بشرياً متوائماً مع السنن والأسباب والقوانين الحاكمة لها، والضابطة لامكانات الانتفاع بها.

هذه الاحتياجات هي من مجال عمل الاقتصاد، الذي يستقطب الجهد البشري في انتاجها وتوزيعها مقابل ثمن محدد، ضمن ثلاث مجالات:

٣- مجالات الاقتصاد:

العمليات الاقتصادية متعددة متنوعة متشعبة، وادارة الموارد الاقتصادية بما يلبّي احتياجات الانسان تقوم على هذه العمليات، التي يرى بعض الاقتصاديين ضمها في مجالين اثنين هما: الانتاج والتوزيع في حين يضيف آخرون الاستهلاك، وعليه نتناول المجالات الثلاثة فيما يأتي:

٣/ ١: مجال الانتاج:

يقوم هذا المجال على تحويل مقومات الاحتياجات المقيدة الخام المتوافرة في الطبيعة إلى منفعة الانسان، بحيث تؤدي دورها في اشباع حاجاته وتحقيق كفايته منها، وبالتالي المحافظة على استمرارية حياته وتيسيرها.

يعتمد هذا المجال على استثمار امكانات ثلاثة عناصر رئيسة هي الأرض، والعمل، ورأس المال، ويضيف بعض علماء الاقتصاد «التنظيم»، وهو الجهد الذي ينظم تفاعل العناصر الثلاثة، بأسلوب متوازن لا يشوبه هدر أو اخلال أو اساءة استغلال، في حين يرى آخرون أن التنظيم عمل يشمله عنصر العمل، لذلك نكتفي ببيان العناصر الثلاثة الرئيسة.

-الأرض:

تعتبر الأرض عنصراً رئيساً في انتاج احتياجات الإنسان، باستثمار سطحها في الزراعة والسكن، وإقامة المصانع والمتاجر، وتوفير خدمات الاتصالات والمواصلات، وباستثمار المياه السطحية بأنواعها ـ الملحة والعذبة ـ أو باستثمار ما في باطنها من معادن ومصادر طاقة ومياه وغيرها.

واستثمار عنصر الأرض في انتاج احتياجات الانسان، يتطلب الحرص على كل مقوّم من مقوماتها، فلا إفساد لبنيتها الأساسية، ولا تلويث لظاهرها أو باطنها، ولا جور في استنزاف خيراتها، لأنها لم تعدّ لجيل واحد، وإنما لأجيال بني الانسان المتتابعة، وهذا ما تعنى به ادارة الاقتصاد.

العمل:

وهو العنصر الوسيط بين عنصري الأرض ورأس المال، فمهما كانت الأرض معطاءة ورأس المال وفيراً، لا يمكن أن يحققا نفعاً بدون **العمل**، فلا زراعة ولا تعدين ولا صناعة ولا تجارة بدون عمل، فالعمل هو الذي يدخل كلا من العنصرين الآخرين في مجال الانتاج، لذلك يعتبر العنصر الأهم في المنظومة الاقتصادية.

والعمل المقصود هنا ليس عملاً عضلياً أو يدوياً أو جسمانياً فحسب ـ كما يتبادر إلى الأذهان ـ وإنما يشمل العمل الفكري والجسماني معاً، حيث يتناول البحث والدراسة والتجريب، كما يتناول التنظيم والبرمجة والتخطيط، والإدارة والتنفيذ والمتابعة والتقويم . . الخ.

وقد أصبح عنصر العمل محل إهتمام كل المنتجين، وفي كل مجال من مجالات الإنتاج، فلم يعد العمل ذلك الجهد الذي يتم عفوياً، وإنما غدت لكل نوعية منه، علومها ومعارفها وخبراتها ومهاراتها وتخصصاتها، التي تتلاقى للارتقاء بالإنتاج إلى المستوى الأفضل، ودقّة التناول لكل من مواد الإنتاج ومدخلاتها، ووسائله وأساليبه، ونوعية المخرجات من مختلف السلع والإحتياجات، ودقّة التعامل مع كل مكون من مكوناته ورعاية أمن وسلامة عنصر العمل ذاته.

لذلك أصبح العامل ـ في معظم المهن الإنتاجية ـ يحتاج إلى تأهيل وتدريب في تخصصات محددة. ومن ثمّ إعادة التأهيل والتدريب دورياً، لاستيعاب المستجدات والتعامل مع المتغيرات.

وإدارة الاقتصاد تعنى بما سبق كله، بتنظيم العمل: اختصاصاته ومهامه وأوقاته وظروفه ورعاية العاملين ـ نفسياً وصحياً واجتماعياً ـ، ومكافأة عنصر العمل مكافأة عادلة.

رأس المال:

يقصد برأس المال كل ما يدخل في عملية الإنتاج ويقوّم بمال من معدات وماكينات وأجهزة وآليات ومواد خام وأبنية ووسائل نقل واتصال وما إليها إضافة إلى النقد السائل. ورأس المال هو العنصر الثالث من عناصر الإنتاج وبدونه لا تتم العمليات الإنتاجية.

وإدارة الاقتصاد لرأس المال تقوم على توفيره، وتوزيعه على مراحل العملية الإنتاجية وعناصرها، وفق أولويات الجدوى والعائد الاقتصادي، وحفظه من الضياع والتآكل والعطل والضرر والتبديد فيما لا طائل تحته، بما يكفل حقوق المستثمر إن كان فرداً، وحقوق المساهمين إذا كان الاستثمار جماعياً.

٣/ ٢ : مجال التوزيع:

كل سلعة تنتج أو خدمة تؤدى لا تقدم لجمهور الناس مجّاناً وإنما مقابل ثمن، ولا يعقل أن يكون الثمن معادلاً للتكلفة أو أقل منها، إذ لا جدوى للمنتج من إنتاجه في هذه الحالة، وإنما يكون ـ عادة ـ بسعر أعلى من سعر التكلفة، وبذلك يكون هناك فائض ثمن وهو ما يُسمى الربح.

وفائض الثمن أو الربح يوزع على العناصر المشاركة في عملية الإنتاج وكالآتي:

-الأجور:

وهي نصيب عنصر العمل المشارك في عملية الإنتاج، ويحتسب حسابها من النقد السائل لأنها تؤدى أولاً بأول ـ يومياً أو شهرياً أو سنوياً ـ ولكنها تدخل في احتساب سعر التكلفة عند تحديد الثمن.

والأجور لا تحدد عفوياً، وإنما بتكافؤ بين الأجر من ناحية، والجهد والإنتاج من ناحية أخرى، ولذلك تراعى في تحديدها مجموعة عوامل منها: مؤهل العامل أو الموظف وتدريبه وخبرته وكفايته ومهاراته، والمهام الموكولة إليه والمسؤوليات المناطة به. . الخ، ونوعية العمل ومدى خطورته، وأوقات ممارسته والتسهيلات الممنوحة له إلى غير ذلك، يضاف إلى ما سبق عاملا العرض والطلب في سوق العمل.

الريع:

الريع هو نصيب عنصر الأرض من عوائد الإنتاج ، ويقدر حسب الظروف الموضوعية للأرض ذاتها: بعدها أو قربها، غناها أو فقرها، سهولتها أو وعورتها ، مجال استثمارها ـ زراعة، صناعة، تعدين تجارة ، سكن. . . الخ ـ والريع إما أن يؤدّى دوريّاً في صورة أجور شهرية، أو لاحقاً على أساس نسبة من العائد، وفي كل الحالات يدخل في حساب كلفة الإنتاج.

والريع قد يكون منفصلاً عن الربح إذا كانت الأرض مستأجرة كما هو حادث مع شركات التنقيب عن البترول في معظم البلاد العربية، وقد يتداخل مع الربح إذا كانت ملكية الأرض للشركة المنتجة، ومع ذلك تبقي النظم الاقتصادية الريع مستقلاً عن الربح حتى وإن كانا لجهة واحدة، وذلك لتحديد السعر الصحيح للسلعة.

الربح:

الربح هو نصيب المال من عوائد الإنتاج ، ويتأتّى من الفرق بين تكلفة إنتاج سلعة ما وثمن بيعها مما يشكل غالباً فرقاً بين الثمنين، بحصول فائض في ثمن البيع عن تكلفة الإنتاج، وهو ما يسمى فائض الثمن أو الربح، ويوزع هذا الفائض على المشاركين في رأس المال ـ إن كانوا جماعة ـ بنسبة مساهماتهم فيه، علماً بأن أساليب التبادل السلعي من المنتج إلى المستهلك هي التي تتحكم في كم الربح.

والربح ـ في الغالب ـ له النصيب الأوفر من عوائد الإنتاج، لا سيّما إذا كان الطلب على المنتج كبيراً، وقدرة السوق (الشراء) عالية، والمنافسة الكميّة أو النوعية متدنّية، وهذا ما يدفع الرأسماليين إلى إجراءين متضادين لتحقيق الأرباح: أولهما،

يقوم على تكثيف الإنتاج بحيث تؤدى الزيادة الكمية إلى زيادة الأرباح، أو تجويد نوعية المنتج بحيث يكون مبرراً لزيادة الأسعار وبالتالي زيادة الأرباح. وثانيهما، يقوم على التآمر على المنتجين المنافسين وإخراجهم من السوق بشتى الوسائل، وبما يتيح الانفراد بالسوق والتحكم في العرض والأسعار والأرباح.

٣/٣: الاستهلاك:

ما من سلعة تنتج إلا لتستهلك، ولولا الإستهلاك لما كان هناك إنتاج ولا توزيع، وبالتالي لا أرباح ولا أجور ولا ريع، ويصبح الاقتصاد غير ذي وجود.

والاستهلاك يتناول كل أنواع السلع والمواد والتجهيزات التي يتم إنتاجها، من مواد غذائية وملابس وأدوية وأبنية وأجهزة ومعدات ووسائل ثقافة واتصالات ومواصلات وخدمات بشتى أنواعها، وكل منتج ييسر حياة الإنسان على الأرض.

والإستهلاك قد يكون داخلياً، بإستهلاك المواطنين لمنتجات وطنهم، وقد يكون خارجياً بإستهلاك مواطني دول أخرى لهذه المنتجات، مما ينشىء عمليتي التصدير والإستيراد، فدولة ما تصدر الفائض من احتياجات مواطنيها إلى دولة أخرى تحتاجه، وتستورد منها ما يفيض عن احتياجات مواطنيها ويلزم مواطنيها هي، وينظم المقاصّة بينهما ميزان المدفوعات، فقيمة كل من المصدر والمستورد ترصد لكل دولة، لتدفع في النهاية الفرق الناتج عن زيادة قيمة المستورد عن المصدر أو تقبض زيادة قيمة المصدر عن المستورد.

ونظراً لتطور احتياجات الإنسان، فقد أخذ الإنتاج ينحو إلى التخصص للوفاء بالإستهلاك، وتمايز في كل قطر الإنتاج الزراعي عن الصناعي عن إنتاج الخدمات، وآل ذلك إلى تركيز دول على نوعية متميزة من المنتجات الصناعية، كالساعات والسيارات والإلكترونات الدقيقة وغيرها، ودول أخرى على نوعية من المنتجات الزراعية كالقمح والأرز والقهوة والشاي والقطن وقصب السكر وغيرها.

مع حرص كل دولة على أن يتكافأ لديها الإستيراد مع التصدير كحد أدنى أو أن تزيد قيمة ما تصدر عما تستورده ليبقى زمام الموقف في يديها، في حين تنشط دول أخرى في الاستيراد لإشباع تطلعات الموسرين إلى الرفاهية، وذلك دون تأمين

تصدير تقابل قيمته قيمة المستوردات، فيختل لديها ميزان المدفوعات وتقع في ربقة الديون الخارجية التي تهدّ قدراتها.

وأوجد التطور الاقتصادي مهن الوسطاء تيسيراً لوصول السلع للمستهلكين، فأصبح لكل سلعة وكيل أو تاجر جملة أو تاجر مفرّق، ولكل واحد من هؤلاء نصيب من الربح الذي لا يقتطع من ربح المنتج وإنما يحمّل للمستهلك، مما أدى إلى التضخم النقدي وتآكل الأجور وتدني مستوى معيشة الغالبية العظمى من أفراد المجتمع، لا سيّما في الدول التي لا تهتم بالضبط الاقتصادي حيث نجد صندوق الفاكهة أو الخضار مثلاً الذي يتفرغ عنه المزارع مقابل عشر وحدات نقدية لا يصل إلى المستهلك إلا مقابل مائة، فيتحمل عشرة أضعاف القيمة الحقيقة للمنتج، مما حدّ من كم الطلب وبالتالي كم العرض وإعاقة الإنتاج.

٤ - التدخل الاقتصادي:

يجري التدخل الاقتصادي لحماية كل من عناصر الإنتاج وفئات المستهلكين، ويختلف هذا التدخل من نظام إلى آخر، ونستعرض فيما يأتي موقف كل من النظام الرأسمالي والنظام الإشتراكي بوصفهما الأكثر شيوعاً في وقتنا الحاضر، وذلك قبل تناول النظام الإسلامي.

٤/ ١ : النظام الرأسمالي:

يشيع هذا النظام في كثير من بلدان العالم، وبصفة خاصة في أميركا الشمالية وأوروبا الغربية واستراليا وعدد من بلدان آسيا وأفريقيا وأميركا الجنوبية.

يقوم هذا النظام على أساس كون التنمية الاقتصادية مهمة القطاع الخاص ـ فرداً كان أو جماعة ـ وأن القطاع العام يجب ألا يتدخل في الاقتصاد إلا في حدود ضيقة جداً لا غنى عنها وفي حالات الضرورة القصوى. وبناء على ذلك تطلق حريات الأفراد في الملكية والإنتاج والتوزيع والإستهلاك وتحديد الثمن . . . الخ، الأمر الذي يجعل الاقتصاد يتحرك داخل دوائر ثلاث هي: الربح للإنتاج، كفاية الإشباع للإستهلاك، كفاية الأجور في التوزيع. أما احتياجات الدولة للنهوض بالبنى التحتية والأمن والتأمينات وغيرها فيأتي تمويلها من الأفراد في صورة ضرائب دخل أو مبيعات أو جمارك أو غيرها.

ولهذا النظام إيجابياته العديدة، حيث ارتقى بسعي الإنسان ودوافعه الذاتية وبالمبادرات الفرديّة، كما أدى إلى حفز إتقان العمل وطلاقة التفكير والابداع والابتكـار ، سعيـاً وراء دخـل أفضـل. وجنـى الأذكيـاء دخـولاً مهـولـة فـي كـل مجال، إضافة إلى أنه حقق إعتداد الفرد بذاته وثقته بنفسه، مما أسهم في الإنطلاق الاقتصادي وتسريع نمائه، والتنافس الفعّال بين الأفراد والشركات والمؤسسات، بحيث أصبح هذا النظام ذا مكانة اقتصادية أولى في الاقتصاد العالمي.

ولهذا النظام سلبياته المدمّرة أيضاً، فقد أدى إستهداف الربح، وزيادة الدخل والمنفعة إلى مآسٍ قد تودي بالدول الرأسمالية كليًّا، فقد غدت لرأس المال المكانة الأولى في تسيير عمليّات الحياة السياسية والإقتصادية والاجتماعية، وتفاوتت الطبقات غنى إلى درجة لم يعرف لها التاريخ مثيلاً، وانتشرت الممارسات الاقتصادية المنحرفة التي لا تراعي أي قدر من الفضائل والقيم والأخلاق، من انتاج المخدرات والاتجار بها إلى قتل المشروعات المنافسة وإخراج الخصوم من الساحة، إلى الاتجار بالأعراض وترويج الموبقات، إلى وضع غصابات الجريمة المنظمة وغير المنظمة في خدمة رأس المال لإذلال المنافسين أو المناوئين، وشاعت شريعة الغاب، ففسدت الحياة وفسد الأحياء.

٤/ ٢ : النظام الاشتراكي:

يشيع هذا النظام في الإتحاد السوفياتي(سابقاً) والصين الشيوعية ودول شرق أوروبا، وبعض دول العالم الثالث، ويقوم النظام على عكس ما يقوم عليه النظام الرأسمالي، إذ يرى أن التنمية الاقتصادية مهمّة المجتمع ـ تمثله الدولة ـ وليست مهمة الأفراد، وأن مصلحة الفرد تكمن في مصلحة الجماعة وليس العكس، لذلك يرفض الملكية الفردية لأي من وسائل الإنتاج، فالدولة هي التي تملكها وتحدد الأجور، أما الريع والربح فيصبان في خزينة الدولة.

ولا شك أن للنظام إيجابياته ومكاسبه، كإشباع حاجات عموم الناس، وتنظيم الإنتاج داخل الضرورات والاحتياجات بمعزل عن متطلبات الرفاهية، والقضاء شبه الكامل على البطالة، وتضييق الفجوة الواسعة بين الطبقات، كما ارتقى بالبنى التحتية بشكل واضح، وحال دون تضخّم رأس المال الفردي وتحكمه في الناس، وتجاوز كثيراً من الأزمات الاقتصادية، وتقدم كثيراً في الصناعات العسكرية.

ولهذ النظام سلبياته التي كان أهم مظاهرها، تردّي الحرّية الفردّية، ووأد شخصية الإنسان، وثقته بنفسه، واعتزازه بذاته، حيث غدا يشعر أنه لا يعدو كونه ترساً في آلة، فتلاشى تطلعه إلى الإبداع والتقدم والرقي والتطور، إضافة إلى ترسيخ ما يسمى بالبطالة المقنّعة، حيث أدى الحرص على توفير فرص العمل للقادرين عليه إلى إثقال الإنتاج بعمالة زائدة تفوق احتماله، كما أدى التحكم في العرض والطلب إلى روتينية الإنتاج والإستهلاك والتوزيع.

ولكن الضربة القاسية التي أصابت النظام كانت من تحكّم حزب واحد ووحيد في جميع مقاليد الأمور، فعمل رجالات الحزب على السيطرة على عيون المال، وتكميم أفواه المعارضين، والقضاء على المنتقدين، وإحكام دكتاتورية الحزب التي أرهبت الشعب، وجعلته يفقد حماسته للنهوض بالحياة، فكان أن انهار النظام في أمنع حصونه ـ الإتحاد السوفيتي ـ .

ب- المعالم الرئيسة للاقتصاد الإسلامي

١ - المذهب الاقتصادي الاسلامي:

لقد أصبح معروفاً أن الأسس والمقننات والقواعد والمسلّمات التي تحكم اتجاهات وحركة الاقتصاد تسمّى «المذهب الاقتصادي» في حين تسمّى كل النشاطات والممارسات والاجراءات التي تقوم على الأرض في المجالات الاقتصادية كلها «النظام الاقتصادي». والنظام الاقتصادي محكوم في أهدافه وتوجهاته ومساراته بالمذهب الاقتصادي.

والمسلم إنما يصدر في كل تحرك له في الحياة الدنيا من مفهوم كونه مستخلفاً من خالقه في الارض، ووفق عهد استخلاف من الخالق ـ سبحانه ـ يضبط حركته، وهو الشريعة الإسلامية ـ كما سبق القول ـ ولذلك فإن كل ماجاءت به الشريعة الإسلامية ـ كتاباً أو سنّة ـ فيما يتعلق بالاقتصاد يشكل المذهب الاقتصادي الإسلامي، الذي يصدر عنه النظام.

ومن المعروف أن المذهب الاقتصادي الشيوعي أو الاشتراكي أو الرأسمالي، لا يبيح مطلقاً أن يتجاوز النظام ثوابت المذهب، فالمذهب الاقتصادي الشيوعي يقضي بأن تكون ملكية وسائل الانتاج للشعب ممثلاً في الدولة لذلك فإن أي محاولة من النظام لخصخصة وسائل الانتاج مرفوضة، وأي محاولة من الأفراد لتملك وسائل الانتاج تواجه بالحديد والنار، والمذهب الرأسمالي يبيح حريّة تملك وسائل الانتاج والتوزيع والتداول، وأي محاولة من النظام للتدخل في هذه الحرية مرفوض كذلك.

والمذهب الاقتصادي الإسلامي له محدداته من الكتاب والسنة فحق الإرث والملكية والعمل وإحياء الأرض . . . إلخ. وتحريم الربا والغبن والغش والاحتكار وإنتاج المحرمات واستهلاكها وتوزيع عوائدها إلى غير ذلك من الثوابت التي لا يجوز للنظام مخالفتها أو التنكّر لها، فهي بالنسبة للاقتصاد الإسلامي تتميز بالطلاقة الحكميّة الظرفية والزمانية والمكانية، فلا تتغير بتغير المكان ، ولا تتطور بتطور الزمان، ولا تتبدل برغبات الإنسان، فالربا مثلاً محرّم مذ كان الإسلام وحتى يرث الله الأرض ومن عليها.

والنصوص الاقتصادية الثابتة في الشريعة «المذهب الاقتصادي» تعتبر لدى كل مسلم ذات عصمة ونزاهة وقدسية، فهي ليست موضع إعادة نظر أو اجتهاد أو إضافة، وليست موضع تحايل أو خداع أو مواربة مهما تتابعت الأزمنة وتغير الناس.

٢- النظام الاقتصادي الإسلامي:

يُعنى النظام الاقتصادي الإسلامي بكل أنواع النشاط الاقتصادي الذي عرفته البشرية في تاريخها الطويل، مذ كانت وحتى اليوم والغد وما بعد الغد على امتداد الزمان، متقيداً بثوابت المذهب، فالمسلم ينتج في كل مجالات الإنتاج، ويستهلك ويوزع، ويبيع ويشتري ، ويؤجر ويستأجر، ويتعامل ويتفاعل في كل مجال اقتصادي ملتزماً بمذهبه فيما يحدده من مباح وممنوع، ومن قيم وأخلاق، فهو لا ينتج محرّماً، ولا يأكل حراماً، ولا يروّج حراماً، ولا يكسب من حرام، وفي الوقت نفسه: لا يرابي، ولا يغش، ولا يحتكر ولا يظلم ولا يجور، ولا يزوّر ولا يسرق ولا يرتشي، إلى غير ذلك مما تحرّمه الشريعة.

والإسلام يصنّف جميع النواتج الاقتصادية ضمن قائمتين، إحداهما قائمة الطيبات ، والأخرى قائمة الخبائث، فيبيح كل نشاط اقتصادي ضمن الطيبات ويمنع كل نشاط اقتصادي يقع ضمن الخبائث ، والحكم على طيب المنتج أو خبثه راجع إلى الشريعة ومحكوم بقوله تعالى: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ﴾[1] .

وعليه فالاقتصاد الإسلامي اقتصاد طيبات، وهو بذلك ليس اقتصاداً حرّاً حرية مطلقة، كالنظام الرأسمالي، وليس مقيداً تقييداً مطلقاً كالنظام الشيوعي أو الاشتراكي، وإنما يقع بينهما بلا إفراط ولا تفريط ، وله شخصيته المستقلّة عمّا سواه .

ومن المعروف أن الإسلام إذ يحدد مبدأ ثابتاً لا يتناول تفاصيله التطبيقية، ذلك أن التطبيقات غير ثابتة، فهي متطورة بتطور العلوم والخبرات والأوضاع بعامة، ولذلك فأي اجتهاد تطبيقي لا عصمة ولا نزاهة له، وإنّما هو غرضة للتحسين والتجويد والتطوير ، ففي الإنفاق مثلاً يحدد الله ـ سبحانه ـ الانفاق ضمن حدود الاعتدال: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا ﴿٦٧﴾ ﴾[2] ولكن ما حدود هذا الاعتدال؟ هذا أمر لا ثبات له، فهو يختلف من مكان إلى مكان ومن زمان إلى زمان ومن قدرات اقتصادية إلى أخرى ومن مجتمع إلى آخر ، ولذلك لا بدّ من أن يخضع للتغير والتبدّل والتطور، وهذا ما يأخذ به الإسلام «المبدأ ثابت والتطبيق متحرّك» .

٣- منطلقات النظام :

٣/ ١ : الاستخلاف في الأرض:

تنطلق المفاهيم الإسلامية من أن الإنسان مستخلف من الخالق ـ سبحانه ـ في كوكب الأرض ﴿ وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗ﴾[3]، وأن تفضيله على العالمين وتكريم ذاته إنما جاء لينهض بمهام هذا الاستخلاف على أفضل وجه

(١) الأعراف (١٥٧).

(٢) الفرقان (٦٧).

(٣) البقرة (٣٠).

وبأعلى كفاية ، بحيث يرقّي فيها الحياة ويعمرها بالحقّ والعدل والخير والصلاح : ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾(١) أي أناط بكم عمارتها بتنمية كل ما هو قابل للنماء فيها، ومن ذلك تنمية المقومات الاقتصادية .

ولينهض الإنسان بالتنمية بعامة والاقتصادية منها بخاصة سخر الله ـ تعالى ـ له موجودات الأرض والكون المحيط بها : ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ﴾(٢)، ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾(٣)، ﴿سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ﴾(٤)، ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾(٥) . والتسخير لا يعني أن تصل خيرات المسخّرات جاهزة للإنسان وإنما عليه أن يعمل لاستثمارها ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا﴾(٦) .

.وما دام الأمر استخلافاً، فإن المستخلَف له أن يجتهد ما وسعه الاجتهاد في تنمية ما استخلف فيه ، ولكن على ألا يخالف أي أمر صادر عمّن استخلفه أو يقدم على أي أمر نهاه عنه، وهذه الأوامر والنواهي ضمنها الخالق سبحانه شريعته لخلقه .

من هذا المفهوم المحدد الواضح يأتي المنطلق الأول لأي نظام إسلامي بما في ذلك النظام الاقتصادي فللمسلم أن يجتهد في كل مجالات التنمية الاقتصادية بشرطين أن لا يخالف أمراً صريحاً تضمنته الشريعة وألا يقدم على أمر نهت عنه .

٣/ ٢ الاستخلاف في المال :

يندرج استخلاف الإنسان في المال ضمن استخلاف الإنسان في الأرض، اندراج الجزء ضمن الكل، ولكن لأن المال بالذات من موجودات الأرض هو مظنة الافتئات على الحقوق لهلع الإنسان على حيازته وجشعه في جمعه فقد أكد الله تعالى

(١) هود (٦١).

(٢) إبراهيم (٣٢).

(٣) إبراهيم (٣٣).

(٤) الجاثية (١٢).

(٥) الجاثية (١٣).

(٦) الأحقاف (١٩).

مفهوم الاستخلاف في المال بشكل مستقل: ﴿وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾[1]، ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾[2].

وملكية المستخلف في المال ليست مطلقة وإنما محدودة تضبطها أوامر ونواهي من استخلفه، وما دام الاستخلاف ليس طليقاً، فإن تصرْف الإنسان فيما هو مستخلف فيه ليس طليقاً أيضاً وإنما محدود بشريعة الله.

وفكرة الاستخلاف في المال تنبع من معين الحق والعدل، فالمالك الحقيقي لأيّ موجود هو الذي أوجده من عدم، وليس من لقيه موجوداً فانتفع به، والإنسان لم يوجد شيئاً من عدم، وإنما انتفع بموجود خلقه الخالق ـ سبحانه ـ فالذي اكتشف الكهرباء لم يوجدها وإنما اكتشف موجوداً واستثمره، والذي فتت الذرّة لم يخلقها وإنما اكتشف منفعة تفتيت موجود، وحتى المزارع انتفع بموجود لم يخلقه فهو لم يخلق التربة وعناصرها الغذائية، ولا الماء ولا الهواء ولا الضوء، وهكذا في كل حقل انتاجي لم يوجد المالك معدوماً، وإنما انتفع بموجود.

وقد وعى العرب المسلمون هذه الحقيقة كل الوعي، حتّى أن الأعرابي الذي سئل على إبله: لمن هذه الإبل؟ قال: «هي لله عندي»، ولا يزال المسلمون اليوم ينطلقون عفوياً وتلقائياً من هذا الفهم فيمد الفقير يده طالباً: «من مال الله».

هذا المفهوم الذي أرساه الإسلام بشأن المال، ارتقى واقعياً بوظيفته، فإذا تم الالتزام به ارتقى بمجال الانتاج ككل، لأن المستخلِف ـ سبحانه ـ يمنع إهلاك المال وتبديده فيما لا نفع فيه، ويمنع كنزه وكف وضعه في دائرة الانتاج، ويجعل فيه حقاً معلوماً للسائل والمحروم والمحتاج مما يوسع قاعدة التوزيع وقدرات الطلب ويدفع إلى زيادة الانتاج والعرض لمواجهة الطلب ـ كماً ونوعاً ـ فتتسارع حركية الاقتصاد ككل.

٤ - مقاصد النظام:

لكل نظام مقاصده، ولعل أهم أربعة مقاصد للنظام الاقتصادي الإسلامي هي ما يأتي:

---

(١) الحديد (٧).

(٢) النور (٣٣).

٤/ ١ : تحقيق الحياة الطيبة :

هذا المخلوق الإنساني مكرّم مفضل عند خالقه ـ جل شأنه ـ أناط به مسؤولية عمران الأرض فترة حياته المحدودة عليها، ولن يتسنى له ذلك إلا إذا كانت حياته عليها طيبة: آمنة هادئة مستقرة مطمئنة عزيزة كريمة. . ، فإذا كانت مقوّمات طيب الحياة كثيرة فإن أكثرها تأثيراً ما يتعلق بتوفير متطلبات الكفاية الاقتصادية لأن فقدانها يؤدي إلى قهر الحاجة وذل الفقر وهوان العوز ، وما يترافق مع ذلك من ضيق وحرج ومرض وإذلال . . إلخ.

والخالق جلّ وعلا ـ لا يقبل أن يتردى عباده إلى هذا المستوى، وإنما يريد لهم حياة طيبة بعملهم ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ﴾[١]، وأن يتجه مأكله ومشربه وملبسه. . .إلى الحلال الطيب ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ﴾[٢]، وأن ينأوا بأنفسهم عن الخبائث، ﴿ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ﴾[٣].

وإذا حصر أي نظام اقتصادي نفسه في دائرة الطيبات ونأى عن الخبائث، فإنه سيصل إلى مستوى عالٍ من القدرة الاقتصادية، فإذا أخذنا بلداً كالولايات المتحدة الأمريكية وحسبنا ما تنفقه على الخمور والمخدرات فقط وهي من الخبائث، لوجدنا رقماً مذهلاً يصل إلى مئات المليارات ، التي كان يمكن أن تنفقها في الطيبات فتزيد كفاية الانتاج والتوزيع والاستهلاك وتصل بكل الشعب إلى مستوى الرفاهية.

والنظام الإسلامي ملتزم حكماً بالطيبات وممنوع حكماً من الخبائث مما يجعله اقتصاداً قادراً بالحتمية ، أما أولئك الذين لا يستطيعون الكسب فلهم في المال حق، ينظمه الضمان الاجتماعي والتكافل الاجتماعي ـ كما سيأتي ـ وبالرغم من بساطة الاقتصاد في العصر الأول للإسلام إلا أنه تمكن بالتزامه بالطيبات وابتعاده عن الخبائث من الارتقاء بالمسلمين اقتصادياً بشكل لم تعرفه البشرية من قبل فقد:

---

(١) النحل (٩٧).

(٢) المائدة (٤).

(٣) الأعراف (١٥٧).

- هزم الفقر في أشح بلاد الله طبيعة، وأقلها موارد، وأندرها عطاء، ولدى أشد الأمم فقراً وأكثرها عوزاً وذلك لأنه:

- كسر حدة الطمع والجشع والأنانية وعبودية المال، فتراجع الغلاء وعمّ الرخاء.

- ورسخ الرضا والقناعة والتعفف فقضى على التبذير ومنع التّقتير. وعمم الاعتدال وقصدية الحلال. وبذلك أسا كلوم الفقراء، وقمع جرائر البؤس، وحطم أغلال العوز وقيود الحاجة.

٤/ ٢ : تحقيق تعبدية الانتاج:

يعاني كثير من المجتمعات من إهدار قوى الانتاج لا سيما قوة العمل حيث انتشر العاطلون بالوراثة الذين ورثوا جهود آبائهم من أموال طائلة، فوجدوا أنهم ليسوا بحاجة إلى العمل والكسب، وما عليهم إلا أن يستمتعوا بحياتهم، ويشبعوا نزواتهم وشهواتهم، أو أولئك المتعطلين بالارادة الذين ارتضوا التسوّل وإراقة ماء الوجه أو استعباد أنفسهم ونزف كراماتهم لدى الأغنياء.

والإسلام يرفض التبطل بكل أنواعه، لأنه هدر لامكانات انتاج احتياجات المجتمع، ويعتبر كل انتاج صالح ملتزم بالشرع، وخالص النيّة لله تعالى عبادة ـ سواء أكان هذا الانتاج مادياً أو أدبياً ـ لكونه عملاً صالحاً، لما فيه من نفع للنفس أو للغير، والعمل الصالح طاعة لله يجزى عليه صاحبه، فيقول تعالى: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾﴾[1].

وغير خاف أن عنصر العمل أهم عناصر الانتاج على الاطلاق، فإذا آمن الإنسان بأن عمله الصالح عبادة لربّه ـ تعالى ـ اختلف الوضع بالنسبة للاخلاص في العمل وكفاية العمل واتقان العمل والحرص على كل مقومات العمل ووسائل الانتاج. مثل هذا الإنسان يؤدي عمله ليس بأمانه واخلاص فحسب وإنما برضا واقتناع وسرور مما يرتقي بانتاجيته، فيحقق ثنائية المنفعة: المنفعة العاجلة بتقدير عمله واخلاصه ومكافأة جهده، والمنفعة الآجلة برضا الله تعالى الذي جعل من العبادة علّة الخلق ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾[2]، ورضا رسوله ﷺ القائل:

(١) الروم (٤٤).

(٢) الذاريات (٥٦).

- «إن من الذنوب ما لا يغفره إلا السعي في طلب الرزق»[(١)].

٤/ ٣ : تحقيق أخلاقية الاقتصاد:

الأخلاق ألزم لوازم الاقتصاد ، لأنه ما من اقتصاد ينعزل عن مجتمعه وتعاونه وتفاعله معه، وما من تعاون أو تعامل أو تفاعل مع انعدام الثقة بالأخلاق من أمانة وصدق وإخلاص، ولكن عبودية المال والجشع والطمع في جمعه وحيازته، أدّت إلى عزل الأخلاق عن ميدان الاقتصاد، فانتشر الغش والخداع والتزوير والتضليل بين المسيطرين على النشاط الاقتصادي بأنواعه، وهذا ما يعود بالضرر عن القائمين على الاقتصاد والمنتفعين به.

لذلك فإن الإسلام يؤكد على التزام كل نشاط اقتصادي بمكارم الأخلاق وعليا الفضائل ومن ذلك:

- لا ملكية لمن يتملك مالاً منقولاً أو غير منقول بأسلوب غير أخلاقي: سرقة، غصب، تحايل.. إلخ ولا حرمة لهذا المال، وبالعكس كل ما يجري تملكه بأسلوب سليم قويم له حرمته وتقديره ، وحمايته من المجتمع ككل.

- لا إنتاج مطلقاً لأي منتج يضير بالأخلاق كالخمور، والمخدرات وأفلام الجنس وغيرها وغيرها، وكل كسب من مثل هذا الإنتاج حرام على صاحبه الانتفاع به أو نفع غيره به.

- رفض أي تبادل تجاري لأي سلعة تضير بالأخلاق، ورفض ترويج أي سلعة حلال بأساليب منحرفة أخلاقياً كالغش والاحتكار والربا والرشوة وشراء الذمم وحرق الأسعار، والتضليل والتزوير.. إلخ.

- رفض أي توزيع لا يراعي الحق والعدل ومكافأة الجهد مكافأة موضوعية، وبصفة خاصة رفض استغلال عنصر العمل وحرمانه من حقه العادل في التوزيع.

- الحجر على استهلاك المحرمات بشكل قاطع أو الإسراف في استهلاك الحلال في غير ما طائل أو التقصير فيه بما لا يلبي الاحتياجات الأساسية.

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

- منع كنز المال وحجبه عن مجال الانتاج، بما يضر بصاحب المال من ناحية، وبالمجتمع من ناحية أخرى

٤/ ٤ تحقيق التكامل الاقتصادي:

الناتج الاقتصادي يحقق المنفعة لمجتمع كامل، لذلك لا يأخذ الإسلام بطلاقة سيطرة الأفراد والقطاع الخاص على الاقتصاد، ولا بسيطرة الدولة نيابة عن المجتمع، وإنما يأخذ بتكامل كل الجهود الفردية والجماعية في دفع عجلة التنمية الاقتصادية ، فالحريّة الفردية في تملك المال وفي ارتياد مجال الانتاج حق لكل مواطن، شريطة ألا يجري تجاوز حدود هذه الحريّة بظلم أو حرام، وفي الوقت نفسه لا يعتبر تملك الدولة لوسائل الانتاج نشازاً، فهي ليست وافدة أو مفروضة على المجتمع ، وإنما جاءت بالشورى والاختيار الحرّ المباشر، فهي من الشعب وله.

إن الإسلام إذ يبيح الحريّة الفردية للتملك، يبيح أيضاً حريّة التملك الجماعية (للدولة) ضمن حدود منها:

- أن تكون الملكية لما لا يجوز أن ينفرد به الأفراد كدور العبادة والأوقاف وأراضي الحمى وغيرها.

- أن تكون مما ينشأ للنفع العام كالمشافي ودور العلم ومراكز البحوث، أو محمية للنفع العام كالكلأ والماء.

- أن تكون مما يخضع لحكم الثروات الوطنية كالمناجم والأنهار والبحيرات والبحار.

- ما تنشئه الدولة للنفع العام، كالطرق والقناطر والجسور والقنوات والموانىء والسدود والمطارات.

وبذلك لا تعارض بين ملكية الفرد، وملكية المجتمع، بل ويبيح النظام قيام مشروعات انتاجية مشتركة بين الدولة والأفراد. ويعتبر الإسلام مصلحة الجماعة مقدمة على مصلحة الفرد ولكن بالحق والعدل، فإذا حصل تعارض تقدم المصلحة العامة مع المحافظة على الحقوق.

ويمكن تحويل الملكية الخاصة إلى ملكية عامة، أو الملكية العامة إلى ملكية خاصة، وفق شرطين رئيسين هما:

- وجود نفع عام يقيني - وليس ظنياً - من عملية التحويل.
- التعويض عن الملكية المحوّلة تعويضاً عادلاً بالتراضي أو بثمن المثل.

ثانيًا: أهمية التربية الاقتصادية

أ- مجالات التربية الاقتصادية

التربية ـ كما سبق القول ـ هي عملية تنمية الإنسان ككل متكامل، ما دام قابلاً للنمو ـ مادياً أو معنوياً ـ لإعداده لأخذ دوره في الحياة بكفاية وقدرة وفاعلية.

والتربية الاقتصادية جزء من التربية المتكاملة، تتركز حول إعداد الفرد الإنساني لأخذ دور فاعل في النشاط الاقتصادي، مما ينفع نفسه ومجتمعه وأمته، على أساس قويم سليم، ينطلق من تفهمه لأسس وأصول ومبادىء المذهب الاقتصادي المعتمد، وكفاية اضطلاعه بالممارسات والنشاطات والعمليات التي يبيحها له النظام الاقتصادي السائد.

والتربية الاقتصادية بصفة عامة تتركز حول مجالات ثلاثة تحكم اتجاهات الاقتصاد هي:

١ : مجال الحقوق:

ما من مذهب اقتصادي أو نظام اقتصادي إلا ويحدد حقوق الفرد والجماعة في المجالات والنشاطات الاقتصادية، ولا ينتفع الإنتفاع الأمثل بهذه الحقوق، إلا من كان على وعي عميق بها ، لذلك فإن التربية الاقتصادية تعنى بتوعية الفرد والجماعة بهذه الحقوق، حتى يحافظوا عليها، ولا تسلب منهم.

والمذهب الإسلامي الذي يحكمه الشرع الإسلامي ويضبط مكوناته، يحدد بوضوح الحقوق الاقتصادية الفردية والجماعية وما يصاحبها من حريّات، كحق الإرث والتوريث، والتملك وحماية الممتلكات، وحق العمل والكسب الشريف، وحق الإنتاج والتداول والإستهلاك والتوزيع ضمن المحددات الشرعية إلى غير ذلك، مما يوجب على كل فرد أن يستوعب هذه الحقوق استيعاباً موضوعياً، يتيح له التصرّف في حدودها، دونما تجاوز على حقوق الآخرين.

واستيعاب الحقوق يرتقي بفاعلية الفرد الاقتصادية في اتجاهين:

-التمسك بهذه الحقوق والمحافظة عليها وصيانتها والدفاع عنها، مما يحول دون عدوان النظام الاقتصادي عليها أو التنكر لها أو استلابها، بدعوى تحقيق المصلحة العامة فلا يفقد الاقتصاد أهم مقومات نموّه ونهوضه وتطوره وهو الأمن الاقتصادي، فضمان الحقوق هو ضمان لتحقيق المصلحة العامة ما دامت المصلحة الفردية لا تعيق أو تتدنى بكفاية المصلحة العامة.

-ترقية النشاط الاقتصادي والفعاليات الاقتصادية بشتّى أنواعها، والتي لا ترتقي إلا في ظلال الحق والعدل حيث يعم الاستقرار النفسي واطمئنان الإنسان بأنه ليس هناك من يقهره بمصادرة حقوقه، ومن ثمّ لا مجال له للإعتداء على الآخرين بحكم النظام، مما يرتقي بالكفايات الاقتصادية الذاتية لكل فرد، ويحقق نهوضاً للنشاط الاقتصادي بعامّة، ولا تلجأ رؤوس الأموال والكفاءات الاقتصادية إلى الهروب من أوطانها.

٢ : مجال الواجبات:

يقابل اكتساب الحقوق، النهوض بالواجبات . والواجبات الاقتصادية الفردية والجماعية تتسع اتساع الحياة ذاتها ، سواء أكان ذلك في مجال الإنتاج وتطوير عناصره، أو المبادلات التجارية والاستهلاك، أو التوزيع العادل، مما يشمل كل جزئية من جزئيات النشاط الاقتصادي.

والإضطلاع بأي نشاط اقتصادي نهوضاً بالواجب لا يتم عفوياً ولا تلقائياً، وإنما يتطلب توعية وتبصرة بأوجهه المختلفة المتنوعة، سواء في ذلك مجالات العمل المتاحة لعنصر العمل، أو الاستثمارات الأكثر جدوى لعنصري الأرض ورأس المال، أو ترشيد الانفاق والاستهلاك، أو تطوير وتحسين وتيسير أساليب ووسائل التبادل، أو المجالات الأكثر جدوى للاستيراد والتصدير إلى غير ذلك.

والتربية الاقتصادية ترتب مجموعة من الواجبات في اتجاهين:

- واجبات على الدولة والنظام، ومنها اعداد عنصر العمل اعداداً متفوقاً لينهض بواجباته الاقتصادية على خير وجه، مما يعني وضع خطط التأهيل والتدريب

المناسبين، واستمرارية تطوير كل منهما، وتنظيم اعداد دراسات الجدوى والعائد للمشروعات الإنتاجية، وتوجيه عناصر الإنتاج إلى أكثرها جدوى، وأجداها للفرد والمجتمع، وتحديد المواصفات والمقاييس والموازين لكل منتَج، ضماناً للإرتقاء النوعي والإتقان المستمر الذي يحقق المنافسة الكفؤة، وفي الوقت نفسه التدخل في نظام العمل والأجورومكافأة الجهد إلى غير ذلك بما يحقق عدالة التوزيع، وفي الأسعار بما يحول دون شطط رأس المال، وتحجيم الكفاية الاقتصادية.

- واجبات على الفرد بألا يلجأ إلى العطالة والبطالة، وألا يلجأ إلى تعطيل أي عنصر من عناصر الإنتاج كتحجير الأرض أو كنز المال أو نبذ العمل، وأن يكون على علم ووعي بمجال الإنتاج الذي يرتاده، وألا يقدم عليه إلا بعد الإطمئنان إلى الدراسات والبحوث العلمية لكل مقوماته، وألا يسهم في تضخيم الطلب على الكماليات بزيادة الاستيراد والاستهلاك، وأن يحرص على الابداع والإبتكار والاتقان، ليحقق المنافسة الكفؤة للمنتج، وألا يلجأ إلى الأساليب التي لا يقرها الشرع ويأباها النظام لتضخيم الأرباح على حساب الاضرار بالآخرين وهكذا.

٣: مجال القيم:

لعل من أهم ما يميز الاقتصاد الإسلامي هو التزامه بمجموعة من القيم الاقتصادية التي أوجبها الشرع، ويرعاها النظام، بحيث يغدو الاقتصاد أخلاقياً، قوامه تحقيق المنفعة ضمن حدود الحق والعدل والخير، حتى لا يتحول إلى تفارس يأكل فيه القوي الضعيف، ويسطو الغني على الفقير، سواء أكان ذلك بسلطان القوة، أو التحايل والتزوير والتّضليل والانحراف عن الجادة.

ويؤكد الإسلام على أن يكون الاقتصاد ملتزماً بالقيم والفضائل الإسلامية، ففي مجال الإنتاج يبيح كل إنتاج نافع، يرتقي بالإنسان ويسهم في خيريّة حياته، وفي الوقت نفسه يمنع أي إنتاج ضار من خمور ومخدرات ووسائل إشاعة الموبقات، وفي مجال التبادل يمنع التبادل المنحرف، كما يمنع الأساليب اللا أخلاقيّة لتضخيم الربح من تحايل وغبن وغش واحتكار. . الخ، وفي مجال التوزيع يأبى الانتفاع بالعوائد الربوية التي أصبحت شائعة، ويوجب عدالة التوزيع بحيث لا يحرم أي

إنسان من حقه العادل في مشاركته في عملية الإنتاج، أما في مجال الاستهلاك فيوجب التقيد بالحدين الشرعيين المعروفين وهما: حدّ الحلال وحدّ الاعتدال.

والقيم الإسلامية تحفظ الاقتصاد من أن يختلّ أو يعتلّ، وتتيح تنامي التعاون الاقتصادي وابداع نماذج من المشاريع الإنتاجية الكبيرة ذات الامكانات العالية والتي أصبحت ضرورة لا غنى عنها لتكثيف الإنتاج وزيادة العرض وتحجيم الأسعار والارتقاء النوعي، بما يعلي قدرات المنافسة، وذلك بما للقيم من دور فاعل في تعميق الثقة بين الأفراد والجماعات والمؤسسات.

ب- أهمية التربية الاقتصادية

الاقتصاد عصب الحياة، وأي اخلال فيه ينعكس سلباً على نوعية حياة الإنسان، لذلك فإن تنمية علوم الإنسان ووعيه وفكره ومناجهه ومهاراته وممارساته الاقتصادية غدت من الأمور الأساسية لتحقيق عافية الحياة وبهجتها ونضارتها، الأمور التي تجعل التربية الاقتصادية ذات أهمية مقدرة لا سيّما بالنسبةلانسان القرن الحالي وما يليه، حيث استحوذ الاقتصاد على تفكيره واهتماماته، الأمر الذي يحتم ألا يترك النشاط الاقتصادي يدور في ساقية العفوية والتلقائية والاجتهادات الفردية، وإنما يجب وجوباً حتمياً أن تربى الأجيال المتتابعة تربية اقتصادية واعية، تضع المجموع الاجتماعي ككل في دائرة الوعي بأهمية الإنتاج وأولوياته وأسسه ومتطلباته والدور الذي يؤديه كل عنصر من عناصره، والارتقاء الكمي والنوعي بذلك كله، وهكذا بالنسبة لكل مجال اقتصادي.

ولعل ما مرّت به أمتنا العربية ولا زالت تمرّ به من فوضى اقتصادية نتجت إبان عصور الإندحار والتخلف، عن عدم تربية المواطن تربية اقتصادية واعية، حيث تركز الانتاج على أدنى المجالات عائداً وجدوى، وفي هذه المجالات تضاءلت مستويات الابداع والابتكار والاتقان والجودة، حتى لم يعد أي منتج منها قادراً على المنافسة حتى على أرضه، وتطلّب تشريعات للحماية الاقتصادية لم تقم بحمايته، وفي الوقت نفسه الوقوع في شكليات حضارية هو في غنى عنها ، مما ضخّم الاستيراد على حساب التصدير، ورسخ التبعية الاقتصادية ، والسقوط في هاوية

الديون الخارجية، واستنزاف مقدرات الأمة والأجيال القادمة للوفاء بالتزاماتها، ولا زال الكثير من ابنائها يكتفي بأن يلوك الكلام، دون اعمال فكر أو تحكيم منطق، فهذا يحرّم تعدد الزوجات، وذاك ينادي بتحديد النسل، وثالث يطالب بإباحة الإجهاض وهكذا، وكأن كل قطر من أقطارنا قد تفوق على الهند أوالصين في عدد أفراده مما يتطلب تحديد عدد سكانه.

إن أهمية التربية الاقتصادية الموضوعية الواعية الحكيمة، تتأتى من تحقيقها ما يأتي:

- ترسيخ حافزية ودافعية استنفار عقول الأفراد وقواهم وملكاتهم ومواهبهم لأحكام اتجاهات وأساليب ووسائل التنمية الاقتصادية الموضوعية التي تراعي أرض الواقع واستثمار معطياته، وتطوير خططها وبرامجها وطرق تنفيذها ومتابعتها وتقويمها، وتنمية مميزاتها وتلافي اخفاقاتها.

- التدرج في خطط الإنتاج من الوفاء بالضرورات إلى تأمين الاحتياجات وتوازن الميزان التجاري الخارجي قبل الاهتمام بالكماليات، وفي الوقت نفسه التخلص من الاتجاهات الانتاجية الوافدة، التي لا تتوافق ومعتقدات الأمة، والتي لا تعلي مكانة ولا تسمو بكرامة، فأمة تبلغ نسبة الفقر فيها ما تبلغه في الأمة العربية الإسلامية بحاجة إلى إنتاج الغذاء والكساء والدواء، وليس إلى إنتاج الخمور والسموم البيضاء، ولا إلى الاستثمار في الكباريهات وصالات القمار والرهان وغيرها.

- تكوين رأي عام عربي اسلامي مناهض للشكليات الحضارية التي سقطت فيها الأمة، شعوراً بالنقص ولجوءاً إلى المباهاة والتفاخر فيما لا فخر فيه، مما تزخر به مجتمعاتنا من سيارات فارهة، وقصور مهولة، ومعاطف فراء ومجوهرات وحفلات وغيرها وغيرها مما تكفي مفردة منها لإطعام آلاف الجياع، وكساء مئات العرايا. ومثل هذا الرأي العام يؤول في النتيجة إلى إزالة الأحقاد والضغائن من بين أفراد المجتمع، ويرسي العلاقات على أسس من المحبة والمودة والتعاون لما فيه خير الجميع.

المال وتحويله الحياة إلى حياة غاب يفترس فيها القوي الضعيف، وضبط الاستهلاك في نطاق الفضيلتين الشرعيتين: الحلال والإعتدال، والوقوف الحازم في وجه كل الأساليب والوسائل المنحرفة والمحرمة، التي هي الداء العضال لكل اقتصاد.

- افراز مجموعات قادرة على استيعاب ما توصلت إليه الأمم المتقدمة في المجال الاقتصادي ـ كما فعلت اليابان ودول شرق آسيا ـ بحيث تستمر البحوث والدراسات والتجارب والأساليب والتقنيات الإنتاجية المتطورة في كل نشاط اقتصادي ـ تجارياً كان أو زراعياً أو صناعياً ـ واقدار هذه المجموعات على الفرز النقدي بحيث يتم توطين ما هو صالح لتحقيق تنمية اقتصادية جادة للوطن والأمة، والفرد والمجتمع.

- وبإختصار يمكن القول أن التربية الاقتصادية تحقق ما يأتي:

* تمكين الفرد من اكتشاف قذراته وتنميتها، والارتقاء بمهارةالعاملين، فالعامل الماهر هو سيد الإنتاج.

* تحقيق كفاية الأداء طويل المدى، من الدقة والإتقان والتنظيم والإشراف واستثمار الوقت والجهد.

* الارتقاء بمستوى القدرات الميكانيكية، استخداماً وصيانة وتوظيفها التوظيف الأمثل.

* حسن استثمار الموارد الطبيعية المكتشفة، واستغلال غير المستغل منها، واكتشاف ما لم يكتشف.

* تنمية الوعى بأهمية العمل ـ اليدوي منه والفكري ـ وتحقيق اتجاهات المرونة والابتكار وتنويع المهارات، واكتساب قدرات الانجاز والإبداع.

* تنمية عادات الادخار والاقتصاد في المعيشة والتركيز على الأولويات، وترشيد الاستهلاك السلعي والخدماتي ومستويات الاختيار، وتنظيم الميزانيات في ضوء الامكانيات، والارتقاء بالوعي الغذائي إلى غير ذلك من الأمور التي تسهم في انضباطية النظام الاقتصادي بعامة.

ثالثاً: التربية النبوية في مجال الانتاج

الهدف الرئيس من تربية الرسول الكريم في مجال الإنتاج، هو تحقيق الاستقلالية الاقتصادية الشاملة للأمة الإسلامية، بحيث تنتج بإمكاناتها الذاتية في اتجاهين: تحقيق الكفاية الداخلية من المنتجات من ناحية، وتصدير جزء من منتجاتها مقابل استيراد ما لا يمكن انتاجه محلياً لسبب أو لآخر، الأمر الذي يوجب على المجتمع المسلم، أن يستثمر كل ما وهبه الخالق من امكانات وقدرات ومواهب لتفعيل الإنتاج واتقانه وتطويره وتنويعه بما يحقق هذا الهدف، ويرتقي بحياته على الأرض، وعلى هذا الأساس اعتبر العمل الحكم العدل على قيمة الإنسان.

والرسول ﷺ يربي المسلمين على الإهتمام بالإنتاج بكل نوعياته، متناولاً الأسس والثوابت والمبادىء، دونما دخول في التفاصيل التطبيقية المتطورة بطبيعتها، والتي ينالها اجتهاد الإنسان عبر العصور، فهو ـ عليه السلام ـ إذ يؤكد ـ على الإنتاج الزراعي، لا يتناول أنواع المزروعات ولا أساليب الزراعة وعملياتها المتنوعة، فهذه أمور متغيرة، وإنما يؤكد على مبدأ الزراعة ذاته، وهكذا بالنسبة لكل عملية إنتاجية ، ومن هنا يقول: «أنتم أعلم بأمر دنياكم»[1]، ودنيا الناس ممتدة متغيرة متطورة متنوعة.

وفيما يأتي بيان توجيهه ـ عليه السلام ـ فيما يتعلق بعناصر الإنتاج الثلاثة الرئيسة:

---

(١) رواه مسلم.

أ- عنصر الأرض

مكونات البيئة الإنسانية من مكونات الأرض وتعود إلى الأرض وتبعث من الارض: ﴿ ۞مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾ ﴾[١]، وعليه فإن احتياجات الإنسان الأساسية محصورة في كوكب الأرض وما يستمدّه من الكون المحيط به، سواء أكان ذلك من المكونات الحية أو غير الحية، لذلك يولي التوجيه النبوي عنصر الأرض اهتماماً مستحقاً ويوجه المسلمين إلى استثمارها، ومن ذلك:

١- عمارة الأرض:

الأرض هي الأرض ولكن تختلف أرض عن أرض بعمارتها، فالأرض التي تترك يباباً خراباً لا تقدم نفعاً يذكر للإنسان، وواجب الإنسان الأساسي تجاه الأرض هو عمارتها. عمارتها بالزراعة لتزود الإنسان بالغذاء والكساء، وتزود أجواءها بكفايتها من الإكسجين وتصون طبقة الأوزون حتى لا يؤدي هلاكها إلى هلاك بني البشر. ولا يقتصر عمران الأرض على الزراعة، وإنما يشمل البناء والتعدين وشق الطرق والقنوات وبناء السدود والقناطر والجسور إلى غير ذلك مما يؤثر نوعياً في حياة الإنسان. أي بوضعها في دائرة الإنتاج والإنتفاع بمذخوراتها، وقد اعتبرت الأرض التي توضع في دائرة الإنتاج أرضاً «حيّة» واعتبرت التي تحجّر وتعزل عن دائرة الإنتاج أرضاً «ميتة»، وشاع مفهوم «إحياء الأرض الموات»، واعتبر إحياء الأرض الموات أحد المنافذ الرئيسة لتملك الأرض وحيازتها.

لذلك كان المنطلق الرئيس بالنسبة لتربية الرسول الكريم ﷺ في تربية المسلمين من حيث الاهتمام بالأرض هو احياؤها من موات، لأن نفعها مقترن بإحيائها، وتلبيتها لاحتياجات بني الإنسان، ومن ثم عمارتها بالأسلوب المناسب وحسب متطلبات النفع الإنساني، علماً بأن الله تعالى ينهى عن الإفساد في الأرض فيقول -

(١) طه (٥٥).

سبحانه ـ ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾[1] فأي إفساد في الأرض إماتة لها، وهو مرفوض في الإسلام الذي يؤكد على الإحياء، فيقول الرسول ـ عليه السلام: -

-«من أحيى أرضاً ميتة فهي له»[2].

- «من أعمر أرضاً ليست لأحد فهو أحق بها»[3].

وعلى هذا المفهوم جرى المسلمون على اعتبار استحقاق حيازة الأرض مرتبطاً بإحيائها وعمارتها، أما من حاز أرضاً ولم يعمرها في مدى زمني معين «ثلاث سنوات» تستعاد منه، منعاً لتحجيرها وعزلها عن مجال الإنتاج، وفي ذلك يقول عمر ابن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ لبلال بن الحارث المزني، الذي أقطعه الرسول أرضاً في العقيق ـ بجوار المدينة: -

- «إن رسول الله لم يقطعك لتحجز عن الناس، وإنما أقطعك لتعمل، فخذ منها ما قدرت على عمارته وردّ الباقي»[4].

ويأخذ الامام علي ـ كرم الله وجهه ـ بمفهوم استمرارية العمارة، فأي عمران للأرض سواء بالزراعة أو غيرها يحتاج إلى استمرارية الخدمات، لذلك كتب إلى الأشتر النخعي عندما كان والياً على مصر يقول:

- «ليكن همّك بعمارة الأرض أكثر من همّك باستخراج خراجها».

وليس خافياً ما قدمه المسلمون في العصور الأولى من نماذج رائدة في عمارة الأرض، إذا ما قورنت بالعصر الذي عاشوا فيه، لا سيّما بعد أن نعمت الدولة بالإستقرار في العصر العباسي الأول، سواء أكان ذلك في مجال الزراعة أو التعدين أو البناء أو إقامة السدود وشق القنوات وبناء القناطر والجسور أو تطوير محطات التجارب الزراعية، وتأمين وتيسير الطرق التجارية، لقد كان الأساس الذي رسخه

(١) الأعراف (٨٥).

(٢) رواه أحمد وأبو داود والترمذي.

(٣) رواه البخاري.

(٤) رواه البخاري.

الرسول الكريم هو «عمارة الأرض» أما نوعية هذه العمارة، وأساليبها ووسائلها واتجاهاتها وأبعادها، فهي محل اجتهاد الإنسان.

٢- حماية الأرض:

حماية الأرض في الإسلام تستهدف تحقيق الأمن الذي يعتبر أساس النمو الاقتصادي، فالإنسان لن يبني ولن يعمّر ولن ينتج أو يستثمر، إلا إذا أمن أنه لن يقهر على التخلي عن جهوده وممتلكاته ولن يحرم منها بتسلط قوي أو تآمر شقي.

والإسلام يعتبر الأرض التي تجري حيازتها بإسلوب شرعي، حقّاً مصاناً مضموناً لمالكها، له حرّية التصرف المشروع فيها، وهذا الحق مضمون من الدولة والمجتمع والجماعة والفرد، مما يوجب على الجميع ردع أي عدوان على هذه الملكية، وبذلك يطمئن المالك ويأمن، ويستطيع أن يعمر أرضه ويرتقي بكفايتها الإنتاجية في المجال الذي يراه، ويسهم في تحقيق كفاية مجتمعه وأمته.

والحماية تأخذ جميع الأبعاد المعروفة من استخدام القوة من السلطان، إلى الانكار بالاتجاه الرافض للرأي العام، إلى دفاع الفرد عن ممتلكاته، وفي الوقت نفسه يؤكد الرسول الكريم على أن ينبع حق الحماية من أعماق الذات الإنسانية، بالترفع عمّا ليس لها بحق، مؤكداً على الموقف القيمي للتصرف من ناحية، وعلى رضا الله ورسوله عنه ومآله في الحياة الأخرى من ناحية ثانية، لتصبح الحقوق مصانة تلقائياً، وتحريم العدوان على الأرض لا يقتصر على الأراضي الخاصة منها، وإنما ينسحب على الأراضي العامة، المخصصة لنفع الجماعة ككل، وفي ذلك يقول ﷺ:

- «من ظلم قيد شبر من أرض، طوّق من سبع أرضين»[(١)].

- «وسئل: أي الظلم أظلم؟ قال: «ذراع من أرض ينتقصها المسلم من حق أخيه»[(٢)].

- «من أخذ من طريق المسلمين شبراً، جاء يوم القيامة يحمله من سبع أرضين»[(٣)].

---

(١) رواه البخاري ومسلم.
(٢) رواه أحمد والطبراني.
(٣) رواه الطبراني.

٣- زراعة الأرض:

يوجه الرسول المسلمين إلى الاهتمام ببعض جوانب عمارة الأرض، ذات التأثير الجذري المباشر على حياة الإنسان على الأرض، وتحقيق كفايته الاقتصادية ومنها الزراعة، التي تراجع اهتمام المسلمين بها اليوم للأسف، وأصبحوا يستجدون المنتجات الزراعية.

والزراعة ـ كما هو معروف ـ تزود الإنسان بإسلوب مباشر بمعظم احتياجاته الغذائية من حبوب وزيوت وفواكه وخضروات وغيرها، وغير مباشر من لحوم وألبان ومنتجاتها، التي تؤمنها الزراعة، بتوفير المراعي والأعلاف للحيوانات اللاحمة واللبونة والطيور الداجنة وغير الداجنة بأنواعها.

وتؤمن الزراعة للإنسان متطلبات الكساء ومواده الخام من قطن وصوف، وتيل وكتان ووبر وفراء وغيرها، كما تؤمن له الأخشاب التي تعتبر من أساسيات إنشاء المساكن لذلك فقد كان توجيه الرسول يؤكد على عدم التفرغ عن الأرض للاستمتاع الاستهلاكي، وعلى عدم إخراجها من دائرة الانتاج التي تهم الحياة البشرية فيقول:

- «من باع منكم داراً أوعقاراً فليعلم أنه مال قمن (جدير) أن لا يبارك فيه إلا أن يجعله في مثله»[١].

ومن المعروف أن المجتمعات الزراعية، التي تحكم استثمار معطيات البيئة واختيار نوعية الزراعة التي تلائمها، وتطوير مقوماتها ومتطلباتها، هي مجتمعات أكثر استقلالية اقتصادية من غيرها من المجتمعات التجارية والصناعية وقلّما تتعرض للجوع او للعري والفقر المدقع، بل وتغدو أكثر رفاهية وغنى من المجتمعات الصناعية والتجارية إذا أحكمت موضوعية المبادلة بين مواردها الزراعية ومنتجات غيرها الصناعية.

لذلك يأتي تأكيد الرسول على الاهتمام بالزراعة كاتجاه عام ـ دون ما تعرض للتفاصيل المتغيرة المتطورة ـ لتأمين كفاية الأمة واستقلالها الاقتصادي والأحاديث في الحث على الزراعة كثيرة منها: قوله ـ عليه السلام ـ:

---

(١) رواه الحاكم.

- «من كانت له أرض فليزرعها، أو ليُزرعها رجلاً»[١].

- «ما من مسلم يغرس غرساً أو يزرع زرعاً يأكل منها طير أو إنسان أو بهيمة، إلا كان له صدقة»[٢].

- «من نصب شجرة (غرسها) فصبر على حفظها والقيام عليها حتى تثمر، كان له في كل شيء يصاب منها أجر»[٣].

- «إذا قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة، فإن استطاع أن لا تقوم حتى يغرسها فليغرسها»[٤].

وعلى هذا التوجيه النبوي الكريم بني اهتمام المسلمين بالزراعة، فقدموا للبشرية خدمات لا تنكر، ومنذ وقت مبكر أقر الخليفة الراشد عمر بن الخطاب مبدأ المعونات الزراعية في رسالته المشهورة إلى أبي موسى الأشعري والتي يقول فيها:

- «إن أبا عبدالله (نافع بن الحارث بن كلدة) ذكر أنه زرع زرعاً بالبصرة، وافتلى أولاد الخيل (ربّاها حرّة بالفلاة) حيث لم يفتلها أحد من أهل البصرة، وإنه لنعم ما رأى، فأعنه على زراعته وعلى خيله»[٥].

٤- المحافظة على ثروات الأرض:

الثروة الحيّة التي تعتمد على الزراعة والمساحات الخضراء من خيل وإبل وأبقار وأغنام وطيور داجنة وغير داجنة مكملة للثروة الزراعية في توفير الغذاء والكساء ومن ثمّ كفاية العيش والحفاظ على صحة الإنسان، لذلك نجد الرسول ﷺ يأخذ المسلمين بالجدّ في المحافظة عليها وتنميتها وفي موضوعية استهلاكها، بحيث لا تبدّد من غير طائل، ثم يلجأ المجتمع إلى استيراد احتياجاته منها والوقوع في براثن الأسر الاقتصادي كما هو حادث اليوم.

---

(١) رواه مسلم.

(٢) متفق عليه.

(٣) رواه أحمد.

(٤) رواه البخاري وأحمد.

(٥) عن يوسف القرضاوي، دور القيم والأخلاق في الاقتصاد الإسلامي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٦، ط١، ص١٧٨.

والأحاديث الشريفة الحاثة على العناية بحيوانات البيئة وطيورها كثيرة تبين النظرة الثاقبة التي ينظر بها ـ عليه السلام ـ إلى هذه الثروة ومدى أهميتها في حياة الشعوب، ومنها :

- «مرّ الرسول ببعير قد لصق بطنه بظهره (من الجوع) فقال: «اتقوا الله في هذه البهائم المعجمة ، فاركبوها صالحة، وكلوها صالحة»[١].

- ويقول ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ : «نهى رسول الله عن التحريش بين البهائم (بالنّطاح أو غيره)»[٢].

- «وعندما أراد أحد الأنصار أن يذبح له شاة قال له: «إياك والحلوب»[٣].

- ويوصي عليه السلام بالعناية بالبهائم بأنواعها فيسأل الصحابة : يا رسول الله، وإن لنا في البهائم أجراً؟ قال: «في كل ذات كبد رطبة أجر»[٤].

- ومرّ ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ بفتيان نصبوا دجاجة يترامونها بالنبل فلما رأوه تفرقوا فقال: «إن رسول الله لعن من اتخذ شيئاً فيه الروح غرضاً (هدفاً للرمي)[٥].

- ورأى ـ عليه السلام ـ حمّرة (طائر صغير) تحوم تطلب فراخها فقال: «من فجع هذه بولدها؟ ردّوا عليها ولدها»[٦].

٥ - حماية البيئة :

بيئة الأرض هي الموطن الطبيعي للإنسان، عليها يعيش، يستنشق هواءها ويشرب ماءها ، ويمشي في طرقاتها، وينعم بخيراتها، لذلك فإن صحة هذه البيئة وصلاحها صحة وصلاح له، كما أن فسادها يفسد عليه حياته.

---

(١) رواه أبو داود.

(٢) رواه أبو داود والترمذي.

(٣) رواه مسلم.

(٤) متفق عليه.

(٥) رواه البخاري ومسلم.

(٦) رواه مسلم.

وقد وعى بنو الإنسان أهمية البيئة وتأثيرها على النبات والطير والحيوان ومن ثمّ على الإنسان في عصرنا الحديث، فأخذت الصيحات تتعالى بضرورة صيانة البيئة وحمايتها، بعد أن أوغل الناس في إطلاق الملوثات في الهواء أو إلقائها في الماء أو دفن الخطيرمنها كالنفايات النووية في باطن الأرض وأعماق البحار، أو في إهلاك الغطاء النباتي الذي أثّر سلباً على مناخ الأرض وثقب طبقة الأوزون في الجو إلى غير ذلك.

والرسول الكريم يوجه المسلمين توجيهاً عامّاً للمحافظة على بيئة الأرض نقيّة ونظيفة طيبة، وعدم إهدار بعض مقوماتها الأساسية كالماء أو تلويث بعضها كالهواء، أو الإخلال بالانتفاع ببعضها كالطرقات ليعيش الإنسان في بيئة مريحة ومن ذلك قوله:

- **في عدم إهدار الماء:**

- مرّ ـ عليه السلام ـ بسعد بن أبي وقاص ـ رضي الله عنه ـ وهو يتوضّأ فقال له: «لا تسرف» فقال: أوَ في الماء سرف يا رسول الله؟ قال: «نعم وإن كنت على نهر جار»[١].

- **في عدم تلويث المياه:**

- «لا يبولنّ أحدكم في الماء الدائم (الراكد)»[٢].

- «لا يغتسل أحدكم في الماء الدائم (الراكد)»[٣].

- **في عدم تلويث الهواء:**

- «إن هذه النار عدو لكم فإذا قمتم فأطفئوها»[٤].

- كان ـ عليه السلام ـ إذا عطس غطى وجهه»[٥].

---

(١) رواه ابن ماجه.

(٢) رواه البخاري.

(٣) رواه مسلم.

(٤) متفق عليه.

(٥) رواه أبو داود والترمذي.

- **في عدم تلويث الأماكن العامة:**

- «اتقوا اللاعنين»، قيل: ما اللاعنان؟ قال: الذي يتخلّى في طريق الناس أو في ظلّهم»[1].

- **في نظافة الطرقات:**

- «إماطة الأذى عن الطريق صدقة»[2].

- «**في حماية الغطاء النباتي:**

- «من قطع سدرة صوّب الله رأسه في النار»[3].

ب- عنصر العمل

يعَّرف العمل بأنه: «كل حركة هادفة» ومقوماته ثلاثة هي: «القدرة والارادة والنيّة» فالهدف يشكل مفاهيم واتجاهات ومسارات العمل والارادة هي التي تحفز جهد الانسان في السعي لتحقيق الهدف، والنيّة هي التي تحكم قصدّية تحقيق الهدف ـ صالحة كانت أو فاسدة ـ ولذلك جاء في الحديث: «إنما الأعمال بالنيّات».

وعليه فإن أي حركة لا هدف لها لا تعتبر عملاً، وأي هدف لا تتبعه حركة يبقى مجرد تمنّيات ولا حركة مالم تكن هناك قدرة عليها، والقدرة تبقى كامنة ولا تبعثها إلا الإرادة النافذة، والنية هي التي تحكم انضباط العمل أو انحرافه.

والعمل بهذا المفهوم لا يقتصر على الأعمال العضليّة، وإنما يشمل كل تحرك فكري أو عقلي هادف، كما يشمل كل تحرك عضلي أو جسماني هادف، بغض النظر عن كونه عملاً مأجوراً أو غير مأجور.

والعمل هو العنصر الانتاجي الأهم ـ كما سبق القول ـ فهو الذي يضع كلا من عنصر الأرض وعنصر رأس المال في دائرة الإنتاج، وبدونه تبقى الأرض ميتة عطلاً

(١) رواه مسلم.
(٢) رواه البخاري.
(٣) رواه أبو داود.

ويباباً خراباً، ويبقى رأس المال أرقاماً جامدة في صفحات هادمة، لا نفع فيه لصاحبه ولا لغيره.

وقد عرف الإنسان أهمية العمل مذ وطأت قدماه هذه الأرض، إذ وجد أن لا بدّ له من أن يعمل ليعيش، ولكنه كان بسيطاًمحدوداً في بداياته، كالصيد والرعي، ثم أخذ في التطور، حتى وصل في زماننا هذا إلى مستوى شديد التعقيد نظراً لتطوير وسائله وأساليبه وتقنياته وتنظيماته، ليس في المجال الصناعي فحسب وإنّما في كل أنواع العمل، فلم يعد أي عمل يؤدى تلقائياً أو عفوياً وكيفما اتفق للعامل، وإنما أصبحت لكل نوعية من العمل أصولها العلمية والمعرفية والمهارية، ونحا إعداد العمالة إلى الأخذ بالتخصصات الدقيقة. تحقيقاً لأداء أفضل، وإنجاز أشمل وإتقان أمثل.

والرسول الكريم ﷺ أقدر من يقدر أهمية العمل، ومدى تأثيره في نهوض المجتمعات وتقدمها ورقيها وتحضرها، لذلك فإن المتتبع لكتب الصحاح يجد من الأحاديث ما يندّ عن الحصر، في كل ما يتعلق بالعمل حركة أو هدفاً أو نوعاً، ويتضح ذلك فيما يأتي:

١ - قصدية العمل:

كل حيّ يرغب في تحسين حياته، ولن يتسنى له ذلك إلا بالعمل، ولكن المسلم يعتبر قصدية العمل تنفيذاً لعهد استخلافه في الأرض من خالقه، فهو لم يستخلف فيها ليعيش هملاً، وإنما ليقوم على عمارتها، لذلك فإن العطالة البطالة والتنطع مرفوضة من أي إنسان مسلم قادر على العمل، فقوّة العمل في المجتمع المسلم تساوي مجموع أفراده القادرين على العمل.

من هذا المفهوم نجد أن الرسول الكريم يؤكد تأكيداً جازماً على مبدأ العمل، أي على قصديّة العمل بصفة عامّة، ويرفض ـ كما جاء في الحديث ـ وجود «الفارغ المكفيّ» في صفوف المسلمين، ويعطي من نفسه مثالاً يقتدى به في هذا المجال، فعندما يشرع في بناء المسجد يكون أول المسلمين نهوضاً بالعمل، وعندما يحفر الخندق، يسارع إلى حمل التراب كأي واحد من المسلمين، وعندما تذبح شاة لمأكلة ويقول أحد الصحابة: على ذبحها، وآخر: على سلخها، وثالث: على طبخها، يبادر ـ عليه السلام ـ بالقول: «وعليّ جمع الحطب».

والأحاديث الشريفة في الحثّ على العمل واستهدافه كثيرة منها قوله ﷺ.

- «إن الله يحبّ المؤمن المحترف»[1].

- «إن من الذنوب مالا يغفره إلا السعي في طلب الرزق»[2].

- «إن أشرف الكسب، كسب الرجل من عمل يده»[3].

٢- اتجاهات العمل:

يحدد العمل في الإسلام باتجاهين هما:

- **العمل الصالح**: وهو كل عمل متقيد بالشرع الإسلامي، بحيث تكون حركته ووسائله وأساليبه صالحة وفق ما يحدده الشرع من صلاح، وأن تكون إرادته ونيّته وهدفه وغايته خالصة لوجه الله تعالى، وبما يحقق رضا الله تعالى ورسوله. ومثل هذا العملِ يعتبر في الإسلام عبادة، يجزى عنه المسلم خير الجزاء في الآخرة، إضافة إلى نواتج العمل ومكاسبه في الدنيا.

وعلى ذلك فإن كل عمل يقوم به ولي الأمر والأجهزة الحكومية، والأدباء والمفكرون والعلماء والخبراء والمعلمون والوعاظ والمرشدون والمزارعون والصناع والتجار وغيرهم من أرباب الأعمال على اتساعها، هي أعمال صالحة من المنظور الإسلامي، وتعتبر عبادة ما دامت متقيدة بما أباحه الشرع وخالصة النية لله تعالى، وكل كسب منها يعتبر حلالاً طيباً.

ويؤكد الرسول ﷺ، على التزام كل عمل بالشرع بقوله:

- يقول الله عزّوجل: «ما تقرّب إليّ عبدي بشى أحب إليّ مما افترضت عليه»[4].

- «من عملِ عملاً ليس أمرنا فهو ردّ»[5].

---

(١) رواه الطبراني والترمذي والبيهقي.

(٢) رواه البخاري ومسلم.

(٣) رواه أحمد.

(٤) رواه البخاري.

(٥) متفق عليه.

- «ما نهيتكم عهنه فاجتنبوه ، وما أمرتكم به فافعلوا منه ما استطعتم»[١] .

- كما يؤكد ـ عليه السلام ـ على أن يكون الهدف المتوخى والغاية المرجوة والنية القصدية في أي عمل خالصة لله تعالى، تعبداً له ـ سبحانه ـ وارضاء ، بحيث يستقيم العمل مع شرف المقصد والغاية فيقول :

- «إن الله تعالى لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً وابتغي به وجهه»[٢] .

- «ثلاث لا يغلّ عليها قلب المؤمن: إخلاص العمل لله، والمناصحة لأئمة المسلمين، ولزوم جماعتهم»[٣] .

- «طوبى للمخلصين، أولئك مصابيح الهدى، تنجلي عنهم كل فتنة ظلماء»[٤] .

العمل الفاسد: وهو كل عمل يتنكب الشرع الإسلامي في حركته ووسائله وأساليبه، كأن يقوم على انتاج أو ترويج أو تبادل أو استهلاك المحرمات أو التعامل بها وتحصيل كسب عن طريقها، كانتاج الخمور والمخدرات والربا والاحتكار والغش والتزوير والتّحايل، أو القمار والاتجار في الأعراض وترويج أفلام الجنس وإغواء الشباب واستثارة الغرائز، أو التنجيم والسحر والشعوذة، والسطو والسرقة. . . إلخ، فهذه كلها أساليب ووسائل واتجاهات، يدرك كل ذي عقل قويم انحرافها وإضرارها بالفرد والجماعة.

وحكم الأعمال المنحرفة بنواياها وأهدافها وقصديتها حكم المنحرفة بأساليبها ووسائلها وحركتها، فأي كسب من شهادة زور أو تضليل أو ممالأة قوي ضد ضعيف، أو صاحب باطل ضد صاحب حق ، أو طمس الحقائق والتدليس إلى غير ذلك يعتبر كسبا حراماً.

ولذلك يؤكد الرسول ﷺ على تجنب كل عمل لا يتوافق مع الشرع الإسلامي فيقول:

---

(١) رواه مسلم والنسائي وغيرهما.

(٢) رواه أبو داود والنسائي.

(٣) رواه ابن حبان والبراز.

(٤) رواه البيهقي.

- «طلب الحلال واجب على كل مسلم»[1].

- «دع ما يريبك إلى مالا يريبك»[2].

ويبين ـ عليه السلام ـ أن أي كسب من الأعمال الفاسدة محرّم على صاحبه الانتفاع به، وحتى لا أجر له فيما يتصدق به منه فيقول:

- «إن الله إذا حرّم شيئاً حرّم ثمنه»[3].

- «أيما عبد نبت لحمه من سحت (مال حرام) فالنار أولى به»[4].

- «من جمع مالاً حراماً، ثم تصدّق به، لم يكن له فيه أجر، وكان إصره (ذنبه) عليه»[5].

٣- نوعية العمل:

العمل الذي يمارسه بنو الإنسان في هذه الحياة متعدد النوعيات كما هو متعدد الأبعاد والاتجاهات والمقاصد، والأصل في العمل ـ من المنظور الإسلامي ـ أن يعود بالنفع على الحياة والأحياء، يعمر الحياة على الأرض وينميها ويرقيها، لينعم الأحياء برخائها وكفايتها وبهجتها ونضارتها، ولذلك ينظر الإسلام إلى الأعمال وفق فئتيها: الإيجابية التي تحقق خيرية الحياة، والسلبية التي تنحرف بقوامة الحياة.

٣/ ٢- الأعمال الإيجابية:

وتتطابق الأعمال الإيجابية مع الأعمال الصالحة التي سبق بيانها، ويأتي في مقدمتها العمل الديني من العبادات المفروضة، كالشهادتين والصلاة والزكاة والصيام والحج، التي تتضح إيجابيتها في تزكية النفس البشرية، وتحقيق صفائها ونقائها وخيريتها، وارتباطها بواهب الحياة ـ سبحانه ـ وهديه، وتزكية العلاقات البشرية بالتقائها على الحق والخير والعدل، وإشاعة التعاطف والتراحم والتعاون بين المسلمين.

---

(١) رواه الطبراني.

(٢) رواه النسائي والترمذي وغيرهما.

(٣) متفق عليه.

(٤) رواه الطبراني.

(٥) رواه ابن حبان والحاكم.

إلا أن الإسلام لا يبيح استهلاك الحياة كلها في هذه الأعمال المنتجة معنوياً ـ على أهميتها ـ ويؤكد على الإضطلاع بالأعمال المنتجة مادياً لتتوازن الأعمال مع احتياجات الذات البشرية ويوضح الرسول ﷺ ذلك في الحديثين الآتيين:

- «رأى الصحابة رجلاً قوياً نشيطاً يغدو ويروح فقالوا: لو كان هذا في سبيل الله، فقال الرسول ـ عليه السلام ـ «إن كان خرج يسعى على ولده صغارا فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى على أبوين شيخين فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى على نفسه يعفّها فهو في سبيل الله»[1].

- امتدح قوم من الصحابة رجلاً رافقهم في سفر بكثرة صلاته وصيامه وقراءته للقرآن، فسألهم الرسول: «ومن كان يكفيه مؤونته؟ قالوا: كلنا، قال: كلكم خير منه»[2].

إذا تتبعنا هدي الرسول الكريم في تربيته للمسلمين، نجد أنه يوجه إلى كل عمل إيجابي، ونبين فيما يأتي توجيهه عليه السلام فيما يتعلق بالعمل اليدوي وإتقان العمل:

- **العمل اليدوي:**

لا يكاد يوجد مجال من مجالات العمل المنتج يستغني عن العمل اليدوي، سواء أكان ذلك في الزراعة أو الصناعة أو التجارة أو غيرها، وبالرغم من التقدم المهول للتطبيقات التكنولوجية في مجالات الإنتاج، إلا أن العنصر الإنساني يبقى الأهم. والعمل اليدوي يبقى الأساس، ومع أن أي عمل منتج يحتاج إلى الإستشاريين والمنظمين والإداريين والعلماء والخبراء وغيرهم، إلا أن الأغلبية الساحقة من مكونات هرم العمالة تبقى من العمال الذين يمارسون الأعمال بأيديهم، والعزوف عن العمل اليدوي يؤدي إلى انهيار هرم العمالة برمّته، فالمهندس الانشائي مثلاً لا يمكنه النهوض بعمل البنّاء والنجار والحداد والسباك والكهربائي والنقاش وغيرهم وهكذا في كل ميدان.

---

(١) رواه الطبراني.

(٢) عن رواية الطبراني.

من هنا تتضح نظرة الرسول الموضوعية الثاقبة في التركيز على العمل اليدوي بخاصة في مناسبات عديدة وأحاديث كثيرة ومن ذلك قوله:

- «من أمسى كالاً من عمل يده أمسى مغفوراًله»[١].

- «ما أكل أحد طعاماً قطُ خيراً من أن يأكل من عمل يده»[٢].

- «وسئل ـ عليه السلام ـ أي الكسب أطيب؟ قال: «عمل الرجل بيده..»[٣].

-**العمل المتقن**: إحسان العمل وضبطه واتقانه نواتج من نواتج الخلق القويم وأداء الأمانة، اضافة إلى كونه وسيلة المردود الجيد لعنصر العمل، والارتقاء بنوعية المنتجات وزيادة الطلب عليها بالرغم من ارتفاع أسعارها، وما من إنسان يفضل سلعة متدنية النوعية على سلعة ممتازة النوعية، لذلك فإن الأمم التي تتقن منتجاتها ـ الزراعية والصناعية ـ هي التي تتقدم وترقى اقتصادياً، وتحقق لشعوبها الكفاية والرفاهية.

ولا شك أن اتقان العمل يتطلب علماً ووعياً بمقومات وأساسيات الإنتاج، وتلافي كل أنواع الانحراف الإنتاجي من الغش والتدليس والتمويه بقصدية الربح الرخيص، مما يفقد عموم الناس الثقة بهذه النوعية من المنتجات، ويؤدي إلى كسادها، وبالتالي إلى سقوط مجتمعاتها في هاوية الفاقة والفقر والعوز.

لذلك تتضح لنا حكمة الرسول البالغة في التأكيد على احسان العمل واتقانه، ومن ذلك قوله:

- «إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه»[٤].

- «إن الله يحب من العامل إذا ما عمل أن يحسن»[٥].

---

(١) رواه الطبراني.

(٢) رواه البخاري.

(٣) رواه الحاكم والبيهقي.

(٤) رواه البيهقي.

(٥) رواه البيهقي.

- «خير الكسب كسب يد العامل إذا نصح»[(١)].

٣/ ٢- الأعمال السلبية:

الأعمال السلبية تأخذ اتجاهات ثلاثة: إنتاج سلبي: بإنتاج ما يضر بحياة الإنسان عموماً، كإنتاج الخمور والمخدرات، أو انتاج وسائل ترويج الموبقات واشعال الغرائز بأفلام الجنس وغيرها، وترويج سلبي للمنتجات: بالإنحراف بأساليب التمويل والإنتاج والترويج، من ربا وغش واحتكار وغبن وتدليس وتضليل وتزوير وتمويه، وإنتاج وهمي، ويسمى إنتاجاً تجاوزاً، فهو ليس إنتاجاً بالمعنى الصحيح وإنما مجرد أساليب منحرفة لكسب الرزق كالسحر والتنجيم والكهانة والزجر وغيرها. ومن الواضح أن كل هذه الأعمال تؤثر سلباً على بني الإنسان، ولذلك فكلها مرفوضة شرعاً من المنظور الإسلامي، وسيأتي بيان كل منها لاحقاً.

ولعل أخطر الأعمال السلبية الوهمية التي تعمقّت في المجتمعات العربية هي: «التسوّل»، استمراءً للتعطّل والتبطّل، وسؤال الناس واستكفافهم واستجدائهم بدلاً من دخول معترك الحياة، واللجوء إلى العمل المنتج، وبذلك يحرم المتسولون القادرون مجتمعهم من قدراتهم الانتاجية، ويصبحون وبالاً على المجتمع من الناحية الاقتصادية، حيث يسهمون في ضعف العرض بضعف الانتاج، وفي زيادة الطلب والاستهلاك مما يخلّ بالميزان الاقتصادي.

والإسلام لا يحرّم السؤال كلياً، وإنّما يبيحه فقط لفئات مخصوصة في ظروف مخصوصة ولأوقات محدّدة، فالأصل أن يعمل كل قادر على العمل، ومن أقعدته الظروف عن العمل، فإن الدولة تؤمن له كفايته بالضمان الاجتماعي، ويسهم المجتمع المسلم في ذلك بالتكافل الاجتماعي، ولكن بعض الناس يستمرىء اللجوء إلى التسول هروباً من العمل أو استكثاراً وجشعاً لحيازة المال.

والرسول الكريم ﷺ، يبين أن هذا الأسلوب لا يتوافق من كرامة المسلم، ويؤكد على المسلمين ألا يلجأوا إليه فيقول:

---

(١) رواه أحمد.

- «إن المسألة لا تحلّ لغنيّ، ولا لذي مرّة (قوّة) سويّ»[١].

- «المسألة كلوح في الوجه يوم القيامة، فمن شاء استبقى على وجهه ومن شاء ترك»[٢].

- «من سأل الناس أموالهم تكثّراً، فإنما يسأل جمراً، فليستقلّ أو ليستكثر»[٣].

- «لأن يحتطب أحدكم حزمة على ظهره، خير له من أن يسأل أحداً، فيعطيه أو يمنعه»[٤].

جـ- عنصر رأس المال

يعرّف المال بأنه: «كل شيء له قيمة مادية، ويحقق منفعة، ويمكن حيازته»، وعليه فإنه إذا قلنا: «إن رأس مال شركة ما، مبلغ كذا»، فلا نعني بذلك المال السائل أو النقد الذي لديها، وإنما نعني جميع أعيان الأشياء ذات القيمة المادية التي تحقق منفعة ما والتي تحوزها الشركة، والتي تدخل في عمليات الانتاج ـ بحثاً وتخطيطاً وتنظيماً وإدارة وعمليات ـ من مكاتب ومخازن وقاعات ومساكن وعنابر، ومن أجهزة وآلات ومعدات وآليات، ومن مواد خام ومصنوعات، ومن مصادر قوى ووسائل اتصالات ومواصلات وهكذا، بل ويؤكد الاقتصاديون على شمول الكفايات البشرية بالتقدير، وذلك إضافة إلى النقد السائل.

ومن المعروف أن كل ما تحوزه الشركة أو المؤسسة أو الدولة يقدر بمال، سواء أكان بالعملة المحلية أو بأي عملة معتمدة، ولذلك يكتفى عادة باستخدام كلمة «مال» للدّلالة على رأس المال ككل متكامل.

وفيما يأتي بيان موجز لموقف الإسلام، وتوجيه الرسول الكريم في تربيته للمسلمين فيما يتعلق بالمال.

(١) رواه البيهقي.

(٢) رواه أحمد.

(٣) رواه مسلم وابن ماجه.

(٤) رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

١ -تقدير المال :

ما من إنسان ، ولا مجتمع عاش على الأرض إلا ويقدر المال، لا لذاته وإنما لمنفعته وما يوفّره للإنسان من وسائل الحياة الحرّة الكريمة، حيث اصطلح بنو البشر منذ زمن طويل على ضبط تبادل المنافع بقيمة مالية، وبذلك أصبح المال يقي مالكه غوائل الحاجة وقهر العوز والجوع والمرض والمذلّة.

والإسلام يقدر المال كوسيلة تحقق كفاية الإنسان الاقتصادية والاجتماعية، وفي الوقت نفسه يرفض الانحراف به عن كونه وسيلة وتحويله إلى غاية، فينحرف الإنسان بالمال أو ينحرف المال بالإنسان، الأمر الذي يفسد الحياة، ويحوّل المال إلى سيد يتحكم في الإنسان، يستهلك حياته في جمعه، ويقدم له القرابين من أخلاقه وقيمه وأمانته ومروءته تحت ضغط الجشع والطمع والأثرة.

على هذا المفهوم يربي الرسول الكريم المسلمين، على أن يقدروا المال تقديراً واقعياً موضوعياً، لا شطط فيه ولا انحراف مبيناً الدوافع الرئيسة لتقدير المال وهي :

١/١- فطرية حب المال :

يبين ﷺ أن المال محبوب من البشر، تتغلغل مكانته في أعماق النفس البشرية، لكونه دعامة كرامة الحياة وخيريتها فيقول :

- «لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى ثالثاً. . . »[١].
- «قلب الشيخ على حب اثنتين : طول الحياة وحب المال»[٢].
- «لو كان لابن آدم واد من ذهب، أحب أن يكون له واديان»[٣].

١/٢- كراهة الفقر :

- ما من حال يتدنّى بمكانة الإنسان في الحياة، ويُذل نفسه، ويقهر إباءه، ويهبط بكرامته كالفقر، الذي يعرّضه إلى حياة الشدّة والضنك والجوع والعرى

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) رواه مسلم.

(٣) متفق عليه.

والمرض، واستجداء الناس، لذلك يأخذ الرسول الكريم المسلمين برفض التبنّي الطوعي للفقر أسلوباً في الحياة، وإنما يوجب أن يتخلص منه المسلم ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، وغنى عن البيان أن الإسلام قد تبنى الضمان الاجتماعي والتكافل الاجتماعي لمعالجة الحالات التي تدهاها داهية الفقر على غير تقصير منها، وليس للحالات التي يستسلم فيها المسلم للفقر طائعاً مختاراً، ويربّي المسلمين على رفض الفقر ونبذه وعدم الاستسلام له فيقول:

- «اللهم إني أعوذ بك من الكفر والفقر» قال رجل: أيعدلان؟ قال«نعم»[(١)].

- «كاد الفقر يكون كفراً»[(٢)].

- «اللهم إني أعوذ بك من الفقر والقلّة والذلة..»[(٣)].

١/ ٣- تحبيذ الغنى:

- والغنى المقصود هنا هو حيازة المال، الذي يمكّن الإنسان من الحصول على طيبات الحياة، والذي يأتي من صلاح ويصب في صلاح، حيث يستغني به صاحبه عمّا في أيدي الناس، ويعيش حياته حرّاً أبياً كريماً مقدراً محترماً، لا يستذله أحد من خلق الله، ولا يستشعر العبودية إلا لله.

ولكن الغنى لا تأتي به الريح من مكان بعيد، ولا يتنزل من أجواز الفضاء على من يريد، وإنما يتطلب عملاً وجدّاًومثابرة واجتهاداً وفكراً ووعياً إلى غير ذلك، وهذا ما يأباه الكثيرون، ويلجأون إلى حياة التعطل والتبطّل والخلود إلى الراحة والإستكانة والكسل بدعوى الزهد في الحياة الدنيا، منحرفين بمفهوم الزهد في الإسلام، الذي يقوم على الزهد في الموجود وليس الزّهد في المفقود.

والرسول الكريم ﷺ يؤكد على تحبيذ الغنى مع تسويره بسياج مانع قوامه التقوى ليبقى ضمن نطاق الصلاح فيقول:

(١) رواه أبو داود والنسائي.
(٢) رواه الطبراني.
(٣) رواه أبو داود والنسائي وابن ماجه.

- «لا بأس بالغنى لمن اتقى الله عز وجل»[١].

- «اللهم إنّي أسألك: الهدى والتقى، والعفاف والغنى»[٢].

- ويقول ـ عليه السلام ـ لعمرو بن العاص: «يا عمرو، نعمّا بالمال الصالح للعبد الصالح»[٣].

٢- ضبط مفهوم المال:

الغنى نسبي لذلك مامن مجتمع من المجتمعات البشرية على مدى الزمان وضع مفهوماً أو مفاهيم واضحة للغنى المترتب على حيازة المال، فمن الغني ومن الفقير؟ إن الحائز على الأقل يعتبر نفسه فقيراً بالقياس مع صاحب المال الأكثر، وفي كل مجتمع نجد صاحب قليل وأقل وكثير وأكثر، فصاحب الملايين يعتبر نفسه فقيراً بالنسبة لصاحب المليارات وهكذا.

لقد جرّبت بعض المجتمعات تحديد سقف أعلى للملكية، فهبط الإنتاج بشكل ذريع، وهربت رؤوس الأموال مما أدى إلى التراجع عن ذلك، والشائع اليوم هو ترك الباب مفتوحاً لتنامي رأس المال، مما أدى إلى استفحال الجشع والطمع والإنحراف بالحياة ككل، وتوظيف منظمات الجريمة للقضاء على المنافسين، وإخراج الخصوم من مجال الإنتاج، واللا مبالاة بالأخلاق والقيم والفضائل في تضخيم رأس المال، مما أحال الحياة إلى جحيم لا يطيقه أغلبية الناس.

وقد عالج الرسول ﷺ ضبط مفهوم الغنى وحيازة المال على أساس معياري كما يأتي:

٢/ ١- المعيار الذاتي:

إن الإسلام بحكم تأكيده على كسب المال من حقّه، وانفاقه في حله بإعتدال، وإخراج حق الله ـ تعالى ـ فيه، وحقوق الآخرين، يحول تلقائياً دون تضخم رأس المال، ومع ذلك نجد الرسول الكريم يؤكد على المعيار الذاتي للغنى أو كم حيازة المال. وينطلق هذا المعيار الذاتي من عدّة عوامل منها:

---

(١) رواه أحمد وابن ماجه والحاكم.

(٢) رواه مسلم وابن ماجه.

(٣) رواه أحمد.

- **المنطلق النفسي**: فالإنسان الذي يشعر في نفسه بالغنى، ويقتنع بمستوى الكفاية الذي تحقق له ولمن يعول، يجد الحياة رضيّة هنيّة بهيجة سعيدة، فلا يكسب إلا من حلال ولا ينفق إلا في حلال وباعتدال، ولا يستهلك حياته كلها في طلب المال، وإنما يجعل لمقومات رسالته في الحياة حظاً من وقته وفكره وجهده.

أما ذلك الذي لا يستشعر الغنى في نفسه فسيبقى حياته كلها يسابق المال والمال يسبقه، وكلما حقق رقماً سعى إلى تحقيق رقم أعلى، ويغدو كمن يشرب من ماء البحر، كلما ازداد شرباً ازداد عطشاً ولا يرتوي أبداً.

وفي ذلك يقول ﷺ:

- «ليس الغنى عن كثرة العرض، وإنما الغنى غنى النفس»(١).

- ويقول ـ عليه السلام ـ لحكيم بن حزام: «يا حكيم إن هذا المال خضر حلو، فمن أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه، ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه، وكان كالذي يأكل ولا يشبع»(٢).

- المنطلق الاجتماعي: فالإنسان الذي يقارن نفسه بغيره ممن هم في مجتمعه، سيجد من هم أقل منه غنى ومن هم أكثر منه حيازة للمال، فإذا أخذ في مقارنة نفسه بمن هو أكثر منه مالاً، وأعلى قدرة مادّية، استبد به السخط على وضعه، وتعمق في نفسه الحسد وعدم الرضا، وتحكم فيه القلق والاضطراب، مما يرسخ لديه حب مباراة الآخرين بل ومسابقتهم، فيسلخ حياته راكضاً وراء جمع المال ولا يتوقف ما دام يرى هناك من يسبقه، وربما يلجأ إلى الأساليب المنحرفة، ليتساوى مع السابقين، فيخسر الدنيا والآخرة.

أما من ينظر إلى من هم أقل منه، فسيشعر بالقناعة تتغلغل في كيانه كله، وتفيض عليه رضاً وسروراً، إذ يرى تميز وضعه ويدرك نعمة الله عليه، فتغمره السعادة ويعيش حياته هنياً رضياً سعيداً.

وهذا ما يوجه إليه الرسول الكريم في تربيته للمسلمين بقوله:

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) متفق عليه.

- «انظروا إلى من هو أسفل منكم، ولا تنظروا إلى من هو فوقكم، فهو أجدر ألاّ تزدروا نعمة الله عليكم»[١].

٢/ ٢- المعيار الوظيفي:

المال وسيلة، لا ينكر ذلك أحد، وسيلة للحصول على الطيبات من الرزق من مأكل ومشرب ومسكن وملبس ومركب إلى غير ذلك، فهو الأساس في توفير المنفعة لصاحبه ومن يعول، وخدمة مواطنيه وأبناء مجتمعه وأمته باستثمار جزء منه في مجالات انتاجية، وفي الوقت نفسه ترك قسط منه لورثته حتى لا يتركهم عالة يتكففون الناس.

والعمر المحدود الذي منحه الله للناس، ليس حكراً على جمع المال، وإنما هناك واجبات أساسية كثيرة تتعلق بالإنسان كمستخلف في الأرض، الأمر الذي يتطلب أن يدرك الإنسان أن جمع المال ليس غاية بحدّ ذاته، وإنما وسيلة، يمكن حصرها في نطاق معقول، وهناك ما هو أهم من المال بالنسبة لحياة الإنسان كالأمن أو الصحة مثلاً، فقناطير الأموال لا تجلب السعادة لإنسان خائف هلع تحدق به الأخطار من كل جانب، ومئات أحمالها لا تنفع العليل الكليل الذي يكمن له الخطر في كل ما يأكل ويشرب.

وعلى هذا الفهم الواعي لوظيفة المال يربي الرسول الكريم المسلمين، فيقول:

- «يقول الإنسان: مالي مالي، وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدّقت فأمضيت؟»[٢].

- «من أصبح منكم: آمناً في سربه، معافى في جسده، عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها»[٣].

٢/ ٣- المعيار القيمي:

المجتمعات السوّية تمنح التقدير والتكريم للفرد على قدر ما يتمتع به من قيم عليا وأخلاق نبيلة وفضائل جليلة، وليس على أساس ما لديه من مال، والإنسان

---

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه مسلم.

(٣) رواه البخاري.

الذي يجعل جمع المال أكبر همه لا يسعى إلى معالي القيم والأخلاق والفضائل، وإنما قد يؤول الأمر به إلى عبودية نفسيّة للمال، تبقي نفسه شحيحة هلوعة مترددة متوجسة مضطربة.

والإسلام يأبى على أي فرد في مجتمعه أن يصل إلى هذه الدرجة، وإنما يريده حرّاً أبياً عزيزاً، لا يستذله طمع، ولا يستعبده جشع، لينهض بمهامه في الحياة بثقة وقوة واقتدار، وعلى هذا الأساس يضع الرسول الكريم معياراً قيمياً لحيازة المال، قوامه التعالي على عبوديته، والإكتفاء بما يكفي، وعدم الاستذلال له بأي حال من الأحوال فيقول:

- «تعس عبد الدرهم، تعس عبد الدينار...»[1].
- «ما قلّ وكفى، خير مما كثر وألهى»[2].
- «من أعطى الذلّة من نفسه طائعاً غيره مكره فليس منا»[3].

٣- ضبط منفعة المال:

المال بطبيعته لا يؤكل ولا يشرب، وإنما تكمن قيمته في منفعته وجدواه التبادلية، فمهما كان لدى الإنسان من مال، ولم يجد ما يشتريه به ليسدّ به جوعه أو يروي عطشه أو يكسي عريه، لا تعود له قيمة قط ويصبح كأي جماد سواه. ولتحقيق المنفعة لا بدّ من وجود المال والعين النافعة كما لا بدّ من توافر الإرادة لدى الإنسان في الحصول على المنفعة، وإلا فلا منفعة إن لم يرد الإنسان إنفاق المال وأصر على كنزه.

على هذا المفهوم يضبط الرسول ﷺ منفعة المال كما يأتي:

٣/ ١-انفاق المال:

الإنفاق أساس المنفعة بالنسبة للفرد، وهو في الوقت ذاته أساس حركية الإقتصاد، والمحفّز للدورة الاقتصادية ككل متكامل، فمن يبني منزلاً مثلاً، ينفق

(١) رواه البخاري.
(٢) رواه أحمد وابن حبان والحاكم.
(٣) رواه الطبراني.

عليه مبلغاً من المال، يوزع على قطاع اجتماعي واسع يشمل المهندسين والبنائين والنجارين والسباكين والحدادين والكهربائين والعمال وغيرهم إضافة إلى منتجي المواد الخام، وتجار لوازم البناء على اختلافهم، وبهذا تزداد قدرة الطلب فتدفع قدرة العرض إلى النموّ وهكذا.

لذلك يعتبر الانفاق أساس الحركية الاقتصادية، وتعتبر عافية الاقتصاد رهناً بالانفاق وأي مجتمع يسوده البخل والشح والتقتير، وبالتالي كنز المال، لا يمكن إلا أن يتخلف اقتصادياً، فلا ينتج منتج إلا ليستهلك مستهلك وإلا توقف الإنتاج، ولذلك يحرّم الإسلام أساساً كنز المال وحجبه عن مجال الإنتاج والمنفعة، ولا يبيح التقتير في الإنفاق.

ولم تكن هذه الاعتبارات لتغيب عن ذهن الرسول الأكرم ﷺ، ومن هنا كان حثه المتواصل للمسلمين على الإنفاق لتحقيق حيوية الاقتصاد الإسلامي فيقول:

- «أنفق يا ابن آدم ينفق عليك»[١].
- «اللهم أعط منفقاً خلفاً وأعط ممسكاً تلفاً»[٢].
- «اياكم والشحّ فإنّما هلك من كان قبلكم بالشحّ..»[٣].

٣/ ٢- حدود الانفاق:

للانفاق في الإسلام ـ كما سبق القول ـ حدّان هما:

- حد الحلال: ما دامت حيازة المال محددة بالحلال، فإن التصرف فيه محدود أيضاً بهذا الحدّ، فلا يجوز انفاق في الإسلام في أي شأن أو على أي سلعة أو في أي وجه يحرّمه الإسلام. وللحقيقة فإن أوجه الإنفاق التي يحرمها الاسلام سواء منها ما يتعلق بالمأكل أو المشرب أو المسكن أو الملبس لا تكاد تشكل نسبة لما يبيحه ويحلّه، مما يجعل حريّة الانفاق أقرب ما تكون إلى الحرية المطلقة، ومع ذلك فإن حصر الإنفاق في أوجه الحلال فقط، يتيح الفرصة لعوامل الإنتاج أن تركز على مجالات أضيق.

---

(١) متفق عليه.

(٢) متفق عليه.

(٣) رواه أحمد وأبو داود وغيرهما.

والأصل في تحريم بعض أوجه الإنفاق نابع من الاضرار ببني الإنسان، فأي إضرار بالإنسان من أوجه الاستهلاك أو التسيير الاجتماعي، كالرشوة وشراء الذمم وشهادة الزور. . الخ، مرفوض ومحكوم بقوله ـ عليه السلام ـ :

- «لا ضرر ولاضرار»(1).

وكل مسلم يجب أن يتحرى الحلال في الانفاق، كما يتحرى الحلال في الكسب والحيازة والتصرف، ويؤكد الرسول على ذلك بقوله:

- «طلب الحلال فريضة بعد الفريضة»(2).

- «طلب الحلال واجب على كل مسلم»(3).

*- حد الإعتدال: وبالرغم من إباحة الانفاق في وجوه الحلال، إلا أنه لايترك على علاّته، فالمال وإن أبيح تملكه للانسان يعتبر ثروة وطنية، لمالكه أن ينتفع به في حدود معقولة بلا سرف ولا تبذير وإهلاك لمقدرات مجتمعه وأمته، وينطبق ذلك على الدولة الإسلامية، التي لا يجوز لها إستنزاف خيرات الوطن في غير ما طائل، لينعم بها جيل وتحرم منها أجيال.

وإذا كان الإسراف يضير بالاقتصاد فإن البخل والتقتير وكنز المال وتجميده، لا يقل عنه خطراً، إذ يعدم المجتمع من الإفادة بثراوته، لذلك فهو مرفوض أيضاً.

إن الوضع القويم يتمثل في الحسنة بين السيئتين أي التوسط بين الإسراف والتقتير بما يحقق التوازن الإقتصادي إنتاجاً وتوزيعاً وإستهلاكاً وإستيراداً وتصديراً، وذلك تنفيذاً لقوله ـ تعالى ـ:

﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا ٦٧ ﴾(4).

وقول رسوله:

---

(1) رواه أحمد.

(2) رواه الطبراني والبيهقي.

(3) رواه الطبراني.

(4) الفرقان (٧٦).

- «كلوا وإشربوا وتصدّقوا في غير إسراف ولا مخيلة»[١].

٣/ ٣- اتجاهات الإنفاق:

- **الإنفاق الخاص**: ويعنى به كل إنفاق يلزم الإنسان في ذاته ومن يعول والذين لهم حكم ذاتة من والدين وزوجة وأبناء وأقارب وأرحام، ويشمل الإنفاق هنا كفاية من يعول الإنسان المسلم، ومساندة الأقارب والأرحام، سواء أكان ذلك في المأكل أو المشرب أو الملبس أو المسكن أو العلاج أو التعليم وما إلى ذلك.

ويؤكد الرسول ﷺ، على هذا النوع من الإنفاق في أحاديث كثيرة ومواطن عديدة، ومنها قوله:

- «اليد العليا خير من اليد السفلى، وابدأ بمن تعول: أمك وأباك، وأختك وأخاك، وأدناك أدناك»[٢]

- «أفضل دينار ينفقه الرجل دينار ينفق على عياله..»[٣].

- «كفى بالمرء إثما أن يضيّع من يُقوت»[٤].

- **الإنفاق العام**: وهو كل إنفاق يتعدى الفئات السابقة إلى غيرها من الجيران والفقراء والمعوزين والمرضى والمحتاجين والأيتام والأرامل والمعاقين، والإنفاق الإجتماعي بعامّه ولا سيما في الجهاد في سبيل الله وتدعيم مقومات الدولة والوطن والأمة، وتلافي آثار الكوارث والنوازل والنكبات، وغيرها وغيرها.

إن أوجه هذا الإنفاق متعددة ومتنوعة ومندوب إليها في الإسلام، وهناك ما هو محدد شرعاً كالزكاة والكفارات، ومنها ما يترك لقدرات وأريحية ومروءة المنفق، لا سيما في تدعيم الضمان الاجتماعي والتكافل الاجتماعي. والله تعالى يؤكد على الإحسان في هذا الجانب بقوله سبحانه: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه الطبراني.

(٣) رواه مسلم.

(٤) رواه أبو داود.

﴿وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ﴾[1] ، ولا نكاد نجد مجالاً من هذه المجالات التي يتضمنها الانفاق العام، إلا ويؤكد عليه الرسول الكريم ﷺ في أكثر من حديث ومن ذلك ـ على سبيل المثال ـ قوله:

- «إن في المال حقاً سوى الزكاة»[2].

- «أيما أهل عرصة أصبح فيهم امرؤ جائعاً، فقد برئت منهم ذمة الله ورسوله»[3]

- «الساعي على الأرملة واليتيم كالمجاهد في سبيل الله»[4].

- «من جهز غازياً في سبيل الله فقد غزا، ومكن خلف غازياً في أهله بخير فقد غزا»[5].

٤- حماية المال:

- المال لا يتأتى للإنسان تلقائياً ولا بمجرد الطلب أو الدعاء، وإنما هو محصّلة إعمال فكر، وبذل جدّ وجهد، ونتيجة عمل وتعب ونصب، وسهر الليالي وكدّ الأيام، وعليه فإن من أظلم الظلم وأفدحه أن يصادر أو يسلب أو يغصب أو يتعدى عليه فيصبح نهباً لكل ناهب، ليحرم منه من بذل الجهد، وينعم به من سواه.

لذلك فإن الإسلام يعتبر حماية المال من صاحبه ومن المجتمع ومن الدولة من المسلمات الأساسية، ويعتبر نصرة صاحبه حقاً له على كل فرد في المجتمع، ويعتبره حمى محمياً وحقاً مصاناً من الجميع، ولا يكتفي بكل أنواع الحماية الفردية والمؤسسية، وإنما ينشىء في أعماق المسلم دافعاً لتحقيق هذه الحماية، ويؤكد ذلك الرسول الكريم بقوله:

---

(١) النساء (٣٦).

(٢) رواه الترمذي.

(٣) رواه أحمد والحاكم.

(٤) رواه البخاري.

(٥) رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

- «إنكم تختصمون إليّ، ولعلّ بعضكم أن يكون ألحن في حجته من بعض، فأقضي له على نحو ما أسمع، فمن قضيت له من حقّ أخيه، فإنما هي قطعة من النار، فليأخذها أو ليدعها»[١].

والرسول الكريم ﷺ يربي المسلمين على عدم انتهاك حرمة كل من المال الخاص والمال العام على السواء لتأمين حمايتهما.

٤/١- حماية المال الخاص:

حماية المال الخاص منوطة أساساً بصاحبه، ثم بجماعة المسلمين، ولا يبيح الإسلام للمسلم أن يسلم ماله تحت ضغط الخوف أو الرهبة، وإنما عليه أن يقاتل دونه ويدافع عنه، والرسول الكريم يؤكد على ذلك بقوله:

- «من قتل دون ماله فهو شهيد..»[٢].

- وجاء رجل إليه ـ عليه السلام ـ فقال: يا رسول الله، أرأيت إن جاء رجل يريد أخذ مالي؟ قال: «لا تعطه مالك» قال: أرأيت إن قاتلني؟ قال: «قاتله» قال: أرأيت إن قتلني؟ قال: «فأنت شهيد» قال: أرأيت إن قتلته؟ قال: «هو في النار»[٣].

وفي الوقت نفسه يبين للمسلمين أن مال أحدهم حرام عليهم جميعاً فيقول:

- «كل المسلم على المسلم حرام: دمه وعرضه وماله»[٤].

- «لا يحل مال امرىء مسلم إلا بطيب نفسه»[٥].

- «من أخذ أموال الناس يريد أداءها أدى الله عنه، ومن أخذها يريد اتلافها أتلفه الله»[٦].

---

(١) متفق عليه.

(٢) متفق عليه.

(٣) رواه مسلم.

(٤) رواه البخاري ومسلم.

(٥) رواه النسائي.

(٦) رواه البخاري.

- «من اقتطع حق امرىء بيمينه، فقد أوجب الله له النار، وحرّم عليه الجنّة»، فقال رجل: وإن كان شيئاً يسيراً يا رسول الله؟ قال: «وإن كان قضيباً من أراك»[1].

٤/ ٢- حماية المال العام:

والمال العام مخصص للنفع العام لا لنفع فرد ، لذلك فهو أجدر بالحماية، لأن تبديده يضير بالمجتمع ككل، ولكنه مظنّة الإعتداء عليه من الرعيّة الذين يعتبرونه مال الدولة، والدولة أقدر على تحمل ما يستلب من أموالها، ومن السلطات المسؤولة عن المال العام، سواء بإساءة الاستخدام أو الانتهاب، لذلك نجد الرسول ﷺ يؤكد على حماية المال العام ويعظم تحريمه ومن ذلك قوله:

- «إن رجالاً يتخوضون في مال الله بغير حق، لهم النار يوم القيامة»[2].

- وجاءه رجل وهو بوادي القرى فقال: استشهد غلامك فلان قال: «بل يجرّ إلى النار في عباءَة غلّها»[3].

- «من اشترى سرقة وهو يعلم أنها سرقة، فقد اشترك في عارها وإثمها»[4].

- وعلى ذلك كان المسلمون يعظمون حرمة المال العام ويحرصون على حمايته أكثر مما يحرصون على حماية أموالهم الخاصة، وتدل على ذلك كثير من الحوادث المشهورة والتي منها:

- رأى علي بن أبي طالب- كرم الله وجهه ـ عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ يهرول خارج المدينة في يوم شديد الحرّ، فلحق به وسأله:

- إلى أين يا أمير المؤمنين؟

- بعير ندّ (هرب) من إبل الصدقة أطلبه.

- رحمك الله، لقد أتعبت من يأتي بعدك.

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه البخاري.

(٣) رواه أحمد.

(٤) رواه البيهقي.

- «والذي بعث محمداً بالحق لو أن عنزاً ذهبت بشاطىء الفرات، لأخذ بها عمر يوم القيامة»[١].

- وقال له أحد الصحابة بعد أن تزايدت أموال الدولة: «يا أمير المؤمنين، لو وسّعت على نفسك في النفقة من مال الله، فقال:

«أتدري ما مثلي ومثل هؤلاء؟ (يعني المسلمين) إنه كمثل قوم كانوا في سفر، فجمعوا أموالهم وسلموها واحداً منهم لينفق عليهم، فهل يحل له أن يستأثر عنهم بشيء من أموالهم؟ قال الرجل: لا، قال: فهو ذاك»[٢].

(١) ابن كثير، البداية والنهاية، مرجع سابق، جـ٧، ص١٣٦.

(٢) ابن الجوزي، تاريخ عمر بن الخطاب، مكتبة محمد علي صبيح، القاهرة، ــــ، ص٥٨.

رابعاً: التربية النبوية في مجال التوزيع

اذا كان لنا أن نضع هدفاً لتربية الرسول الكريم في مجال التوزيع، فإننا نؤكد أن الهدف هو «تحقيق العدالة» عدالة العائد من الإنتاج وبالتالي عدالة الثمن الذي يحدد للسلعة مقابل المنفعة التي تحققها، أي عدالة الربح وعدالة الريع، وعدالة المكافأة مقابل الجهد لكل انسان يشارك في عملية الإنتاج وتبادل السلع وبصفة خاصة عدالة الأجور لعنصر العمل، العدالة التي تأبى أن ينفق أحد الناس على وجبته المئات، ولا يجد غيره مجرد الفتات، وفيما يأتي تربية الرسول الكريم لتحقيق هذه العدالة:

أ- مسوغات التوزيع

١ - فائض القيمة:

يأخذ النظام الرأسمالي عموماً بتوفير فائض قيمة للمنتجات، حيث يحسب الرأسماليون ما تكلفة سلعة ما حتى وصولها إلى الموزع، مقدرين ما أنفق عليها واقعياً من الأجور على تنوعها وثمن ما أدخل فيها من مواد، ونسبة الاستهلاك السّنوي لرأس المال الثابت، لتحديد سعر التكلفة الحقيقي للسلع، ثم تضاف نسبة مئوية محددة على سعر التكلفة كربح للمنتج، لتحديد الثمن الذي تباع به السلعة، والفرق بين تكلفة الإنتاج وثمن البيع هو فائض القيمة.

ولا تصل معظم السلع إلى المستهلك مباشرة إلا في حالات محدودة أو نادرة، وإنما تمرّ بعدد من الوسطاء، كالسماسرة، وباعة الجملة وباعة المفرق،حيث يضيف كل من هؤلاء نسبة من الربح، وبذلك يصبح فائض القيمة للمنتج ربحه فقط، ويتحمل المستهلك عدداً كبيراً من فوائض القيمة، وكلنا نعلم أن دخل المزارع ـ في بلادنا التي اتبعت فائض القيمة ـ لا يصل إلى أكثر من ١٠٪ من الثمن الذي يتحمله المستهلك في أحسن الحالات.

وفائض القيمة موجب دائماً إلا في حالات نادرة لا حكم لها، ويستأثر بالنصيب الأوفر من هذا الفائض رأس المال، حيث تستوعب الأجور، كما يستوعب ريع الأرض في تحديد كلفة السلعة ويبقى الفائض لرأس المال، الذي غدت تدعمه دول قوية لها هيمنتها على الاقتصاد العالمي مما لا يترك مجالاً للأخريين للنقاش.

٢- أسلوب فائض الثمن:

وهذا ما يأخذ به النظام الاسلامي، حيث تحتسب فيه تكلفة السلعة كالسابق، ويجري التفرغ عنها في السوق للمستهلك أو الوسيط ـ عند الضرورة ـ -على أساس ثمن يحدده التراضي بين كل طرفين، تنفيذاً لقوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَـٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾[1]، فمجال تحديد الثمن بكم أو نسبة فائضة هو السوق الذي يحكمه التراضي بين كل متعاملين، وفقاً للقيمة والجدوى الحقيقية للسلعة.

والتراضي حول سعر معين غالباً ما يكون أعلى من سعر التكلفة، أو سعر الشراء وبذلك يتحقق فائض الثمن لكل من المنتجين والوسطاء، ولكن قد يكون سالباً اذا كانت نوعية السلعة متدنية، أو اختل الطلب عليها لسبب ما، وبذلك تلحق الخسارة برأس مال المنتج أو الموزع، مما يجعل كلاًّ منهما طرفاً في المخاطرة، ويعتبر هذا الأسلوب الإسلاميّ دعماً للاقتصاد من حيث:

- تركيز الانتاج على الاحتياجات الأساسية للمجتمع حيث تكمن قوة الطلب وتلافي الإنتاج العفوي والتلقائي.
- بذل كل جهد ممكن لاتقان إنتاج السلع والإرتقاء بنوعيتها مما يكثف الطلب عليها ويجذب معه العرض.
- الحدّ من نسبة الأرباح التي يسعى لتحقيقها المنتج والموزع سعياً لتحقيق زيادة التوزيع وبالتالي زيادة الأرباح بعامة، فيستفيد المنتج والمستهلك.

ولتحقيق عدالة الثمن، هناك ظروف موضوعية لضبط هذه العدالة، عمل رسول الكريم على تحقيقها ومن ذلك:

---

(١) النساء (٢٩).

ب- ضوابط عدالة الثمن

١ - قوامة السوق :

السوق هو مكان تصريف المنتجات وتبادل السلع بغض النظر عن نوعية المكان، وأساس قوامته هو تحقيق عدالة الثمن الذي يحقق للمنتج ربحا معقولاً من إنتاجه، والوسيط مكافأة مجزية عن جهده. والأصل ألايقدم المستهلك على شراء سلعة ما لا إذا شعر بأن منفعتها تعادل ما يدفعه فيها من ثمن.

وعدالة الثمن تتحقق واقعياً عند تراضي كل من الطرفين، هذا التراضي الذي يتم غالباً عند توازن العرض والطلب، فإذا كان العرض مساوياً للطلب تحقق الربح المعقول لكل من المنتج والوسيط من ناحية، فلا يبيع أي منهما بخسارة، وفي الوقت نفسه لا يشتري المستهلك بثمن يفوق قيمة السلعة كثيراً، ويكون كل من الطرفين راضياً.

وإذا نظمت السوق على أساس قويم حكيم لا تشوبه شائبة من إنحراف أو تحايل أو تضليل فإن عدالة الثمن تتلاقى واقعياً مع التراضي، لذلك حرص الرسول الكريم على إستقلالية السوق الإسلامية، لتجري المبادلات فيها على أساس القيم الإسلامية.

عندما استقر الرسول في المدينة، لم يجد فيها سوقاً سوى سوق يهود، الذين إستمرأوا التعامل الإقتصادي المنحرف، سعياً وراء تحقيق الأرباح الطائلة، دونما مراعاة لعَدالة أو قيم أو أخلاق، فقد تفشّى لديهم الربا والاحتكار والغش والمخاتلة والمراوغة والكذب والتضليل والغبن الفادح للمستهلك.

وتلافياً لهذا الواقع عمل الرسول على إنشاء أول سوق إسلامية في المدينة، لتُضبط فيها الحركية الاقتصادية ككل على أساس من القيم والمفاهيم الإسلامية، وحرص ـ عليه السلام ـ على زيارة هذه السوق بصفة مستمرة، وتوجيه المتعاملين فيها، للاطمئنان على نفاذية عدالة الثمن، مؤكداً على ما يحقق ايجابيات السوق، ومحذراً من سلبياتها.

٢- ترسيخ ايجابيات السوق :

٢/ ١ : حرية المنافسة :

المنافسة إحدى أهمّ مقومات الارتقاء النوعي بالانتاج، لأن السلعة المنافسة هي السلعة الجيدة المتقنة الملبيّة لاحتياجات المستهلك، فإذا كانت المنافسة حرّة، لا تلتوي بها الأساليب المتحرفة، فإن الطلب سيتركّز على المنتجات المتقنة دون سواها، مما يدفع المنتجين إلى الارتقاء بنوعية منتجاتهم باستمرار، يضاف إلى ذلك عدم المغالاة في الأرباح، مما يدفع إلى زيادة في الطلب، فيجذب معه العرض، فتتنامى حركة السوق أيضاً، الأمور التي تحقق بمجموعتها تنشيط الاقتصاد بعامة، ومنفعة المجتمع ككل.

لذلك حرص الرسول ﷺ على تأمين المنافسة الحرّة الشريفة في السوق الإسلامية، ونهى عن أي منافسة منحرفة تؤدي إلى إغراء العداوة بين المنتجين والوسطاء، أو إلى الاضرار بالمستهلكين والتغرير بهم، وفي ذلك يقول:

- «لا يبع الرجل على بيع أخيه، ولا يخطب على خطبة أخيه»[(١)].

- «لا يبيع الرجل على بيع أخيه ولا يسم على سوم أخيه»[(٢)].

ونهى الرسول ـ عليه السلام ـ عن النجش، وهو ما يمثل اليوم بالمزايدة الوهمية، التي يوظف فيها المنتج أو التاجر من يزيد في ثمن السلعة لاغراء المشترين حتى إذا وصل الثمن إلى حدّ معين انسحب المزايد، وأوقع غيره.

كما نهى عن تلقي الركبان لتبقى المنافسة في مكانها الصحيح ومجالها العام وهو السوق.

٢/ ٢ : التزام الصدق :

يقتضي الصّدق الدقة والموضوعية في توصيف السلعة من حيث تركيبها ووظائفها واستعمالاتها إلى غير ذلك، كما يقتضي عدم التهويل والكذب والمغالاة

---

(١) متفق عليه.

(٢) رواه أبو داود.

في سعر السلعة وادعاء إرتفاع سعر تكليفها لاغراء المستهلك، فما دام الثمن يتم بالتراضي، فيجب أن يبنى هذا التراضي على الصدق والموضوعية، لذلك يؤكد الرسول على التجار بالتزام الصدق، بوصفهم المتعاملين مباشرة مع جمهور الناس وبيان أي مميزات أو مثالب للسلعة بوضوح تام وفي ذلك يقول:

- «البيعان (البائع والمشتري) بالخيار ما لم يتفرقا، فإن صدق البيّعان وبيّنا، بورك لهما في بيعهما. . .»[١].

- «التاجر الصدوق الأمين، مع النبيّين والصديقين والشهداء»[٢].

- «يا معشر التجار، إن التجار يبعثون يوم القيامة فجّاراً، إلا من اتقى الله، وبرّ وصدق»[٣].

٢/ ٣- التزام الأمانة:

تقتضي الأمانة عدم تمويه المنتج لمنتجاته بارتكاب الغش في مكوناتها بأي نسبة كانت، وذلك بادخال مكونات أقل كلفة مكان مكونات أعلى كلفة في صناعة السلعة أو تركيبها، كإضافة الماء إلى اللبن، وزيت الذرة إلى زيت الزيتون، أو ادخال خيوط القطن مع الصوف أو الحرير الصناعي مع الطبيعي، إلى غير ذلك من الأساليب التي تحجب الحقائق عن المستهلك.

هذا وتقتضي الأمانة أن تقوم كل الفعاليات الاقتصادية على أساس من الصدق والوضوح والثقة العميقة بين المتعاملين، فلا حجب للحقائق من أحد أطراف الشراكة عن الآخر، ولا استئثار بمال عن طريق التزوير والكذب والتبرير، ولا إهلاك للمنتجات لاخراج المنافسين من السوق، ولا حرق للأسعار لتسبيب الخسارة للآخرين إلى غير ذلك من الأساليب الملتوية التي تطالعنا بها السوق يومياً.

لذلك يؤكد الرسول الكريم على أمانة التجار بوصفهم حلقة الوصل بين المنتج والمستهلك، تحقيقاً لعدالة الثمن من ناحية، وتوطيداً للثقة بين الاقتصاديين من ناحية ثانية، لتستمر عجلة الاقتصاد في الدوران باطمئنان فيقول:

---

(١) متفق عليه.

(٢) رواه الترمذي.

(٣) رواه الحاكم وابن ماجه وابن حبان.

- «يد الله على الشريكين ما لم يخن أحدهما صاحبه، فإذا خان رفعها الله عنهما»[(١)].

- «إن أطيب الكسب كسب التجار، الذين إذا حدثوا لم يكذبوا، وإذا ائتمنوا لم يخونوا، وإذا وعدوا لم يخلفوا، وإذا اشتروا لم يذمّوا، وإذا باعوا لم يمدحوا ، وإذا كان عليهم لم يمطلوا، وإذا كان لهم لم يعسّروا»[(٢)].

٢/ ٤ : بذل النصيحة :

ليس كل المستهلكين خبراء في السلع التي يحتاجونها، ولا كل التجار خبراء في ذلك، الأمر الذي يقتضي أن يطلب كل منهم النصيحة من الخبراء في السلعة، يطلبها التاجر من المنتج أو الوسيط، والمستهلك من التاجر، فإذا بذل كل من هؤلاء النصيحة خالصة لوجه الله مراعيا الحق والحقيقة، ساد المجال الاقتصادي ككل، الرضا والاطمئنان والثقة والتوافق، وعمل جهاز الأسعار بموضوعية تحقق ايجابية الدورة الاقتصادية برمّتها ومن ضمنها عدالة الثمن.

لذلك يؤكد الرسول الكريم على بذل النصح من كل مسلم في كل حال فيقول:

- «من لم يمس ناصحاً لله ولرسوله ولكتابه ولإمامه ولعامة المسلمين فليس منهم»[(٣)].

ويؤكد على التناصح في مجال البيع، بحيث يبين البائع أي عيب في السلعة التي يبيعها أو يروّج لها فيقول:

- «المسلم أخو المسلم، ولا يحلّ لمسلم إذا باع من أخيه بيعاً فيه عيب إلا بيّنه»[(٤)].

---

(١) متفق عليه.

(٢) رواه البيهقي والأصبهاني.

(٣) رواه الطبراني.

(٤) رواه أحمد وابن ماجه.

٣- تلافي سلبيات السوق :

٣/ ١- الغش :

يجمع الغش كل نوعيات مساوىء القيم والأخلاق ، من كذب وخيانة وغدر ولؤم، وتزوير وتمويه وتضليل وخداع . . إلخ. وهو مدعاة عدم طمأنينة الناس وثقة بعضهم ببعض، مما يشيع روح المقت والبغض والحقد والإزدراء والكراهية فيما بينهم، وبالتالي يحطم أواصر العلاقات وإمكانات التعاون البناء، إضافة إلى أنّه يفقد الغشاش قيمته واحترامه لذاته، مقابل كسب رخيص.

إلا أن الواقع النفسي لبني الإنسان، وتحكّم الجشع والطمع والأثرة والأنانية لديهم، يلجئهم إلى هذا الأسلوب الردىء الذي لا يأباه إلا من أنعم الله عليه بنعمة الإيمان، فقد نفذ الغش إلى كل معاملات السوق، إلى درجة أن المزارع البسيط أصبح يغطي منتجاته بأحسن النّوعيّات ويضع تحتها أسوأها، وهكذا في كل منتج، مما يجعل أي مجتمع يعشش فيه الغش يفقد الثقة في المنتجات الوطنية، ويلجأ إلى المنتجات الخارجية التي يعتقد أنه لا غش فيها، أو أنها أقلّ غشاً.

والرسول الكريم يرفض الغش بشكل مطلق، وينفي عن زمرة المسلمين كل غشاش، لأن المجتمع الطاهر، يجب أن يلفظ الملوثين الذين يبيحون أنفسهم للغش، فيقول:

- «من غشّنا فليس منا، والمكر والخداع في النار»(١).

- «من حمل علينا السلاح فليس منا، ومن غشّنا فليس منا»(٢).

- «المؤمنون بعضهم لبعض نصحة وادّون وإن بعدت منازلهم وأبدانهم، والفجرة بعضهم لبعض غششة متخاونون وإن اقتربت منازلهم وأبدانهم»(٣).

---

(١) رواه الطبراني وابن حبان.

(٢) رواه مسلم.

(٣) رواه ابن حبان.

٣/ ٢ الاحتكار:

- **احتكار الشراء:** احتكار الشراء هو قيام التاجر بشراء معظم أو كل منتجات جهة ما، سعياً وراء التحكم في السوق والأسعار، وزيادة الثمن وتضخيم الأرباح.

كان احتكار الشراء سابقاً بسيطاً محدوداً، حيث يقوم بعض التجار بتلقي ناقلي المنتجات قبل وصولهم إلى السوق، واحاطتهم بواقع الأسعار، ومن ثم التحكم في البيع، وقد نهى الرسول الكريم ﷺ عن مثل هذا الاحتكار بقوله:

- «لا تتلقوا الركبان، ومن تلقّاها، فصاحب السلعة بالخيار بعد أن يقدم السوق»[(١)].

إلا أن احتكار الشراء أخذ يتطور إلى درجة احتكار بعض الشركات الكبرى منتجات دولة كاملة أو إقليم كامل، كما هو حادث اليوم في شركات البترول والغاز والمعادن، بل والشاي والتوابل والكاكاو والسكر والبن، والحبوب وغيرها، مما يجعل المحتكر المالك الوحيد للسلعة، ويمكّنه من التحكم في الأسعار دونما مراعاة لعدالة الثمن.

- **احتكار البيع:**

واحتكار البيع بصورته البسيطة يقوم على حجب السلعة عن السوق، ليزداد الطلب عليها ويتحكم المحتكر في الأسعار، ويضخّم أرباحه، لا سيّما بالنسبة للسلعة التي لا غنى للمستهلك عنها كالغذاء والكساء والدواء ومستلزمات البناء وغيرها.

وقد تطور احتكار البيع باتباع أساليب شيطانية لمحاصرة السوق، وتوظيف عصابات إجرامية لاهلاك المنتجات المنافسة، وتدمير المصانع، وحرق المزارع، بل وعلماء لتدمير المزارع بيولوجياً والمصانع كيماوياً، أو بأسلوب حرق الأسعار، ومحاصرة المنافسين وإجبارهم على إعلان إفلاسهم والانسحاب من السوق، وبالتالي تضخيم الأسعار وزيادة الأرباح.

والمتابع لحركة الاقتصاد يعلم كيف تضخمت الأسعار، ووصلت بعض السلع

---

(١) متفق عليه.

في مدى عقدين أو ثلاثة من الزمن إلى مئات أضعاف سعرها، والنتيجة زيادة غنى فئة على حساب زيادة فقر فئة أخرى من الناس، وتحكم رأس المال في السواد الأعظم من البشر، وتركيعهم وتكريس تبعيتهم للرأسماليين، ومن ثم تحكّم أصحاب رأس المال في البلاد والعباد، وتحكّم الدول الرأسمالية في دول وشعوب العالم كما هو حادث اليوم.

والرسول الكريم يربي المسلمين على رفض هذا الاتجاه الهدام، والنأي عن الاحتكار بكل أنواعه، لا سيما فيما لا غنى عنه كالطعام فيقول:

- «من احتكر حكرة يريد أن يغالي بها على المسلمين، فهو خاطىء، وقد برئت منه ذمة الله»[1].

- «من دخل في أسعار المسلمين يغلي عليهم، كان حقّاً على الله أن يقذفه في جهنّم»[2].

- «من احتكر طعاماً أربعين ليلة، فقد برىء من الله، وبرىء الله منه»[3].

٣/٣ - التطفيف:

التطفيف هو كل تلاعب في المكاييل بأنواعها، بأن يكيل الإنسان زيادة عن حقه إذا اشترى، وينقص الكيل لتبقى له الزيادة إذا باع، فيأخذ فوق حقه بائعاً ومشترياً، ويأخذ المتعامل معه دون حقه إذا باع وإذا اشترى، ومثل المكاييل المقاييس والموازين.

والتطفيف مسخ لإنسانية الإنسان الكريم، يرسّخ عبودية الإنسان للمال، ويمسخ حريته التي وهبه الله إياها، وتطالعنا السوق يومياً بأساليب خبيثة من التطفيف، باجتزاء جزء بسيط من وزن المنتج ـ جرام واحد من مائة جرام مثلاً ـ فإذا ما بيع منه ملايين القطع، أضاف ثمن عشرات أو آلاف ثمنها للأرباح دون أن يلفت ذلك نظر المستهلك، وحتى لو لفت نظره لا يأبه له، لأنه لا يخسر سوى ١٪ من حجم السلعة.

(١) رواه الحاكم.

(٢) رواه الحاكم.

(٣) رواه أحمد والبزار وغيرهما.

ونظراً لسوء تأثير التطفيف على حياة البشرية بعامة، فقد أنزل الخالق - جلّ في علاه - سورة كاملة في كتابه العزيز هي سورة «المطففين» التي تبدأ بقوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣﴾[1]. الويل لهؤلاء لافسادهم الحياة البشرية كلها.

لذلك يحذر الرسول الكريم المسلمين من التطفيف الذي لا تقتصر آثاره على النواحي الاقتصادية فحسب وإنما تهز الكيان الاجتماعي كله، حيث تنعدم الثقة ويتراجع التعاون وتضطرب الحركة الاقتصادية مما يؤثر على أرزاق الكثيرين فيقول:

- «ولا نقص قوم المكيال والميزان إلا قطع عنهم الرزق»[2].

٤- نزاهة التعامل الاقتصادي:

هناك تعامل مستمر بين المشاركين في النشاط الاقتصادي بعامة من منتجين ووسطاء ووكلاء ومزودين وتجار ومنتهلكين وغيرهم، وإذا كان التعامل نزيهاً ميسراً خالياً من التعقيد والانحراف ارتقى بالنشاط الاقتصادي ككل، لذلك تعمل أمم الأرض على تحقيق أعلى إيجابية ممكنة للتعامل بين أطراف النشاط الاقتصادي والحيلولة دون استشراء السلبية فيه، وهذا ما نبه عليه الرسول الكريم في تربيته للمسلمين ويتضح ذلك فيما يأتي:

٤/ ١ ترسيخ ايجابيات التعامل:

- **السماحة**: نعني بالسماحة تحكيم روح الثقة واللطف والود والحق والعدل في التعامل، والنأي عن الفظاظة والصّداميّة والتوتر، وذلك لأن علاقات التعامل اختيارية ولا اجبار فيها، فمن يجد السماحة من طرف ما انجذب إليه، واطمأن إلى التعامل معه، والعكس صحيح.

ولا تعني السماحة مطلقاً التهاون في الحقوق حتى تضيع، فهذا ما لا يقبله أحد، وإنما تعنى التعامل بصدق وأمانة ووفاء ومودة، إضافة إلى سعة الأفق وسعة الصدر والصبر وتوفير الرضا والطمأنينة للطرف الآخر، وعدم لجوء أي طرف إلى

---

(١) المطففين (١-٣).

(٢) متفق عليه.

الغش والتحايل والتلاعب، ويدخل ضمن السماحة إقالة المشتري إذا طرأت عليه ظروف تمنعه من استمرارية حيازة السلعة أو الوفاء بالالتزامات المترتبة عليها.

وقد أبدعت الدول المتقدمة اقتصادياً في تحكيم السماحة في البيع والشراء فنجد أن المستهلك يستطيع أن يستبدل السلعة التي إشتراها خلال مدة معينة دونما أي غضاضة، بل ويمكنه إعادتها وإستعادة الثمن، في حين نجد أن الأمم التي منيت بالتخلف لا زالت تتصدر متاجرها عبارة «البضاعة التي تباع لا ترد ولا تستبدل».

من هنا تتضح حكمة الرسول الكريم ﷺ، في تربية المسلمين على السماحة في البيع والشراء والقضاء والإقتضاء حيث يقول:

- «رحم الله عبداً. سمحا إذا باع، سمحاً إذا اشترى، سمحاً إذا إقتضى»[١].

- «أفضل المؤمنين رجل: سمح البيع، سمح الشراء، سمح القضاء، سمح الإقتضاء»[٢].

- «ألا أخبركم بمن يحرم على النار وتحرم عليه النار، كل قريب لين سهل»[٣].

- التيسير: الأصل في التعامل الإقتصادي هو الوفاء بالعقود في مواعيدها المحددة لتأمين الحقوق للأطراف المتعاملة، ولكن ظروف الحياة لا تستمر على وتيرةٍ واحدة، فقد تطرأ ظروف تحول دون الوفاء بالالتزامات في مواعيدها، وهنا يتخذ الناس أحد موقفين إما التيسير، بتأجيل مواعيد التسديد أو تقسيط المبالغ المستحقة أو إعادة جدولتها كدين مستحق، أو الغاء بعض الاستحقاقات لا سيما ما يعادل الأرباح ليتيسر للمعسر السداد، أو المساعدة في برمجة الانتاج وتشغيل المصانع وبهذا ينقذ الدائن باستعادة حقوقه والمدين بتمكينه من الوفاء بالتزاماته، وهناك الموقف الآخر وهو التعسير الذي يركب مراكب التعنّت ورفض التفاهم حول أي أسلوب لسداد الدين أو الالتزامات إلا بما نصّ عليه العقد، أو اللجوء إلى المحاكم، وكثيراً ما يسجن المدين فلا الدائن استعاد حقه ولا المدين تخلص مما

---

(١) رواه البخاري وابن ماجه.

(٢) رواه الطبراني.

(٣) رواه الطبراني.

عليه، والأسلوب الشائع اليوم هو الحجز على ممتلكات المدين المعسر، وبيعها بالمزاد العلني وبأبخس الأثمان، والحاق ضرر به لا تقوم له بعده قائمة، فإذا اشترى مزارع مثلاً آلات زراعية والتزم بتسديد أثمانها في موعد الجني والحصاد، ثم فوجىء بجفاف الموسم أو بتعرض محصولاته للتلف لأي سبب من الأسباب، فإنه سيفقد حقله الذي هو مصدر رزقه إذا لم ييسر عليه صاحب الآلات.

والرسول الكريم ﷺ يربي المسلمين على اتباع التيسير انطلاقاً من الأخوة الإسلامية فيقول:

- «من يسر على معسر، يسّر الله عليه في الدنيا والآخرة»[١].

- «من سرّه أن يظله الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله، فلييسر على معسر أو ليضع عنه»[٢].

٣/ ٢- تلافي سلبيات التعامل:

- الربا:

تقاسم الربح أو فائض الثمن مبرَّر أخلاقيا بأحد أمرين: إما الاشتراك في الجهد، أو الاشتراك في المخاطرة، التي تنجم عن الخسارة، إذ قد يتعرض أي مشروع للخسارة، وعلى من يحظى بنصيب من الربح أن يتحمل جزءاً من الخسارة إذا حدثت.

ونظراً لضرورة رأس المال لأي مشروع، وتكدس رأس المال ـ نتيجة لظروف عديدة ـ في أيدي فئة من الناس، فقد تفتّقت أذهان هؤلاء الرأسماليين ـ وبخاصة يهود ـ عن ابتداع أسلوب يضمن نمواً مستمراً لرؤوس أموالهم دون اشتراك في جهد أو مخاطرة، وذلك بإقراض مبلغ من المال لمن يحتاجه من المنتجين أو غيرهم، مقابل نسبة نمو سنوية، عبارة عن ربح ـ مركب أو بسيط ـ لرأس المال، وبناء عليه يربو المال ويزداد دونما جهد أو مخاطرة، وهذا هو الربا.

بهذا يشارك رأس المال المستدين في ربحه إذا ربح، ولا يشاركه في الخسارة إذا خسر، ففي حالة الخسارة على المستدين تحمل الخسارة والربا معاً، وغير

---

(١) رواه مسلم والترمذي.

(٢) رواه الطبراني.

مجهول أن بعض الدول العربية لا تستطيع اليوم مجرد تسديد فوائد القروض الربوية التي استدانتها، والتي تدفع فوائدها من قوت شعوبها، مما أصاب كل جهودها التنموية بالانتكاس، أما الأفراد فيبقون تحت تهديد مصادرة الممتلكات والسجن وتشريد الأهل والأطفال إذا لم يفوا بسداد الأقساط الربوية المستحقة.

والإسلام يرفض الربا رفضاً قاطعاً بنصّ الكتاب والسنّة، ويرفض أي عائد للمال دون مشاركة في جهد أو مخاطرة، ويبيح أي مشاركة بين رأس المال والمنتجين أو أي مستدينين على أساس نيل الغنم إن غنموا وتحمل الغرم إن غرموا. والله تعالى يبين ذلك بقوله:

- ﴿ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ﴾[(١)].

- ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ ﴾[(٢)].

والرسول ﷺ يأخذ المسلمين بالابتعاد عن جميع المعاملات الاقتصادية الربوية، ولذلك لعن ـ عليه السلام ـ «آكل الربا ومؤكله وكاتبه وشاهديه»[(٣)] ويقول:

- «إذا ظهر الزنا والربا في قرية فقد أحلوا بأنفسهم عذاب الله»[(٤)].

- «اتقوا السبع الموبقات، وذكر منها: «أكل الربا»[(٥)].

- **الرشوة:**

الرشوة هي مبلغ من المال أو ما يعادله يقدّم لصاحب السلعة أو القرار في أي مجال من المجالات مقابل الحصول على حق غير شرعي، سواء بإجازة ممنوع، أو رفض مسموح به، ونتيجة الرشوة هي إباحة حقوق لغير أصحابها أو مصادرة حقوق من أصحابها.

والرشوة وإن كانت أساساً تستهدف تحقيق دخل من غير حق، إلا أنها قد تهدم

---

(١) البقرة (٢٧٥).

(٢) آل عمران (١٣٠).

(٣) عن رواية مسلم.

(٤) رواه الحاكم.

(٥) عن حديث رواه البخاري ومسلم.

المجتمع كلياً، وكم من صفقات أغذية فاسدة أبيحت وغض النظر عن تاريخ صلاحيتها مقابل رشوة، فأودت بحياة آلاف المواطنين، وكم من صفقات أدوية انتهت صلاحيتها أُبيحت برشوة فأدت إلى قتل ألوف من المواطنين واستشراء الأمراض لدى كثير منهم، وكم من بنايات تهدمت على رؤوس ساكنيها بفعل رشوة أباحت التلاعب بالمواصفات وهكذا.

والرشوة لا تقدم لاقرار معاملات سليمة صحيحة، ولا لحصول إنسان على ما هو حقّ له، وإنما لإقرار معاملات لا صحة لها، أو تسويغ إنسان ما ليس له بحق، لذلك ما أن تنتشر الرشوة في مجتمع حتى تدمّره تدميراً كاملاً، وتحله دار البوار.

ولعل أخطر مجال دخلته الرشوة هو مجال الحكم، حيث انتشرت في عصور متأخرة عمليات الحصول على المناصب بالرشوة، فأبيحت لغير الأسوياء ولا الأكفياء، وهؤلاء هم قنوات الفساد في كل زمان ومكان، وتحكمت الرشوة في المكاييل والموازين والمقاييس فهبطت بمستوى جودة الانتاج واتقانه إلى غير ذلك من المجالات التي حطمت قوامة الأمم في المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية بعامة.

وإذا تتبعنا محاصرة الرشوة ومحاربتها نجد أن البلدان المتقدمة لا تتهاون مطلقاً في موضوع الرشوة لوعيها بأنها بوابة الدمار والهلاك، فلا تتهاون مع رئيس دولة قبل رشوة لا يقبل بها رئيس قسم في دول العالم الثالث، وتبقى تطارده حتى تدميره.

والرسول الكريم الذي ميّزه الله تعالى بالوعي الشامل الكامل، يأخذ المسلمين بالنأي عن الرشوة ـ أخذاً أو عطاء ـ حتى يستقيموا على الجادة، والأحاديث في ذلك كثيرة منها قوله:

- «الراشي والمرتشي في النار»[١].
- «لعن الله الراش والمرتشي والرائش (الساعي بينهما)»[٢].

---

(١) رواه مسلم.

(٢) من حديث رواه البخاري ومسلم.

- «الرشوة في الحكم كفر، وهي بين الناس سحت»[١].

- **الغبن:**

الغبن هو ظلم يقع على المشتري أو المستهلك، نتيجة لتضليله في مواصفات السلعة من حيث تركيبها واستخدامها وكفاياتها وعمرها الافتراضي وتوافر خدمات صيانتها وضماناتها.. إلخ أو في المغالاة في سعرها.

ومن المسلّم به أن أفراد المجتمع ليسوا جميعاً على مستوى واحد من الذكاء والفطنة، ولا الخبرة والتجربة والدراية والمعرفة بالسلع التي يحتاجونها، لذلك قد يدخل خضم المعاملات من لا علم ولا خبرة له بالسوق ومقوماته وأحكامه، ولا بالسلع ونوعياتها ومميزاتها وقيمها الحقيقية، ومثل هذا الإنسان هو «المسترسل»، الذي يتعرض للغبن واستغلال المستغلين.

والإسلام يحرّم تحريماً قطعياً غبن المسترسل، لما في ذلك من غدر وخديعة وخيانة، لا تتوافق مع الأخوة الإسلامية، والرسول الكريم يأبى على أي مسلم أن يتعمد غبن المسترس فيقول:

- «غبن المسترسل حرام»[٢].

- «المكر والخديعة والخيانة في النار»[٣].

- **المطل:**

أي منتج يحتاج إلى رأسماله بكامل قدرته، ليوظفه في زيادة الانتاج والتجديد والتطوير.. إلخ. والإسلام إذ يؤكد على السماحة والتيسير على المعسرين، يؤكد كذلك على التزام الميسورين بالوفاء بالتزاماتهم وعدم اللجوء إلى المماطلة حتى لا يحرموا صاحب الحق بعض حقّه، لا سيما وأنه ـ غالباً ـ ما يرتب التزامات مقابلة للديون المستحقة له.

وقد أخذ المطل صوراً غير أخلاقية في زمننا هذا، فكم من القضايا أمام

(١) رواه الحاكم.

(٢) رواه البيهقي.

(٣) رواه أبو داود.

المحاكم على شيكات بدون رصيد، والأغرب من ذلك أن الحكومات تماطل في الوفاء بالتزاماتها، وتتجاوز في مواعيدها عدة أشهر وربما سنوات، لتستفيد من عوائدها الربوية عن فترة التأجيل، وتحرم مستحقيها من الافادة من أموالهم.

والمطل قلّما يأتي من الفقراء أو الضعفاء، لأن سيف القانون مسلط على رقاب هؤلاء، وإنما يأتي من الأغنياء والأقوياء، الذين يتراجع القانون عن مواجهتهم، وبهذا يعمل المطل داخل دوّامة هدر الحقوق وتدمير الاقتصاد.

لذلك يأخذ الرسول ﷺ المسلمين بالنأي عن المطل، والوفاء بالحقوق والالتزامات في مواعيدها، وعدم التحايل عليها لما في ذلك من ظلم، لا سيما بالنسبة للأغنياء، فيقول:

- «مطل الغني ظلم...»[١].
- «ليّ الواجد (مماطلة القادر) يحلّ عرضه وماله»[٢].
- «إن الله يبغض الغني الظلوم»[٣].

جـ- الوفاء بحق العمل

إن الإسلام إذ يوفر للمنتجين تنظيم السوق، وتدعيم إيجابياته والحدّ من سلبياته، ويرسخ ايجابيات التعامل والتبادل ويحول دون سلبياتهما، يؤمن لهؤلاء المنتجين الوصول إلى حقوقهم كاملة، والعمل في مجال الانتاج أو الوساطة التجارية بحريّة وأمن وطمأنينة وثقة، فتتنامى أرباحهم وتنتعش مشروعاتهم، ويحصل رأس المال على حقه كاملاً من الربح، والأرض على حقها كاملاً من الريع، فإنه يقرر أن تعم العدالة عنصر العمل بالوفاء بحق العمل كاملاً.

وعنصر العمل كما سبق القول ـ العنصر الأهم والأكثر جدوى وفاعلية في مجال الانتاج، وبدون طمأنينته ورضاه واستقراره، قد لا يتحقق ربح من فائض ثمن أو

(١) رواه البخاري ومسلم وغيرهما.
(٢) رواه ابن حبان والحاكم.
(٣) رواه الطبراني والبزار.

فائض قيمة، ولكن هذا العنصر يبقى الأضعف حتما في حلقات السلسلة، نظراً لفقره وعوزه واحتياجه، لذلك نجد من الرأسماليين أصحاب الملايين والبلايين في حين أن العامل لا يكاد يصل إلى حدّ كفاية العيش.

وتختلف الأنظمة في حماية عنصر العمل، فالنظام الاشتراكي ينيط بالسلطات توفير فرص العمل لكل قادر عليه والحيلولة دون البطالة واستثمار قوة العمل كاملة، وتقرر السلطات مكافأة العمل من لدنها، أما النظام الرأسمالي فيترك الأمر للعرض والطلب وإن كان الأمر قد دعا إلى تدخل الدولة للتوفيق بين العمال وأرباب العمل بعد نشوء نقابات العمال التي غدا لها دورها في مجالات الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

والإسلام يأخذ بمبدأ التراضي بين قوة العمل ومستخدميها، إلا أنه يبيح للدولة التدخل المباشر في أمرين هما: سياسة الأجور، وظروف العمل، كما يأتي:

١ - سياسة الأجور:

يقرّ الإسلام تحديد الأجور بالتراضي ، وتفاوت الأجور بتفاوت الكفاءات والمؤهلات والخبرات والمهارات والمهام والمسؤوليات، على ألا يكون هناك اجحاف بحق العامل أو استغلال لضعفه وحاجته.

والدولة الإسلامية ملزمة بالتدخل لتحقيق عدالة الأجور وكفايتها، والحيلولة دون تآكل الأجور بما يؤدي بالعامل إلى العوز، ومن المعروف أن الدولة الإسلامية قد مارست حقها في تثبيت الأسعار حتى لا تتآكل الأجور، وفي اعتماد سلّم متدرج للأجور يواكب تضخم الأسعار.

«في عهد أبي جعفر المنصور ارتفعت الأسعار، مما جعل الأجور غير كافية لتأمين حدّ الكفاية ، فأمر بثبيت الأسعار ، وكتب في ذلك لمختلف الأقطار، وأمر بتدعيم عديد من السلع الأساسية للمحافظة على ثبات الأسعار وذلك من بيت مال المسلمين».

«وتزايد تضخم الأسعار في عهد المأمون ، مما دعاه أن يلجأ إلى أسلوب تدرج الأجور وتزايدها بما يواكب تزايد الأسعار، وكلف أناساً بمراقبة الأسعار، واقتراح

الزيادة في عطاءات الجند والعمال بما يوازي زيادة الأسعار، فكان أول من ابتدع السلّم المتحرك للأجور»(١).

ويأخذ الإسلام بمبدأ الوفاء الفوري بالأجور وعدم الماطلة فيها، وفي ذلك يقول الرسول الكريم ﷺ:

- «أعطوا الأجير أجره قبل أن يجفّ عرقه»(٢).

- «ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة، رجل أعطى بي ثم غدر، ورجل باع حرّاً فأكل ثمنه، ورجل استأجر أجيراً، فاستوفى منه ولم يعطه أجره»(٣).

٢- ظروف العمل:

لا يتأتى لإنسان انجاز وانتاج واتقان وإبداع، بدون توافر الراحة النفسية والاستقرار الوجداني، لذلك فإن أمم الأرض حرصت ـ بعد انتهاء عهود العبودية ـ على تحسين الظروف التي يعيشها العامل، ليبذل أقصى جهده ويقدم أفضل ما عنده.

والإسلام راعى ظروف العامل بشكل موضوعي، ليس لتكثيف الانتاج فحسب، وإنما لكون العامل إنساناً مسلماً هو أخ في الإسلام لصاحب العمل، مما يوجب على صاحب العمل ألا يرضى له إلا ما يرضاه لنفسه، بل إن الإسلام لا يرضى للعامل ـ وإن كان مملوكاً ـ ألا يعامل معاملة شاذة فيقول ﷺ:

- «للمملوك طعامه وشرابه وكسوته، ولا يكلف إلا ما يطيق، فإن كلفتموهم فأعينوهم»(٤).

- ويقول ـ عليه السلام ـ:

- «هم إخوانكم جعلهم الله تحت أيديكم، فمن جعل الله أخاه تحت يده، فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس، ولا يكلفه من العمل ما يغلبه، فإن كلّفه ما يغلبه فليعنه عليه»(٥).

---

(١) عن ابن جرير الطبري، تاريخ الأمم والملوك، مرجع سابق، جـ٤، ص ٥٣٦ بتصرف.

(٢) رواه الطبراني وابن حبان.

(٣) رواه البخاري وابن ماجه.

(٤) رواه مسلم وابن حبان.

(٥) رواه البخاري.

- ويؤكد عليه السلام على عدم موالاة المشقة عليهم بقوله:

- «اللهم من ولي من أمر أمتي شيئاً فشق عليهم فاشقق عليه، ومن ولي من أمر أمتي شيئاً فرفق بهم فارفق به»[1].

ويقول ﷺ:

- «من كان لنا عاملاً، فإن لم يكن له مسكن فليكتسب مسكناً»[2]

- وقد استقى المسلمون من توجيهات الرسول الكريم ما جعلهم يبدعون في تحسين ظروف العمل والتيسير على العامل وعدم تعريضه لما يؤذيه وعدم تكليفه بما يشق عليه ومن ذلك:

- تأمين متطلبات الأمن والسلامة لأماكن العمل.

- تأمين الإسكان المناسب للعمال.

- تأمين الرعاية الصحية للعمال.

- تحديد أوقات العمل حسب نوعيته.

- تأمين الأجور العادلة مع الأخذ بالاعتبار ظروف العامل الأسرية والاجتماعية.

-تأمين اجازات العمل المتنوعة بشكل كاف.

وعليه فإن الاسلام وإن أخذ بمبدأ التراضي بين العامل ورب العمل، إلا أنه لا يترك التحكم في العمال وظروف العمل للرأسماليين وإنما ينيط ذلك بالدولة.

د- توزيع الفائض أو تفتيت الثروات

يصف بعضهم رأس المال بأنه جبان، فلا يبقى في مكان تهدّده فيه الأخطار، ويصفه بعضهم بأنه ذكي ، فلا يبتكر النظام أسلوباً للحدّ من تضخّمه إلا ويفسده عليه ويحوله إلى صالحه، وكلا الوصفين صحيح، فقد حاولت بعض الأنظمة الحجر

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه أبو داود والحاكم.

على تضخم الأرباح فهربت رؤوس الأموال إلى أنظمةأخرى لا تحجر عليها، وحاولت بعض الدول تقنين الأسعار، ولكن رأس المال عمل على تدني نوعية الانتاج وتكثيفه بحيث يبقى معدل الربح كما كان إلى درجة أن معظم القادرين وافقوا على الشراء بأعلى من التسعيرة لتوفر لهم النوعية الجيّدة.

ما الحل إذن؟ هل يترك رأس المال يوالي تضخّمه وسيطرته على البلاد والعباد، ويتحول إلى غول يغتال قيم الأمة وأخلاقها ويبسط سيطرته على الناس كما هو حادث اليوم في النظام الرأسمالي؟ أم يقمع بالحديد والنار فيتدنى الانتاج ويؤول الاقتصاد كلّه إلى البوار كما حدث في النظام الشيوعي؟

لقد كان الإسلام أول من حلّ هذه المعادلة الصعبة بأبسط الأساليب، فحال دون تنامي رأس المال إلى درجة الخطر وإلحاق الضرر، ولم يقمع أحداً بالسيف ولا بالرمح.

إن النفس الإنسانية بطبيعتها حريصة على المال، شحيحة به، جشعة كل الجشع على حيازته، وقد تتبع أساليب منحرفة من ظلم وغبن وغدر لتضخيمه هذا هو الطرف الأول من المعادلة.

ولكن الإنسان ذاته إذا آمن حق الإيمان ووعى مشتملات الإيمان واتقى الله حق التقوى، وعلم بأن الإنسان لن يترك سدى، ولا بدّ من يوم حساب يحاسب فيه عما قدّم في حياته الدنيا، يعلم بالمنطق أن الحساب لا يسوّي بين من أعطى واتقى وبين من بخل واستغنى، وهذا هو طرف المعادلة الثاني.

لقد وضع الإسلام مقابل جذب المعادلة الأولى من حرص وشح وجشع وطمع وتدسية النفس، جذب المعادلة الثانية من تطوّع وانفاق وبذل وعطاء وتزكية النفس.

وكانت النتيجة أن جعل النفس الشحيحة تتنازل عنه طوعاً بقوة جذب أقوى من شهوة المال وهي رضا الله تعالى والفوز يوم الحساب.

وأدى هذا الاسلوب إلى الترفع عن كل اسلوب منحرف في جمع المال وتضخيمه، فمن تسخو نفسه ببذل حرّ ماله لتحقيق رضا الله، لا يمكن أن يفكر في

سلب مال غيره ويغضب الله، وبذلك أصبح المسلم يتنازل عن جزء ليس بيسير من ماله طائعاً مختاراً راضياً كل الرضا مرتاح النفس والضمير.

وهكذا عمل الإسلام على تفتيت الثروات والحيلولة دون استشراء خطر تضخم رأس المال بأساليب عديدة منها:

١ - البذل التطوعي:

المسلم يعلم علم اليقين بأن الحياة الدنيا محدودة الأمد، وهو مفارقها يوماً، وأنه محاسب على ما قدم في الحياة الدنيا، لذلك يسخو في بذل ماله في سبيل الخير التي يرضاها الله ورسوله لينال الحسنى في الآخرة.

ومجالات مثل هذا الانفاق تتسع باتساع احتياجات المجتمع الذي يعيش فيه، وتتطور بتطور هذه الاحتياجات وتناميها ومن ذلك:

- الأوقات الخيرية، كالأوقات الدينية، والصحية، والثقافية، والتنموية بأنواعها.

- مساندة المعوزين، من أيتام وأرامل وعجزة وشيوخ ومصابين ومعاقين.

- تنمية المجتمع بتعليم غير القادرين على التعليم، وتوفير الرعاية الصحية للمرضى، وكفالة الأيتام، وتمويل مشاريع تنهض بكفاية الأسر والجماعات، بتمويل مباشر، أو بتخصيص صدقة جارية تحقق استمرارية النهوض بها.

- تدعيم نشر الدعوة والجهاد في سبيل الله، وتعزيز الدفاع عن الوطن والأمة وهكذا.

ويستمر مثل هذا البذل مع استمرارية حياة الفرد، وبدافع ذاتي، وبتوافق مع امكاناته وقدراته وطيب نفسه، وبذلك ينتقل جزء من ا لثروة من صاحب رأس المال إلى فئات كثيرة من المجتمع.

٢ - الوصايا:

عندما يشعر الإنسان بأن شمس الحياة بدأت في الغروب، تصفو نفسه، ويرقّ شعوره ، ويتحرّر وجدانه من ضغوط الحياة، ويندى جفاف قلبه، ويأخذ في

محاكمة الأمور محاكمة موضوعية، وكثيراً ما يتمنى لو أنفق في سبيل الله، وقدم أكثر مما قدم لينعم برضا الله.

والإسلام يتيح لصاحب المال أن يتدارك ما فاته بأن يوصي بقدر من ماله ـ لا يتجاوز الثلث ـ في سبيل الله، وفي كل ما ينفع الناس في دينهم ودنياهم، حتى إذا ما انتقل إلى جوار ربه أخرج ما أوصى من ماله وخصص للجهات المحددة في وصيته، بعد الوفاء بما في ذمته من: التزامات مالية كالدّين والزكاة قبل التصرف في المال.

ويشترط في الوصية ما يأتي:

- أن تكون في حدود ثلث الأموال التي سيتركها الإنسان ولا تتجاوزه.
- أن تكون لأغراض مباحة شرعاً.
- أن تكون في حياة الإنسان وهو مالك لقواه العقلية.
- ألا يخصص أي قدر منها لأي من الورثة الشرعيين للموصي.
- أن تكون موثقة بكتابة أو شهود عدول أو بهما معاً.

وبالوصايا ينتقل جزء آخر من المال يشكل نسبة كبيرة من رأس المال إلى أفراد أو جماعات أو مجالات متنوعة، مما يحدّ من تضخّمه واستشراء آثاره.

٣- الارث:

يأخذ الاسلام بأيلولة أموال المتوفى إلى ورثته الشرعيين، وليس إلى الدولة كما تفعل بعض النظم، ولا يحرم أيّاً منهم كما تفعل نظم أخرى، فالورثة محددون في الشرع الإسلامي بإسلوب حصري وبأنصبة محددة لكل من الآباء والأمهات والبنين والبنات وغيرهم، وفي حالة فقدان أي فئة، يجري توزيع الأنصبة لتشمل الأقرب فالأقرب، وهناك نظام متكامل للمواريث تعنى به كتب الفقه الإسلامي، ولا تنتقل أموال المتوفى إلى خزينة الدولة أو بيت المال إلا في حالة عدم وجود وريث شرعي على الإطلاق.

ونظام الإرث في الإسلام من شأنه أن يعمل بموضوعية عالية لتحفيز التنمية الاقتصادية بعامة بما يأتي:

- دفع الناس للعمل الجاد المثمر للإنتاج والإبداع لتحقيق كسب جيد، يستجيب لدافع الحب الفطري للأبناء والحرص على توريثهم ثروة تغنيهم عن تكفف الناس، وتمكنهم من مواجهة أزمات الحياة وتحدياتها.

- تمكين العناصر الشابّة من حيازة رأس مال يمكنها من دخول حقول الإنتاج سواء ـ أكانوا بنين أو بنات ـ برؤى جديدة، وأفكار متطورة تتواءم مع الزمان الذي يعيشون فيه، وتوظف المستحدثات والمستجدات، بما يدفع التنمية الاقتصادية للمجتمع قدما.

- توسيع قاعدة الإستهلاك، بتزايد الفئات القادرة عليه، مما يزيد من قدرات الطلب، فيجذب معه قدرات العرض وتنمية الإنتاج.

- تفتيت الثروات تدريجياً، وتلافي آثار تضخم رأس المال وطغيانه وشراسته وتحكمه في مجريات الحياة.

٤- الضمان الاجتماعي بالزكاة:

- ويقوم على اجتزاء نسبة محددة من رأس المال المتراكم سنوياً، تؤدى لبيت المال لتحقيق الضمان الاجتماعي بكل مقوماته الثقافية والصحية والاجتماعية بعامة، لا سيّما بالنسبة لأولئك الذين أخرجوا خارج دائرة الكسب الذاتي مكرهين، حتى لا يترك ولي الأمر أو الدولة المسلمة مكتوفي الأيدي تجاه هذه الحالات.

- والزكاة هي المصدر المالي المتجدد لهذا الجانب، وهي ليست اختيارية أو تطوعية، وإنما هي جزء لا يتجزأ من المذهب الاقتصادي الإسلامي، وركن من أركان الدين كالشهادتين والصلاة والصيام والحج، قررها الخالق ـ سبحانه ـ بقوله: ﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾[1].

والزكاة تؤدى طوعاً، وإذا لم يؤدها صاحب المال، تؤخذ منه كرهاً، فإذا امتنع يقاتل عليها وهذا ما ذهب إليه خليفة رسول الله، أبو بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ في شنّه الحرب على المرتدين الذين أبوا أن يؤدوا الزكاة، فقال قولته المشهورة: «والله

(١) البقرة (١١٠).

لأقاتلنّ من فرّق بين الصلاة والزكاة». ويعتبر الإسلام الزكاة حق الله تعالى في المال تؤخذ من الأغنياء لترد على الفقراء.

والزكاة ليست ضريبة عشوائية تفرض على المال بكم أو قدر محدّد بحيث تزيد الفقير فقراً، وتبقي على اتساع هوّة الفوارق الاجتماعية والاقتصاديّة، وإنما هي عن ظهر غنى فقط، وهي نسبية وليست حدّيه، ويشترط فيها أمران:

- أن يتوافر لدى المسلم قدر معين من المال يزيد عن حاجته الفعلية، وهو ما يسمى النصاب، ويقدر بخمسة وثمانين غراماً ذهباً أو ما يعادلها.

- أن يحول حول كامل على المال الفائض، بحيث تكون زيادته عن الاحتياجات فعلية وواقعية، وفي الوقت نفسه تؤخذ من الكم المتراكم في الإنتاج الحيواني، والمحصول السنوي الزراعي، فهي ليست نقدية فقط، وإنما نقدية وعينية، ولذلك لها دورها في الحدّ من تضخم الأسعار، وسقوط العملات، وتآكل الأجور، والتضخم الاقتصادي بعامة، وأهم ملامحها ما يأتي:

٤/ ١- مقاديرها: مقادير الزكاة النسبية كما يأتي:

-٢,٥٪ في المال المنقول ـ نقداً أو ما يحول إلى نقد سائل كالذهب والفضة والمعادن والجواهر وغيرها ـ وفي عروض التجارة، أي الموجودات والبضائع التجارية بمختلف أصنافها.

- ٥٪ من المنتوجات الزراعية التي يتم انتاجها بجهد بشري.

-١٠٪ من المنتوجات التي تنتج بدون جهد بشري.

- ٢٠٪ من الركاز وهو كل ما يستخرج من ثروات الأرض ـ يابسها ومائها ـ.

- وحدة حيّة عن كل عدد من كل نوع من أنواع الحيوانات، تختلف من نوع إلى آخر.

٤/ ٢- مصارفها:

والزكاة ليست مفتوحة مجالات الصرف فهي ليست ضريبة تنفقها الدولة فيما يتراءى لها، وإنما هي محددة المصارف بحيث لا يجوز لأحد أن يجتهد فيها ـ وإن كان الاجتهاد وارد في توصيف كل فئة من فئاتها المحددة ـ بقوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ

وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾[1].

والأصل في الزكاة أن تؤدى لبيت المال، مما يمكّن الدولة من الوفاء باحتياجات وكفاية الفئات المحددة، والتوسع في مجالات صرفها بحيث تؤدي إلى تحسين ظروف هذه الفئات وصولاً إلى حدّ الكفاية لكل منها.

ومن المعروف أن الزكاة لم تجد من يأخذها في عهد عمر بن عبد العزيز ـ رضي الله عنه ـ فجرى التوسع في انفاقها على تأمين المسكن والأثاث ووسائل النقل وتكاليف الزواج وغير ذلك للمحتاجين.

٤/٣ : أهدافها:

للزكاة أهداف واضحة تنضوي تحت مجموعتين هما:

- **أهداف مادية**: بزيادة كفاية الفئات المقصورة، لا سيما الفئات الأقل حظاً في الكسب أو التي حرمت امكانات الكسب الذاتي، مما يزيد من قدرة الطلب، ومجالات العرض وتطوير الإنتاج، وإعادة بعض التوازن إلى تفاوت الطبقات، وتفتيت الثروات، والحيلولة دون التضخم الضار لرأس المال.

وبالرغم من محدودية نسبتها بحيث لا تكاد تؤثر على رأس المال المنتج، فمن يملك ألف درهم لا يؤثر عليه أن يقدم خمسة وعشرين، إلا أن مجموعها الكلي يصل إلىأرقام خيالية، يمكن أن تحقق أكفأ حركية اقتصادية في أفقر قطر اسلامي.

- **أهداف معنوية**: قوامها الارتقاء بنوعية مقومات نفس المسلم، فتقديم هذا القدر من المال طوعاً ـ مهما كان محدوداً ـ يحقق انتصاراً على هوى النفس والهلع والجشع والطمع وعبودية المال، كما يحقق استمراءً للجود والكرم والبذل والعطاء والايثار والتضحية، وقصديّة رضا الله تعالى، والنأي عما نهى عنه سبحانه.

أما بالنسبة لمن تصرف له فإنها تحرر نفسه من أوهاق الحقد والبغضاء والحسد والكراهية والضغينة تجاه الأغنياء، وتمحو معالم العدوان والصداميّة وتمنّي الأذى أو إلحاقه بهم.

(١) التوبة (٦٠).

وبهذا تبنى العلاقات بين جميع أبناء المجتمع على أسس من المحبة والمودة والتوافق والتفاهم والتقدير والاحترام فغنى الأغنياء ينعكس كفاية على الفقراء، وقوة الفقراء تنعكس منعة على الأغنياء.

لذلك تتكرر الآيات في القرآن الكريم مؤكدة على إيتاء الزكاة، ويربي الرسول الكريم المسلمين على المبادرة بإيتاء الزكاة في عديد من الأحاديث منها قوله:

- «من كان يومن بالله واليوم الآخر فليودّ زكاةماله»(١).
- «من أدّى زكاة ماله، فقد ذهب عنه شرّه»(٢).
- «أمرنا بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، ومن لم يزكِّ فلا صلاة له»(٣).

وغير خاف أن الزكاة تشكل إقداراً لفئات إجتماعية للاسهام في الدورة الإقتصادية، وحدّا من تفاقم تضخم رأس المال وتحكّمه.

٥- التكافل الإجتماعي:

إن الإسلام يعتبر الزكاة حدّاً أدنى لإنفاق القادرين على النهوض بمجتمعهم، وهو حدّ الزامي لا محيد عنه، ولكن الإسلام إذا يستنهض القيم الجليلة في النّفوس النبيلة، يؤهلها لأن تندفع ذاتياً لتدعيم كل إتجهات الخير، ومساندة كل محتاج، والأخذ بيد كل ضعيف، وإعانة كل ملهوف وهكذا، لذلك يفتح المجال واسعاً أمام النفوس الخيرة لبذل المال وفق استطاعتها محققاً بذلك:

- زيادة الكفاية الإقتصادية للفئات المحرومة في عديد من المجالات المقصودة والتي لها صفة العموم مثل: زكاة القطر، الأضاحي، الهدي، النذر، العقيقة، الكفارات، وما إليها.
- الإلتزام بكفاية الأقربين من أهل ووالدين وأرحام وذوي قرابة.

---

(١) رواه الطبراني.

(٢) رواه الطبراني والحاكم.

(٣) رواه الطبراني والحاكم والبيهقي.

- كفالة بعض ذوي الإحتياجات كفالة مستمرة كالأيتام والأرامل وعائلات المجاهدين، وتعليم أبناء المحتاجين إلى غير ذلك.

- تدعيم الإتجاهات التنموية بالأوقاف والصدقات الجارية والهبات وغيرها.

وبهذا يساند التكافل الإجتماعي الضمان الإجتماعي بقدرات قد تفوقه، لأنها تتسع باتساع قدرات المجتمع ككل.

والرسول الكريم يؤكد على هذا الإتجاه في أحاديث لا تكاد تحصر كثرة منها قوله:

- «كفى بالمرء إثماً أن يضيع من يقوت»[١].

- «الساعي على الأرملة واليتيم كالمجاهد في سبيل الله»[٢].

- «برّ أمك وأباك وأختك وأخاك، ثم أدناك أدناك»[٣].

- «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليصل رحمه...»[٤].

- «من أعان غارما، أو غازياً، أو مكاتباً في كتابته، أظله الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله»[٥].

- «أيما أهل عرصة أصبح فيهم أمرؤ جائعاًفقد برئت منهم ذمة الله ورسوله»[٦].

وهكذا نجد من أبواب التكافل الإجتماعي التي يندب الرسول الكريم المسلمين إليها ما يغطي كل إحتياجات المجتمع والنهوض بفئاته غير القادرة، وفي الوقت نفسه يكرس الإنفاق في وجوه الخير، مما لا يسمح بتكدس الثرواث تكدساً يتيح استشراءها واستبدادها.

---

(١) رواه أحمد وأبو داود وغيرهما.

(٢) رواه ابن ماجه.

(٣) رواه البزّار.

(٤) متفق عليه.

(٥) رواه أحمد والحاكم.

(٦) رواه أحمد.

٦- الإنفاق العام:

يقصد بالإنفاق العام،الإنفاق على إحتياجات المجتمع ككل، والذي تعود جدواه على كل فرد فيه، ومن ذلك ـ على سبيل المثال ـ العلاقات الخارجية، وحفظ الأمن، وتعميم الثقافة والتعليم، وتطوير الزراعة والصناعة والتجارة والاتصالات والمواصلات، وشق الطرق وبناء السدود والقناطر والجسور، وجرّ المياه من أمكنة بعيدة، والصناعات الحربية، ومراكز البحوث ومحطات التجارب وما يتطلبه ذلك من رواتب موظفين على مختلف فئاتهم كرجال الأمن والجيش والأطباء والمعلمين... الخ.

هذا الإنفاق قد يكون ثابتاً متكرراً، ولكن هناك انفاق طارئ، كالكوارث والنوازل من زلازل وحرائق وفيضانات وحروب ومكافحة الأوبئة والأمراض وغيرها.

إن هذا الإنفاق برمّته يناط بالدولة، بأجهزتها المختلفة، والدولة لها مصادر دخلها الخاصة من استثمار ثروات الوطن المتنوعة، لا سيما الركاز، وعوائد المشروعات الإنتاجية العامة من صناعية وزراعية، وعوائد مراكز البحوث ومحطات التجارب المختلفة... الخ. إلا أن هذه العوائد قد تكفي في الظروف العادية، ولكنها لا تكفي في الظروف الطارئة التي لا بدّ وأن تلجأ فيها الدولة إلى أحد الأساليب الآتية:

- الإفادة من الزكاة في تدعيم بعض أوجه نشاطاتها التي تعتبر في سبيل الله، من تلافي آثار الكوارث والنوازل وإعانة المصابين والمحتاجين، لا سيّما وأن بعض المصارف كالمؤلفة قلوبهم تصبح في أوقات معينة محدودة للغاية، وكالرقاب التي لم يعد لها وجود.

- فرض رسوم على الإنتفاع بالخدمات العامة التي تقدمها الدولة من مياه وكهرباء ومواصلات واتصالات وبحوث ودراسات وغيرها.

- اللجوء إلى التبرع الطوعي من المواطنين، في الحالات التي لا تنهض بها الإجراءات السابقة، فالقدرة الاقتصادية والمالية لأفراد المجتمع بعامة، تبقى أكبر

كثيراً من إمكانات الدولة مهما تزايدت، وهذا ما لجأت إليه الدولة الإسلامية، لا سيما فيما يتعلق بالمجهود الحربي، وتجهيز الجيوش، وفي مواجهة الأزمات والنوازل.

ومن الواضح أن الاجراءات الستة السابقة تعمل في ثلاثة اتجاهات هي:

- سدّ كل ثغرة من احتياجات أفراد المجتمع وتوفير الكفاية لكل فرد وكل أسرة، والنهوض بكل الاحتياجات المجتمعية المالية والاقتصادية الفردية والجماعية والرسمية، وترقيتها وتطويرها لتصبح على أعلى مستوى ممكن من الكفاية والفعالية.

- تفتيت الثروات تدريجياً وبتتابع مستمر، بحيث تتحول من الحيازة الفردية إلى حيازة جماعيّة أعرض وأوسع، فيتلافى المجتمع سطوة رأس المال وتحكمه واستعلائه واستبداده. ولا يعني ذلك عدم وجود أغنياء، وإنما يعني عدم الاستئثار بالجزء الأكبر من مال الله، وإبقاءه دولة بين الأغنياء فقط، وحرمان عموم الناس منه.

- تمكين عناصر جديدة من دخول مجال الانتاج كالورثة، واقدار فئات عريضة على الاستهلاك وزيادة الطلب، مما يدفع الانتاج إلى التنامي ليعوّض ما يفي بالطلب وبذلك تتسارع الحركيةالاقتصادية ككل في المجتمع المسلم.

خامساً: التربية النبوية في مجال الاستهلاك

يحكم التوازن والاعتدال كينونة الإنسان، كما يحكم كل مقومات حياته على الأرض، بحيث يغدو الإخلال بالتوازن حالة مرضيّة لا بدّ من علاجها، ففي كينونة الإنسان نجد أن استمرارية قوامة حياته تكمن بين حدّين أعلى وأدنى، سواء أكان ذلك في حرارة الجسم او ضغط الدم أو نسبة السكر والأملاح وغيرها فيه، فالزيادة مرض والنقص مرض. والحال نفسه ينطبق على مسار الحياة، بين تخمة وجوع وحرارة وبرودة، ورطوبة وجفاف، ونور وظلمة، وتعب وراحة وهكذا.

هذا التوازن يفرض على الإنسان أن يرعى الإعتدال في كل نشاط له على الأرض ومنه النشاط الاقتصادي، حيث تقوم المعادلة الاقتصادية على التوازن بين الإنتاج والاستهلاك، والعرض والطلب، والتصدير والاستيراد وهكذا وأي اخلال بطرفي المعادلة يصيب الاقتصاد بحالة مرضيّة، ولا يتعافى إلا بإعادة التوازن والإعتدال ثانية.

وقد لجأت الدول الرأسمالية بصفة خاصة إلى الاخلال بهذا التوازن لدى شعوب العالم الثالث لتضخّ إليها منتجاتها المتنوعة، لا سيما الصناعية والتكنولوجية منها. عملت هذه الدول على دفع وتحفيز الإستهلاك وبذل التسهيلات له، لدفعه إلى التضخم المستمر، مستخدمة وسائل الاعلام المتطورة، ومبتدعة أساليب مغرية لتكثيف الإستهلاك كالشراء بالتقسيط المريح والمناسب لكل فرد، إلى درجة أن أصبحت الطبقات المتوسطة والفقيرة مكبلة مصفّدة بأقساط لا تنهض امكاناتها بالوفاء بها، من قسط السيارة، والبيت، والأدوات المنزلية المتنوعة، وتعليم الأبناء، والعلاج .. إلى غير ذلك، فغدت تعيش في همّ مقيم، لا تنتفع معه بذواتها ولا تنفع غيرها.

ولعله ليس خافياً أن دول العالم الثالث بعامة قد سقطت في هاوية هذه السياسة الرأسمالية، حتى لنجد أغناها لا تستغني عن القروض الخارجية وبالمليارات لا

بالملايين، لشراء مصانع لا تصنع، وأسلحة لا تدفع، ومواد تضر ولا تنفع، من خمور ومخدرات وموبقات وإرساليات إعلامية، مما يجعل هذه الدول غير قادرة على الوفاء حتى بالأرباح السنوية للقروض، فتسقط في أغلال الأسر الاقتصادي.

إن الأصل بالنسبة للدول هو أن تنتج احتياجاتها الأساسية ذاتياً، وألا تستورد ما تحتاج إلا في حدود ما تصدر ما يحتاجه غيرها وقديما قيل: «من اعتمد على زاد غيره، طال جوعه ودام خضوعه» وحديثاً يقال: «ويل لأمة تأكل مما لا تزرع وتلبس مما لا تصنع». والأصل بالنسبة للفرد أن يعيش حياته وفق امكاناته.

هذا ما عمل عليه الإسلام، وربّى الرسول الكريم المسلمين عليه، فعاشوا أعزاء كرماء، يتعاملون مع غيرهم، بالقدر الذي يتعامل غيرهم معهم به، أما الفئات التي لا تستطيع الكسب الذاتي ففي الضمان الاجتماعي والزكاة، وفي التكامل الاجتماعي ما ينهض باحتياجاتهم، وقبل تناول توجيهه ـ عليه السلام ـ فيما يتعلق بالاستهلاك نلمّ بمستويات الاستهلاك فيما يأتي:

أ - مستويات الاستهلاك

من المعروف أن ليس كلّ أفراد مجتمع واحد على مستوى واحد من القدرة الاقتصادية، وبالتالي القدرة على الاستهلاك، والواقع أن كل فرد يشكل مستوى مختلفاً ومتميزاً عن غيره، إلا أن الاقتصاديين يقسّمون مستويات الاستهلاك على أساس عام إلى ثلاثة مستويات تقوم على مقومات ما يلزم الإنسان واقعياً وهي:

١ - الضروريات:

الضروريات هي كل ما يلزم الانسان لتحقيق استمرارية حياته، والذي لا تستقيم حياته بدونه، وهذه الضروريات عديدة متنوعة متشعبة، ويرى العلماء المسلمون، أن كل ما يحفظ النفس والعقل والدين والنسل والمال، يعتبر من الضروريات.

وعلى ذلك فإن: الطعام واللباس والمسكن والدواء ووسائل المواصلات وغيرها من التسهيلات الأساسية كالتدفئة والتبريد.. الخ. من الضروريات لأنها تحفظ النفس. والعلم والثقافة والمعرفة من الضروريات لأنها تحفظ العقل، وتوفير

حرّية العبادة والاتصال وأوقات الراحة وتيسير المواصلات وحماية المجتمع من الموبقات والانحرافات ضرورة لأنها تحفظ الدين، وتيسير الزواج لتكوين الأسر من الضروريات لأنها تحفظ النسل، وتحقيق الأمن والطمأنينة والاستقرار من الضروريات لأنها تحفظ المال وهكذا.

وتحديد كم ونوع كل ضرورة من هذه الضروريات ليس ثابتاً، وإنما يتغير بتغير الزمان والمكان ويختلف من إنسان إلى إنسان، فالطعام الضروري يختلف من بيئة إلى بيئة ومن شخص إلى آخر ومن مرحلة عمرية إلى أخرى، والمسكن الضروري يختلف من أسرة إلى أسرة ومن بيئة إلى أخرى وهكذا، الأمر الذي يجعل كل مجتمع في كل بيئة وكل عصر يعتمد قوائم الضروريات الخاصة به، مراعياً جميع الأوضاع التي يعيشها والظروف التي يحياها.

وتمثل هذه الضروريّات حدّ الكفاف بالنسبة للفرد الإنساني، وهوأدنى حدّ يوفر له حياة حرّة كريمة تقيه الفقر والعوز وذل الحاجة.

٢- الإحتياجات:

الإحتياجات هي كل ما يحقق منفعة تكميلية للإنسان، تيسّر له حياته وترتقي بها، ولكنها ليست أساسية، إذ يمكن أن تستمر الحياة بدونها ـ وإن كانت بمشقّة ـ فالإنسان في الأرياف والبوادي يطهو طعامه على نيران ما يجمعه من حطب وتستمر حياته، ولكن بمشقّة وضنك وتعب، لذلك فهو في حاجة إلى موقد غاز مثلاً ييسر له عملية طهي الطعام، وكذلك بالنسبة للغسالة والثلاجة والمكنسة الكهربائية وكثير من أنواع الأثاث تعتبر احتياجات.

وكما الضروريات لا يمكن وضع قائمة حصرية عامة لاحتياجات أي مجتمع من المجتمعات، لأنها تختلف من مجتمع إلى آخر، ومن أسرة إلى أخرى، ومن فرد إلى أخر، فالسيارة الخاصة مثلاً تمثل للفرد الواحد ضرورة إذا كان يعيش في منطقة لا تتوافر فيها مواصلات عامة، في حين تمثل احتياجاً له إذا توافرت المواصلات العامة ولكنه يقوم بعمل يتطلب كثرة التنقل وسرعة الحركة، والألبان ومشتقاتها تمثل ضرورة للأطفال، في حين تمثل احتياجاً فقط لكبار السن وهكذا.

والاحتياجات تمثل حدّ الكفاية بالنسبة للإنسان، فمن يملك داراً واسعة، ويستطيع تأمين ما يحتاجه فيها من أثاث وتجهيزات وغذاء صحي وملبس مناسب ومياه كافية، ويؤمن لنفسه وأبنائه تعليماً كفؤاً، ويتاح له ممارسة عباداته بحريّة، وأن يتزوج وينجب ويبني أسرة، وهو في الوقت نفسه ينعم بالأمن والطمأنينة والاستقرار، يعتبر ـ بصفة عامة ـ حائزاً على حدّ كفاية العيش الكريم.

٣- الكماليات:

وهي كل ما يحقق منفعة ثانوية للإنسان وغير أساسية، حيث يمكن للإنسان أن يستغني عنها كليّاً وتستمر حياته حرّة كريمة لا تشوبها شائبة.

والحصول على الكماليّات نوع من الطموح النفسي ليس إلا، فإذا كانت الدار الواسعة جيدة البنيان من الضروريات، وتأثيثها تأثيثاً كافياً من الإحتياجات، فإن المغالاة في ديكوراتها التي تكلف أضعاف ثمن الدار ذاتها، وتأثيثها بأثاث فخم فاخر، تكلف القطعة الواحدة منه ما يكلفه تأثيث دار كاملة، يعتبر من الكماليات والتي يمكن الإستغناء عنها بسهولة.

وحيازة الكماليات ليست رغبة عامة فقد نجد إنساناً ذا غنى وافر لا يلجأ إليها، في حين نجد من هو أقل مالا يوغل في الكماليات كجنوح نفسي إلى المباهاة والخيلاء، فلا يركب إلا سيارات فارهة، ولا يلبس إلا من أرقى الأزياء العالمية وهكذا.

واللجوء إلى الكماليات اتجاه هدّام للاقتصاد، لأنه يحجز أموالاً طائلة عن مجال الإنتاج ويجمدها فيما لا نفع له فيه ولا لمجتمعه ووطنه وأمته، فيحدّ من القدرات الاقتصادية، وفي الوقت نفسه ذو تأثير سلبي على العلاقات الاجتماعية، حيث يثير التحاسد والتباغض والتحاقد بين الناس.

يروي ابن عبد الحكم في سيرة عمر بن عبد العزيز أنه كتب لأحد ولاته: «بلغني أنك اشتريت خاتماً فصّه بألف درهم، فإذا جاءك كتابي هذا فبعه وأطعم به ألف جائع، واشتر خاتماً فصّه من حديد، واكتب عليه: رحم الله امرءاً عرف قدر نفسه»[1].

---

(١) عن يوسف القرضاوي، دور القيم والأخلاق في الأقتصاد الاسلامي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٩٦، ص٢٥٧.

إن الاسلام إذ يبيح للإنسان حريّة التصرف فيما يحوزه من مال، يبيح له أن يحصل به على الطيبات من الرزق، وليس انفاقه فيما لا جدوى منه، ولذلك يأبى عليه أن يعيش حياة الشدّة والضنك والشح والتضييق على النفس والتقتير عليها إلى درجة الحرمان، كما يأبى عليه حياة الترف والبذخ والإسراف واهلاك المال فيما لا طائل تحته.

ويمثل الحصول على الكماليات حدّ الرفاهية التي يأباها الإسلام لآثارها السلبية على الحياة والأحياء.

ب- توجيهات الرسول بشأن الإستهلاك

فيما يأتي أهم توجيهاتالرسول الكريم ﷺ فيما يتعلق بالإستهلاك.

١ - ترشيد الانفاق:

الانفاق ـ كما سبق القول ـ سياسة اقتصادية اسلامية، إذ لا مجال لنمو اقتصادي بدون انفاق ولكن الاسلام يسيّج الانفاق بسياج المنفعة الحقيقية، لا المنفعة الوهمية التي تفرزها الانحرافات النفسية أو بصر التخلف وعوج الفهم، كاستمراء الكماليات والسقوط في الشكليات الحضارية التي خطط لنا للسقوط فيها، فالسيارات بمئات الألوف والمجوهرات بالملايين، والملابس لا بدّ وأن تكون من أغلى البيوت العالميّة والولائم للآحاد تكفي المئات وهكذا.

إن الإسلام يؤكد على الإنفاق، مع لزوم التوسط والاعتدال، لذلك يؤكد الرسول الكريم على أخذ المسلمين بثلاثة اتجاهات تؤول لترشيد الانفاق وهي:

١/١ : الاقتصاد في المعيشة:

والاقتصاد ـ كما سبق القول ـ هو التوسط والاعتدال، وهو أساس الحياة الصحيّة، فالتخمة لا تقل خطورة عن المسغبة، وملء المعدة لا يقل أذى عن اخلائها، وهكذا في المشرب والمسكن والملبس والمركب، وما وجدنا مجتمعا في أي أرض على الأرض يكرّم لئيما وإن كان يلبس أفخر الثياب، في حين يقدر كريماً وإن كان لا يلبس إلا رقيقها، فقيمة الإنسان لا تتأتى مما يحوزه من مال وإنما ممّا يصدر عنه من كريم الفعال وجليل الأعمال وما يتحلى به من نبيل الخصال.

إن الاقتصاد في المعيشة أساس التنمية بعامة والتنمية الاقتصادية بخاصة، لأنه يؤدي إلى تطوير الانتاج وتركيز الطلب على الأساسيات واطراح الكماليات والاعتماد على الذات، ولا يضخم قوائم الاستيراد واهلاك ثروات الوطن فيما لا طائل تحته ولا جدوى منه.

لذلك نجد الرسول ﷺ يؤكد على هذا الاقتصاد بقوله:

- «الاقتصاد نصف المعيشة»[١].
- «من فقه الرجل قصده في معيشته»[٢].
- «ما عال من اقتصد»[٣].

١ / ٢ : نسبية الانفاق:

تتفاوت الأرزاق كما تتفاوت الأعمار، فهناك من يتنامى ماله حتى يصبح صاحب ملايين، وهناك من يهلك ماله حتى لا يملك الملاليم، وهناك من تحمله كفاءته ليصبح صاحب أعلى دخل، وهناك من تهبط به ظروفه أو ارادته أو قدراته ليصبح غير ذي دخل، وهكذا.

لذلك من العبث بمكان أن يلجأ صاحب القليل إلى مجاراة صاحب الجليل في انفاقه، تقليدا أو مباهاة أو تخلصاً من الشعور بالنقص، فيهلك ماله وأهله، والله تعالى يقول: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ﴾[٤]، فالانفاق نسبي وبقدر السعة، ولا مباراة فيه، فالمباراة تلحق الأذى بالأقل قدرة ـ وهم أغلبية الناس ـ بلا محالة.

وعلى عكس المجاراة والمباراة، النكوص، وهو مرض نفسي كذلك، يشعر معه الإنسان بالدّونيّة إذا أنفق أقل من غيره، فينكص عن الانفاق، وبذلك يلحق الضرر بنفسه وبمجتمعه، بحرمان الفئات المستحقة من قليله الذي إذا تجمع مع قليل غيره أصبح كثيراً.

والرسول ﷺ ينبه المسلمين إلى أن الأصل في الانفاق نسبية وليس كميّة، فينهى عن التتضحية بالمال كله، كما يؤكد على أن ينفق صاحب القليل من قليله فيقول:

---

(١) رواه أحمد والحاكم.

(٢) رواه الطبراني.

(٣) رواه البيهقي وابن حبان.

(٤) الطلاق (٧).

- «يأتي أحدكم بما يملك فيقول: هذه صدقة، ثم يقعد يستكف الناس، خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى»(١).

- «سبق درهم مائة ألف» قال رجل: وكيف ذلك يا رسول الله؟ قال: رجل له مال كثير أخذ من عرضه مائة ألف درهم فتصدق بها، ورجل ليس له إلا درهمان فأخذ أحدهما فتصدق به»(٢).

١/٣: حدّ الانفاق التطوعي:

إذا كان المسلم مطالباً بالاقتصاد في الانفاق على نفسه وأسرته، فمن باب أولى أن يكون انفاقه التطوعي في حدود معقولة، وهناك من الناس من يدفعه إيمانه وإخلاصه وتجرده إلى تقديم كل ما يملك أو معظم ما يملك في سبيل الله صادقاً مخلصاً تماماً، كما فعل أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ كما يروي عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ إذ يقول:

- أمرنا رسول الله أن نتصدق، ووافق ذلك منّي مالاً، فقلت: اليوم أسبَق أبا بكر ـ إن سبقته ـ فجئت بنصف مالي، فقال رسول الله: «ما أبقيت لأهلك؟» قلت: مثله. وجاء أبو بكر بكل ما عنده، فقال رسول الله: «يا أبا بكر: ما تركت لأهلك؟» قال: أبقيت لهم الله ورسوله. فقلت لا أسبقه إلى شيء أبداً»(٣).

هذا الاتجاه خيرٌ بدون شك، وأبو بكر ـ رضي الله عنه ـ كان تاجراً وقد يستطيع تعويض ما تصدق به، ولكن قد يتأسى به آخرون لا يمكنهم تعويض ما يقدمون فيهلكون، لذلك أخذ الرسول الكريم ﷺ بحدّ أعلى يتم الانفاق التطوعي بناء عليه وهو ثلث المال، كما قال ـ عليه السلام ـ لسعد بن أبي وقاص ـ رضي الله عنه ـ عندما سأله عمّا ينفق في سبيل الله فقال: «الثلث، والثلث كثير، إنك إن تذر ورثتك أغنياء، خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس»(٤).

---

(١) رواه ابن ماجه والبيهقي والحاكم.

(٢) رواه النسائي والحاكم وابن حبان.

(٣) رواه أبو داود والترمذي.

(٤) متفق عليه.

٢- اتجاها الانفاق:

٢/ ١ : الانفاق اللازم:

يمثل هذا الانفاق القاعدة الكبرى لانفاق المال في المجتمع المسلم، فالإسلام ينيط بالرجل الانفاق على زوجته ولا يجبرها على الانفاق على نفسها كما في الأنظمة الأخرى، وعلى والديه، وعلى بنيه من ذكور وإناث ولا يبيح له التخلي عنهم، يضاف إلى ذلك أنه يوسّع دائرة الانفاق بالنسبة للقادرين لتشمل ذوي الرحم والأقارب.

ومن الواضح أن مثل هذا الانفاق يوسع دائرة توزيع المال وتفتيت الثروة من ناحية، ويزيد من قدرة الطلب وجذبه للعرض ودفع عجلة الانتاج من ناحية ثانية مما يرتقي بالأوضاع الاقتصادية ككل، وبذلك يسهم أصحاب رؤوس الأموال في تطوير الأوضاع الاجتماعية، كما يسهمون في تحريك المنظومة الاقتصادية. وفي هذا الانفاق يقول الرسول ﷺ:

- «ما أنفق المرء على نفسه وولده وأهله وذوي رحمه وقرابته فهو له صدقة»[١].

- «الصدقة على المسكين صدقة وعلى ذي الرحم ثنتان: صدقة وصلة»[٢].

- «اليد العليا خير من اليد السفلى، وأبدأ بمن يقول: أمك وأباك، وأختك وأخاك وأدناك فأدناك»[٣].

٢/ ٢ : الانفاق المتعدّي:

يفتح الإسلام باب هذا الانفاق على مصراعيه للراغبين تعميقاً للولاء لمجتمعهم والانتماء لأمتهم، والوفاء لوطنهم، فما من مجتمع إلا وفيه من المواطنين من يتعرضون لحالات اليتم والثكل والعوز والفقر والمرض والشيخوخة وما إليها، وما من مجتمع يسلم حياته كلها من الكوارث والنوازل والمحن بكل أنواعها وأبعادها،

(١) رواه الطبراني.

(٢) رواه النسائي والترمذي وغيرهما.

(٣) رواه الطبراني.

وما من إنسان في المجتمع إلا وله مجموعة كبيرة من الجيران عليه أن يتفقد أحوالهم، ويؤكد الإسلام على المسلم إصلاح ذات البين مع ما يتحمله إزاء ذلك من نفقات، وإكرام الضيف، والمساعدة في المجهود الحربي إلى غير ذلك.

ويعتبر كل انفاق في هذا المجال العام في سبيل الله تعالى، حيث يوضع المال في مجال النفع العام، والقاعدة الرئيسة في الإسلام أنّ الخلق عيال الله، وأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله، وخير الناس أنفعهم للناس.

والرسول ﷺ يأخذ المسلمين بالبذل في هذا المجال العام، وكل حسب استطاعته، ومهما كان ما يقدم من كل فرد قليلاً فإن مجموعه يشكل تحريكاً اقتصادياً مقدراً، وفي ذلك يقول:

- «من أعان مجاهداً في سبيل الله، أو غارما في عسرته، أو مكاتباً في رقبته، أظله الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله»[1].

- «من كان له فضل ظهر فليعبد به على من لا ظهر له، ومن كان له فضل زاد فليعد به على من لا زاد له»[2].

- «وسئل عليه السلام: ما أحب الأعمال إلى الله؟ قال: أحب الأعمال إلى الله ـ عز وجل ـ سرور تدخلة على مسلم، تكشف عنه كربة، أو تطرد عنه جوعاً، أو تقضي عنه ديناً»[3].

٣- السلوك الاستهلاكي:

الاستهلاك أمر لازم لا غنى عنه لحفظ استمرارية الحياة، لا سيّما فيما يتعلق بالدوافع الفطرية التي لا يستطيع إنسان إلغاءها أو التخلص منها أو مقاومتها، سواء أكان ذلك في حفظ الذات من مأكل ومشرب وملبس ومسكن، أو في حفظ النوع بالزواج والعناية بالزوجة والأولاد والوالدين... الخ.

---

(١) رواه أحمد والبيهقي.

(٢) رواه مسلم وأحمد وغيرهما.

(٣) رواه ابن حبان.

والاسلام يشجع الانفاق على الاستهلاك ـ كما سبق القول ـ ويحكمه بالحدّين الرئيسين: الحلال والاعتدال، أما أن يلجأ الإنسان إلى الحرام كسباً أو استهلاكاً، أو يلجأ إلى الاستهلاك في مجالات لا تعود بنفع حقيقي عليه أو على غيره، والإسراف الزائد عن الحاجة والمتجاوز لحدود الامكانات وواقع الحال أو الشح والبخل والتقتير، بما يتدنى بحدود الكفاية فكل ذلك مرفوض في الإسلام، فلا إطفاء أو إلغاء لشهوات النفس واحتياجاتها ومتطلباتها، ولا مجاوزة المعقول في تلبية شهواتها ونزواتها.

ولعل القسط الأكبر من الإنفاق على الاستهلاك الذاتي يعود على أساسيات ثلاث هي: المأكل والملبس والمسكن، وفيما يأتي تربية الرسول الكريم إزاء كل منها:

٣/ ١ : في المأكل:

المأكل ضرورة من الضرورات التي لا يستغني عنها إنسان، ولكن ليس غاية الحياة، فالانسان ـ كما قيل ـ: «يأكل ليعيش، ولا يعيش ليأكل» بمعنى أنه يأكل كفايته بما تقيم أوده، ولا يبالغ في ذلك ولا يغالي بحيث يصبح المأكل غاية حياته.

والإسلام يرفض الجشع الاستهلاكي في هذا المجال، كما يرفض المباهاة والتنافس والتفاخر، فمهمة المأكل واضحة، لذلك يرفض أن يغدو المسلم عبد بطنه، لا يستريح إلا إذا ملأه حتى لا يغدو فيه مكان لنفس، كما يرفض أن يقوم مسلم باعداد ولائم تفيض عن حاجة أضعاف أضعاف المدعوين ليقال عنه كريم، أو أنه أكرم من فلان أو علان، فالانتاج الغذائي لأي بلد يفترض فيه أن يكفي أهله. ولذلك فإن تجاوز الحدود في استهلاكه من جهة ما يعني حرمان آخرين، ولهذا قيل: «ما زاد جوع قوم إلا من زيادة شبع آخرين».

لذلك يربي الرسول الكريم المسلمين على الاعتدال في المأكل، الذي لو اتبع واقعياً، لحمى المجتمعات من المجاعات فيقول:

- «ما ملأ ابن آدم وعاء شرّاً من بطنه، بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه، فإن كان لا محالة، فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفَسه»[1].

---

(١) رواه الترمذي.

- «طعام الواحد يكفي الاثنين، وطعام الاثنين يكفي الأربعة»[١].

- «أخشى عليكم شهوات الغيّ في بطونكم وفروجكم ومضلّات الهوى»[٢].

وينبّه عليه السلام إلى نوع آخر من الأسراف المتعلق بالمأكل، وهو الآنية التي يقدّم فيها الطعام، والتي تهدر كمّا مهولا من القدرة المالية وبالتالي الاقتصادية في مجتمعات المغالاة والمباهاة والشّعور بالنقص، حيث لا يأكل أحدهم إلا في آنية من الذهب أو الفضة أو ما يساويهما، وما من جدوى لذلك إلا تلبية هوى النفوس في التفاخر والمباهاة والشعور بالفوقية والتّيه على خلق الله، فيقول: . . .

- . . . «لا تشربوا في آنية الذهب والفضة ولا تأكلوا في صحافها»[٣].

- . . . «الذي يأكل في آنية الفضّة إنما يجرجر في بطنه نار جهنم. .»[٤].

والإسلام إذ يأبى على المسلم الإسراف في المأكل يأبى عليه أيضاً الشحّ والبخل والتقتير وحرمان نفسه ومن يعول.

٣/ ٢ : في الملبس:

اللباس من الضرورات الرئيسة للإنسان، حيث يقيه حرّ الصيف وقرّ الشتاء، واللباس تقدر نوعيته بالوظيفة التي يؤديها، وليس بنوعية تركيبه والمواد الداخلة فيه، والإسلام يؤكد على أن يكون اللباس نظيفاً جميلاً مناسباً لمن يلبسه، لكنه يرفض المغالاة في نوعية تركيبه أو صناعته، هذه المغالاة التي نراها اليوم قد وصلت إلى حالة مرضيّة، حيث نجد من لا يقبل أن يضع على جسمه لباساً إلا من بيت أزياء عالميّ، تساوي قيمته عشرات قيمة المنتج الوطني، ومن لا يقبل أن يرتدي قميصاً إلا من حرير أو ديباج ومن يبالغ في مكملات اللباس من حذاء من جلد النعام، أو ساعة مزخرفة بالألماس، أو مسبحة من الزمرّد، وخاتم من الياقوت الحرّ وهكذا.

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه البيهقي والحاكم وابن ماجه.

(٣) رواه البخاري ومسلم.

(٤) متفق عليه.

إن عقلاء الناس لا يقومون الإنسان ـ كما سبق القول ـ بقيمة لباسه حتى وإن بلغت الملايين، وإنما بشخصيته ووعيه وعلمه وقيمه وأخلاقه وأدبه، لذلك فإن الرسول الكريم يأبى على المسلمين أن ينزلقوا إلى هذه المزالق، ويربيهم على أن يترفعوا عن هذه السفاسف المهلكة اقتصادياً ، فيقول:

- «من لبس ثوب شهرة ، ألبسه الله ثوب مذلّة يوم القيامة، ثم ألهب فيه ناراً»(١).

- «لا تلبسوا الحرير ولا الديباج. . »(٢).

- ونزع ـ عليه السلام ـ خاتماً من ذهب من يد رجل وقال: «يعمد أحدكم إلى جمرة من نار فيطرحها في يده»(٣).

٣/٣: في المسكن:

المسكن كما المأكل والملبس من الضرورات التي لا غنى عنها للإنسان، يحفظ للإنسان خصوصياته الحياتيّة، يأوي إليه، ويجمع فيه أسرته باستقلالية، يقيه تقلبات الجوّ، ويستريح فيه من تعب، ويخلد إليه للراحة وهكذا.

والمسكن لا بدّ وأن يتوافق ـ نوعاً ـ مع احتياجات الإنسان الفعلية له، من حيث السعة المكانية، والمستوى الجمالي، وكفاية الغرف والمنافع إلى غير ذلك، والإسلام يؤكد على ذلك تحقيقاً لاستقلالية الأسرة وأمنها واستقرارها ونهوضها بالتزاماتها، والرسول الكريم ﷺ يؤكد على ذلك بقوله:

- «اللهم اغفر لي ذنبي ووسع لي داري، وبارك لي في رزقي»(٤).

- «من سعادة ابن آدم: المرأة الصالحة، والمسكن الصالح، والمركب الصالح»(٥).

---

(١) رواه ابن ماجه.

(٢) متفق عليه.

(٣) رواه ابن ماجه.

(٤) رواه أحمد والترمذي.

(٥) رواه أحمد والطبراني والحاكم.

ولكن الإسلام الذي يأخذ بحاكميّة الاعتدال ، يأبى أن تهدر الأمكانات المالية في التطاول في البنيان ويرفض المغالاة التي لا نفع ولا جدوى منها، أو كما قال أحدهم لأحد الأمراء: «بنى الناس الدور في الدنيا، وبنيت الدنيا في دارك»، بل إن الرسول يحذّر من سفاهة التطاول في البنيان استجابة للطفرات الاقتصادية التي تؤدي إلى الانقلابات الاجتماعية، ويعتبرها من علامات الساعة، فيبين من علاماتها ذلك بقوله:

- . . . «وترى الحفاة العراة رعاء الشاة يتطاولون في البنيان»(١).

ولذلك يربي المسلمين على ألا يهلكوا أموالهم في البنيان، متجاوزين متطلبات الاحتياج الحقيقي، الأمر الذي أصبح شائعاً في الأمة اليوم، حيث يبني أحدهم قصراً يكفي لبناء مئات المنازل لمحدودي الدخل، ويبقى يعاني من قهر الدين بقية حياته، فيقول ـ عليه السلام ـ:

- «إذا أراد الله بعبد هواناً، أنفق ماله في البنيان»(٢).

٤ - استهلاك الأزمات:

تتعرض الأمم في تاريخها إلى كثير من الأزمات التبي تترك آثارها على كل نواحي الحياة فيها ومنها الحياة الاقتصادية، فهناك الحروب، وهناك الكوارث الطبيعية من زلازل وبراكين وحرائق وفيضانات، وهناك القحط والجدب والجفاف وكل ذلك يحدّ من القدرات الاقتصادية لشعب ما.

وإذا كانت السياسة الاقتصادية الاسلامية تبيح للإنسان المسلم التمتع بالطيبات وفق قدراته وضمن حدي الحلال والاعتدال في الظروف الاعتيادية، فإن الموقف يختلف في الظروف الاستثنائية، حيث يقتضي الأمر التقشّف وشدّ الأحزمة على البطون، والتنازل عن مستوى الكفاية إلى مستوى الكفاف، حتى تزول الظروف الاستثنائية، وتعود الأمور إلى أوضاعها الطبيعية.

وقد مرّ المسلمون بحالتين شهيرتين من الظروف الاستثنائية، أولاهما: الحصار في مكة في شعب أبي طالب، والذي قابلوه بأدنى حدود الكفاف حتى أكلوا نبات

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) رواه الطبراني.

الأرض والجلود، وثانيهما: عام الرمادة حين عم القحط والجدب والجفاف - في عهد أمير المؤمنين عمر - حيث نزل المسلمون إلى حدّ الكفاف كذلك، وتولى ولي الأمر عملية التقنين الاستهلاكي، فقد منع عمر شراء اللحم يومين متتاليين، وأبدع الموائد الجماعية، وواسى المسلمين بنفسه.

ومن المعروف أن الأزمات من أهم أسباب التضخم إذ يزيد الطلب عن العرض فترتفع الأسعار، ولذلك فإن الأمر يقتضي الحدّ من الطلب ليتعادل مع العرض، وقد وعى المسلمون ذلك فقيل لأحدهم: لقد غلت الأسعار، قال: أرخصوها، قالوا: وكيف نرخصها؟ قال: اتركوا شراء ما غلا يرخص.

لذلك كان الرسول ﷺ يأخذ المسلمين بتوازن الاستهلاك مع الظروف الاقتصادية، والتعاون على الأزمات فيقول:

- «إن الأشعريين إذا أرملوا في الغزو، أو قلّ طعام عيالهم في المدينة، جمعوا ما كان عندهم في ثوب واحد، ثم اقتسموه بينهم في إناء واحد، فهم مني وأنا منهم»[(١)].

وإذا تتبعنا السلوك الاستهلاكي في زمن الأزمات من قبل المسلمين، نجد عجبا ومن ذلك:

- «يقول جابر بن عبدالله - رضي الله عنه - بعثنا رسول الله، وأمّر علينا أبا عبيدة، نتلقى عيراً لقريش وزوّدنا جراباً من تمر، لم يجد لنا غيره، فكان أبو عبيدة يعطينا تمرة تمرة قيل: وكيف كنتم تصنعون بها؟ قال: كنا نمصّها كما يمصّ الصبيّ، ونشرب عليها الماء، فتكفينا يومنا إلى الليل»[(٢)].

- ويقول جابر نفسه: «لقيني عمر، وقد ابتعت لحما بدرهم، فقال: ما هذا يا جابر؟ قلت: قرم أهلي فابتعت لحماً بدرهم، فجعل عمر يقول: «قرم أهلي قرم أهلي» وما زال يرددها حتى تمنيت أن الدرهم سقط مني ولم ألق عمراً»[(٣)]، وعمر - رضي الله عنه - هو القائل: أو كلما اشتهيتم اشتريتم؟

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) رواه مسلم.

(٣) رواه البيهقي.

جـ- استهلاك بلا دَين

لا يقدّر مدى ما يُلحق الدّين بالإنسان من صغار ومهانة ومذلّة وقهر، إلا من ابتلى بدين لا يملك سداده ولا يستطيع الوفاء به عند حلول أجله، إذ يسهر الليالي يعدّ الدقائق والساعات في انتظار موعد السداد، متوجسّاً مترقّباً مشتت العقل والفكر، لا يستسيغ طعاماً ولا يستسيغ شرابا ولا يتذوق راحة، لا سيّما إذا كان صاحب الدين معسّراً، فإما الوفاء ، وإما الملاحقة القانونية والمطاردة القضائية والحجز والمصادرة وتشتيت الأسرة والأبناء والسجن وخراب الديار.

في كل يوم نقابل من المواطنين من يتنهّد ويتأوه ويسحب أنفاسه وكأنه يصعّد في السماء، همّ يفتك بالكبار وينعكس على الصغار ويصب العلقم على طعم الحياة فيهدم كل جهد لتطويرها، لماذا؟ إنه الدين فهذا لا يستطيع سداد أقساط السيارة، وذلك لا يستطيع سداد أقساط الغسالة والثلاجة والتلفزيون.. وهكذا، ولا نكاد نجد حكومة من حكومات العالم الثالث إلا وهمها المقيم هو سداد أرباح وليس عيون الديون الخارجية، فتضطر مكرهة إلى التضييق المتصاعد على ضروريات واحتياجات شعبها، وتأجيل مشاريع البنية التحتية الأساسية فتسوء أوضاعها، ولا تفكر وحتى لو فكرت لا تستطيع الوفاء بأقل القليل من المشروعات التنموية والتطويرية، فالديون غدت الهم المقيم للأفراد والجماعات والأمم، وصدق الصادق الأمين ﷺ:

- «الدين همٌ بالليل، وذلٌّ بالنهار..»[1].

- لقد نصب الاستعماريون الرأسماليون شراكا تلو شراك لاصطياد شعوبنا بأخيّات وربقات الدين، فالبيع بالتقسيط المريح يغري، والقرض بفائدة بسيطة بضمان المنزل أو العقار ميسور، وجدولة الديون الخارجية جذّابة، فيقع الدين ثم يتجسّد الندم ولات ساعة مندم.

---

(١) متفق عليه.

والإسلام لا يمنع الدّين كلياً، فليس كل إنسان يستطيع الوفاء بكل متطلباته بوفاء ناجز، ولكن الإسلام يشترط لاستدانة الإنسان شروطاً موضوعية منها:

- أن يكون الدين لحاجة حقيقية طارئة وليس لحاجة وهمية.

- أن يكون المستدين قادراً - بناء على ظروفه الموضوعية - على سداد الدين في موعده المسمّى.

- أن يوثّق الدين حتى لا تضيع حقوق الدائن امتثالاً لقوله تعالى: ﴿ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ﴾[1].

لذلك يؤكد الرسول الكريم على الوفاء بالدين، حتى لا تؤدي شراهة أحدهم إلى الاستدانة إلى ضياع حقوق الدائن فيقول:

- «والذي نفسي بيده، لو قتل رجل في سبيل الله، ثم عاش ثم قتل، ثم عاش ثم قتل، وعليه دين ما دخل الجنّة حتى يقضي دينه»[2].

والتأكيد الجازم على تلاقي الدين ليس فقط لآثاره الاقتصادية وإنما لآثاره الأخلاقية كذلك، حيث تتبع الدين غالباً المماطلة والليّ واشتعال الأحقاد والخلافات والمنازعات وتمزيق اللحمة الاجتماعية وفي ذلك يقول الرسول الكريم:

- إن الرجل إذا غرم (لحقه الدين) حدّث فكذب ووعد فأخلف»[3].

لذلك فإن الإسلام وإن شرّع للدين فقد شرّع معه إلى التيسير وحسن القضاء والاقتضاء، والاسهام للغارمين - الذين يغرمون أموالاً في سبيل الخير - كما شرع لعدم المطل والليّ والتنكر لحق الدين، لتستمر مسيرة الحياة آمنة مطمئنة.

وإذا كان الدين لبعض المجالات أصبح شرّاً لا بدّ منه لمواكبة الحياة المعاصرة لا سيما في المواصلات والاتصالات والبنية التحتية عموماً، فإن الدين الذين نعنيه هنا والناشىء عن الجشع الاستهلاكي يمكن الاستغناء عنه أو الحدّ منه إلى درجة

(١) البقرة (٢٨٢).

(٢) رواه النسائي والطبراني.

(٣) متفق عليه.

كبيرة بالتضييق على استيراد المنتوجات الغذائية والكسائية بأنواعها أو ضبطها في حدود التصدير فقط، وفي الوقت نفسه تنمية المنتوجات المحلية لتفي باحتياجات المواطنين، أما السوق العربية المشتركة التي يمكن أن تحقق التكامل بين الأقطار العربية وبصفة خاصة التكامل الغذائي فلا زالت تحلّق بها الآمال ولم تهبط بعد إلى أرض الواقع.

إن المقصد في هذا المجال هو أن يكتفي المجتمع المسلم باستهلاك ما ينتج فقط، وإذا كانت هناك سلع لا بدّ من استيرادها لاعتبارات موضوعية، فيجب أن يقابل الاستيراد تصدير من المنتجات، بحيث يتوازن الانتاج مع الاستهلاك والتصدير مع الاستيراد، ويتوازن ميزان المدفوعات فلا يقع الفرد المسلم ولا المجتمع المسلم في إسار الدين.

سادساً: خلاصة الفصل السابع

يعلم الجميع أن الأمة الإسلامية ـ تعاني في وقتها الحاضر ـ من مشكلات عديدة لم تمر بها في تاريخها الطويل، ولعل أعمقها تأثيراً في حياتها هي المشكلات الاقتصادية، حيث عمّت البطالة، وتفاقمت فيها حالات الفقر والفاقة والمرض والعوز، وتفاوتت فيها الطبقات تفاوتاً لم يسبق له مثيل، وسقطت في هاوية التبعيّة الاقتصادية والديون الخارجيّة، التي أصبح الوفاء بفوائدها همَّها المقيم، فاستنزفت ثرواتها وبددّت خيراتها وأضاعت مقدرانها، وتركت أجيالها في مهبّ الريح.

وليست هذه الأوضاع المتردية قدراً لا يمكن تجاوزه، وإنما هي حالة مرضيّة يمكن تجاوزها إذا أحسنا التشخيص والتزمنا بالعلاج الصحيح، من استثارة عقولنا ومواهبنا وملكاتنا وخبراتنا، لنخطط بوعي، ونبرمج بموضوعية، وننفّذ بأمانة، ونطبّق بتجرد، ونقوّم بإخلاص.

وهذا الفصل ـ وإن كان لا يتناول المذهب أو النظام الاقتصادي الإسلامي بالتفصيل ـ إلا أنه يتناول تلك التربية الاقتصادية التي اتبعها صفوة البشرية ـ عليه السلام ـ في وضع القواعد الرئيسة لاقتصاد قويم، أنتج الانتاج الأمثل، ووزع التوزيع الأعدل، وقلّم أظافر الفقر، وقمع جرائر البؤس، وأسا كلوم الفقراء، وقضى على جبروت الأقوياء، وأثرة الأغنياء، وسورة الطمع وإشراف الجشع ومكابدة الحرمان وقهر الإنسان.

ولسنا بحاجة هنا إلى التأكيد عما هو معلوم بداهة لدى كل من يتعامل مع الاقتصاد، من حيث تفاعل الاقتصاد القطري والقومي، وتكامل الامكانات البشرية والمادية، وإحكام التخطيط والبرمجة، والاضطلاع بمشروعات انتاجية جماعية كبرى تستثمر الثروات العربية والعقول العربية، والمياه العربية والمواد الخام العربية والسوق العربية إلى غير ذلك مما يعرفه القاصي والداني، وإنما نؤكد على التخطيط

لتربية اقتصادية واعية لأجيالنا، مستلهمة ثوابت ديننا وهدي نبينا، لنقيهم مواطن الإخفاق التي تعرضنا لها ومن ذلك:

١- الوعي بموضوعية اقتصاد الطيبات، والانطلاق منه في انتاج المأكل والملبس والمسكن والدواء، والمواصلات والاتصالات وضرورات الحياة، فأمة تقع الأغلبية الساحقة من أبنائها تحت خطّ الفقر، ليست بحاجة إلى أن تهدر أموالها في صناعة الخمور وفتح الخمّارات، ولا في تجارة المخدرات والموبقات، ولا فتح المراقص والكباريهات، في الوقت الذي يحتاج فيه كثير من أبنائها إلى كسرة خبز تدفع جوع يتيم أو قطعة كساء تغطي عورة محتاج.

إن التركيز على اقتصاد الطيبات والنأي عن اقتصاد الخبائث يحشد استثماراتنا ويركز انتاجنا على أولويات احتياجاتنا الاقتصادية من ناحية ويحول دون استشراء أضرار الخبائث من ناحية ثانية.

٢- تركيز الاهتمام مجدداً بعنصر الأرض العربية وعمارتها، لا سيّما بالزراعة، والعمل بحكمة ووعي وصبر على حل تلك العلاقة المعقدة بين الأرض العربية والمياه العربية، والتي أدت إلى أن تقذف بلايين الأمتار المكعبة يومياً في البحر، في حين تنتظر ملايين الهكتارات من الأرض الخصبة قطرات الندى وحبات القطر، وبحل عقد هذه العلاقة لا نعود نستجدي المنتوجات الزراعية.

وحبذا لو اتجه قادة الأمة إلى تخصيص بعض مؤتمرات القمة الكثيرة لهذا الموضوع، بدلاً من استهلاك جهود ضائعة في مجال السياسة، فالمواقف السياسية أصبحت اليوم تبعاً للمصالح والمنافع، والاقتصاد هو ملتقى المصالح والمنافع.

٣- الالتفات ولو التفاتة بسيطة عابرة إلى عنصر العمل العربي، الذي لا يقل ذكاء ولا فطنة ولا اخلاصاً وعطاء عمن سواه، ولكنّه بحاجة إلى نوعيّة متقدمة من الإعداد والتأهيل وإكساب المهارات المتطورة، وفي الوقت نفسه فتح قنوات التدفق أمامه من قطر إلى قطر، بحيث يغني عن العمالة الوافدة من خارج الوطن العربي والتي تستنزف المليارات من خيرات الأمة.

إذ هذا الأمر يتطلب نثر بذور الثقة بين الأنظمة العربية، الأمر الذي لم يعد مستحيلاً، إذا حرصنا أن تكون قراراتنا منا ولنا، ولا توجهها أنواء المصالح الخارجية. . وما دامت هذه أمنية لكل فرد عربي ولا تعدو مراودة الخيال، فهي ممكنة النزول إلى أرض الواقع بتلك الالتفاتة البسيطة من ولاة الأمر.

٤- أما العنصر الثالث من عناصر الانتاج وهو رأس المال العربي فالحديث فيه يطول، وإن لم يكن بالمجهول، فالمليارات العربية المهاجرة إلى أوروبا وأمريكا وشرقي آسيا، يمكن أن توظف أعلم العلماء وتستقطب أكفأ الكفاءات، وتجمع أحكم الحكماء في أي مجال انتاجي اقتصادي لو أمكن استعادتها ولكن استعادتها غدت ضرباً من الخيال، ونوعاً من المحال، ما دامت لا تستشعر الأمن والطمأنينة في أي قطر من أقطارها، الأمر الذين يقتضي تحركاً لاستعادتها جزئياً وتدريجياً، وتوفير كل أنواع الأمن لها، بحيث تعود تلقائياً إلى أحضان أوطانها، وتسهم في نهضتها، فحماية المال الخاص الذي تمت حيازته بأساليب شرعية، واجب على كل دولة بسلطاتها وجماعاتها وأفرادها.

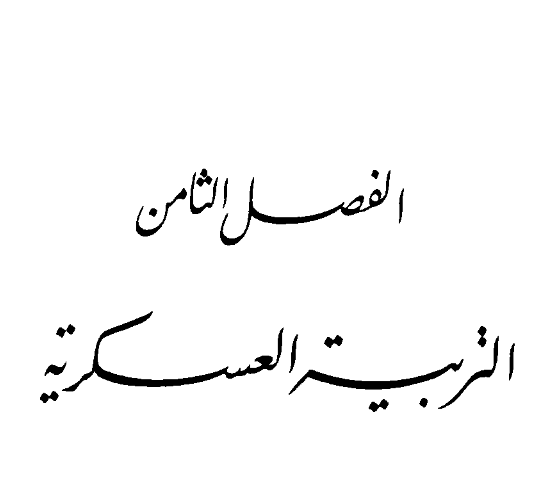
٥- ولسنا نتصور عاقلاً من بني البشر، لا يؤمن بجدوى تنظيم السوق والتبادل في الإسلام، فالمنافسة الحرة، والتزام الصدق والأمانة والنصيحة، والسماحة واليسر، وتلافي الربا والغش والاحتكار والرشوة والتطفيف والغبن والمطل إلى غير ذلك هي مقصد كل إنسان شريف نظيف، وهي بميسور أي دولة لو أرادت فعلاً ضبطها وتحقيقها، بحيث تُحكم الثقة والمودة والتعاون والتوافق بين المنتج والوسيط والمستهلك، مما يرتقي بالسوق ، ويرتقي بالانجاز والابداع والاتقان، وبالتالي تكريس الاكتفاء الذاتي، ولا تعود النفوس تتشوف إلى انتاج المصانع الأجنبية، وتستقر ثروات الأمة في ديارها لتعمل على تحقيق كفاية وفاعلية اقتصادها.

٦- وإننا إذ نقلد الأقوياء في كل شيء، حبذا لو أعرنا انتباهاً لما أبدعوه في مجالي: الضمان الاجتماعي والتكافل الاجتماعي، وفكرنا ولو قليلاً في وضع آلية مقبولة لتفعيل دور الزكاة ولو بالتدريج، فزكاة المال إذا أخذت من حقها وأنفقت في

الطلب، ليتنامى بحجم العرض، مما يدفع إلى تكثيف الانتاج، وتركيزه على نوعية الطلب، ومن ثمّ الارتقاء بالحركة الاقتصادية ككل.

٧- والاهتمام بتربية اقتصادية واعية يؤدي إلى ربط الاستهلاك بالمنظور العام لاقتصاد الأمة فما من إسراف يهلك الموجودات، ولا تقتير يحرم من الضرورات، ولا من مباهاة ولا اختيال أو تفاخر في مأكل أو مشرب أو مسكن أو مركب، وإنما التزام بحدي الحلال والاعتدال. وذلك لأن مثل هذه التربية يمكن أن تكوْن رأياً عاماً يلفظ الجنوح والانحراف، ويساعد القوامة والاستقامة والالتزام الجاد بآداب الإسلام الاستهلاكية الراقية.

٨- وأخيراً لا بدّ من وقفة موضوعية جادة إزاء الديون الخارجية، والتي أصبحت تؤرق البلاد والعباد، بوقف أي استدانة جديدة مهما كانت الأسباب، ولو أدى الأمر إلى التّقنين واستهلاك الأزمات وفي الوقت نفسه التخلص من الموجود منها، ولا نقول فلتتولّ الدول العربية الغنية سداد ديون الدول الفقيرة، لتتمكن من النهوض الاقتصادي، فمثل هذا القول بحث عن العنقاء، وإنما يمكن أن تساند قدراتها عملية التخلص من الديون باسلوب غير مباشر، كفتح المجال أمام العمالة، وزيادة نسبة ولو ضئيلة من استيراد المنتجات العربية، وهكذا ليشعر أبناء هذه الأمة يوماً أنهم فعلاً أبناء أمة واحدة لا يسلم غنيهم فقيرهم ولا قويهم ضعيفهم في وقت الشدّة.


الفصل الثامن
التربية العسكرية



أولاً: المفاهيم الأساسية

أ- طبيعة الصراع البشري

١ – دوافع الصراع البشري:

خلق الله تعالى بني الإنسان ـ كما سبق القول ـ متمايزين في قدراتهم وطاقاتهم وقواهم، وبالتبعية في مفاهيمهم ورغباتهم ونزعاتهم، وبذلك يتمايزون قوة وضعفاً، وغنى وفقراً، وذكاء وغفلة، كما تتمايز مواقفهم في معظم قضايا الحياة وقيمها ـ اعتقادا وتصورا، وقولا وعملا ـ فهناك من يتبنى الحق، وهناك من جعل من نفسه مرتعاً للباطل، وهكذا بالنسبة لكل قيمة من عدل وخير ومساواة وغيرها.

ونتيجة للتمايز والتفاوت يغدو الخلاف في وجهات النظر وارداً، وبركوب الهوى يصبح الصراع حتميا، لا سيما بين أهل العدل وأهل الظلم، واهل الخير وأهل الشر، فيحدث ما يسمى بالدفع البشري، إذ تحاول كل فئة أن تدفع الأخرى عن موقفها وجذبها أو حملها على تبني موقفها هي.

والدفع البشري ليس شرّا كله، فهو أساساً سنّة رئيسة من سنن الحياة، إذ لو تركت الحرية مطلقة للإنسان، وتُرك لتحكّم شهواته ورغباته ونزواته وانفعالاته وعواطفه، لأوغل في سبل الشرّ، لأنها أيسر مؤونة وأكثر تلبية للنزوات، وبذلك تتحول الحياة إلى جحيم لا يطاق، يسودها الفساد والانحراف والظلم والقهر والعسف والجبروت، يسطو فيها القوي على الضعيف، ويتحكم الغني في الفقير، وتثور الأحقاد والضغائن ويركب كل رأسه، ولو تمّ ذلك لانتهت البشرية في مهدها الأول. لذلك كانت الرسالات السماوية، رحمة من الخالق ـ سبحانه ـ لعباده، لتبصّر الإنسان بموضوعية الاختيار بين البدائل المتناقضة، حتى لا يضلّ السبيل القويم، فيعمّ الأرض الفساد.

والله ـ سبحانه وتعالى ـ يبين في محكم كتابه أن الدّفع البشري سبيل لتحقيق صلاح الحياة، فيقول ـ جل شأنه ـ ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ ﴾[(١)]، ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ ﴾[(٢)]، فبدون هذا الدفع لا تبقى هناك صوامع وهي أديرة الرهبان، ولا بيع وهي أماكن عبادة النصارى، ولا صلوات وهي أماكن عبادة اليهود، ولا مساجد وهي أماكن عبادة المسلمين، وبذلك تتعطل صلة المخلوق بالخالق، والعابد بمن يعبد، فيفقد الإنسان حبل الهدى الممدود. ويُدمّر كل معنى للحياة.

٢- اتجاها الصراع البشري:

يأخذ الصراع البشري أحد اتجاهين:

٢/ ١: الصراع السلمي:

يتمّ هذا الصراع بين عقلاء بني البشر، الذين يحكّمون ما وهبهم الله من عقل وفكر ومنطق، فيأخذ مساراً هادئاً متزناً عقلانياً موضوعياً، يقابل فيه الفكر الفكر، ويصارع الرأي الرأي، وتدفع الحجة الحجة، ويحكم البرهان والدليل ذلك كله، مع التزام بأدب الخلاف وأدب الحوار واحترام الرأي والرأي الآخر، وإنسانيّة الإنسان وكرامته، وبذلك لا تسلخ في هذا الصراع جلود، ولا تمزق وجوه ولا تهشم عظام ولا تسفك دماء.

٢/ ٢: الصراع العدواني:

من الناس نوع غير النوع السابق، وهؤلاء استبد بهم الغرور، وتعمق لديهم الشعور بالفوقيّة، فإذا تولوا زمام الأمور، وغدت بأيديهم مقومات القوة، تنكبوا كل سبيل قويم، وتحولت إنسانيتهم إلى وحشية، تتضاءل أمامها وحشية الوحوش: يعتدون ويظلمون ويستبدون ويقتلون ويحرقون، ويدمّرون كل ما يعترض نزواتهم ومسارات هواهم، يئدون الرأي، ويعدمون الكلمة، ويقطعون الألسنة، ويطاردون كل مخالف، وينكّلون بكل معارض، والتاريخ القديم والحديث حافل بأسماء هؤلاء.

---

(١) البقرة (٢٥١).

(٢) الحج (٤٠).

هذه النوعية من البشر- على اختلاف مواقعهم - هي آفة الحياة والأحياء، والمرض العضال الذي لا يرجى منه شفاء، لا يستجيبون لمنطق قويم، أو رأي سليم، أو فكر حكيم، فالرأي حكر عليهم، ويجب أن يتبناه الجميع، شاءوا أم أبوا، رضوا أم كرهوا، وإلا فالسيف، كما قال الأعرابي لغنمه: «إما أن تردي وإما العصا».

لذلك يأخذ الصراع منحى عدوانيا، الحكم فيه للقوة، وللقوة فقط، وتؤول الأمور إلى إشعال الحروب، واحتلال الأوطان وإذلال الإنسان.

٣- مواجهة العدوان:

إذا ابتلي مجتمع ما بمن يحولون الصراع البشري من مساره السلمي القويم إلى المسار العدواني السقيم، فإن ردّ الفعل الذي عرفته البشرية والذي يتوقع من أي مجتمع يأخذ أحد اتجاهين أيضا هما:

٣/١: **المواجهة السلبية**: والتي تلجأ إليها الشعوب الضعيفة الكليلة المغلوبة على أمرها، حيث تتخذ موقف الخنوع، والخضوع والاستذلال والاستكانة، طلبا للسلامة، وإيثارا لعدم تحمل المشقة والأذى، وهذا ما يدفع المعتدين إلى تصعيد عدوانهم لعدم وجود من يتصدى لهم، ويحيلون حياة المجتمعات إلى حياة ذلّة وضعة وهوان، تنعدم فيها معالم النخوة والمروءة والشرف.

نتيجة لذلك لا يعود أمام الضعيف إلا أن يستعطف المعتدي كي يرحم والظالم كي يعدل، أو أن يلجأ إلى الدعاء إلى الله كي يصلح هذا أو ذاك والله - تعالى - يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصۡلِحُ عَمَلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ۝٨١﴾[1]، وإنما يصلحه البشر أنفسهم بمقتضى التكليف، وقد يقبع هؤلاء في بيوتهم يذرفون الدموع على حقوق تصادر، وأوطان تحتل، وإنسانية تستلب، مع علمهم أن الدموع - حتى لو جرت أنهاراً - لا تحرر الأوطان ولا تنهض بواقع الإنسان.

هذا الاتجاه السلبي هو الذي هبط بقيمة شعوب العالم الثالث، وعكر صفو حياتها، وسلبها قيمة وجودها، حيث أنه وإن أبقى على الجسد، فقد أهلك الروح،

(١) يونس (٨١).

فغدت الشعوب كرة بين أرجل اللاعبين، من المستعمرين، وأعوانهم من الحكام المستبدين، يركلونها وقتما يريدون، إلى أي جهة يشاءون، ولا تستطيع ردّ ركلة راكل.

٣/ ٢ : المواجهة الإيجابية:

وهي المواجهة التي تلجأ إليها الشعوب القوية، التي تجري في عروق أبنائها دماء العزّة والحميّة، حيث ترفض العدوان، وتقاومه باليد والسنان والقلب واللسان، تجابه القوة بالقوة، وترد العدوان بالعدوان، باذلة النفس والنفيس، وكل مرتخص وغال، لردع المعتدين، وإعادة الحق إلى ذويه، والعدل إلى أهله، غير آبهة بالمشاق والمتاعب وأشواك الطريق، فالنفس الأبيّة، تنشد البقاء، ولكن في ظلال الحق والعدل والخير والحرية وإلا فإنها تفضل الموت في سبيل الله، على حياة يكبلها عار الإسار وذل الانكسار.

هذا الموقف قد يؤدي إلى إشعال الحرب واستخدام السلاح، إذا لم يرتدع المعتدون، مما يتطلب تربية وإعداداً عسكريا كفؤا قديرا لتحقيق النصر على المعتدين المتجبرين، وهذا ما أخذت به معظم المجتمعات السابقة والمعاصرة، لكون القوة العسكرية الحكم الفصل في إحقاق الحق وإزهاق الباطل.

ب- الإسلام والصراع البشري

إن موقف الإسلام من الصراع البشري محدد في الكتاب والسنّة بشكل بيّن واضح مفصل تفصيلاً، ولو عرض على أي عاقل من بني الإنسان لن يختار غيره، ويأخذ المنحيين السابقين: السلم أو الحرب، ويتضح ذلك فيما يأتي:

١ - الإسلام والسلام:

من الواضح ابتداء أن الإسلام والسلام ـ لغة ـ مشتقان من مادة واحدة، وأن منبع العقيدة وعباداتها ومعاملاتها تنطلق من السلام ومن ذلك:

- من أسماء الخالق ـ سبحانه ـ التي جاءت في القرآن الكريم «السلام» ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ﴾[١].

---

(١) الحشر (٢٣).

- تحية المسلمين هي السلام: «السلام عليكم ورحمة الله وبركاته».

- يتكرر السلام في الصلاة: «السلام عليك أيها النبيّ» «السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين» «السلام عليكم ورحمة الله وبركاته».

- كما يتكرر في الدعاء: «اللهم أنت السلام ومنك السلام وإليك يعود السلام فحيّنا ربنا بالسلام».

- ومن أبواب المسجد الحرام بمكة والمسجد النبوي بالمدينة والمسجد الأقصى «باب السلام».

- وتسمى الجنة في الإسلام «دار السلام» ﴿ ۞ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾[1].

- تحية المؤمنين لربّهم يوم يلقونه هي السلام ﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ﴾[2].

- تتكرر لفظة «سلم» ومشتقاتها في القرآن الكريم «١٣٣» مرّة.

- لا نجد اسم «عبد السلام» إلا لدى المسلمين[3].

وينطلق الإسلام في نظرته للسّلام من وحدة الخلق ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾[4]، وتتكرر المناداة في القرآن الكريم لبني البشر بقوله «يا بني آدم»، ولذلك يجب أن تقوم علاقاتهم على أساس من الحبّ والودّ والتعاون والرحمة والعطف والشفقة «الخلق كلهم عيال الله، فأحبهم إليه أنفعهم لعياله»[5] «ألا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم»[6].

يضاف إلى ذلك نظرة الإسلام إلى وحدة الأديان السماوية في أصولها وأهدافها وغاياتها: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ

---

(١) الأنعام (١٢٧).

(٢) الأحزاب (٤٤).

(٣) مصطفى السباعي، نظام السلم والحرب في الإسلام، دار الوراق، بيروت، ط٢ ١٩٩٨م، ص ١٤-١٥.

(٤) النساء (١).

(٥) رواه البزار.

(٦) رواه مسلم.

﴿وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾(١) فلا يجيز الإسلام أن يكون تعدد الأديان سببا للاقتتال والخصام والعداء.

إلا أن مجرد إعلان السلام وتبنيه لا يحقق السلام، وإنما يجب إقراره بالتشريع من ناحية، وغرسه في النفوس بالتربية من ناحية ثانية، حتى يمكن تخطي بواعث الشرّ والفتن، وإحقاق الحق والعدل والخير، وإبطال الباطل والظلم والقهر، مما يحقّق قيام السلام على الأرض، لذلك كان موقف الاسلام محدداً بالنسبة للسلام الداخلي والسلام الخارجي.

١/١- **السلام الداخلي**: وهو السلام الذي يعم المجتمع الواحد، ويبدأ به الإسلام بضبط معتقدات الإنسان وتصوراته ونزواته وعواطفه ودوافعه وانفعالاته، وضبط نظام الأسرة والمجتمع على أسس علمية موضوعية واعية، وعلاقات الأفراد بعضهم ببعض والأسر بعضها ببعض والمجتمعات بعضها ببعض، والقاعدة مع القمة والقمة مع القاعدة ـ كما سبق بيانه ـ بحيث يمكّن مجتمعه من إقامة السلم الداخلي، فلا خوف ولا ارهاب ولا اضطراب أو اختلال نظام، ولا ثورة للنفوس والنزوات، مما يؤمن السلم الوقائي، الذي يقي المجتمع عوامل الدمار.

وبالرغم من كل هذه الضوابط قد يحدث الخلاف، ويضع الإسلام أسس الأسلوب السلمي في حسم الخلافات، باللجوء إلى الحوار والاحتكام إلى البرهان واحترام الرأي والرأي الآخر، ممّا يحسم مادة الخلاف ويؤيد موضوعية المواقف والآراء ومصداقيتها، أو يدحضها وينفيها. وفي ذلك يقول الخالق ـ جل شأنه ـ

- ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١١١﴾﴾(٢).
- ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ۖ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾(٣).
- ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾(٤).

---

(١) البقرة (٢٨٥).
(٢) البقرة (١١١).
(٣) النحل (١٢٥).
(٤) فصلت (٣٤).

١/٢- **السلام الخارجي**: وهو السلام الذي يتعدى حدود الدولة الإسلامية، لينتظم علاقاتها مع الشعوب والدول الأخرى جميعا، ويؤكد الإسلام على إشاعة السلام والمهادنة والوفاق مع الشعوب الأخرى، فالله تعالى يؤكد على عمومية قصدية السلم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةً﴾[١] ﴿۞وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا﴾[٢]، بل إن الله يؤكد على أنه سبحانه يهدي من اتبع رضوانه سبل السلام: ﴿قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ۝١٥ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾[٣]، وهو ـ جل شأنه ـ وإن كان يؤكد على عدم موالاة المعتدين، إلا أنه في الوقت نفسه لا ينهى عن إقامة علاقات بناءة مع من لا يعتدون: ﴿لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ﴾[٤].

إن الإسلام يتخذ موقفا يتوافق مع كرامة الإنسان، وإعلاء إنسانيته، إذ يحكّم الاتجاه السلمي في حل أي منازعات أو خلافات بين الشعوب، ويأبى أن يكون الدين سببا أو ذريعة لاستشراء الخلافات وتعميقها، والله تعالى يقول: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾[٥]، وحتى لو تمسّك كل برأيه وموقفه فلا يجوز أن يؤدي ذلك إلى الاقتتال: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ﴾[٦].

أما إذا وقع الظلم والغبن والاعتداء ـ سواء أكان ذلك داخلياً أو خارجياً ـ فلا رضوخ لطغيان الطغاة ولا استسلام لاعتداء المعتدين، وإنما ايجابية موضوعية مسؤولة تحفظ عزة المسلم وكرامته، توقف طغيان الطاغين، وتردع اعتداء المعتدين، وهنا يغدو مؤكداً نشوب الحرب، ولا يتردد أي مسلم في خوض غمارها.

---

(١) البقرة (٢٠٨).

(٢) الأنفال (٦١).

(٣) المائدة (١٥-١٦).

(٤) الممتحنة (٨).

(٥) البقرة (٢٥٦).

(٦) النحل (٨٢).

٢- الإسلام والحرب:

تمتلىء كتب المستشرقين من الغربيين بالدسّ على الإسلام، مدّعين أن الحرب إنما شرّعت في الإسلام لإكراه الناس على الإسلام، ويتبعهم للأسف بعض أبناء هذه الأمة ممن أجّروا عقولهم للغرب أو الشرق، ووقعوا في براثن الأسر الثقافي، واستسلموا للتّسيير الاعلامي الذي تقوده الإرساليات الثقافية الغربية.

والحقيقة التي تعامى عنها هؤلاء، ويصمّون دونها آذانهم، وتعمى عنها أبصارهم وبصائرهم، هي أن الإسلام يجعل من الحرب ـ إن كان لا بد منها ـ وسيلة للسلام، وليس لقهر الشعوب واستعبادها.

٢/ ١ : أهداف الحرب في الإسلام:

- **حماية الأمة من العدوان:** إن الإسلام يأبى على المسلمين الموقف الذليل المستكين المستخذي، ممّا يتطلب موقفا صارماً حازماً حاسماً ضد من يعتدي على المسلمين بأي صورة من صور الاعتداء، فإذا وقع الاعتداء، فلا صبر على ضيم، ولا سكوت على هضم، ولا مهانة ولا استخذاء، وإنما اعتداء يرد الاعتداء ويصدّ المعتدين، حتى يثوبوا إلى رشدهم ويستمر السلام والوئام على الأرض، وتترسخ علاقات بني البشر على أسس الحق والعدل والخير، ولذلك يقول الحق ـ سبحانه ـ:

- ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾[(١)].
- ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا﴾[(٢)].
- ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا﴾[(٣)].

وردع المعتدي يقتضي إعداد القوة لإرهاب العدوّ، ومنعه من العدوان، فيقول ـ سبحانه ـ ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾[(٤)].

---

(١) البقرة (١٩٤).

(٢) البقرة (١٩٠).

(٣) المائدة (٢).

(٤) الأنفال (٦٠).

لذلك فإن ردّ العدوان هو المنطلق الأول للجهاد الإسلامي، ولا يقتصر ذلك على العدوان الخارجي، وإنما ينسحب على البغي في العلاقات الداخلية، فيقول ـ جل شأنه ـ:

- ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ﴾[1].

ولعل أول حرب شاملة خاضها المسلمون وهي حروب الردّة كانت حروبا داخلية، ضد أولئك الذين تنكروا للحق والعدل.

أمّا إذا كف المعتدون عن الاعتداء، والتزموا بالحق والعدل فلا إباحة مطلقا للعدوان.

- ﴿ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾ ﴾[2].

- **تأمين حرّية الشعوب**: كثيرا ما يأخذ العدوان أسلوبا غير عسكري، بالاعتداء على حرّية الإنسان وكرامته، ومصادرة حقوقه واستباحة حرماته، وقهره وإرهابه وترويعه، وما يتبع ذلك من سجن واعتقال وتعذيب وتنكيل، وتقتيل، لا لسبب إلا لركوب سفاهة القوة. وأتباع الرسالات السماوية جميعا معنيون بالوقوف في وجه هذا الظلم، والمسلمون في مقدمتهم لا يترددون في خوض مثل هذا القتال، وقد غدا هذا الأمر مقبولاً اليوم لتأمين حقوق الإنسان، وغدت كل شعوب العالم تتبنّاه لأنه جاء من عند السادة الأقوياء، وقد سبق الإسلام هؤلاء بثلاثة عشر قرناً، فالله تعالى يقول:

- ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ﴾[3].

إنه جهاد لتحرير المضطهدين المظلومين الذين لا حيلة لهم في رفع الظلم الواقع عليهم، والطغيان الذي يستهدفهم.

---

(١) الحجرات (٩).

(٢) البقرة (١٩٣).

(٣) النساء (٧٥).

فالجهاد الإسلامي بهذا المعنى لا يسعى لتحقيق أهداف مادية أو أمجاد قومية أو طائفية، ولا إلى الاستعلاء في الأرض، وإنما إلى ترسيخ الحق والعدل والخير والحرية والمساواة في الأرض، فهو جهاد لله وفي سبيل الله: ﴿ انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾[1]، ويؤكد الله ـ سبحانه ـ أن الجهاد ـ وإن كان في سبيله ـ تعود نواتجه على الإنسان المجاهد ذاته، فيقول:

- ﴿ وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ ﴾[2]، لكونه يمنع امتداد الظلم والعدوان إليه.

ونتيجة الجهاد المتوقعة هي ردع المعتدين وحفظ حقوق المعتدى عليهم، وكف ظلم الظالمين وانصاف المظلومين، وبذلك يتحقق أمن الحياة ويسودها الحق والعدل والخير، ويشعر الإنسان بأهميتها وبهجتها، وبأهمية نهوضه بواجبات الاستخلاف فيها وترقيتها وتقدمها. . . ومن هذا المنطلق كانت الحروب الإسلامية الأولى.

٢/ ٢- موجبات الحروب الإسلامية الأولى:

جاء الإسلام ثورة حقيقية في عالم المعتقدات والتصورات، والفكر والمفاهيم، ومنظومة العلاقات والمعاملات، لذلك كان متوقعا أن يواجه بالمقاومة، ولكن هذه المقاومة تحولت إلى عنف وظلم وطغيان وعدوان، ولم يستجب أعداء الإسلام لمنطق السلام والحوار الموضوعي.

كانت البداية مع كفار قريش وعتاتها الذين حرّموا على النبي ﷺ الكلمة والدعوة إلى الله سلماً، فآذوه في نفسه وحوّلوا بطاح مكة إلى ميادين لتذبيح المسلمين وتقتيلهم وتعذيبهم، والرسول وصحابته صابرون. وهاجر بعض المسلمين إلى الحبشة فلاحقتهم قريش هناك، ثم حاولت قتل النبي ووأد الدعوة الجديدة، وعندما هاجر إلى المدينة صعّدوا عداءهم ضده: صادروا أموال المهاجرين، ونكلوا بمن احتجزوهم من المسلمين، فكان لا بد من الحرب لاعادة الوثنية الطاغية إلى رشدها.

---

(١) التوبة (٤١).

(٢) العنكبوت (٦).

وفي المدينة هادن النبي ﷺ جماعات يهود بوصفهم أهل كتاب، ولكنهم أقاموا له في كل طريق مؤامرة، ونصبوا له في كل درب شركا. لاحقوه بأحقادهم وأراجيفهم وأكاذيبهم، وقتلوا بعض أصحابه، وحرضوا عليه قبائل العرب وأعانوهم، ثم حاولوا قتله، ولذلك غدت الحرب معهم حتمية.

وفي شرقي الجزيرة كان الفرس يستبدون بعرب العراق التي احتلوها وجعلوا أهلها أذلة، ولما قام الرسول بدعوتهم إلى الحق، أخذتهم العزة بالإثم، وأصروا واستكبروا استكباراً، ولم يطق كسرى أن يخاطبه رسول من العرب فمزّق كتابه دون أن يقرأه، وأمر عامله على اليمن أن يرسل إليه النبيّ مكبلا، فكان لا بد من قتال الفرس وتحرير الشعب وبني الإنسان الذين يستبدون بهم من طغيانهم الطاغي الباغي.

وهكذا في شمالي الجزيرة، حيث احتل الروم بلاد الشام العربية، وأحالوا أهلها إلى حراس حدود لهم، لمطاردة إخوانهم من عرب الجزيرة، وبلغ من طغيانهم أن قتلوا الرسول الذي أرسله النبيّ إلى كبيرهم هرقل ليحولوا دون تبليغ رسالة الرسول، استهتارا بالمرسل، مع أن الأعراف قد استقرت على أن الرسل تكرم ولا تهان، وتحمى ولا تقتل، وعندما أسلم أمير معان العربي فروة بن عمر الجذامي قتلوه شرّ قتله، وعندما توجهت سرّية مؤتة بثلاثة آلاف لمعاقبة من قتلوا رسول الرسول، حشدوا لها مائتي ألف، ثم أخذوا يعدون لغزو المدينة، فغدت الحرب معهم واقعة لا محالة، فلو تركهم المسلمون لما تركوهم.

هذه القوى جميعها تألبت ضد الإسلام والمسلمين، ومع ذلك يأبى الإسلام ـ برغم كل هذه الظروف ـ إلا أن تكون أي حرب يخوضها أتباعه حرباً عادلة، فالعدل أهم مقاصده، ولا يجوز أن تدفع الظروف المسلمين إلى تنكّب العدل.

جـ- شروط الحرب العادلة في الإسلام

سلّمت المجتمعات البشرية عبر تاريخها الطويل بحتمية اشتعال الحروب، ذلك لأنه يوجد في كل زمان ومكان من الزعماء والسلاطين والأباطرة، من يركب مراكب العدوان والطغيان، فيسطو على الأوطان المجاورة ليضيف أرضها إلى أرضه،

وشعبها إلى حكمه، وينهب خيراتها وثرواتها لتتعاظم بها ثرواته. لذلك أخذت المجتمعات تحاول أن تجعل الحرب عادلة ما دامت لا تستطيع دفعها.

وفي العصر الحديث برز القانون الدولي ليعرّف الحرب العادلة بنصّه على أنها: «أي حرب توجّه ضد شعب ارتكب ظلما ضد شعب آخر، ورفض رفعه عنه»[1]، وعلى هذا الأساس عقدت الاتفاقيات والمعاهدات الدولية، محددة الأسس التي تراعى لاعلان الحرب وفي أثناء الحرب وعندما تضع أوزارها، وكيفية معاملة المحاربين والأسرى والرهائن والممتلكات... إلخ، وبالرغم من ذلك، فما من حرب منذ تسلّم الغرب زمان القوة المادية، التزمت بقانون أو راعت قيماً أو توخّت عدالة، الأمور التي لا يجهلها عالم أو جاهل.

أما الإسلام فقد حدّد حدوداً للحرب العادلة، التزمها المسلمون قرونا عديدة، وتنكّبها بعض الحكام أحيانا، ولكن يبقى الحكم على الإسلام لا على تصرف الحكام، وفيما يأتي أهم شروط هذه الحرب:

١ - سموّ الأهداف:

للحرب في الإسلام هدفان اثنان لا ثالث لهما ـ كما سبق ـ هما: حماية الأمة الإسلامية من العدوان وحماية الحرية الفكرية والعدالة الاجتماعية للناس من الوأد والمصادرة.

فإذا كانت أهداف الحروب لدى أي مجتمع من المجتمعات مادية أو نفعية أو عنصرية، أو لتحقيق الغلبة والاستعلاء والأمجاد القومية أو الطائفية أو كسب الجاه والمال، فإن هذه الأهداف لا وجود لها في أي حرب إسلامية، ومن سعى من المسلمين إلى شيء من ذلك فليس مجاهدا ولا للإسلام مكانة في نفسه.

إن أهداف الإسلام من الحروب أخلاقية بحته، قوامها: احقاق الحق وإزهاق الباطل، وترسيخ العدل ونفي الظلم، وتعميم الخير وكف الشرّ، وتأكيد الحريّة والمساواة ووأد القهر والتسلط .. فالقتال والجهاد لا يكون إلا لله وفي سبيل الله، وسبيل الله واضح محدد معروف.

---

(١) محمود شيت خطاب، بين العقيدة والقيادة، ط١، دار الفكر، بيروت، ١٩٧٢، ص١٠٥.

هذه الأهداف المسيجة بالقيم الأخلاقية تمنع المحارب المسلم من أن يعتدي أو يجور أو يظلم، أو يسلب أو ينهب أو يغل، أو يهتك عرضا أو يدوس حرمة، وبذلك يخفف الهدف النبيل من ويلات الحرب، ويسمو بالمقاتل إلى ذروة الإنسانية، وقد استوعب ذلك ربعي بن عامر ـ رضي الله عنه ـ في ردّه على رستم أيام القادسية: حيث سأله:

- ما الذي جاء بكم إلى ديارنا وقد كنتم . . . فأجاب ربعي:

- جئنا لنخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام.

٢- قوامة المسار:

الحرب هي الحرب، ولكن تختلف حرب عن حرب في موضوعية وإنسانية وعدالة مسارها، والإسلام يحدد أقوم مسار للحرب يقوم على الآتي:

٢/ ١ : المنابذة:

في معظم الحروب التي تناهت إلينا أخبارها، نجد شعبا من الشعوب كان ينام ليله هادئاً آمنا مطمئنا وإذا به يصحو على هدير المدافع، وقصف الطائرات، وأزيز الرصاص، وانفجار الصواريخ واشتعال النيران، وقتل الأطفال والشيوخ والنساء، إنها الحرب. . . دمّرت القوات، واحتلت البلاد، واستولت على المقدرات، فلم يبق أمام هذا الشعب إلا الرضوخ لمشيئة المنتصر، وذلك بالرغم من أن القوانين الدولية تؤكد على ضرورة إعلان الحرب.

يرفض الإسلام هذا التصرف الذي يمثل اغتيالا جماعيا لشعب من الشعوب، وهو تصرف لا شجاعة فيه ولا رجولة ولا بطولة، فاستغلال أمن الناس وغفلتهم، وركونهم إلى السلام، لشن حرب عليهم جريمة كبرى، وتصرف مشين لا يقدم عليه سوى الجبناء من الناس.

لا يجيز الإسلام حرباً دون منابذة، وإعلان حرب، وإعطاء مهلة، ويعتبرها حرباً غادرة لا عادلة، وذلك تنفيذاً لقول الله تعالى:

- ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾[1].

والمنابذة الإسلامية ليست إعلان حرب هدفها الإعلام فقط، وإنّما تأخذ صفة التّخيير بين ثلاثة خيارات خلال ثلاثة أيام بلياليها هي:

- **الإسلام**: بقبول الفئة المعادية الدخول في دين الإسلام، والاحتكام إليه، وبذلك لا عدوان ولا ظلم ولا استعباد للناس، وإنما حقّ وعدل وخير وحرّية ومساواة، وفي هذه الحالة يصبح العدوّ أخاً مسلماً له ما للمسلم وعليه ما عليه، دون تفرقة أو تمييز.

- **الجزية**: وتعني دفع قدر من المال من القادرين على العمل وحمل السلاح مقابل حمايتهم من أي اعتداء عليهم، حمايتهم في أموالهم ومعتقداتهم وحرياتهم وحرماتهم، وتمتّعهم بالحقوق التي يتمتع بها المسلمون سواء بسواء، ما داموا قد قبلوا السّلم.

والجزية قدر ضئيل إذا قورن بالزكاة التي يدفعها المسلم، فهي لثلاث فئات حسب قدراتها: ٤٨ درهما على الأغنياء، ٢٤ درهما على متوسطي الدخل، ١٢درهما على الفئات محدودة الدخل والتي يتوافر لها العمل، وتسقط الجزية عن الفقير، والصبيّ، والمرأة، والراهب، والأعمى، والمقعد، وغير ذلك من ذوي العاهات، والجزية تمثل ما يسمى اليوم ببدل الخدمة العسكرية الذي تعمل به كثير من الدول المعاصرة.

ومن المعروف أن المسلمين ردّوا على أهل حمص ودمشق وغيرهم ما أخذوا منهم من جزية عند انسحابهم لمواجهة الروم، لأنهم إنما أخذوها للمنعة والحماية، وهذا ما لم يحدث في التاريخ.

ويعفى من الجزية كليا من يدخل في الجيش الإسلامي، أو يقدم خدمات عامة للدولة، وأهل الذمة الذين يعيشون في الدولة الإسلامية ويشاركون المسلمين ولاءهم وإخلاصهم لها لا يقاتلون، ولذلك لا جزية عليهم.

- **الحرب**: ولا اقدام عليها إلا بعد رفض الخيارين الأولين، أو انتهاء مدة المنابذة وهي الأيام الثلاثة، مما يعني إصرار الفئة المعادية على القتال، أما إذا

(١) الأنفال (٥٨).

اختارت الإسلام، فلا حرب، وإذا اختارت الجزية دخلت في ذمة المسلمين. وقد كان لتمسك المسلمين بهذه المقومات أعمق الأثر في نفوس الشعوب، فكان معظمها يقبل الإسلام، وإلا فالحزية حيث وجد من قبلوا الجزية أكرم معاملة، ومن الحوادث اا المشهورة في المعاملة الكريمة وعدالة المنابذة ما يأتي:

* **في معاملة أهل الذّمة**: تسابق صبيان في مصر على جوادين، وكان أحدهما ابن أمير مصر «عمرو بن العاص» والثاني ابن أحد أقباط مصر (أهل الذّمة، الذين تؤخذ منهم الجزية لحمايتهم) فأنف ابن الأمير من أن يسبقه القبطي وضربه بالسوط قائلاً: أتسبق ابن الأكرمين؟

- سافر والد المضروب شهراً كاملاً مع ابنه على ظهور الإبل ليرفع شكواه إلى رئيس الدولة الأول إلى الخليفة عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ ويرتاع عمر للشكوى مع أنه أمر يحدث يوميا بين أولاد في سنّ الضارب والمضروب، ولكن عمر يرى في الأمر ظلما جاء الإسلام ليمنعه ويحرر الشعوب منه، وهو ظلم يقع على من له حق المنعة والحماية من ظلم داخلي أو خارجي، فلا يستهين بالأمر وإنما يستدعي أمير مصر وابنه، ويحاكمهما، ويحكم للصبي القبطي على ابن الأمير، ويناوله السوط ويأمره أن يضرب ابن الأمير قائلا: «اضرب ابن الأكرمين» ويضربه حتى يشتفي، ويأمره أن يضع السوط على راس عمرو، فيقول: لقد ضربت يا أمير المؤمنين من ضربني، ويقول عمرو: وما ذنبي يا أمير المؤمنين؟ فيقول عمر: «إنما استحل منه ذلك بسلطانك، ثم يقول له قولته الخالدة: متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا؟»[1].

* **في التزام المنابذة**: ويفتح القائد قتيبة بن مسلم سمرقند، ويستمر المسلمون فيها ردحا من الزمن، ثم يتولى عمر بن عبد العزيز الخلافة، فينتدب أهل سمرقند بعض وجوههم شاكين من أن قتيبة دخل مدينتهم غدرا، إذ نابذهم فعلاً، ولكن قبل انقضاء مدة التخيير هاجمها ودخلها عنوة، ولا يتهاون عمر أيضا، وإنما يكتب لواليه على سمرقند أن يقيم لهم قاضيه «جميع بن حاضر» ليسمع شكواهم فإن كانت حقا أنصفهم.

---

(١) ابن الجوزي، تاريخ عمر بن الخطاب، مطبعة محمد صبح، القاهرة، ـــــ، ص ٧٣.

ويستمع جُميع لهم، ولمن حضر احتلال سمرقند من المسلمين، ويثبت لديه أن شكواهم حق، فبماذا حكم؟ حكم جُميع بأن ينسحب الجيش الإسلامي في مهلة ثلاثة أيام وكذلك من سكنها من المسلمين من غير أهلها. . ويؤخذ أهل سمرقند بهذا العدل المطلق، ويطلبون من الوالي والقاضي بمحض اختيارهم أن يبقى المسلمون في مدينتهم، ولم يمض وقت طويل حتى دخلوا جميعا في الإسلام.

٣/ ٢ الوفاء بالعهود:

كثيراً ما تكون بين دولتين اتفاقات ومعاهدات بعدم الاعتداء والمحافظة على السلام، وإذا ما وجدت إحداهما لديها القوة لسحق الأخرى تنبذ اتفاقاتها ومعاهداتها وتهاجمها، ثم تختلق الأكاذيب وتبتكر المبررات الواهية لتبرير فعلتها، وهذا ما جرى في الحروب الاستعمارية كلها، وفي الحربين العالميتين.

أما الإسلام فيوجب وجوبا حتميا المحافظة على العهود والوفاء بها، ويحرّم تحريما قطعيا الخيانة لها والعمل على نقضها، أو أن تكون وسيلة للاحتيال على الآخرين، فالله ـ سبحانه وتعالى ـ يقول:

- ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾[1].

- ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴿٣٤﴾﴾[2].

إن العهود إنما تبرم أساساً لاشاعة السلام، وما دام الإسلام يدعو إلى السلام فلا مبرر مطلقاً لنقض العهود والخيانة، ولذلك كان رسول الله ﷺ وصحابته أوفى خلق الله لعهد وأكثرهم التزاما به.

عندما أبرمت معاهدة الحديبية وتمّ الاتفاق على نصوصها بين الرسول ﷺ عن المسلمين، وسهيل بن عمرو عن المشركين، فوجىء المسلمون بمجيء أبي جندل بن سهيل بن عمرو ـ وكان مسلما ـ فارّاً من المشركين بدينه، قال سهيل: يا محمد، لقد لجت القضية بيني وبينك قبل أن يأتيك هذا، قال الرسول: «صدقت» فأخذ

---

(١) النحل (٩١).

(٢) الإسراء (٣٤).

سهيل ابنه فضربه وجعل ينتره ويجرّه رادا إياه إلى قريش، وأخذ أبو جندل يصيح: يا معشر المسلمين أأرد إلى المشركين يفتنونني في ديني؟ وكان قد عذب عذاباً شديداً في مكة، فقال له الرسول: «يا أبا جندل اصبر واحتسب، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً، إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحا، وأعطيناهم على ذلك وأعطونا عهد الله، وإنا لا نغدر بهم»[1].

وعندما فرّ أبو بصير القرشي من مكة بعد الحديبية، أرسلت قريش في طلبه اثنين من عتاتها، وأمر الرسول بتسليمه لهما، وكاد المسلمون يفتنون، فكلهم لا يقر إعادة أبي بصير إلى المشركين، ولكن الرسول الكريم أكد موقفه بقوله: «ليس من ديننا الغدر»، وسلم أبو بصير للرجلين، ولكنه استطاع أن يقتل أحدهما وفرّ الآخر، وأقام أبو بصير على طريق قوافل قريش يهاجم ما يمرّ به منها، وانضم إليه عديد من المسلمين الفارّين، مما دعا قريشا أن تطلب إلى النبي ضمهم إلى المدينة.

٢/٣: سياسة الحرب:

وإذا أصر العدوّ على الحرب، وبدأت المعركة، فإن الإسلام يضع أسساً لمسيرها ومصيرها ومن ذلك:

- **الجنوح إلى السلم**: إذا جنح العدو إلى السلم بعد نشوب المعركة لأي سبب من الأسباب فعلى المسلمين الاستجابة حتى وإن كانت المعركة على وشك الانتهاء بالنصر، وحتى لو غلب على الظن أن الجنوح إلى السلم خدعة من العدو، وذلك استجابة لقوله تعالى:

- ﴿ ۞ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُۚ ﴾[2].

ومن المعروف أن خالد بن الوليد دخل دمشق عنوة من أحد جوانبها، في حين سالم جانبها الآخر أبا عبيدة، الذي اقر مسالمتهم، ولذلك عومل ما فتحه خالد عنوة معاملة المحاربين، وما سالمه أبو عبيده معاملة المسالمين.

(١) عن رواية البخاري.

(٢) الأنفال (٦١-٦٢).

ومن الحوادث المشهورة في معارك الأهواز، أن المسلمين حاصروا «جند يسابور» ولم تستسلم، وفجأة فتح المحاصرون الأبواب وخرجوا لاستقبال المسلمين، ولما سئلوا قالوا: نزلنا على العهد الذي أعطيتمونا إياه، قال المسلمون: لم نعطكم عهدا، قالوا: بلى، وهذا هو، وتبيّن أن أحد العبيد واسمه «مكنف» كان مع المسلمين وكان من أهل البلدة، وخشي على قومه الهلاك، فكتب لهم أمانا ورمى لهم به في سهم، وقال المسلمون هذا عبد، قالوا لا نعرف عبدكم من حرّكم، وهذا أمانكم، فإن شئتم أن تخالفوا دينكم وتغدروا فاغدروا، وكتب المسلمون إلى عمر، فيرد عليهم بالتزام الوفاء وإجازة الأمان»[1].

- **في أثناء القتال**: إذا نشبت المعركة فإن الإسلام يحصرها في المقاتلين فقط، فهم المعتدون فعلاً، ولا يجيز أن تؤخذ الأمة أو يؤخذ الشعب بذنب الجيش أو السلطة التي وجهت العدوان، فيحرّم قتل الشيخ الكبير والعاجز والمرأة والصبيّ ورجل الدين المنقطع للعبادة والفلاح وكل مسالم لم يشترك في القتال، ولا يجيز اهلاك الثروة المادية زراعية كانت أو حيوانية لحرمان العدو منها كما تفعل الجيوش اليوم التي تتبع سياسة الأرض المحروقة، وذلك استجابة لقوله تعالى:

- ﴿ **وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾** ﴾[2].

وتجمع ذلك وصية أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ لجيش أسامة التي لا زالت أروع مثال رواه التاريخ عن عدالة الحرب حيث قال: «لا تخونوا ولا تغلوا، ولا تغدروا ولا تمثلوا، ولا تقتلوا طفلاً صغيراً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة، ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرا إلا لمأكله، وستمرون باقوام فرّغوا أنفسهم في الصوامع، فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له..»[3].

---

(١) محمد بن جرير الطبري، تاريخ الأمم والملوك، مرجع سابق، جـ٣، ص٥٠٥.

(٢) البقرة (١٩٠).

(٣) ابن جرير الطبري، تاريخ الأمم والملوك، المرجع الأسبق، جـ٢، ص ٢٤٦.

- بعد الحرب:

بعد انتهاء المعركة يوجب الإسلام معاملة المهزومين معاملة كريمة تليق بإنسانية الإنسان، فلا غطرسة ولا تجبر، ولا ثأر ولا انتقام، ولا عدوان على الأعراض والحرمات، ولا سلب للأموال والممتلكات، ولا إذلال للنفوس والكرامات، وإنما هو إصلاح وترسيخ لمبادىء الحق والعدل والخير والحرّية التي ينادي بها الإسلام فالله سبحانه وتعالى يقول:

- ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾(١).

فالموقف يتطلب سموّا روحيا بالصلاة، وعدالة اجتماعية بالزكاة، وتعاونا على المعروف ومنه احترام حقوق الناس وحرياتهم وكراماتهم وإنسانيتهم، ونهياً عن المنكر بالوقوف في وجه الشرّ الذي يحرم الناس نعمة الأمن والسلام.

أما الأسرى فالموقف إزاءهم يتخذ خيارين: إما المنّ عليهم واطلاقهم من دون أي مقابل، أو فداؤهم، بعدد مماثل من الأسرى أو بمال يؤدونه، وذلك عملاً بقوله تعالى:

- ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً ﴾(٢).

ولا يجيز الإسلام تعذيبهم والتنكيل بهم وإذلالهم ولا التمثيل بهم، ولا حتى تعريضهم للضنك والجوع والسّغب فالله تعالى يقول:

- ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨ ﴾(٣).

ومن المعروف أن الإسلام جاء والرقّ فاش في المجتمعات الإنسانية، فأقرّ تشريعا واضحاً، لتحرير الرقيق بأساليب عديدة، وإعانة الأرقاء في تحررهم بأحد مصارف الزكاة «وفي الرقاب»، وأكد على معاملة الأرقاء الذين لم يحرروا معاملة النفس والأهل والولد في المأكل والملبس والمسكن والعلاج والعمل.

---

(١) الحج (٤١).

(٢) محمد (٤).

(٣) الإنسان (٨).

هذه هي سياسة الحرب في الإسلام، فالحرب شرّ لا بدّ منه لحماية الإنسان والأوطان، لا يفرضها المسلمون، وإنما هي حرب دفاعية عن الإسلام والمسلمين وديارهم، وعن المستضعفين في الأرض، يشعلها أعداء الإسلام، ويفرضونها على المسلمين، متنكّبين الحقّ والعدل، وخيرية الإنسان المكرّم، ومع ذلك يبقى المسلمون ملتزمين بمبادىء دين فضل الإنسان وكرمه، لا يتجاوزونها مهما ضغطت المواقف، واستعر الغداء.

ثانياً: التربية العسكرية النبوية

أ- تنمية مقومات الحسم العسكري العامة

لا تقوم الحروب إلا بالإنسان ـ مهاجما أو مدافعا ـ والإنسان له مقومان: معنوي ومادي، وبقدر قوة وعنفوان كل من المقومين وتعاظمهما تكون كفاية الانسان في كل مجال من مجالات الحياة، ومنها المجال العسكري. والرسول الكريم يعي هذه الحقيقة كل الوعي، لذلك أولى كل اهتمام مستحق لمكوني الإنسان كليهما في كل منحى تربوي ومن ذلك التربية العسكرية، لتحقيق الحسم العسكري السريع تخفيفاً لآثار إطالة أمد الحرب، فعمل على ما يأتي:

١ - تنمية المقومات المعنوية العسكرية:

المقومات المعنوية للفرد الإنساني، والتي أصبح يطلق عليها مسمّى «الروح المعنويّة» غدت أهم ما يهتم به أي جيش من الجيوش، ويعوّل عليها في كسب أي معركة والانتصار في أي حرب، ذلك لأن المقومات المعنوية أو الروح المعنويّة العالية، تمدّ الكائن الإنساني بقوّة دفع جبّارة، تجعله يقاتل بإيمان وجداني عميق، فيواجه كل المواقف بقوة وبسالة وعزيمة نافذة، وترتقي بروح التضحية والبذل والفداء، وتمدّه برصيد لا ينفذ من الصبر والثبات والصمود والتحدّي، لتحقيق النصر على الأعداء، وتدفعه لاستقبال الموت ببسالة منقطعة النظير، واضعاً في اعتباره إحدى الحسنيين إما النصر أو الشهادة. أما إذا كانت الروح المعنوية ضعيفة مزعزعة متميّعة، فإن الجندي أو الإنسان المقاتل قلّما يصبر أو يثبت أو يتحمل ما تجرّه عليه الحرب من ألم وأذى، وسرعان ما يدفعه الخوف والحرص على الذات إلى أن يولّي الأدبار، ويسلم الأهل والديار، أو يستسلم لأعدائه راضياً بحياة الذل في ظل الإسار.

قبل النصف الثاني من هذا القرن كان مشاهير القادة العسكريين كنابليون بونابرت وهتلر واللنبي وغيرهم، يعتبرون أن ٧٥٪ من مقومات الحسم العسكري

والنصر على الأعداء، تعود إلى الروح المعنوية للمقاتلين، وأن ٢٥٪ تعود للنواحي المادية على اختلاف مكوناتها.

إلا أن استخدام الأسلحة النووية والهيدروجينية وما إليها من أسلحة الدمار الشامل، كالصواريخ العابرة للقارات والطائرات العسكرية التي تفوق سرعة الصوت والالكترونات الدقيقة التي تحدد الأهداف إلى غير ذلك، جعلت نسبة حسم المقومات المعنوية تتراجع إلى٥٠٪ كما يرى اللواء فولر في كتابه: الأسلحة والتاريخ[١].

ونظراً لكون المسلمين أقل عدداً وعدّة من أعدائهم، فقد عمل الرسول الكريم بكل جهد ممكن على الارتقاء بالتحشيد المعنوي للمسلمين قبل دخول أي معركة لتعوّض الروح المعنوية ذات النسبة العالية، قصور العدد والعدّة.

لقد بقي ﷺ ثلاثة عشر عاماً في مكة، يحاصره طغيان الطغاة، وتطارده سفاهة السفهاء وجهالة الجهلاء، ويرى بعينيه ما يتعرض له أصحابه من قتل وتعذيب وتنكيل ومطاردة ومقاطعة وملاحقة وتشريد، ويسمع بأذنيه آهات المعذبين وأنين المصابين، ومع ذلك لم يحرك ساكنا: لم يشهر سيفا ولم يشرع رمحا، ولم يرم بسهم، ولم يسمح بقتال.

جاء العباس بن عبادة ـ رضي الله عنه ـ إلى النبي بعد بيعة العقبة الثانية قائلاً: «والذي بعثك بالحق، إن شئت لنميلنّ غدا على أهل منى بسيوفنا» فقال ـ عليه السلام ـ: «لا، لم نؤمر بذلك»[٢] فلماذا؟

لأن النبي الكريم كان يعلم حق العلم أن القتال لا يحسم بفوران العواطف، ولا بالعفوّية في المواجهة، وإنما لا بدّ من إعداد شامل متكامل ـ معنويا ومادياً ـ.

وحيث أن التحشيد المعنوي كان العامل الأكثر حسماً في ذلك الزمان، فقد بدأ به ﷺ على النحو الآتي:

---

(١) عن محمود شيت خطاب (لواء) بين العقيدة والقيادة، دار الفكر، بيروت، ١٩٧٢، ص٣٤.

(٢) محمد بن جرير الطبري، تاريخ الأمم والملوك، مرجع سابق، جـ٢، ص ٥٦٣.

١ / ١ : التمكين للمعتقدات :

معتقدات الإنسان تشكل كيانه المعنوي، حيث تكون نسيجه الفكري والعاطفي والانفعالي ودوافعه الرّئيسة في الحياة، بحيث تغدو تصوراته ورؤاه وتصرفاته ومواقفه في الحياة محكومة بما يؤمن به ويعتقده، وبذلك تتحكم المعتقدات في كل منحى من مناحي حياته وتطبعه بطابعها.

وقد جاءت العقيدة الإسلامية بمفاهيم ومسلّمات تختلف كليا عمّا رسخ في أذهان أبناء المجتمع المكيّ بخاصة والمجتمع العربي بعامّة، جاءت بالتوحيد مقابل الشرك والتعدّدية، ومفهوم الخالق القدير وطلاقة صفاته مقابل أصنام صمّاء لا ترى ولا تنطق ولا تسمع، ومفهوم الحياة الأخرى والحساب والثواب والعقاب، مقابل العدميّة . . هكذا.

ولا يمكن الركون في الإيمان إلى القول باللسان، فما يبرزه الظاهر قد لا يتوافق مع ما تكنّه السرائر، لذلك كان عنصر الوقت عاملاً هاماً للحكم على رسوخ المعتقدات، واستثمره ـ عليه السلام ـ في التعميق للمعتقدات الاسلامية الجديدة في عقول وقلوب المسلمين مدة إقامتهم في مكة، بحكمة ورويّة وعقلانية، وحوار هادىء هادف بنّاء.

لقد كان ﷺ يدرك أعمق الإدراك، أن الروح المعنوية وإن كانت لازمة لكل إنسان في كل عمل وكل تصرف وكل موقف، إلاّ أنها أعظم أهمية للمقاتل، فهو عندما يخوض غمار المعركة لا بدّ له من التضحية التي تحتّم عليه الصبر والثبات والفداء، وهو هنا لا يضحيّ بمال أو عقار أو ممتلكات يملك غيرها أو يمكنه تعويضها، وإنّما يضحي بروحه التي لا يملك غيرها ولا يمكنه تعويضها، والإنسان بفطرته حريص على الحياة، لذلك لن يضحّي بروحه إلا في سبيل ما هو أهم عنده من الحياة وأبقى، بل وأعز وأسمى، وما من شيء يمكنه اعتباره كذلك سوى العقيدة، حيث يؤمن إيماناً راسخاً لا يتزعزع، بأن موته في هذه الحياة ليس فناء أبديا ولا تلاشيا نهائيا، وإنما هو انتقال من دار إلى دار، محاطاً برضا الله تعالى وعنايته مع الشهداء والصديقين والأبرار، في حياة لا تحول ونعيم لا يزول.

وإذا تعمقنا في فهم المواقف في معركة بدر وهي موطن الابتلاء الحقيقي الأول للمسلمين، نجد أن الرسول الكريم لم يقرر خوض المعركة ابتداء، وإنما اختبر مدى رسوخ المعتقدات في نفوس المسلمين، ومدى استعدادهم للتضحية قبل الاقدام بهم على مواطن التضحية فقال قولته ذات المغزى العميق: «أشيروا عليّ أيها الناس»، فالمشورة ستفرز تقويما موضوعيا لمدى رسوخ العقيدة، وكان الآتي:

- «تكلم أبو بكر ثم عمر ـ رضي الله عنهما ـ فجزاهما خيراً، ثم أعاد القول: أشيروا عليّ أيها الناس».

- «تقدم المقداد بن عمرو فقال: يا رسول الله، امض لما أراك الله فنحن معك، والله لن نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا، إنّا ها هنا قاعدون، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، فوالذي بعثك بالحق، لو سرت بنا إلى برك الغماد ـ موضع باليمن ـ لجالدنا معك دونه حتى تبلغه...».

وجزاه الرسول خيرا كذلك، وأعاد القول: «أشيروا عليّ أيها الناس».. لقد كان المشيرون كلهم من المهاجرين، وهؤلاء كان حرياً بهم أن تتعمق العقيدة في نفوسهم بعد قرابة خمسة عشر عاما من البعثة، ولكن هناك الفئة الأخرى، فئة الأنصار، حديثة العهد بالإسلام، فما موقفها؟

هنا نهض سعد بن معاذ ـ رضي الله عنه ـ فقال: والله لكأنك تريدنا يا رسول الله؟ قال: نعم، فقال سعد:

- «يا رسول الله، لقد آمنّا بك وصدّقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أردت، فنحن معك، فوالذي بعثك بالحق، لو استعرضت بنا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلّف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدوّنا غدا، وإنا لصبر في الحرب، صدق عند اللقاء، ولعل الله يريك بنا ما تقرّ به عينك، فسر على بركة الله»[1] هنا فقط، عندما اطمأن الرسول إلى تمكن المعتقدات من نفوس المسلمين

(١) عن عبد الملك بن هشام، السيرة النبوية، دار المنار، القاهرة، ١٩٩٤م، حـ٢، ص٥٣٨ بتصرف.

قال: «سيروا وأبشروا» وساروا وكانت البشرى، عصف رجال العقيدة بالمشركين عصفا، وانتصروا على قلة عددهم وعتادهم- ٣١٣ رجلاً ليس معهم سوى فرسين والسلاح الفردي ـ على قادة الكفر برغم كثرة عددهم وعتادهم - ٩٥٠ رجلا، ومائة فرس وكل أنواع الأسلحة المتوافرة آنذاك.

١/ ٢ : إحكام التعبئة النفسية :

إذا أقدم المقاتل على قتال قوم لا بد أن يتساءل من وما هؤلاء القوم؟ فإن لم يكونوا معتدين، وكانوا آمنين ملتزمين الحق والعدل والخير، لم يندفع ـ نفسيا ـ لقتالهم، لأنه يجد من الظلم قتال مثل هؤلاء، أما إذا كانوا معتدين متجبرين ظالمين طغاة، يستهدفون القضاء على دينه وإذلال شعبه واحتلال وطنه ظلماً وعدواناً، تغير الموقف كليا، إذ تمتلىء نفسه بشحنات جبّارة من العزم والاقدام والتصميم على القتال والاستعداد للتضحية، وهذا ما يطلق عليه «التعبئة النفسية ضد الخصم».

في كل معركة خاضها المسلمون ضد الشرك وأهله كانت التعبئة النفسية لدى المسلمين تصل إلى أعلى مدى ممكن، لذلك كان المسلمون يقاتلون عن إيمان عميق بعدالة موقفهم، مما أمدهم بتصميم لا يوجد له مثيل في الانتصار على من يستهدفون دينهم ومعتقداتهم وحريتهم وكرامتهم.

ونأخذ مثالاً على ذلك من موقعة بدر أيضاً، وما تلاها تبع لها، لقد جاءت هذه المعركة بعد تعبئة نفسية ضد المشركين وسادتهم جعلت التضحية هيّنة يسيرة.

لم يكن المهاجرون قد نسوا التعذيب والتنكيل والبطش والتجبّر والظلم الذي صبّه عليهم سادة قريش صبّاً، فكانوا في قمة التّعبئة النفسية ضدهم. وكان هؤلاء يروون ما حدث لنبيهم من المشركين، وما حدث لاخوانهم المسلمين على أيدي عتاة قريش، وكان شباب الأنصار يسألون عن أدق التفاصيل، وكلما سمعوا جديدا أضاف شحنات من التعبئة النفسية ضد هؤلاء الطغاة.

وجاءت معركة بدر، وعلم أولئك وهؤلاء، بأن بين الخارجين للقتال، رؤوس الكفر كأبي جهل، وأمية بن خلف، وعتبة بن ربيعة، وعقبة بن أبي معيط وغيرهم فتعاظمت التعبئة النفسية، ويدل على ذلك ما يأتي:

- يقول عبد الرحمن بن عوف ـ رضي الله عنه ـ إني لواقف يوم بدر في الصّف، فنظرت عن يميني وشمالي فإذا أنا بين غلامين من الأنصار حديثة أسنانهما، فتمنيت أن أكون بين اثنين أطلع (أقدر) منهما، فغمزني أحدهما وقال: يا عمّ، أتعرف أبا جهل؟ قلت: نعم، وما حاجتك إليه؟.

قال: لقد علمت أنه كان يسب رسول الله ويؤذيه، فوالذي نفسي بيده، لئن رأيته لا يفارق سوادي سواده حتى يموت الأعجل منا. فتعجبت لذلك، وغمزني الآخر، وقال مثل قول صاحبه، فما سرني حينئذ أنني بين أي رجلين مكانهما، وأشرت لهما إلى أبي جهل، فشدا عليه مثل صقرين، وابتدراه بسيفيهما حتى قتلاه، وهما: معاذ ابن عمرو بن الجموح، ومعاذ بن عفراء[(١)] .

- «ويرى بلال أمية بن خلف ـ وهو الذي كان يعذبه في مكّة ـ وكان قد استسلم للزبير بن العوام ـ رضي الله عنه ـ فيندفع إليه بلال بسيفه، ويمنعه الزبير، فيصيح بلال: رأس الكفر أمية بن خلف، لا نجوت إن نجا ثم يصيح: يا أنصار الله، رأس الكفر أمية بن خلف، لا نجوت إن نجا، وكان مجرد ذكر الاسم كافيا لأن تغلي النفوس ضدّه، فالكل يعلم ما كان يقوم به من دنيء الفعال، ويندفع الأنصار نحوهما، ويهبرون أمية وابنه عليا بسيوفهم حتى فرغوا منهما»[(٢)] .

ولم تكن التعبئة النفسية ضد يهود الذين جاهروا بعداوة الإسلام وأهله، وارتكبوا من التآمر والغدر والخيانة ما يفوق الاحتمال، ولا ضد الروم الذين قتلوا رسول رسول الله، وقتلوا أمير معان العربي شرّ قتله لأنه أسلم وتحريضهم عرب الشمال ضد المسلمين وبخاصة في موقعة مؤتة، ثم إعدادهم لغزو المدينة، وتحريضهم للمرتدين إلى غير ذلك، ولا ضد الفرس الذين استبدوا بعرب العراق، ومزّق زعيمهم رسالة الرسول قبل أن يقرأها، وأمر عامله على اليمن أن يرسل إليه برسول الله مكبلاً، وكان لهم تاريخهم الطويل في التنكيل بالعرب، لم تكن التعبئة النفسية ضد هؤلاء باقل منها ضد المشركين، لذلك ما كان يتاح اللقاء مع أي قوة من هذه القوى حتى يعصف المسلمون بها عصفاً.

---

(١) عن رواية البخاري ومسلم باختصار.

(٢) محمد بن جرير الطبري، تاريخ الأمم والملوك، مرجع سابق، جـ٢، ص ٥ بتصرف.

٢- تنمية الروح الجهاديّة:

الجهاد من جهد ويعني بذل كل جهد ممكن لتعميم الحق والخير والعدل وإزالة الباطل والشرّ والظلم، فجهاد النفس وكفّها عن الباطل والشرّ والظلم جهاد، وجهاد الظلم والطغيان والجبروت جهاد، وجهاد العدوّ جهاد، إلا أن جهاد العدوّ غلب على لفظة الجهاد، فغدت كلمة جهاد تعني لدى عموم الناس قتال أعداء الإسلام والمسلمين.

وإذا كانت المعتقدات والتعبئة النفسية تعدّ النفس للقتال والصمود فيه فإن الروح الجهادية هي التي تحفز المسلم لينفر للجهاد، لذلك عمل الرسول الكريم على تعميق مفهوم الجهاد لدى المسلمين من ناحية وتنمية الروح الجهادية لدى كل مسلم من ناحية ثانية، وهذا ما عمل على تحقيقه فعلاً، وكالآتي:

- ضبط هدف الجهاد بأن يكون في سبيل الله، وسبيل الله معروف وهو ما يمثل الحق والعدل والخير والحرية والمساواة وتكريم الإنسان وحفظ حقوقه وحرماته.. إلخ. لذلك فلا استهداف في الجهاد للمنافع الذاتية أو الاستعلاء في الأرض أو ظلم الناس وقهرهم واستذلالهم إلى غير ذلك، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[1]، ويقول ﷺ:

- «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله»[2].

- بيان كون من يقتل في سبيل الله شهيدا، والشهيد له مكانة عالية كريمة عند خالق الخلق ـ سبحانه ـ فالله تعالى يقول: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾[3] ويفصل الرسول القول في تكريم الشهيد في الآخرة فيقول:

- «ما من أحد يدخل الجنّة يحبّ أن يرجع إلى الدنيا وأن له ما على الأرض إلا الشهيد، فإنه يتمنّى أن يرجع إلى الدنيا فيقتل عشر مرّات لما يرى من الكرامة»[4].

---

(١) التوبة (٩).

(٢) رواه البخاري ومسلم.

(٣) آل عمران (١٦٩).

(٤) رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

- «الشهداء على بارق نهر ببات الجنّة، في قبّة خضراء، يخرج عليهم رزقهم من الجنّة بكرة وعشيّاً»[١].

- بيان واقع حال المتقاعسين عن الجهاد، وهو واقع الحال المعروف للناس جميعا، فإذا كان الجهاد سبيل العزّة والمنعة وتعزيز مكانة الأمة، فإن تركه سبيل الذلّة والصغار والمهانة بحيث يعيش تاركو الجهاد حياة عذاب لا يطيقها عقلاء بني البشر وفي ذلك يقول ـ عليه السلام ـ:

- «ما ترك قوم الجهاد إلا عمهم الله بعذاب»[٢].

- «. . . وتركتم الجهاد، سلط الله عليكم ذلاً لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم»[٣].

- بيان ثواب وقيمة كل عمل من أعمال الجهاد ومن ذلك:

*** المرابطة:**

- «رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما فيها»[٤].

*** التحركات:**

- «غدوة في سبيل الله أو روحة خير مما طلعت عليه الشمس أو غربت»[٥].

*** الحراسة:**

- «ثلاثة لا تمس أعينهم النار، عين حرست في سبيل الله، وعين بكت من خشية الله وعين كفّت عن محارم الله»[٦].

---

(١) رواه أحمد وابن حبان والحاكم.
(٢) رواه الطبراني.
(٣) رواه أبو داود.
(٤) رواه البخاري ومسلم وغيرهما.
(٥) رواه مسلم والنسائي.
(٦) رواه الطبراني.

*** التجهيز:**

- «من جهّز غازيا في سبيل الله فقد غزا»[1].

*** الرعاية:**

- «من خلف غازيا في أهله بخير فقدغزا»[2].

*** الرماية:**

- «من رمى بسهم في سبيل الله، كان كمن أعتق رقبة»[3].

وهكذا قد لا نجد عملا من أعمال الجهاد إلا وحث عليه الرسول الكريم وندب المسلمين إليه، وبذلك غدت نفوسهم متشوّقة إلى الجهاد متشوّفة إليه، تعتبره أسمى أمانيها، حتى إن ابن نجد أو الدهناء أو النفوذ الذي لم يتجاوز يوما مضارب قومه يحمل سيفه ورمحه ودرعه وسلاحه الفردي ويمتطي فرسه ليطرق أبواب خراسان والسند وباكستان أو المغرب الأقصى والأندلس وبرزت تلك النماذج الفدائية التي لم يعرف لها التاريخ مثيلاً، ونورد المثالين الآتيين من مئات بل وآلاف الأمثلة للتدليل فقط:

- «عمير بن أبي وقاص، صبي لم يبلغ الحلم أو كاد، يردّه الرسول يوم بدر ولا يجيزه الرسول لصغر سنّه فيأخذ في البكاء والنشيج، ويراه أخوه الصحابي الجليل سعد بن أبي وقاص، ويسأله ما به، فيقول: أحب الخروج عسى أن يرزقني الله الشهادة، ولكن الرسول ردّني، ويكلم سعد الرسول فيه فيجيزه، وينطلق عمير إلى أرض المعركة، ويقاتل كأشجع ما يكون الرجال، حتى قابل ربه شهيداً»[4].

- عمرو بن الجموح ـ رضي الله عنه ـ له أربعة أبناء يشهدون المشاهد كلها ولم يتخلفوا عن أي منها، وهو أعرج شديد العرج، يسمع النداء يوم أحد، فيلبس لأمته

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) رواه البخاري ومسلم.

(٣) رواه ابن حبان.

(٤) علي بن الأثير، أسد الغابة في معرفة الصحابة، ـ طهران ـ إيران، ١٣٧٧هـ، جـ٤، ص ١٤٨ بتصرف.

ويحمل سيفه ورمحه ومعدات القتال، وينطلق صوب أحد، فيعترضه أبناؤه، ويقولون له: لقد عذرك الله، ونحن نكفيك، فيرفض ويأتي إلى الرسول يشكوهم قائلاً: إنّ بنيّ يريدون أن يحبسوني عن الخروج معك، فوالله إني لأرجو أن أطأ بعرجتي هذه الجنّة فقال له النبيّ: «أما أنت فقد عذرك الله فلا جهاد عليك» ثم يلتفت إلى أبنائه ويقول: «ما عليكم ألا تمنعوه لعل الله يرزقهالشهادة»[١].

لقد ترسخ مفهوم الجهاد لدى المسلمين، وكونه بوّابة كرامة الحياة وعزتها ومنعتها، وسبيل علو المكانة في الحياة الآخرة، لذلك أصبح روحا تسري في أعماق كل مسلم، ولا زال داعي الجهاد إذا دعا ـ برغم ما أصاب المسلمين من تخلف ـ المحرّك الرّئيس لعزائم المسلمين، والمستنفر لقواهم وعزائمهم واقدامهم وتضحياتهم، ولا زلنا نرى حتى اليوم صوراً لتلك النماذج الفدائية الأولى في كل مكان من أرض الإسلام.

٣- التعبئة العامّة:

كثيراً ما نسمع اليوم عن دولة تعلن التعبئة العامة إذا ما شعرت بأن دولة أخرى تهددها، وتعني هذه التعبئة العامة، التحاق كل إنسان قادر على حمل السلاح ومدرب عليه بالوحدة العسكرية المرتبط بها، بحيث تستطيع الدولة المحافظة على استقلالها وعلى سلامة شعبها وأراضيها.

والتعبئة العامة مبدأ إسلامي قرّره رسولنا الكريم قبل ثلاثة عشر قرناً ونيف من الزمان، ذلك لأن أعداء الإسلام كانوا يفوقون أعداد المسلمين بعشرات الأضعاف، وعدة بأكثر منها، لذلك لم يأخذ المسلمون بمبدأ الجيش النظامي إلا في وقت متأخر في العهد العباسي الثاني، وحتى عندما أخذ بالجيش النظامي، كان المطوّعة يفوقون هذا الجيش عدداً.

وعلى هذا الأساس كان كل مسلم متدربا على القتال بشتى صنوف الأسلحة، ولديه الجاهزية الكاملة لأن ينفر مجاهدا في سبيل الله كلما دعا داعي الجهاد، ويحذر الرسول الكريم المسلمين من الاستسلام إلى الدعة والاستكانة ويأخذهم بالاستعداد النفسي الدائم للجهاد فيقول:

---

(١) الحافظ ابن كثير، البداية والنهاية، مرجع سابق، جـ٢، ص ٣٨ بتصرف.

- «من لقي الله بغير أثر من جهاد، لقي الله وفيه ثلمة (نقص)»[١].

- «من مات ولم يغز ولم يحدّث به نفسه مات على شعبه من النفاق»[٢].

وقد تجاوزت التعبئة العامة فئتين فقط هما:

٣/ ١ : المعذورون:

وهؤلاء ثلاث فئات فقط وتشمل:

- **الضعف**: سواء أكان ضعفا خلقيا أو إعاقة أو شيخوخة.

- **المرض**: ويشمل المرض الذي يقعد الإنسان ويشلّ قواه بحيث لا يستطيع القتال.

- **العوز**: ويشمل عدم القدرة على تجهيز النفس، وعدم قدرة الدولة على تجهيز البعض، أو عدم تطوع أحد لتجهيزهم.

ويجمع الفئات الثلاث قوله تعالى: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ ﴾[٣].

وغير هؤلاء يعتبرون إسلاميا خاضعين للتعبئة العامة، بحيث يصبح كمّ المقاتلين المؤمنين الصادقين مساويا لعدد القادرين من أبناء الأمة بدون استثناء.

٣/ ٢ : المثبطون:

وهؤلاء هم فئة من أبناء المجتمع، لا يؤمنون بعقيدة الأمة ولا قيمها ولا أهدافها، ولا يدينون بولاء أو انتماء حقيقي لها، وهم موجودون في كل أمة في كل مكان وزمان، من جواسيس وعملاء ومتآمرين وحاقدين، وقد كان يمثلهم المنافقون في عهد الرسول ﷺ.

والسبب الرئيس لاستثناء هؤلاء أنهم لا يتبعون النصح للأمة وإنما الغش والتآمر، فهم عناصر تثبيط وخذلان وعناصر فتنة وانهزامية، يذيعون الأسرار،

---

(١) رواه ابن ماجه.

(٢) رواه مسلم وأبو داود والنسائي.

(٣) التوبة (٩١).

ويبثون الأراجيف، ويفتّون في عضد الجيش في أحرج الظروف، ويصفهم الله تعالى بقوله:

- ﴿وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَّا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا ۝﴾[1].

- ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾[2].

لذلك حرص الرسول على تجاوز هؤلاء المنافقين من التعبئة العامة، بعد أن تبيّن له سوء نواياهم، وبذلك أمّن سلامة الجبهة الداخلية للجيش الإسلامي، وتلافي إذاعة أسرار الجيش، وإشاعة البلبلة والارجاف في صفوفه.

وحادثة انسحاب عبدالله بن أبي سلول ـ زعيم المنافقين ـ يوم أحد مشهورة، إذ انسحب بثلث الجيش في أحلك الظروف، لذلك عندما طلب الركوب مع النبي لملاحقة المشركين قال له النبيّ «لا» ومنعه ومن معه من الركوب مع المسلمين، ولم يكن عليه السلام يستعين بمشرك في قتال المشركين.

٤- النفير العام:

إن التعبئة العامة تعدّ أبناء الشعب للجاهزية العالية للقتال، وإذا ما حدث أن هاجم العدو الديار، أعلن النفير العام، الذي يقتضي أن ينفر كل قادر على القتال ذاتياً للتصدي للمعتدين أو مهاجمتهم، ودونما حاجة إلى متابعة أو مطاردة أو تحكيم سيف القانون، فوحي الإيمان حلّ محل ذلك كله فغدا المسلمون يستجيبون للنفير مجرد سماع صوت الداعي استجابة لقوله تعالى: ﴿فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُوا جَمِيعًا﴾[3]﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾[4]، وما أن يسمع أحدهم الداعي: يا خيل الله اركبي، حتى يصبح في ظهر جواده، وحتى لو كانت في يده لقمة هو أحوج ما يكون إليها، ألقى بها من يده.

---

(١) الأحزاب (٢٠).

(٢) التوبة (٤٧).

(٣) النساء (٧١).

(٤) التوبة (٤١).

ولم يكن يستجيب للنفير الرجال فقط، وإنما الرجال واليافعون والنساء، كل يأخذ دوره في المعركة، وتحدثنا كتب السيرة عن أمثلة رائعة في الاستجابة للنفير ومن ذلك:

- «ردّ رسول الله يوم أحد صبيين لم يبلغا الحلم نفرا مع النافرين هما: سمرة بن جندب ورافع بن خديج فقال المسلمون: إن رافعاً رام قدير، فأجازه الرسول، فأخذ سمرة يبكي أشدّ البكاء، فسأله مريّ بن سنان عن سبب بكائه فقال: ردّني رسول الله وأجاز رافعا وأنا أصرعه، فأنهى مريّ ذلك إلى رسول الله، فأمرهما بالمصارعة، فصرع سمرة رافعاً فتبسّم الرسول وأجازه»[1].

- وتقول نسيبة بنت كعب المازنية: خرجت يوم أحد ومعي سقاء، فلما انهزم المسلمون انحزت إلى رسول الله، فقمت أباشر القتال وأذب عنه بالسيف وأرمي عن القوس حتى خلصت الجراح إليّ.

- في غزوة حنين التفت رسول الله فرأى أم سليم بنت ملحان زوجة أبي طلحة وكانت حاملاً بعبدالله بن أبي طلحة، ومعها جمل أبي طلحة فقال: «أم سليم؟» قالت: نعم بأبي أنت وأمي يا رسول الله ـ ومعها خنجر ـ إنني اقتل هؤلاء الذين يفرّون عنك، كما تقتل هؤلاء الذين يقاتلونك، فإنهم لذلك أهل، فقال الرسول: أو يكفي الله يا أم سليم»[2].

وهكذا كان يستجيب للنفير العام الشباب والشيوخ والرجال والنساء والأطفال، فالأمر بالنفير يعني المؤمنين جميعاً، أما من يتخلف عن نفير عام فكان النبي لا يتهاون معهم، ويعاقبهم عقوبة أدبية قد تهون أمامها ـ بالنسبة للمؤمن ـ كل عقوبة مادية، ومثال ذلك ما حدث للمتخلفين عن غزوة تبوك، كما يرويه كعب بن مالك أحد المتخلفين، يقول كعب:

- نهى رسول الله المسلمين عن كلامنا، فاجتنبنا الناس وتغيّروا لنا، حتى تنكّرت في نفسي الأرض، فما هي التي أعرف، وكنت آتي رسول الله في مجلسه بعد الصلاة فأسلّم عليه، وأقول في نفسي هل حرّك شفتيه برد السلام علي أم لا.

(١) الحافظ بن كثير، البداية والنهاية، مرجع سابق، ط١، ص١٩.

(٢) محمد بن جرير الطبري، تاريخ الأمم والملوك، مرجع سابق، جـ٢، ص ١٦٩.

ولما طالت علي جفوة الناس تسوّرت جدار حائط أبي قتادة وهو ابن عمي وأحب الناس إليّ، فسلّمت، فلا والله ما ردّ عليّ السلام فقلت: يا أبا قتادة، أنشدك الله هل تعلمني أحب الله ورسوله؟ فسكت، فعدت، فقال: الله ورسوله أعلم، ففاضت عيناي وتوليت حتى تسوّرت الجدار عائداً.

وبينما أنا في هذه الحال، وإذا بنبطي يدفع إليّ كتاباً من ملك غسان بالشام، وإذا فيه: «قد بلغني أن صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك الله بدار هوان، فالحق بنا نواسيك» فقلت وهذا أيضا من البلاء، فتيممت به التنور وسجّرته (أشعلته).

وبعد أربعين ليلة جاءني رسول رسول الله يقول: رسول الله يأمرك أن تعتزل أهلك قلت: أطلقها أم ماذا أفعل؟ قال: بل اعتزلها ولا تقربها، فقلت لها: الحقي بأهلك حتى يقضي الله في هذا الأمر.

وبعد عشر ليال من ذلك وقد بلغنا خمسين ليلة من يوم نهى الرسول عن كلامنا، وإذا بصوت يقول: يا كعب أبشر فخررت ساجداً، وانطلقت إلى رسول الله، فتلقاني الناس فوجاً فوجاً يهنئونني(١).

لقد غدا الرأي العام للمجتمع كله، مع القائد العام وسياسة الدولة، وسيادة العقيدة، يسالم ويواصل ويقاطع ويهجر تبعا لذلك. ومن المعروف أن الإسلام لا يقرّ سوى معاقبة المتخلف وحده، ولا يقتل قومه أو يحرق بلده، كما تفعل الدول التي تدعي التحضر في العصر الحديث، والتي تبيد العائلات وتحرق القرى والمدن لايوائها فاراً من الجندية أو متخلفاً عن القتال.

٥- تنيمة الكفايات التعبوية

بالرغم من أهمية الكفايات المعنوية، من الإيمان بالله والاقتناع بالجهاد سبيلا للعزة والكرامة والالتزام بالتحشيد العام، إلا أنها لا تكفي وحدها في تحقيق النصر الحاسم في المعارك فقد يضمّ الجيش أفضل العناصر ويخسر المعركة لنقص في الكفايات التعبوية، كالكفايات المادية أو الضبط أو العلم والخبرة والتجربة والتدريب.. إلخ.

(١) المرجع الأسبق، جـ٣، ص ٢٢-٢٣.

لذلك أولى الرسول ﷺ الكفايات التعبوية اهتماما مستحقا بوصفها سبيلا لرفع الكفايات الجماعية للجيش ككل ومن أهم هذه الكفايات ما يأتي:

٥/ ١- المعدات القتالية:

لا تغني المقومات المعنوية عن المتطلبات المادية، فالعصا ـ مهما كان صاحبها مؤمنا ـ لا تقابل البندقية، والبندقية لا تقابل المدفع أو الصاروخ وهكذا، فالقوة المعنوية لها اعتبارها المقدر، كما أن للقوة المادية اعتبارها، فلا غنى لأي جيش عن أي من القوتين، لذلك فإن الله سبحانه وتعالى لم يترك المؤمنين لإيمانهم فقط في قهر الأعداء، وإنما قال: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾[1] والقوة هنا مطلقة، تشمل كل قوة مادية ومعنوية، اقتصادية واجتماعية وسياسية وعسكرية، ومن العسكرية السلاح والعتاد والمعدات والتجهيزات والامدادات، حسب متطلبات الصراع وتطور الزمان والمكان، ويشير رباط الخيل إلى القوات المحمولة وفق تطورها بوصفها ضرورة لا غنى عنها، على أن يكون القصد الرئيسي هو إرهاب العدو ومنعه من العدوان على المسلمين، وإلا فقتال من يعتدي ويقاتل.

وقد أولى الرسول ﷺ متطلبات القوة المادية اللازمة للقتال اهتمأما كبيراً ومن ذلك:

- حيازة السلاح الفردي:

كان السلاح الفردي من سيف ورمح ودرع وترس ودقه وغيرها متوافرا لكل عربي، فالحياة المخوفة التي يعيشونها تجعل هذا السلاح ضرورة من ضرورات الحياة لا غنى لأحد عنه، وكانت اليمن مشهورة بصناعة السلاح بأنواعه، حيث يصدر لجميع أرجاء الجزيرة، وكان من الصحابة من تمرّس في صناعة السلاح كخباب بن الأرت، ولم يكن الرسول يتردد في استعارة السلاح في المواقع الكبرى حتى من غير المسلمين من المعاهدين والمسالمين فعند الخروج لغزوة حنين علم أن عند صفوان بن أمية سلاحاً كاملاً يحتاجه المسلمون، فقال له: «يا أبا أمية، أعرنا

---

(١) الأنفال (٦٠).

سلاحك نلقى به عدوّنا غدا» قال صفوان: «أغصبا يا محمد؟» قال: «بل عارية مضمونة حتى نؤديها إليك» قال صفوان: «ليس بهذا بأس» وقدم للمسلمين مائة درع بما يكفيها من السلاح[١].

وعمل الرسول ﷺ على أن يتزود المسلمون بالسلاح من أيدي أعدائهم، وفي ذلك يقول:

- «من قتل قتيلا فله سلبه»[٢].

- «من أقام بينة على قتيل فله سلبه»[٣].

وبذلك تكاثر السلاح الفردي بأيدي المسلمين بعد الغزوات والسرايا المتتابعة، ولا سيما بعد المعارك الكبرى مع الفرس والروم.

- **أدوات الرمي:**

عندما تحصنت هوازن وثقيف بحصون الطائف ولم يستطع المسلمون اجتياحها، ابتكر المسلمون أول منجنيق عرفته العرب، كما اخترعوا الدبّابة بصورتها الأولى في الهجوم على الحصون، ثم تطور كل منهما تدريجياً.

ويتلو ﷺ قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ فيقول: «ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي»[٤]، ويحث المسلمين على التزود المستمر بالسهام، كما يوصي قادة الجيوش اليوم بحيازة الذخيرة المناسبة والكافية بأنواعها فيقول:

- «إن الله عز وجل يدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنّة: صانعه الذي يحتسب في صنعته الخير، والذي يجهز به في سبيل الله، والذي يرمي به في سبيل الله»[٥].

---

(١) عبدالملك بن هشام، السيرة النبوية، مرجع سابق، جـ٤، ص ٣٠٧-٣٠٨.

(٢) رواه أبو داود.

(٣) رواه البخاري.

(٤) رواه مسلم.

(٥) رواه البيهقي.

- وسائل حمل القوات:

من المعروف أن القوات المحمولة أعلى كفاية من قوات المشاة لأسباب عديدة منها سرعة الحركة، والانقضاض السريع ومفاجأة العدو بما يعرف بحرب الصاعقة، والابقاء على القوى البدنيّة للمقاتل ولذلك كثيرا ما تتفوق القوات المحمولة سواء على الخيل والجمال أو الدبابات وناقلات الجنود والطائرات على قوات المشاة.

والعربي بحكم حياته الصحراوية مهتم بتربية الإبل والخيل، بوصف الأولى وسيلة نقل المستلزمات بأنواعها، والخيل للغارات السريعة، والرسول الكريم يؤكد على العناية بالإبل، ويولي اهتماما خاصا بالخيل فيقول:

- «الخيل ثلاثة: فرس يرتبطه الرجل في سبيل الله ـ عز وجل ـ فثمنه أجر، وركوبه أجر، وعاريته أجر»[1].

- «المنفق على الخيل، كالباسط يده بالصدقة لا يقبضها»[2].

- «البركة في نواصي الخيل»[3].

٥/ ٢: التزويد:

ليست حاجة الجيش المقاتل قصرا على السلاح والناقلات المختلفة، وإنما هناك احتياجات عديدة أخرى لا سيما فيما يتعلق بالمأكل والمشرب والملبس والمأوى وما يلزم كلا منها من الأدوات، وفي تعويض الفاقد من السلاح والنافق من الإبل والخيل، إلى غير ذلك، إضافة إلى احتياجات أسر المجاهدين وتأمين متطلبات العيش الكريم لها.

والأصل أن التزويد من واجبات الدولة الأساسية، ولكن قد تنوء إمكانات الدولة ومصادرها بذلك، لا سيّما إذا خاضت حروبا متتابعة وكانت محدودة الامكانات. وأي مجتمع تفوق إمكاناته وقدراته إمكانات الدولة مرارا، لذلك كان الإنفاق في سبيل الله من مقومات المجتمع المسلم، فالله ـ سبحانه ـ يقول: ﴿ مَّثَلُ

---

(١) رواه أحمد.

(٢) رواه أبو داود.

(٣) رواه البخاري ومسلم.

﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾[١]، ﴿تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾[٢]، وبذلك اعتبر الإنفاق جهاداً في سبيل الله، والرسول ﷺ يقول:

- «من جهز غازيا في سبيل الله فقد غزا، ومن خلف غازيا في أهله بخير فقد غزا»[٣].

وانطلاقا من ذلك كان الانفاق في سبيل الله من قبل الصحابة يفوق الوصف، فقد أنفق أبو بكر كل ماله في سبيل الله، وأنفق عمر نصف ماله، وأنفق عثمان أموالاً طائلة، فقد جهز جيش العسرة بتسعمائة وخمسين بعيراً، ثم أكمل الألف بخمسين فرساً، واشترى بئر رومة وجعلها وقفا للمسلمين، وباع الزبير بن العوام داراً بستمائة ألف، فقيل له: «لقد غبنت» فقال: «لتعلمنّ أنني لم أغبن. . أشهدكم أنها في سبيل الله» وحمل عبد الرحمن بن عوف على ألف راحلة وخمسمائة فرس في سبيل الله»[٤].

٣/٥: نظام المعلومات:

يحرص كل جيش قبل مواجهة خصمه أن يجمع أكبر قدر ممكن من المعلومات الدقيقة حول كل أمر عنه، عن قواته وأعدادها ونوعياتها وتوزيعها وتسليحها وخطوط اتصالاتها وقياداتها. . إلخ ليستطيع أن يعدّ له ما يحقق له النصر عليه من حيث القوات وأعدادها وكفاءتها، وليكتشف مكامن الخلل والقصور لديه ويعمل على استغلالها لانزال الضربة القاضية به. وكل جيش يقابل في ساحة المعركة جيشا لا تتوافر له معلومات عنه، يغدو احتمال خسرانه كبيرا. وجمع المعلومات عن العدو أمر معروف منذ أقدم المعارك والحروب التي جرت على الأرض، واستخدام الجواسيس والعيون والمخبرين كانت من أوائل المهام التي اهتمت بها الدول المتحاربة.

---

(١) البقرة ٢٦١.

(٢) الصف ١١.

(٣) رواه البخاري ومسلم.

(٤) عن المحبّ الطبري، الرياض النضرة، ـ القاهرة، ١٣٢٧هـ، ص١١١ وما بعدها.

عمل الرسول ﷺ على توعية المسلمين بأهمية المعلومات عن العدو من البدايات الأولى للصراع مع المشركين، والتنبيه إلى اتخاذ الحيطة واليقظة والحذر استجابة لقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا ﴿٧١﴾ ﴾[1]، ﴿فَلۡيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلۡيَأۡخُذُواْ حِذۡرَهُمۡ وَأَسۡلِحَتَهُمۡۗ﴾[2] وعلى هذا شرعت صلاة الخوف، لقد عمل ـ عليه السلام ـ على الحصول على أدق المعلومات عن العدو، وعلى تنويع مصادر الحصول عليها، بحيث يوازن ويقارن ويرجّح في تحليله للمعلومات، وصولاً إلى أكثر الاحتمالات دقّة ليعدّ العدّة بناء عليها، وعلى سبيل المثال نورد كيف تعامل ﷺ مع المعلومات قبيل معركة بدر.

- أرسل أولا بسبس بن عمرو وعدي بن أبي الزغباء ليعلما له علم عير قريش، وعادا وأخبراه.

- رتب في مكة من ينهي إليه أخبار قريش فكانت ترد إليه تباعاً، ولما كان بوادي ذفران أتاه خبر مسيرهم وبكل التفاصيل، وهناك استشار الصحابة في القتال.

- لما أصبح قريباً من بدر ـ التي علم أن المشركين يقصدونها ـ خرج بنفسه مع أبي بكر، وقابلا سفيان الضمري، الذي أخبرهما بما يعرفه عن موضع قوات قريش.

- «عندما وصل بدرا أرسل ثلاثة من أخلص صحابته هم: علي بن أبي طالب، والزبير بن العوام، وسعد بن أبي وقاص إلى مياه بدر ليعلموا الأخبار، فعادوا بغلامين لقريش ظنوهما لأبي سفيان ولكن الرسول علم أنهما لقريش فقام باستجوابهما بنفسه، وعلم منهما مكان قريش، ومن خرج من قادتها، ولم يعرفا عددهم، ولكنه ـ عليه السلام ـ قدرّه بتحليل معلومة نحر الجزر»[3].

لذلك كان في المعركة يعرف كل شيء عن العدو الذي يواجهه وهكذا في كل معركة.

---

(١) النساء (٧١).

(٢) النساء (١٠٢).

(٣) عن رواية الإمام أحمد بإيجاز.

٥/ ٤ : الضبط :

يقصد بالضبط أن يكون الجيش ملتزماً بالتنظيم المعتمد له، يعرف كل جندي وكل مسؤول وكل فرقة المكان المخصص لها، فالفرسان فرسان والمشاة مشاة، والمقدمة مقدمة والسّاقة ساقة، وهكذا القلب والجناحان (الميمنة والميسرة). وأن يلتزم بالأوامر الصادرة إليه من القيادة ويطيعها، فلا اجتهادات فردّية ولا اتباع للهوى. ومن المعروف عسكريا أن الجيش الأكثر ضبطا من حيث النظام والطاعة ووحدة الرأي والموقف أجدر بتحقيق النصر من الجيش الذي يركب فيه كل رأسه وينطلق على هواه، فتعمّه الفوضى ويسوده الاضطراب.

وقد ربى الرسول ﷺ المسلمين على قوة الضبط في كل أحوالهم ومنها الأوضاع القتالية، ولم يكن العرب قد اعتادوا عملية الضبط في حياتهم، فقد كانت حياة الغزو وشنّ الغارات تعتمد على استثمار الكفايات الفردية، لذلك كان تشديده عليه السلام بأجلى العبارات على الرماة يوم أحد بألا يبرحوا أماكنهم، إذ أمّر عليهم عبدالله بن جبير وقال لهم: «إن رأيتمونا تخطّفنا الطير فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم، وإن رأيتمونا ظهرنا على العدو وأوطأناهم فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم»[1]، ومع ذلك ما أن رأوا انهزام المشركين حتى صاحوا: الغنيمة.. أي قوم الغنيمة، وأخلوا أماكنهم ولم يسمعوا لأميرهم، فحلت الهزيمة محل النصر، ولكن هذه الحادثة كانت ضارة نافعة فقد استوعب المسلمون منها أهمية الضبط، وربّما كانت مشيئة الله تعالى من ورائها أن يتعلم المسلمون درساً في أهمية الضبط.

وقد وصل الضبط في حياة الرسول أعلى مستويات الكمال، ولم يكن أحد من المسلمين ليخالف أمراً صدر عن رسول الله في المنشط أو المكره والسراء أو الضراء، ذلك لأن طاعته ـ عليه السلام ـ من طاعة الله، فكثير من آيات الطاعة تقرن طاعة الله بطاعة رسوله «وأطيعوا الله والرسول»، «وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول».

ولكن هذا الضبط أصبح سجية طبيعية من سجايا المجاهد المسلم، حتى غدت جيوش المسلمين أكثر جيوش عرفتها البشرية ضبطا، أي تنظيما وطاعة ووحدة رأي ووحدة موقف ووحدة هدف وغاية.

---

(١) رواه الإمام أحمد.

٥/ ٥ : التدريب :

الجندي المدرب أقدر على ممارسة القتال من الجندي غير المدرب، وأكثر استعدادا لتحمل المشاق والصبر على المكاره والصعاب. والعلوم والمعارف العسكرية لا أهمية لها إن لم تمارس عمليا على أرض الواقع. لذلك تحرص الجيوش على تدريب وحداتها ميدانيا وبصفة دورية مستمرة.

ومن المعروف أن صحابة الرسول لم يكونوا أصلا أصحاب سيف ورمح ومعرفة ودراية بفنون القتال، ولم يكونوا في عداد المقاتلين في مجتمعاتهم، لذلك ما إن استقر بالرسول الكريم المقام في المدينة حتى أخذ في وضع المسلمين في بؤرة الخبرة والتجربة العسكرية بالتدريب الميداني، ليرتقوا بخبراتهم ومعارفهم وتدريبهم إلى مستوى الأحداث، فالقتال آت، ولن يرحم عديم الخبرة، فكيف تم ذلك؟

- كانت البداية بإرسال السرايا، فأرسل في حياته ٥٢ سرّية، شارك فيها ـ مع الأخذ بالاعتبار تكرار المشاركين ـ أكثر من سبعة آلاف مسلم. وبالرغم من أن السرايا لم تكن قتالية إلا أنها كانت فرصة للاعداد للقتال وتحمل مشاق الجهاد والصبر والثبات والتضحية، مع أن بعض أفرادها مارسوا القتال فعلياً.

- ثم كانت الغزوات: ٢٨ غزوة، شارك فيها ـ مع أخذ التكرار بالاعتبار أيضا ـ أكثر من سبعين ألفا من المسلمين، وفي بعض هذه الغزوات مارس المسلمون القتال فعليا، فحصل من بقي منهم على قيد الحياة على خبرات متنوعة في القتال والحصار والطراد، وبكلّ أنواع الأسلحة.

كانت البداية في غزوة «ودّان» بمائتين، وارتفع العدد في تبوك إلى ثلاثين ألفا، وفي حجة الوداع كان ﷺ يؤم مائة ألف في غاية الضبط والنظام والطاعة. لذلك لم يقابل الرسول الكريم أعداءه بجند أغمار، لا علم لهم بالحرب ولا دراية ولا تجربة، وإنما بجند معدّين مدرّبين مجربين خبراء، قادرين على الصمود في وجه الأعداء والانكاء بهم.

٦- نقل المعارك :

يقال إن الهجوم خير وسيلة للدفاع، وإن المدافع قليل نصره بعكس المهاجم، ذلك لأن الجيش المهاجم يختار مكان المعركة وللمكان أهميّته في النصر، فقد كان

لمكان المسلمين وسيطرتهم على مياه بدر دور في النصر، وكان لإخلاء الرماة مكانهم يوم أحد دور رئيس في الهزيمة، وهكذا، وإن المهاجم ينقل المعركة إلى أرض العدو مما يدخل الخوف والفزع في صفوف المدافعين ويمدّ المهاجمين بالقوة، وإن المهاجم يجنّب شعبه ويلات الحرب في حين يصطلي المدافع بنارها، وإن المهاجم يتحكم في إمدادات المدافع الخارجية، وإن المهاجم أكثر ثباتا وإصرارا على عدم الفرار، لأن عدم الثبات والفرار يعني أن تفنيه المطاردة إلى غير ذلك من الأمور.

لذلك كان الرسول - ﷺ - ينقل المعارك إلى أرض العدو، كلما كان ذلك ممكنا، فالسرايا والغزوات كلها كانت خارج المدينة، وعندما علم بتآمر يهود خيبر وغطفان خرج إليهم، وعندما نقضت قريش معاهدة الحديبية صبحها بعشرة آلاف، وعندما علم بجمع الروم شمالي الجزيرة، أسرع لمقابلتهم في تبوك فانفضوا، وهكذا.

وقد استفاد الخلفاء الراشدون من المبدأ ذاته وطبقوه مع أعدائهم، فأصرّ أبو بكر على إنفاذ جيش أسامةإلى الداروم والبلقاء من أرض الشام في أحرج الظروف، وعندما اجتمع المرتدون خارج المدينة عاجلهم حيث يقيمون ثم أرسل أحد عشر جيشا لقتال المرتدين، كل في بلاده، فسار النصر في ركاب كل جيش أرسله، وعاجل الفرس بالمثنى ثم بخالد والقعقاع والنعمان بن مقرن، والروم بأبي عبيدة وعمرو بن العاص وشرحبيل بن حسنة ويزيد بن أبي سفيان وتابع عمر - رضي الله عنهما - سياسته. فمادت أرض فارس والروم تحت أقدام هؤلاء المجاهدين، الذين حطموا كبرياء الدول العظمى - آنذاك - وحملوا راية الإسلام إلى مشارق الأرض ومغاربها.

ب- تنمية المقومات القتالية الفرديّة

إذا كانت مقومات الحسم العسكري بما فيها من مقومات معنوية وروح جهادية وتعبئة عامة، ونفير عام وكفايات تعبويّة متنوعة، تستهدف الارتقاء بالجيش المقاتل ككل، فهناك مقومات تتعلق بالفرد أو الجندي المقاتل، لا غنى عنها لأي مقاتل في أي جيش وبأي سلاح. وإذا توافرت هذه المقوّمات لجند أي جيش أو معظمهم، جعلت النصر يسير في ركابه، أما إذا افتقدوها حاقت بهم الهزائم وابتلوا بالاندحار مهما كانت مقومات الحسم العسكري متوافرة للجيش بعامة.

لذلك لم يعن الرسول الكريم بالمقومات العامة للجيش الإسلامي فحسب، وإنما عمل على أن يكون كل جندي متميزاً بمقومات قتالية عالية متفوقة. ليغدو كل منهم مقاتلاً كفؤا، يحمي دينه ووطنه وأمته وينكي في عدوّه، ومن أهم هذه المقومات التي أكد عليها الرسول الكريم في تربيته للمسلمين ما يأتي:

١ - الشجاعة:

الشجاعة ـ كما سبق القول ـ ليست عدم الخوف، فالخوف في الإنسان أمر فطري، والذي يميز الشجاع من الجبان هو الموقف إزاء الشعور بالخوف، فالشجاع ينتصر على الشعور بالخوف فيقدم ولا يحجم ويمضي ولا يتردد، والجبان يحجم ولا يقدم ويتردد ولا يمضي.

وموضوع الابتلاء في القتال هو الشعور بالخوف من الموت وفقدان الحياة، والمسلم بحكم معتقداته يؤمن بأن الأجل محدود، لا تأجيل له إذا جاء، ولا تعجيل له إن لم يأت، وبناء على ذلك لا يزيد فيه الخوف والجبن والخور والهلع، ولا تنقص منه الجرأة والشجاعة والإقدام، ولذلك يقال: «إن المعارك تكتسب في قلوب الرجال أولا قبل اكتسابها على الأرض»فالقلوب الشجاعة الجريئة المقدامة هي التي تكتسب المعارك، والقلوب الهلوعة الرعديدة الخائفة هي التي تخسرها.

لقد كان الرسول الكريم حريصاً على دفع المسلمين عبر تربيته القويمة إلى الانتصار على الخوف، بحيث يثمر وضعهم في المواقف المخيفة جرأة وإقداماً وانتصاراً حقيقياً على الخوف ومن ذلك الحادثتان الآتيتان:

- يقول حذيفة بن اليمان ـ رضي الله عنه ـ: لقد رأيتنا مع رسول الله بالخندق، وصلّى هوياً من اللّيل، ثم التفت الينا فقال: من رجل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم ثم يرجع، فما قام منا رجل واحد، ثم صلى هوياً من الليل ثم التفت الينا فقال مثله فما قام منا رجل، وهكذا فعل ثالثة، فما قام أحد من شدّة الخوف، فلمّا لم يقم أحد دعاني فلم يكن لي بدّ من القيام، فقال: يا حذيفة اذهب فادخل في القوم فانظر ما يفعلون، ويذهب حذيفة في حالك الليل ليتخلل مضارب الاعداء، ويجلس مع جمعهم، ويعلم خبرهم ويعود، لقد انتصر على الخوف الذي استبد به(١).

- كان كعب بن الاشرف الطائي شديد العدواة للرسول والمسلمين فقد كانت أمّه يهودية من بني النضير ويقيم معهم، فذهب إلى مكة بعد معركة بدر يحرض المشركين ويرثي قتلى بدر منهم، ثم رجع وأخذ يشبب بنساء المسلمين وكان شاعراً فقال الرسول: من لي بابن الاشرف؟ فقال محمد مسلمة الانصاري: أنالك به يا رسول الله، أنا أقتله، قال: افعل إن قدرت. ويتردد محمد بن مسلمة ويبقى ثلاثة أيام لا يأكل ولا يشرب إلا أقل القليل، فيدعوه الرسول ويسأله: لم تركت الطعام والشراب؟ فيجيب: يا رسول الله لقد قلت قولاً لا أدري إن كنت أفي به أم لا، قال الرسول: «إنما عليك الجهد».

لم يعفه الرسول إذ بان تردده، فالرسالة إنما يحملها الشجعان الذين يمضون ولا يترددون، ويذهب محمد بن مسلمة مع بعض رفاقه إلى ابن الإشرف في حصنه، ويمشون معه إلى شعب العجوز ويقتله محمد ويعودون إلى المدينة(٢).

والأمثلة في هذا الصّدد كثيرة، وشجاعة المسلمين في القتال ـ على مرّ العصور والدهور ـ غدت مضرب الأمثال لكل الأمم، واعترف بها العدوّ قبل الصديق، فقد قضى الإيمان على الخوف، وقضى اليقين على التوجس والتردد، فدانت لهم أمم لم

(١) عن محمد بن جرير الطبري، تاريخ الأمم والملوك، مرجع سابق، جـ٢، ص ٩٧/ ٩٨.

(٢) عن المرجع السابق بتصرف.

تأبه يوماً بأمّة العرب ـ وهي اليوم لا تأبه بها ـ من الفرس والرومان والهنود والصينيّين والأتراك والاكراد والديلم وغيرهم. لقد غدت الشجاعة أعلى مميزات الجندي المسلم.

٢ - الصبر:

يقال: «إنّما النصر صبر ساعة» فإذا بلغ التعب والضنك والأذى والألم والجوع والعطش والخوف والهلع مداه لدى الفريقين المتقاتلين فإن النصر لأكثرهما صبراً على ذلك، فإذا صبر زيادة عن خصمه ولو ساعة واحدة كان له النصر.

والصبر تحدّ نفسي لكل مكاره القتال وصعوباته، يدفع المقاتل إلى الجرأة والإقدام واستمرارية بذل الجهد دونما جزع أو خوران عزيمة، ولا يبيح للإنسان مجالاً للراحة إلا بالحصول على إحدى الحسنيين: النصر أو الشهادة.

والرسول ﷺ يعلم علم اليقين أن مكاره طريق أصحاب الرسالات كثيرة ومتعددة ومتنوعة، ولا يصلح لها سوى الصابرين، لذلك كان دائم الحث على الصبر، فالله سبحانه وتعالى يؤكد على فضيلة الصبر ﴿ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ﴾[1]، ويربط النصر بالصبر ﴿إِن يَكُن مِّنكُمۡ عِشۡرُونَ صَٰبِرُونَ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ﴾[2].

كان ـ عليه السلام ـ يمر بآل ياسر وهم يعذبون أشدّ العذاب فيقول: «صبراً آل ياسر» ويأتيه خباب بن الأرتّ ـ رضي الله عنه ـ بعد أن لقي وصحبه ما لقوا من عنت المشركين فيقول:

- ألا تدعو الله لنا؟ فيقول الرسول وقد أحمرّ وجهه:

- «قد كان من كان قبلكم ليمشط بأمشاط الحديد ما دون عظامه من لحم أو عصب ما يصرفه ذلك عن دينه، ويوضع المنشار على مفرق رأسه فيشقّ باثنتين ما يصرفه ذلك عن دينه»[3].

---

(١) آل عمران (٢٠٠).

(٢) الأنفال (٦٥).

(٣) عن رواية البخاري.

ولما حصر المسلمون في شعب أبي طالب لم يدعُ الرسول لهم، وكان يمكنه أن يدعو فيستجاب له، حتى أكلوا النّبات والجلود وخشاش الأرض وصبروا حتى جاء الفرج.

لقد أثمرت هذه التربية صبراً على الألم والأذى والمصاب وصبراً على الجوع والعطش، وصبراً في مواقف النزال، فكان الصبر سلاحاً في أيدي المسلمين دون سواهم. لذلك قال سعد بن معاذ للرسول «وإنا لصبر في الحرب» وجاء في خطبة طارق بن زياد في جنوده «واعلموا أنكم إن صبرتم على الأشق قليلاً، استمتعتم بالأرق طويلاً».

ومن الأمثلة التي لا تحصى عدداً بالنسبة لصبر المسلمين على الآلام في الحرب نورد الآتي:

- معاذ بن عمر بن الجموح - رضي الله عنه - يعمد إلى أبي جهل يوم بدر ويضربه ضربة يقطع بها قدمه بنصف ساقه، ويضربه عكرمة بن أبي جهل على عاتقه فيقطع يده وتبقى متعلقة بجلدة من جنبه، ومع ذلك صبر على يده المقطوعة والدم ينزفه والألم يشتدّ به، وبقي يقاتل عامّة يومه، وعندما شعر بأن يده آخذت تعيقه عن القتال وهو يسحبها خلفه يقول: «فتمطّيت عليها حتى طرحتها» واستمر يقاتل حتى هزم الله المشركين»[١].

- في سريّة غالب بن عبد الله الليثي إلى الكديد، يبعث جندب بن مكيث الجهني ربيئة (عيناً)، فينبطح على تلّ يشرف على العدو، ويخرج رجل من الأعداء فيقول لامرأته: إنّي أرى على التلّ سواداً ما كان في النهار، فناوليني قوسي وسهمين، ويقول جندب: فرماني بسهم فوضعه في جنبي فنزعته ولم أتحرك، ثم رماني بالآخر فوضعه في رأس منكبي ولم أتحرك، فيقول: والله لقد خالطه سهماي، ولو كان ربيئة لتحرك، ويبقى صابراً على الاصابتين حتى لا ينذر القوم بهم[٢].

(١) الحافظ بن كثير، البداية والنهاية، مرجع سابق، جـ٢، ص٢٨٧.

(٢) محمد بن جرير الطبراني، تاريخ الأمم والملوك، مرجع سابق، جـ٢، ص١٤٤.

٣- التضحية :

البذل والفداء والإقدام والإيثار، صفات محمودة تجمعها التضحية، والتضحية في موقف ما من أجل المبدأ والعقيدة بالمال أو الأهل أو الولد والنفس من أعلى المكارم التي يعتز بها المسلمون. والتضحية في المجال العسكري ـ الذي نحن بصدده ـ قد تكون بذلك كله، ولكن الأساس فيها التضحية بالنفس التي تعتبر قمة التّضحية وفي ذلك يقول الشاعر:

يجود بالنّفس إذ ضنّ البخيل بها والجود بالنفس أقصى غاية الجود

وقد ربّى الرسول الكريم صحابته الأبرار على التضحية، ووضع الأسس التي تبني عليها أمّته، وكان فعله أبلغ في كل الموقف، فكان أول المسلمين في لقاء العدو، وسرت هذه الروح في كل مسلم، حتى يكتب أبو بكر لخالد بن الوليد: «احرص على الموت توهب لك الحياة» وأي حياة؟ حياة العزّة والمنعة والكرامة، ويكتب خالد للاعداء في كتب المنابذة: «وإلا فقد جئتكم بقوم أحرص على الموت منكم على الحياة».

والجيش الذي يكون جنده أكثر استعداداً للتضحية هو الذي يكتب له النصر، أما الذي يحرص جنده على الحياة، فيفرون لأول صدمة لا بدّ وأن تتوالى عليه الهزائم، وقد كان تصوير الموقف من خالد ـ رضي الله عنه ـ رائعاً عندما سأله القائد الروماني جورجة: «قل لي يا خالد واصدقني، لماذا ننهزم وتنتصرون؟ قال: لأن الواحد منا إذا رأى الهم مفوّقاً إلى صدر أخيه اتقاه بصدره، أما أحدكم إذا رأى السّهم مفوّقاً إلى صدره أتقاه بصدر أخيه. قال: صدقت، وشتان بين الحالين. لقد كان مصعب بن عمير ـ رضي الله عنه ـ من أغنى فتيان قريش، وأعطر فتى في قريش، وأجمل فتى في قريش، ومن أفضلهم لباساً، فضحّى بذلك كله، واستشهد يوم بدر، ولم تكن عليه سوى بردة، إذا غطوا بها رأسه بدت قدماه، وإذا غطوا بها قدميه بدت رأسه.

لقد أصبح الاستعداد للتضحية عالياً لدى جيل الصحابة والتابعين وتابعيهم حتى بنوا لهذا الدين وهذه الأمة أمجادها، ونورد الأمثلة الآتية للتذكير فقط، فنماذج التضحية الإسلامية أعظم من أن تستوفى في هذه العجالة:

- عندما تجمعت قبائل أسد وغطفان وفزاره وثعلبة وبني مرّة وعبس وبعض بني كنانة في الأبرق وذي القصة بجوار المدينة وقد ارتدوا جميعاً عن الإسلام ويقصدون مهاجمة المسلمين، أصرّ أبو بكر وهو الخليفة أن يخرج إليهم بنفسه فقال المسلمون: «ننشدك الله يا خليفة رسول الله أن تعرّض نفسك، فإنك إن تصب لم يكن للناس نظام، ومقامك أشدّ على العدو، فابعث رجلاً، فإن أصيب أمرت بآخر، فقال: «لا والله لا أفعل ولأواسينكم بنفسي» وفرّق جموع من تجمع في ذي حسى وذي القصّة[١].

وتغيب الأيام، ويقول أبو رجاء العطاردي: «دخلت المدينة فرأيت الناس مجتمعين، ورأيت رجلاً يقبّل رأس رجل ويقول له: «أنا فداؤك، لولا أنت لهلكنا» فسألت: من المقبِّل ومن المقبَّل، قالوا: هذا عمر يقبل رأس أبي بكر لقتاله أهل الردّة إذ منعوا الزكاة، حتى أتوابها صاغرين[٢].

- وفي مؤتة قاتل القائد الأول زيد بن حارثة حتى شاط في رماح الروم، وأخذ الراية القائد الثاني جعفر بن أبي طالب حتى قطعت يمينه، فأخذها بشماله، فقطعت، واحتضنها بعضديه حتى استشهد، وفي جسمه بضع وتسعون ضربة أو طعنة أو رمية كلها فيما أقبل من جسمه، ويحمل الراية القائد الثالث: عبد الله بن رواحه وتنازعه نفسه فيقول:

أقسمت يا نفس لتنزلنّه لتنزلن أو لتكرهنّه

ويقتحم الوغى وهو يرى بعينيه ما حدث للقائدين قبله، ومع ذلك تقدم حتى لقي ربه شهيداً[٣].

- وفي أعتى حروب الردّة ـ يوم اليمامة ـ انهزم الأعراب لأول صدمة، وثبت الصحابة مضحين بأنفسهم حتى استشهد منهم ألف ومائتان، كان منهم:

---

(١) محمد بن جرير الطبري، تاريخ الأمم والملوك، مرجع سابق، جـ٢، ص٢٥٦.
(٢) المحبّ الطبري، الرياض النضرة، ـــــ، القاهرة، هـ، جـ١، ص١٣٠.
(٣) عبد الملك بن هشام، السيرة النبوية، مرجع سابق، جـ٣، ص٣٤٤ بتصرف.

* زيد بن الخطاب: نادى في المسلمين: عضوا على أضراسكم واضربوا في عدوكم، وامضوا قدماً، والله لا أتكلم حتى يهزمهم الله أو ألقاه تعالى فأكلمه بحجّتي وانطلق يشق الصفوف وينكي في العدو حتى استشهد.

* سالم مولى أبي حذيفة، يعطيه المهاجرون رايتهم فيقول: أعلم أنكم ما آثرتموني بها ولكن قلتم حامل القرآن لا يفر، قالوا: أتخشى أن نؤتى من قبلك؟ قال: بئس حامل القرآن أنا إذن، وانطلق يفري المرتدين بسيفه ويتقدم برايته حتى استشهد.

* ثابت بن قيس حامل راية الانصار، ينادي في المسلمين ـ بعد انهزام الأعراب ـ «بئس ما عودتم به أنفسكم يا معشر المسلمين، اللهم إني أبرأ إليك مما يعبد هؤلاء وأشار إلى المرتدّين، وأبرأ إليك مما يصنع هؤلاء واشار إلى الأعراب، وحفر لنفسه حفرة حتى منتصف ساقيه، وأخذ يقاتل حتى لا تزول الراية من مكانها حتى استشهد.

* البراء بن مالك، يقسم على المسلمين أن يحملوه على رماحهم ويرفعوه على سور الحديقة التي انحاز إليها المرتدون، والتي سميت حديقة الموت، وبعد تردد وتكرار القسم حملوه، وارتقى السور وقاتل من عليه حتى خلص إلى باب الحديقة وازاح من عليه وفتحه للمسلمين، فكان النصر[1].

لقد تكررت مواقف التضحية هذه في كل معركة خاضها المسلمون، فأورثت رعباً في نفوس أعدائهم مما يوضح قول الرسول الكريم: «نصرت بالرعب»، وهذه هي الروح التي يخشى اعداء الأمة أن يعود إليها المسلمون، فتحرق وجودهم، وفي كل يوم من أيامنا هذه نشهد ونشاهد مواقف تمور بالتضحية ولكنها لا تزال فردية، وعندما تصبح جماعية سيتغير الحال ـ حتماً ـ غير الحال.

٤ - الثبات:

الخوف ـ كما سبق ـ فطري في الإنسان، وليس هناك أخوف من القتال، حيث يجد الإنسان نفسه في بؤرة الاخطار، تحدق به من كل جانب، ويرى الموت فاغراً له فاه، يتربص به لابتلاعه في أي لحظة، وهناك من الناس من ينخلع قلبه وتتشعث نفسه ويطير لبّه في هذه الحالة ولا يلبث أن يلوذ بالفرار إذا وجد للفرار مجالاً،

---

(١) محمد بن جرير الطبري، تاريخ الأمم والملوك، مرجع سابق، جـ٢، ص٥١١-٥١٣.

ناشداً السّلامة غير آبه بخزي أو بعار أو شنار، وهناك على العكس من ينتصر على الشعور بالخوف فيثبت ولا يتزعزع ويقدم ولا يحجم ويقاتل ولا يفر، لذلك اعتبر الثبات في مواطن الخطر محصلة كل القيم العليا للإنسان من إيمان وشجاعة ورجولة وجرأة وقوة وصبر . . . الخ.

والثبات في وجه الأعداء هو مفتاح النصر الرئيس، فالجيش الذي يثبت أفراده أمام العدوّ ولا يتراجعون أو يفرّون، أو يتحولون من خط الدفاع الأول إلى الثاني فالثالث ـ كما تفعل جيوشنا اليوم ـ وإنما يثبتون كالجبال الرواسي، يقاتلون بقوة وعزم وضراوة وشراسة حتى الحصول على إحدى الحسنيين النصر أو الشهادة، هو الذي يسير في ركابه النصر أينما سار.

لذلك فإن الله ـ سبحانه ـ يؤكد على المؤمنين أن يثبتوا في وجه الاعداء ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ ﴾[1]، ويبيّن ـ جل شأنه ـ أن الفرار من الزحف إن لم يكن لضرورة قتاليّة من الكبائر التي تستجلب غضب الله، وتبوّىء صاحبها النار ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾ ﴾[2].

والرسول ﷺ يبيّن للمسلمين أن الفرار يوم الزحف من الجرائم الكبرى التي لا يجوز لمسلم أن يرتكبها فيقول:

- خمس ليس لهنّ كفارة: الشّرك بالله، وقتل النفس بغير حق، وبهت المؤمن، والفرار من الزحف ويمين صابرة يقتطع بها مالاً بغير حق[3].

- «اجتنبوا السبع الموبقات»، قالوا: يا رسول الله وما هن؟ قال: «الاشراك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرّم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولّي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات»[4].

---

(١) الأنفال (٤٥).

(٢) الأنفال (١٥- ١٦).

(٣) رواه الإمام أحمد.

(٤) رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

والرسول يضيف العمل إلى القول، فلم يفرّ في أي معركة خاضها قط، ولم يتراجع أنملة، وحتى عندما انفض المسلمون من حوله يوم أحد، بقي ثابتاً برغم اصاباته وأخذ ينادي أولئك الذين طارت قلوبهم قائلاً: «إليّ عباد الله» حتى تراجع المسلمون، وفي هذه الحالة من زعزعة الموقف يؤمّه أمية بن خلف مقنّعاً بالحديد وهو يصيح: هذا محمد لا نجوت إن نجا ويتلقاه ـ عليه السلام ـ بنفسه، ويطعنه طعنة ألقته عن فرسه، ويحمله قومه وهو يخور ولم يلبث أنمات[١].

ويوم حنين فرّ معظم المسلمين لأول صدمة، وثبت الرسول الكريم مع نفر يسير، ولم يتراجع شبراً، ويقول للعباس: «ناد يا معشر الأنصار، يا اصحاب الشجرة . . .» وينادي العباس، فيأتيه الصوت من كل فجّ لبيك لبيك، فيقول ـ عليه السلام ـ: «الآن حمي الوطيس» ولم يمض طويل وقت حتى كان النصر»[٢].

ووعى المسلمون ذلك كله، فكان ثباتهم في كل موقع ممّا جعل النصر يسير في ركابهم أينما ساروا، ومن امثلة ذلك:

- في اليرموك كان الروم في ثلاثمائة ألف بأوفى سلاح وكان المسلمون في أربعين الفا، فقال رجل لخالد: ما أكثر الروم وأقل المسلمين، فردّ عليه خالد: بل ما أقل الروم وأكثر المسلمين، إنما تكثر الجنود بالنصر وتقل بالخذلان. ولما رأى عكرمة بن أبي جهل تزعزع المسلمين قال: قاتلت رسول الله في كل موطن وأفرّ من هؤلاء اليوم؟ من يبايعني على الموت فبايعه أربعمائة فردوا الروم عن فسطاط خالد ثم أخذوا يشقون صفوفهم، وكان عكرمة يركب الأسنّة فتكاثرت عليه الجروح فقيل له: اتق الله وارفق بنفسك، فقال: كنت أجاهد بنفسي عن اللات والعزى فابذلها لها، أفأستبقيها الآن عن الله ورسوله . . . لا والله أبداً.

وثبت الأربعون الفا للثلاثمائة ألف، وانهزم الثلاثمائة ألف وانتصر الأربعون الفا، واستشهد عكرمة وبه بضع وسبعون ما بين طعنة وضربة ورمية[٣].

---

(١) عن رواية الترمذي بإيجاز.

(٢) عن رواية البيهقي بتصرف.

(٣) علي بن الأثير، أسد الغابة في معرفة الصحابة،ـــــ، طهران، إيران، ١٣٧٧ هـ، جـ٦، ص٤.

- وفي معركة نهاوند التي يسميها المسلمون فتح الفتوح، تجمع ثلاثمائة ألف مقاتل من الفرس ومثلهم معهم وكان المسلمون بقيادة النعمان بن مقرن في أربعين الفا، وثبت المسلمون ثباتاً لم يعهده التاريخ، حتى يقول زياد بن حدير عن أبيه: فوالله ما علمت من المسلمين أحداً يومئذ يريد أن يرجع إلى أهله، فإما أن يقتل أو يظفر، وهاجمهم الفرس مراراً حتى أصيب المسلمون بمصائب عظيمة، إلا أنهم لم يبرحوا العرصة (السّاحة)، ثم شدّ المسلمون عليهم شدّة واحدة فانهزموا[١].

جـ- مقوّمات تفوّق القائد العسكري

ليس هناك ما هو أكثر تضييعاً للأمور من توسيد الأمر لغير أهله، ولذلك يقول الرسول الكريم:

- إذا وسّد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة[٢]، ذلك لأن تبوأ إنسان لمنصب ما وهو غير أهل له، يعني ضياعه ضياعاً كلياً وإفساده إفساداً شاملاً، وفي الوقت نفسه حرمان المنصب من الإنسان المناسب الذي يضبط الأمور ويصلحها، وبمعنى آخر فإن توسيد الأمر لغير أهله يعني قلب الأمور كلها رأساً على عقب.

والقيادات القطاعية ـ ومنها العسكرية ـ إنّما يناط اختيارها بولي الأمر، وقد سبق تأكيد الرسول على مراعاة كل مقومات الموضوعية في اختيار القيادات وتلافي الأساليب الضالّة في هذا الاختيار من محسوبية وممالأة وعصبية ونفعية وغيرها، فالمقومات الموضوعية تعني تفضيل الجودة بكل معطياتها، ذلك لأن جيد المقومات من الناس لا يتواءم مع من حاز مساوئها من أطرافها، فالأمين لا يتواءم مع الخائن، والوفي لا يتواءم مع الغادر، والتقي لا يتواءم مع الفاجر، وبذلك تسير الأمور في مجراها القويم السديد السليم.

وإذا كان الأمر هنا يهم كل القطاعات، فإن القيادات العسكرية أكثر ما يستحوذ على الاهتمام، لأن كفاءتها تنعكس حماية للوطن والمواطن، ولذلك حرص الرسول ﷺ على عدم تسليم أي قيادة قطاعية لمن لا يأنس فيه كفاية عالية لها، حتى

(١) محمد بن جرير الطبري، مرجع سابق، جـ٢، ص٥٢٠-٥٢١ بتصرف.

(٢) رواه البخاري.

من أقرب الناس إليه، فيرفض تولية عمّه العباس وهو من هو ويقول له: «نفس تحييها خير من ولاية لا تحصيها»، ويأتيه أبو ذر الغفاري ـ وهو من هو سابقة وتقوى وصدقاً وأمانة . . . فيقول له دونما مواربة ولا مجاملة:

- يا أبا ذر، إنّك ضعيف، وإنّها أمانة، وإنها يوم القيامة خزي وندامة[1].

فالولاية ليست للدين فقط وإنما للدين والكفاءة معاً، ولا تغني إحداهما عن الأخرى، ولعل أهم مقوّمات تفوّق القائد العسكري ـ وليس كلها ـ ما يأتي:

١ - المقوّمات الفطرية:

والمقصود بها المقوّمات التي تولد مع الإنسان وفق الفطرة التي فطره الله عليها، وتنمّيها المعرفة والخبرة والتجربة. هذه المقومات تبقى كامنة لدى الإنسان، قد لا يقدّرها هو وقد لا يقدّرها من سواه، ودور ولي الأمر في اكتشافها هو تعريض من يأنسها فيه إلى مواطن التجربة، حيث توضع مواهبه على المحك الذي يظهر حقيقتها. وأهم هذه المقومات ما يأتي:

١/١ : الموهبة:

كثيراً ما يقال: هذا قائد موهوب، أو طبيب موهوب، أو طالب موهوب . . . الخ، ويقصد بذلك أنه حاز متطلبات التفوّق في مجاله، فما الموهبة؟ لقد تساءل كثيرون عن كنه الموهبة: هل هي الذكاء الخارق؟ هل هي الذاكرة الضابطة؟ هل هي الوعي وسلامة التفكير؟ هل هي سرعة البديهة في مواجهة المواقف؟ إلى غير ذلك.

إن الموهبة في الحقيقة تجمع ذلك كله، فهي مقوم من المقومات التي يُؤهل الله بها الإنسان للنهوض بمهام الاستخلاف في الأرض، وإذا أردنا أن نحدد تحديداً اجرائياً لتعريفها فهي: إعمال عقل وفكر، واستثمار معرفة وعلم، واستقراء واقع ووقائع، واستشراف معطيات وأحداث، وإحكام القرارات أو التصرفات وفقاً لذلك.

والقائد العسكري الموهوب الذي يوصف بأنه «ذو سجيّة عسكرية» هو الذي يعرف هدفه تمام المعرفة، كما يعرف أقصر الطرق التي توصل إليه في أقصر وقت

(١) رواه مسلم.

وأقل خسائر ممكنة، وما يحتاج إليه تماماً من متطلبات لتحقيقه من جند وسلاح وعتاد ومعلومات وغيرها. وليس هذا فقط، وإنما يضع في اعتباره كل العقبات والتحديات والصعوبات والمشكلات التي يمكن أن يواجهها ـ المحتمل منها وغير المحتمل ـ ويعدّ متطلبات مواجهتها والتصدي لها، وفي الوقت نفسه إذا برز أمامه من التحدّيات ما لم يكن في الحسبان قط، استطاع أن يواجهها بإشراق ذهني وتوقّد عقلي، بسرعة فائقة، ودونما أي تردد، فالمعركة القائمة لا ترحم متردداً، ولا تسمح بطول بحث وتفكير، وإنما تحتاج إلى بتّ سريع موضوعي متقن، ليحسم المعركة لصالحه، وهذا ما يميز القائد الموهوب عن غيره.

والمتتبّع لمواقف القادة المسلمين في المواقف الأولى، يتبين أن الموهبة كانت من أهم مميزات كل واحد منهم ومن ذلك على سبيل المثال:

- في ارتداد العرب تقول عائشة ـ رضي الله عنها ـ: «لمّا قبض رسول الله، ارتدّت العرب قاطبة واشرأب النفاق، وصار أصحاب محمد كأنها معزى مطيرة في ليلة مطيرة في أرض مسبعة، فوالله ما اختلفوا في أمر إلا طار أبو بكر بخطامها وعنانها وفصلها»، ويقول أبو هريرة: «والله الذي لا إله إلا هو، لولا أن أبا بكر استخلف ما عبد الله في الارض»[1]، ولا شك أن كل ما قام به أبو بكر كان في ذروة الموهبة والحكمة، ونذكر منه الآتي:

* رفض أي تنازل رفضاً مطلقاً برغم حرج الموقف، ولو فعل لجرت تنازلات لا حدّ لها تأسياً به.

* أنفذ جيش أسامة فأرهب القبائل التي قالت: لولا أن هؤلاء لهم قوة كبيرة ما انفذوا هذا الجيش.

* حارب المرتدين في مواطنهم ولو صبر حتى يهاجموا المدينة لما كان للمسلمين بهم طاقة ولقطعوا الامدادات عنهم حتى يستسلموا.

* استثمر روح النصر لدى المقاتلين المسلمين ووجههم إلى العراق والشام لضرب القوتين العظميين آنذاك.

---

(١) عن الحافظ بن كثير، البداية والنهاية، مرجع سابق، جـ٣، ص٣٠٨.

ويقول أبو بكر لعمر عندما استخلفه: «لقد رأيتني متوفّى رسول الله وما صنعت، ولم يصب الخلق بمثله، وبالله لو أنني أنيت عن أمر الله ورسوله لخذلنا الله وعاقبنا فاضطرمت علينا المدينة ناراً»[1].

– وفي إدارة خالد بن الوليد لمعركة اليرموك تجلّت موهبته بأجلى معانيها ومن ذلك:

* قطع الطريق من الحيرة إلى اليرموك في خمسة أو ستة أيام ليصل قبل تكامل جيش الروم وبدء المعركة، فسار طريقاً لم يسلكها أحد قبله وسط مفاوز موحشة معطشة، ودبّر أمر الماء عن طريق كعم الابل وقطع مشافرها.

* جمع الجيوش الإسلامية على قيادة واحدة، وباقناع حكيم للقادة جميعاً.

* حصر الروم بين الواقوصة، وخندقهم، ونزل بالمسلمين بينهم وبين الصحراء، فقطع الامدادات عن الروم وأمن الأمدادات لجيشه.

* فتح الطريق لخيل الروم في الصحراء وقطع طريق العودة عليها.

* أبدع في تنظيم المسلمين حتى يقول عبد الرحمن بن جبير رضي الله عنه: «خرج خالد في تعبئة لم تعبئها العرب قبل ذلك، فنظم المسلمين ستة وثلاثين كردوساً، وجعل خيلاً وراء الميمنه وأخرى وراء الميسره، ونظم جماعة الحماة وراء الجيش كله، والنساء من وراء الجميع، وهو واقف يدبّر أمر الحرب أتمّ تدبير»[2].

ومن ارتقت مواهبهم القياديّة من المسلمين أعداد تندّ عن الحصر، لا في عهد الراشدين فحسب، وإنما في كل العهود الإسلامية: في العهد الأموي والعباسي والأيوبي والمملوكي والعثماني، ولم تنتكس المواهب إلا في زمننا هذا الذي توالت على امتنا فيه النكبات.

١ / ٢: القدرة:

القدرة من المتطلبات الأساسية للقيادة، بل إن القائد يجب أن يكون متعدد القدرات العالية ابتداء، من قدرات إدراكية أو بدنيّة، وقد غدا الكشف على القدرات

---

(١) محمد بن جرير الطبري، تاريخ الأمم والملوك، مرجع سابق، جـ٢ ، ص ٣٤٥.

(٢) الحافظ بن كثير، البداية والنهاية، مرجع سابق، جـ٤ ، ص١٠ باختصار.

العقلية والجسمانية روتينياً لمن يتقدم للكليات العسكرية في زمننا هذا، بحيث لا يتم قبول أي مرشح لدخولها ما لم يكن متمتّعاً بمستوى محدد من هذه القدرات، ويمنع من دخولها من لديه أي إعاقة لا ترتقي به إلى هذا المستوى.

والقدرات الإدراكية عموماً من ذكاء وفطنة وقدرة على التقويم والنقد والفرز والترجيح والاختيار بين البدائل المتاحة والاحتمالات المتعدّدة في شتى المواقف من أهم مقومات القائد، لأنه هو الذي يصدر الأوامر لجنده، ويوالي تحركاتهم، ويحرص على سلامتهم، فلا يوردهم موارد الهلكة، ولا يبعثر جهودهم ولا يصيبهم بالبلبلة لتردّده، ولا يدخلهم مدخلاً إلا وقد حسب كل حساب لاخراجهم منه، فلا يطيش عقله عند الأزمات، ويفقد القدرة على التصرّف القويم فيضيع من هم تبع له. وعلى مستوى القدرات الإدراكية للقائد وحسن استثمارها تكون نتائج المعارك.

أما القدرات البدنيّة فلا تقل أهمية عن القدرات الإدراكية، فهو لا بدّ وأن يكون سليم الحواس، وافر القوى قادراً على تحمل المشاق والإصابات والمتاعب بل والقدرة على تحمل الجوع والعطش والحر والبرد، فهو قدوة جنده، ويجب أن يكون أكثرهم تحملاً، وأن يتحامل على نفسه في مواقف الشدّة والأذى، لأن أي شكوى منه تجعل الجنود يلقون بأيديهم، لأنهم يشعرون بالمشقة كما يشعر ولكنهم لا يشكون إباءً فإذا وجدوا قائدهم يشكو عمهم اليأس والقنوط.

وإذا تتبعنا مواقف القادة في المعارك الإسلامية كلها نجدهم في مقدمة المقاتلين، يديرون المعارك من داخلها وليس من مكامنهم، لا يأبهون لخطر ولا يترددون عن ركوبه، يواسون جنودهم بأنفسهم بهمم لاتني وعزائم لا تكل ولا تلين، فيتبعهم على ذلك الجند.

- في يوم أغواث وهو اليوم الثاني من أيام القادسية نادى القعقاع بن عمرو: يا أيها الناس اصنعوا كما أصنع ونادى: من يبارز فبرز له ذو الحاجب أحد قادة الفرس فقتله، وبرز له بهمن جاذويه فقتله، ثم البيرزان فقتله، وحمل ثلاثين حملة في كل منها يقتل من الفرس عدداً، وتأسى الجنود به فأزاحوا الفرس عن مواقعهم.

ولما رأى ما تفعل الفيلة، جلّل الإبل وبرقعها، وحمل عليها جنده، والفرسان من حولها، فلما رأتها خيل الفرس نفرت، ويقول عبد الرحمن السعدي ـ رضي الله

عنه ـ لقد لقي الفرس من الإبل يوم أغواث أعظم مما لقي المسلمون من الفيلة يوم أرماث[1]. لقد استخدم القعقاع قواه العقلية كما استخدم قواه البدنية، واستنّ به جنده فكان النصر.

١/ ٣: الإرادة:

قد لا يوجد أحد من بني الإنسان إلا ويتمنى أن يكون قائداً مقداماً كفؤاً قديراً يسير النصر في ركابه أينما سار، أو أن يصبح رئيس دولة ينقلها إلى مصاف أعلى الأمم مكانة وأقواها وأرقاها، ولكن هذه المنى لا تتحقق لكل الناس وإلا لأصبح كل الشعب قادة ورؤساء، ولم يعد هناك جند ولا رعية. إن الذي يحيل الأمنيات إلى واقع هو صاحب الإرادة القوية النافذة، أما من سواه فيبقى يجترّ الأماني ويلوك الأحلام ما استمرت به الحياة وتتابعت الأيام.

والإرادة مقوّم إنساني يتولّد من جميع القوى المتوافرة للإنسان، فالإرادة القويّة هي التي تدفع النفس إلى تبني معالي الأمور واحترام الذات وتقديرها، وتتصدى لنزوات النفس وشطحات الهوى وهبوط النزعات، حتى يلتزم الإنسان بالحق والعدل والخير والصلاح في كل منحى من مناحي حياته، لا تزعزعه التحديات ولا تحركه الصعوبات، أما الإرادة الضعيفة، فتسقط في مهب رياح هوى النفس ونزواتها ونزعاتها، فلا تنهض بالمكرمات ولا تسارع في الخيرات، وإنما تستجيب لضغط النزوات مهما تدنّت بقيمة صاحبها.

وباختصار: الإرادة هي التي تسمو بالسعي الإنساني أو تهبط به، وسبيل الإرادة يمرّ بالفهم فالاستيعاب فالإدراك فالعمل، بخطى واثقة، وبصيرة متفتحة.

والقائد العسكري أحوج الناس إلى الإرادة النافذة، التي لا تعرف التردد ولا التوجّس والخور، التي لا تتهاوى أمام أي ضغط ولا تحرفها عن غاياتها أي صعوبة، فالقائد يتعرض لمواقف لا بدّ فيها من الحزم والحسم بمتانة وصلابة، وفي الوقت نفسه بتجرد واخلاص وموضوعية، حتى لا تفلت الأمور ويلتف الحبل على الغارب.

---

(١) محمد بن جرير الطبري، تاريخ الأمم والملوك، مرجع سابق، جـ٢، ص٤١٤.

- «عندما انتدب عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ الناس لامداد المثنى بن حارثة في العراق، كان أول من لبّى أبو عبيد بن مسعود الثقفي، فلما اجتمع البعث، قيل لعمر: أمّر عليهم رجلاً من السابقين من المهاجرين أو الأنصار، فقال: لا والله لا أفعل، إن الله إنما رفعكم بسبقكم وسرعتكم إلى العدو، أما وقد كرهتم اللقاء فأولى بالرياسة من أجاب إلى الدعاء، والله لا أؤمر عليهم إلا أولهم انتداباً، فأمر أبا عبيد وأوصاه[١].

والإرادة النافذة لا تكون في الإقدام على القتال فقط، وإنما في الإقدام حيث يكون الإقدام أحزم، والكفّ عندما يكون الكف أسلم، ولذلك اعتبر خالد بن الوليد ـ رضي الله عنه ـ من أحزم الناس وانفذهم إرادة عندما انسحب بجيش مؤتة وتحيّز إلى رسول الله في المدينة، لأن بقاء ثلاثة آلاف في مواجهة مائتي ألف يعني افناءهم فكان الانسحاب والتحيّز أسلم.

وسموّ الإرادة هو الذي دفع كثيراً من المسلمين أن يتركوا حياة الأمن والراحة والطمأنينة وبلهنية العيش والإنطلاق إلى الجهاد. كان النعمان بن مقرّن المزني أميراً على كسكر، فكتب إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يقول: «انشدك الله لما عزلتني عن كسكر، وبعثتني إلى جيش من جيوش المسلمين»[٢] فأمّره عمر على جيش المسلمين في نهاوند، فكان النصر، وكان من الشهداء.

١/ ٤ : الشخصية:

يقال فلان قوي الشخصية وفلان ضعيف الشخصية فما الشخصية؟ الشخصية هي حسن استثمار القوى التي منحها الله للإنسان، إنطلاقاً من مقومات العلم والمعرفة والخبرة والتجربة، فحزم الأمير في المواقف التي تستدعي حزماً، دونما ظلم ولا قهر ولا جبروت قوة شخصية، وتردده وتشككه وتميع مواقفه ضعف في الشخصيّة، وحلم القادر على السّفيه قوة في الشخصية، والتنكيل به وتناوله من موقف القوة والقدرة ضعف في الشخصية.

---

(١) المرجع السابق ص٣٦١.

(٢) المرجع السابق ص٥٢٤.

وقوي الشخصية محبوب من الناس في حزمه وفي حلمه، لقد كان عمر بن الخطاب من أقوى الناس شخصية حتى يقول زياد بن أبيه ـ عندما سأله عمر ـ هل تستطيع أن تقوم في الناس بمثل ما كلمتني به؟: «والله يا أمير المؤمنين ما على وجه الأرض أهيب في صدري منك، فكيف لا أقوى على هذا مع غيرك؟»(١) ومع هذه المهابة كان محبوباً من المسلمين صغارهم وكبارهم، جندهم وقادتهم، حتى يقول أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ: «كان صالحو السلف يعلّمون أولادهم حب أبي بكر وعمر، كما يعلمونهم السورة من القرآن»(٢).

إن الشخصية القيادية تبرز في الواقع الميداني في التزام الحق، والتجرّد من الهوى والميول الذاتيّة، ومعاملة الناس بموضوعية وحكمة دونما تفريط مخلّ أو افراط مذلّ، لا يخدع ولا يُخدع، ولا يموّه ولا يجوز عليه تمويه. جلس المغيرة بن شعبة في مجلس فيه عمرو بن العاص وكلاهما من أدهى العرب وأذكاهم فقال عمرو: «لقد كنت أوهم أمير المؤمنين عمر بن الخطّاب أشياء فيأخذ بها» فانتفض المغيرة وقال: «أأنت كنت توهم عمر بن الخطاب؟ والله ما رأيت عمراً ـ رضي الله عنه ـ مستخلياً بأحد إلا رحمته، كائناً من كان ذلك الرجل، كان عمر والله أفضل من أن يخدع وأعقل من أن يُخدع».

مثل هذه الشخصية عامل رئيس من كفايات القائد العسكري، فهو يقود مجموعة كبيرة من الناس، مختلفي الأمزجة والشخصيات، ولا بدّ من أن يلزمهم بالطاعة والضبط وتنفيذ الأوامر والنهوض بالواجبات والالتزامات، ويمكن أن يتم ذلك برهبة القوة وسلطان النظام والقانون والتنفيذ القسري، ولكن شتان بين هذا الالزام وبين الالتزام الذاتي المتأتّي عن حب القيادة والثقة فيها والاطمئنان إلى أهدافها وغاياتها، فيكون التزاماً قائماً على اقتناع وجداني وتقبل نفسي وإطمئنان قلبي وعقلي.

إن الشخصية القيادية تؤصل لدى الجند تنفيذ الأوامر والنهوض بالواجبات بأعلى كفاية مستطاعة، وأعمق اخلاص ممكن، وتحقيق مرامي النظام دونما تلويح

(١) محمود شيث خطاب، الفاروق القائد، مكتبة الحياة، بيروت،ـــــ، ط٢ ، ص٦٣.

(٢) ابن الجوزي، تاريخ عمر بن الخطاب، مطبعة محمد صبيح، القاهرة،ـــــ، ص ١٧٩.

به، مما يرتقي بكفاية التنفيذ إلى أعلى مستوياتها، ومع ذلك كله تبقى للقيادة مهابتها وتقديرها في كل قلب جنباً إلى جنب مع الحب والمودة، فتبقى الحدود مرسومة بين الرئيس والمرؤوس، ولكنها حدود غير مرئية، يشعر بها المرؤوس ولا يراها.

٢- المقومات المكتسبة:

٢/ ١: المعرفة المتخصصة:

المعارف كثيرة متعددة الأنواع متنوعة المجالات، وكل إنسان مطلوب منه أن يحوز قدراً عامّاً من المعارف الدينية والاجتماعية والكونية، يجعله يتعامل مع الله ومع الناس ومع معطيات الكون الذي يعيش فيه بوعي وموضوعية، ولكن الإنسان مطالب بالتعمق في نوع واحد من المعرفة أو أكثر كإختصاص له يصبح مرجعاً فيه، وقد أخذت المعارف تنحو إلى التخصص الدقيق والأكثر دقة، فإذا كان يكتفى من الطبيب بالمعرفة العامة فقد أصبح اليوم لا بدّ من التخصص في جزء أو جزيئية من جسم الإنسان، فأصبح في طب العيون مثلاً هناك المختص بالشبكية والمختص بالقرنية والمختص بالعدسة ... الخ، مما يجعل الإنسان يتعمق في معرفته التخصصية تعمقاً لم تعرفه البشرية من قبل.

والمجال العسكري له علومه التي لا تقل دقة وموضوعية عن علوم أي مجال سواه، وهي أساسية وضرورية للقائد العسكري بصفة خاصة، حتى يبدع ويتفوق في قيادته، ويستطيع مواجهة المواقف المتغيّرة بوعي وبصيرة، ويتصدى لحل المشكلات التي تواجهه أو تواجه جنوده بقدرة وكفاية، ويتخذ قراراته على أساس من ذلك، ولعل أهم ثلاثة أنواع من المعرفة تلزم القائد العسكري ـ إضافة إلى المعارف العامة ـ ما يأتي:

- **العلوم العسكرية**: وهي علوم متنوعة كذلك وتتعلق بما يأتي:

* **التحشيد**: ويقصد به تنظيم عمليات التجنيد وتوزيع المجندين على الوحدات، ووضع الإنسان المناسب في المكان المناسب، وتحديد الحقوق والواجبات والمهام، وإجراء التّشكيلات والتنقلات عند اللزوم إلى غير ذلك.

* **التنظيم**: ويتعلق بضبط قنوات الاتصال بين الوحدات، وأساليب تلقي الأوامر وتنفيذها، وأساليب التدريب وإعادة التدريب، والتأهيل وإعادة التأهيل، والمحاكمات العسكرية، ومكافأة الجهد، وعقاب المقصرين، والترفيع إلى رتب أعلى، أو تنزيل الرتب . . . الخ.

* **التعبية**: وتعنى بكل متطلبات القتال المساعدة من وسائط حمل القوّات بأنواعها، إلى الغذاء والكساء وتنظيم الامدادات بكل أنواعها، وتوزيع المهام الرئيسة على الوحدات، وتأمين خطوط الاتصال وتوجيه الجند وتحفيزهم إلى غير ذلك.

* **التسليح**: ويتناول كل انواع السلاح ـ كمعرفة عامة ـ والتخصص في نوع منها، وضبط ما يلزمه تفصيلياً وقد غدت هذه المهمة ذات أبعاد كثيرة، فهناك سلاح الفرسان (الدبابات) وسلاح الطيران، وسلاح البحرية، وسلاح المدفعية أو الصواريخ وسلاح المشاة وغيرها، مما يستلزم الاحاطة من كل قائد سلاح بأنواع الأسلحة واستخداماتها وكفاياتها وقدراتها، وأساليب صيانتها.

* **الفعاليات**: وتتناول أساليب القتال المختلفة ووسائلها وفعالياتها، وبدء الحرب وسيرها وإنهاءها واختيار المواقع الهجومية أو الدفاعية، والتقدم أو التحيز، والانكاء في العدوّ إلى غير ذلك.

هذه أمثلة، ولم تعد العلوم العسكرية اليوم اجتهادية، وإنما أصبحت لها كلياتها الجامعية، التي تعدّ الضباط وأركان الحرب، يقوم عليها علماء عسكريون يتولون تقديم العلوم العسكرية في كل مجال من المجالات للمتخصصين فيه.

- **العلوم النفسية**: قد تكون العلوم النفسية أساسية لأي إنسان يقود مجموعة من الناس، بدءاً من الأب في الأسرة الذي يتعامل بصفة رئيسة مع أطفاله وأبنائه اليافعين والشباب والذين لكل منهم عالمه النفسي الخاص به، وانتهاء بولي الأمر الذي يقود مختلف فئات الشعب في كل الظروف، ولكل مقوماتها النفسية المتغيرة بتغير الظروف والمواقف، فالنفس البشرية آية من آيات الله العظمى، حيث لا تتطابق المقومات النفسية لاثنين من بني البشر ـ حتى لو كانا توأمين ـ تطابقا كاملاً. وإن كان التعامل مع العلوم النفسية جرى على أساس التعامل مع المراحل العمرية: الطفولة،

المراهقة، الشباب... الخ، ومع المواقف: الأزمات والكوارث، الحروب، البطالة... الخ.

والجندي واحد من البشر، وله وضعه النفسي الخاص قبيل المعركة وفي اثنائها وبعد انتهائها، وما لم يكن القائد محيطاً بالعوامل النفسية الإيجابية والسلبية التي يتعرض لها جنوده، في شتى المواقف، ويتعامل معهم على أساس علمه ومعرفته ووعيه بهذه العوامل، واجه من الصعوبات مالا يصمد أمامه، فالجندي قد يتحمل من الأوامر والأعباء واللوم وما إلى ذلك ما لا يمكنه أن يتحمله في أثناء القتال، والموت يتهدده من كل جانب، وهو يتحمل من ذلك كله الشيء الكثير ويتقبله بصدر رحب إذا انتهت المعركة وكان منتصراً ولا يتحمل شيئاً من ذلك قط فيما لو كان منهزماً، وكم من جندي وجه رصاصه أو سهامه إلى صدر قائده بدلاً من صدر عدوه لأنه وجه إليه إهانة أو ظنّ أنها إهانة، ومن الحوادث المشهورة التي سجلها التاريخ الإسلامي في هذا المجال ما حدث مع القائد الأموي الشهير قتيبة بن مسلم، وموجزها.

- كان قتيبة بن مسلم من أكفأ وأشجع قادة الفتح الإسلامي وأذكاهم وأدهاهم، ولم يهزم في موقعة قط، وفتح خوارزم وسمرقند في عام واحد، حتى يقول فيه نهار بن توسعة:

وما كان مذ كنّا ولا كان قبلنا ولا هو فيما بعدنا كابن مسلم

ولكن أخاه عبد الله أغراه بخلع سليمان بن عبد الملك، ودعوة الناس إلى خلعه، ولمّا لم يجيبوه غضب وتناول بلسانه كل القبائل وسادتها فاجتنبوه، ثم اشتد عليهم فثاروا ضده وقتلوه، وفقد المسلمون قائداً من أعظم قادتهم[1]، إنها من أخطاء قتيبة التي أودت به، تصرّف وهو تحت سورة الغضب، مع أناس هم في قمّة الحيرة والقلق، فأساء إليهم، وكان من البديهيّ أن يسيئوا إليه.

والقائد الكفؤ ليس مطلوباً منه أن يعي النواحي النفسية لجنده فقط، وإنما يجب أن يعي النواحي النفسية لاعدائه، بحيث يعمل على هدم النواحي النفسية الإيجابية

(١) عن محمد بن جرير الطبري، تاريخ الأمم والملوك، مرجع سابق، جـ٤، ص٣٥-٣٧ بإختصار.

لديهم، وترسيخ النواحي النفسية السلبية، وقد عرف الأقدمون أهمية ذلك حتى غدت هناك حرب تسمى «الحرب النفسية» يشنّها العدو على عدوّه، بما يمكنه من النصر عليه.

- المعلوماتية:

المعلومات التي تلزم القائد العسكري لا حصر لها، سواء أكانت عن أعدائه: أعدادهم، تسليحهم، كفاياتهم، امداداتهم، مواقعهم، خططهم، وسائلهم، أو عن الأرض التي يقاتل فيها: طبيعتها، تضاريسها، مسالكها، مياهها، طرقها، سواترها ... الخ، أو عن جيشه هو، فالقائد الذي يقود جيشاً لا تتوافر له كامل المعلومات عنه محكوم عليه بالفشل.

وكثير من المعلومات العسكرية غير ذات ثبات وإنّما هي متحركة بإستمرار، تتدفق من أرض المعركة إلى القيادة العليا وبالعكس، وهي معلومات محاطة بالكتمان والحذر، ومركز الثقل فيها القائد ـ ذهاباً وإياباً ـ لذلك يجب أن يكون نظام المعلومات في غاية الإتقان حتى لا تتسرب أي معلومات للعدو، وفي الوقت نفسه يجب أن يكون القائد على دراية بأسلوب كشف معلومات العدو، والوصول إلى تدفق معلوماته بكل أسلوب متاح حتى يطلع على خططه ويعدّ لها ما يفشلها ليضمن النصر عليه.

ومن المعروف أن المعلوماتية العسكريةقد تطورت تطوراً مهولاً في زماننا هذا، فانتقلت من لغة الإشارة ولحن القول، إلى الحمام الزاجل والكتابة بالحبر السرّي، إلى الشيفرات المعقدة المبثوثة عبر الأثير، إلى أقمار التجسس الصناعية ثم استخدام الالكترونات الدّقيقة، واستخدام الحواسيب في جمع المعلومات وتحليلها وتصنيفها وتخزينها واستعادتها، مما يعمق الحذر من العدوّ، ويؤمن مراقبة فعالياته لمواجهتها.

٢/٢: الإدارة:

الإدارة في أي قطاع من القطاعات بمثابة الرأس للجسد، فهي التي تفكر وتخطط وتتابع التنفيذ والتقويم وأي خطأ في قراراتها يحمّل الشعب ككل خسارة

فادحة، وفي المقابل اتباع العلم والوعي والحكمة في قراراتها يوفر للمجتمع خيراً عميماً من أمن ومنعة وطمأنينة واستقرار وتقدم ورفعة ورضا وسعادة. وقد تشعبت المهام الإدارية فلم تعد قصراً على الإدارة السياسية وإنما تغلغلت في كل مناحي الحياة، وتقسمت كل إدارة إلى إدارات ففي التربية مثلاً تبدأ بإدارة الصف فالمدرسة فالمرحلة فالمنطقة. . . الخ.

والإدارة العسكرية بكل تفرعاتها تحتل مكانة متقدمة في الجسم الإداري لأي أمة، ذلك لأن نجاحها في مهامها ينعكس أمناً وعزة ومنعة وطمأنينة واستقراراً لمجتمعها، وبالتبعية انتاجاً وإنجازاً ورقياً وتقدماً، كما أن فشلها لا يعني خسران مال أو عقار أو معدات، وإنما خسران وطن وارواح وكرامة وجود.

والإدارة العسكرية بعامّة معنيّة بالتخطيط والتحشيد والتعبئة والتسليح والتجهيز والاعداد والتأهيل والتدريب، والتنفيذ وتقويم الفعاليات، وتنظيم تدفق المعلومات إلى غير ذلك من المهام التي لها علومها ومعاييرها التي غدت من علوم ومعارف وممارسات كل قيادة، سواء في الأزمنة الماضية أو الحاضرة.

إلا أن ما يقتضي التركيز عليه هنا هو ما يسمّى إدارة الأفراد، التي تعتبر روح كل قيادة، والتي قد لا تجد اهتماماً مستحقاً لدى القيادات العسكرية. هؤلاء الأفراد من ضباط وضباط صف وجنود، هم أكثر الناس حاجة إلى حسن الإدارة، فأي واحد منهم قد يصبر على الجوع والجراح والإصابات، وقد يتدبر السلاح والإمدادات والمعدّات، ولكنه لا يصبر قط على سوء المعاملة من القيادة، كالتّغرير به أو إهانته ولطم إنسانيته.

ومن بدهيات إدارة الأفراد تحكيم العدل والانصاف، إيجاباً أو سلباً، فمن المعروف أنه لا توجد قوة تجبر إنساناً أبدع، على استمرارية الإبداع ما لم يكافأ على جهده المبدع، كما أنه قد لا يكف إنسان ما عن استمراريّة التقصير أو التفريط ما لم يعاقب على تفريطه الأول، فالعدالة في الحالات الإيجابية والسلبية هي سبيل الرضا بين الأفراد، فلا سلب للحقوق ولا بذل لها لغير مستحقيها.

بعد وقعة نهاوند قسم السائب بن الأقرع الغنائم بين الجند والقادة على قدر استحقاقاتهم، ثم دلّه أحد الفرس على سفطين عظيمين من كنوز آل كسرى، ليس

فيهما إلا اللؤلؤ والزبرجد والياقوت، ويقول السائب: «فاحتملتهما معي إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، وبعد أن أنهيت إليه خبر الوقعة على وجهه، أخبرته خبر السفطين، فقال: أدخلهما بيت المال حتى ننظر في شأنهما، والحق بجندك، فأدخلتهما وخرجت مسرعاً. فما أن دخلت الكوفة وانخت بعيري حتى أناخ رسول أمير المؤمنين بعيره على عرقوب بعيري وقال: الحق بأمير المؤمنين، فركبت معه حتى قدمت عليه، فلما رآني قال: مالي ولابن أم السائب؟ بل ما لابن أم السائب ومالي؟ قلت: وما ذاك يا أمير المؤمنين؟ قال: ويحك والله ما هو إلا أن نمت حتى باتت ملائكته ربّي تسحبني إلى ذينك السفطين يشتعلان ناراً يقولوم لنكوينك بهما، فأقول إني ساقسمهما بين المسلمين، فخذهما عني لا أبالك والحق بهما جندك، فأخذتهما وبعتهما في أعطيات المسلمين وأرزاقهم بألفي ألف[1]».

إنها حساسية أمير المؤمنين تجاه العدل التي أبت عليه أن يأخذ شيئاً من استحقاقات الجند حتى ولو كان لبيت مال المسلمين، فكيف لو كان ذلك لنفسه؟

ومن أهم ما يجب أن يهتم به القائد في إدارته للأفراد: «الشورى» فهؤلاء المقدمون على القتال وبذل الأرواح يجب أن يكون لهم رأي فيما هم مقدمون عليه. ويقول عظماء القادة: إن القائد الذي يتقن فنّ الاستشارة يرتقي بجنده إلى أعلى درجات الإخلاص، وتصبح قراراته أقرب ما تكون إلى السداد والرشاد.

وما من وصية من خليفة إلى أحد قادته أو قائد عام إلى قادة قطاعاته إلا ونجده يؤكد على استشارة من معه، وقد مرّ معنا موقف الرسول في هذا المجال في بدر وغيرها. وفي زمننا هذا أصبحت هناك مؤسسة قائمة بذاتها للاستشارة، فقد غدت الاستشارة من مهام ضباط أركان الحرب.

٢/ ٣: القيم الأخلاقية:

مكارم الأخلاق وعليا الفضائل من أهم مميزات أي إنسان في أي مجتمع، وهي لازمة لزوماً قطعياً لكل قيادة في أي مجال من مجالات الحياة، ولكنها أكثر لزوماً للقيادات العسكرية للنهوض بأمانة المهام الموكولة إليها من ناحية، ولقيادتها

(١) عن محمد بن جرير الطبري، تاريخ الأمم والملوك، مرجع سابق، جـ٢، ص٥١٩-٥٢٠ بإختصار.

مجموعات ضخمة من الأفراد المولعين ـ بحكم حياتهم القاسية ـ بنقد تصرفات قادتهم وسلوكياتهم، بل وتضخيم كل نقيصة يجدونها لديهم.

لذا فإن القائد العسكري الحكيم هو من يزكي نفسه أخلاقياً، ويتغلّب على عيوبه ذاتياً، ويعمل على تزكية سلوكه، والتخلص من أي نقيصة تعتري أخلاقه، بدلاً من بذل محاولات فاشلة في إخفاء سقطاته وتغطية انحرافاته، ولذلك قيل: «غبيٌّ هو القائد الذي يفكّر في إخفاء سقطاته عن جنوده لأنهم يعرفون عنه أكثر مما يعرف هو عن نفسه»[1].

وإذا رسخ في أذهان الجند أن قائدهم عالي الأخلاق، رفيع القيم، سامي الفضائل، أحاطوه بكل احترامهم وتقديرهم، ومحّضوه ولاءهم وإخلاصهم، وأولوه ثقتهم ومحبتهم وطاعتهم، بل واتخذوه قدوة لهم واتخذوا تصرفاته أسوة يتأسون بها، ومثل هذا القائد هو الذي يقود أمته للنصر، أما إذا رسخ في أذهان جنده أنه متحلّل من القيم والأخلاق تدنّت نظرتهم إليه، وانعدمت ثقتهم به، ولاحقوه بالنقد والتجريح، وناصبوه العداء في أعماقهم، وغدا منبوذاً في جماعة تلفظه نفسياً، ومثل هذا القائد قلّما ينفّذ له أمر بإخلاص، أو يحقق لأمته نصراً.

لذلك نجد التعليمات الصادرة إلى قادة المسلمين تركز باستمرار على التحلّي بالقيم الأخلاقية، والنأي عن مقارفة الذنوب، وعن الترفع عن الجند والغطرسة، وتؤكد على العناية بالجند وحسن رعايتهم والحرص على سلامتهم، ومن أمثلة ذلك ـ والأمثلة كثيرة ـ رسالة عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ إلى سعد بن أبي وقاص في مسيره إلى العراق، والتي منها:

- وآمرك ومن معك بتقوى الله، وأن تكونوا أشدّ احتراساً من المعاصي منكم من عدوّكم.

- واسألوا الله العون على أنفسكم، كما تسألونه النصر على عدوكم.

- وترفق بالمسلمين في مسيرهم، ولا تجشّمهم مسيراً يتعبهم، ولا تقصّر بهم عن منزل يرفق بهم، حتى يبلغوا عدوهم، والسفر لم ينتقص من قوتهم، وأقم بمن معك كل جمعة يوماً وليلة، ليكون ذلك لهم راحة.

---

(١) محمود شيت الخطاب، بين العقيدة والقيادة، دار الفكر، بيروت، ١٩٧٢، ص ٧٨.

- ولا تخص أحداً بهوى، ولا تبعث طليعة ولا سريّة في وجه تتخوّف فيه ضيعة . . . الخ[1].

وخلاصة القول في مقومات القائد من المنظور الإسلامي أن يكون متميزاً بمقومات فطرية عالية، وبمقومات مكتسبة سامية، مما يتيح له قيادة فذّة تتميز بخلائق النبل، ورجاحة الحلم، وأصالة الرأي، وحلاوة المعاشرة، وموضوعية المعاملة، وسعة الصدر وكرامة الصبر، ليؤلف بين جنوده بالمودّة، ويحقق طواعيتهم بالثقة، مع المحافظة على الضبط الحازم بلا افراط ولا تفريط. هكذا كان قادة المسلمين، فكان حرياً بهم أن يتحقق لهم النصر بعون الله.

هـ- الاسلوب النبوي لاعداد القيادات العسكرية

القيادة العسكرية مثل أي قيادة هي: موهبة وعلم وفنّ، والإعداد لها يعني تمكين الفرد الموهوب من علومها وتمرّسه بفنونها، بحيث يصبح قادراً على ممارستها على أساس من العلم والمعرفة والدراية والاتقان المحكم لجميع الفنون التي تتطلبها.

وإذا تم اختيار مجموعة من الناس تتوافر فيهم المقومات القيادية الأساسية الفطرية من مواهب وملكات، وإرادة وقدرات وشخصية واثقة، فإن ذلك لا يعني قيامهم بالدور القيادي وإنما لا بدّ من إكسابهم المقومات المكتسبة التي تناولناها فيما سبق من علوم ومعارف عسكرية متخصصة وتعمق في علم النفس وإحكام للمعلوماتية بكل مفاهيمها، والتدريب على ما سبق، وتنمية وترسيخ معتقداتهم الأساسية وربطهم بالقيم والأخلاق ومحامد السلوك، وإكسابهم أساليب الإدارة لا سيما إدارة الأفراد.

تقوم اليوم على هذا الإعداد لمن يجري اصطفاؤهم واختيارهم للقيادات العسكرية مؤسسات متخصصة يقوم عليها متخصصون أكفياء، يؤهلونهم علمياً وفنيّاً للاضطلاع بمهام القيادة، الأمر الذي لم يكن متوافراً في الأزمنة السابقة، فمعظم

---

(١) محمود شيت خطاب، الفاروق القائد، مكتبة الحياة، بيروت،ـــــ، ط٢، ص ٩٤-٩٥ بإختصار.

القيادات العسكرية الفذة التي خلدها التاريخ كانت نتاج التجارب وليس التخرج من كلية عسكرية بعينها.

في عهد الرسول ﷺ كان على من تتوافر فيه المقومات الفطرية للقيادة أن يسعى لاكتساب المقومات الأخرى عن طريق الاحتكاك المباشر بمن حازوها، واتقان فنونها عبر الصراع في ساحات الوغى، وعلى اتساع أرض الصراع وتنوع علوم وخبرات المتصارعين، مما يجعل المكتسبات تثبت لديهم وتترسخ.

وكان على الرسول الكريم أن يهيىء الظروف والفرص لصحابته ليصبحوا قادة سياسيين واقتصاديين واجتماعيين وتربويين وعسكريين إلى غير ذلك، واتبع لاعداد القادة العسكريين الأسلوبين المعروفين وهما: الغزوات، والسرايا فكيف تمّ ذلك:

١ - الغزوات:

«غزا الرسول ﷺ حسب أرجح الأقوال ثمانية وعشرين غزوة[(١)]» شارك فيها حوالي سبعين ألف مسلم، ومع احتساب تكرارات أعداد المشاركين، لكون الصحابة كانوا يحرصون على المشاركة في كل غزوة من غزوات الرسول يمكن التأكيد على ان من استفاد من هذه الغزوات عدد لا يقل عن أربعين الفاً، ففي غزوة تبوك وحدها شارك ثلاثون ألفاً، وهو عدد كاف لاصطفاء مجموعة كافية من القيادات.

لم يكن الاحتكاك في هذه الغزوات، سواء أنتهت سلمياً أو قتالياً، بفئة واحدة أو جهة واحدة، وإنما شمل فئات العرب كلها: أهل الحضر (المدن) وأهل المدر (البدو)، وقبائل الشمال والجنوب والوسط والشرق والغرب، كما شمل فئات يهود المختلفة، والرومان ومن تابعهم من مقاتلي العرب، وكانت علوم الحرب وفنونها عند هؤلاء تمثل قمة ما وصلت إليه مجتمعات المنطقة، فكان للمسلمين أن يقتبسوها عنهم عبر الملاحظة الواعية.

كانت الغزوات بقيادة الرسول ﷺ ولكن القيادات الثانية والثالثة وما يليها كانت توزع على بعض الموثوق بكفايتهم ـ علماً وفنّا ـ فحامل اللواء مثلاً يعتبر عنوان

---

(١) محمود شيت خطاب (لواء ركن)، العقيدة القيادة، مرجع سابق، ص ١٣٦-١٤٠.

صمود الجيش أو خذلانه، لذلك نجد الرسول يسلم اللواء في كل غزوة لصحابي مختلف عمن قبله: في غزوة الأبواء: لحمزة بن عبد المطلب، في غزوة بواط: لسعد بن أبي وقاص، في بدر: لواء المهاجرين لعلي بن أبي طالب ولواء الأنصار لسعد بن عبادة، وفي أحد لمصعب بن عمير وفي خيبر لعمر بن الخطاب، وهكذا في كل غزوة، وكذلك المراكز الأخرى كقيادة الخيل، والمقدمة والميمنة والقلب والميسرة والساقة، مما جعل ممارسة القيادة واقعياً يفرز القيادات المتفوقة المتميزة من خلال الأداء الحقيقي في الميدان، وكان الاختبار الأول ـ خارج الجزيرة ـ في غزوة مؤته، حيث اختير لها ثلاثة من القادة بالتتابع وهم: زيد بن حارثة، وجعفر بن أبي طالب، وعبد الله بن رواحة، وأفرزت المعركة تلقائياً قائداً رابعاً هو خالد بن الوليد، أما في غزوة الفتح المصيرية فقد أفرز أربعة من القادة هم: خالد وأبو عبيدة وعلي بن أبي طالب وسعد بن عبادة، ثم أفرزت حروب الردّة أحد عشر قائداً وتنامت الأعداد يوماً بعد يوم، أما الحرب مع فارس والروم فأفرزت المئات من القادة الأفذاذ.

٢- السرايا:

ولما كان المشارك في غزوات الرسول ﷺ في أي موقع، يعتبر تابعاً لكون القيادة العليا بيد الرسول. مما لا يميز الكفاءة الذاتية بموضوعية كافية، فقد كانت السرايا فرصة لاختبار بعض من توسّم فيهم ـ عليه السلام ـ الموهبة والكفاية والقدرة بوضعهم على المحك بتسليمهم القيادة الأولى، وقد أفرزت السرايا الاثنتين والخمسين أربعة وثلاثين قائداً، منهم من قاد سرية واحدة ومنهم من قاد أكثر من واحدة وكالتالي:

عدد السرايا	عدد القادة	أسماؤهم
٦	١	زيد بن حارثة
٥	١	خالد بن الوليد
٣	٢	علي بن أبي طالب وغالب بن عبدالله.
٢	٥	أبو عبيدة، عبدالله بن رواحة، عمرو بن العاص، وأبو قتادة الأنصاري وعكاشة بن محصن.

١	٢٥	حمزة بن عبد المطلب، عبيدة بن الحارث، أبو سلمة بن عبدالأسد، عبدالله بن جحش، وعبدالله بن أنيس، عبدالله بن عتيك، محمد بن مسلمة، عبدالرحمن بن عوف، كرز بن جابر، عمرو بن أمية، عمر بن الخطاب، أبو بكر الصديق، سعد بن بشير، بشير بن سعد، أبو العوجاء السلمي، شجاع بن وهب، كعب بن عمير، سعد الأشهلي، الطفيل بن عمرو، عيينة بن حصن، قطبة بن عامر، الضحاك بن سفيان، علقمة بن محرز، أسامة بن زيد.

ومن الملاحظ أن هذا الإعداد المبكّر، قد كان له نتاجه الرائع بعد وفاة الرسول ﷺ فمن هؤلاء برز قادة الجيوش الافذاذ، وأساتذة علوم الحرب، وفنونها في ذلك الزمان كخالد بن الوليد، وسعد بن أبي وقاص، وأبي عبيدة بن الجراح، وعمرو بن العاص وغيرهم.

كان العرب المسلون لا يعرفون من آلات الحرب الرتيلة ولا العرادة ولا المجانيق ولا الدبابات ولا الحسك ولا التجافيف ولا الزرق بالنفط والنيران، ولكنهم سرعان ما عرفوها وطوروها بذكاء وحنكة.

ويقول المثنى بن حارثة: «لقد قاتلت العرب والعجم في الجاهلية، والله لمائة من العجم في الجاهلية، كانوا أشدّ علي من ألف من العرب، أما اليوم، فمائة من العرب أشدّ علي من ألف من العجم»[(١)].

لقد ربّى رسول الله ﷺ جيلاً من الأبطال الافذاذ، على الجهاد والبذل والتضحية والصمود والصّبر والثّبات فأثّلوا مجداً لا يحول لدينهم وأمتهم، وكان كل قائد يعتبر الصحابة مادة النصر الحقيقية، حتى أن خالد بن الوليد عندما أمره أبو بكر بالمسير إلى الشام وأن يأخذ نصف الجند ويترك للمثنى النصف، جعل الصحابة جميعاً في

---

(١) محمد بن جرير الطبري، تاريخ الأمم والملوك، مرجع سابق، ص ٢٥٠.

نصفه، فقال المثنى: «لا والله، لا أقيم إلا على إنفاذ أمر أبي بكر، وإني لا أرجو النصر إلا بأصحاب رسول الله ﷺ، فلم يبرح خالد حتى أرضاه[1].

لقد كان الفتح الإسلامي الكبير الذي حمل الإسلام إلى حدود الصين شرقاً وفرنسا غرباً في الفترة من ١١هـ - ٩٤هـ وكان قادة هذا الفتح: ٢٥٦ قائداً عربياً مسلما منهم ٢١٦ قائدا من الصحابة و٤٠ قائدا من التابعين[2].

كان الصحابة والتابعون يستهدفون نشر دين الله، وتحرير شعبهم والشعوب الأخرى من المستبدين ومن عبودية العباد وعسفهم واستبدادهم وطغيانهم وربطهم بعبودية الله وحده، كان همهم الهداية لا الجباية، ونظرت إليهم الشعوب على أساس كونهم دعاة لا غزاة، وبذلك دخلت في الإسلام، وبقيت هذه البلاد إسلامية حتى يومنا هذا، الأمر الذي لم يتسنّ لفتح قبل الإسلام ولا بعده. لقد دخل الأوربيون المستعمرون بلادا كثيرة، ولكنهم ووجهوا بثورات لم تهدأ حتى أحرقت وجودهم، وغادروا البلاد التي دخلوها مصحوبين باللعنات.

وصلى الله وسلم على النبي المربي القائد، الذي قاد هذه الأمة إلى شرف الغاية، بعمق إيمان، وصدق عزم، وكرم عهد، وثقة ذمة، ورجاحة حلم، حتى غدت خير أمة أخرجت للناس، وهدى الله ولاة أمة العرب والمسلمين لأن يعودوا بأجيالنا إلى موئل عزهم، ومعين قوتهم، دينهم الإسلامي الحنيف، ليبددوا الظلام بالنور، ويقهروا الفساد بالصلاح، والفرقة بالاتحاد، والعداء بالمحبّة، ويرهبوا عدو الله وعدوهم.

---

(١) علي بن الأثير، الكامل في التاريخ، القاهرة، ١٣٠٣ هـ، ، جـ٢، ص ١٥٦.

(٢) محمود شيت خطاب (لواء ركن) العقيدة والقيادة، مرجع سابق، ص١١٩.

ثالثاً: خلاصة الفصل الثامن

يلمس هذا الفصل أكثر الأوتار حساسية لدى كل عربي مسلم، فإذا كانت الأمة قد أصيبت إصابات بالغة في كل منحى من مناحي حياتها، فإصابتها في النواحي العسكرية في عهود التخلف، قد عمقت الجراح التي لا زالت تنزف قهرا في كل يوم وفي كل ساعة ولا تتوقّف، استأسدت عليها ا لقوى الغاشمة واستأسدت هي على بعضها البعض، حتى غدت لا ترد كف لامس، ولا ركلة راكل ولا تمنع أرضا ولا تصون عرضا، ولعل ما حدث في فلسطين، وما لقي الأقصى، وما تجرعته القدس، لمصاب يدمي القلوب، ولا يحتاج إلى دليل، فهو يصبّح كل فرد من أفراد هذه الأمة ويمسّيه يوميا، يجرّعه من علقم الماساة، ويحموم المصاب، ولا زالت فعالياتنا تمضغ أشهى الطعام، وتلوك أبلغ الكلام، عاقدة النية على عدم مواجهة الحقيقة، وعلى الهروب من هذه المواجهة بالتبرير والتزوير والتضليل، وما بهذا تستعاد الأوطان وتعلى كرامة الإنسان.

ولعل المعنيين بالأمور العسكرية في هذه الأمة، يعيدون تقويم أوضاعهم، ملتمسين الهدى من تراثهم وسيرة نبيهم الكريم الذي قاد هذه الأمة إلى شرف الغاية، وأثّل لها في سفر الخلود أروع مكانة، صحيح أن الظروف قد تغيرت جذريا، ولكن تبقى الثوابت راسخة والأسس والاصول والمبادىء ثابتة، مهما تغير الزمان وتطور الإنسان.

وقد يجد المختصون العسكريون في تربية الرسول العسكرية، ما هو أرقى نوعاً، وأعمق تأثيراً مما تناولناه، بحكم اختصاصهم، ولنا أن نذكّر ـ فقط ـ بما يأتي:

١ - إن العدوان لا يردّ باستعطاف المعتدي، ولا برجاء المحتل، ولا بالاستسلام للواقع المرّ، وبذل السلام للعدو المحتل المستقوي المتغطرس فهو وإن استجاب قولاً لا يستجيب فعلاً للسلام، ما لم يجبر عليه إجباراً، ويفرض عليه فرضاً، ويكره عليه اكراهاً.

إن الامة أحوج ما تكون إلى السلام الداخلي، وإزالة كل عوامل الضعف والفرقة والتمزق والعداء التي تعيشها اليوم، لأسباب كثيرة يعرفها جيداً كل إنسان فيها، هذا السلام الداخلي الذي لا يعتبر مستحيلا ـ وإن كان صعباً ـ ولكن آثاره على قوة الأمة وعزتها ومنعتها وعلو مكانتها، تجعل كل صعوبة لتحقيقه هيّنه، فهو الخطوة الأولى نحو كرامة الحياة، لأمة لم تعد تستشعر هذه الكرامة، وهو الضمانة لاسترجاع ما فقد، والحيلولة دون السقوط المتتابع لما بقي حتى اليوم، وذلك بالعودة إلى تأجيج جذوة الجهاد في نفوس الاجيال، لتحمي أوطانها وتذود عن أمتها. هذا السلم الداخلي هو الأسلوب القويم لتحقيق السلم الخارجي، وما استبد عدوّ إلا عندما لم يجد من يردّه، ولعل تحقيق هذا السلم الداخلي بين أقطار الأمة يراود كل نفس ولكنه يحتاج إلى من يقوم بالخطوة الأولى بإيمان وأمانة وتجرد وصدق واخلاص.

٢- لا يجهل أحد أن الروح المعنوية ذات تأثير أساسي ورئيسي على كفاية العسكريين، وتشكل ٥٠٪ ـ كحد أدنى ـ من مقومات النصر في أي معركة، وكم من جيش قهر عشرات أضعافه من القوات عددا وعدّة، نظراً لروحه المعنوية العالية، وأقرب مثال على ذلك صمود المسلمين الشيشان أمام مئات أضعافهم عددا وعدة. وكم من جيش ولّى الفرار وأسلم الأوطان والديار لدى أول صدمة، بالرغم من كثرة أعداده وتفوق معداته.

هذا ما يقودنا إلى الاهتمام بالمقومات الاعتقادية والقيم الخلقية لدى التنسيب للكليات الحربية وعدم الاقتصار على النواحي الجسدية فقط فهي ـ بالرغم من أهميتها ـ تبقى في مرتبة ثانية بالنسبة لمعتقدات الفرد وإيمانه وروحه الجهادية التي تدفعه إلى التضحية والصبر والثبات والانكاء في العدو.

يضاف إلى ذلك الاهتمام بالنواحي النفسية للجنود، فالتعبئة النفسية أساس في دفع الجندي إلى اقتحام الوغى وتحمل المشاق والتضحية بالروح، لا سيما إذا استوعب مدى ا لضرر الذي يلحق به وبأسرته ومجتمعه ووطنه وأمته من الهزيمة، وما يتحقق من عزة ومنعة وكرامة بالنصر، لذلك فإن التهوين من خطر العدو، وتسويق السلام معه على أنه سيجلب للامة السمن والعسل، كما هو حادث تجاه إسرائيل اليوم، خطأ استراتيجي تاريخي، سيجر على أجيال الأمة أوخم العواقب.

وبالرغم من أهمية الجيش النظامي، فإن المعارك المصيرية تتطلب أن يكون كل مواطن قادر على حمل السلاح مدرباً عليه وعلى شتى فنون القتال، مما يجعل التعبئة العامة ميسوره عند الحاجةإليها، أما الغاء التجنيد الاجباري وإعفاء الشباب من اكتساب الخبرات والتجارب على أرض الواقع، إبان الفرحة الطاغية بحلول السلام، فأمر يأباه عقل كل عاقل.

إن الخبرة والتجربة ومعايشة حياة الجندية هي التي تنمي المقومات القتالية وتصقلها، وتعمق شجاعة الفرد وإقدامه وصبره على الشدائد وثباته في ساحة الوغى والتضحية بالنفس والنفيس للذود عن وطنه، بل وترفع كفاياته الذاتية بعامة، وتجعل منه إنسانا جادا يتحمل المسؤولية وينهض بالمهام الجسام.

٣ - وبالرغم من أن الارتقاء بالكفايات التعبوية إلى مستوى تسليح الشعب كل الشعب ليكون جاهزاً لصدّ أي عدوان، لا يمكن الأخذ بها في المرحلة الراهنة لظروف عديدة، إلا أن حالة الاسترخاء التي تعيشها الأمة لا تَسوّغ الاستهانة بالكفايات التعبوية، لا سيما بالنسبة للأسلحة المتطورة، لأن ذلك يعني بقاء الأمة رازحة تحت وطأة الرعب من أسلحة الدماء الشامل، والرعب النووي الذي يحيل الاسترخاء إلى استخذاء، الأمر الذي يوجب على الدولة أن تطور أسلحتها باستمرار حتى وإن اعتقدت أنها في حالة سلم وأن يكون لديها السلاح الكافي للتعبئة العامة متى احتاجت إلى ذلك.

ولعل أهم ما توجه إليه تربية الرسول الكريم في هذا المجال هو الاهتمام الجدي العميق بنظام المعلومات مما افتقدته هذه الأمة حتى لم تكن تكلم عن عدوّها إلا النذر الأيسر من اليسير، في حين كان عدوها يعرف عنها أدق التفاصيل السرّية للغاية، مما مكنه من أن يضرب ضرباته الموجعة في أكثر المناطق إيلاماً.

وموضوع الضبط لا يقل أهمية عما سبق، فالضابط لم يعد يتطلع إلى النكاية في العدو أو الانتصار عليه، وإنما إلى قيادة أرتال الدبابات لتطويق الاذاعة والتلفزيون والقصر الجمهوري أو الملكي، فقاد انعدام الضبط إلى الانقلابات والانقلابَ على الانقلابات، مما كبل الأمة بأوهاق لا زالت وستبقى تعاني منها طويلاً.

٤- واختيار القيادات العسكرية العليا لا يجب أن يقتصر على الرتب التي تمّ تحصيلها بالأقدمية فالمهام المناطة بهم ليست روتينية، وإنما يجب النظر إلى كل جانب من جوانب الكفاية من مواهب مبدعة وذكاء لمّاح وقدرات عالية وإرادة نافذة وشخصية قيادية وعلم ووعي ومعرفة، لا سيما بالنسبة لعلم النفس، وقبل ذلك كله إيمان عميق بمعتقداته الدينية، وقيم أمته وأخلاقها، وقدرة فذّة على إدارة القوات بصفة خاصة، فإن توافرت هذه المقومات للرتب العالية فبها ونعمت وإلا فالكفايات الأساسية تبقى المعيار لاختيار القيادات العامة، فكم من نكبة وكم من نكسة ألمت بهذه الأمة بسبب انحراف القيادات، والتي لا تكتشف إلا بعد أن تكون المأساة قد أنشبت مخالبها في روح الشعب قبل جسده.

إن تربية الرسول الكريم التي خرّجت أعظم القادة في تاريخ البشرية، وأهلت أبناء الصحراء لأن يطووا الأرض طي الصحف، ويدقوا بقبضاتهم الفتيّة أبواب الصين شرقاً وفرنسا غرباً، يسير النصر في ركابهم حيث ساروا، قادرة أن تعيد الروح ذاتها لأبناء الأمة ذاتها، بالرغم من تغير كل الظروف، فالإنسان هو الذي يطوع الظروف ولا تطوّعه، ويقودها ولا تقوده، فهل من عودة إلى هذا العطاء النبوي الجليل، والتراث العربي الإسلامي النبيل ليكون منه المنطلق، مع الأخذ بكل المستجدات والمتغيرات والتطورات؟

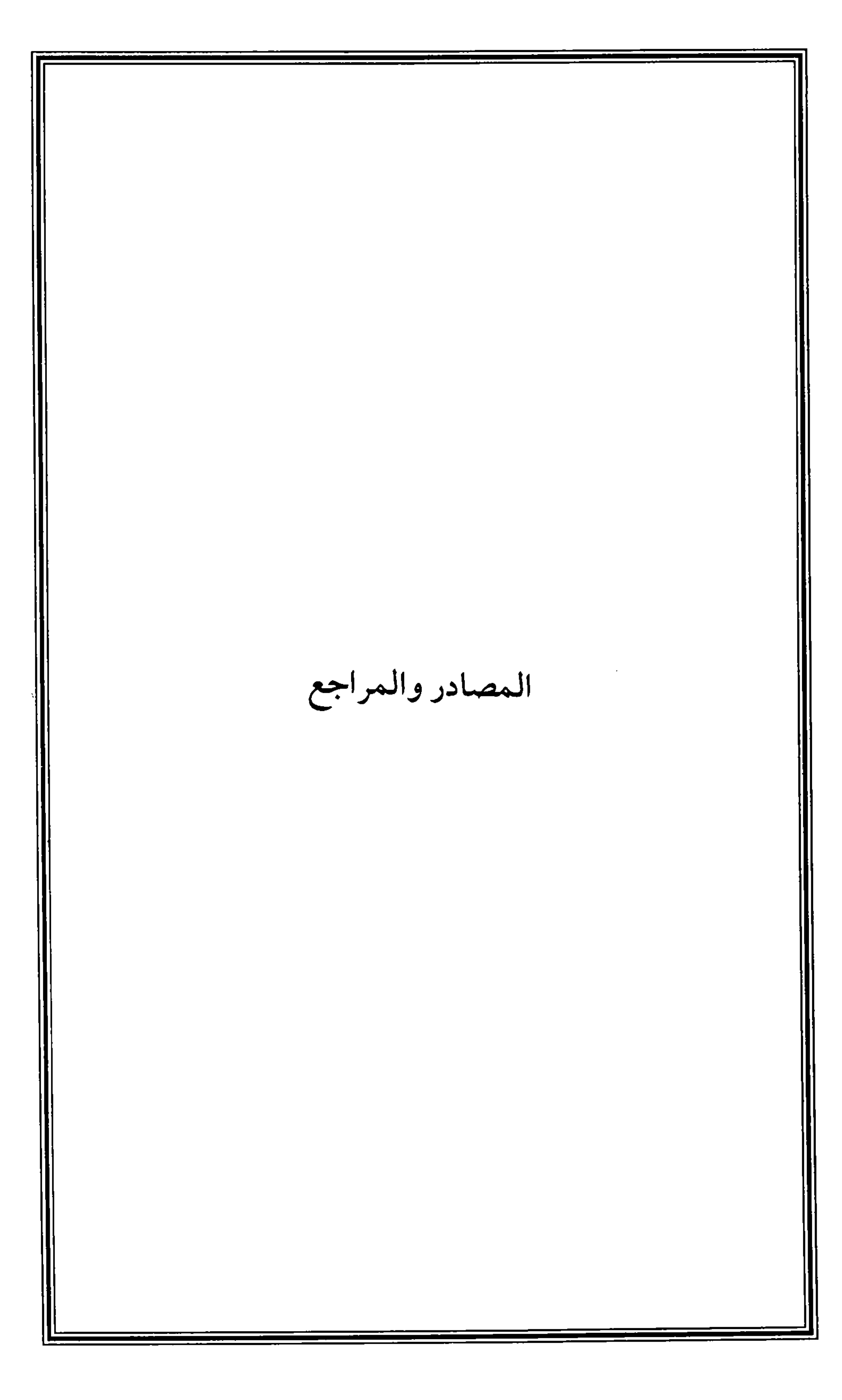
إن تباشير الأمل التي تشرق يوما بعد يوم في شباب هذه الأمة، الذين يضحون بأرواحهم الغالية من أجل عزتها وكرامتها ومكانتها في الوجود، تجعل كلّ الأجواء تعبق بالرجاء في بزوغ غد مشرق وضّاء لأمة شاء لها بارئها أن تكون خير أمة أخرجت للناس، وصدق الله العظيم: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[1].

(١) الرعد (١١).



فهرس الكتاب





المصادر والمراجع



أولاً: المصادر

أ- القرآن الكريم وتفسيره:

١- القرآن الكريم.
٢- تفسير ابن كثير.
٣- تفسير النسائي.
٤- تفسير الطبري.
٥- تفسير الرازي.
٦- تفسير المنار ـ محمد رشيد رضا.
٧- في ظلال القرآن - سيد قطب.
٨- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ـ محمد فؤاد عبد الباقي.
٩- مفصل آيات القرآن الكريم ـ عبد الصبور شاهين.
١٠- أحكام القرآن - أحمد بن علي الخصاص.
١١- التفسير الواضح ـ محمد محمود حجازي.

ب: الحديث الشريف:

١- صحيح البخاري.
٢- صحيح مسلم.
٣- سنن الترمذي.
٤- سنن النسائي.

٥- سنن الإمام أحمد.

٦- سنن أبي داود.

٧- سنن ابن ماجه.

٨- السنن الكبرى للبيهقي.

٩- صحيح الجامع الصغير للسيوطي - تحقيق الألباني.

١٠- الترغيب والترهيب من الحديث الشريف للمنذري.

١١- التجريد الصريح لأحاديث الجامع الصحيح - الحسين بن المبارك.

جـ: كتب السيرة:

١- السيرة النبوية — ابن هشام.

٢- عيون الأثر — ابن سيد الناس.

٣- جوامع السيرة — ابن حزم.

٤- مختصر سيرة الرسول — عبدالله بن محمد بن عبد الوهاب.

٥- الإصابة في تمييز الصحابة — الإمام العسقلاني.

٦- أسد الغابة في معرفة الصحابة — ابن الأثير.

٧- صفة الصفوة — الإمام ابن الجوزي.

٨- الرياض النضرة — المحب الطبري.

٩- طبقات ابن سعد — ابن سعد الزهري.

١٠- المنتقى من أخبار المصطفى — عبد السلام الحرّاني.

١١- فقه السيرة — محمد الغزالي.

١٢- نور اليقين — محمد الخضري

ثانياً: المراجع

١- إبراهيم أنيس وآخرون، المعجم الوسيط، إدارة إحياء التراث الإسلامي، الدوحة، قطر، ١٩٨٥م.

٢- إبراهيم بن موسى المالكي، الموافقات في أوصول الشريعة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٩٩١م.

٣- أبو الأعلى المودودي، مبادىء الإسلام، المطبعة الهاشمية، دمشق، سوريا، ١٣٧٢هـ.

٤- أبو الأعلى المودوي، طائفة من قضايا الأمة الإسلامية، مكتبة الرشد، الرياض، السعودية، ١٩٨٣م.

٥- أحمد جاد المولى، محمد المثل الكامل، دار المحبّة، دمشق، سوريا، ١٩٨٣م.

٦- أحمد زكي صالح، علم النفس التربوي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، مصر، ١٩٧٠م.

٧- أحمد الشرباصي، الدين والمجتمع، المطبعة العربية، القاهرة، مصر، ١٩٧٠م.

٨- أحمد العسال وآخرون، النظام الاقتصادي في الإسلام، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٩٧٧م.

٩- أحمد فائز، دستور الأسرة في ظلال القرآن، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ١٩٨٠م.

١٠- أحمد فؤاد الأهواني، التربية في الإسلام، عيسى البابي الحلبي، القاهرة، مصر، ١٩٥٥م.

١١- أحمد محمد عساف، قبسات من حياة الرسول، دار إحياء العلوم، بيروت، لبنان، ١٩٩١م.

١٢- ألكسيس كاريل، الإنسان ذلك المجهول، مترجم، مكتبة المعارف، بيروت، لبنان، ١٩٨٩م.

١٣- أنور الجندي، صفحات مضيئة من تراث الإسلام، دار بو سلامة، تونس، تونس، ١٩٨٣م.

١٤- بكري الشيخ أمين، أدب الحديث النبوي، دار الشروق، بيروت، لبنان، ١٩٧٥م.

١٥- تقي الدين النبهاني، النظام الاجتماعي في الإسلام، دار الأمة، بيروت، لبنان، ط٣، ١٩٩٠م.

١٦- توفيق علي وهبة، دور المرأة في المجتمع الإسلامي، دار اللواء، الرياض، السعودية، ١٩٨٣م.

١٧- جان بيريه، الذكاء والقيم المعنوية في الحرب، مترجم، ـــ، بيروت، لبنان ١٩٦٨م.

١٨- الحافظ ابن كثير، البداية والنهاية، دار الريان للتراث، القاهرة، مصر، ١٩٨٨م.

١٩- حسن البنا، العقائد، دار الدعوة، القاهرة، مصر، ١٩٩٠م.

٢٠- حلمي مرزوق، الإسلام والفكر المعاصر، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، ١٩٨٢م.

٢١- رشدي عليان، الإسلام والخلافة - رؤية تربوية، دار السلام، بغداد، العراق، ١٩٧٧م.

٢٢- زهير كحالة، القرآن الكريم - رؤية تربوية، دار الفكر العربي، عمان، الأردن، ١٩٨٢م.

٢٣- زيغريد هونكة، شمس العرب تشرق على الغرب، مترجم، المكتب التجاري، بيروت، لبنان، ١٩٦٧م.

٢٤- ستيوارت هولس وآخرون، سيكلوجية التعلم مترجم، الدار الدولية، القاهرة، مصر، ١٩٩٣م.

٢٥- سعد المرصفي، المسؤولية الاجتماعية في الإسلام، مكتبة المعلا، الكويت، ١٩٨٨م.

٢٦- سعد المرصفي، المادية والروحية في الإسلام، مكتبة المعلا، الكويت، ١٩٨٩م.

٢٧- سعيد إسماعيل علي، اتجاهات الفكر التربوي الإسلامي، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر، ١٩٩١م.

٢٨- سميح عاطف الزين، الثقافة والثقافة الإسلامية، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، ١٩٧٩م.

٢٩- سعيد سعد مرطان، مدخل للفكر الاقتصادي في الإسلام، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ١٩٨٦م.

٣٠- سيد قطب، خصائص التصور الإسلامي، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، مصر، ١٩٦٢م.

٣١- شمس الدين الذهبي، تاريخ الإسلام، دار السعادة، القاهرة، مصر، ١٣٦٨هـ.

٣١- صادق مهدي السعيد، العمل والضمان الاجتماعي في الإسلام، مطبعة المعارف، بغداد، العراق، ١٩٨٢م.

٣٢- صبحي الصالح، النظم الإسلامية، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط٩، ١٩٩٢م.

٣٣- طه الراوي، مباحث إسلامية، مطبعة أسعد، بغداد، العراق، ١٩٨٢م.

٣٤- عائشة عبد الرحمن، الشخصية الإسلامية، دار العلم للملايين، بيروت، ط٣، ١٩٧٧م.

٣٥- عباس محمود العقاد، عبقرية محمد، المكتبة العصرية، صيدا، لبنان، ط٣، ١٩٧٧م.

٣٦- عباس محمود العقاد، عبقرية الصديق، مطبعة مصر، القاهرة، مصر، ١٣٧٧هـ.

٣٨- عباس محمود العقاد، عبقرية عمر، مطبعة المعارف، القاهرة، مصر، ١٩٤٣م.

٣٩- عبد الحليم الجندي، القرآن والمنهج العلمي المعاصر، دار المعارف، القاهرة، مصر، ١٣٧٦هـ.

٤٠- عبد الحميد متولى، مبادى نظام الحكم في الإسلام، منشأة المعارف، الأسكندرية، مصر، ط٤، ١٩٧٨م.

٤١- عبد الرحمن المغيري، المنتخب في ذكر أخبار العرب، مطبعة المدني، القاهرة، مصر، ١٣٨٢هـ.

٤٢- عبد الرحمن عمران، تنظيم الأسرة في التراث الإسلامي، صندوق الأمم المتحدة للسكان، ١٩٩٤م.

٤٣- عبد الرؤوف عون، الفنّ الحربي في صدر الإسلام، مطابع دار المعارف، القاهرة، مصر، ١٩٩٤م.

٤٤- عبد العزيز الخياط، المدخل إلى الفقه الإسلامي، دار الفكر، عمان، الأردن، ١٩٩١م.

٤٥- عبد العزيز الخياط، المجتمع المتكامل في الإسلام، مكتبة الأقصى، عمان، الأردن، ١٩٧٢م.

٤٦- عبد الكريم عثمان، معالم الثقافة الإسلامية، مؤسسة الأنوار، الرياض، السعودية، ط٥، ١٩٧٨م.

٤٧- عبد القادر عودة، الإسلام وأوضاعنا السياسية، مكتبة وهبة، القاهرة، مصر، ط٢، ١٩٦٧م.

٤٨- عبدالله مختار يونس، الملكية في الشريعة الإسلامية، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، مصر، ١٩٨٧م.

٤٩- عبد المتعال الصعيدي، السياسة الإسلامية في عهد الخلفاء الراشدين، دار الفكر العربي، الإسكندرية، مصر، ١٣٨١هـ.

٥٠- عبد الوهاب المحسيري، مع الله في جسم الإنسان، دار البشير، عمان، الأردن، ١٩٩٣م.

٥١- عدنان زرزور، القومية والعلمانية، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ١٩٩٢م.

٥٢- عز الدين التميمي وآخرون، نظرات في الثقافة الإسلامية، دار الفرقان، عمان، الأردن، ١٩٨٤م.

٥٣- علي عبد الحليم محمود، تربية الناشىء المسلم، دار الوفاء، المنصورة، مصر، ١٩٩٢م.

٥٤- علي بن محمد بن الأثير، الكامل في التاريخ، دار الوفاء، القاهرة، مصر، ١٣٠٣هـ.

٥٥- علي بن محمد بن الأثير، أسد الغابة في معرفة الصحابة، دار الوفاء، طهران، إيران، ١٣٧٧هـ.

٥٦- علي عبد الرّازق، القرآن والمجتمع الحديث، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ١٩٨٤م.

٥٧- عماد الدين خليل، رؤيا إسلامية في قضايا معاصرة، وزارة الأوقاف، الدوحة، قطر، ١٩٩٥م.

٥٨- عمر محمود عبدالله، الطب الوقائي في الإسلام، مطبعة الزهراء، الموصل، العراق، ١٩٨٨م.

٥٩- عمر عبيد حسنة، نحو إعادة ترتيب العقل المسلم، دار الإشراق، الدوحة، قطر، ١٩٨٩م.

٦٠- غازي عناية، مناهج البحث العلمي في الإسلام، دار الجيل، بيروت، لبنان، ١٩٩٠م.

٦١- فتحي يكن، العالم الإسلامي والمكائد الدولية، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط١٢، ١٩٩٤م.

٦٢- فتحي يكن، التربية الوقائية في الإسلام، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط٤، ١٩٩٢م.

٦٣- فون لودندروف، الأمة في الحرب، مترجم، مطبعة الشعب، بغداد، العراق، ١٩٥٦م.

٦٤- فيليب فينكس، فلسفة التربية، مترجم، دار النهضة العربية، مصر، ١٩٦٠م.

٦٥- قدري طوقان، العلوم عند العرب، مكتبة مصر، القاهرة، مصر، ١٩٦٠م.

٦٦- كايد قرعوش، إنتهاء ولاية الحكام في الشريعة الإسلامية، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ١٩٨٧م.

٦٧- كمال رشيد، تأملات في السنّة، دار البيرق، عمان، الأردن، ١٩٨٧م.

٦٨- محمد أحمد جاد صبح، التربية الإسلامية، دراسة مقارنة، دار الجيل، بيروت، لبنان، ١٩٧١م.

٦٩- محمد أحمد عبد الهادي، المربي والتربية الإسلامية، دار البيان العربي، جدة، السعودية، ١٩٨٤م.

٧٠- محمد أحمد جاد المولى، قصص القرآن، دار النصر، بيروت، لبنان، ١٩٨٤م.

٧١- محمد أسد، الإسلام على مفترق الطرق، مترجم، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ١٩٧١م.

٧٢- محمد باقر الصدر، اقتصادنا، دار التعاون للمطبوعات، بيروت، لبنان، ١٩٨٢م.

٧٣- محمد بن سعد الزهري، الطبقات الكبرى، دار التعاون للمطبوعات، بيروت، لبنان، ١٣٧٦هـ.

٧٤- محمد البهي، الإسلام في حياة المسلم، مكتبة وهبة، القاهرة، مصر، ١٩٧٧م.

٧٥- محمد حسين هيكل، حياة محمد، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة، مصر، ١٩٥٢م.

٧٦- محمد حسين هيكل، الصديق أبو بكر، مطبعة مصر، القاهرة، مصر، ١٩٧٧هـ.

٧٧- محمد حسين هيكل، الفاروق عمر، مطبعة مصر، القاهرة، مصر، ١٣٦٤هـ.

٧٨- محمد جواد رضا، العرب والتربية والحضارة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان ١٩٩٣م.

٧٩- محمد سعيد البوطي، تجربة التربية الإسلامية، المكتبة الأموية، دمشق، سوريا، ١٩٦١م.

٨٠- محمد شوقي الفنجري، المذهب الأقتصادي في الإسلام، دار عكاظ، جدة، السعودية، ١٩٨٩م.

٨١- محمد صبيح، عمر بن الخطاب، دار القاهرة للطباعة، القاهرة، مصر، ١٩٥٨م.

٨٢- محمد ضياء الدين، النظريات السياسية الإسلامية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، مصر، ط٣، ١٩٦٠م.

٨٣- محمد عبد القادر أبو فارس، النظام السياسي في الإسلام، الاتحاد الإسلامي للمنظمات الطلابية، الكويت، الكويت، ١٩٨٤م.

٨٤- محمد عبدالله دراز، دستور الأخلاق في الإسلام، مؤسسة الرسالة، القاهرة، مصر، ١٩٧٣م.

٨٥- محمد عطية الابراشي، التربية الإسلامية وفلاسفتها، عيسى البابي الحلبي، القاهرة، مصر، ١٩٦٩م.

٨٦- محمد علي قطب، أولادنا في ضوء التربية الإسلامية، مكتبة القرآن، القاهرة، مصر، ١٩٨٣م.

٨٧- محمد فاضل الجمالي، تربية الإنسان الجديد، الدار العربية للكتاب، تونس، تونس، ١٩٨١م.

٨٨- محمد فاضل الجمالي، نحو توحيد الفكر التربوي في العالم الإسلامي، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٧٢م.

٨٩- محمد فاضل الجمالي، آفاق التربية الحديثة في البلاد النّامية، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٦٨م.

٩٠- محمد كرد علي، الإدارة الإسلامية في عز العرب، مطبعة مصر، القاهرة، مصر، ١٩٣٤م.

٩١- محمد المبارك، الإسلام والفكر العلمي، دار الفكر، بيروت، لبنان، ١٩٧٨م.

٩٢- محمد يوسف موسى، نظام الحكم في الإسلام، دار المعرفة، القاهرة، مصر، ط٢، ١٩٦٤م.

٩٣- محمود الحاج قاسم، الطب الوقائي النبوي، دار المعرفة، الموصل، العراق، ١٩٨٨م.

٩٤- محمود شيث خطاب، الرسول القائد، دار القلم، القاهرة، مصر، ١٩٦٤م.

٩٥- محمود شيث خطاب، بين العقيدة والقيادة، دار الفكر، بيروت، لبنان، ١٩٧٢م.

٩٦- محمود شيت خطاب، الفاروق القائد، دار الحياة، بيروت، لبنان، ١٩٧٢م.

٩٧- مصطفى أحمد الزرقا، المدخل الفقهي العام، مطبعة جامعة دمشق، دمشق، سوريا، ط٧، ١٩٦١.

٩٨- مصطفى الخالدي، التبشير والاستعمار في البلاد العربية، المكتبة العصرية، صيدا، لبنان، ١٩٧٤م.

٩٩- مصطفى الرافعي، الإسلام ومشكلات العصر، دار الكتب اللبناني، بيروت، لبنان، ١٩٧٢م.

١٠٠- مصطفى عبد الواحد، المجتمع الإسلامي، دار الجيل، بيروت،، لبنان، ط٢، ١٩٩٤م.

١٠١- موريس بوكاي، ما أصل الإنسان مترجم، مكتب التربية العربي لدول الخليج، الرياض السعودية، ١٩٨٥م.

١٠٢- وهبة الزحيلي، أثر الحرب في الفقه الإسلامي، دار الفكر، دمشق، سوريا، ١٣٨٢هـ.

١٠٣- يوسف القرضاوي، الحل الاسلامي، مؤسسة الرسالة، بيروت لبنان، ط١٤، ١٩٩٣م.

١٠٤- يوسف القرضاوي، الخصائص العامة للإسلام، مكتبة وهبة، القاهرة، مصر، ١٩٧٧م.

١٠٥- يوسف القرضاوي، الحياة الربانية والعلم، دار الفرقان، عمان، الأردن، ١٩٩٦م.

١٠٦- يوسف القرضاوي، الحلال والحرام في الإسلام، الاتحاد العالمي للمنظمات الطلابية، عمان، الأردن، ١٩٧٧م.

١٠٧- يوسف القرضاوي، الرسول والعلم، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ١٩٩٥م.

١٠٨- يوسف القرضاوي، فقه الزكاة، دار الإرشاد، بيروت، لبنان، ١٩٩٥م.

١٠٩- يوسف القرضاوي، المبشرات بانتصار الإسلام، دار الفرقان، عمان، الأردن، ١٩٩٦م.

١١٠- يوسف القرضاوي، الإيمان والحياة، مكتبة وهبه، القاهرة، مصر، ١٩٧٣.